

بَدَائِعُ الزُّهُورِ
فِي وَقَائِعِ الدُّهُورِ



وفي يوم الجمعة ثاني عشره جاءت الأخبار بأن ابن عثمان أرسل قاصدا آخر مطرا على جرائد الخيل ، فلما وصل الى الصالحية بات بها تلك الليلة فسرق له من تحت رأسه بقجة فيها فمائل القاصد وبعض مبلغ ، ومن جملة ذلك مطالعة ابن عثمان الى السلطان . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وقيل انه قبض على لحيته من شدة غضبه ، وعين في الوقت والساعة بابا الى شيخ العرب أحمد بن بقر وعلى يده مراسيم بأن يفحص على من أخذ بقجة هذا القاصد من العربان ، وان ضاعت مطالعة ابن عثمان التي في البقجة كانت روحه قبالة ذلك . فتوجه اليه البابا ، وأشيع فيما بعد بأن شيخ العرب قبض على من أخذ بقجة القاصد وأعيد اليه ما سرق له بالتام من يومه . وقيل ان السلطان حلف بحياة رأسه ان لم يحضر شيخ العرب أحمد بن بقر بهذه البقجة بجميع ما فيها والا توسط الأمير أحمد في ثيابه ... واستمر الأمر على ذلك حتى يظهر أمر البقجة .

ويقرب من هذه الواقعة ما اتفق في دولة الملك الظاهر جقمق رحمة الله عليه . وذلك أن في سنة ثمان وأربعين وثمانمائة حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند شاه روخ بن تمرلنك ، فلما حضر أنزله في مكان بالقرب من بين القصرين . وكان شاه روخ أرسل الي الملك الظاهر على يد هذا القاصد مقدمة حافلة ، فلما طالع القاصد الى القلعة أدخله السلطان الى البحرة ، فأبطأ عند السلطان ، فأشيع في القلعة أن السلطان قد قبض على القاصد ، فنزلت الممالك الجلبان من الطباق وتوجهوا الى المكان الذي نزل به القاصد فنهبوا كل ما كان فيه . والتف عليهم السواد الأعظم من العوام فلم يبقوا للقاصد شيئا ، وأخذوا المقدمة التي كانت للسلطان حتى أخذوا خيوله .

ولما بلغ الملك الظاهر ذلك تنف لحيته بيده ورسم لحاجب الحجاب وقراجا الوالى بأن يدركوا رد الناس عن النهب ، فنزلوا من القلعة على حمية فلم يردوا من النهب الا بعض شيء ، وراحت على من راح . فقبض الوالى على جماعة كثيرة من العوام وضربهم بالمقارع ، وشيء قطع أيديهم ، وكادت القاهرة أن تخرب في ذلك اليوم لهذه الواقعة . ثم ان الملك الظاهر بعث يعتذر الى القاصد مما جرى وأن ذلك من غير علمه ، ثم أرسل الى القاصد عشرة آلاف دينار أكثر مما نهب له ، وصار القاصد كلما شق من القاهرة بسبه جماعة من العوام ويهدلونه ، وما قاسى خيرا من أهل مصر .

وفي يوم السبت ثالث عشره فيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن شخصا يهوديا يقال له خضير ، وكان بالصليية ، وهو يدعى الطب ، فتوجه الى عليل من أولاد الناس فوصف له حقنة ، فلما احتقن مات عقيب الحقنة بيومين . فقبضوا على ذلك اليهودي وتوجهوا به الى شاد الشراب خاناه ، فقيل انه من خوفه قصد أن يسلم ، ثم رجع الى دينه ، ولم يثبت عليه قتل ذلك العليل وادعى أن العليل كان قد ضربه الخمر على قلبه فمات عقيب الحقنة بأجله ، فلم يثبت على اليهودي قتله ، وقيل ان اليهودي غرم مبلغا له صورة ، وأدبوه ثم خلص من القتل وراح القتل في كيس العليل . وقد قيل في المعنى :

ليت شعري وللزمان خطوب

وبلاء يختص بالأحرار

هل ليت قضى عليه طيب

من كفيل أو آخذ بالشار

وفي يوم الأحد رابع عشره أرسل السلطان النفقة الى الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات المعينين الى التجريدة ، وذلك على جارى العادة .

وفي يوم الأحد المذكور كانت وفاة القطب العارف بالله تعالى الوالي الزاهد المجذوب الشيخ محمد بن زرعة الأحمدي البدرشيني رضي الله عنه . وكان من أعيان الأولياء ، وله كرامات خارقة ومكاشفات صادقة ، ومات وهو في عشر السبعين ، وكانت جنازته مشهودة وصلى عليه في جامع الشيخ سلطان شاه ودفن في زاويته التي بالقرب من قنطرة قديدار ، وكان معتقدا بالصلاح رضي الله عنه . وفي يوم الأربعاء سابع عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر المعين للتجريدة ، فأنفق عليهم جامكية جمادى الآخرة توسعة عليهم خارجا عما أنفق لهم من الأربعة أشهر المعجلة كما تقدم ذكر ذلك ، وأنفق عليهم علق ذلك الشهر ، وفرق عليهم الخيول التي كانت لهم في الديوان ... فجماعة من الممالك أخذوا لهم خيولا شيء فرس وشيء فرسين ، وجماعة منهم أخذوا لهم ثمن فرس خمسة آلاف درهم ، وقد بالغ السلطان في الاحسان اليهم وما أبقى في ذلك ممكنا ووعدهم بأن يصرف لهم ثمن اللحم أيضا عقيب ذلك ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من العسكر .

وفي يوم الخميس ثامن عشره أشيع موت شمس الدين بن عوض أستاذار الذخيرة الشريفة وغير ذلك من الوظائف السنية . وهو محمد بن أحمد بن عوض ، وأصلهم فلاحون من منية مسير . وكان شمس الدين هذا في مبتدأ أمره فقيرا جدا فباشر ديوان جماعة من الأمراء المقدمين ، منهم الأمين أربك الخازندار والأمير أزدمر الدوادار وغير ذلك من الأمراء ، ثم راج أمره في دولة الأشرف قانصوه الغوري وباشر ديوان السلطان ، وصار أستاذار الذخيرة ، وابنه شرف الدين مستوفي على الخزائن الشريفة ، وابنه فخر الدين مباشر عند الأمين طومان باي الدوادار ، فتلاعبت به الدنيا لكثرة

هجرته وركب فيها في غير سرجه ، فأخذ في أسباب المرافعات في المباشرين وأعيان الناس حتى ضجت منه الأفلاك والأملالك . وكان انفراد بالسلطان وعول عليه ، فأخذه الله تعالى من الجانب الذي كان يأمن اليه ، فتغير خاطر السلطان عليه وقبض عليه كما تقدم ذكر ذلك ، فتسلمه الزيني بركات بن موسى على مائة وخمسين ألف دينار غير ستين ألف أردب شعير . فلما تسلمه شرع يعذبه بأنواع العذاب من ضرب مقارع وعصره في أكعابه وأصدافه هو وولده شرف الدين ، وصار ابن عوض يقاسي ذلك العذاب الأليم ولم يرد من المال الذي قرر عليه سوى قدر عديم ، فاستمر تحت العقوبة الى أن مات وولى عمره وفات . فمات وهو في بيت الوالي على حصير والحديد في عنقه ، فما فكوه من عنقه حتى مات شر موتة « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » فلما مات في بيت الوالي حمل الى داره فغسل وكفن ولم يش له أحد في جنازة ، وفي ذلك عبرة لمن يعتل ، وقد قيل في المعنى :

آلا انما الدنيا كمثل أراكاة

إذا اخضر منها جانب جف جانب

هي الدار ما الآمال الا فجائع

عليها ولا اللذات الا مصائب

فكم سحت بالأمس عين قريرة

وقرت عيون دمعها اليوم ساكب

فلا تكتحل عينك فيها بعبرة

على ذاهب منها فانك ذاهب

وكان سبب نكبة ابن عوض قيل وقع بينه وبين الأمير خاير بيك كاشف الغريبة من أجل ابن جميل أحد مشايخ الغريبة ، فطلع خاير بيك وشكا ابن عوض الى السلطان ، وبالن في شكواه حتى غير خاطر السلطان عليه . وقيل ان خاير بيك قال :

أنا أثبت في جهة ابن عوض مائة وخمسين ألف دينار .

وفي يوم الخميس المقدم ذكره صنع السلطان وليمة حافلة بالمقياس . واجتمع بها القضاة الأربعة وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك ، ومد هناك الأسطة الحافلة ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة . والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل .

وفي سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالى في النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعا دفعة واحدة ، فعد ذلك من النواذر .

وفي يوم الاثنين ثانی عشرين حضر الى الأبواب الشريفة الأمير طومان باي الدوادار ، وكان له مدة وهو مسافر في الصعيد بسبب ضم المغل .

فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله الى الجيزة فنزل الى المقياس ولافاه من هناك ، وكذلك قاصد ابن عثمان . فلما طلع الى القلعة يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة في موكب مشهود ، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس ، واستمر على ذلك حتى دخل الى داره . وخلع عليه السلطان في ذلك اليوم فوقاني أخضر بطرزي يلبغاوى عريض . ومشيت الأفيال وهي مزينة قدامه في ذلك الموكب وشق من الصليبة .

. وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرين توفي الأمير ماماي جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف ، وكان رئيسا حشما جميل الهيئة قلب الأذى بين الأمراء ، ومات وهو في عشر الستين ، وقيل أصله من مماليك الظاهر خشقدم من كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباي من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباي ومن مماليكه ، فلما بلغ السلطان

وفاته نزل وصلى عليه ، وكانت جنازته مشهودة رحمه الله تعالى عليه

وفي يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك ، أوفى بعد الظهر ، وعلق الستر على شباك القصر الذي أنشأه السلطان على بسطة المقياس ، وقد أوفى الله الست عشرة ذراعا وأصبعين من سبع عشرة ، ووافق ذلك ثاني عشرين مسرى ، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام ، وكانت الناس بسببه في غاية الاضطراب .

وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه ، الموافق لثالث عشرين مسرى ، فتح السد وكان يوما مشهودا قل أن يقع مثله في الفتك والفرجة ، ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فكان له في ذلك موكب حافل ، وخلع عليه السلطان فوقاني أخضر بطرزي يلبغاوى عريض ، وحصل للناس غاة الجبر بكسر السد في ذلك اليوم . وقد قيل في المعنى :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة
سرت قلوب العالمين لبشره
ومن العجائب والغرائب أنه
جبرت قلوب المسلمين لكسره
وقبل في المعنى أيضا :

أرى نيل مصر قد غدا يوم كسره
إذا رام جريا في الخليج تقنطرا
ولكن بعد الكسر زاد تجبرا
وأفرط هجما في الصرى وتجسرا

ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الثالث من فتح السد زاد الله في النيل المبارك إحدى عشرة أصبعا في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الخامس من

فتتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعا
من ثمانى عشرة ذراعا وذلك فى أواخر مسرى بعد
الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النواذر .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه خرج جماعة كثيرة
من الممالك السلطانية المعينين الى التجريدة ، وقد
رسم لهم السلطان بأن كل من انتهى شغله يخرج
ويسافر قبل الباش ، فخرجوا أفواجا أفواجا
واستمروا على ذلك فى كل يوم تخرج منهم جماعة
بعد جماعة .

وفى رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ،
فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع اليه الخليفة
والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر .

وفى يوم الخميس ثالثه خلع السلطان على يوسف
البدري الوزير كاملية مخمل أحمر بسمور ، وخلع
على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ،
وعلى مقدم الدولة ، خلع الاستمرار ، ونزلوا من
القلعة فى موكب حفل ، حتى رجت لهم القاهرة فى
ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس المذكور أشيع أن السلطان
قبض على جاني بيك الأستاذار الذى كان دوادار
الأمير طراباى ، وكان السلطان ندبه بأن يتكلم فى
الأستادارية نيابة عن الأمير طومان باى الدوادار ،
فخلع عليه ، فلما تكلم فى الأستادارية أظهر الظلم
والجور ، وصار لا يراعى من الأنام خليلا ، فعادى
سائر الأمراء والعسكر قاطبة بسبب الحمايات
وأمر البلاد . فكان يرسم على الأمراء الطبلخانات
والعشراوات بسبب الحماية ، ويرسل الرسل الغلاظ
الشداد الى بيوت الأمراء المقدمين ويطلبهم بالحماية
الطلب العسف ، حتى ضج منه الأمراء والعسكر .
فكان يأخذ حماية سنة معجلا قبل أن يطلع النيل

وكذلك الشياخة ، وكان السلطان قربه أولا وصار
لا يقبل فيه شكوى ، وكان ذلك من أكبر أسباب
الفساد فى حقه ، فلا زال بعض أعدائه يتكلمون فى
حقه عند السلطان حتى غيروا خاطره عليه بالكلية ،
فانقلب عليه كأنه ما يعرفه قط . فلما رسم عليه
اتدب الى حسابه نور الدين على البرماوى
البرددار بالخدم الشريفة وجماعة من المباشرين ،
فدققوا عليه الحساب وحاسبوه على القتل والنقير
والقطمير والقليل والكثير ، حتى قيل حاسبوه على
ما كان يدخل اليه من الضيافات والتقادم وغير
ذلك ، فقيل بقوا عليه ثلاثة وثلاثين ألف دينار على
ما قيل ، واستمر فى الترسيم حتى يكون من أمره
ما يكون .

وفى يوم الأحد سادسه جلس السلطان بالميدان
وحضر عنده قاصد ابن عثمان وسائر الأمراء
المقدمين ، فجلس قاصد ابن عثمان فوق أمير كبير
سودون العجمى باذن السلطان له ، عند السلطان
فى المقعد ، وساق قدامه الرماحة وهم لابسون
الأحمر كما يفعلون فى لعب الرمح عند دوران
المحمل فى رجب ، وكان لهم مدة طويلة وهم
يدمنون فى لعب الرمح كما جرت به العادة القديمة ،
فكان المعلم تمر الحسنى أحد المقدمين الألف ،
ويعرف بالزردكاش أيضا ، وأما الباشات الأربعة
وهم الأمير كرتباى بن قصروه والى القاهرة والأمير
أزبك بن دولاتبى والأمير اينال الأشقر الأشرفى
والأمير مصرباى الأبو بكرى ، فأظهروا فى لعب
الرمح الفنون الغريبة حتى تحير القاصد من ذلك
وتعجب غاية العجب ، ثم فى أواخر السوق نزل
المعلم والباشات الأربعة والأربعون فارسا وباسوا
الأرض للسلطان ، وقد أحدث ذلك الأشرف
قايتباى لما كان يسوق فى دوران المحمل فكان

ينزل عن فرسه ويبوس الأرض للسلطان خشقدم في وسط الرمله ، وكان السلطان قصد سوق الرماحة قدام القاصد عدا حتى يريه فروسية عسكر مصر ، وكان ذلك عين الصواب ، فاجتمع في الميدان في ذلك اليوم الجهم الغفير من الخلائق ، وكان يوما مشهودا ، فساق الرماحة في ذلك اليوم مرتين ، ثم لعب بعد ذلك جماعة من المماليك خصمانية في الرمح ، والقاصد ينظر اليهم ويتعجب من ذلك ، فلما انقضى أمر سوق الرماحة قام السلطان ودخل الى البحرة التي أنشأها في الميدان ، وأضاف القاصد هناك هو والأمراء ومد لهم أسطة حافلة وأظهر أنواع العظمة في ذلك اليوم الى الغاية ، ثم خلع على قاصد ابن عثمان خلعة سنية وآذن له في السفر صحبة العسكر ، ثم بدا للسلطان بأن يعوق قاصد ابن عثمان الى أن يحضر اينال باى دوا دار سكين ، فلم يخرج صحبة العسكر كما أشيع قبل ذلك أمر سفره مع الأمراء ، ثم خلع السلطان في ذلك اليوم على الأمير تسر المعلم وأركبوه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وخلع على الباشات الأربعة كما جرت به العادة القديمة ، وقد جدد السلطان ذلك بعد ما كان قد نسي أمره من أيام الأشرف قايتباى ، فعد ذلك من محاسن السلطان .

وفي يوم الاثنين سابعه خرج الأمراء المعينون للتجريدة وهم الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر المنصور والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين والأمير أبرك مملوك السلطان أحد الأمراء المقدمين وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، فكان لهم يوم مشهود . واستمرت الأطلاب تنسحب من اشراق الشمس الى قريب الظهر ، فأظهروا غاية العظمة في ذلك اليوم في

تزخرف الأطلاب ، حتى ارتجت لهم القاهرة في ذلك اليوم ، واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وكان طلب أمير آخور كبير غاية في الحسن ما أبقي فيه ممكنا ، وكذلك بقبة الأمراء ، ثم ان السلطان خلع على أمير آخور خلعة السفر ونزل من القلعة في موكب حفل وصحبته الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين ، فاستبروا صحبته حتى نزل في الوطاق بالريدانية .

وفي يوم الثلاثاء ثامنه كان أول يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية ، سنة عشرين وتسعمائة الخراجية وكان هذا اليوم عند الأقباط له شأن عظيم وكان يقع لهم فيه أخبار غريبة . وهو أول الأيام من توت من أول الشهور القبطية .

وفي يوم الأربعاء تاسعه أشيع بين الناس أن السلطان رسم بتسليم جاني بيك الأستاذار الى الزينى بركات بن موسى ليعاقبه حتى يستخلص منه الأموال التي قررت عليه . وكان السلطان قرر عليه ثلاثة وثلاثين ألف دينار فامتنع جاني بيك من ذلك وتكلم بكلام يابس . فلما بلغ السلطان ذلك حنق منه ورسم بتسليمه الى الزينى بركات بن موسى .

وفي يوم الخميس عاشره أشيع بين الناس أن سليم شاه بن عثمان ملك الروم قد انتصر على الصفوى وملك منه أرزنكان وتبريز ، فلم يشق السلطان بهذا الخبر وثبت حتى ترد عليه الأخبار الصحيحة فيدق الكوسات ، ولكن سر السلطان بهذه الاشاعة وأمر بأن تقرأ عدة ختمات في أماكن من الجوامع ، فقرأ في مقام الامام الشافعى رضى الله عنه سبعون ختمة بالجيرثية ، وقرأ في مقام الامام الليث بن سعد رضى الله عنه عدة ختمات ، وكذلك في جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وفي جامع أحمد بن طولون ، وفي الجامع الأزهر

وغير ذلك من الجوامع التي بالقاهرة ، وارسل لكل جامع من الجوامع مبلغا بسبب القراء ، وعمل أسمطة للفقراء فعد ذلك من محاسن السلطان .

وفي يوم الاثنين رابع عشره نزل الزينى بركات ابن موسى من القلعة وقدامه عبد من عبيد ابن عوض وقد رسم السلطان بتوسيطه ، وسبب ذلك أنه قيل عنه كان يعرف ذخائر أستاذه شمس الدين ابن عوض ولم يقر بمكان فيه المال ، وعاقبه ابن موسى وسجنه في المقشرة مدة ولم يقر بشيء من المال ، فحقق منه الزينى بركات فشاور عليه السلطان فرسم بتوسيطه ، فوسطه عند قنطرة الحاجب ولم يقر بشيء من المال الذى كان يعلم به . فراح ظلما ان علم بالمال أو لم يعلم .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو مصر العتيقة بعد أن صلى صلاة الفجر ، فلما وصل الى قم السد نزل من هناك فى مراكب قدمت اليه ، وكان صحبتة جماعة من الأمراء منهم الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار والأمير أنص باى حاجب الحجاب ، والأمير تمر أحد المقدمين والأمير علان الدوادار الثانى أحد المقدمين ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، وجماعة كثيرة من خاصكية ، فتوجه الى ير الجيزة واستمر حادرا من هناك الى بولاق فطلع الى البرابخية ، وكان القاضى كاتب السر محمود بن أجا عزم عليه هناك ، فلما استقر هناك هو والأمراء أحضر كاتب السر بين يدى السلطان مدة عظيمة ما أبقى فيها ممكنا وأتبعها بطوارى حفلة ما بين حلوى وفاكهة ومخبوز وغير ذلك من المأكول الفاخرة ، فبات السلطان عنده تلك الليلة فى البرابخية ، فكان سماء العشاء أعظم من سماء الغداء ، وقيل أحضر فى الطارى

بعد الظهر أربعين خروفا شوى وقيل ثلاثين وخمسين جفصه فيها جذابة ، ثم مد له فى اليوم الثانى سماءا للغداء فقيل ان القاضى كاتب السر صرف على تلك المدات فوق الألف دينار ، فلما تغدى السلطان عنده نزل هو والأمراء فى المراكب وتوجه الى المقياس فأقام به الى أواخر النهار . ثم عدى من هناك وطلع الى القلعة ، فلما طلع أرسل اليه القاضى كاتب السر مقدمة حفلة ما بين سمور ووشق وسنجاب وصوف وجوخ وبعلىكى وغير ذلك ، وقيل أرسل اليه ذهب عين ما علم قدره ، ومملوكا جركسيا مليحا . قلت والقاضى كاتب السر هذا هو آخر رؤساء مصر من المباشرين .

وفي يوم الجمعة ثامن عشره وقعت نادرة غريبة وهى أن قاصد ابن عثمان الثانى الذى جاء وزعم أن العرب سرقوا بقجته من تحت رأسه وفيها مطالعة ابن عثمان وتكذد السلطان بسبب ذلك ، فلما حضر بين يدى السلطان صار يعتذر له مما سرق له ، فأقام فى مصر أياما فأرسله السلطان الى القاصد الذى جاء فى الأول فأنكر أمره وقال ان ابن عثمان لم يرسله وأن هذا القاصد لم يكن من جماعة ابن عثمان ، فاستمر بمصر الى أن طلب الاذن من السلطان فى العود الى بلاده فأذن له فى ذلك وأنعم عليه بمال له صورة ، فلما خرج وسافر وقع بينه وبين رفيقه بسبب المبلغ الذى حصل له فلم يعط رفيقه منه شيئا ، فلما وقع بينهما رجوع رفيقه ونم عليه عند السلطان بأن هذا داسوس من عند حسن بن أحمد بيك بن عثمان الذى حضر أبوه الى مصر ومات بها بالطاعون كما تقدم ذكر ذلك ، وهو الآن عند الصفوى مقيم وأرسل هـ . القاصد ليستفهم الأخبار بما جرى فى مصر . وهذا القاصد نصب على النواب وأخذ منهم مبلغا له صورة ، فلما تحقق السلطان ذلك رسم

القاصد من الطريق ، فلما حضر بين يدي السلطان قصد أن يشنقه ثم سلمه الى الوالى فشكه فى الحديد ونزل به ماشيا على أقدامه والمشاعلية تنادى عليه هذا جزاء من يكذب على الملوك ، ثم توجه به الى المقشرة فسجن بها ، وقيل رسم السلطان الموالى بأن يعاقبه ويستخلص منه ما كان أخذه من النواب من المبلغ والتقدم التى دخلت عليه .

وفى يوم السبت تاسع عشره نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، وأقام هناك الى يوم الأحد أواخر النهار وانشرح الى الغاية . وفى يوم الاثنين حادى عشرينه أذن السلطان الى قاصد ابن عثمان بالسفر ، وهو الذى حضر أولا ، وكان من أمرائه المقدمين قيل انه أمير آخور كبير عند ابن عثمان ، فلما طلع رسم السلطان بأن يزين باب الزردخاناه بالسلاح والصناجق ، وكذلك باب القلعة وباب سلم المدرج ، فلما طلع القاصد عمل السلطان الموكب بالحوش وحضر الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء ، وكان الموكب حافلا ، ثم خلع السلطان على القاصد خلعة معظمة وهى كاملية جر ذهب شغل القاعة بسمور عال ، وفوقها فوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب ، وخلع على من معه من جماعة ابن عثمان سلاريات صوف بسمور عال ، ونزل القاصد من القلعة فى موكب حافل وصحبته الرعوس النوب ، ثم أخذ فى أسباب الخروج الى السفر .

وفى ذلك اليوم المقدم ذكره حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير اينال باى دودار سكين الذى كان توجه الى سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ،

وقد توجه اليه بعد مجيء أقبای الطويل ، فلما قابل ابن عثمان أكرمه وأقبل عليه وميزه على أقبای واستحسن كلامه فى رد الجواب وشكره على أقبای ، فلما قصد التوجه الى مصر خلع عليه خلعة سنية وأنعم عليه بمال له صورة ، وكتب معه مطالعة للسلطان ونعته فيها يأنعات عظيمة وبالغ فى تعظيمه ، وقيل ان ابن عثمان أظهر فى مكاتبتة بعض نفاظم بكثرة عساكره وشدة بأسه ، فلم يلتفت السلطان الى شىء من ذلك .

وفى شعبان كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فسلموا على السلطان وعادوا الى بيوتهم .

وفى يوم السبت رابعه أشيع بين الناس أن قد حضر ساع ، وأخبر بأن سليم شاه ابن عثمان قد انتصر على الصفوى وملك بعض ضياع بديار بكر وأشيع أنه ملك تبريز أيضا ، فعند ذلك ثبت السلطان ولم يدق الكوسات حتى ترد عليه الأخبار الصحيحة فى ذلك ، وفى هذه الأيام كثر القيل والقال بين الناس بأن ابن عثمان قد أسر الصفوى ووضعه فى حديد وطاق به فى البلاد ، ولم تصح هذه الأخبار بل اشاعات بين الناس .

وفى يوم الاثنين سادسه حضر سيف جان ن طرابلس ، وكان أسله من ممالك الأشرف ديباى وكان لا بأس به .

وفى يوم الجمعة عاشر شعبان رسم السلطان بفتح سد خليج أبى المنجا ، ووافق ذلك ثانى بابيه وقد تأخر فتحه عن العادة الى اليوم وفات أوان ميعاد فتحه . وكان النيل يومئذ فى خمس عشرة أصبعا من عشرين ذراعا وقد حصل به غاية المنافع وعم البلاد قاطبة ، واستمر النيل فى ثبات

على ما ذكرناه الى أواخر بابه لم يتهدد منه شيء .
وفي ذلك اليوم وقعت حادثة مهولة ، وذلك أن
في يوم فتح سد أبى المنجا توجه الأمير كرتباى
والى القاهرة الى فتحه ، فلما توجه الى هناك
أوسق مركبين فيهما مطابق فيها أكل حلوى وفاكهة
وكان في المركبين شيء من الفرش والقماش
والأواني ، فلما وصلا الى قناطر أبى المنجا قوى
عليهما تيار الماء ، فانقلب هذان المركبان بما
فيهما مما ذكرناه فغرقا بكل ما كان فيهما جميعا
وغرق للوالى مملوك من مماليكه الخاص وبعض
غلمان ، وكان ذلك اليوم مهولا وما جرى على
الوالى في ذلك اليوم خير .

وفي يوم الأربعاء خامس عشر شعبان ، الموافق
لسابع بابه ، فيه ثبت النيل المبارك على خمس عشرة
أصبعا من عشرين ذراعا ، وكان هذا النيل المبارك
أزيد من نيل السنة الخالية باحدى عشرة أصبعا .

وفي أثناء هذا الشهر نزل السلطان الى قبة يشبك
التي بالمطرية وبات بها ، وكانت ليلة مقمرة ، فمد
له الزينى بركات بن موسى هناك مدات حافلة ،
وما أبقى في ذلك ممكنا من أطعمة فاخرة وحلوى
 وفاكهة وسمك وخرفان شوى وغير ذلك . وحضر
عند السلطان مغانى وأرباب آلات وانشرح هناك
الى الغاية ، وأقام في القبة يومين ، وكانت الملقاة
معمرة بالماء وهى في غاية البهجة ، ثم طلع الى القلعة
بعد العصر .

وفي هذا الشهر كان الأمير خاير بيك الخازندار
مريضا على خطة وأشيع موته غير ما مرة ، واستمر
على ذلك وهو مريض ملازم للفراش والاشاعات
قائمة بموته في كل يوم .

وفي يوم الخميس كان مستهل شهر رمضان

فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ،
فجلس السلطان بالميدان ، وطلع الوزير يوسف
البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب ،
وعرضا اللحم والدقيق والخبز والغنم والبقر على
السلطان كما جرت به العادة وهو مزفوف على
رؤوس الحمالين ، فخلع السلطان عليهما وخلع
على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الخلع
السنية ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وأما في ليلة رؤية الهلال فحضر القضاة الأربعة
بالمدرسة المنصورية ، وحضر الزينى بركات بن
موسى المحتسب ، فلما ثبتت رؤية الهلال وانقض
المجلس ، ركب الزينى بركات بن موسى من هناك
قتلاقيه الفوانيس الأكرة والمجانيق والمشاعل
والشموع الموقودة ، فلم يحص ذلك لكثرتة ،
ووقدوا له الشموع على الدكاكين . وعلموا له
التناير والأحمال الموقودة بالقناديل من الأمشاطيين
الى سوق مرجوش الى الخشابين الى سويقة اللبن
الى عند بيته ، فارتجت له القاهرة في تلك الليلة ،
وكانت من الليالى المشهودة ، وأطلقوا له مجامر
بالبخور بطول الطريق ، وكان ذلك يعادل المواكب
السلطانية ، وكان الزينى بركات بن موسى محببا
لناس قاطبة فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان
له سعد خارق لم يقع لغيره من الناس الا القليل ،
ولا سيما ما اجتمع فيه من الوظائف السنية ما لا
اجتمع في أحد من الأعيان قبله منها الحسبة الشريفة
واستادارية الذخيرة وغير ذلك من الوظائف
والتحدث على الجهات من البلاد السلطانية .

وفي يوم السبت ثلثه جاءت الأخبار من بلاد
الشرق صعبة السعاة من بعض النواب بأن سليم
شاه ابن عثمان سلطان الروم وقع بينه وبين شاه
اسماعيل الصفوى وقعة مهولة تشيب منها النواصى ،

وقتل من عسكر ابن عثمان نحو من ثلاثين ألفا ،
وقيل نحو ستين ألفا ، وقتل مثل ذلك من عسكر
الصفوى ، فكان بينهما من الحروب المهولة ما يطول
شرحه ، وكان ذلك فى سادس رجب سنة عشرين ،
وقيل قتل من أمراء ابن عثمان اثنا عشر أميرا
مقدم ألف ، وقتل من عسكر الصفوى أضعاف
ذلك ، وقيل كانت هذه الواقعة بالقرب من تبريز
العجم ، وكانت الكسرة أولا على ابن عثمان وآخر
الأمر أن الصفوى انكسر كسرة قوية ، وقتل غالب
عسكره وانهزم الباقون ولم ينج منهم الا القليل ،
وأشيع أن الصفوى قد قتل فى المعركة ووجد تاجه
مرميا على الأرض ، وقد تواترت الأخبار بذلك
وقويت الاشاعات بقتله والله أعلم بحقيقة ذلك .

وأشيع أنه واصل عقيب ذلك عدة رءوس ممن
قتل من عسكر الصفوى من أعيان أمراءه وعسكره
وقد ملك ابن عثمان غالب بلاد الصفوى من ممالك
الشرق ، فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا
الخبر ، وكذلك الأمراء أخذوا حذرهم من ابن
عثمان ، وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث
منه بعد ذلك الى جهة بلاد السلطان .

وفى يوم الجمعة تاسع شهر رمضان كانت وفاة
الأمير خاير بيك الخازندار الكبير ، أحد الأمراء
المقدمين وصهر السلطان زوج أخته فديما ،
فأخرجت جنازته من بيته الذى عند جامع الأزهر ،
وتوجهوا بنعشه الى سبيل المؤمنين فنزل السلطان
له وحضر الخليفة وصلى عليه . وكانت جنازته
حافلة ومشت فيها قضاة القضاة والأمراء المقدمون
وأعيان المباشرين وغير ذلك من الأعيان ، ودفن فى
تربيته التى أنشأها بالصحراء ، وكان أصله من
مماليك الظاهر خشقدم ، وكان متزوجا بأخت
السلطان قانصوه الغورى من حين كان جمدارا ،
فلما تسلطن الغورى أنعم عليه بامرء عشرة ، ثم

بقى خازندارا كبيرا عوضا عن عبد اللطيف الزمام
بحكم وفاته ، ثم صار أمين السلطان على خزائن
الأموال وغيرها ، وصار لا يقضى أمر من أمور
المملكة دون علمه ، ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة
ألف فتزايدت عظمته وتضاعفت حرمة ، ونال من
العز والعظمة ما لا ناله أغاته الأمير خاير بيك
الخازندار مملوك الظاهر خشقدم فى دولة أستاذه
فى أيام خازنداريته . ولكن كان خاير بيك هذا عنده
رهج وخفة وبادرة بسفاهة مع حدة زائدة ، وكان
إذا رسم السلطان بأمر لا يراجع فيه الا الأمير خاير
بيك ولا يكون الا ما يقوله الأمير خاير بيك ، وكان
له محاسن ومساوىء ، وكان له الادلال الزائد على
السلطان ، وكان عنده من المقربين . وتوفى الأمير
خاير بيك وله من العمر نحو ثمانين سنة ، ولما
مات ظهر له من الموجود أشياء كثيرة ما بين مال
وقماش وبرك وسلاح وتحف وحيول وبغال وجمال
 وغير ذلك من الموجود الحافل ، وقد تكلموا على
موجوده بأشياء كثيرة لكننى لم أقف على صحتها
 فلم أوردتها هنا خوف الاعتراض على فى ذلك ،
وهذا القدر كاف هنا .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل السلطان الى
مدرسته ، وعرض الأيتام والصوفية الذين بها ،
ورسم للأيتام بكسوة ، وأقام هناك الى قريب
الظهر ، ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الخميس خامس عشره حضر الى
الأبواب الشريفة مامى السلحدار أحد الأمراء
العشراوات ، الذى كان توجه للشام بسبب تزويج
ابن السلطان بنت سيماى نائب الشام ، فتوجه
الى الشام بالمهر وعقد العقد لابن السلطان فتعلل
نائب الشام وقال أنا ابنتى صغيرة عمرها ست سنين
لم تستحق للزواج ، وكان له ابنة أكبر من هذه

توفيت في السنة الخالية لما وقع الطعن بالشام وكانت هي المفصودة للزواج ، فلما ماتت قصد السلطان أن يعقد لابنه على نيت الصفري فلم يوافق نائب الشام على ذلك وتعلل بأنواع العلل ، فلما طلع الأمير ماماي الى بين يدي السلطان خلع عليه وعلى الخوارجا يونس العادلي ونزلا من القلعة في موكب حافل .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان الكسوة على العسكر مع الجامكية . ولما حضر الأمير ماماي الى القاهرة حضر صحبته من الناس ما لا يحصى من أهل حلب وغير ذلك من الناس ، فكان في هذا القفل من أهل حلب عدد كبير ، وسبب ذلك أن العسكر لما دخل الى حلب جرى على أهل حلب من مماليك السلطان الجليان ما لا خير فيه ، نزلوا في بيوتهم ، ونهبوا أمتعتهم ، وفسفوا في حريمهم وأولادهم وعيالهم ولم يسمعوا للياش ولا نائب حلب ، فوقع بين مماليك السلطان الجليان وبين مماليك نائب حلب فتنة مهولة وكادت حلب أن تخرب عن آخرها وهم أهلها بالجللاء منها ، وغضب نائب حلب ، وخرج من حلب الى الفضاء وأقام به بسبب مماليك السلطان الجليان فلم يسمعوا من كبير ولا صغير ، وأشيع بين الناس بأن قرقماس المقرئ قد قتل في هذه المعركة ، وقيل ان مماليك الأتايكي دولات باي هم الذين قتلوه ، فانه كان اتهم يقتل أستاذهم دولات باي بأنه قد أشغله ، والله أعلم بحقيقة ذلك ان كان قتل أم لا .

فلما جرى ذلك يحلب خشي غالب أهلها على عيالهم وأولادهم فأرسلوهم الى مصر صحبة ذلك القفل المقدم ذكره . واستمر أهل حلب مع المماليك الجليان في اضطراب زائد ، وربما يقع بسبب ذلك فتنة كبيرة بين الأمراء وبين مماليك

السلطان الذين هناك ، فان الأحوال مضطربة والأمور غير صالحة

وأما ما أشيع من الأخبار صحبة هذا القفل الذي حضر من حلب مما كان بين ابن عثمان وبين الصفوي من أمر هذه النصرة على الصفوي ، قيل ان في سادس رجب من هذه السنة وقع بين ابن عثمان وبين الصفوي وقعة مهولة بالقرب من تبريز ، فكسر الصفوي ابن عثمان أولا كسرة فوية وقتل من أمرائه الأعيان اثنا عشر أميراً مقدماً ألف غير الأمراء الذين دونهم ، وقتل من عسكره نحو من ثلاثين ألفاً وفيل أكثر من ذلك ، وكانت الكسرة على ابن عثمان أولاً . ثم ان ابن عثمان أحضر اثني عشر ألف رام بالبندق الرصاص وتلاقى مع الصفوي فكسر الصفوي كسرة فوية ، وقيل انه جرح وولى مهزوما فلم يعلم له خبر ، وقيل ان ابن عثمان أسر أمراء الصفوي وحز رقابهم وأرسلهم الى بلاد الروم ، فزيت له المدائن بالروم ، مدينة اسطنبول وغيرها من المدائن . وقيل قتل من عسكر الصفوي ما لا يحصى عددهم ، ثم ان ابن عثمان ملك تبريز بالأمان ، وكذلك قاشان وسيواس وغير ذلك من البلاد مما كان بيد الصفوي ، وخطب له باسمه بها على المنابر . وكانت هذه النصرة لسليم شاه ابن عثمان على غير القياس ولم يفع لأحد من أجداده مثل هذه النصرة قط ، والكلام في ذلك كثير ان صحت هذه الأخبار من أمر هذه النصرة .

وفي أثناء هذا الشهر توفي القاضي بدر الدين ابن الانبأبي كاتب جيش الشام رحمة الله عليه ، وقرر في وظيفته الشرفي يونس النابلسي الأستاذار كان ، وكان بدر الدين لا بأس به .

وفي يوم الجمعة سادس عشر شهر رمضان قلع السلطان البياض ولبس الصفوف ، ووافق ذلك

سابع هاتور القبطى ، وهى العادة القديمة فى لبس الصوف .

وفى يوم الأحد ثامن عشره توفى الناصرى محمد ابن قجق نديم السلطان ، وكان علامة فى ضرب الطنبورة عارفا بصنعة الأنعام ، وكان لطيف الذات عشير الناس ، فكانت جنازته حافلة ومشى فيها أعيان الناس ، حتى أعيان مغاوى البلد والآلاتية قاطبة فانه كان شيخهم ، وكان من المقربين عند السلطان .

وفى يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن المماليك السلطانية أثاروا بحلب فتنة مهولة وركبوا هناك على الأمراء وطردوهم عن حلب وقالوا لهم : أرسلوا قولوا للسلطان ينفق علينا لكل مملوك خمسين دينارا كما أنفق على ممالكه الجلبان قبل ذلك ، وأشاعوا عنهم أخبارا شنيعة الى الغاية ، وأن الأحوال مضطربة بحلب والأمور غير صالحة . فتأكد السلطان لهذا الخبر الى الغاية ، وضرب مشورة هو والأمراء بسبب هذه الحادثة .

وقيل انه عين الأمير اينال باى دوا دار سكين بأن يتوجه الى حلب ، ويكشف عن صحة هذه الأخبار الشنيعة ويطلع السلطان بذلك . وقد كثر القيل والقال بين الناس بسبب ذلك

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرينه ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وفرقت الخلع ، الصرر على القضاة ومشايخ العلم ، وكان ختما حافلا بالمقعد الذى بالحوش السلطاني .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بوفاة الأمير شاهين الجمالى شيخ الحرم النبوى ، وكان أصله من ممالك الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص علاء الدين بن الامام خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة على رءوس الجمالين ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الخميس المذكور حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مطالعة للسلطان تتضمن أخبار هذه النصره التى وقعت له على اسماعيل شاه الصفوى . وذلك أن فى يوم الأربعاء سادس رجب الفرد سنة عشرين وتسعمائة تلاقى عسكر سليم شاه ابن عثمان مع عسكر اسماعيل شاه الصفوى على مكان بالقرب من تبريز يقال له اسكندران ، فكان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وتذهل العقول عند سماعها من كل دان وقاص ، فصيرت الرءوس عن الأجساد طائرة ، وطفشت العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى أجرى الدماء منهم كالسيل ، واستمر الحرب ثائرا حتى حال بينهما الليل ، فسك القوم من خمر ذلك الحرب ، وتراقصت الخيول على وقع السيوف الداخلة فى الضرب ، فقتل من العسكرين ما لا يحصى عددا ، وانهمز الباقون وتبدد شملهم بددا ، فيالها من ساعة مهولة ، لا ترضى الله ولا رسوله ، فوقعت الكسرة على عساكر ابن عثمان أولا وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ، حتى قيل قتل من أمرائه سبعة عشر أميرا أصحاب صنائع ، وقتل من عسكره نحو النصف ، فلما عين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة كادت روحه أن تزهرق من شدة فهره ، ثم قام على عسكره وحضهم على القتال فقوى عزم عساكر الروم على القتال وأثوا بالصارم البتار ، وقال لسان حالهم الموت فى طلب الثأر ، خير من الحياة فى العار ، فوثبوا على عساكر الصفوى وثوب الليث الهمام ، وبايعوا أنفسهم فى

بلوغ المرام ، وقيل ان ابن عثمان كان في جاليش
عسكره انما عسر ألف رام بالبندق الرصاص ،
فلما زحفوا على عسكر الصفوى عنهم الدهوة ،
ولم يحملوا معهم غلوة ، فانكسر الصفوى وولى
مهزوما وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عساكر
الروم ، فيقال ان الصفوى جرح وهرب في نفر قليل
من عسكره ولم يثبت أنه قد قتل في المعركة كما
أشيع عنه فيما تقدم ، وقيل قتل من أمرائه جماعة
كثيرة منهم صاحب ديار بكر ويسمى سيحلى محمد
وأولاده ، وغير ذلك من أعيان عسكره وأمرائه
ما لا يحصى عددهم ، وكانت النصره لسليم شاه
ابن عثمان على الصفوى من النوادر الغريبة ،
كما يقال :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر
نم ان ابن عثمان حز رقاب من قتل من أمراء
الصفوى وأرسلها الى بلاده ، فطافوا بها هناك
وعلفت على أبواب مدائن الروم . ولم تقع مثل
هذه النصره لأحد من أجداد سليم شاه ابن عثمان ،
ولا لوالده السلطان أبى يزيد المعروف بيلدرم ابن
أورخان ، لما زحف تمرلنك كسره وأسره ووضع
في قفص من الحديد وصار يدخل به البلاد ويعجب
عليه ، فما طاق يلدرم ذلك فبلغ له فصا من الماس
فمات وهو في القفص الحديد وأمره مشهور .

ووقع لوالده السلطان أبى يزيد لما زحف على
البلاد السلطانية في أيام الأشرف قايتباى ، فكسر
الأشرف قايتباى عسكره ثلاث مرات ، وقتل من
عسكره ما لا يحصى عددهم ، ودخل بجماعة من
عسكره أسرى الى مصر في الحديد وصنّاجق أمرائه
منكوسة ، وحصل على عساكر الروم ما لا خير فيه .
فكان لسليم شاه سعد خارق بهذه النصره على
الصفوى ووقع له ما لا وقع لأبيه ولا لأجداده وهذا
أمر الهى .

فلما وقع لسليم شاه ذلك رجع الى بلاده ليشتى
بها ، وبعد الشتاء ما يعلم ما يكون بينه وبين
الصفوى من الحروب المهولة . فلما رحل ابن عثمان
جعل على تبريز نائباً من أمرائه وكذلك على البلاد
التي ملكها من أبدى الصفوى ، فاستتاب له بها
نواباً من أمرائه ثم رحل عن بلاد الصفوى .

فلما حضر قاصد سليم شاه ابن عثمان بين يدي
السلطان ، وقرئت مكاتبتة بحضرة الأمراء ، خلع
على القاصد الذى حضر بأخبار هذه النصره كاملية
مخمل أحمر كفوى بسمور عال من ملايسه ، ثم
نزل القاصد من القلعة ولم يرسم السلطان بدق
الكوسات بالقلعة ، ولم يناد في القاهرة بالزينة لأجل
هذه النصره ، ولم يعلم ما سبب ذلك . وأشيع عن
قرقماس المقرئ بأنه في قيد الحياة ، ولم يثبت
موته كما أشاعوا عنه بما تقدم من الاشاعات
الفاسدة .

وفي شوال كان مستهل الشهر يوم السبت ،
وكان ذلك اليوم عيد الفطر فخرج السلطان الى
صلاة العيد ، فصلى ثم خلع على الأمراء ومن له
عادة بالخلع السنية ، وكان موكب العيد حافلاً
كما جرت به العادة .

وفي يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على
الأمير اينال باى دودار سكين ، وأذن له بأن يتوجه
الى حلب بسبب رد الجواب على الأمراء والعسكر
السلطاني فيما أرسلوا يسألون فيه من أمر النفقة ،
وهي الخمسون ديناراً التي أثاروا الفتنة بحلب
بسببها ، وبهدلوا الباش قانى باى قرا أمير آخور
كبير ، وعين له القتل المماليك القرانصة والجلبان ،
وقالوا : « أنفق في السنة الخالية على ممالك
الجلبان لكل واحد منهم خمسون ديناراً ولم يعط

الممالك القرانصة شيئاً ، فمثل ما أنفق على ممالكه
ينفق علينا نحن أيضاً والا نتهب أسواق حلب !
فأرسل لهم السلطان الجواب عن ذلك بما تقتضيه
الآراء الشريفة ، فتوجه اينال باى بمراسيم شريفة
تقرأ على الأمراء والعسكر بحلب عن الجواب في
ذلك .

ثم ان السلطان بعد أن خلع على الأمير اينال باى
ورسم له بالسفر فعوقه عن السفر من بعد ذلك
أياماً لأمر أوجب ذلك مما عن له ، ثم سافر بعد
ذلك في العشرين من هذا الشهر ، وكذلك قاصد
ابن عثمان المقدم ذكره .

وفي اليوم المذكور خلع السلطان على قاصد ابن
عثمان الذي حضر بأخبار النصرة على الصفوى
فخلع عليه وأذن له بالعود الى بلاده وكتب له
الجواب بالتهنئة عن أمر هذه النصرة التي تمت .
ومن الحوادث أن السلطان أنشأ سوقاً بالقرب
من خان الخليلي يباع فيه الرقيق ، وأبطل السوق
القديم الذي كان يباع فيه الرقيق ، وصار العمل
على هذا السوق من يومئذ .

ومن النوادر الغريبة أن الأمير خاير بيك
الخازندار لما توفي رسم السلطان للأمير طومان باى
الدوادار والزيني بركات بن موسى المحتسب ، بأن
يتوليا ضبط موجود الأمير بيك الخازندار ،
فلما شرعا في ذلك ظهر له موجود يقرب من موجود
سلار الناصري نائب السلطنة كان ، ففقه له في
أول يوم من الذهب العين ثلاثة وثمانون ألف
دينار ، وزعم السلطان أنه لما حصل له التوعك في
عينه أودع عنده خمسمائة ألف دينار فلم يظهر
للسلطان منها شيء وخفيت تحت الأرض ولم يعلم
مكانها ، ومات خاير بيك عن غير وصية ولم يخلص
ذمته فيما عليه من حقوق الناس الذين كان يقطع

مصانعتهم ويأكل حقوقهم ، فلما ضاعت على
السلطان تلك الوديعة صار يفل الرحمة على الأمير
خاير بيك ولم يقرأ له ختمة على قبره ولا صنع له
مأتما ولا تصدق عليه برغيف خبز ، ثم ظهر له من
بعد ذلك من المعادن والجواهر والفصوص الماس
والياقوت الأحمر واللؤلؤ الكبار والتحف الفاخرة
ما قوم بمائة ألف دينار ، ثم ظهر له ألف ثوب
بعلبكي ومن الأثواب الصوف والأبدان السمور
والوشق والسنباب والقطع الجوخ وثياب البدن
من سلاريات وجنيئات جوخ وغير ذلك ما قوم
بخمسين ألف دينار ، وظهر عنده بشاخين زركش
وأشياء من ثياب النساء تركية وحليهن ما لا يحصى ،
وسبب ذلك أنه استولى على ست عشرة من تركات
الخوندات والستات وأعيان الرؤساء من الملوك
وغير ذلك ممن توفي في دولة السلطان قانصوه
الغوري ، وظهر له من الخيول والبغال والجمال
ما لا يحصى ... فدخل ذلك الى الحواصل
السلطانية ، وظهر له من الرزق والأملاك والبيوت
والربوع والحوانيت وغير ذلك ما عنهم من الخراج
وكرامات في كل سنة فوق العشرة آلاف دينار ،
واستمر الحال على ذلك الى يوم تاريجه يظهر له
في كل يوم من الموجود أشياء جديدة ولم ينته
ضبطه الى الآن وضاع له تحت الأرض وعند
الناس أضعاف ذلك ، فكان موجوده اذا قوم
جميعه يقارب أربعمائة ألف دينار ... ومع هذا
المال الجزيل لم يلهم الله تعالى الأمير خاير بيك عند
موته أن يبر ابن استاذه الظاهر خشقدم بشيء من
المال في الباطن حتى يستعين بذلك على فقره ووفاء
دينه ، فعاد ذلك من مساوىء خاير بيك ولم يشن
عليه أحد بعد موته بخير قط ، فذهبت عنه الدنيا
وفاتته الآخرة ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي
العظيم .

ولما توفي الأمير خاير بيك أشيع أن السلطان عين تدممه الأمير خاير بيك إلى آقبای الطويل أمير آخور نانی ، وأنعم على ولده المقر الناصري محمد بامرة طبلخاناه ، وقرره في الخازندارية الكبرى عوضا عن خاير بيك بحكم وفاته ، فتزادت عظمة سيدي ابن السلطان وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاث عشرة سنة . وقد تقدم القول على أن السلطان أرسل يخطب بنت ملك الأمراء سيبای نائب الشام إلى ولده المذكور ، فتعال نائب الشام على أن ابنته صغيرة ، وكان اسمها فاطمة وتدعى أيضا شقرا ، وفيل انها جميلة عمرها بمائتي سنين ولم تستحق للزواج ، فأرسل السلطان يقول له : لا بد من ذلك وأرسل له عشرة آلاف دينار مهرها . فلما رأى السلطان قد صمم على ذلك قبل المهر وأجاب بالسمع والطاعة وأذن في تزويج ابنته إلى ابن السلطان . وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه .

وفي يوم الأربعاء ثاني عشره جلس السلطان على المصطبة التي بالحوش وفرق على المماليك الذين أخرج لهم الحيل والقماش ، ففرق عليهم في ذلك اليوم السيوف والزرديات والتراكيش ، وكانوا نحو مائة وستين مملوكا من جلبانه .

وفي يوم الجمعة رابع عشر شوال فيه كان عقد المقر الناصري محمد بن السلطان على ابنة ملك الأمراء سيبای نائب الشام . فكان الوكيل عن ابن السلطان الأتابكي سودون العجمي ، والوكيل عن سيبای نائب الشام الأمير طومان باي الدوادار الكبير ، وكان جملة الصداق نحو عشرين ألف دينار : من ذلك عشرة آلاف دينار معجلا وعشرة آلاف دينار حال . وكان العقد بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة وهم : علاء الدين الاخميمي

الشافعي والقاضي شمس الدين السمديسي الحنفي والقاضي جلال الدين ابن قاسم المالكي والقاضي شهاب الدين الفتوحى الحنبلي ، وحضر سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر وحضر القاضي كاتب السر محمود بن آجا وأعيان المباشرين قاطبة . فلما فرغ السلطان من صلاة الجمعة فرشت له مرتبة على باب المقصورة فجلس عليها ، وجلست الأمراء حوله بالنشاش والقماش والقضاة الأربعة ، وجلس نواب القضاة عند المحراب ، ثم خطب قاضي القضاة الشافعي خطبة النكاح ، وطاقوا على الحاضرين من الأعيان بنحو عشرين سلطانية صيني فيها سكر ، ثم ان السلطان خلع على القضاة الأربعة كوامل صوف أبيض بسمور ، وخلع على الأتابكي سودون العجمي والأمير طومان باي الدوادار كوامل مخمل أحمر بسمور ، كوبهما وكيلين في العقد ، وخلع على محب الدين الحلبي امام السلطان كاملية صوف بسمور ، ثم قام السلطان وانفض المجلس في نحو خمس درج ، وقد قال القائل في المعنى :

على أيمن الساعات عقد مبارك
بهي كما شاء الاله وأظهرها
سنى المعالي يسرت حركاته
إذا الله سنى أمر عقد تيسرا

ولم يقع في هذا العقد ما هو كبير أمر من الأفعال الملوكية ، وأين هذا مما وقع للخليفة المأمون بن هرون الرشيد لما أن عقد له على بوران بنت الحسن بن سهل وزيره ، قال صاحب كتاب « الاكتفاء في تواريخ الخلفاء » : « ان الحسن بن سهل الوزير لما عقد المأمون على ابنته بوران ببعداد اجتمع أعيان بغداد من العلماء والأمراء والحجاب بالجامع الكبير ، فلما انفض ذلك الجمع نشر الوزير

الحسن بن سهل على رؤوس الأعيان من الناس رقاعا مكتوب فيها أسماء ضياع وأملاك ، فمن وقعت بيده رقعة مكتوب فيها اسم ضيعة أو ملك بعث الى صاحب الرقعة بتسليم ما فى الرقعة من ضيعة أو ملك . وهذا من غرائب الأخبار ، وكان ذلك فى سنة عشر ومائتين من الهجرة .

ومما يحكى أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى زوج ابنه الملك السعيد بينت الأتابكى قلاوون الألفى ، وكان الملك الظاهر يظن أنه اذا زوج ابنه بينت الأتابكى قلاوون يكون له من بعده عوناً لولده على قلب الزمان ، فجاء الأمر بخلاف ذلك وأخذ قلاوون الملك من أولاده ونفاهم الى الكرك ولم يفده من تلك المصاهرة شىء ولا راعاهم من بعده . وكان ذلك فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، فكان كما يقال فى المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمه

رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتىك الأذى من قبله

وفى ذلك اليوم سافر ماماي الغورى الخاصكى ، الذى عينه السلطان للتوجه الى جبل نابلس وغيرها من الجهات ، بسبب أمر المشاة الذين أفرد السلطان الأموال على البلاد بسببهم لأجل التجربة المقدمة ذكرها ... فخرج ماماي هذا ليجبى الأموال التى قررت على البلاد ، حتى قيل قرر على أهل جبل نابلس من الأموال مائة ألف دينار وأربعة وعشرين ألف دينار بسبب المشاة ، ولم يتفق قط هذا لأهل جبل نابلس بل كان الأشرف قايتباى فى التجاريد التى كان يرسلها ينفق على الرجال المشاة من حاصله لكل واحد منهم قدراً معلوماً ، فلم يوافق السلطان على شىء من ذلك وأفرد على مشايخ جبل

نابلس ما تقدم القول عليه من المال ، ومشايخ جبل نابلس يفردون ما قرر عليهم من المال على عربان جهة نابلس ، ولم يقدرُوا على بعض ذلك ، وسوفهم يخلون أهل جبل نابلس منه عن قريب .

وقرر على أهل الشام مال له صورة بسبب المشاة ، وكذلك أهل غزة ، وكذلك على أهل صفد وطرابلس ، وكتب بمعنى ذلك مراسيم على يد أمير آخور باش العسكر بأن يفرض على أهل حلب مال بسبب المشاة ، وكذلك على أهل حماة ، فقيل قرر على كل انسان من هذه الجهات عشرون ديناراً بسبب المشاة ، وهذا كله يؤول أمره الى خراب البلاد وفساد الأحوال وضعف أحوال الجند وعدم عمارة البلاد ... والأمر فى ذلك الى الله تعالى ما شاء يفعل ، فأطلق النار فى تلك البلاد بسبب أمر المشاة .

وفى يوم السبت خامس عشره خرجت المدورة الى بركة الحجاج .

وفى ذلك اليوم نزل السلطان الى قبة شبك التى بالمطرية وبات بها ، ثم ركب يوم الأحد وتوجه الى بركة الحجاج ، ورتب كيف ينصب الوطاق للأمرء الحاج . وكان ممن حج فى هذه السنة من الأعيان وهم المقر الناصرى محمد ابن السلطان ، وخوند زوجة السلطان ، والقاضى كاتب السر محمود بن أجا والأمير نائق الخازن ، وكان هو المتسفر على السنيح وكان من أخصاء السلطان .

أما أمرء الحاج الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين أمير ركب المحمل ، والركنى سيدى عمر ابن الملك المنصور ابن الملك الظاهر جقمق أمير الركب الأول ، والأمير جاني بيك قرا أحد الأمرء الطبلخاناه باشى المجاورين . فجعل السلطان وطاق ابنه بين وطاق كاتب السر وبين وطاق طقطباى أمير

ركب المحمل ، ثم ان السلطان عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الاثنين سابع عشر شوال فيه خرج المحمل الشريف ، وكان لخروجه يوم متسهود لم يقع قط مثله فيما تقدم من السنين الماضية وذلك قد انسحب فيه أربعة أطلاب حافلة : طلب جاني بيك قرا باش المجاورين وكان حافلا ، ثم انسحب طلب سيدى عمر بن المنصور أمير الركب الأول وكان حافلا ، وظهر له من السنيح العظيم أشياء كثيرة يعجز عنها الأمراء المقدمون . ثم انسحب طلب المقر الناصرى سيدى ابن السلطان فخرج بطلب حربى وقدامه طبلان وزمران وصناجق سلطانية ، وفيه نوبتان هجن بأكوار زركش من ذهب بنادقة وبقية الأكوار مخمل ملون ، وانسحب فى طلبه عدة خيول بكنائش زركش بغواشى حرير أصفر ، وعدة خيول نحو طوالتين ملبسة ببركستوانات فولاذ مكفتة ، وانسحب فى طلبه نحو عشرين جملا مزينة بآلات الشراب خاناه من الأوانى الصينى واللازورد والزجاج البلورى وغير ذلك ، وأيضا أحمال مزينة بآلات الطشتخاناه من الأباريق الكفت والطسوت الكفت والشماعد وغير ذلك مما يحير الأبصار ، ومحفة جوخ أصفر مزهر فى آخر الطلب ، ثم بعد ذلك انسحبت محفة خوند زوجة السلطان فكانت غاية فى الحسن منتهى ما يعمل من المحفات ، فكانت محمل أحمر كقوى وهى مرقومة بالذهب ، طرازها وأرضية الثوب عروق لاعبة زركش من الذهب الخالص البنادقة ، وفوقها خمس رصافيات لؤلؤ وفيها رصعات ذهب بنصوص بلخش وفيروز ، وحول نوب المحفة بهرجان ذهب وفضة شقاق ، وقدام المحفة أربعة مشاعل بنوط زركش بشراريب مثلث ، وقيل

صنعوا لخوند حماما من نحاس صفايح وداخلها أحواص نحاس وعلايات يصب منها الماء ساخنا ، فعد ذلك من النوادر ... قيل ان مصروف هذه المحفة فوق العشرين ألف دينار . وأما الرصافيات اللؤلؤ زعموا أنها رصافيات خوند زوجة الأشرف قايتباى صنعتها لما حجت فوجدت فى تركتها ، وكان خلف المحفة أربعة جمال غير الذى تحت المحفة ، وعليها كنايش زركش على مخمل أحمر ، وحولها مرتعش ذهب وفضة وقدام المحفة حاديان ، ونحو عشرين نفرا من الخدام حول المحفة ، ثم بعد المحفة انسحب نحو عشرين محارة مخمل ملون برسم عيال خوند وغيرها ممن يلوذ بها ، فلما شقت من الرملة ارتجت لها ، ولا سيما اجتمع بالرملة الحشم الغفير من الأمراء والعسكر والخلائق الذين لا يحصون لكثرتهم ، ثم طلعت المحفة من الصوة ونزلت من على باب الوزير وشقت من القاهرة ، فارتجت لها القاهرة فى ذلك اليوم رجا .. ولم يكن من العادة القديمة أن محفة حريم السلطان تشق من القاهرة .

وقد تقدم أن خوند زينب زوجة الأشرف اينال لما حجت لم تشق محفتها من القاهرة ، بل طلعت من بين الترب ، وكذلك خوند الأحمدية زوجة الظاهر خشقدم لم تشق محفتها من القاهرة ، ولا خوند زوجة الأشرف قايتباى لما حجت لم تشق محفتها من القاهرة ، ولكن أشيع أن خوند زوجة السلطان لم تخرج فى ذلك اليوم ولم تنزل من القلعة فشقوا بالمحفة من القاهرة ثم أعادوها من بين الترب الى القلعة حتى تنزل خوند . ويأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، ثم انسحب سنيح خوند وابن السلطان فكان فيه ألف جمل ما بين زاد وقرب ماء وغير ذلك من اليرق الحافل . ثم انسحب طلب الأمير طقطباى أمير ركب المحمل فكان غاية

في الحسن ، وهو منتهى ما يعمل في الأطلاب
الملوكة ، فانسحب فيه نحو مائتى فرس ما بين
حيول ملبسة بركستوانات فولاذ مكفت ، وغير
ذلك من المحمل الملون ، وخيول بكنابيش زركش ،
وغير ذلك من المحفات والأحمال المزينة ، فارتجت
لهذه الأطلاب الرملة . ثم اسحب المحمل وقدامه
ابن السلطان والأمراء الحاج والخاصكيه المسافرين
الى الحجاز فطلعوا . وكان السلطان في ذلك اليوم
في شباك القصر ينظر اليهم من القلعة ، فخلع
السلطان على ولده متمرة وفوقاني حرير أخضر
بطرز يلعاوى عريض ، وخلع على امراء الحاج
مشرات ، وخلع على باش المجاورين كاملية صوف
بسمور ، وكان بالقاهرة شخص من قضاة مكة
فألبيه السلطان تشريفا وطرحاه هو وفاضى
المحمل ، ثم نزل ابن السلطان من القلعة وأمراء
الحاج وصحبتهم الأتاكى سودود العجمى وبفبة
الأمراء المقدمين وسائر أعيان المباشرين . وكان
قاصد ابن عثمان حاضرا لهذا الموكب العظيم ،
فشقوا من القاهرة في موكب حفل لم تقع مثله في
خروج الحجاج فيما تقدم من المواكب ، فلهج
الناس بأن ذلك نهاية سعد السلطان مما وقع له
من الأمور الخوارق فيما تقدم ذكره .

وفي ذلك اليوم أشيع بأن قاصدا ثانيا واصلا
من عند ابن عثمان ملك الروم ، فلما سمع السلطان
بمجيء القاصد عوق اينال باى دودادار سكين عن
السفر الى حلب حتى يسمع ما جاء فيه القاصد من
الأخبار ، وقد تقدم القول على أنه خلع على اينال
باى وأذن له بالسفر ثم عوقه عن السفر لأمر بدا
له في ذلك .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره نزلت خوند من
القلعة بعد صلاة الفجر فجلست في المحفة من باب

الستار ، ثم نزلوا بها من دار البقر الى خلف
القلعة وقدامها المشاعل والفوانيس ، وركب
فدامها سائر المباشرين ومقدم الممالك وسائر
الخدام من الطواشية ، وركب خلف محفتها من
الخواندات والستات نحو ألف مكارى ، فاستمرت
في هذا الموكب الحافل الى بركة الحجاج .

وفي ذلك اليوم خرج القاضى كاتب السر محمود
ابن آجا في محفة على بغال وتوجه الى بركة الحجاج
وكان عليلا وله مدة على ذلك ، وكان الحاج في
هذه السنة لا يحصون عددا لكثرتهم ، وكان في
الركين فوق العتر محفات للأعيان والأمراء
والستات .

وفي يوم الخميس عشرينه أشاعوا أن اينال باى
دودادار سكين قد خرج وسافر الى حلب بسبب
ما تقدم ذكره من أمر النفقة التى أرسل بطلبها
العسكر ، فمضى اليهم الجواب عن ذلك .

وفي يوم الجمعة حادى عشرينه رحل أمير أول
من بركة الحجاج . وكذلك باش المجاورين .
تم في ليلة السبت طلوع القمر رحل ابن السلطان
وخوند زوجة السلطان والقاضى كاتب السر ،
ونادوا في البركة أن أحدا من الحجاج لا يسافر
صحبة خوند في ركبها .

ثم في يوم السبت ثانى عشرينه رحل المحمل من
البركة ، وقد ضج الناس من كثرة الحجاج في هذه
السنة . وربما يحشى عليهم من موت الجمال
وشدة البرد .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشرينه جلس السلطان
بالميدان وعرض ممالكه الجلبان وهم باللبس
الكامل من آلة السلاح الآدمية والحيول ، فعرض
في ذلك اليوم اربع طباق فعين منهم نحو مائة
وخمسين مملوكا . وسبب ذلك أن السلطان كان
له مدة طويلة وهو يلهج بالسفر الى الاسكندرية

فقوى شزمه فى هذه السنة على السفر الى ثغر الاسكندرية كما فعل الأشرف قايتباى .

ثم فى ذلك اليوم عرض آلة الطلب وهى الخيول الملبسة بالجواغين الفولاذ المكفت ، وعرض خيول النوبة وهى بالكنايش الزركش والسروج والأرقاب الزركش الذهب والغواشى الذهب ، وعرض التختين وهما بغواشى حرير أصفر ، ثم طلع الى الدهيشة وعرض الصناجق السلطانية والقبة والطير . وقد غير الطير الذهب الذى كان فوق القبة وجعل مكانه هلالا ذهبيا مخرما ، وعرض ست خزائن التى تكون فى الطلب بالأغشية الحرير الأصفر ، وعرض الجوشنين وهما من آلة الطلب ، وعرض محفة على بغال وهى بعشاء من حرير أصفر .

ثم فى يوم الأربعاء سادس عشرينه ركب السلطان ونزل الى الميدان ليعرض مماليكه الخاصكية الذين يسافرون صحبته ، فوجد الميدان فيه وحل من المطر ، فخرج الى الرملة ووقف على باب الميدان وهو راكب وعرض مماليكه الجلبان من الخاصكية فعين منهم فى ذلك اليوم مائة وعشرة من الخاصكية ممن يسافر معه الى الاسكندرية ، فصار كاتب الممالك ماشيا على أقدامه فى وسط الرملة وهو يستدعى أسماء الممالك ، فرجت الرملة فى ذلك اليوم وتحقق سفر السلطان ، واضطربت أحوال العسكر بسبب سفر السلطان فى قلب الشتاء وشدة البرد ، فلما طلع السلطان الى القلعة فتح حواصل الذخيرة وأخرج منها زرديات وخودا وأتراسا ورماحا بسن فولاذ وسيوفا وجواغين ، ففرق منها على خاصكيته أشياء كثيرة مما يحتاجون اليه من آلة السلاح .

وفى يوم السبت تاسع عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من مماليكه الخاصكية وهم

باللبس الكامل من آلة السلاح ، فعين منهم جماعة يسافرون معه الى الاسكندرية . وقد أشيع بأنه يعين معه نحو خمسمائة خاصكى من مماليكه ، وفى ذلك اليوم برز السلطان خامه وتوجه به الى بولاق ثم عدوا به الى بر انبابة ، ورسم بأن ينصب فى المنصورية ذلك الوطاق .

وفى دى القعدة كان مستهل الشهر يوم الاثنين فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر على العادة ، فجلس السلطان بالميدان وكان فى همة الخروج الى سفر الاسكندرية . فلما قام الخليفة والقضاة الأربعة طلب العلامة وعلم على بعض مراسيم ، ثم ركب من الميدان وانسحب قدامه الطلب فكان طلبا حربيا فيه طبلان وزمران والنفير البرغشى ، ثم انسحب فيه خمس وأربعون فرسا عليها أجلال شعر وفى رقابها مقاوذ ، ثم انسحب فيه ثلاث عشرة نوبة هجن بأكوار زركش ومخل ملون ، ثم انسحب فيه نحو خمسين فرسا بسروج ذهب وكناييش وغواشى حرير أصفر وتختين بغواشى حرير أصفر ، فكان عدة الخيول به نحو مائة وعشرين فرسا ، ثم تقدمت الخاصكية وبعدهم المباشرون قاطبة ، وبعدهم الأمراء المقدمون وهم : أمير كبير سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير الدوادار الكبير والأمير أنص باى حاجب الحجاب وبقية الأمراء المقدمين ، ثم جاء من بعدهم السلطان وهو راكب على فرس بوز ، وعليه سلارى جوخ بنفسجى مفرى وشق ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة مدورة بغير قرون ، فشق من الصليبة فى ذلك الموكب الحفصل ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس ، فقبل انه توجه فى ذلك اليوم الى المقياس هو والأمراء ومد لهم هناك

مدة حافلة وأقام بالمقياس ذلك اليوم ، وأشيع غير ذلك أن السلطان لما نزل من القلعة توجه الى بولاق ونزل في مكان يسمى السبكية فبات بها ، وقيل بل بات في المنية بإزاء انبابة ، والأقوال في ذلك مختلفة ، وكان بها الوطاق .

ثم إن السلطان رسم للأمير طومان باي الدوا دار بأن يكون نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من السفر ، فتحول من دومه وطلع الى باب السلسلة وأقام به الى أن يعود السلطان الى القلعة .

وفي يوم السبت سادسه رحل السلطان من الوطاق الذي ببر انبابة وقصد التوجه الى ثغر الاسكندرية ، ورجع جماعة كثيرة من هناك من الأمراء والعسكر ، ولهم يسافر مع السلطان الا جماعة من الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات ، فمن الأمراء المقدمين : الأتابكي سودون العجمي والأمير أركماس بن ولي الدين أمير مجلس والأمير أنص باي بن مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش أحد المقدمين والأمير قانصوه ابن سلطان جركس ، والأمير خاير بيك كاشف الغريبة أحد المقدمين والأمير علان بن قراجا أحد المقدمين دوا دار ثاني والأمير يخشباي أحد المقدمين والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثاني أحد المقدمين ، وقد قرر في مقدمة الأمير خاير بيك الخازندار عن قريب ، فكان عدة الأمراء المقدمين الذين توجهوا مع السلطان الى ثغر الاسكندرية عشرة من المقدمين . وأما من توجه معه من الأمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة منهم : الأمير قنيك الشريفى رأس نوبة ثاني والأمير مغلباي الشريفى الزردكاش ، وآخرون منهم ما يحضرني أسماؤهم . وأما من توجه صحبته من الأمراء العشراوات فجماعة كثيرة نحو عشرين

أميرا ، وقيل كان مع السلطان من خاصكبه نحو خمسمائة خاصكي وقيل أكثر من ذلك ، وأما من توجه معه من المباشرين فالقاضي مجيب الدين شيد القادر القصروي ناظر الجيش والقاضي شهاب الدين ابن الجيعان نائب كاتب السر وأخوه كريم الدين كاتب الخزائن الشريفة والقاضي شرف الدين الصغير كاتب الماليك وأولاد الملكى وأبو البقا ناظر الاضطبل ، والقاضي علاء الدين ناظر النخاص ، وجماعه من كتاب الماليك ، وآخرون من أعبان جماعة المباشرين ، وكان صحبته الشريفى يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة من الأعيان ما يحضرني أسماؤهم الآن .

وقيل كان صحبة السلطان جماعة من المغاني وأرباب الآلات من دواخل البلد في الغناء ، وخرج السلطان بسنيح عظيم وبرك حافل في أرغد عيش من التنزه والفرجة حتى رحل ، فنصب له الوطاق بالمنصورة وتوجه اليها على ما نقل من أخباره الصحيحة عن ذلك .

وأشيع أن السلطان أقام في الوطاق الذي بالمنية ستة أيام . وسبب ذلك أنه كان ينتظر كتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده الذي توجه الى الحجاز وأخبار زوجته خوند ، فلما ورد عليه كتب العقبة بالأمن والسلامة سر لذلك واشرح ، ورحل من المنية ، وتوجه الى المنصورة ، ونصب بها المخيم الشريف ونزل هناك ، ثم يتوجه من بعد ذلك من مرحلة الى مرحلة حتى يدخل الى ثغر الاسكندرية .

وفي يوم الاثنين ثامنه رسم الأمير طومان باي الدوا دار نائب الغيبة بأن ينادى في القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن يعلقوا على كل دكان قنديلا من المغرب وأن لا يملوكا ولا غلاما ولا عبدا يخرج من بعد العشاء ومعه سلاح ،

وأز، لا مملوكا بغطى وجهه اذا خرج الى السوق
ومن ذل ذلك شئ من غير معاودة ، فضج الناس
له بالدعاء .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه توفي الحاج ياقوت
فراش الخزائن ، وكان أصله من عبيد المقر السيفى
برقوق نائب الشام وأعتقه ، وساعدته الأقدار حتى
صار في سعة من المال وصار أمين السلطان على
الخزائن الشريفة . فلما مات في غيبة السلطان جاء
الزينى بركات بن موسى وختم على حواصله ورسم
على ولده وعلى عياله الى أن يحضر السلطان ،
وكان ياقوت متهما بالمال الجزيل ، وكان هو
والأمير خاير بيك الخازن دار يتصرفان في الخزائن
الشريفة كيف شاءا منها ، فكان كما يقال في
المعنى :

وقائلة أرى الأيام تعطى
لثام الناس من رزق خبيث
تمنع من له شرف وفضل
فقلت لها خذى أصل الحديث
رأت حل المكاسب من حرام
فجادت بالخبيث على الخبيث

وفي يوم الخميس حادى عشره وسط الوالى
شخصا من الغلمان قيل عنه انه كان يخطف العمائم
في الأسواق بعد العشاء ، فلما قبضوا عليه وسطوه
في وسط الصليبة قدام حمام شيخو ، وقيل
وسطوا آخر من الغلمان عند الكبش ، وفي هذه
الأيام كثر هجم المناسر في الحارات والأماكن من
القاهرة وغيرها حتى ضج الناس من ذلك ، ولا
سيما كان السلطان غائبا في السفر الى الاسكندرية
فماجت القاهرة لذلك .

وفي يوم الاثنين خامس عشره فرقت الجامكية
في غيبة السلطان ، وحضر تفرقتها القاضي جلال

الدين نائب كاتب الممالك ، وحضر الأمير سنبل
مقدم الممالك ونائبه والزينى بركات بن موسى
المحتسب وغير هؤلاء ، وفرقت الجامكية عند
سلم المدرج ، وكانت في غاية الانشحات .

وفي يوم الجمعة سادس عشرينه نودى في
القاهرة بالزينة بسبب عود السلطان من ثغر
الاسكندرية .

وفي يوم السبت سابع عشرينه سبق المخيم
الشريف ونصب الوطاق في الريدانية الى أن يحضر
السلطان . ثم ان السلطان عدى من بر ابابة باكر
النهار ، وطلع الى المكان المسمى بالسبكية ببولاق
فتغدى هناك وأقام الى الظهر ، ثم ركب من هناك
وشق من بين الغيطان وطلع من على قنطرة الفخر ،
وطلع من هناك من على كوم الريش حتى وصل
الى قناطر الأوز ، فطلع من عليها الى أن خرج الى
الوطاق بالريدانية فأقام به . فلما تسامع به الأمراء
أتوا اليه وسلموا عليه ، ثم جاء اليه الخليفة
المتوكل على الله والقضاة الأربعة فسلموا عليه ثم
عادوا الى دورهم ، وكان السلطان أرسل بأن
ينادى في القاهرة بأن لا أحد من الأمراء والعسكر
يلاقى السلطان الا من الوطاق الذى بالريدانية
قامتثلوا لذلك .

وفي يوم الأحد ثامن عشرينه نادى الأمير
الدوادار في القاهرة بأن يقووا الزينة ، فزينت
القاهرة زينة حافلة ، حتى زينوا داخل الأسواق
مثل سوق الشرب والجملون والجواهره وسوق
الوراقين والباسطية وسوق الحاجب وخان الخليلي
وسوق جامع ابن طولون ومرجوش وغير ذلك من
أسواق القاهرة ، حتى مصر العنيفة وبولاق وغير
ذلك من الأماكن .

وفي يوم الاثنين سلخ ذى القعدة رسم السلطان

بعمل احراقه نطف تحرق في الوطاق فحرقت ليلة الثلاثاء بالوطاق ، فحصل للناس في تلك الليلة غاية الضرر وسرق من الوطاق في تلك الليلة من عدة خيام ، وأخذ منها بعض قماش وسيوف وبقج ، حتى أشيع بين الناس أن الرصافيات الأربعة التي في محفة السلطان قد سرقت تلك الليلة لكثرة الرهج والاضطراب .

وفي يوم الثلاثاء كان مستهل ذى الحجة الحرام فتوجه الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان السلطان قد أخذ في أسباب الدخول الى القاهرة وصار يرتب الطلب بنفسه وهو راكب على فرسه ، فكان من ملخص أخبار الطلب أنه جر به نحو من مائة وثمانين فرسا ، منها ببركستوانات مخمل ملون وجواغين فولاذ مكفت بذهب وفضة نحو ستين فرسا ، ومنها خيول بسروج ذهب وكنائش نحو عشرين فرسا ، وكان من جملة السروج ما هو بلور مزيك بذهب وسروج عقيق مزيكة بذهب وسروج مرصعة بفصوص مشنة وطبول بازات فضة مينة وشيء بلور ، ومنها خيول بعراقى وسروج بغواشي حرير أصفر وطبول بازات نحو خمسين فرسا ، وجوشنان أحدهما حرير أصفر والآخر مخمل مزهر ، وتختنان بأغشية حرير أصفر ، وست خزائن بأغشية حرير أحمر وأصفر ومحفة بغشى حرير أصفر وهي على بغلين ، وكان به حجورة بسروج بداوى وركب بداوى بعراقى نسيج مغربى نحو عشرين حجيرة . وكان قدام الطلب ست عشرة نوبة هجن ، منها ثمانى نوب هجن بأكوار زركش وكنائش زركش ، والبقية بأكوار مخمل ملون ، وكان قدام الطلب أربعة طبول وأربعة زمور ووراء الطلب اثنا عشر

حمل كوسات ، وكان به الأفيال الكبار وهي مزينة بالصناجق والبركستوانات الحرير الأحمر ، وكان مع الكوسات العصائب السلطانية ، وكان قدام السلطان أربع رؤس خيل بسروج ذهب وكنائش ذهب وريش وعليها رقاب ذهب وريش وفوقها غواشي ذهب بطيور ذهب عليها .

فلما انتهى ترتيب الطلب ركب السلطان من الوطاق الذى بالريداية ، فركب على فرس بوز قرطاسى ، وكان عليه الشاش والقماش وكاملية مخمل أحمر بسمور ، وركب ، وسرج ذهب وكنبوش ذهب وريش ، وعلى الفرس رقبة زركش ، فلما تسامعت الأمراء بركوب السلطان ركبوا وهم بالشاش والقماش ، وجميع الأمراء المتقدمين والأربعينات والعشراوات ، والرءوس النوب بالعصى ، ثم ان الأتابكى سودون العجمى تسلم القبة والجلالة ورفعها على رأس السلطان ، ومشى عن يساره ، وركب الخليفة محمد المتوكل على الله عن يمينه وهو لابس العمامة البغدادية وعليه قباء صوف أبيض بمقلب صوف أخضر ، وركب قدامه القضاة الأربعة وهم : علاء الدين الاخميمى الشافعى وشمس الدين السمديسى الحنفى وجلال الدين بن قاسم المالكى وشهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وقد تقدم القول على أنهم أتوا يهنون السلطان بالشهر وهو في الوطاق فصادف ذلك اليوم طلوع السلطان الى القلعة فركبوا صحبته ، ولم يكن يحزر ركوب الخليفة والقضاة الأربعة مع السلطان حين جاء من هذه السفرة ، ولكن قصدوا التوجه الى السلطان ليحظوا عنده بذلك ، وقد اتفق أن الأشرف قايتباى توجه الى ثغر الاسكندرية مرتين ، فكان يجرى من السفر ويطلع الصبح الى القلعة من بين الترب ولم يشعر به أحد من الناس ، ولكن كل أحد له اختيار بذاته .

فلما ركب السلطان من الريدائية رسم للخاصكية الذين كانوا معه في نغر الاسكندرية بأن يدخلوا الى القاهرة وهم لابسون آلة السلاح كما دخلوا بنغر الاسكندرية وهم لابسون ، فلبسوا آلة السلاح الزرديات والخوذ ، وألبسوا الخيول البركستوانات المخمل ، وأخذوا الرماح بالشطفات بأيديهم وركبوا وراء السلطان في الطلب ، وكانوا نحو أربعمئة خاصكى من جليان السلطان من أعيانهم فعد ذلك من النوادر ، وركب مع السلطان سائر المباشرين من أرباب الوظائف من المتولين والمنفصلين ، فلما تكامل الموكب مشى السلطان وكان الصنjq السلطاني في كيس حرير أصفر فلم ينشر على رأس السلطان ، فلما وصل الى قبة الأمير يشبك التي في رأس الحسنية لاقاه الشعراء بالشبابة السلطانية والمزاهر ، ولاقاه الطبردارية وفي أيديهم الأطبار فمشوا قدامه ، ثم لاقاه طائفة اليهود والنصارى وفي أيديهم الشموع موقودة .

ومن الحوادث في ذلك اليوم أن السلطان لما وصل الى رأس سوق الدريس فكان هناك حمل معلق فيه قناديل معمرة بالزيت ، فصدم به الأتابكى سودون العجمى هلال القبة الذى هو عوض عن الطير الذهب ، فسقطت تلك القناديل على القبة وكلفتة السلطان والكاملية المخمل الأحمر التى عليه فانطرطشوا بالزيت الطيب تطرطشا فاحشا ، فلم يتفائل الناس بذلك على السلطان ، ووقع له أنه لما دخل لمدينة الاسكندرية سقط هلال القبة الذى على رأسه الى الأرض وانكسر نصفين في وسط سوق الاسكندرية ، وكذلك رصافية المحفة سقطت الى الأرض فبادروا اليها ووضعوها على المحفة ، فلم يتفائل الناس بهذا أيضا على السلطان . لكن وقع للأشرف قايتباى أنه لما دخل الى نغر

الاسكندرية وشق من سوقها سقط الطائر الذهب الذى على القبة الى الأرض ، فبادر الأمير يشبك الدوادار الكبير ونزل عن فرسه وركب الطائر على القبة وثبته عليها بيده وأعاده كما كان ، ثم ركب على فرسه ومشى السلطان الى أن خرج من باب البحر ، فتفائل الناس بزوال السلطان بعد ذلك ، فلم يؤثر فيه هذا التطير ومكث من بعد ذلك دهرا طويلا . ثم ان السلطان لما جرى ذلك كظم في الباطن وعاب على الأتابكى سودون العجمى حمل القبة والطير ، وقد حملهما على رأس السلطان بغير معرفة وكان لهما طريقة في حملهما غير ذلك ، فاستمر السلطان في هذا الموكب على ما ذكرناه أولا ، فكان النفير السلطاني المسمى بالبرغشى قدام الطلب ووراءه الطبول والزمر ، ثم انسحبت النوب الهجن وانسحب بعدها الجنائب الملبسة بالبركستوانات المخمل الملون ثم انسحب من بعد ذلك الخيول التى بالكنايش والسروج الذهب والبلور والعقيق المزينة بالذهب ، وكان في السروج ما هو مرصع بالفصوص المثمنة ، وكان على الخيول طبول بازات بلور مزيك بذهب وشيء فضة مينة ، فكان من هذه الأصناف نحو عشرة طبول ، ثم انسحب جوشنان حرير ملون وخزائن المال وعدتهم ست بأغشية حرير أصفر وأحمر ، ثم انسحب المحفة بغطى حرير أصفر مزهر عليه بالتقاصيص الحرير ملون ، ثم وراء ذلك جاء المباشرى ثم الأمراء الطبليخانات والعشراوات ، ثم جاء الأمراء المقدمون وهم بالشاش والقماش ، ثم جاء القضاة الأربعة ، ثم مشى الشعراء والشبابة السلطانية ، ثم مشى من بعد ذلك الأمراء الرؤوس النوب وبأيديهم العصى . وكان الأمير كرتباى الوالى ماشيا بالشاش والقماش ، ونقيب الجيش

وغير ذلك من الخاصكية ، ثم جاء السلطان وعلبه الشاش والقماش وقد تقدم القول على ترتيب الطلب في الريدانية أولا .

وهذا كان صفته لما شق من القاهرة بالموكب السلطاني وهو لابس كاملية محمل أحمر بسمور ، والخليفة عن يمينه وهو بالعمامة البغدادية وعليه قباء صوف أبيض ، وكان أمير كبير سودون العجمي عن يساره رافعا القبة على رأسه والجم الغفير من الخاصكية خلفه وهم بالخوذ والزرديات وبأيديهم الرماح بالشطافات الحرير الملون ، وكان الصنجق السلطاني مطويا في كيس حرير أصفر ، فلما شق من القاهرة كانت مزينة بالزينة الحافلة ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وتركزت له الطبول والزمور على الدكاكين من باب النصر الى رأس الرمل ، فرجت له القاهرة في ذلك اليوم رجا وابتهجت الناس أي بهجة ، ثم ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام .

وكان هذا الموكب من الوقائع الغريبة في هذا العام ، وكان من المواكب المعدودة والأيام المشهودة ، قل أن بقى يقع لأحد من ملوك مصر مثل هذا الموكب فيما يأتى من الزمان ، ولم يقع للأشرف الخورى من حين تسلطن والى اليوم أنه أوكب وشق من القاهرة هو والأمراء بالشاش والقماش غير هذا الموكب ، فاستمر في هذا الموكب حتى طلع من على جامع الماردنى ، من على مدرسة السلطان حسن فشق من الرمل ، وقد ماجت له الرمل في ذلك اليوم من العسكر وكثرة الخلائق ، فاستمر على ذلك حتى دخل من باب الميدان ، فوقف له الخليفة هناك والقضاة الأربعة ، فطوبوا له ورجعوا الى دورهم ، ودخل السلطان الى الميدان هو والأمراء .

وكان الأمير طومان باى الدوادار الكبير نصب له بالميدان الخيمة الكبيرة التى تنصب في المولد ، ومد بها مدة حافلة قيل كان مصروف تلك المدة فوق الألف دينار ، وفرش تحت حافر فرس السلطان الشقق الحرير من باب الميدان الى الخيمة ، وقيل نثر على رأسه خفائف الذهب والفضة .

ثم ان السلطان جلس في الخيمة وأكل من المدة هو والأمراء ، فلما انقضى أمر المدة أحضر كوامل مخمل أحمر بسمور فخلعها على الأمراء العشرة الذين كانوا صحبته بثر الاسكندرية ، وخلع على الأتابكى سودون العجمي كاملية مخمل أخضر بسمور ، وقيل خلع عليهم الكوامل بالريدانية ، وخلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية مخمل أحمر بسمور بسبب تلك المدة التى مدها ، وخلع على بعض خاصكية من السقاة من أرباب الوظائف . ثم ان الأمراء نزلوا من الصليبة في موكب حافل وتوجهوا الى بيوتهم ، وانقضى ذلك اليوم على خير ، وهذه الواقعة من معظم وقائع سنة عشرين وتسعمائة قل أن يقع في التواريخ مثلها من الوقائع الغريبة في أخبار السلاطين ، وقد نظمت في ذلك هذه القصيدة التى لم ينسج مثلها على منوال ، وهى هذه :

سر الأنام لمقدم السلطان
وتباشروا منه بكل أمان
وتفردت أضياف أزهار الربا
فوق الغصون بأطيب الألحان
والروض أضجى زهره متبسما
كتبسم الحسناء بضوء جمان
وتهللت من مصر دوحة روصها
عند القدوم تهلل الفرخان

وتضاحك الميدان مذ غنت به
أطيّاره سحرا على العيدان
عاينته لما بدا في موكب
يزهو على كسرى أنوشروان
لما ارتقى عند الصعود لقلعة
رفعت عليه قبة السلطان
طلع الخليفة والقضاة أمامه
في الموكب المحفوف بالفرسان
قالت مراتب عزه لما أتى
لا تعجبوا فالسر في السكان
لسكندرية كان يوم دخوله
قد عد ذاك اليوم بالسلطان
ما زال أهل الثغر من فرح به
بتبشير في السر والاعلان
لو كان ذو القرنين حيا في الوري
لاقاه بالاكرام والاحسان
واختاره ملكا يلي من بعده
في سائر الأقطار والبلدان
فاق الملوك بمصر ممن قد مضى
أخباره في سالف الأزمان
قد عاد للأوطان في بشر وفي
نصر وتأيد وصفو زمان
فالله يكفيه مؤنة حاسد
ويطيل أياما له بتهان
ما ماس غصن في الرياض وكللت
أيدي الغمام شقائق النعمان
قد ضاء لابن اياس شعر قاله
في الأشرف الغورى العظيم الشأن
ثم الصلاة على النبي المصطفى
خير البرية من بنى عدنان

والآل والأصحاب ما طرد الدجا
ضوء الصباح وعم للأكوان
وأما ما كان من ملخص أخباره عند توجهه الى
ثغر الاسكندرية ، فانه نزل من القلعة وسافر في
يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، فنزل أولا في المكان
المسمى بالسبكية في بولاق ، فتعدى هناك ثم عدى
الى بر انبابة ونزل بالوطاق الذى بالمنية ، فأقام به
خمسة أيام ، قيل انه كان منتظرا لكتب العقبة
حتى يعلم أخبار ولده وزوجته خوند ، فلما ورد
عليه كتب العقبة اطمأن ورحل من المنية ، وقد
قاسى العسكر في التعدية ما لا خير فيه ، وجرح
شخص من الخاصكية بالسيف في وجهه من جماعة
من المماليك عند التعدية بسبب ازدحام العسكر .
ثم ان السلطان توجه من المنية الى المنصورية
وأقام بها يوما وليلة ، ثم توجه من هناك الى
البحيرة فأقام بها يوما وليلة ، واستمر يرحل من
مكان الى مكان الى أن نزل بالنجيلة فأقام بها
يومين وليتين ، وأحضر له الصيادون هناك تمساحا
فأمر بتوسيطه بين يديه .
فلما كان يوم السبت ثالث عشره دخل السلطان
ثغر رشيد فأقام به الى يوم الأحد .
ثم أوكب من هناك ودخل الى مدينة الاسكندرية
في يوم الاثنين خامس عشره ، فدخل العسكر وهو
لابس آلة الحرب باللبس الكامل ، وانسحب
الطلب والجنائب كما تقدم القول على ذلك ، ثم
دخلت الأمراء وهم بالشاش والقماش ، ولم يلبس
السلطان الكلفتة بل لبس تخفيفة صغيرة مدورة ،
وعليه كاملبة محمل أحمر بسمور ، وحمل الأتابكى
سودون العجمى القبة والجلالة على رأسه ، وكان
السلطان اقترح على القبة هيئة جلالة ذهب عوضا
عن الطير الذى كان يعمل على القبة ، فشق من

المدينة في موكب حافل ، فنشر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة ، فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ في غاية التزحل والخراب .

ومن الحوادث أنه لما شق من المدينة صدم الأتابكي سودون بالجلالة التي على القبة بعض السقائف التي هناك ، فانكسرت تلك الجلالة نصفين وسقطت الى الأرض ، وكذلك لما مرت المحفة من هناك انكسرت الرصافية التي كانت عليها ، ثم ان السلطان خرج من باب البحر الملح وجلس بالمخيم الشريف ، فأرسل اليه مملوكه خدا بردى نائب الاسكندرية مقدمة حافلة ما بين ذهب عين ومماليك وقماش على حمالين وخيول وغبر ذلك ، ثم قدم اليه الخواجا ابن أبى بكر تاجر السلطان مقدمة حافلة ، ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها الى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح .

وكانت الاسكندرية من أجل مدائن الدنيا حتى قيل كان بها لما فتحها عمرو بن العاص رضى الله عنه أربعة آلاف دار محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون ، وفي كل دار منها حمام تحتص بها ، وكان بها اثنا عشر ألف بقال يبيعون البقوليات من بعد العصر الى العشاء ، وكان بها أربعون ألف يهودى ممن وجب عليه الجزية ، وكان بها من الروم والقيط ستمائة ألف انسان ، وكان بها مائة ألف

مركب من مراكب الروم الكبار ، وشتان ما بين هذه الأخبار من هذه الأخبار التي هى بها الآن . ثم ان السلطان ألبس الأتابكى سودون العجمى الكاملة المخمل الأحمر التي كانت عليه ، وخام على نائب الاسكندرية والخواجا ابن أبى بكر . وفى ذلك اليوم ثارت مماليك السلطان الخاصكة على خدا بردى نائب الاسكندرية ، وقالوا له : أنفق علينا لكل مملوك عشرين أشرفيا كما فعل قجماس نائب الاسكندرية لما دخل الأشرف قايتباى الى الاسكندرية ، فلم يعطهم شيئا فكادوا أن يخرقوا به وما سلم من القتل الا بعد جهد كبير . ثم حضرت التقدم الحافلة للسلطان من الكشاف ومشايخ العربان بالغبية وهى ما بين ذهب عين وخيول وأبقار وأغنام وغير ذلك ، ففرق منها على الأمراء ممن كان صحبته أشياء كثيرة من الخيول والأبقار والأغنام ، فلما بات بالمخيم تلك الليلة وقدوا له مآذن المدينة ، وعلقوا على شراريف الصور كل واحدة قنديل ، فلما أصبح السلطان ركب وضرب الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين كانوا صحبته ، ثم توجه وزار الصالحين الذين هناك ، ثم توجه الى البرج الذى أنشأه الأشرف قايتباى فطلع فى البرج هو والأمراء ورموا قدامه فى ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق ، ثم توجه من هناك وكشف على الأبراج التى بثغر الاسكندرية وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل . وفى ذلك اليوم أنعم السلطان على مملوكه يوسف الزردكاش الثانى بامرة طبلخاناه .

ثم فى ليلة الأربعاء سابع عشره أحرق السلطان فى الوطاق احراقة فقط حافلة على شاطئ البحر الملح .

ثم فى يوم الأربعاء سابع عشره رحل السلطان

عن ثغر الاسكندرية ا فكان مدة اقامته بها يومين وليلتين .

ففى ذلك اليوم الذى رحل فيه أرسل محمد ميمتار الطشتخاناه الى الظاهر قانصوه الذى فى البرج والى قيت الرحبى الذى فى البرج ورسم له بأن يكسر قيودهما ، وأرسل على يده لكل واحد منهما ألف دينار وبدنين سمور وبدنين سنجاب وثوبين بعلبكى وغير ذلك من القماش الفاخر ، وأرسل يقول لهما : « لا تجتمعا على أحد من خلق الله ولا تكاتبوا أحدا من الأمراء فما يحصل لكما من السلطان خير » . فباسوا له الأرض فى البرج وأجابوا بالسمع والطاعة واستمروا فى البرج بغير قيود . ثم رحل السلطان عن ثغر الاسكندرية بعد اقامته فيها يومين وليلتين ، ثم توجه الى دمنهور فأقام بها يوما وليلة ، ثم توجه من بعد ذلك الى النجيلة عند عوده أيضا .

ومن الحوادث أنه لما أقام فى النجيلة غرق بها شخص من الخاصكية فى البحر فمات هناك .

ثم توجه منها الى الطرانة فأقام بها يوما وليلة ، ثم نزل بالمنصورية وأرسل يقول للأمير طومان باى الدوادار بأن ينادى فى القاهرة بأن لا أحد من العسكر بلاقى السلطان الا اذا نزل بالريدانية فى الوطاق ، فامتلوا ذلك ، ثم ان السلطان رحل من المنصورية الى المنية وعدى من هناك وحضر الى الوطاق بالريدانية ، وهذا ما كان من ملخص أخباره فى هذه السرحة .

وكان أول من دخل الى ثغر الاسكندرية من السلاطين الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون وذلك فى سنة سبع وستين وسبعمائة وكان سبب دخوله الى ثغر الاسكندرية أن الفرنج طوقوا الثغر على حين غفلة وملكوا المدينة ... فلما

جاءت الأخبار بذلك خرج السلطان على جرائد الخيل وصحبته الأتابكى يلبغا العمرى وجماعة من الأمراء ، فلما بلغ الفرنج مجىء السلطان رحلوا عن الثغر بعد ما نهبوا المدينة وقتلوا من أهلها ما لا يحصى ، فدخل السلطان ورد الناس الى المدينة وطمئنتهم ورجع بسرعة الى مصر .

ثم دخلها ثانى مرة فى سنة احدى وسبعين وسبعمائة ... ففى هذه المرة أوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه ، وكان خليل بن عرام نائب الاسكندرية ففرش له الشقق الحرير من باب رشيد الى باب البحر الملح ، ونثر على رأسه خفاف الذهب والفضة وكان له يوم مشهود بالاسكندرية .

ثم دخلها من بعد ذلك الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فأوكب بها موكبا حافلا وحملت القبة والطير على رأسه . ومما وقع له أنه لما شق من مدينة الاسكندرية وقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكون فيها من جور القباض ، فلما قرأ تلك القصة ، رسم بإبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثه وكتب لهم بذلك مرسوما شريفا فارتفعت له الأصوات بالدعاء .

ثم دخلها من بعد ذلك الأشرف قايتباى فى سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة ، وأوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه . فلما شق المدينة نثر عليه بعض تجار الفرنج البنادق ألف بندقى ذهب فتزاحمت الناس عليه يلتقطون الذهب ، فكاد السلطان أن يسقط من على ظهر الفرس حتى أدركه تمرار الشمسى رأس نوبة النوب فضرب الناس حتى أفسحوا للسلطان ومشى .

ثم دخلها مرة أخرى فى جمادى الأولى سنة أربع

وثمانين وثمانمائة ، فلم يوكب بها مثل المرة الأولى .
وكان سبب دخوله هذه المرة لأجل انتهاء عمارة
البرج الذى أنشأه هناك فكشف عليه لما كملت
عمارته ورجع بسرعة ، وسافر هذه المرة من البحر
وكان أيام النيل والأراضي مغمورة بالمياه فأقام
بشعر الاسكندرية ثلاثة أيام ، وكذلك فى المرة
الأولى . ثم دخلها من بعد ذلك الملك الأشرف
قانسوره الغورى فى سنة عشرين وتسعمائة كما
تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الأربعاء ثانى الشهر ، نزل السلطان
صبيحة يوم طلوعه وشق من الصليبة وهى مزينة ،
ثم توجه الى بولاق وكشف على عمارته التى
هناك ، ثم رجع من على باب البحر ودخل من باب
القنطرة وتوجه الى البندقيين وكشف على عمارته
التى هناك وكان فى نفر قليل من المماليك . وأشيع
عنه أنه قال للعوام : قووا الزينة ولا تفكوها لبعد
مضى عشرة أيام ، وجعل يقول لهم ذلك بنفسه ،
فعاب عليه الناس ذلك .

وفى يوم الخميس ثالثه ، ثارت المماليك الجلبان
على السلطان بالقلعة ورجموا الأمراء من الطباقي ،
وقصدوا نزولون لنهب الزينة ، فأغلق عليهم
السلطان أبواب القلعة وباب السلسلة وباب
الميدان ، فلما بلغ الناس ذلك ارتجت القاهرة
وفكوا الزينة فى لمح البصر ، ووزع الناس الأمتعة
فى الحواصل ، وكثر القال والقال بين الناس ،
وقعد الأمراء المقدمون فى بيوتهم وأغلقوا أبوابهم .
وكان الأتابكى سودون العجمى مسافرا نحو بلاده
وقد سافر بعد حصوره مع السلطان . فلما جرى
ذلك تنكد السلطان لهذه الواقعة ، وبلغه أن
المماليك يرومون منه نفقة لكل واحد منهم مائة
دينار حلاوة السلامة . وشرع المماليك القرائصة
يورون المماليك الجلبان على ذلك ، وكان العسكر

جميعه غير راض عن السلطان بسبب تعطل اللحم ،
فان العسكر قاطبة من نحو سبعة أشهر لم يصرف
لهم فيها زبدية لحم ، وحصل لهم بسبب ذلك
الضرر الشامل . وكانت الدواوين فى غاية
الانشغاط لكثرة العسكر فى هذه الأيام ،
ولا سيما ما جده السلطان من العسكر فى الطبقة
الخامسة . وكانت الاقطاعات خرابا والبلاد معطلة
من جور الكشاف ومشايخ العربان وهجاج فلاحي
المقطعين عن البلاد ، فصارت المماليك القرائصة
ينتظرون حركة مثل هذه الحركة فما صدقوا بهذه
الحركة

وفى بقية ذلك اليوم غلقت الأسواق والدكاكين
وارتفعت البضائع منها ، ثم فى بقية ذلك اليوم
— قرب المغرب — نزل طائفة من المماليك الى
الصليبة ونهبوا بعض بضائع من الدكاكين ، ثم
ثم ان المماليك قبضوا على شخص من العوام وقالوا
له : نادى عن لسان السلطان أن النفقة مع الجامكية
لكل مملوك من المماليك السلطانية مائة دينار .
فما وسع ذلك الرجل الا أنه نادى لهم كما قالوا
له ، ولم تكن هذه المناداة من قبل السلطان .

وفى يوم الجمعة رابعة اشيع أن شخصا من
مماليك السلطان يسمى وردبش ، وهو أمير عشرة
تدلى بجبل من طبقة الميدان لما ثارت المماليك
فانقطع به الجبل ، فسقط الى الأرض فمات من
يومه . وقد صارت المماليك فرقتين ، فرقة مع
السلطان وفرقة عليه ، فلما كان وقت صلاة الجمعة
لم يخرج السلطان ولم يصل صلاة الجمعة ، ولم
يطلع من الأمراء غير ثلاثة أمراء مقدمين ، وقد
اضطربت أحوال السلطان من بعد مجيئه من هذه
السفرة وتكدر عيشه ، وطرقته عين عقيب ذلك
الموكب العظيم الذى طلع فيه ، فكان كما يقال فى

أمثال الصادح والباغم :

لا تغترر بالحفظ والسلامه

فانما الحياه كالمدايه

والعمر مثل الكاس والدهر القدر

والصفو لا يد له من الكدر

ومن أمثاله أيضا

في لمحۃ العين بكاء وضحك

وناجذ باد ودمع منسفك

وفي يوم السبت خامسه ابتداء فيه السلطان

بتفرقة الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفي يوم الاثنين سابعه أشيع أن السلطان رسم

للوالى بأن يتسلم جاني بيك الاستادار ويعاقبه على

بقية المال الذى قرر عليه ، فانه كان قرر عليه

ثلاثة وثلاثين ألف دينار أورد منها ستة عشر ألف

دينار ، فباع بيته وخيوله وقماشه ولم يعلق ذلك

القدر الذى قرر عليه ، فأظهر العجز فلم يقبل له

السلطان عذرا في ذلك وسلمه للوالى ، فأشيع

أنه قد عصر في أكعابه وضرب كسارات على ركبته ،

واستمر تحت العقوبة الى الآن . وكان جاني بيك

هذا من الظلمة الكبار اذا ظفر بأحد من الناس

لا يرحمه — ولا سيما ما فعله في ولايته

للأستادارية ، وما جرى على العسكر بسبب

الحمايات وغيرها — فلما جرى له ذلك لم يرث له

أحد من خلق الله تعالى .

وفيه توفي يونس سر آخورى السلطان ، وكان

قبل ذلك في خدمة الأتابكى تماراز الشمسى ، وكان

حسن السيرة لا بأس به

وفي يوم الثلاثاء ثامنه جلس السلطان بالميدان

وفرق بقية الأضحية ، لكنه شح في هذه السنة

وضاقت عينه ، فقطع ضحايا الزوايا والمزارات التى

بالقرافة وغيرها من زوايا الأعاجم ، فحصل لهم

كسر خاطر بسبب ذلك .

ثم انه رسم لبعض زوايا بالقرافة بصرر فيها

دراهم يسيرة مثل مقام الامام الشافعى والامام

الليث رضى الله عنهما وبعض مزارات بالقرافة ،

وتوقف في البقية ، ثم قطع ضحايا الفقهاء والمباشرين

الذين لهم ضحايا في الديوان والذخيرة فقطع

أضحية الذخيرة وأبقى الذى في الديوان . وكانت

الأضحية في هذه السنة في غاية الغلو في السعر

وهي مشحوة لم يظهر منها شيء بسبب تشويش

المماليك على الفلاحين ، فقل الجالب بسبب ذلك

وكانت الأحوال في هذه السنة غير صالحة .

وفي يوم الخميس عاشره كان عيد النحر ، وكان

السلطان في غاية النكد من ممالكه ، وكان

الأتابكى سودون مسافرا في اقطاعه وقد هرب من

تفرقة الأضحية ، وكذلك الأمير تمر الزردكاش ،

فخرج السلطان وصلى صلاة العيد في الجامع ، ثم

ركب من هناك ودخل الحوش ولم يضح في الايوان

على العادة القديمة . فلما دخل الحوش لم يذبح

بيده شيئا في ذلك اليوم ، ورسم للأمير مغلباى

الزردكاش وبوسف الزردكاش الثانى بأن يذبحا

عنه ، ثم جلس في الحوش ساعة سيرة وقام ودخل

الدهيشة واخضب عن الناس

وفي يوم الاثنين خامسه^١ أشيع بين الناس بأن

الأمير طومان باى الدوادار صمن للمماليك الجلبان

يأن السلطان ننفق عليهم في شهر صفر لكل مملوك

مائة دينار ، فرضوا بذلك وخمدت الفتنة قليلا .

ثم ان السلطان نادى للناس في ذلك اليوم بالأمان

والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن أحدا لا يكتر

كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأسواق تفتح على العادة

وأن لا أحد يشوش على أحد من المتسبين ،

وكانت الأسواق جميعها مقفلة من حين وقعت هذه

الحركة بسبب المماليك ، فلما أشهر المناداة بذلك

(١) خامسه يوم سبت .

ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس وخمدت تلك الاشاعات بالركوب على السلطان .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأنفق على المماليك الكتائية جامكية هذا الشهر ، ثم أحضر أغوات الطباقي الأعيان ووبحهم بالكلام وقال لهم : « ان كان لكم قصد أن تسلطنوا أحدا غيرى فأنا أنزل له عن الملك وأرسلونى فى أى مكان تختارونه » . فباسوا له الأرض وقالوا : ما لنا أستاذ الا أنت وما نموت الا تحت رجلك وما لنا حاجة بنفقة من السلطان وقد رضىنا بلا نفقة ان شئت تعطى أو لا تعطى . فقال السلطان : « خلى المشاعلى ينادى بأن النفقة بطالة » . فلم يطلع الوالى ولا المشاعلى فى ذلك اليوم ، فقام الزينى بركات بن موسى المحتسب ونادى بنفسه فى الميدان بين العسكر بأن معاشر الأمراء والعسكر المنصور حسبما رسم المقام الشريف بأن النفقة على العسكر بطالة . ثم بعد ذلك طلع المشاعلى فقال له السلطان : « نادى فى القاهرة بأن النفقة بطالة » . فنزل الزينى بركات بن موسى والمشاعلى قدامه ينادى للعسكر بأن النفقة بطالة ، وقد طمعت آمال المماليك بالنفقة وما يعلم ما وراء ذلك الا الله .

وفي يوم الخميس سابع عشره ، جلس السلطان فى الحوش على المصطبة وأنفق الجامكية على العسكر ، وأشيع أن فى تلك الليلة ثارت المماليك بالقلعة بعد العشاء ، فثار المماليك الذين فى طبقة الطازية على المماليك الذين فى طبقة الزمامية حتى اتفقوا بالدبابيس وقالوا : « اتتو عملتوا لكم وجه عند السلطان وقتلوا ما لنا حاجة بنفقة فتصيروا اتتو أحبابه ونحن نصير أعاديه ، فأحق ما نكون ونحن واتتوا على كلمة واحدة ، وما نرجع عن

طلب النفقة لكل مملوك مائة دينار » . وصمموا على ذلك ، وصار طائفة من المماليك مع السلطان وطائفة عليه .

فلما سمع الناس ذلك شرعوا يوزعون قماشهم وأمتعتهم فى الحواصل ، وكذلك السوق وزعوا ما فى دكاكينهم من البضائع ، ولهج الناس باقامة فتنة كبيرة ، والأمر فى ذلك لله تعالى .

وفي يوم الجمعة ثامن عشره ، ثارت المماليك الجلبان بالقلعة بعد صلاة الجمعة ونزل طائفة منهم الى الصليبة فنهبوا ما وجدوه ، واستمروا على ذلك مهما لاح لهم يخطفوه ، فبانوا على أن يصبحوا ينهبوا المدينة وبيوت الأمراء ، وكان أكثر الأمراء وزع قماشهم .

فلما أصبحوا يوم السبت أشيع بأن النفقة عمالة لكل مملوك خمسون دينارا ، وأن القرائصة ما يعطيهم شيئا ، فمن المماليك الجلبان ما رضى بالخمسين دينارا ومنهم من قال : ما نأخذ الا مائة دينار ، وأشيع بأن المماليك القرائصة والسيفية لم ينفق عليهم شئ ، واستمر القيل والقال عمالا بين الناس وقد لهجوا باقامة فتنة كبيرة .

وفي يوم الأحد عشرينه نزل السلطان وسير نحو المطرية ، ثم عاد من يومه الى القلعة ، وشق من القاهرة فى ذلك اليوم ، وسكن أمر حركة المماليك قليلا من حين نادى لهم بأن النفقة فى شهر صفر مع الجامكية لكل مملوك خمسون دينارا .

وفي يوم الاثنين حادى عشرينه^(١) رسم السلطان بسجن جاني بيك الأستادار الذى كان دوا دار طراباى ، فتوجهوا به الى المقشرة وهو راكب على بغلة فبات بالمقشرة ليلة واحدة ثم أعادوه الى بيت

(١) فى الاصل : الاثنين ثانى عشرينه . وفى أيام هذا الشهر اضطراب فى الاصل صححناه فى طبعتنا .

الوالى ثانيا ليعاقبه على المال الذى تأخر عليه . وكان صحبته لما أدخلوه المقشرة ابن شمس الدين بن عوض ، وقد تقدم القول على أن والده ابن عوض مات وهو تحت العقوبة ، وصار ابنه هذا تحت العقوبة حتى يقر بالمال الذى قرر على أبيه ، وكان صحبتهما شخص من أولاد ابن عمر مشايخ عربان الصعيد ، فباتوا جسيما بالمقشرة ليلة واحدة ثم عادوا بهم الى بيت الوالى ليعاقبهم على المال الذى تأخر عليهم .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه نزل السلطان وسير الى نحو بولاق وكشف على العمارة التى هناك ، ثم عاد الى القلعة من يومه وشق من الصليبة ذهابا وإيابا .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرينه دخل جماعة من العسكر من المماليك السلطانية ممن كان مسافرا بحلب فى التجريدة ، وقد أرسل لهم السلطان مراسيم بالمجئ فما صدقوا بذلك ، وقد قاسوا فى هذه السفرة ما لا خير فيه من الغلاء الذى وقع بحلب ، فباعوا خيولهم وسلاحهم وقماشهم حتى أكلوا بهم ، وما قاسى منهم أهل حلب خيرا ... نزلوا فى دورهم ونهبوا قماشهم وفسقوا فى حريمهم ، وشوشوا على سوقة حلب وأخذوا بضائعهم منهم غصبا ، حتى قيل ان بعض المماليك الجلبان أزال بكارة بنت صغيرة عمرها نحو ثلاث سنين ، وأشيع أنها ماتت ولم يصح موتها ، وقيل كانوا يهجمون على النساء فى الحمامات ويخطفوهن منها غير ما مرة ، وفعلوا أشياء فاحشة من هذا النمط ما فعلها من تقدمهم من المماليك السلطانية ، وثاروا على الباش قانى باى أمير آخور كبير وبهدلوه ، وأخرقوا به عدة مرار وما سلم من القتل الا سلامة ، وخربوا حلب عن آخرها من الظلم والجور ، وكان ترك رواحلهم الى حلب أصوب وما أفاد من رواحلهم

شيئا بل أفسدوا ما أصلحوا وما حصل برواحلهم نفع قط

وفى يوم الحيس رابع عشرينه حضر مبشر الحاج ، وقد جد فى السير فكانت مسافته فى الطريق اتنى عشر يوما ، فأخبر بالامن والسلامة ، وأن ابن السلطان طيب وكذلك خوند وبقيّة الحجاج طيبون ، وكذلك القاضى كاتب السر محمود ابن أجا طيب فى خير وسلامة ، وكان أشيع موته فما صح ذلك ، ففرح أكثر الناس بسلامته . وكان محببا للناس قاطبة ، وأخبر المبشر بأن عيد النحر كان هناك يوم الجمعة . ثم ان المبشر طاف على الأمراء والمبشرين وأعيان الناس وأخبرهم بسلامة ابن السلطان فأفيضت عليه الخلع السنية من الأمراء وأعيان الناس قاطبة .

ومما أشيع من الأخبار فى كتب الحجاج أن ابن السلطان لما دخل الى مكة لاقاه السيد الشريف بركات أمير مكة ، فلما وصل ابن السلطان الى باب المعلة دخل مكة فى موكب حافل ، وأشيع أن الشريف بركات نزل عن فرسه ومسك بأزكة لجام ابن السلطان ومشى عن يمينته ، ومشى الأمير طقطبى أمير ركب المحمل عن يساره وهو ماسك بأزكة اللجام ، ومشى أمير ركب الأول ، ثم لاقاه قضاة مكة وأعيان التجار فمشوا قدامه حتى وصل الى باب السلام ، فعد ذلك من النوادر .

ثم ان الشريف بركات أرسل الى ابن السلطان تقادم حافلة ما بين ذهب عين وقماش ورقيق وغير ذلك ، وأرسل لخوند زوجة السلطان أضعاف ذلك ، ثم قدم اليه قضاة مكة وأعيان التجار الذين بها التقادم الحافلة ، وكذلك الأمير حسين نائب جدة ، فدخل على ابن السلطان وخوند من التقادم الحافلة ما لا يحصى ، وأشيع أن الشريف بركات واصل صحبة ابن السلطان بركب المحمل ، وقيل

ان خوند زوجة السلطان لما دخلت الى مكة حملت محفتها على أكتاف جماعة الشريف بركات من باب المعلة الى باب السلام ، هكذا أشيع فعد ذلك من جملة سعد السلطان . وأشيع أن كتب الحجاج بأن الغلاء بمكة في سائر البضائع ، وأن الشاشات والأزر لم يوجد بمكة لعدمهما جدا .

وفي يوم الجمعة خامس عشرينه توجه الأمير طومان باي الدوادار الى الخانكاه وقد بلغه أن ممالك جراكسة وصلوا صحبة الففل ، وأن له أقارب جراكسه صحبه الممالك ، وأشيع أن السلطان واصل له أخ جركسي صحبة القفل ، فخرج الأمير الدوادار بسبب ذلك .

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة عشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة هادئة من الفتن ، وأخصب فيها الزرع ووقع فيها الرخاء في سائر الغلال والبضائع ، ولم يقع فيها الطاعون بمصر ولا أعمالها ، وحصل فيها نصره عظيمة لابن عثمان ملك الروم على اسمعيل الصفوي ملك العراقين ، وخرجت من مصر تجريدة بسبب حفظ مدينة حلب ورجع العسكر وهم سالمون من تلك الفتنة .

سنة احدى وعشرين وتسعمائة (١٥١٥م) :

فيها في المحرم ، افتتاح العام كان يوم الخميس المبارك ، وكان خليفة الوقت يومئذ المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف قانصوه الغوري عز نصره . وأما القضاة الأربعة فكان يومئذ القاضي علاء الدين الأحميمي الشافعي والقاضي شمس الدين السمديسي الحنفي والقاضي جلال الدين بن قاسم المالكي والقاضي شهاب الدين الفتوحى الحنبلي . وأما الأمراء المقدمون فكان عدتهم يومئذ سبعة

وعشرون أميراً مقدم ألف وهم : الأتابكي سودون العجمي أمير كبير ، وكانت امرية السلاح شاعرة ، والأمير أركماس بن طراباي أمير مجلس ، والأمير قاني باي قرا أمير آخور كبير ، والأمير سودون الدواداري رأس نوبة كبير ، والأمير طومان باي دوادار كبير ابن أخى السلطان ، والأمير أنص باي ابن مصطفى حاجب كبير ، وأما بقية الأمراء المقدمين غير أرباب الوظائف فالأمير قانصوه بن سلطان جركس ، والأمير تمر الزردكاش ، والأمير أرزمك الناشف والأمير طقطبای نائب القلعة ، والأمير قانصوه الفاجر ، والأمير أزيك المكحل والأمير تاني بيك النجمي ، والأمير تاني بيك الخازندار ، والأمير نوروز أخو يشبك الدوادار ، والأمير جان بلاط الموتري ، والأمير علان الدوادار الثاني ، والأمير خاير بيك كاشف الغريبة ، والأمير بيبرس قريب السلطان ، والأمير يخشبای والأمير قانصوه روح لو نائب قطيا ، والأمير قانصوه أبو سنة الذي كان والي القاهرة ، والأمير أبرك مملوك السلطان ، والأمير خدا بردي نائب الاسكندرية مملوك السلطان ، والأمير خاير بيك العلاني الشهير بالمعمار وهو آخر من قرر من المقدمين ، والأمير أقبای الطويل أمير آخور ثاني .

وأما الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات فازداد منهم جماعة وانتقص منهم جماعة ما يحضرني اسمائهم الآن .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين فالقاضي كاتب السر محمود بن أجا صاحب ديوان الانشاء الشريف ، ونائبه الشهابي أحمد بن الجيعان ، والقاضي محيي الدين عبد القادر القسروي ناظر الجيوش المنصورة ، وعلاء الدين بن الامام ناظر

الخواص الشريفة ، والجمالى يوسف البدرى وزير
الديار المصرية ، وشرف الدين الصغير ناظر الدولة
الشريفة وكاتب الممالك أيضا ، والأمير طومان
باى الدوادار متكلم فى الأستادارية وغير ذلك
من الوظائف ، والقاضى أبو البقا بن المستوفى ناظر
الاسطبل الشريف ، وبقية المباشرين على حكم
السنة الخالية ، وكانت وظيفة الزمامية شاغرة من
حين توفى الأمير عبد اللطيف الزمام ، وبقية أرباب
الوظائف على حكم السنة الخالية .

فكان مستهل السنة يوم الخميس المبارك ، فطلع
الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد ،
وكان السلطان فى الميدان ، وكان قبل ذلك بأيام
نادى للعسكر أصحاب الطبقة الخامسة بالعرض ،
وقد أشيع أنه يرسل تجريدة الى بلاد الهند بسبب
تعبث الفرنج فى بحر الهند ، فلما طلع العسكر
وعرضهم فى ذلك اليوم فلم يقع فيه كتابة ولا تمييز
بل قال لهم : اطلعوا يوم الأحد أيضا .

وفى ذلك اليوم حضر قاصد من عند سليم شاه
ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبة من سليم
شاه للسلطان ، فكان من مضمون تلك المكاتبة
أن شخصا من أولاد شاه سرار بن ذالغادر حصل
بينه وبين عمه على دولات تشاجر بسبب بلاد آبيه
فحنق منه وتوجه الى ابن عثمان ، فتعصب له
سليم شاه وأرسل يسأل السلطان فى أن يعطى
ابن سوار بلاد آبيه التى بيد على دولات ، فلم
يوافق السلطان على ذلك ، وتنكد لهذا الخبر فى
ذلك اليوم الى الغاية ، واشتور مع الأمراء فى هذا
الأمر ، وربما تنسع هذه الفتنة بين ابن عثمان
والسلطان ، والأمر فى ذلك الى الله تعالى .

وفى ذلك اليوم أشيع من الأخبار بأن ابن عثمان
أمد ابن سوار بعساكر وتوجه على حين غفلة
وكبس على عمه على دولات وحصل بينهم مقتلة

مهولة قتل فيها ابن على دولات وابن ابنه وقتل
جماعة كثيرة من عسكره فى المعركة ، وأن على
دولات اختفى فى قلعة زمنطوا ، وأن ابن عثمان
ما هو راجع عن على دولات ، فشق على السلطان
هذه الأخبار ، وأشيع أن ابن عثمان أظهر فى
مكاتبته التى أرسلها للسلطان غاية العظمة وقال
فيها : ان مقامنا الشريف ، وقال فى حق السلطان :
مقامكم العالى ، وهذا من نوع الاستخفاف
بالسلطان ، وكان سليم شاه بن عثمان هذا عنده
جهل زائد ويحب اقامة الفتن ، وكان سفاكا للدماء
فقتل اخوته وأولادهم وكان فيهم من هو مريض ،
عما قيل من جهله .

فلما كان يوم الجمعة ثانى الشهر ، صلى السلطان
صلاة الجمعة ، ثم حلا هو والأمراء وضربوا
مشورة فى أمر ابن عثمان وعلى دولات ، وأشيع
أن السلطان عين فى ذلك اليوم أربعة من الأمراء
المقدمين يتوجهون الى حلب ، وأشيع أن السلطان
أرسل يقول للأمراء الذين فى حلب : لا تجوا حتى
ننظر ماذا يكون من أمر ابن عثمان وعلى دولات ،
ولكن غالب العسكر من الممالك السلطانية دخل
الى مصر ، وكان السلطان قبل ذلك بعث اليهم
مراسيم بالمجئ الى مصر لما قلقوا من أمر الغلاء
الذى بحلب ، ثم بعد ذلك طرقة هذه الأخبار فندم
على حضور العسكر ، وكثر فى ذلك القيل والقال
بين الناس عن أمر مجئ العسكر حتى أشيع عودهم
الى حلب والأحوال غير صالحة .

وفى يوم السبت ثالثه أنفق السلطان على جماعة
الأمراء الذين لهم مرتبات على الذخيرة ، وكان لهم
من حين توفى الأمير خاير بيك الخازندار لم
يصرف لهم شئ ، فغلق لهم فى ذلك اليوم ما كان
منكسرا لهم من المرتبات .

وفى يوم الأحد رابعه نزل السلطان الى الميدان وعرض عسكر الطبقة الخامسة وقال لهم : اعملوا يرقكم الى السفر فى أول ربيع الأول ، وسافروا الى الهند بسبب تعبث الفرنج فى بحر الهند .

وقيل انه وعد الذى له جامكية ألف وخمسمائة درهم بأن يكملها له ألفى درهم اذا بيضوا وجوههم فى هذه السفرة وتصير جامكية الكل ألفى درهم ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء فى ذلك اليوم ، وقيل انه كتب عسكر الطبقة الخامسة جميعها وهم ما بين أولاد ناس وممالك وتراكمة وغير ذلك .

وفى ذلك اليوم خرج القاضى شهاب الدين بن الجيعان وتوجه الى العقبة لأجل ملاقاته ابن السلطان وخوند والقاضى كاتب السر ، فخرج وصحبته جماعة من الممالك السلطانية وغير ذلك من الأعيان ، وكان صحبته أشياء حافلة من مأكلى ومشرب يرسم المدات التى تعمل هناك ، وحلوى وفاكهة وبطيخ صيفى وغير ذلك من الأشياء الملوكة .

وفى يوم الاثنين خامسه جلس السلطان بالميدان ونادى للعسكر الذى جاء من حلب بأن يطلع الى القلعة ويقابل السلطان وعليه أمان الله تعالى ، وكان العسكر من حين حضر من حلب وهو محتف فى البيوت لم يظهر منهم أحد .

وفيه حضر للسلطان شخص من بلاد جركس زعموا أنه ابن أخيه ، فطلع فى ذلك اليوم وقابل السلطان وكان رجلا كاملا شابا مستدير اللحية ، وكان يقرب للأمير الدوادار أيضا .

وفى يوم الخميس ثامنسه حضر الى الأبواب الشريفة طراباى نائب صفد بطلب من السلطان ،

وكان أصله من ممالك الأشرف قايتباى ، وقيل كان أصله من ممالك يشبك بن حيدر .

وحضر عقيب ذلك قاصد من عند على دولات وعلى يده مكاتبة للسلطان يذكر فيها ما وقع له مع ابن أخيه سوار ، وأن ابن عثمان منعصب له وقائم معه ، والأمر على ما يراه السلطان . وكان سبب حضور نائب صفد قيل انه وقع بينه وبين أمير كبير حتى يرى الظالم من المظلوم فيحكم بينهم بما تقتضيه الآراء الشريفة فى ذلك .

وأشيع أن الشهابى أحمد بن الجيعان لما خرج الى ملاقاته ابن السلطان من العقبة أرسل صحبته السلطان خاعة سنينة الى السيد بركات أمير مكة ، وقد بلغ السلطان حضوره صحبة المحمل مع ابن السلطان وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم السبت عاشره طلع قاصد على دولات وقابل السلطان ، فلما قرأ مكاتبته جمع الأمراء المقدمين قاطبة والأمراء الطبلحانات والأمراء العشراوات وقرأ عليهم مكاتبة على دولات ، ولم ينشرح السلطان فى ذلك اليوم ولا الأمراء لهذه الأخبار التى وردت عليه من على دولات بسبب ابن عثمان ، وأنه ما هو راجع عن على دولات وأظهر التعصب لابن سوار ، فأقام الأمراء عند السلطان الى قريب الظهر وهم فى ضرب مشورة بسبب ابن عثمان وعلى دولات . وأشيع أن السلطان عين أربعة من الأمراء المقدمين يتوجهون الى حلب وبقيمون بها زيادة على ما هناك من الأمراء المقدم ذكرهم ، حتى يروا ما يكون من أمر ابن عثمان .

وفى هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا كمال الدين ابن قوسان ، وكان عشير الناس بشوشا مستغرقا

فى ملاذ نفسه ، وكان لا بأس به ، فمات وقد قارب
السبعين سنة من العمر .

وفى يوم الأحد حادى عشره نزل السلطان
وعدى الى المقياس وبات به تلك الليلة وانشرح
هناك ، وقيل انه لم يبت بل أقام به الى بعد العصر
وهو فى أرغد عيش من مأكلى ومشرب ، ثم عاد
الى القلعة من يومه .

وفى يوم الاثنين ، ثانى عشره ، عين السلطان
خاصكيا يقال له جانم ، وأصله من ممالك
الأشرف قايتباى ، وكان من ذوى العقول ، بأن
يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ، وكتب على يده
مطالعة الى ابن عثمان بالجواب عن مطالعته بما
تقتضيه الآراء الشريفة فى أمر على دولات وابن
أخيه سوار ، وقرر معه اذا سافر يخرج على
جرائد الخيل حتى يعود بسرعة الجواب عن ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره أشيع وصول
ابراهيم بن السكر والليمون الى بندر الطور ،
وكان قد تغير خاطر السلطان عليه فنفاه الى مكة
فأقام هناك نحو ثلاث عشرة سنة ، فلما حصل
للسلطان ذلك التوعدك فى عينه كما تقدم ورسم
باطلاق من فى السجون فتكلم بعض المباشرين مع
السلطان وشفع فى عود ابراهيم هذا الى الديار
المصرية ، فأجاب السلطان الى ذلك ، وكتب له
مراسيم بالحضور الى مصر ، فلم يحضر الا بعد
أشهر ، وقد جاء من البحر الملح فوصل الى الطور
على ما قيل ، وقد قاسى شدائد ومحن عند عوده
وأشيع أن أولاده وعياله وجميع ما يملكه غرقوا
فى البحر ، وأمره الى الله تعالى .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه توفى القاضى ابن يريم
أحد نواب الحنابلة ، وهو أحمد بن على يريم ،

وكان بينه وبين وفاة أخيه شمس الدين دون
السنة ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الأربعاء حادى عشرينه نزل الحاج
بالبركة ، فنزل سيدى عمر بن الملك المنصور أمير
ركب الأول ، ونزل الأمير طقطبباى أمير ركب
المحمل ، ونزل سيدى ابن السلطان وخوند زوجة
السلطان ، وحضر صحبة ابن السلطان السيد
الشريف بركات أمير مكة وولده وصهره عرعر ،
وحضر القاضى كاتب السر محمود بن أجا ، وحضر
شيخ العرب عبد الدائم بن بقر وأخوه بيسرس ،
وغير ذلك من أعيان الحجاج ، فخرجت الأمراء
قاطبة الى تلقيهم وأعيان الناس ، فكان لدخولهم
الى بركة الحاج يوم مشهود ، ولأقاهم القضاة
الأربعة فأقام ابن السلطان فى بركة الحاج الى بعد
العصر وركب من هناك ودخل الى القاهرة فنزل
فى مدرسة أبيه وبات بها ، وكذلك أمراء الحاج .
وأما خوند زوجة السلطان فانها طلعت الى
القلعة فى المحفة تحت الليل وحولها المشاعل
والفوانيس ، فطلعت من باب الدرفيل ولم يشعر
بها أحد من الناس ، ودخل القاضى كاتب السر الى
بيته تحت الليل ، وكان عليلا ، فدخل فى محفة الى
داره .

فلما كان يوم الخميس ثانى عشرين المحرم جلس
السلطان بالحوش وعمل الموكب بالشاش والقماش
وحضر الأتابكى سودون العجمى أمير كبير وسائر
الأمراء المقدمين غيرهم وأرباب الدولة قاطبة . ثم
ان ابن السلطان ركب من مدرسة أبيه التى
بالشرابشين وركب قدامه الشريف بركات أمير
مكة وولده وصهره وهم بكوامل مخمل أحمر
بسمور ، وكان السلطان أرسل تلك الكوامل الى
الشريف صحبة الشهابى أحمد بن الجيعان الى

العقبة لما خرج الى ملاقاته سيدي ابن السلطان ، فلبس الشريف بركات وولده وصهره تلك الكوامل عند طلوعهم الى القنطرة ، ولبس سيدي ابن السلطان كاملية تماسيح على أحمر ، فلاقاهم رءوس النوب وهم بالشاش والقماش ، واستمروا على ذلك حتى وصلوا الى سلم المدرج ، وكان قدامه الشريف بركات وأمراء الحاج ، فلما وصلوا الى سلم المدرج نزل ابن السلطان من على الفرس ، وكان تحته فرس بوز بسرج وكنبوش ، وكذلك الشريف بركات وأمراء الحاج ، من عند المكان الذي تنزل عنده الأمراء المتقدمون ، ثم طلّعوا بالفرس ثانيا الى عند المصطبة التي يجلس عليها نائب القلعة ، فركب ابن السلطان من هناك ثانيا ، ومشى قدامه الشريف بركات ومسك بأزكة لجامه من على الميمنة ومسك بأزكة اللجام من على الميسرة الأمير طقطبای أمير ركب المحمل ، وكان الأمير طقطبای يومئذ مقدم ألف نائب القلعة ، ومشى قدامه الجهم الغفير من الرءوس النوب والخاصكية وهم بالشاش والقماش ، ومنى قدامه الشباية السلطانية والشعراء والشاوشية ، واستمر في هذا الموكب الحافل حتى وصل الى باب الحوش ، فنزل على مصطبة مشد الحوش ودخل من باب الحوش والموكب عمال . وكان ابن السلطان عمره يومئذ نحو عشر سنين .

ولقد أدركت الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف أينال لما أن حج — وكان اذ ذاك أتابك العساكر — فلما حضر من الحجاز وطالع الى القلعة ما وقع له مثل ما وقع لابن الأشرف الغوري هذا من المواكب الحافلة بالحوش ... فلما وصل الى المصطبة التي جالس عليها السلطان تقدم الشريف بركات الى عند السلطان فقام له نصف قومة ، وباس أمراء الحج له الأرض ، ثم تقدم ابن السلطان

وباس الأرض لأبيه ، فأحضر لهم الخناع : على الشريف بركات مشمر وأطلسين ، وخاع على ابن الشريف بركات وصهره كوامل مخمل أحمر بسمور ، وخلع على أميرى الحج لكل واحد منهما مشمر وأطلسين لكون أن سيدي عمر ابن السلطان ثم أحضروا لابن السلطان فوقاني حرير أخضر بطرز يلغاوى عريض فوق الكاملية المخمل التي بالسمور ، ثم نزل الشريف بركات وولده وصهره من القلعة ، ودخل ابن السلطان الى دور الحرم ، وانقض ذلك الموكب على خير .

فلما نزل الشريف بركات وأمراء الحاج من القلعة نزل صحبتهم الأتابكى سودون العجمي وجماعة من الأمراء المقدمين ، فشقوا من القاهرة وكان لهم يوم مشهود : فأوصلوا الشريف بركات الى المكان الذي أنزله فيه السلطان ، قيل أنزله السلطان في بيت الأمير جانم مصبغة الذي بالقرب من مدرسة السلطان ، فأوصل الأمراء الشريف بركات الى ذلك المكان ورجعوا الى بيوتهم ، وكذلك أمراء الحاج ، وأما القاضي كاتب السر محمود بن أجا فانه لما رجع من الحجاز كان متوعكا في جسده فلم يطلع الى القلعة ولا فابل السلطان ، وقد هنيته عند عوده من الحجاز بهذين البيتين وهما :

عن كاتب السر شاع فضل

يستوجب الشكر والمحامد

قد عم من بره البرايا

وحج في الناس وهو قاعد

فكان نهذين البيتين موقع لما عرضا عليه وقرأهما ، فلما رجع الحجاج الى القاهرة أثنوا بكل خير على سيدي عمر بن الملك المنصور أمير ركب الأول وشالوا له الرايات البيض في وسط الرملة ، بخلاف الأمير طقطبای أمير ركب المحمل .

وأما خوند زوجة السلطان وولده فلم يثن
عليهما أحد بحير ولا ظهر لخوند في المناهل مكارم
أخلاق كما كانت تفعل خوند الخاصكية زوجة
الأشرف قايتباي لما حجت ، فلم ير لهم أحد من
الحجاج رأس سكر ولا مجمع حلوى ، وكل من
كان معهم رد يشكو من الجوع ، فكان كما يقال
في المعنى :

وكم لله من رجل سمين
كثير المال مهزول البذل
كذاك الطبل يسمع من بعيد
وداخله من الخيرات خال

وكان سبب ذلك أن السلطان هذا أخس خلق
الله وأبخلهم على الإطلاق ، فلم يمكن أحدا من
الناس في شيء من أمر السنيح ، وكان ابن السلطان
صغيرا لا يحكم على شيء من أمور السنيح ، حتى
فيل ردوا بالأكل الذي في السنيح لهم ينقص منه
الا القليل ، فكان كما يقال :

لا تعجبوا ان سمى كريم
لحاجة في يدى بخيل
فانه كالخلاء حتما
لا بد فيه من الدخول

وفي صفر طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة
بالشهر ، وكان مستهل الشهر يوم السبت .

وفي يوم الأربعاء خامسه جلس السلطان في
القصر الكبير المطل على الرملة ، وعزم هناك على
الشریف بركات أمير مكة ومد له أسمطة حافلة ،
وأقام عنده الى أواخر النهار ، وقدم له السلطان
تقدمة حافلة ما بين خيول وجمال وغير ذلك .

وفي يوم الخميس سادسه خلع السلطان على
الشرفي يونس النابلسي الذي كان أستاذارا وقرره

في استيفاء جيش الشام عوضا عن بدر الدين بن
الانباي بحكم وفاته ، فنزل من القلعة في مركب
حافل .

وفي يوم الأحد تاسعه نزل السلطان الى المقياس
وعزم على الشريف بركات هناك ، وجلس معه
في القصر الذي أنشأه على بسطة المقياس ، وأقام
هنالك الى أواخر النهار ، ومد له أسمطة حافلة ،
ثم نزل في مركب وتيق من على الروضة وانطلقت
له النساء من الطيقان بالزغاريت ، واستمر في
المركب حتى طلع من بولاق ثم توجه الى القلعة
من هناك .

وفي الاثنين عاشره أشيع بأن في تلك الليلة سرق
من دار الضرب التي هي بالقلعة داخل الحوش
السلطاني نمائة آلاف دينار وكسور من الذهب
الجديد الذي ضربه السلطان بسبب النفقة ،
فذهبت ولا يعلم من فعل تلك الفعلة ، فلما بلغ
السلطان ذلك ألزم المعلمين الذين في دار الضرب بما
سرق من ذلك القدر ، فمضت ولم ينتطح في ذاك
شأتان .

وفي يوم ثالث عشره صمم المماليك على استعجال
النفقة ، فأخرج السلطان من حواصل الذخيرة
أشياء كثيرة من الأمتعة التي كانت في الحواصل
من ترك الخوندات والستات اللاتي متن واحتوى
السلطان على موجودهن ، ما بين قماش وبشاخين
زرکش وعنبر وأواني بلور وصيني وكفت وغير
ذلك ، وأخرج أشياء كثيرة من شاشات وأزر
وأثواب بعلبكي وأثواب صوف قبرسي وغير ذلك
فقوم ذلك بنحو خمسين ألف دينار ، فطلب التجار
ورمى عليهم تلك الأصناف بأعلى الأثمان فأطلق
في التجار النار ، وكان المتكلم في ذلك محمد
مهتار الطشتخاناه وقد جعله السلطان متكلم
على حواصل الذخيرة من حين تولى الحاج يافوت

فراش الخزانة ، فشدد محمد المهتار على التجار في جبي الأموال فجبيت منهم في مدة يسيرة لأجل النفقة ، وحصل على التجار الضرر الشامل وقد خسروا في الأتواب الصوف النصف فانها كانت معتسوته ، كذلك خسروا في البعلبكي والأزر والشاشات والأنطاع والمحابس اليسنى وغير ذلك .

ثم ان السلطان أطاق في المباشرين النار وضيق عليهم بسبب بواقى فضلات الأموال التي قررت عليهم من فضلات بواقى الحسابات ، فكتبوا له قوائم بما تأخر على المباشرين والعمال والمدركين وأرباب المصادرات فكان ذلك القدر نحو مائة ألف دينار ، فظهر على علاء الدين ناظر الخاص ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، وعلى الزينى بركات بن موسى المحتسب خمسة عشر ألف دينار ، وعلى القاصى شرف الدين الصغير خمسة آلاف دينار ، وغير ذلك من العمال ومن بواقى المصادرات ، فأطلقوا فيهم النار بسبب النفقة على المماليك ، وما قاسى أحد من أرباب الدولة بسبب هذه النفقة خيرا ، وقد استحثهم السلطان في سرعة ورود المال على النفقة .

وفي يوم الاثنين سابع عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أبرك أحد الأمراء المقدمين ، وأصله من مماليك السلطان ، وكان خرج الى حلب صحبة التجريدة وقد جعله السلطان باشا على المماليك الجلبان ، فلما رسم لهم السلطان بالعود الى مصر حضر الأمير أبرك قبل مجيء الأمراء فدخل الى مصر وسبق الباش ، ودخل صحبته جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ممن كان ، التجريدة ، فلما طلع وقابل السلطان خلع عليه ونزل الى داره في موكب حافل .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وأنفق عليهم النفقة التي كان وعد

العسكر بها وجرى بسببها ما تقدم ذكره ، فلم تكن هذه النفقة عامة على العسكر بل كانت لجماعة مخصوصة من المماليك ، فأعطى المماليكه الجلبان لكل واحد منهم خمسين دينارا ، وأعطى مثل ذلك للمماليك الأشرفية القاييتيية الشباب أصحاب الدقون السود دون الشيوخ ، ولم يعط المماليك القرائصة الشيوخ شيئا ، ولا المماليك السيفية شيئا ، ولا أولاد الناس شيئا ، ولا أصحاب الطبقة الخامسة التي تجددت ، فحصل للعسكر في ذلك اليوم كسر خاطر الى الغاية ، وقيل ان بعض المماليك وقف اليه بسبب النفقة وأغاظ عليه في الكلام ، فرسم بقطع جامكيتته في ذلك اليوم ولو زاد عليه لرسم بنفيه أيضا ، فلما جرى ذلك اعتبر بقية المماليك عن طلب النفقة .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان في القاهرة بأن لا مملوكا يركب في سرج بداوى ولا ركب بداوى ولا يتخلل باحرام صوف أبيض ولا يغطى وجهه اذا ركب ، ولا مملوك ولا غلام ولا عبد يخرج من بعد العشاء ، وصار يكرر هذه المناداة يومين موالية ، فشق على المماليك هذه المناداة وكانوا قد زادوا في الضرر للناس .

ثم ان جماعة من المماليك توجهوا الى الأمير طومان باى الدوادار ليكلم السلطان في أمر النفقة على بقية المماليك ، فلما كلمه لم يفد من كلامه شيئا ، واستمر السلطان باقيا على عدم النفقة على المماليك الشيوخ والعواجز ، فما وسعهم الا الصبر والسكوت عن ذلك ، فكان كما يقال في المعنى :

أنفقت عمرى وصحتى شغفا

عليك والصبر آخر النفقة

وفي أثناء هذا الشهر حضر الأمير اينال باى دوادار سكين وكان توجه الى حلب بسبب مجيء

العسكر وغير ذلك من الأشغال السلطانية ، وحضر الأمير خاير بيك المعمار ، وكان توجه الى العقبة بسبب اصلاح العراقيب التى بطريق العقبة لأجل خوند وابن السلطان قبل أن يجوا الى العقبة .

وفى هذا الشهر كثر الدعاء من الممالك القرائصة على السلطان بسبب منعه لهم من النفقة .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره أرسل السلطان خلف قاضى القضاة الشافعى محبى الدين بن النقيب المنصل ، فتوجه اليه بعض مهماترة الطشتخاناه ، فلما طلع به أرسل السلطان يقول له : « أورد ثلاثة آلاف دينار وتول وظيفتك على العادة » . فأرسل يقول للسلطان : « ما معى حاصرا غير ألف وخمسمائة دينار فولونى وقسطوا الباقي على كل شهر مائتا دينار » . فما رضى السلطان بذلك وانفصل المجلس مانعا ، فلما نزل ابن النقيب من عند السلطان أتى اليه الزينى بركات بن موسى ، فأخذه من المدرسة الناصرية ، وأركبه على حمار وتوجه به الى داره ورسم عليه حتى يرد ثلاثة آلاف دينار ان ولى أو لا يلى ، فأقام عنده فى الترسيم أياما ثم توجهوا به الى بيت القاضى كاتب السر وأحضروا له شرف الدين بن الأسيوطى الوكيل ، والقاضى شمس الدين بن وحيش ، ويقصدون أن يدعوا عليه بأن تحت يده ثلاثة آلاف دينار ثمن بدل عن وقف ابتاعه وأن ذلك القدر تحت يده ، فاعترف ابن النقيب بذلك وقال : « قد دفعت من ذلك القدر ألفين ومائتى دينار للسلطان » . وأظهر رجعة ذلك ، وذكر أن باقى ذلك المبلغ فقد من حاصله ، فانصرف فى الترسيم الى بيت ابن موسى يرد ثلاثة آلاف دينار فقاسى من البهدة ما لا خير فيه واستمر فى الترسيم مدة حتى يرد ذلك القدر ، ثم أشيع ولايته الى القضاء أياما وخمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن ،

وكان ابن النقيب أرشل قليل الحظ غير محبب للناس .

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه كان أول يوم من الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم ، ومن جملة لطف الله تعالى لهم يجمع فى هذه السنة طاعون بمصر .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرينه نزل السلطان الى الميدان وساق فداه الرماحة كما يسوفون عند دوران المحمل فى رجب ، وكان الشريف بركات أمير مكة حاضرا عند السلطان ، فلما مضى أمر الرماحة دخل السلطان هو والشريف بركات الى البستان الذى بالميدان ومد له أسطة حافلة .

وفيه عين السلطان شخصا من الحاصكية يقال له جانم بأن يتوجه الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ويكشف عن أخباره هل هو يقصد أن يثبى على بلاد السلطان أم على بلاد الصفوى ، فان الاشاعات كانت كثرت بمتى ابن عثمان على بلاد السلطان ، فخرج جانم هذا بسبب ذلك ، وقيل لأجل أقارب السلطان الذين أتوا من بلاد جركس وأسرهم بعض ملوك التتر ، فتوجه جانم ليشتريهم من ملك التتر بمبلغ له صورة .

وفى يوم الخميس سابع عشرينه فيه أكمل السلطان أمر النفقة ، واستمر مصمما على عدم اعطاء النفقة للممالك القرائصة والسيفية وأولاد الناس ، ثم فى أثناء ذلك اليوم نادى السلطان فى القاهرة بأن الممالك الذين أخذوا النفقة يعملون يرقهم ويكونون على يقظة فان التجريدة عمالة الى حلب ، فلما سمع العسكر ذلك اضطربت أحوالهم .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بشنق شخص من أولاد الناس كان عاقبا مجرما وله عدة قتلاء ، فشنق على باب الدرب الذى فى السبع سقايات .

وفي يوم الأحد سلخ هذا الشهر نزل السلطان وتوجه الى نجر فبه يشبك الدواidar التي بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفي ربيع الأول طلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، ثم عادوا الى بيوتهم .

وفي يوم الاربعاء ثلثه ورد على السلطان أخبار غير صالحة بأن سليم شاه ابن عثمان قد جهز عساكر عظيمة ورمى عدة مراكب في البحر ، وأنه زاحف على على دولات بنفسه ، فتأكد السلطان لهذا الخبر ورسم لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء المقدمين ويقول لهم . اطلعوا الى عند السلطان حتى يهرا عليكم الكتب التي وردت عليه عن أخبار ابن عثمان . فطلعوا الى عند السلطان في ذلك اليوم ، فلما اجتمعوا فرأ عليهم ما ورد عليه من المطالعات عن أخبار ابن عثمان ، فأقام الأمراء عنده الى بعد العصر وهم في ضرب مشورة بسبب على دولات وابن عثمان ، ثم بعد أيام خمدت تلك الاشاعات واستمر الأمر مبني على السكون .

وفي يوم الأربعاء عاشره نزل السلطان الى الميدان وساقوا قدماه الرماحة وهم لابسون الأحمر والخوذ كما يفعلون عند دوران المحمل في رجب ، واجتمع في الميدان الجهم الغفير من الناس بسبب الفرجة ، وكان الشريف بركات حاضرا مع الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفي ذلك اليوم توفي الأمير اسنباي الأصم أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان من أعيان مماليك الأشرف قايتباي ، وكان علامة في لعب الرمح وقد فاتته التقدمة من قبل ذلك ، وكان لا بأس به ، وقد مات فجأة على حين غفلة .

وفي يوم الخميس حادي عشره عمل السلطان المولد الشريف النبوي ونصبه في العيسة الكبيرة المدورة بالحوش ، قيل ان مصره في تلك العيسة على الأشرف قايتباي ستة وثلاثون ألف دينار ، فحضر القضاة الأربعة والشريف ، بركات أمير مكة ، قيل أجده ، السلطان فوق الإتابكي سودون العجمي ، واجتمع سائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف ومشايخ العلم ، وكان يوما مشهودا على العادة .

وفي يوم السبت ثالث عشره أشيع أن اقطاع أسنباي الأصم أنعم به السلطان على الأمير قايتباي الذي كان نائب الكرك ، فصار من جملة الأمراء الطبلخانات

وفيه حضر الأمير ألماس دواidar سكين الذي كان توجه الى طرابلس بسبب ضبط موجود جانم نائب طرابلس الذي توفي ، وقرر عوصه تمرار مملوك السلطان الذي كان نائب قلعة حلب ، وقرر في نيابة قلعة حلب قانصوه الساقى عوضا عن تمرار الأشرفي بحكم انتقاله الى نيابة طرابلس ، وتوجه ألماس أيضا بسبب تقليد تمرار المذتور لما ولى نيابة طرابلس ، وبسبب جبي الأموال التي قررت على عربان جبل نابلس ، وغير ذلك من البلاد بسبب المشاة ، فأهلك الحرث والنسل .

وفي يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير قاي باي قرا أمير آخور كبير باش العسكر الذي كان توجه الى حلب ، وحضر الأمير سودون الدواidar رأس بوبة النوب ، وحضر الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وكانوا توجهوا في هذه التجريدة صحبة أمير آخور ، فلما دخلوا الى القاهرة باتوا في مدرسة السلطان ، ثم طلعوا الى القلعة وقاموا في ذلك اليوم السلطان ، فحلح عليهم كوامل بسمور ونزلوا

الى دورهم في، موكب حافل ، فكانت مدة غيبة
الأمراء في هذه السفرة نحو تسعة أشهر ورجعوا
وهم سالمون لم يفقد منهم أحد ، ولا وقع بينهم
قتال بسبب ابن عثمان والصفوى ، لكن قاسى
العسكر في هذه السفرة مشقة زائدة بسبب الغلاء
الذى وقع بحلب وقلة العليق على الخيول ، فباعوا
خيولهم وسلاحهم وقماشهم ، فدخلوا الى مصر
وهم في غاية التعفيش ومنهم من دخل وهو راكب
على حمار .

وفي ذلك اليوم أكمل السلطان على العسكر
النفقة المقدم ذكرها على حكم ما شرح فيه ولم يعط
المماليك القرائصة العواجز ولا أولاد الناس شيئا ،
وصار الذى يأخذ النفقة يكتبه كاتب المماليك
طائفة الى جهة الشرقية وطائفة الى جهة الغربية ،
وطائفة الى منفوط وطائفة لحفظ الجسور ، فصار
بعض المماليك يقول : « ما لنا حاجة بنفقة على هذا
الوجه » .

فلما أقام قانى باى أمير آخور في المدينة ثلاثة
أيام أهدى الى السلطان مقدمة حافلة على ما قيل ،
فكان من جملتها ذهب عين عشرة آلاف دينار
 وخمسة وعشرون مملوكا جراكسة وخيول خاصات
أربع طوابل وأربعمائة رأس غنم وأثواب بعلبكي
وأثواب صوف وغير ذلك أشياء فاخرة ، وقيل
أحضر الى السلطان ثمانين ألف دينار وذلك مما
جباه من أمر المشاة الذين أفردهم السلطان على
الشام وحلب وحماه وغير ذلك من البلاد بسبب
المشاة التى تخرج قدام العسكر في التجريدة ،
فحصل على أهل تلك البلاد منه الضرر الشامل
وأخذ أموالهم بالظلم والعسف ، وقرر على جهات
البلاد الشامية من الاقطاعات والرزق على كل
رأس من الفلاحين قدرا معلوما ، كما فعل بعربان
جبل نابلس وغيره من البلاد ، فضج منه الأفلاك

والأملاك بسبب ذلك ، وكان المحرك لذلك يوسف
ابن أبى أصبع .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره نزل السلطان الى
الميدان وأرسل خلفه الشريف بركات أمير مكة ،
وحضر أمير كبير وجماعه من الأمراء المقدمين ، ثم
أحضر ممالك يرمون بالشباب على الخيل وهم
باللبس الكامل فأظهروا أشياء عربية في فنون
الرماية ، وأحرق السلطان احراقة نبط بالنهار في
الميدان ، وأحضر الأفيال الكبار فتصارعت قدامه ،
وكذلك السبع والهزبر ، فانشرح السلطان في ذلك
اليوم وكان يوما مشهودا فأقام في الميدان الى
قريب الظهر

وفي يوم الجمعة تاسع عشره الموافق لسابع
بشنس القبطى ، فيه قلع السلطان الصوف ولبس
البياض ، وكان الوقت يومئذ رطباً .

وفي يوم السبت عشرينه نزل السلطان الى
الميدان وبات به ليلة الأحد ، فدخل الى البستان
الذى أنشأه به فأطلق ماء البحرة ونثر فيها الورد
والياسمين ، وفرش حولها الفرش الفاخرة ، وعلق
بين الأشجار أحمال قناديل وتعاليق كثيرة ما بين
تنانير وأمشاط وغير ذلك حتى أضاء البستان
بالنور ، ثم أرسل خلف الشريف بركات وبات
عنده تلك الليلة ، ومد له أسمطة حافلة وطوارى
فاخرة ما بين حلوى وفاكهة وغير ذلك ، ثم أحضر
اليه مغانى البلد وأرباب الآلات الدواخل ، فكانت
ليلة حافلة من اللىالى الملوكية ، كما قال فيها
الشاعر :

ومجلس راق من غير واش يكدره
ومن رقيب له في اللوم ايلام
ما فيه ساع سوى الساقى وليس به
على الندامى سوى الريحان نمام

فلما أصبح أصبح يوم الأحد خرج السلطان وجلس في الميدان وأحضر جماعة من المماليك يرمون بالنشاب على القبق ، فأقام في الميدان يومين وليلة ثم طلع الى القلعة ، وقد بالغ في اكرام الشريف بركات بأشياء لم تقع لأحد من أجداده ولا أقاربه .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره ، فيه خلع السلطان على أمراء الحاج فقرر الأمير علان أحد المقدمين ودوادار ثاني أيضا أمير ركب المحمل ، وقرر الجنب العلاء على بن المؤيد أحمد بن الأشرف اينال أمير ركب الأول ، فكان لهما موكب حافل .

وفي ذلك اليوم أشيع أن خشقدم شاد الشون قد هرب وصحبته جماعة من المماليك السلطانية فهياً له مركبا بستة عشر مقدافا ، وقيل انه أخذ معه نحو عشرة مماليك ، وخرج من مصر على حمية ، فأشيع أنه قد توجه الى عند سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، وقيل ان له أخا عند ابن عثمان أمير من أمرائه فتوجه اليه ، وأصل خشقدم هذا من مماليك السلطان قانصوه الأشرف الغوري من مشترياته ، وكان أنعم عليه بامرة عشرة وجعله رأس نوبة عصاة بم فرره في شادية الشون ، وكان قبل ذلك تكلم في نيابة جدة نيابة عن الأمير حسين نائب جدة فاستمر على ذلك مدة ، ثم ان السلطان صادره وأخذ منه نحو خمسة آلاف دينار ، وكان خشقدم هذا متزوجا بينت جاني بيك دوادار طراباي الذي كان ناظر الديوان المفرد ، فلما قبض السلطان على جاني بيك أمر خشقدم بطلاق بنت جاني بيك غصبا وقيل كان له منها أولاد وربما ألزمه بما تأخر على

جاني بيك من المال ، فما طاق خشقدم ذلك وحمل على نفسه فهرب نحو بلاد ابن عثمان ، فكان كما يقال في المعنى :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق

فلما أشيع توجه خشقدم الى بلاد ابن عثمان كثر القال والقليل بين الناس بسبب ذلك ، وقيل ان أخا خشقدم هذا كان مقيما عند ابن عثمان سليم شاه وهو من أخصائه ، فختى بعض العقلاء أن خشقدم يحسن لابن عثمان أن يمشى على بلاد السلطان ويهون عليه ذلك الأمر ، والله غالب على أمره .

وفي يوم الجمعة سادس عشرين هذا الشهر كانت وفاة الأمير قاني باي قرا أمير آخور كبير الذي كان باش العسكر المتوجه الى حلب ، وكان موته بغتة على حين غفلة ، وكانت مدة توعكه خمسة أيام حتى أشيع أنه مات مسموما من بعض أخصائه ، والعلم عند الله تعالى ، وكان أصل الأمير قاني باي هذا من مماليك الملك الأشرف قايتباي من مشترياته ، فأعتقه وأخرج له خيلا وقماشاً وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بقى سلحدارا ، ثم أنعم عليه بامرية عشرة في سنة ثمان وتسعين وثمانمائة ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ، وقرره في نيابة صهيون ، وقيل سعى فيها بمال له صورة فأقام بصهيون مدة ، وكان الساعى له في نيابة صهيون الأمير أزبك الخازندار ، وقيل قرر في امرية الكبرى بحلب مدة يسيرة ، ثم عاد الى مصر وبقى مقدم ألف في دولة الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباي ، ثم بقى أمير آخور كبير — بعد وقعة الأمير أقبردى الدوادار — لما قتل الأمير كرتباي ابن عمه الأشرف قايتباي في

مدرسة السلطان حسن ، فقرره الملك الناصر في امرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير كرتباى بحكم فله ، وذلك في المحرم سنة ثلاث وتسعمائة فقام في امرة آخورية الكبرى بحوا من ثمانى عشرة سنة وثلاثة أشهر .

وكان أميرا جليلا مبجلا معظما ، في سعة من المال والسلاح والبرك والحيول والبغال والجمال والماليك ، وكان في ملاءة من كل شيء ، وهو الذى أنشأ الجامع الذى عند المصنع بجاه سوق الحيل ، والجامع الذى بالقرب من ميدان المهارة الذى بجوار البركة الناصرية ، وكان له من العمر لما مات نحو ستين سنة .

وكانت صفتة طويل القامة ملء الجسد أسمر اللون جدا كما وكزه الشيب ، وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية ولعب الرمح بحيث كان يدعى بقاى باى الرماح ، لكنه كان عنده الطمع الزائد والظلم والعسف ، وكانت معاملته أنحس المعاملات يأكل أموال الناس بغير حق ، وإن وضع يده على وقف أو تركة أكلها عن آخرها ، وإن اشترى من أحد شيئا أكل ثمنه عليه ، وإن استعمل صنايعيا أو مسيبا قطع مصانحته في أجرته ، ويخرج من بابه غير راض عنه .

وكان السلطان قرره باش العسكر على التجريدة التى توجهت الى حلب ، فأظهر في البلاد الشامية والحلبية غاية الظلم ، وأفرد الأموال الجزيلة على جهات البلاد الشامية والحلبية بسبب المشاة الذين يكونون أمام العسكر ، فجار على الناس وأخذ جملة من الأغنام لأهل الضياع من الفلاحين نحو ثلاثين ألف رأس غنم ، وقيل أكثر من ذلك .

وكان السلطان في وقت عينه بأن يتوجه الى جهات الشرقية بسبب فساد العربان ، فكان اذا ظهر

بأحد من الفلاحين الضعفاء بوسطه أو سلخه من رأسه الى قدميه ، وربما صنع ذلك بجماعة من الأشراف وزعم أنهم من العربان المصاة على ما قيل عنه ، وكانت مساوئه أكثر من محاسنه ، وكان شديد القسوة كثير الجهل ، وقد أراح الله تعالى الناس منه . فلما مات لم يثن عليه أحد من الناس بحير قط ، وقد قلت في ذلك مداعبة لطيفة :

جهنم منذ قالت
لقاى باى خذ حذارك
قد زاد نيران وجدى
من كثرنى لا تنظارك

وأنا أستغفر الله العظيم وأتوب اليه من ذلك ، ولكن أحببت أن أذكر هنا شيئا من مساوئه حتى يعتبر من بفى لعل أن تحسن أخبارهم من بعدهم . وكان السلطان متأثرا من الأمير قانى باى هذا فى الباطن ، وقد عين له امرة السلاح غير ما مرة ويترك امرية آخورية الكبرى فيأبى من ذلك ، وكان السلطان له قصد أن يقرر أحدا من أخصائه فى امرية آخورية الكبرى فبعارضه فى ذلك ، فلما مرض الأمير قانى باى استمر مقيما بباب السلسلة فى مدة انقطاعه نحو خمسة أيام ، فمات بباب السلسلة ليلة الجمعة بعد العشاء ، فرسم السلطان أن ينزل الى داره وهو ميت فنزلوا به فى تابوت الى بيته الذى عند حدره البقر .

وكان متزوجا بنت الأمير يشبك بن مهدي أمير دوادار كبير فأقامت له نعيًا بالطارات ، واستمرت تدق عليه بالطارات ثلاثة أيام متوالية فعز ذلك على السلطان فى الباطن ، وأشيع بين عياله أنه قد مات مسموما ، فحقق ذلك على بنت الأمير يشبك فيما بعد وقرر عليها فوق الثلاثين ألف دينار وزعم أن

قانى باى أمير آخور أودع عندها مالا فشرعت فى بيع جهازها حتى ترد ما قرر عليها من المال .

فلما كان يوم الجمعة حضر القضاة الأربعة والأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأخرجت جنازته من بيته وقدامه كفارة ، فطلعوا به من على حדרه البقر ، فلما وصل الى الرملة نهب العوام تلك الكفارة ، فلما وصل الى سبيل المؤمنين خرج السلطان من الميدان وصلى عليه وكانت جنازته حافلة ، ثم رجعوا به من المصلاة ودفنوه فى مدرسته التى تجاه سوق الخيل ، وخلقى بعمله وانقضى أمره . وفى يوم السبت سابع عشرينه فيه ابتداء السلطان بضرب الكرة فى الميدان على العادة .

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه وقف الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين قاطبة وباسوا الأرض للسلطان وسألوا بأن يكون سيدى ابن السلطان أمير آخور كبير عوصا عن الأمير قانى باى قرا بحكم وفاته ، فأعجب السلطان ذلك فى الباطن وقد مشت الأمراء فى غرض السلطان لما رأوا له قصدا فى ذلك ، فأنعم على ولده المقر الناصرى محمد فى ذلك اليوم بامرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قانى قرا ، فحضر ابن السلطان وباس الأرض على ذلك الانعام له .

وفى ربيع الآخر كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء فطلع الخليفة والقضاة الأربعة والسيد الشريف بركات أمير مكة فهنوا السلطان بالشهر وعادوا الى دورهم ، وقد بالغ السلطان فى اكرام السيد الشريف بركات وقام اليه وعظمه نعظيما بالغاً .

وفى يوم الخميس تانى الشهر أكمل السلطان النفقة على جماعة من المماليك القراصة ، وكان عول قبل ذلك أن لا ينفق عليهم شيئا ، ثم أنفق

عليهم ، ولكن أعطاهم السم فى الدسم فكتب منهم جماعة الى الشرقية وجماعة الى العربية وجماعة الى العقبة والأزم والى منفلوط ثم صرح لهم جهارا وقال : « الذى يطلب يخرج وسافر من يومه والذى ما يطلب نفقة يقعد ويستريح فى بيته » . فرجع غالب المماليك عن طلب النفقة والذى أخذ النفقة خرج الى السفر من يومه .

وفى يوم الاثنين سادس هذا الشهر عمل السلطان الموكب بالقصر الكبير ، ودار نقيب الجيش على الأمراء المقدمين وأعلمهم أن الموكب بالقصر الكبير ، وهو بالتمشاش والقماش ، فلما تكامل الموكب وحضر الأمراء المقدمون طلب السلطان ولده المقر الناصرى محمد وخلص عنه وقرره فى امرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قانى باى قرا بحكم وفاته . فلما خلع عليه نزل وصحبته الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، فنزل من سلم المدرج ونوجه الى باب السلسلة وقدامه الأمراء قاطبة بالشاش ، ومشيت قدامه الشعراء والشبابة السلطانية ، فدخل الى باب السلسلة ونزل على سلم الحرافة وطوب للأمراء وانفض ذلك الموكب الحافل ، وكان سن ابن السلطان يومئذ احدى عشرة سنة .

ولم يسمع فيما مضى من الأخبار المتقدمة أن ابن سلطان ولى أمير آخور كبير سوى هذا ، ولكن الملك الظاهر خشفدم فرر ربيبه الشهابى أحمد بن العينى أمير آخور كبير ولم يكن ابن سلطان ، فعند ذلك من النوادر الغريبة ، ولم يسمع فيما مضى من الأخبار أن ابن سلطان ولى الأتابكية فى حياة والده وتسلطن منها سوى الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

وفى يوم الأربعاء ثامنه نزل السلطان الى باب السلسلة وجلس فى الحراقة ومد بها سباط الغداء ،

ثم عرض مماليك الأمير قاني باي أمير آخور وعرض البوتات التي كانت للأمير آخور ورسم بجميع ذلك الى ولده .

وفي يوم الخميس تاسعه رسم السلطان لولده أن يركب ويتوجه الى بيت أمير كبير سودون العجى ويتشكر منه الذى تعصب له في أن يلى أمير آخور كبير ، فنزل وصحبته الأمير طومان باي أمير دوا دار كبير وجماعة من الأمراء العشراوات والجم الغفير من المماليك والخاصكية ، فشق من الصليبة وتوجه الى بيت أمير كبير فقام اليه ولقاءه من الحوش ، ثم ألبسه كاملية مخمل أحمر بسمور وفوقاني حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ثم شق من الصليبة ثانيا في موكب حافل فطلع وهو لابس فوقاني الكاملية ، فباس الأرض للسلطان ثم رجع الى باب السلسلة .

وفي يوم السبت ثامن عشره فيه توفي الأمير نانق الغورى الخازن أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان عند السلطان من المقربين ، فكان مونه فجأة على حين غفلة ، وكان مشهورا بالشح الزائد والبخل وكان غير مشكور في أفعاله .

وفي يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له ببيردى ابن كسباى وقرره باش المجاورين بمكة عوضا عن جاني بيك قرا الذى كان بها في السنة الخالية ، وخلع على شخص من الأمراء العشراوات الرؤوس النواب يقال له قرا كز الجكمى وقرره في نظر الحسبة الشريفة بمكة ، وكانت الحسبة مضافة لباشية مكة ففصلها السلطان منها وقرر بها قرا كز هذا .

وفي يوم السبت خامس عشرينه كان ختام ضرب الكرة ، فلعب السلطان الكرة في الميدان ،

ثم طلع الى القلعة وعزم على الأمراء وجلس في المقعد الذى أنشأه بالحوش ومد لهم هناك أسطة حافلة وطوارى فاخرة ، فأقام الأمراء عنده الى بعد العصر ، وكان السيد الشريف بركات أمير مكة حاضرا ذلك المجلس فبالغ السلطان في اكرامه وتعظيمه الى الناية وأجلسه فوق أمير كبير ، ثم أحضر السلطان ثيرانا وكباشا تتناطح قدامه في الحوش ، فلما دخل وقت الظهر أحضر جماعة من المماليك لعبوا خصائية في الرمح واستمروا على ذلك الى بعد العصر ، ثم انقض ذلك الجمع ونزل الأمراء الى بيوتهم .

وفي يوم الاثنين سابع عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أقباي الذى كان كاشف الشرقية وكان قد توجه الى نحو طرابلس في أشغال السلطان ، فلما طلع الى القلعة كان عليه كاملية بسمور من عند نائب طرابلس انعاما .

وفي جمادى الأولى كان مستهل الشهر يوم الخميس فطلع الخليفة والقضاة الأربعة والسيد الشريف بركات أمير مكة فهنوا السلطان بالشهر ، ثم ان السلطان خلع في ذلك اليوم على السيد الشريف بركات خلع السفر وأذن له بالعود الى مكة ، فخلع عليه أطلسين وفوقاني حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض مثل خلة الأتابكة ، وخلع على ولد الشريف كاملية مخمل أحمر بسمور ، وخلع على عرعر صهر الشريف بركات كاملية صوف بسمور ، وخلع على شخص من أولاد دراج أمير الينبع وقرره في امرة الينبع ، وجعل للشريف بركات التحدث على بندر الينبع يولى به من يشاء من تحت يده ويعزل من يشاء .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على ولده المقر الناصرى محمد أمير آخور كبير خلة الانظار ،

فألبسه أطلسين وفوقاني حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكية ، فخرج من الميدان وقدامه السيد الشريف بركات أمير مكة والأتابكى سودون العجمى وجماعة من الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، فشقوا من القاهرة فى موكب حافل وكان لهم يوم من الأيام المشهودة ، فتوجه ابن السلطان الى المدرسة البرقوقية على جارى العادة ، وتوجه السيد الشريف بركات الى تربة الملك الظاهر برقوق فأقام بها الى حين يرحل .

وفى يوم الجمعة ثابى هذا الشهر أرسل السلطان الى السيد الشريف بركات مقدمة حافلة وهو فى تربة الظاهر برقوق ، فكان من جملتها ذهب عين أربعة آلاف دينار ، وأربعة ممالك فرسان وهم باللبس الكامل ، وكان الشريف بركات اشترى من مصر ممالك ، وأهدى اليه الأمراء عدة ممالك ، فكان معه نحو خمسين مملوكا مكمله بالسلاح ، وأرسل اليه السلطان ست بقج ضمنها صوف وسمور ووشق وسنجاى وبعلبكى وتفاصيل حرير سكندرى وأبراد منزلاوى وشقق برق بجر ذهب وأثواب مخمل ملون وأثواب برصاوى مزهر بقصب ، فأرسل اليه من كل صنف من هذه الأصناف عشر قطع ، وأرسل اليه نمچاه زعموا أنها نمچاه بعض الصحابة ، فكتب السلطان اسم الشريف بركات عليها وسقطها بالذهب ، وأرسل اليه أربعة أسياف خاص وهى مسقطة بالذهب ، وأرسل اليه أربع زرديات وهى مسقطة بالذهب ، وأرسل اليه صنجقین سلطانی بطلعتين فولاذ ، أحدهما حرير أصفر مرقوم بالذهب وآخر حرير أصفر برسم الأسفار ، وأرسل اليه محفة بغشى جوخ أصفر ، وكان قبل ذلك أرسل اليه غدة خيول وهجن وجمال بخاتى وبغال وسلاح برسم

الممالك الذين معه ، وقد أغدق عليه بكثرة الانعام له حتى أدهسه بالعلايا فوق ما أهدى اليه السيد الشريف بركات بأضعاف ، فلما وصلت هذه التقدمة الى الشريف بركات خلع على غلمسان السلطان والمهتار محمد مهتار الطشتخاناه الخلع السنينة وفرق عليهم الدنانير والدراهم ، ولم يقع لأحد من أجداده ولا أقاربه ما وقع له مع الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وقد بالغ فى اكرامه وتعظيمه جدا .

وفى يوم الأربعاء سابع هذا الشهر طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك ، وأخذ قاع النيل فجاءت القاعدة سبع أذرع وأربع أصابع ، أرجح من نيل السنة الخالية بعشرين أصبعا كما قيل .

وفى يوم الأربعاء المذكور توجه القاضى كاتب السر محمود بن أجا ونائبه الشهابى أحمد بن الجيعان ، فتوجها الى السيد الشريف بركات أمير مكة وعلى أيديهما تقييد بولاية امرة مكة ، وقد بالغوا فى نعته وترجمته الى الناية ، ثم أحضروا له مصحفا شريفا وسيفا وحلفه عليهما أنه لا يخون السلطان ولا يعطى عليه ولا يخرج عن طاعته على ممر الليالى والأيام ولا ... فلما حلف كتبوا صورة هذا الحلف فى ورقة وأشهدوا عليه وكتب خط يده على تلك الورقة ، ثم عادوا الى القلعة وعرضوا ذلك الحلف على السلطان ، وكل ذلك وقع والشريف بركات فى تربة الظاهر برقوق ، فألبس الشريف بركات القاضى كاتب السر كاملية مخمل بسمور وكذلك الشهابى أحمد بن الجيعان .

وفى يوم الجمعة تاسعه نزل الأمير طومان باى الدوادار من عند السلطان الى المقر الناصرى محمد ابن السلطان وعلى يده منشور باقطاع

الامرية بالتقدمة ، فلما نزل الأمير طومان باي الى عند ابن السلطان بالمنشور ألبسه أطلسين وفوقاني حرير أخضر بطرز يلبغاوي عريض وأركبوه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فلما وصل الأمير الدوادار الى بيته أرسل اليه ابن السلطان على يد لالاته سنبل الطواشي خمسمائة دينار وقيل ألف دينار ، فألبسه الأمير الدوادار كاملية مخمل أحمر بسمور ودفع اليه خمسين دينارا ، وقد تعافهم أمر ابن السلطان في امرية آخورية الكبرى وصار في كل ليلة يوقد على باب السلسلة فانوسين آكرة وكذلك على باب الميدان وقد عظم أمره جدا ، ورسم السلطان أن أحدا لا يقول له سيدي بل يقولون له أمير آخور كبير .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره جلس السلطان في الميدان وعرض العسكر أصحاب الطبقة الخامسة ، فكتب منهم جماعة نحو ستمائة مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ، وعينهم الى جهة الهند ، وكان فيهم جماعة من ممالك السلطان الجلبان وجماعة من الممالك القرائصة وأولاد الناس وغير ذلك ، وكان السلطان من حين بلغه أن الفرنج تزايد عبثهم في البحر الملح وطفشت به مراكب الفرنج ، فاهتم بعمارة مراكب في السويس نحو عشرين مركبا وأوسقهم بالسلاح والمكاحل والمدافع وغير ذلك من آلة الحرب ، وجعل سلمان العثماني رئيسا لتلك المراكب ، وتحت يده جماعة كثيرة من العثمانية والمغاربة البحارة نحو ألفي انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، فلما عين السلطان العسكر في ذلك اليوم استحثهم على الخروج بسرعة ، ورسم أن النفقة تكون يوم الثلاثاء بعد النصف ، فانفصل المجلس على ذلك . وفي يوم الأربعاء رابع عشره أشيع بين الناس

أنه في ذلك اليوم حضر هجان من البلاد الحلبية وأخبر أن سليم شاه بن عثمان ملك الروم مشى على شاه اسمعيل الصفوي ملك العراقيين ، فلما بلغ على دولات أن طائفة من عسكر ابن عثمان قد قربت من بلاده خرج اليها وتحارب معها فانكسرت تلك الطائفة اليسيرة التي من عسكر ابن عثمان وقتل منها جماعة ونهب على دولات ما معهم ، فعند ذلك طمع على دولات في عسكر ابن عثمان ، فلما بلغ سليم شاه بن عثمان ذلك أرسل الى على دولات عسكرا ثقيلا نحو ثلاثين ألف مقاتل على ما قيل ، ومعهم من الأمراء نحو سبعة أمراء من أمرائه ، ومعهم سبعة صناجق فتحاربوا مع على دولات وكسروه ونهبوا عسكره ، وقتل على دولات في المعركة هو وولده ، وحزوا رءوسهما على ما قيل وأشيع ، ووقعت الكسرة على على دولات وقد قويت الاشاعات بقتله والعلم عند الله تعالى .

فلما سمع السلطان هذا الخبر تنكد له الى الغاية ، ثم أرسل خلف الأمراء في ذلك اليوم وأطلعهم على ما بلغه من هذه الأخبار وضربوا مشورة فيما يكون من أمر هذه الواقعة ، والأمر لله في ذلك ، فكان حال على دولات مع ابن عثمان كما يقال في المعنى :

لا تأمنن عدوا وان دنا للمنيه
فحجة السم تدعى بعد المنية حيه

وقد تقدم القول على أن ابن عثمان كان متعصبا لابن شاه سوار بأن يرد اليه بلاد أبيه سوار من يد عمه على دولات ويوليها مكان أبيه ، فكان يخشى من السلطان . وقد تقدم القول على أنه كان أرسل يسأل فصل السلطان في ذلك ، وكان الأمر مبنيا على السكون فما يعلم الآن ما يصير من بعد ذلك .

وفي يوم الخميس خامس عشره حضر الى
الأبواب الشريفة السيفى جانم الخاصكى الذى
كان توجه الى ابن عثمان ، فلما حضر أخبر أن ابن
عثمان أكرمه غاية الاكرام وخلع عليه عند عوده
الى مصر خلعة تماسيح بسمور ، ولكن هذا الأمر
حدث من بعد مجيء جانم من عند ابن عثمان ،
والحركات والسكون بيد الله تعالى .

وفي ذلك اليوم خرج نائب بهنسا الذى قرره
السلطان بها وهو شخص من الخاصكة خادم
السجادة يقال له قانصوه العجمى ، وأصله من
ممالك السلطان الغورى ، وقد سعى فى هذه
النيابة بمال له صورة حتى وليها .

وفي يوم الخميس المذكور رحل السيد الشريف
بركات من تربة الظاهر برقوق وتوجه الى بركة
الحاج وعزم على السفر الى مكة ، فخرج معه
جماعة كثيرة من الناس يرومون الحج ، فخرجوا
صحبه الى مكة .

وفي يوم الثلاثاء عشرينه أنفق السلطان على
العسكر المعين للهند نفقة السفر ، فأعطى لكل
مملوك خمسين دينارا ، ووعدهم أن بنفق عليهم
جامكية ستة أشهر معجلا قبل أن يسافروا ، وقيل
أعفى منهم جماعة من أولاد الناس ممن شكا
ضعفا فى جسده أو من به حب أفرنجى ، وصار
يصرح لهم جهارا ويقول : « الذى ما يطيق سفر
البحر الملح يعلمنى بذلك فأعفيه من السفر » ... فعد
ذلك له من محاسنه .

وفي أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من بلاد
الغرب بأن الشيخ يحيى صاحب جربة قد توفى الى
رحمة الله تعالى ، وكان لا بأس به ، وقيل انه مات
قهرا من أولاده وقد افتتنوا فى بعضهم وقتلوا

(١) هو مرض الزهري .

بعضهم بعضا ، فحصل له توعك فى جسده واستمر
عليلا الى أن مات .

وفي جمادى الآخرة كان مستهل الشهر بوم
الجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا
السلطان بالشهر .

وفي يوم الثلاثاء خامسه أنفق السلطان على
العسكر المعين للهند جامكية أربعة أشهر معجلا ،
ومنهم من تشكى بأن به الحجة الأفرنجى وما يقدر
يسافر فأعفاه السلطان من السفر وقال له : « أعد
النفقة التى أخذتها ولا تسافر » . وربما رسم على
بعض أولاد الناس حتى يعيد الخمسين أشرفيا التى
أخذها نفقة وقال لهم : الذى ما يقدر على السفر
وهو ضعيف يعيد النفقة ولا يسافر ، وكان مجموع
هذا العسكر الذى كتب للهند نحو خمسمائة
انسان ، غير التراكمة البحارة من جماعة الرئيس
سلمان .

وفي يوم الأربعاء سادسه عزل السلطان قاضى
القضاة الشافعى علاء الدين الإخيمى ، فكانت
مدته فى هذه الولاية سنة وسبعة أشهر الا يومين ،
وكان ماشيا فى منصب القضاة على الأوضاع كما
ينبغى ، ومباشرا هذه الوظيفة بعفة زائدة وحسن
تصرف ، وجاء فى منصب القضاة كفؤا لذلك ،
وعزل من هذه الوظيفة والناس عنه راضية وحاز
الثناء الجميل من الدين والخير ومنع الرشوة ،
وكان فى مدة ولايته لا يتعاطى شيئا من معلوم
الأبصار بل كان ينعم بذلك على طلبة العلم والفقهاء
وغير ذلك .

فلما عزل خلع السلطان فى يوم الأربعاء المذكور
على قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن
النقيب وولاه القضاء ، وهذه سادس ولاية وقعت

له بالديار المصرية ، منها خمس ولايات في دولة الأشرف الغورى والولاية الأولى في دولة الأشرف جان بلاط ، فلما لبس التشريف بالمقعد الذى بالحوش نزل من القلعة في موكب حافل وقدامه القضاة الثلاثة وسائر نواب الشافعية وناظر الجيش وناظر الخاص وغير ذلك من الأعيان ، فتوجه الى المدرسة الصالحية على جارى العادة ، ولكن سعى في هذه الولاية بثلاثة آلاف دينار غير خدمة للأمير الدوادار الكبير والدوادار الثانى والقاضى كاتب السر . فقيل نقد منه في هذه الست ولايات فوق الثلاثين ألف دينار ، وولى هذه الولاية في يوم الأربعاء وهو يوم نحس مستمر ، فتفأل له الناس بعدم اقامته في هذه الولاية لكونه ولى في يوم الأربعاء ، فذهب منه هذا المال العظيم ، وباليته لو شبع من ماله بنصف رطل سكر أو طير دجاج يرب به نفسه ، وأخبره في الشح والبخل الزائد مشهورة بين الناس فما يحتاج لشرح ذلك ، فكان كما يقال في المعنى :

ويحبس روثه في البطن شهرا
مخافة أن يجوع اذا خربه
ويكى بالدموع لهضم أكل

كما يكى اليتيم على أبيه
وفي يوم السبت تاسعه رسم السلطان بشنق أربعة أنصار منهم جارية بيضاء رومية وجارية حبشية وصبى ابن ناس لفاف وشخص قواس . وسبب ذلك أن ابن الناس هذا والقواس أفسدا هاتين الجاريتين وحسنا لهما بأن تقتلا أستاذهما ، وكان أستاذهما شخصا من أولاد الناس مقطوع ، فقتلوه ثم ألقوه في المستراح وأخذوا كل ما في بيته وسافروا الى نحو اطفيح ، ومضى على هذا الأمر نحو خمسة أشهر ثم فشا من بعد ذلك أمرهم ونمت عليهم جارية صغيرة ، فقبض عليهم بعض مشايخ

اطفيح وأرسلهم الى السلطان ، فقررهم فاعترفوا بقتله وأنهم ألقوه في المستراح ، رسم السلطان للوالى بأن يفحص عن أمره ، فتوجه وكشف المستراح فوجده فيه وقد تقدد جلده فأخرجه من المستراح ، فلما عرضه على السلطان رسم بدفنه وأخرج اقطاعه لبعض المماليك ، ثم رسم بشنق هؤلاء الذين فعلوا ذلك ، فلما توجهوا بهم الى الشنق ارتجت لهم القاهرة في ذلك اليوم ، ثم توجهوا بهم الى المكان الذى قتلوا فيه أستاذهم ، وهو مكان بالقرب من باب سعادة ، فشنقوا هناك الأربع أنفس ومضى أمرهم .

وفي يوم الخميس رابع عشره خلع السلطان على الأمير يوسف الذى كان نائب القدس وقرره في نيابة صفد عوضا عن طراباى الذى كان بها ، وكان عادة نيابة صفد ما يليها الا مقدم ألف ، وآخر من يليها من الأمراء المقدمين الأمير أزدمر المسرطن وأقام بها الى أن مات . فلما وليها الأمير يوسف عز ذلك على الأمراء كونه سيفيا ، وكان يعرف يوسف بن سيباى ، ولكن سعى في نيابة صفد سال له صورة حتى وليها ، وما زال الدهر كثير الغلطات .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من مماليكه يقال له قانصوه الساقى ، وقرره في وظيفة الأمير نائق الخازن على الحواصل السلطانية .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير قانصوه حبابية ، ورسم له بأن يتوجه الى طرابلس في بعض المهمات الشريفة .

وفي يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى يوم الأحد خامس مسرى ، وفتح السد في يوم الاثنين سادس مسرى ، وكان نيلا مباركا قوى العزم ، فلما أوفى رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه

ويفتح السد ، فتوجه الى المقياس وخلق العبود ونزل في الحراقة وفتح السد على العادة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، ووقع فيه محاسن كثيرة على العادة ، فلما فتح السد ومضى طلع الى القلعة فخلع عليه السلطان خلعة سنينة ونزل الى داره ، وللناس مدة طويلة لم يروا النيل أوفى في خامس مسرى ، وقد قيل في المعنى :

رعى الله مصر كم بها من مسرة
ومنزل أنس لاح بالظالم السعد

رويت الوفا عن سدها يوم كسره
فها أنا مهما عشت أروى عن السد

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه حضر قاصد ملك الروم سليم شاه ، فلما حضر طلع الى القلعة ، فجلس السلطان في الحوش على المصطبة ، فلما مثل بين يديه أحضر صحبته رأس على دولات ورأس ولده ورأس وزيره وهي في علبة ، فلما أحصروا تلك الرؤوس بين يدي السلطان شق عليه ذلك وقال : ايش أرسللى هذه الرؤوس ؟ هي رؤوس ملوك الفرنج انتصر عليهم حتى أرسلهم لى ؟ ثم رسم للوالى بأن يأخذ تلك الرؤوس ويدفنها على شاه سوار عند الكوم الذى بالقرب من زاوية الشيخ كهنبوش ، فانفض الموكب في ذلك اليوم والسلطان والأمراء في غاية الاضطراب ، وكثر القال والقليل في ذلك أن قلعة زمنطو وبلاد على دولات جميعها ملكها ابن عثمان واستتاب فيها ابن سوار ، وقد خرجت بلاد على دولات من يدي السلطان ولم تنتطح في ذاك شاتان ، وابن عثمان يقصد في الباطن اثاره فتنة كبيرة بينه وبين السلطان وأظهر التحرش بالسلطان وفتح باب الشر ، فتأكد السلطان في ذلك اليوم الى الغاية .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرينه لم يخرج

السلطان من الدهيشة ولم ينزل الى الميدان ، وأشيع أنه قد شرب دواء وأنه متوعك في جسده ، وكان حصل له في يوم الاثنين انزعاج لما حضر قاصد ابن عثمان برأس على دولات ، وحصل في ذلك اليوم بين السلطان والأمراء كلام يابس وخاشنوه في الكلام وقالوا له : يامولانا السلطان غالب البلاد الحلبية خرجت من أيدينا وصارت بيد ابن عثمان وخطب له فيها باسمه وضربت له السكة باسمه وشرع في بناء برج عند عقبة بغراض وآخر على باب الملك والسلطان يده في الماء البارد وفسدت أحوال المسلكة وغالب الرعية بحلب وغيرها من ظلم النواب وجورهم يميلوا الى ابن عثمان لأجل عدله في الرعية ، وهذه الأحوال غير صالحة ... فشق عليه كلام الأمراء وكظم لذلك ولم ينزل الميدان في ذلك اليوم ولا حكم بين الناس .

ومن الحوادث قد أشيع بين الناس أن سنبل الطواشي لالا سيدى ابن السلطان وقع بينه وبين جماعة من المماليك الجلبان بسبب مملوك كان ساقيا عند ابن السلطان ، فضربه سنبل ضربا مبرحا بسبب فشروى فأقام أياما ومات ، فتعصب له جماعة من المماليك الجلبان وأوعدوا سنبل بالقتل في ذلك اليوم ، وكثر القيل والقال في ذلك وأشيع اقامة فتنة كبيرة بين المماليك والسلطان لأجل سنبل بسبب ذلك .

وفي يوم الخميس ثامن عشرين هذا الشهر خلع السلطان على الأمير طراباي بن يشبك الذى كان نائب صفد وعزل عنها فاستقر به حاجب الحجاب بدمشق ، وهذه درجة من حيدر لأسفل ، وقيل انه سعى في ذلك بمبلغ له صورة .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرينه قويت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة من المماليك الجلبان بسبب

سنبل الطواشي لالا سيدي ابن السلطان ، وقد تقدم سبب ذلك من أجل المملوك الذي قتله ، فلم يطلع من الأمراء في ذلك اليوم الا القليل ، وقبل ان السلطان لم يخرج ولم يصل الجمعة وكان في غاية النكد ، وأرسل قبض على سنبل الطواشي وأودعه في الترسيم واحتاط على موجوده ورسم عليه بالدهيشة أربعة من الخاصكية ، ومن حين وقعت هذه الحادثة رسم السلطان لولده بأن يقيم فوق القلعة ولا ينزل لباب السلسلة ، خوفاً عليه من المماليك حتى تخمد هذه الفتنة ويكون من أمرها ما يكون .

* * *

وفي رجب ، كان مستهل الشهر يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، وكان بالميدان فسلموا عليه ونزلوا الى دورهم .

ومما وقع في ذلك اليوم من الحوادث المهولة أن المماليك الجلبان لما أصبحوا في ذلك اليوم استمروا على إثارة الفتنة المقدم ذكرها ، فلبسوا كباشيات مقلوبة ووقفوا على باب سلم المدرج ومنعوا الناس من الطلوع الى القلعة ، وخاف مقدم المماليك وغيب من باب القلعة ، وقصد المماليك أن يnehبوا الدكاكين التي في خرائب التار ، وقصدوا أن ينزلوا الى المدينة وينهبوا الأسواق ، فمنعهم من ذلك الأمير طقطبای نائب القلعة من النزول الى المدينة ، فلما طلع السلطان من الميدان ودخل الى الدهيشة بلغه أمر هذه الفتنة ، ثم اتسع الكلام بين المماليك وبين السلطان بسبب سنبل الطواشي الذي قتل المملوك ، وقد تقدم القول على ذلك ، فأرسلت المماليك تقول للسلطان : « ان لم تسلمنا سنبل الطواشي أو تنفق علينا لكل مملوك منا مائة

دينار وتقيم حرمتنا فان السوق صارت تمسك لجام المماليك في الأسواق ونبهدهم وما صار لنا حرمة بين الناس على أيامك » . فلما رددت الرسل بين المماليك وبين السلطان بسبب ذلك ، وقد رأى السلطان عين النعسر من المماليك ، رسم للوالى بأن يقبض على سنبل ويخرج به الى المماليك ، وكان سنبل من حين جرى منه ما جرى بسبب المملوك الذي قتله وهو في الترسيم عند السلطان في الدهيشة ، فأخذه الوالى وخرج به وهو ماشى وعلى رأسه زمط وعليه ملوطة بيضاء وهو مفكك الأطواق ، فلما خرج الى باب القلعة أحاط به المماليك وقصدوا أن يقطعوه بالسيوف ، فصار يسأل قرابة المملوك الذي قتل بألف دينار فأبى من ذلك وقال : ما آخذ الا روحه ، ثم أنزاه من سلم المدرج وآتوا به الى عند الحوض الذي تحت سلم المدرج فوسطوه هناك ، وأحضروا له تابوتا فحملوه فيه ومضوا به فغسلوه ودفنوه ، ومضى أمره كآته ما كان .

وكان سنبل هذا من أعيان الخدام حبشى الجنس جميل الصورة يدعى سنبل بن غارى ، وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاثين سنة ، وكان لالا سيدي ابن السلطان وحج معه ورأى من العز والعظمة غاية التعظيم ، وكان خازن داركيس ، وكان من المقربين عند السلطان وافر الحرمة نافذ الكلمة ، ولا سيما لما ولى ابن السلطان أمير آخور كبير فصار سنبل هو المتصرف في أمور باب السلسلة ويحكم عوضا عن ابن السلطان ، وصار لا يقبل لأحد من الأمراء رسالة ولا شفاعة ، فعادى جميع الأمراء وحملوا منه في الباطن ، فلما جرى له ما جرى لم يرث له أحد من الأمراء ، ولم يقد سنبل مما ناله من ذلك العز والعظمة شيئا ، ومات هذه

الموتة الشنيعة ، ولم يتفق لأحد من الخدام قبله أنه مات موسطاً ، وكان ذلك من الأمور المقدرة . فلما توسط سنبل خمدت تلك الفتنة وطلعت الممالك الى الطباق وبطل أمر الفتنة ، تم ان السلطان أشهر المناداة في القاهرة : بأن لا سوقيا ولا تاجرا يبهدل ممالك السلطان ولا يمسك لأحد منهم لجسام فرسه ، ومن فعل ذلك قطعت يده ولا يقل حياه عليهم ، وكانت هذه المناداة من أكبر الفساد في حق الناس ، وصارت الممالك من بعد ذلك يدخلون الى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين ولا يقدر أحد يمنعه من ذلك ، وصار الناس معهم من بعد ذلك في غاية الضنك والقهر ، وقد أرضى الممالك بقتل سنبل وبهذه المناداة عن طلب النفقة .

وفي يوم الاثنين ثلثه وردت على السلطان أخبار ردية بأن سليم شاه بن عثمان تملك غالب بلاد على دولات وشرع في بناء أبراج على عقبة بغراض عند باب الملك ، وأرسل نائب الشام ونائب حلب يعاتبان السلطان في تأخير ارسال التجريدة الى اليوم بسبب حفظ البلاد قبل أن يتمكن منها عسكر ابن عثمان ، فلما وردت هذه الأخبار على السلطان تنكد الى الغاية وطلع الى الدهيشة هو والأمراء وضربوا مشورة في ذلك الأمر .

وفي يوم الأربعاء خامسه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التي بالمطرية فأقام بها الى بعد العصر ، فلما رجع الى القلعة شق من على باب اللوق ، فلما شق من هناك وقف له جماعة هناك من التجار وشكوا له من أذى الممالك في حقهم وخطفهم القماش من على الدكاكين ، فلم يلتفت الى ذلك ، وربما أغلظ التجار على السلطان في القول ، فطلع الى القلعة وهو في غاية السودنة من العوام .

وفي يوم الخميس سادسه توفي القاضي أبو الفتح السرم ساحي ، وكان من أعيان الناس ورأس الموقعين العدول ، وكان موته فجأة على حين غفلة . وفي يوم السبت ثامنه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس وبات به ، وأصبح يوم الأحد مقيما هناك ، ومد له الزيني بركات بن موسى أسمطة حافلة وانشرح هناك ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر من يوم الأحد ، وكان النيل يومئذ في عشرين ذراعا ، فجلس في القصر الذي أنشأه على بسطة المقياس وكان ذلك اليوم بالسلطاني .

وفي يوم الاثنين عاشره جلس السلطان في الميدان وعرض العسكر المعين الى جهة الهند ، فعرضهم وهم باللبس الكامل واستدعاهم كل واحد باسمه ، فلما قرغ من عرض العسكر خلع على الرئيس سلمان العثماني كاملية مخمل أحمر بسمور وقرره باش المراكب المجهزة للهند ، وقرر الباش الثاني شخصا يسمى يشبك وهو أمير عشرة ، وقرر الباش الثالث شخصا يقال له دمرداش الاقريطشي ، وكان أصله افرنجي يبيع النيذ الاقريطشي فاشتهر بذلك ، فأنعهم عليه السلطان بامرة عشرة وجعله باش العسكر — وكان ذلك من غلطات الزمان ! — فلما انتهى أمر العرض بسط السلطان يده وقرأ سورة الفاتحة ودعا بالنصر للعسكر . تم ان العسكر خرج من الميدان ونزل وشق من القاهرة وقدامهم الطبول والزُمور ومكاحل النفط والبندقيات وعلى رؤوسهم الصنجق السلطاني ، وكان لهم يوم مشهود . وكان مجموع هذا العسكر المتوجه الى الهند على تحرر أمره نحو ستة آلاف انسان ، تفصيله : خاصكية خمسون ، جمدارية مائة وخمسون ، ومن الطبقة الخامسة المتجددة ما بين أولاد ناس وممالك وغير ذلك أربعمئة وخمسون ،

وبعارة ومقاتلين وتراكمة ومغاربة وغير ذلك خمسة آلاف وثلاثمائة أربعة وأربعين على ما قيل ، فلما خرجوا من القاهرة توجهوا الى الريدانية الى أن يرحلوا من هناك الى السويس ، فكان السلطان في مدة اقامتهم في الريدانية يد لهم أسمطة حافلة من ماله بكرة وعشيا الى أن رحلوا من هناك وتوجهوا الى مصر السويس ، وكان عدة المراكب التي أنشأها السلطان بالسويس عشرين مركبا ، وقد شتموا بالمكاحل والمدافع والبارود وغير ذلك من الزنا بسبب العسكر ، وقد تقدم القول على أن السلطان أنفق على هؤلاء العسكر قبل ذلك وأعطى لكل مملوك منهم خمسين دينارا ، ووعدهم بأن ينفق عليهم قبل أن يسافروا جامكية ستة أشهر مسحلا عند خروجهم الى السفر .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على قاصد ابن عثمان وأذن له بالعود الى بلاده وكتب له الجواب عن مطالعته التي حضرت على يده ، ثم ان السلطان قصد أن يعين له قاصدا من عنده فلم يطاوعه أحد من الأمراء ولا من الخاصكية بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ، وقالوا للسلطان . هذا رجل جاهل سفاك للدماء وكل من توجه اليه بهذا الجواب قتله ، فلم يوافق الى التوجه اليه أحد من العسكر

وفي يوم الخميس ثالث عشره خلع السلطان على الوزير يوسف البدرى بأن يستمر في الوزارة على عادته ، وكان له مدة وهو في الترسيم بسبب عمل الحساب . وآخر الأمر كتب عليه السلطان مسطورا بخمسة وستين ألف دينار والتزم بأمر السداد هو والقاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، فخلع السلطان عليهما ونزلا في موكب حافل .

وفي يوم السبت خامس عشره نزل السلطان

من القلعة وعدي الى الروضة ونصب له خيمة عند خرطوم الروضة وصواوين ، وأقام هناك يومين وليلة ، وأحضر عنده مغاني وأرباب الآلات ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب أسمطة حافلة وطواري فاخرة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما يهدى للملوك ، فانشرح السلطان هناك الى الغاية وصنع دكة خشب في وسط الماء وكان النيل في قوة الزيادة ، وجلس عليها وحوله الخاصكية وهم خائضون في الماء حتى ابتلت ملايطهم بالماء والطين ، وقد فتك في القصف والفرجة حتى خرج في ذلك عن الحد ، وكان السلطان حصل له قبل ذلك غاية النكد بسبب توسيط الطواشي سنبل وفتنة المماليك في طلب النفقة ، فما صدق باخماد تلك الفتنة عنه فنزل هناك وانشرح في ذلك اليوم ، واستمر مقيما هناك الى يوم الأحد آخر النهار ، وكانت ليلة تفرقة الجامكية ، فطلع من هناك الى القلعة وشق من الصليبة ولم يكن قدامه أحد من الأمراء سوى جماعة من خاصكيته فقط .

وفي يوم الخميس عشرينه خرج الأمير طومان باي الدوادار الكبير وصحبته الأمير خاير بيك أحد المقدمين الذي كان كاشف الغربية وبعض أمراء عشراوات وخاصكية ، فخرج في ذلك اليوم وتوجه الى جبل نابلس بسبب فساد العربان الذين هناك ، فانه حصل بينهم وبين نائب غزة فتنة كبيرة وقتل فيها جماعة ، واضطربت أحوال الدرب السلطاني من غزة الى مصر ، وخرج الأمير الدوادار بغير طلب ، وكان ذلك اليوم يوم نوروز وأول السنة القبطية فلم تتفائل الناس بخروج الدوادار في ذلك اليوم وقالوا : يستمر سنته كلها في هياج وسفر .

وفي يوم السبت ثاني عشرينه توفي شخص من
الأمراء الطبجانات يقال له جاني بيك قرا بن
حيدر وكان أصله من ممالك الأشرف قايتباي
وكان لا بأس به .

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه رحل الأمير
الدوادار من الريدانية وتوجه الى الخانكة ، ومما
عد من محاسن الأمير طومان باي الدوادار أن
شخصا من الفقراء كان على باب جامع شيخو
يتمنى مائة دينار ذهبيا وجملا وعبدا حتى يتوجه
الى الحجاز ، فأقام على ذلك مدة طويلة ، وكان
يبتلش بالأمراء كلما طلوعوا الى القلعة ونزلوا
فأصورهم وأبادهم شرا وحرهم أن يشقوا من
الصليبة . ففى بعض الأيام أرسل اليه الأمير طومان
باي الدوادار خمسين دينارا ذهبيا وجملا وعبدا
وقال له : امض الى الحجاز ، فقال له ذلك الفقير :
احملنى معك الى القدس فأزوره قبل أن أحج ،
فحملة معه لما سافر الى نابلس ، فعاد ذلك من
النوادير اللطيفة من الأمير الدوادار . وكان فيه
الخبر ، وكان قليل الأذى بحلاف من تقدمه من
الدوادارية .

وفي يوم الخميس سابع عشرينه عزل السلطان
قاضي القضاة الشافعى محيى الدين بن النقيب
فكانت مدته فى هذه الولاية خمسين يوما لا غير ،
ونقد منه فى هذه الولاية ثلاثة آلاف دينار غير
الكلف ولم يقيم فيها سوى هذه المدة اليسيرة
وعزل فلما عزل لم يرث له أحد من الناس فى
سعيه فى هذه الوظيفة ، وقد نقد منه على وظيفة
القضاء فوق الثلاثين ألف دينار ، وهو ممقوت
عند الناس ولم يمكث فى هذه الست ولايات الا
مدة يسيرة نحو السنتين ، وكان أرشدا قليل الحظ .
فلما عزل ابن النقيب فى ذلك اليوم خلع السلطان
على قاضي القضاة كمال الدين الطويل وأعاده الى

القضاء ، وهذه رابع ولاية وقعت لقاضى القضاة
كمال الدين ، وقد سعى فى هذه الولاية بثلاثة
آلاف دينار ، وكان الساعى له القاضى علاء الدين
ناظر الخاص والشرفى يحيى الشطرنجى نديم
السلطان ، فلما لبس التشريف وشق من القاهرة
أوقدوا له الشموع على الدكاكين وزينوا له بعض
دكاكين فى حارته عند الخانقاه البيبرسية . وكان
قاضى القضاء كمال الدين محببا للناس قاطبة ،
ولما عاد قاضى القضاة كمال الدين الى منصب
القضاء هنبته بهذين البيتين وهما :

الى قاضى القضاة تقول مصر
لقد جاد الزمان بمشى حالى
ولما عاد منصبه أتاها
سرور بالتمام وبالكمال

فلما أحضروا له التشريف وقف السلطان عن
لبسه فى ذلك اليوم وصار بعثه بكلمات مما تقدم
منه ، وقال له : « لا تبقى تحكم وترجع عن
أحكامك » .

وفي يوم الجمعة ليلة السبت ثامن عشرين رجب
كانت وفاة قاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد
البر بن قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ،
وقد تقدم ترجمة نسبه فى الجزء الثامن من التاريخ ،
وكان قاضى القضاة عبد البر اماما فاضلا عالما علامة
فى هبة ، وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت
من أعيان علماء الحنفية ، توفي وله من العمر
نحو خمس وسبعين سنة أو دون ذلك ، ومات
وهو منفصل عن القضاء ، وقد أقام فى منصب
القضاء نحو ثلاث عشرة سنة وأشهر . ورأى
فى دولة الأشرف قانصوه الغورى ما لا رآه غيره
من القضاء ، وكان من أخصاء السلطان بحيث
انه كان يبات عند السلطان بالقلعة ثلاث ليال

في الجمعة ، وصار هو المتصرف في أمور المملكة
بمصر السلطان ، واستمر على ذلك حتى تغير خاطر
السلطان عليه بسبب ما تقدم ذكره من عزل القضاة
الأربعة في يوم واحد ، فعزل معهم ، واستمر على
عزله والسلطان متفيظ عليه ولا يسمع بذكره قط
حتى مات من شدة قهره ، ثم مات رحمة الله عليه ،
وقد فلت في هذه الواقعة :

طلعت لبعيد البر أعظم ذبلة
من قهر أحكام القضا لما عزل
مد نال دل الطرد من سلطانه
وأتى اليه كل عكس متصل

وفي شعبان كان مستهل الشهر يوم الأحد ،
فجلس السلطان في الميدان ، وطلع القضاة
الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان الخليفة متوعكا في
جسده فلم يطالع للتهنئة بالشهر

وفي يوم الثلاثاء ثالثه نزل السلطان وتوجه الى
قبة الأمير بشبك النى بالمطرية ، فبات بها وتفرج
على الملكة وكانت في قوة ملوها ، فأقام هناك الى
يوم الأربعاء آخر النهار ثم عاد الى القلعة ، ونزل
أيضا عقب ذلك الى القبة وبات بها .

وفي يوم الاثنين سادس عشره حضر الى
الأبواب الشريفة جانم الخاصكى الذى كان أرسله
السلطان الى ملك التتار بسبب أقارب السلطان
الدين أسرهم ملك التتار عنده ، فلما مر من على
بلاد ابن عثمان أرسل قبض عليه وأخذ ما كان معه
من الهدية التى كان أرسلها السلطان الى ملك
التتار ، وحصل لجانم من ابن عثمان غاة البهدة ،
وهم بشنقه غير ما مرة حتى شفيع فيه بعض وزراء
ابن عثمان ، فلما رجع جانم أخبر عن ابن عثمان
أمورا شنيعة قالها في حق السلطان وعسكر مصر ،
وأنه جهز عدة مراكب كثيرة نحو أربعمئة مركب في

البحر تجيء ثغر الاسكندرية ودمياط ، وفرقا من
عسكره تجيء من على البلاد الحلبية ، فلما تحقق
السلطان ذلك أرسل خلف أمير كبير سودون
العجمى وبقية الأمراء ، فجلسوا في الدهيشة
وضربوا مشورة بسبب ابن عثمان ، وقيل انه حلف
الأمراء في ذلك اليوم بأن يكونوا كلمة واحدة ولا
يخرجوا عن طاعته ظاهرا وباطنا ، وحلف هو أيضا
لهم بمعنى ذلك ، وانفض المجلس بعد الحلف .

ويقال كان سبب اثاره هذه الفتنة الحادثة بين
السلطان وبين ابن عثمان أن حشقدم مملوك
السلطان الذى كان مشد الشون . وقد تقدم القول
على أنه كان قد حصل له من السلطان حنق بسبب
زوجته بنت جاني بيك دوادار الأمير طراباى وقد
تقدم ذكر ذلك ، فلما رأى حشقدم أن السلطان
محط عليه بسبب جاني بيك فر على حين غفلة
ونزل في مركب وتوجه الى عند سليم بن عثمان
وكان له أخ عند ابن عثمان ، فلما توجه حشقدم
الى ابن عثمان أكرمه وأنعم عليه بامرية في بلاده .

فلما استقر حشقدم عند ابن عثمان شرع يحط
على السلطان عند ابن عثمان ويحبره بأمور من
أفعال السلطان من أبواب المظالم ، وأخبره بما
أحدثه على السوق من أمر المشاهرة والمجامعة على
أرباب البضائع من المال المقرر عليهم في كل شهر ،
وأخبره بامر العش الذى في المعاملة في الذهب
والفضة ، وأخبره بأشياء كثيرة من هذا النمط عن
أحوال مصر ، حتى أخبره بجملة عساكر مصر وما
يشتملون عليه ، وأخبره عن أمر قضاة مصر قاطبة
وأنهم يأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ،
وحسن له أن يمشى على بلاد السلطان وسهل عليه
ذلك الأمر ، فعرفه كيف يرسل مراكب على
الاسكندرية ودمياط .

فعند ذلك طمعت آمال ابن عثمان بأن يملك مصر
والله تعالى غالب على أمره . فمن حين توجه خشنقدم
الى ابن عثمان وهو يظهر المشى على بلاد السلطان ،
ولا سيما قتل على دولات وملك بلاده وولى فيها
ابن سوار وجعله نائبه وصار يكاتب السلطان في
مطالعاته بألفاظ يابسة ، وكل ذلك مما أوحاه اليه
خشنقدم عن أحوال الديار المصرية .

وفى يوم الخميس تاسع عشره خلع السلطان على
الأمير اينال باي دوا دار سكين وعييه بأن يسافر
الى البلاد الشامية بسبب أمور تتعاقب بأشغال
السلطنة ، فتوجه اليها .

وفى يوم الجمعة عشرينه فتح سد بحر أبى المنجا ،
وكان النيل يومئذ في ست عشرة أصبعا ، من احدى
وعشرين ذراعا ، وكان فتحه في أول يوم من بابه
من الشهور القبطية ، وقد تأخر فتحه عن العادة
الى ذلك اليوم ، وكان النيل في قوة عزمه من
الزيادة ، فلما فتح سد أبى المنجا نقص النيل في ذلك
اليوم ولم يزد من بعد ذلك شيئا ، وقد ثبت على
ست عشرة أصبعا من احدى وعشرين ذراعا ،
وحصل به غاية النفع وروى سائر البلاد التى قط
ما رويت ، واستمر ثابتا الى أوائل هاتور فعد ذلك
من النوادر .

ومن العجائب أن مع وجود علو النيل وثباته لم
يسكن في الجزيرة الوسطى ولا بيت واحد ولم
يفتح فيها دكان ولم يعمل بها مقصف للمتفرجين ،
ولم يعلم ما سبب ذلك ، ولكن أشاعوا أنه سكن
بالجزيرة عدة مناخات جمال لابن السلطان والأمراء ،
فخشى الناس أن يسكنوا الجزيرة من النفر الذين
هناك ، فهذا كان السبب في منع الناس من سكنى
الجزيرة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه نادى السلطان في
الحوش للعسكر بأن يعملوا يرقهم وأن يكونوا على
يقظة فان السلطان ينفق ويخرج في جمعته ، وصار
في كل جامكية ينادى للعسكر بذلك في الحوش ،
وأشيع أن السلطان هو الذى يسافر بنفسه بسبب

فلما حضر جانم الخاصكى وأخبر السلطان بما
قاله ابن عثمان في حقه من هذه الأخبار المقدم
ذكرها ، اضطربت أحوال السلطان وتنكد لذلك ،
واستمرت الوحشة بينه وبين ابن عثمان عمالة .

وهذه الواقعة تقرب مما وقع للملك الناصر
محمد بن قلاوون مع قبجق نائب الشام ، فانه أظهر
العصيان على السلطان فأرسل بالقبض عليه ، فلما
تحقق ذلك فر من الشام وتوجه الى غازان ملك
التتار وقوى عزمه وحسن اليه بأن يمشى على بلاد
السلطان فيملكها من غير مانع ، وكذا جرى فمشى
غازان على بلاد السلطان وملك حلب والشام ،
فخرج اليه الملك الناصر محمد بن قلاوون وتجارب
مع غازان فكسر غازان الملك الناصر كسرة مهولة ،
فرجع الملك الناصر الى مصر وهو مهزوم ، ثم تحايا
عسكر مصر ورجع الملك الناصر وتحارب مع غازان
ثانيا فكسره كسرة مهولة وغنم منه أشياء كثيرة
من خيول وسلاح وغير ذلك ، وكان هذا كله من
فتنة قبجق لما توجه اليه وحسن له ذلك ، ونعوذ
بالله أن تكون فتنة ابن عثمان مثل ذلك ، والأمر
الى الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشره جاءت الأخبار من
السويس بأن المراكب التى جهزها السلطان الى
الهند غرق منها مركب وقد صدمت في شعب
فانكسرت وغرق جميع ما كان فيها ، وفقد من

ابن عثمان ، واستمرت الاشاعات قائمة بسفر السلطان تم خمدت تلك الاشاعة قليلا .

وفى ذلك اليوم كانت وفاة القاضى جلال الدين محمد الزفتاوى أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به ، ومات وهو فى عشر الثمانين سنة .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه نزل السلطان الى بولاق وتوجه الى ضيافة القاضى كاتب السر محمود ابن آجا بالبرابجية التى هناك فأقام عنده الى يوم الأربعاء وهو فى أرغد عيش ، فسا أبهى القاضى كاتب السر فى ضيافته ممكنا وأحضر من كل شىء أحسنه ، حتى قيل انه تكلف على أسمطة وطوارى حافلة وتقدمة عظيمة قدمها للسلطان فوق ألف دينار . وكان ابن السلطان معه وجماعة من الخاصكية ، وانشرح السلطان هناك الى الغاية وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات ، وأظهر القاضى كاتب السر أنواع العظمة من الفرش الفاخرة والأوانى الصينى والنحاس المكفت وغير ذلك من كل صنف .

ثم ان السلطان صلى العصر يوم الأربعاء وطلع الى القلعة وكانت لبلة جامكية ، فلما ركب من هناك خلع على القاضى كاتب السر كاملية حافلة من ملايسه مخمل أحمر بسمور فاخر ، وتشكر منه لما تكلفه له من الأسمطة الحافلة وغير ذلك من المأكول والمشرب والتقدم الحافلة .

وفى يوم الخميس سادس عشرينه أنفق السلطان الجامكية ، وهى آخر الجوامك ، ثم نادى للعسكر بأن يعملوا يرقهم وأن يكونوا على يقظة فان التجربة الى حلب عمالة ، فلما تحقق المماليك ذلك نزلوا من القلعة وأطلقوا فى الناس النار ، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار وهجموا عليهم الحارات والبيوت ، وأنزلوا الفقهاء من على بغالهم

فى وسط الأسواق وأخذوها من تحتهم ، وأخذوا بعلة النسيخ برهان الدين بن السكركى وهو فى الحضور فى المدرسة الأشرفية فبرطل عليها بمبلغ له صورة حتى حلسها ، ثم سارت المماليك تسافر الى نحو بابيس والصالحية ويأخذون بغال المسافرين وأكاديشهم ، حتى صبح منهم جميع الناس وتزايد منهم الضرر الشامل فى حق الناس جدا ، وصاروا يبهدلون القضاة والعلماء بالضرب وبنزلونهم من على بغالهم ، وفعلوا من هذا النمط أشياء كثيرة .

وفى رمضان كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ، فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، ثم طلع الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب ، وطلعوا بالخبز والسكر والدقيق وهو على رءوس الحمالين مزفوف ، وطلعوا بأغنام وأبقار كما جرت به العادة فخلع السلطان على الوزير وناظر الدولة شرف الدين الصغير والمحتسب ... وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الأربعاء ثانى شهر رمضان قوى عزم السلطان بأن يسافر الى نجر الاسكندرية ورشيد بسبب تفقد أحوال الأبراج التى هناك ، وأشيع أنه سرح فى بناء سور برشيد على شواطىء البحر الملح فأرسل عدة بنائين وحجارين بسبب ذلك ، وقد بلغه عن ابن عثمان أنه يقصد يطرق نجر الاسكندرية ودمياط على حين غفلة ، فلما صلى السلطان الصبح يوم الأربعاء نزل من القلعة وتوجه الى بولاق وعدى الى بر انبابة ونصب له خيمة هناك حتى يتكامل خروج العسكر ، فكان صحبته من الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادارى

رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب
والامير باى بيك العازدار أحد الامراء المقدمين ،
وجماعة من الأمراء الطبليحانات والعشراوات منهم
الأمير خاير بيك المعمار ، وكان صحبته من
المباشرين الشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب
السر والفاضى أبو البقا ناظر الاسطبل ، وآخرون
من المباشرين من أرباب الوظائف ، وعين معه نحو
خمسين خاصكيا من أرباب الوظائف وألزمهم بأن
يصحبوا معهم كل واحد فرسا وبعلا جنيا .
فقالوا في المراكب بسبب الخيول ما لا خير فيه ،
وكان النيل في عشرين ذراعا والطرق مقطوعة من
كثرة الماء ، فحصل للأمراء والعسكر مشقة زائدة
ولا سيما في رمضان والصيام عمال كل يوم ،
فأقام السلطان في بر انبابة الى يوم الخميس ثالث
الشهر فنزل في مركب ورحل من انبابة هو والأمراء
في عدة مراكب كثيرة ، وكانت هذه السفرة على
حين غفلة

وفي ليلة الجمعة رابع الشهر سقط سقف
زاوية الشيخ أبى العباس البصير رحمة الله عليه ،
وهى التى عند باب الخرق المطلة على الخليج ،
فقتل تحت الردم رجل وصبى صغير وهرب من
كان بها من المصلين وقت العشاء فبسوا ، ولم
يقتل غير اثنين كما تقدم .

ومن الحوادث في غيبة السلطان أن الممالك
الجلبان ربطوا كلاب حديد في جبل ، وشلقوه
فتعلق في شبك الطبقة التى على باب الزردخاناه ،
وتسلقوا عليه وهم من داخل الحوش السلطاني ،
فلما وصلوا الى الشباك وجدوا بالقرب منهم أربع
طقزيات بأسقاط فضة فسحبوها وأخذوها .
فلما طلع النهار حضر الأمير مغلباى الشريفى
الزردكاش الكبير ، فأعلموه بذلك ورأى الجبل

معلقا في الشباك فكتب بذلك محضرا ، ولم يند
من ذلك شئ . وراحت على من راح .

وفي يوم الأحد ثالث عشره أشيع بين الناس أن
الوالى عافب جاني بيك دوادار طراباى على بنية
المال الذى تأخر عليه ، فطالبوه بأن يورده ما عليه
شيئا على الحامكية فقال : ما بقى مئى شئ من
المال غير روحي خذوها ، فضربوه كسارات على
ركبه ، وقيل عصروه في أصداعه ، وهو يقول ما
بقى مئى شئ من المال ، فاستمر يماقيه الوالى
حتى أشرف على الموت ، وأشيع بين الناس موته ،
ولكن ما صح ذلك ، وهذا انتقام من الله تعالى ذان
جاني بيك هذا كان من وسائل سوء مستحقا
لكل الأذى .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشر هذا الشهر حضر
السلطان من ثغر الاسكندرية ، وهذه هى السفرة
الثانية فكانت مدة غيبته في هذه السفرة ثلاثة عشر
يوما لا غير ، بخلاف السفرة الأولى ، وكان سبب
توجهه الى ثغر الاسكندرية في هذه المرة أنه لما
بلغه عن سليم شاه ابن عثمان بأنه قد جهز نحو
أربعمائة مركب وهو قاصد الى ثغر الاسكندرية
ودمياط الشهير ، فتوجه السلطان الى هناك لتفقد
أحوال الأبراج التى هناك وترميم بنائها ، وتوجه
الى رشيد وأيضا رسم بأن يبنى عليها سور من
جهة البحر الملح ، وأشيع أن السلطان أنعم هناك
على خاير بيك العلائى الشهير بالمعمار بتقدمة ألف
وجعله متحدثا في باشية برج الأتشف قايتباى ،
وأشيع أيضا أن السلطان حصل له هناك توعك في
جسده وأفطر يوما من شهر رمضان عندما حصل
له دوخة وأغمى عليه ، فعند ذلك بادر بسرعة
المجيء الى مصر ، فأتى في مركب لبر مصر عند
السواقي التى أنشأها هناك فطلع من عند
السواقي هو والأمراء الذين كانوا صحبته ،

فخلع عليهم هناك كوامل مخمل بسمور ، فلما طلع لاقاه من هناك الخليفة والقضاء الأربعة وبقية الأمراء الذين كانوا بمصر ، فشق من السبع ستابات الى قناطر السباع ، ورسم للأمير كبير سودون العجمي بأن يتوجه الى بيته من هناك ، فلما وصل الى المدرسة الصرغتمشية رسم للخليفة بأن يتوجه الى بيته من هناك ، وكان الأمير أركناس أمير مجلس حصل له رمد في عينه فلم يركب مع السلطان ، فشق السلطان من الصليبية وطلع الى الرملة ودخل الى الميدان ، فطوب الى القضاة وانصرفوا الى بيوتهم ، وكان موكب السلطان حينما بخلاف مواكبه المقدمة .

وفي يوم الخميس رابع عشره فرق السلطان الكسوة على المسكر مع الجامكية .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على حسام الدين محمود ابن قاضي القضاة سري الدين عبد البر ابن الشحنة وقرره في قضاء الحنفية ، عوضا عن القاضي شمس الدين السمديسي الحنفي بحكم انفصاله عن القضاء ، فكانت مدته في القضاء سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، وكان من أخصاء السلطان وامامه ولكن سعى عليه الحسامي محمود ابن الشحنة بثلاثة آلاف دينار حتى ولى وظيفة القضاء ، وكان الحسامي محمود شابا قليل الرأسمال من العلم ولم يكن في طبقة علماء الحنفية ممن ولى وظيفة قضاء الحنفية ، ولكن السلطان ما عنده أعز ممن يورد له مالا ويكون مهما كان ، وقد استكثر غالب الناس على محمود وظيفة القضاء ، وفيه يقول القائل :

لا واخذ الرحمن سلطانا

أفعاله بالطبع رهاجه

ولى علينا للورى قاضيا

ما كان للدهر به حاجة

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على محيي الدين يحيى بن قاضي القضاة برهان الدين الدميري وأعادته الى قضاء المالكية ، عوضا عن جلال الدين ابن قاسم بحكم انفصاله عن القضاء ، وقد سعى عليه محيي الدين يحيى الدميري بألفى دينار ، وهذه ثاني ولاية وقعت لمحيي الدين بن الدميري بمصر ، فكانت مدة جلال الدين بن قاسم في قضاء المالكية سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام مثل مدة السمديسي الحنفي فانما وليا في يوم واحد ، وقد تولى الحسامي محمود ومحيي الدين يحيى بن الدميري في يوم واحد ، وشقا من القاهرة وعليهما التشايف ، وكان لهما يوم مشهود .

وفي هذا الشهر كملت عمارة مدرسة الأمير يبرس قريب السلطان التي أنشأها بفرب حظ الجودرية ، وجاءت في غاية الحسن والظرف ، فخطب بها في ذلك الشهر .

وفي يوم الاثنين حادي عشرينه كان أول هاتور الشهر القبطي . ومن العجائب أن النيل استمر في ثبات لم ينهبط حتى دخل هاتور ، وكان يومئذ في تسع عشرة ذراعا ونصف ذراع ، حتى عد ذلك من النواذر ، ولكن حصل بذلك الضرر الشامل على المزارعين بمكث الماء على الأراضي . ومن العجائب مع وجود ثبات النيل هذه المدة لم تسكن الجزيرة الوسطى في هذه السنة ولا كرى فيها بيت ولا دكان .

وفي ذلك اليوم توفي الأمير أقبردى الحسنى أحد الأمراء العشراوات من طبقة الزمامية ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي .

وفي يوم الأحد سابع عشرينه كان اختم صحيح البخارى بالقلعة ، وخلع السلطان على القضاة الأربعة وأعيان العلماء ومن له عادة ، وفرقت الصرر على جارى العادة ، وكان ختما حافلا .

وفي يوم الاثنين ثامن عشر منه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان ، وألبسه كامله محمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعة في موكب حافل ، وكانت الخلع في هذه السنة في عابه الوحاشه من انشحات ناظر الخاص بخلاف كل سنة .

وفي شوال كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، وهو يوم عيد الفطر ، فخرج السلطان وصلى صلاة العيد ، ثم دخل الى الحوش الكبير وجلس على الدكة وخلع على القضاة الأربعة ثم على أمير كبير وبقية الأمراء المقدمين .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير خابر بك المعمار وألبسه مئزر وأطلسين لكونه بقى مقدم ألف ، ثم خلع على المباشرين ومن به عادة . وكان موكب العيد حافلا . وكان الأمير طوماى باى الدوادار مسافرا في جبل نابلس ، وكانت الخلع في هذا العيد في غابة الوحاشه ، وأبطل ناظر الخاص الطرز النخ الذى كان يعمل في الخلع ، وكانت الخلع من النماش القطنى الذى مثل القش . ثم نزل ابن السلطان الى باب السلسلة وعليه فوقانى بطرز يلعباوى عريض ، ونزل في موكب حافل وقدامه الشعراء والشبابه السلطانية ، فمد بباب السلسلة مدة حافلة وخلع على غلمانه أرباب الوظائف ، ثم خلع فوقانى الذى كان عليه على الأمير آقبساي الطويل أمير آحور ثابى أحد المقدمين فلما انقضى أمر المدة بباب السلسلة نزل المقر الناصرى ولد السلطان من باب السلسلة ، وعليه تخفيفه صغيرة وسلاوى بعلبكى أبيض ، وقدامه القاضى محبى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيش والقاضى أبو البقا ناظر الاسطبل وبعض جماعة من الخاصكية ،

وقدامه ثلاث طوائل خيل بنواشى حرير أصفر ، فلما شق من القاهرة ارتشت له الأصوات بالدعاء وأوقدوا له أحمالا ونناير بالنهار من الوراقين الى آخر البندقابين ، وزدوا له عند بينه ريدة حافلة بالحياض والسحائب ، وصنعوا له ردكا على بابه وفيه أشجار وأحواض جلد بفواوير ماء عماله ، واصلقت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، ودقت له الكوسات على بابه ، وزفته المغانى بالطارات على الدكاكين ، ولاقنه طائفة اليهود بالنسرع مرقودة قدامه ، فاستمر في هذا الموكب حتى دخل الى بيته الذى في خط البندقابين ، ومد له هناك مدة ثانية واستمر هناك في بيته الى أواخر النهار ، ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفي يوم الخميس ثانيه تغير خاطر السلطان على عبد العظيم الصيرفى وأودعه في الحديد ، وأرسله الى بيت الأمير الدوادار حتى عمل حساب الشعير الذى هو متحدث عليه ، فاستمر في الرسم حتى يكون من أمره ما يكون .

وفي يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان جماعة من المماليك القرائضة ، وعين منهم جماعة الى العقبه وجماعة الى الأزلم وجماعة الى الاسكندرية والى رشيد وجماعة الى دمياط يقيسون بها ، فغالب المماليك اختار دمياط ورشيد دون تلك المواضع وشرعوا يتشكون من ذلك فقال لهم السلطان : أنا ما شرطت عليكم كل من أخذ منكم الخمسين دينار النفقه يسافر الى العقبه والأزلم وغير ذلك من الأماكن وقتلوا نعم سافر الى أى مكان أرسلنا فيه السلطان ؟ فحصل في ذلك اليوم بين السلطان وبين المماليك بعض تشاجر ، وانفض المجلس مانعا ، وحق السلطان من المماليك القرائضة في ذلك اليوم الى الغاية .

وفي يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على الأمير قاصوه العادلي كاشف الشرفية على عادته .

وفي يوم الجمعة عاشره ، الموافق لتاسع عشر هاتور القبطي ، فيه لبس السلطان الصوف وقلع البباض ، وفد آخر لبس الصوف عن عادته أياما . وفي يوم السبت حادى عشره فبض السلطان على المعلم خصر معامل اللحم ، وشكه في الحديد وهدده ، وسجنه بالعرفانة حتى تغلق ما عليه من اللحوم المكسورة للعسكر . وفي ذلك اليوم ورد عبد العظيم الصيرفي مما قرر عليه بسبب الشعر المنكسر أنفى دنار ، واستمر في الترسيم حتى يعلق ما بهى عليه وهو في الحديد .

وفي يوم السبت المذكور تولى الأمير بوروز أخو الأمير يتبك الدوادار أحد الأمراء المقدمين الألو ف وكان له مدة وهو منقطع في بيته عليل حتى مات في ذلك اليوم .

وفي يوم الخميس سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، ووقع في ذلك اليوم بعض اضطراب . وسبب ذلك أن السلطان كان عين من المساليك القرائضة خمسين مملوكا يتوجهون الى مكة صحبة باش المجاورين على جارى العادة ، وكان قد عينهم في ربيع الأول وأخذوا في أسباب عمل يرقهم ، فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره بدا للسلطان في ذلك اليوم بأن يبطل هؤلاء الخمسين مملوكا الذين كان عينهم صحبة باش المجاورين وعين غيرهم في ذلك اليوم وأبطل الذين كان عينهم قبل ذلك ، وكان قد بقى لخروج المحصل يومان ، فحصل الضرر الشامل للمماليك الذين بطلوا بعد أن باعوا خيولهم وفماشهم ، وأكروا لنسائهم على أنهم يقيمون في مكة سنة ، فتكدوا الى الغاية بسبب ذلك ، وحصل غاية الضرر للمماليك الذين تعينوا الى مكة في ذلك اليوم ، وقد بقى

لخروج الحجاج يومان فتخرجوا على وجوههم ، وفيهم من سافر في سفوف ، وما حصل عليهم خير ، فما شكر السلطان أحد على ذلك وعابوا عليه هذه الفعلة ، فعد ذلك من النوادر الغريبة

وفي ذلك اليوم عرض السلطان كسوة الكعبة الشريفة ومقام ابراهيم عليه السلام ، وعرض المحمل الشريف ، وكان السلطان في الحوش جالسا به ، وكان ذلك اليوم مشهودا

وفي يوم السبت ثامن عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة في جبل زائد ، وكان له يوم مشهود ، وكان امير ركب المحمل الأمير علان الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين ، وامير الركب الأول المقر العلاء على ابن الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف اينال ، وكان باش المجاورين في تلك السنة الأمير يبردى بن كسباى أحد الأمراء العشراوات ، ومحتسب مكة الأمير فراكز الجكمى رأس نوبة عصاة ، فارتجت لهم القاهرة في ذلك اليوم .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره وقعت فيه نادرة غريبة . وحى أن السلطان نزل الى الميدان وجلس به وأحضر بين يديه شحسا يهوديا يقال له يوسف شنشوا ، وكان أصله تاجرا من تجار الفريج ، وكان يعرف باللغة التركية ، ثم بقى معلما في دار الضرب فقيل انه تأخر عليه مال من بقايا المصادرات وحساب فديم ، وهو مبلغ اننى عشرين ألف دنار ، فتكاسل عن وزن ذلك ، فأرسله السلطان الى المقشرة فأقام بها أياما ولم يرد شيئا مما عليه من المال ، فأحضره السلطان بين يديه وأحضر له المعاصير وعصره في أكعابه في وسط الميدان بين يديه ، فلما تزايد به أمر الوجع من عصر أكعابه أسلم وقال : « أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، برئت

عن كل دين بخلافه دين الاسلام . فكبر الحاضرون من العسكر والناس أجمعين ، فلم يلتفت السلطان الى اسلامه وأبقاه بالعمامة الصفراء ورسم ليحيى ابن نكار دوا دار الوالى بأن يتسلمه ويعاقبه ويستخلص منه المال جميعه ، وقال : « المسلمون كثير والاسلام ما له حاجة بهذا ! » . فشكه ابن نكار فى الحسد به لنزله به ليعاقبه ويستخلص منه المال فكان كما يقال : اذا تسلط على اليهودى يسلم !

وفى هذا الشهر أشيع بين الناس أن العجمى الشنقجى الذى كان نديم السلطان يضحك عليه ، وقد تقدم القول على أن السلطان كان أرسله فى أواخر شهر رمضان الى نائب الشام والى نائب حلب ، وعلى يده فيلان مقدمة من عند السلطان : أحدهما الى نائب الشام والآخر الى نائب حلب ، فأشيع بين الناس أن الشنقجى قد مات على غير وجه مرضى ، وقد اختلف القول فى سبب موته والى الآن لم يثبت عنه خبر صحيح فى كيفية موته والأقوال فى ذلك كثيرة . وكان هذا العجمى مشعوذا مضحكا يلعب بالصحنون النحاس على جريدة فى الحلق ، فلما قرب السلطان وأحسن اليه صار من جملة أعيان المملكة ، ويركب وقدامه الساعى ويشق من القاهرة وتعظمه الأمراء وتقوم اليه اذا دخل عليها ، وكذلك أرباب الدولة من المباشرين وغيرها . وقيل انه لما دخل الى الشام كان فى موكب حافل وزينت له مدينة دمشق لما شق فيها الفيلان اللذان أرسلهما السلطان . ويقال ان نائب الشام أنعم عليه بنحو ألف دينار وكذلك نائب حلب ، وكسب من السلطان أموالا جزيلة

وسلاريات سمور ووشق وغير ذلك أشياء كثيرة ، ومن الأمراء وأعيان الناس ، وكان الناس يسألونه فى قضاء حوائجهم عند السلطان ، ورأى من العز والعظمة بالديار المصرية ما لا رآه أحد قبله من المقربين عند الملوك ، وكانت رياسة هذا العجمى من غلطات الزمان كما قيل :

ما طاب فرع أصله خبيث
ولا زكا من مجده حديث

ولم يصح موته .

وفى يوم الأربعاء سادس عشرينه حضر مبشر الحاج وقد أبطأ عن ميعاده أياما . وسبب ذلك أن العربان خرجوا عليه وعروه وأخذوا جميع ما معه حتى الراحلة التى تحته وجميع كتب الحجاج ، فلم يصل لأحد من الناس من حجاجه كتاب فى هذه السنة ، وقيل ان المبشر مشى على أقدامه يومين وهو لا بس بثت ، فلما سمع السلطان ذلك تنكد والناس قاطبة لهذه الأخبار المهولة .

فلما حضر المبشر أشيع بين الناس وفاة القاضى زين الدين النابلسى ، أخى الشرقى يونس النابلسى الذى كان أستاذارا ، وكان القاضى زين الدين مجاورا بمكة فمات هناك .

وفى هذا الشهر أشيع سفر السلطان الى جهة الفيوم ليكشف عن الجسر الذى انهدم من الماء وشرق غالب بلاد الفيوم ، فلما تسامعت الممالك الجبلان بسفر السلطان الى الفيوم تنكدوا لذلك وقالوا : « كيف يسافر السلطان فى قوة الشتاء وخيولنا فى الربيع » . فشق عليهم ذلك وربما أشاعوا وقوع فتنة كبيرة .

وفي يوم الخميس سابع عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة ابن علي دولات الكبير ، وفد اجتمع أولاد علي دولات وأخوه عبد الرزاق الكل بمصر . ولما حضر ابن علي دولات حضر صحبته حاجب ثاني بحلب وهو شخص فقال له قانصوه ابن نفيس ، وكان نائب حلب أرسله الى ابن عثمان قاصدا بسبب القلاع التي أخذها من بلاد علي دولات . فلما حضر قانصوه هذا من عند سليم شاه ابن عثمان أخبر عنه بأخبار غير صالحة بأنه قال : أنا ما أخذت هذه القلاع الا بالسيف وما أردتها الا بالسيف ، وأنه ما هو راجع عن التوجه الى حلب والشام وحدثته نفسه بأخذ مصر ، وهو في عمل يرق عظيم وجهاز مراكب في البحر ليحجى على اسكندرية ودمياط . فلما سمع السلطان ذلك تنكد واجتمع هو والأمراء في ضرب مشورة بسبب ذلك . وأخبر هذا القاصد أنه أراد أن يعوقه عنده أو يقتله فما مكنه أمراؤه من ذلك ، وقالوا : القاصد ما يقتل .

وفي ذلك اليوم كان آخر تفرقة الجامكية ، فأشيع في ذلك اليوم باقامة فتنة كبيرة من المماليك الجلبان . فلما كانت ليلة الجمعة أثار المماليك فتنة بالقلعة ورجموا من الطباقي ، فلما طلع النهار يوم الجمعة نزل السلطان الى الميدان ، وجلس به وترددت الرسل بينه وبين المماليك ، وقد أرسل لهم جماعة من الأمراء والخاصكية فقالوا لهم : نحن ما نطلب منه نفقة ، وانما نطلب أن يبطل الجامعة والمشاهرة التي قررنا على السوق في الدكاكين وعلى سائر البضائع حتى ما نلتقى شيئا نأكله ، ويصرف هذه اللحوم المنكسرة للعسكر ،

ففيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له ستة أشهر وأربعة أشهر مكسورة وأن يبطل هذا الظلم الزائد والمصادرات للناس وأن يمشى على طريقة الملوك السالفة ، وأن يعزل ابن موسى من الحسبة ويعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة ويعزل كرتباى الوالى ، فانه قتل من خشداسينا مملوكا وما بقى لنا حرمة بين العوام ، وذكروا أشياء كثيرة من هذا النمط .

وفي رواية أخرى أن المماليك قالوا : ويسلمنا علم الدين الحلبي وجمال الدين بواب الدهيشة ، فان جمال الدين كان متحدثا في الخزائن الشريفة من بعد موت الأمير خير بيك الخازندار ، فصار جمال الدين يعارض المماليك فيما رسم لهم به السلطان من انعام لهم . فلما طال المجلس على السلطان ، وأعيت الرسل المترددة بالرسائل بين السلطان وبين المماليك ، قام السلطان من الميدان وقد أدركته صلاة الجمعة ، فلما طلع أغلقت المماليك في وجهه باب السبع حדרات ثم رجموه من الطباقي ولم يمكنوه من الدخول الى الحوش ، وقيل جاءته رجمة في تخفيفته وسبوه من الطباقي سبا فاحشا بعبارة قبيحة .

فلما عاين السلطان ذلك خاف على نفسه من البهدة فرجع الى الميدان وخرج من باب الميدان الذى عند حوش العرب وخرج من بين الكيمان وتوجه الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليوم ، ثم نادى لأصحاب المراكب أن لا يعدى أحد من النواتية بأمر ولا مملوك الا بمشورة السلطان .

فلما قرب وقت صلاة الجمعة طلع جماعة من

الأمراء المقدمين الى صلاة الجمعة فلما بلغهم توجه السلطان الى المقياس صلوا الجمعة بالقلعة ، ثم نزل ستة عشر أميرا متقدم ألف ، وتوجهوا الى السلطان في المقياس لكي يرضوا خاطره على ممالكه مما وقع من الممالك في حقه ... فلما اجتمعوا بالسلطان قال لهم : « أنا ما بقيت أعمل سلطانا ، ولوا عليكم من تحتارونه غبرى » . فبات تلك الليلة بالمقياس ، وبات عنده الأمراء المقدمون . فلما كان وقت المغرب نزل من القلعة الجهم الخفير من الممالك الجلبان ، وفصدوا أن ينهبوا بيوت الأمراء ، فسنعوا بعضهم بعضا من ذلك ، فنهبوا بعض دكاكين من الصليبة مثل الشمع والحلوى والخبز وغير ذلك . واستمر الحال على ذلك بطول الليل وهم يشوشون على الناس ، ويخططون العماثم والشدود ، وحصل منهم في تلك الليلة الضرر الشامل من أذى الممالك ، وكان السلطان لما توجه الى المقياس أخذ ولده معه خوفا عليه من الممالك أن ينكدوا عليه .

فلما كان يوم السبت تاسع عشرينه توجه الأمراء المقدمون قاطبة الى السلطان ، وكذلك الأمراء الطبلخانات والعشراوات من أرباب الوظائف ، فوقف الأتابكي سودون العجسي وبقية الأمراء المقدمين وباسوا الأرض للسلطان على أنه يقوم ويطلع الى القلعة ويرضى عن ممالكه ، فشق السلطان ملوطته وبكى حتى أغمى عليه ، ورشوا على وجهه الماء وهو يقول : « ما بهى لى حاجة بسلطنة فأرسلونى أى مكان تختارونه وولو أمير كبير » . فخاف أمير كبير ، وصار يرعب من كلام السلطان وحصل له وهم .

وقد وقع مثل ذلك للملك الأشرف قايتباى لما طلب منه الممالك نفقة عند حضورهم من تجريدة ابن عثمان ، فجمع الأمراء قاطبة والخليفة والقضاة الأربعة ، وأحضر القبة والطير وفرس النوبة وقال : « سلطنوا أمير كبير أزيك » ، وفكك أزرار ملوطته على أنه يدخل الى البحرة ، وقال للقضاة : « اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من السلطنة » . وقد تقدم ذلك في أول التاريخ من أخباره ، فلما خلع نفسه من السلطنة أعاده الخليفة الى السلطنة ثانيا ، وكان سبب ذلك الممالك أيضا .

ثم ان السلطان أرسل خلف أغوات الطباق وهو في المقياس ، فلما حضروا بين يديه صاروا يشكون له أن اقطاعاتهم لم يصل لهم منها شيء ، وأن الحماية يأخذونها من المقطعين معجلا قبل أوان النيل بمدة ، وأن لحوم العسكر مكسورة بالأشهر ، وأن جميع البضائع غالية بسبب المشاهرة والمجاعة التى قررت على السوق ، وأن كل شيء غال حتى الخام والبلعكى والتبن ما يوجد ، وصارت الجامكية ما فيها بركة كونها من مال المصادرات ، وأغلظوا عليه في القول ، وقالوا له : « ليش ماتمشى على طريقه الملوك السالفة وتقل من هذا الظلم » . ثم قرروا معه بأن يصرف للعسكر اللحوم المكسورة وأن يبطل المشاهرة والمجاعة ، ويعزل المحتسب ويولى غيره ، ويعزل الوزير والوالى ويولى غيرهما ، فقال السلطان : « نعم أفعل لكم ذلك جميعه » . وصاروا بشرطون عليه شروطا كثيرة من هذا النمط ، وهو يقول : نعم . وكان ألماس دوادار سكين هو الذى يتردد بالرسائل بين السلطان وبين الممالك .

فلما طاب خاطر المماليك على ذلك أحضر لهم السلطان مصحفاً شريفاً وحلف عليه أغوات الطباق من الحاصكية ، وكل واحد منهم على انفراده ، بأن يرجسوا بقية المماليك ، ويحمدوا هذه الفتنة وينوبوا تحت طاعة أستاذهم . فحلفوا على ذلك ودخلوا على السلطان ، وبأسوا له الأرض . وخمدت تلك الفتنة على خير ... ولولا لطف الله تعالى في اخماد هذه الفتنة عن قريب ، والا كان فصد المماليك الجلبان أن ينهبوا المدنسة وأسواق الصناعات وبيوت الأمراء وأعيان الناس ويفتلوا من الأمراء من أرادوا قتله ، ولو فعلوا ذلك لطلع من يدهم ، وكل مفعول جائز في هذه الأيام ، ولكن الله سلم والله الحمد على ذلك .

سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (١٥١٦ م) :

كان مستهل المحرم يوم الاثنين . وكان يومئذ خليفة الوفت أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب عز شرفهما . وسلطان مصر يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره .

وأما السادة القضاة الأربعة : فالقاضي الشافعي كمال الدين الطويل ، والقاضي الحنفي قاضي القضاة حسام الدين محمود ابن قاضي القضاة سري الدين عبد البر بن الشحنة الحلبي ، والقاضي المالكي قاضي القضاة محيي الدين ابن قاضي القضاة برهان الدين الدميري ، والقاضي الحنبلي قاضي القضاة شهاب الدين الفتوحى أيد الله بهم الاسلام .

وأما الأمراء المقدمون فكانت عدتهم يومئذ ستة وعشرين أميراً مقدماً أولوف ، منهم أرباب الوظائف ستة ، وهم : الأتابكى سودون العجمي

أمير كبير ، وكانت يومئذ امرية السلاح شاغرة ، والأمير أركماس طرباي أمير مجلس ، والمقر الناصري محمد بجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، والأمير سودون الدوادر رأس نوبة النوب ، والأمير أنص باي بن مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير طومان باي بن فنصوه ابن أخى السلطان أمير دوادر كبير ، وقد جمع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف .

وأما الأمراء المقدمون غير أرباب الوظائف ، فهم : الأمير بحسباي بن عبد الكريم نائب طرابلس كان ، والأمير قانصوه بن كسباي بن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش ، والأمير قانصوه أبو سنة الوالى كان السيفى يتسبك ، وفيل ان السلطان عين له مقدمة الأمير حسين نائب جدة وتوجهت اليه البشائر بها من قبل ، والأمير طقطباي العلانى نائب القلعة ، والأمير قانصوه كرف بن تمر باي ، والأمير جان بلاط المحمدى المعروف بالموتر ، والأمير تانى بك النجمي ، والأمير أرزمك الشريفى الناشف ، والأمير تانم بك بن يتسبك المعروف بالحازندار ، والأمير قانصوه يشبك المعروف برجلة نائب قطيا ، والأمير خاير بك السيفى اينال ، والأمير قانصوه الفاجر ، والأمير أزبك بن طراباي المعروف بالمكحل ، والأمير بيبرس ابن عبد الكريم ، والأمير أبرك الأشرفى ، والأمير علان بن قراجا وقد جمع بين التقديم والدوادارية الثانية ، والأمير خدابردى الأشرفى نائب الاسكندرية ، والأمير آقباي بن قانصوه وقد جمع بين الأمير آخورية الثانية والتقدمة ، والأمير خاير بك العلانى المعروف بالمعمار .

وأما نواب البلاد الشامية والحلبية : فالمقر
السيفى سيباى بن بخت خجا ، والمقر السيفى
خاير بك بن بلباى نائب حلب ، وتمراز الأشرقى
نائب طرابلس ، وجان بردى الغزالى نائب حماه ،
ويوسف الذى كان نائب القدس ، وانتقل الى نيابة
صفد ، ونائب غزة دولات باى وقد أضيف اليه
نيابة القدس والكرك مع نيابة غزة .

وأما الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف :
فالأمير يوسف الناصرى الذى كان نائب حماه شاد
الشرابخانة الشريفة ، والأمير مغلباى الشريفى
الزردكاش الكبير ، والأمير نوروز تاجر الممالك ،
والأمير قانصوه بن دولات بردى استادار الصحبة ،
والأمير قانى بك بن بخشباى رأس نوبة ثانى ،
والأمير طومان باى قرا حاجب ثانى ، والأمير
كرتباى الأشرقى والى الشرطة ، والأمير أزدمر
المهمندار ، والشريفى يونس تقيب الجيوش
المنصورة ، والأمير بخشباى قرا شاد الشون ،
والأمير يونس الترجمان ، ومعلم المعلمين البدرى
حسن بن الطولونى ولكن الوظيفة بيد ولده أحمد
من حين كف بصره وانقطع .

وأما الأمراء الرؤوس نوب فكثيرون لم نوردتهم
هنا خشية الاطالة .

وأما أرباب الوظائف من أعيان المباشرين
المتعممين : فالمقر القاضى المحبى محمود بن أجا
الحلبى كاتب السر الشريف ناظر ديوان الانشاء
أعزه الله ، ونائبه المقر الشهابى أحمد بن الجيعان ،
والمقر القاضى محبى الدين عبد القادر الشهير
بالقصرى ناظر الجيش الشريف ، والزينى عبد

القادر وأخوه أبو بكر أولاد الملكى مستوفيا ديوان
الجيوش الشريف ، والمقر العلانى على بن الامام
ناظر الخاص الشريف وناظر الأوقاف ، وكانت
الوزارة يومئذ شاغرة من حين عزل عنها يوسف
البدرى ، فكان حينئذ القاضى شرف الدين الصغير
ناظر الدولة ، ومتكلما فى ديوان الوزارة ، وقد جسع
بين نظارة الدولة وكتابة الممالك ، وكانت وظيفة
الاستادارية يومئذ بيد الأمير طومان باى الدوادار ،
والقاضى أبو البقاء ناظر الاصلطيل الشريف ومستوفى
ديوان الخاص ، والقاضى عبد الباسط تقي الدين
ناظر الزردخانة ، والقاضى عبد الكريم بن الأدمى
مستوفى الزردخانة ، والقاضى زين الدين بركات
ابن موسى ناظر الحسبة الشريفة وغير ذلك من
الوظائف ، والأمير شرف الدين يونس النابلسى
استادار العالية كان ، وناظر الأحباس بدر الدين
العيسى ، وتقيب الأشراف السيد الشريف أفضل
الدين محمد والآن صار متحدثا فى استيفاء ديوان
الجيش الشامى ، والقاضى كريم الدين أخو القاضى
شرف الدين أحمد بن الجيعان ، والشمسى محمد
ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان متحدثا فى
الخزائن الشريفة ، والشمسى محمد بن ابراهيم
الشرايشى متحدثا فى وظيفة الزمامية ، والعلانى
على البرماوى متحدثا فى جهات الديوان المفرد
وبرددارية السلطان ، وعبد العظيم الصيرفى متحدثا
فى الشون السلطانية وأمر العليق ، وغير ذلك من
المباشرين وأعيان الدولة .

وأما الأعيان من الخدام الطواشية ، فإن وظيفة
الزمامية لها مدة وهى شاغرة من حين توفى الأمير

عبد اللطيف الزمام ، والآن الأمير بشير بن مصطفى رأس نوبة السقاة ، والأمير مرهف بن قانصوه ساقى خوند ، والأمير سنبل العثماني مقدم الممالك ونائبه جوهر الرومى ، والأمير سرور الحسنى شاد الحوش الشريف ، وغير ذلك من أعيان الخدام .

وفى هذه السنة تكاملت خاصكية السلطان نحو ألف ومائتى خاصكى من مشترياته ، فقرّر منهم جماعة أرباب وظائف ما بين دواديرية سكين وسلحدارية وزردكاشية وأمراء آخورية وسقاة وغير ذلك من الوظائف . وقد تكامل فى هذه السنة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات فوق الثلاثمائة أمير وقد كثر العسكر وقلت الرزق

ولما كان مستهل الشهر يوم الاثنين جلس السلطان فى الميدان وطلع اليه الحلفة والقضاة الأربعة فهنوا السلطان بالعام الجديد ورجعوا الى دورهم .

ثم فى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباى والى القاهرة وأشهبوا المناداة فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء وأن لا أحد من الناس يكسر الكلام وأن كل شىء على حكمه يعنى فى أمر المشاهدة والمجامعة التى قررت على الحسبة ، وأن لا أحد من الناس يخرج من بعد العشاء بسلاح ولا يتزيا بزى ولا يغطى وجهه فى الأسواق ، ومن فعل ذلك شتى من غير معاودة ، وأن لا أحد من الناس يحتمى على المحتسب . وقد تقدم القول بأن الممالك الجلبان أثاروا فتنة كبيرة حتى حنق منهم السلطان ، وتوجه الى المقياس وأقام به ثلاثة أيام ، فمشت

الأمراء بينه وبين ممالكه بالصلح على أن يعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة والأمير كرتباى من الولاية والزينى بركات بن موسى من الحسبة ويبطل المشاهدة والمجامعة التى قررت على السوقه أرباب البضائع ، وقد تقدم القول بما كان سبب ذلك .

فلما أن طلع السلطان الى القلعة وبات بها أصبح فأمر بأن ينادى فى القاهرة بما تقدم ذكره ، ولم يفعل شيئاً مما وقع عليه الاتفاق مع الممالك الجلبان ، فشقت عليهم هذه المناداة وأشيع باثارة هذه الفتنة ثانياً وكثر القال والقليل بين الناس ، وكانت الناس استبشرت بإبطال المشاهدة والمجامعة فلما نودى بأن كل شىء على حكمه نزل على الناس جمرة بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر جلس السلطان فى الحوش وعرض أغاوات الطباق ، فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام وقال : « لا تسمعوا للممالك القرائنة كلاماً لأنهم يرمون بينى وبينكم ، ولا تشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا ، ولا بد من خروج تجريدة له عن قريب ، فحصلوا معكم ذهباً ينفعكم اذا سافرتهم ، والذي هو منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا ييفى وراءكم التفاتة اذا سافرتهم فى التجريدة » . فلما سمعوا ذلك شقى عليهم وقصدوا أن يثيروا فتنة فى ذلك اليوم وتزايد الاضطراب ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة . وقد تواعد الممالك بركات بن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل فى ذلك اليوم وناذى بأن كل شىء على حكمه ، وتخلقت جماعته بالزعمران فى عائمهم ،

وشق في القاهرة ، تنكد الممالك الجلبان لذلك ، وقالوا . « لم يطلع بأيدينا من الاتفاق شيء ، وخلق جماعته بالزعران جكاره فبنا ... والله ما نرجع حتى نقتله ! » . وقد تقدم القول بأن الممالك قالوا للسلطان : « سنم لنا ابن موسى المحتسب نقتله » ... بسبب غلو البضائع من كل شيء في الأسواق .

وفي يوم الأحد سابعه توفي الشرفي يحيى بن القاضي صلاح الدين بن الجيعان ، وكان شابا حسن الشكل ضخم الجسد ، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة ، وكانت جنازته حافلة .

وفي أثناء ذلك اليوم ركب الزينى بركات بن موسى المحتسب وشق القاهرة وقبض على جماعة من السوق أرباب البضائع وضربهم ضربا مبرحا وأشهرهم في القاهرة ، وأشهر المناداة في ذلك اليوم وسعر اللحم والدقيق والخبز والأجبان وسائر البضائع ، وكل ذلك خوفا من الممالك الجلبان .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند سوارشاه الذى تعصب له ابن عثمان عوضا عن دولات ، فأحضر صحبته مقدمة فشروية للسلطان وجودها وعدمها سواء ، وهى خمسة عشر جملا بخاتى وثمانى أكاديش وستة بغال من غير زيادة على ذلك ، وأرسل يترفق للسلطان في مطالعته فاستشار السلطان الأمراء بأن يقبل منه تلك المقدمة أم يردّها عليه ، فأقامت الأمراء عند السلطان الى قرب الظهر ولم يعلم أحد ما وقع عليه الاتفاق في ذلك اليوم .

وفيه خرج الأمير طومان باى الدوادار وصحبته الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين فتوجها الى جهة الفيوم ليكشفوا عن الجسر الذى هناك . وقد قيل انه لما كان النيل عاليا في هذه السنة

انقلب . وكان السلطان قبل وقوع فتنة الممالك المتقدم ذكرها قصد أن يسافر الى الفيوم بنفسه ويكشف عن أمر هذا الجسر . فما تم له ذلك فرسم الى الأمير الدوادار بأن يتوجه الى هناك ويكشف عن أمر هذا الجسر .

وفيه نادى السلطان للعسكر بأن يطلعوا الى القلعة بسبب اللحوم المنكسرة فطلع الجهم الغفير من العسكر الذين معهم وصول باللحم المنكسر ، وقد تجمد للعسكر من اللحوم المنكسرة في ديوان الوزارة فوق أربعين ألف دينار ، فقتل أمر هذا على السلطان .

وفيه نادى السلطان بأن الوزير يوسف البدرى يظهر وعليه أمان الله تعالى ، وكان محتفيا من حين توعدته الممالك الجلبان بالقتل . فظهر في يوم الثلاثاء تاسعه ، فلما قابل السلطان خلع عليه كاملية بسمور ونزل الى داره .

وفي يوم السبت ثالث عشره رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره في القاهرة وقد قبض عليهم شيخ العرب بن أبى الشوارب ، فرسم السلطان بتوسيطهم في ذلك اليوم وكان فيهم شخص يسمى أبو عزرائيل وهو كبيرهم فوسطهم أجمعين .

وفي هذا الشهر أو الذى قبله كانت وفاة الشيخ العارف بالله تعالى الولي المعتقد سيدى محمد بن عثمان رحمة الله عليه ، وكان من أعيان المشايخ الصوفية وله شهرة بالصلاح والاعتقاد بين الناس .

وفي يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير قانصوه جانية وكان قد توجه الى طرابلس بسبب المشاة من العربان الذين يخرجون أمام العسكر في التجريدة فأحضر الأموال صحبته ودخلت الى الخزائن الشريفة .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره ابتداء السلطان بتفرقة اللحوم التي كانت مكسورة للعسكر فصار يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية ، وكان فيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له أربعة .

وفي يوم الخميس ثامن عشره كان دخول الأمير قايتباي أحد الأمراء الطبلخانات — وهو قريب زوجة الأتابكي قائم التاجر — على ابنة الأمير طقطباي نائب القلعة أحد المقدمين فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغنات خمس وعشرون رئيسة ، ومدوا فيه أسمطه حافلة من الأطعمة الفاخرة وصنعوا شموعا مزهرة بين وشامات وكان من المهمات المشهورة . وفي يوم الاثنين ثاني عشره دخل أمير ركب الحاج الأول وهو المقر العلائي على ابن الملك المؤيد أحمد ، فخلع عليه السلطان ونزل الى داره في موكب حافل .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره دخل الأمير علان أمير حاج ودخل صحبته المحمل الشريف ، وكان يوما مشهودا . فطلع الأمير علان الى القلعة وخلع عليه السلطان خلة سنية ، ونزل الى داره في موكب حافل . وفد أثنى عليه الحجاج خيرا كثيرا بما فعله في طريق الحجاز من وجوه البر والصدقات ، وقد حصل في هذه السنة للحجاج مشقة عظيمة في مغارة شعيب بسبب السيل الذي نزل عليهم هناك . وهلك من الحجاج في هذه السنة جماعة كثيرة وكان معهم الغلاء موجودا . وكان العربان طافشة في درب الحجاز ولا سيما ما وقع للمبشر في هذه السنة وقد تقدم القول بأن العربان عروه وأخذوا كل ما معه حتى كتب الحجاج ، فلم يصل لأحد من حاجه في هذه السنة كتاب ولا علم بهم خبر .

ولما حضر الأمير علان أشيع أنه قبض في مكة على شخص يقال له المعلم أحمد الشامي وكان أصله من عتالين الزردخانة فوجد معه مالا يتجر فيه في مكة ، فلما بلغ أمره الأمير علان قبض عليه ، وكان له رفيق فهرب من هناك فلما دخل أحمد الشامي هذا الى القاهرة أسفرت القضية عن كونه سرق العملة الضائعة التي كانت بالقلعة ، وسرقت من مال السلطان وهي اثنا عشر ألف دينار وقد تقدم الكلام على ذلك ، وأن السلطان غرمها للمعلم يعقوب اليهودي معلم دار الضرب ، فلما حضر أحمد الشامي بين يدي السلطان اعترف بذلك فسلمه السلطان للوالي يعاقبه حتى يستخلص منه المال الذي أخذه . ثم ان أحمد الشامي أقر على شخص كان معه لما أخذ المال وهو كان بالقاهرة مقيما ، فلما أقر عليه خاف على نفسه من العقاب فأرسل للسلطان أربعة آلاف دينار ، وقال هذا هو القدر الذي نابني من المال ولم يخصني شيء غير ذلك . فلم يكتف منه السلطان بذلك ورسم عليه وشكه في الحديب حتى يحضر بقية المال . وكان هذا الشخص من معلمى دار الضرب أيضا ، وقد ظهر هذا المال الذي سرق من دار الضرب بعد مدة طويلة فعد ذلك من جملة سعد السلطان .

وفي يوم الخميس خامس عشره حضر قاصد من عند ملك الحبشة وكانت قصاد ملوك الحبشة لهم مدة طويلة لم يدخل منهم أحد الى مصر ، وفد دخل قاصد من عند ملك الحبشة في دولة الملك الأشرف قايتباي وذلك في سنة ثمانين وثمانمائة . ومن بعد ذلك لم يدخل قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة وما لهم شغل في مصر . فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولا

قماش ، كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش واصطفت الأمراء عن يمينه وشماله كل واحد منهم فى منزلته ، ثم طلع القاصد من الصليبة وصحبته الأمير أزدمر المهندار وجماعة من الرؤوس النوب ومن المماليك السلطانية وغير ذلك . وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار ، والبقية كلهم ليسوا من الأعيان ، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة شعر ، وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفى أيديهم أساور ذهب .

وأما القاصد الكبير فذكروا أنه كان ابن أمير كبير الحبشة وقيل ان أباه هو الذى حضر فى دولة الملك الأشرف قايتباى وكان على رأسه خوذة مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب وفيها بعض فصوص ، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة وعليه شايات حرير ملون ، وعلى بقية أمراء الحبشة شايات حرير ملون وعلى رؤوسهم شهود حرير . وذكروا أن فيهم شخصا شريفا ... وكان مجموع هؤلاء الحبشة الذين حضروا الى مصر نحو ستمائة انسان وأوساطهم مشدودة بحوائص كهيئة الدنانير . وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلان على جمل يضربون عليهما وكان صحبتهم البترك وعليه برنس حرير أزرق . وكانت أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة ، فطلعوا القلعة من سلم المدرج والبترك ماش قدامهم . فلما وصلوا الى باب الحوش كان صحبتهم كراسى حديد عالية وقصدوا أن يجلسوا عليها بحضرة السلطان فلم تمكنهم رؤوس النوب من ذلك ، ووقع فى أيام الملك الأشرف قايتباى مثل ذلك وطلعوا معهم

بكراسى فما مكنوهم من الجلوس عليها بحضرة السلطان . فلما وصل هذا القاصد الى الحوش قبل الأرض ، فلما وصل الى أوائل البساط قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة ولم يدخل معه قدام السلطان غير سبعة أنفس والبقية لم يدخلوا ، فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة ، ثم قدموا كتاب ملك الحبشة ، قيل انه فى ضمن غلاف من الفضة وقيل من الذهب ، فلما قرئ على السلطان وجد فيه ألفاظا حسنة ونعتا عظيما للسلطان ، وأن قصادنا أتوا الى مصر ليزوروا القيامة التى بالقدس ، فلا تمنعوهم من ذلك . فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة ، فرسم لهم السلطان أن يقيموا فى ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع الى أن يسافروا ، وأرسل لهم خياما ضربت لهم من داخل الميدان ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل اليهم من العوام .

فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهندار وجماعة من رؤوس النوب فوصلوهم الى الميدان خوفا عليهم من العوام أن يرموهم ، فكان لهم يوم مشهود . فان قصاد ملوك الحبشة لا يدخلون الى مصر الا قليلا لأن بلادهم بعيدة ، حتى قيل ان هذا القاصد له تسعة أشهر وهو مسافر حتى دخل الى مصر . ثم ان القاصد أرسل الى السلطان مقدمة لم تكن كبيرة أمر ، قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك ، فلما عاينها السلطان وبخ الذى طلع بها وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة الى الملوك السالفة مثل الأشرف برسباى والظاهر جقمق والأشرف قايتباى وغير ذلك من الملوك ، وأحضر له عدة تواريخ

يذكر فيها هدايا ملوك الحبشة الى ملوك مصر فقرئت عليه ، ولكن ضعف أمر ملوك الحبشة بالنسبة الى ما كانوا عليه من قديم الزمان حتى نقل بعض المؤرخين أنه كان للملوك الحبشة على نواحي النيل ستون مملكة لا ينازع بعضها بعضا فيما بأيديهم من الأراضي التي هناك ، والآن قد ضعف أمرهم بالنسبة الى ما كانوا عليه من قبل ذلك . وقد أرسل بعض ملوك الحبشة مقدمة للملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة ، فقومت بمائة ألف دينار أو أكثر من ذلك حتى عدت من النواذر . ثم ان قاصد الحبشة أقام في الميدان ثلاثة أيام وسافر هو ومن معه الى القدس ليزوروا القيامة .

وفيه حضر الأمير طومان باي الدوادار وقد تقدم القول على أنه سافر الى جهة الفيوم هو والأمير أرزمك الناشف ليكشفوا على الجسر الذي هناك وقد انقلب من الماء . وكان السلطان قصد أن يتوجه الى هناك بنفسه فما تم له ذلك كما تقدم ذكره ، فلما توجه الأمير الدوادار الى هناك قررا على عمارة هذا الجسر نحو ثلاثين ألف دينار ، فلما رجعا أخبر السلطان بذلك .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له شمس الدين السكندري وقرره اماما عوضا عن الشيخ محب الدين الشاذلي الامام بحكم وفاته ، قيل ان شمس الدين السكندري سعى في هذه الوظيفة بألف ومائتي دينار حتى قرر بها .

وفيه احتمل السلطان تفرقة ثمن اللحوم التي كانت منكسرة للعسكر ، وقيل ان السلطان أخرج من الخزائن الشريفة خمسة عشر ألف دينار وسلمها للقاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة ليشتري بها أغناما لأجل تفرقة لحوم المماليك ، وقال ما بقيت

أكسر للعسكر لحوما بعد هذا اليوم ، وقد ثقل عليه ما صرفه للعسكر بسبب اللحوم التي كانت منكسرة لهم ، حتى قيل انه صرف في حركة تفرقة اللحوم فوق الأربعين ألف دينار . واستمرت الوزارة شاغرة من حين عزل عنها يوسف البدرى . وفيه نادى السلطان للعسكر بأن كل من كان له فرس أو أكثر في الديوان يطلع يقبض ثمنه . ومن حين تحقق السلطان أن ابن عثمان زاحف على البلاد السلطانية وهو يأخذ بحواطر المماليك القرانصة ويرضيهم بكل ما يمكن ، وصرف لهم اللحوم التي كانت منكسرة وأعطاهم ثمن الخيول التي كانت لهم في الديوان .

وفيه أخرج السلطان جانبا من مماليكه الغورية وفرق عليهم في ذلك اليوم زرديات وسيوفات وراكيش وقسيا ونشابا ، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك .

وفيه تولى الأمير قن بك بن تربك أحد الأمراء الطبلخانات ، وهو ابن عم الأتابكي أربك ، وكان قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه أرسل السلطان الى عبد الرزاق أخى دولات والى أولاد على دولات الكبار والصغار ثمانية آلاف دينار فقسمت بينهم ، وأرسل يقول لهم : « اعملوا بهذه النفقات برقكم واخرجوا سافروا قبل خروج التجريدة واجمعوا عساكركم من التركمان الى أن أحضر أنا والعسكر » .

وفيه أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع وصوانا الى ثغر الاسكندرية وسافرت في المراكب الى هناك فكانت نحو مائتي مكحلة ، وقد بلغه أن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجيء على السواحل للديار المصرية .

وفيه نادى السلطان في القاهرة بأن أصحاب الدكاكين والأمالك يقطعون الأراضي من الأسواق

والشوارع فامتثلوا ذلك وشرعوا فى العمل ، لكن حصل للناس مشقة زائدة فى الصرف على ذلك لجماعة الوالى والترابة فى شيل التراب ، وقد وقع له مثل ذلك فى أوائل سلطنته فى سنة تسع وتسعمائة وقطع الطرقات قاطبة وادعى أن الأراضى قد علت ، وقد تقدم لى أنى قلت فى ذلك :

فى دولة الغورى رأينا العجب

وقد حملنا فوق ما لا نطيق

وقد كفى فى عامنا ما جرى

من قلة الأمن وقطع الطريق

وفى يوم الخميس خامس عشرية أظهر السلطان العدل وأشهر المناداة عن لسان السلطان فى سواحل مصر العتيقة وبولاق بأن المكوس التى كانت تؤخذ على الغلال بطلت ، وكانت مظلمة عظيمة من البدع المنكرة ، وهى أنه كان يؤخذ على كل أردب قمح أو شعير أو فول يباع أو يشتري نصف فضة . وكان الأشرف قايتباى أبطل ذلك فلما تسلطن ابنه الملك الناصر أعاد هذه المظلمة . فلما تسلطن الأشرف قانصوه الغورى تزايد الأمر حتى صار يؤخذ على كل أردب ثلاثة أنصاف من البائع والمشتري ، وصار يسمى الموجب ، ثم انتقلوا من الغلال الى أن جعلوا على البطيخ مكسا أيضا . فاستمر ذلك مدة طويلة الى أن ألهم الله تعالى السلطان ابطال ذلك جميعه .

وفى يوم السبت سابع عشرية كان دخول الأمير ألماس أحد الأمراء العشراوات على ابنة الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير كان ، فكان ذلك المهم من المهمات المشهورة ، وحضر فى هذه الوليمة الأتابكى سودون العجمى والمقر الناصرى محمد نجل المقام الشريف وسائر الأمراء من كبير وصغير وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الاثنين تاسع عشرية أكمل السلطان تفرقة تمن الحيول التى كانت للعسكر فى الديوان وأكمل تفرقة اللحوم التى كانت مكسورة للعسكر وعوق بعض اللحوم التى كانت منكسرة لجماعة من المباشرين الزردخانية .

وفى ذلك اليوم طرقت السلطان أخبار رديئة بسبب ابن عثمان فتأكد لذلك وخلا هو والأمراء يصربون مشورة بينهم فى أمر ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء سابع هذا الشهر ، أشهر السلطان المناداة فى القاهرة للعسكر بالعرض يوم الخميس ، وآلا يتأخر عن العرض احد من كبير ولا صغير فاضطربت لذلك أحوال العساكر قاطبة .

وفى صفر وكان مستهله يوم الأربعاء طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فقال السلطان للخليفة لما جلس عنده : « اعمل برقك الى السفر وكن على يقظة فأنا مسافر الى حلب بسبب ابن عثمان » . وقال للقضاة الأربعة مثل ما قال للخليفة : « اعملوا يرقكم وكونوا على يقظة حتى تخرجوا صحبتى » ... فقالوا : « الأمر لمولانا » . وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من القراء يقال له شهاب الدين بن الرومى وقرره اماما عوضا عن عبد الرازق بحكم وفاته ، وقيل انه سعى فى ذلك بألف دينار حتى قرر بها .

وفى يوم الخميس ثانيه جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر من كبير وصغير وكتب الجميع ، فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق ولم يعف من العسكر أحدا .

وفى ذلك اليوم كانت وفاة الأمير خاير بك ابن اينال أحد الأمراء المقدمين ويعرف بكاشف الغريبة وأصله من ممالك الأمير اينال الأشقر أمير

سلاح كان ، وقد ساعدته الأقدار حتى صار باش
العسكر ثم بقى كاشف الغربية ثم أنعم عليه السلطان
بتقدمة ألف ، وسافر الى الحجاز باش العسكر في
التجريدة التي خرجت بسبب الجازاني وانتصر على
الريان من قبيلة بنى ابراهيم فجزءهم وأرسلها
الى القاهرة ، وكان مسعود الحركات . فلما مات
نزل السلطان وصلى عليه وكانت جنازته مشهودة ،
وكان في سعة من المال فخلف من الموجود ما لا
يحصى .

وفي يوم السبت رابعه عرض السلطان مماليك
الأمير خاير بك المتوفى ، وأخذ منهم ما اختاره
وأرسلهم الى الطباق ، ثم أرسل رسم على دوا دار
خاير بك وعلى مباشريه وشكهم في الحديد . وكان
الأمير خاير بك قد كتب وصية وبراً لجماعته فلم
يلتفت السلطان الى وصيته .

وفي أثناء هذا الشهر كانت وفاة الشيخ نور
الدين على المحلى رحمه الله وكان يعرف بقريية ،
وكان من أعيان علماء الشافعية وله شهرة زائدة بين
الناس .

ومن الحوادث في هذا اليوم ما وقع لعلم الدين
چلبى السلطان ، وهو أنه كان ساكنا في الحسينية
وكان السلطان رسم للوالى بأن يباشر قطع أراضي
الأسواق بنفسه ، فلما انتهوا في القطع الى الحسينية
جاء مماليك الوالى الى الحسينية ، وأخذوا حميرا
من حمام الجبالين ليشيلوا عليها التراب الذى
قطعوه ، فمنعهم من ذلك جماعة علم الدين
وتخاصموا مع مماليك الوالى ، فجاء عبد علم
الدين وقال لأستاذه على ذلك ، وكان علم الدين في
الحمام فقال علم الدين : « اضربوا مماليك الوالى
وامنعوهم » . ففتكوا بهم وضربوهم ضربا مبرحا
حتى شجوا بعضهم وكسروا أيدي بعضهم ، فلما

سمع الوالى بذلك ركب وأتى الى علم الدين ،
فأغلظ عليه علم الدين في القول وربما سقه على
الوالى ، فقبض الوالى على عبد علم الدين الذى
ضرب مماليك الوالى فوضعه في الحديد ، ثم طلع
الوالى الى السلطان وأحضر مماليكه الذين ضربوا
بين يدي السلطان ، فلما عاين السلطان ذلك شق
عليه ما فعل علم الدين في حق الوالى . ثم طلع
علم الدين الى السلطان وظن أن السلطان يقوم في
نصره ، فلما عاين السلطان علم الدين رسم لنقيب
الجيش بأن يقبض على علم الدين ويمضى به الى
الوالى ليوسطه ، وصمم السلطان على ذلك . فقبض
نقيب الجيش على علم الدين وقلع سلاله وفك
أزرار ملوطته وأركبه على بغلة ، ومضى به الى
الوالى ليوسطه ، فاستدرك الوالى فرصة في هذه
الواقعة وركب في أثناء ذلك اليوم وأتى الى الأمير
الكبير سودون العجمى ، وترامى عليه بسبب علم
الدين بأن يطلع يشفع فيه عند السلطان من
التوسيط ، فطلع أمير كبير فشفع فيه فقبلت
شفاعته ، ثم أن الوالى ألبس علم الدين كاملية
صوف بسمور وطلع علم الدين الى السلطان ليوس
الأرض ، فتنر فيه السلطان لما رآه وقال له :
« الزم بيتك ولا ترنى وجهك أبدا » . فقبل أن علم
الدين خد السلطان بمال له صورة حتى رضى عليه
وخدم الوالى أيضا بمال لكنه استمر ممنوعا من
الطلوع الى القلعة من بعد ذلك ، وقد تزايد هذا
الأمر الفشوى حتى خرج عن الحد . وكان علم
الدين لما قرره السلطان طاش ، وكان في خدمة
السلطان من مبدأ أمره حين كان أمير عشرة . وكان
علم الدين عنده بجمقدار وهو صبي أمرد ، فلما
تسلطن السلطان صار علم الدين عنده من المقربين

وصار يلبس سلاري بكم قصير مثل الأمراء
العشراوات ويشق القاهرة والركبدار يمشى في
جانبه يفسح له الطريق وخلفه بجمقدار وعلى
كتفه فوطة حرير وهو راكب على بغلة عالية فكانت
المماليك كلما رأوه يلعنونه في الباطن ، وربما
توعدوه بالقتل . وأمه كانت صانعة ، وقبل ان أصله
كان من أبناء الساسة التي بالحسينية وعنده كثافة
في طبعه وقلة فضيلة فكان كما قيل :

نقصت عقلا وفهما وزدت شحما ولحما
ورثت طالوت جسما ولم ترث منه علما
وفي يوم الاثنين سادس صفر جلس السلطان
بالميدان وعرض من العسكر في ذلك اليوم أربع
طباق . ومن الحوادث اللطيفة في ذلك اليوم أن
السلطان أمر بإبطال المشاهرة والمجامعة التي كانت
للمحتسب ، وأشهر النداء في مصر والقاهرة بذلك
وان مكس البحرين الذي كان يؤخذ على الغلال
بطل . فارتفعت له الأصوات بالدعاء بالنصر ،
وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ونقطت
الناس المنادين بالفضة على تلك البشارة الحسنة
التي سرت القلوب والأسماع وكان يوما مشهودا
وقلت في هذه الواقعة هذه الأبيات :

قد جاد سلطان الورى بعدله في القاهرة
مذ رخص الأسعار مع ابطاله المشاهرة
كم جائع من فرحة يدعوا له مجاهرة
وكم حزين قلبه بالكسر أضحى جابره
وقد عفا غلالنا من المكوس الجائره
وصرف اللحم الذي أرضى به عساكره
فارتفعت أيدي الورى له بفضل شاكره
وحاز أجرا ناله من الدنا والآخره
وقد علا تاريخه فوق النجوم الزاهرة

لأنه في عصره بين المملوك نادره
فيالها من سنة خيراتها مبادره
فكم له في الخير من أفعال بر ظاهره
يا رب فاجعل يده لكل باع فاهره
وكانت هذه المشاهرة من أكبر أسباب الفساد
في حق المسلمين ، فان الوسائط السوء حسوا
للسلطان عبارة بأن يجعل على السوق في كل شهر
مالا يوردونه للمحتسب فتزايد الأمر الى أن صار
مقرا على السوفه في كل شهر فوق ألفي دينار من
هذه الجهة وغيرها من الجهات المتكلم عليها الزيني
بركات بن موسى ، وكان جماعة من الأمراء الذين
بغير أقاطيع محتالة في كل شهر على الزيني بركات
ابن موسى بما يتحصل من المشاهرة والمجامعة ،
فكانت السوق تجور في أسعار البضائع ولا يجسر
أحد من الناس يكلمهم فيقولون علينا مال للسلطان
نورده في كل شهر ، فاستمر ذلك من أول دولة
السلطان الى أن ألهمه الله تعالى إبطالها .

وفيه وجد مملوك من ممالك السلطان مقتولا
بباب الوزير وكان ذلك المملوك من جلبانه وكان
مصارعا ولا يعلم من قتله فتكذبت الممالك بسبب
ذلك .

وفي يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان الأمراء
المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات وكان
قد دار عليهم تقيب الجيش من قبل وأعلمهم أن
العرض يوم الثلاثاء فطلعوا جميعا ، فقبل عين في
ذلك اليوم من الأمراء المقدمين ستة عشر أميرا وأما
الأمراء الطبلخانات والعشراوات فلم يعف منهم
الا القليل وقال لهم : « الذي له عذر يعوقه عن
السفر يذكره لي » ... فأعفى منهم جماعة .

وفي يوم الخميس تاسعه أكمل السلطان عرض
العسكر قاطبة وام يعف منهم أحدا .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على القاضي بركات بن موسى وقرره ناظر الذخيرة الشريفة كما كان شمس الدين بن عوض ولم يعد الزينى بركات الى الحسبة ، فنزل من القلعة في موكب حافل وصحبته الأمير طومان باي الدوادار وقدامه السعاة ماشية وشق من الصليبة واستمرت الحسبة شاغرة الى الآن لم يلبها أحد .

وفي يوم الجمعة عاشره صلى السلطان صلاة الصبح ونزل الى الميدان ثم خرج من باب الميدان الذي عند باب القرافة وتوجه من هناك الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليوم . وأشيع أن السلطان يريد أن يتوجه من هناك الى الفيوم ليكشف عن أمر الجسر الذي انقلب هناك من الماء ، وذلك لأنه لم يكتف بتوجهه الأمير طومان باي الدوادار والأمير أرزمك الناشف الى هناك قبل ذلك كما تقدم ذكره فصمم على ذلك وتوجه فكان صحبتته من الأمراء المقدمين الأتابكي سودون العجمي والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدواداري رأس نوبة النوب والأمير أنص باي حاجب الحجاب والأمير طومان باي الدوادار والأمير تراز الزردكاش أحد المقدمين وبعض أمراء عشراوات ، ونحو خمسين خاصكيا وبعض جماعة من المباشرين وأقام في المقياس الى أن صلى الجمعة وعدى الى الجيزة ونصب له وطاق عند الأهرام ، فأقام ذلك اليوم هناك ثم توجه الى الفيوم من تحت الجبل .

ومن الوقائع الغريبة أن السلطان لما غضب على علم الدين الجلبى بسبب ما تقدم ، واستمر علم الدين ممنوعا من طلوع القلعة قال السلطان لمحمد المهتار : « انظر لي جلبى يحلق رأسى » ... فعرض عليه عدة جلبية فما أعجبه منهم أحد ، فقال له

محمد : « بقى عندنا صبي صغير أمره يسمى عبد الرزاق أصله من باب الوزير وهو يتيم وكان يحلق لجماعة من الخدام وهو يحلق مليحا » . فقال السلطان : « أحضره حتى يحلق لي » . فأحضره ، فلما حلق له أعجبه حلاقتة ، فاستقر به جلبى السلطان عوضا عن علم الدين ، فسافر هذا الصبي مع السلطان الى الفيوم وأنعم عليه بكسوة حافلة وأخرج له اكديشا وبغلة وصار جلبى السلطان في ساعة واحدة . وإذا أعطى لا مانع ، والله عند القلوب المنكسرة جابر ، والعبد بسعده لا يأييه ولا بجده ... فعد ذلك من النوادر !

وفي يوم الاثنين ثالث عشره خرج عبد الرزاق أخو دولات وأولاد على دولات الذين كانوا حضروا الى مصر فلما حضروا أرسل اليهم السلطان ثمانية آلاف دينار ليعملوا بها برفهم ، فتأهبوا وخرجوا وسافروا في ذلك اليوم وقصدوا التوجه الى حلب .

وفي يوم الخميس سادس عشره جلس نائب القلعة ومقدم الممالك عند باب القلعة ، وصرفا الجامكية على الممالك والعسكر في غيبة السلطان على جاري العادة .

وفي يوم الأحد تاسع عشره حضر السلطان من الفيوم وعدى من الجيزة فلاقاه الخليفة والقضاة الأربعة فشق من الصليبة وقدامه القضاة الأربعة والأتابكي سودون العجمي وسائر الأمراء المقدمين وأعيان المباشرين وانسحبت الجنايب قدامه وطلع الى القلعة في موكب حافل ، وكانت مدة غيبته في الفيوم تسعة أيام ، فكشف على الجسر الذي هناك وعاد فدخل عليه تقادم كثيرة من الكشاف ومن المدركين ما بين خيول وأغنام وأبقار وجمال وغير ذلك من التقادم الفاخرة . قيل لما توجه الخليفة ليسلم على السلطان لم يجتمع به هناك فطلع بعد

العصر الى القلعة ، وسلم على السلطان وهناه
بالسلامة .

ومن الحوادث في ذلك اليوم أن السلطان لما
عدى من الجيزة كان في ذلك اليوم رياح عاصفة
فغرقت مركب قدام المقياس ، وقد ازدحمت فيها
الخيول وشبت على بعضها ، فأشيع أن المركب قد
انقلبت بمن فيها ثم خمدت تلك الاشاعة عن ذلك
الخبر .

وفي يوم الاثنين عشريه كان عبد النصارى وهو
أول يوم من الخماسين ، وكانت خماسين مباركة لم
يظهر فيها علة بمصر ولا بأعمالها قاطبة .

وفي يوم الخميس ثالث عشريه أشيع بين الناس
أن النيل قد زاد ذراعين فطلع ابن أبى الرداد
وأخبر السلطان أن النيل قد زاد نصف ذراع وكان
النيل يومئذ في اثني عشر ذراعا وثلاث أصابع فزاد
على ذلك نصف ذراع وكان ذلك في شهر برمها .
وسبب هذا الزيادة أن الأمطار كانت بأعلى بلاد
الصعيد فأنحدرت منها السيول الى النيل فزاد
هذه الزيادة في غير أوانها ، وقد وقع مثل ذلك في
بعض السنين الماضية وزاد في غير أوانه بسبب
السيول نحو ذراعين .

وفي يوم السبت خامس عشريه جلس السلطان
في الميدان وعرض الأمراء الطبلحانات والعشراوات
ورؤوس النوب ، فلما عرصهم قال لهم : « اعملوا
برقكم وكونوا على نقظة من السفر فاني أتفق
وأخرج في جمعتي هذه » ... فنزلوا على ذلك .

وفي يوم الخميس سلخ هذا الشهر حضر ساع
وقيل اثنان من عند نائب حلب وأخبرا بأن نائب
حلب أرسل مطالعة على يديهما فلما قرئت على
السلطان فاذا فيها ان شاه اسماعيل الصفوى ملك
العرافين جمع من العسكر ما لا يحصى وهم زاحفون

على بلاد ابن عثمان ، وكان في سنة عشرين
ونسعمائة حصل بينه وبين سليم شاه ملك الروم
واقعة مهولة ، وقد تقدم القول على ذلك وانكسر
اسماعيل شاه الصفوى كما تقدم . فاستمر الصفوى
من حين جرى له ما جرى وهو في جمع عساكر
واستعان بملوك التتار فقبل انه جمع الجهم الغفر
من العساكر ، فان ابن عثمان كان قد قتل غالب
عسكره في الواقعة المقدم ذكرها .

فلما راج أمر الصفوى وجمع العساكر قصد
الزحف على بلاد ابن عثمان ، فقبل انه كبس على
جماعة ابن عثمان الذين كانوا في آمد وقد كان
ملكها من بد الصفوى حين محاربته معه في الواقعة
المذكورة وجعل ابن عثمان فيها نائبا من قبله ،
فأشيع أن الصفوى كبس على من كان بآمد على
حين غفلة ، وقتل من كان فيها من العثمانية ،
واستخلصها من بد جماعة ابن عثمان وانتصر
عليهم .

فلما طرق هذا الخبر سمع السلطان اجتمع
بالأمراء في الميدان وأقاموا في ضرب مشورة بسبب
ذلك الى قريب الظهر ، فأشيع أن السلطان قال :
« أنا أخرج بنفسى وأقعد في حلب حتى أنظر
ما يكون من أمر الصفوى وابن عثمان فان كل من
انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على
بلادنا » .

فانفض المجلس على أنه لا بد من خروج
تجريدة تقيم بحلب وتحرس البلاد الحلبية ، وأشيع
في ذلك اليوم باحضار الكشاف ومشايخ العربان
والزامهم أن شرعوا في تحصيل عشرين ألف
خيال من العشير وفرسان العرب ، ويوزعوا ذلك
على سائر البلاد من الشرقية والغربية وجهات
الصعيد ، وهذا من أكبر أسباب الفساد في حق
الجند والمقطعين ، فان الكشاف ومشايخ العربان

يأخذون في هذه الحركة من البلاد المثل عشرة
أمتال لأنفسهم .

وفي ربيع الأول وكان مستهله يوم الجمعة طلع
ال خليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ،
وقيل ان السلطان أرسل شمس الدين بن ناشي
وبركات بن الظريف شيخ القراء الى خليفة وهو
يقول : « اعمل برقك الى السفر فانه لا بد من سفر
السلطان الى حلب ، وانه ينفق ويخرج في شهر
واحد » ... فتأكد خليفة لهذا الخبر .

وفي يوم الأحد ثالثه جلس السلطان بالميدان
وعرض الأمراء الطبلخانات وخاصكية الخواص ،
وعين منهم جماعة للسفر . ثم طلع ودخل الى قاعة
اليسرية وفتح الحواصل وأخرج منها عدة سروج
بلور وعقيق وكنائش زركش وسروج ذهب
وبركستوانات فولاذ مكفتة بذهب وغير ذلك ،
وأفرد منها ما حسن بباله لأجل الطلب اذا خرج
وسافر ... وهذا كله حتى يشاع بين الناس سفر
السلطان الى حلب .

وفي يوم الثلاثاء خامسه جلس السلطان بالميدان
وعرض الأمراء الطبلخانات والعشراوات وألزم كل
أمير أن يستخدم عنده ممالك شيء خمسة وشيء
ثلاثة وشيء اثنان بحسب اقطاعه ، وقرر معهم أن
بعد المولد الشريف يعرضهم قدامه بالميدان وهم
باللبس الكامل والخيول الجيدة وكل من لم يفعل
ذلك يخرج عن امريته ويجعله طرخانا .

وفي يوم الثلاثاء المذكور نزل القاضي شهاب
الدين بن الجيعان نائب كاتب السر عن لسان
السلطان الى أمير المؤمنين المتوكل على الله بسبب
عمل برقه ، وقد كشفوا في الدفاتر القديمة فوجدوا

أن الخليفة اذا سافر صحبة السلطان يكون جميع
برقه على السلطان ... فكتب الخليفة قوائم
بمصرف عمل للبرق فكان ذلك بعشرة آلاف
دينار ، وقيل خمسة آلاف دينار فأخذ الشهابي
أحمد تلك القوائم وطلع بها الى القلعة ليعرضها
على السلطان .

وفي هذا الشهر خلع السلطان على الأمير طراباي
الذي كان قبل ذلك نائب صنف وأعادته الى نيابة
صنف كما كان ، وعزل عنها يوسف الذي كان
نائب القدس فكان مكتة في نيابة صنف دون السنة
ثم عزل وولى طراباي المذكور .

وفي يوم الأربعاء سادسه جلس السلطان
بالميدان وعرض ممالكه الجلبان قاطية وعينهم الى
السفر صحبتهم ، ولم يعف منهم سوى الممالك
الصغار الكتائية المرد .

وفي يوم الخميس سابعه رسم السلطان
للطواشية بأن تدور على الممالك البطالة وأولاد
الناس الذين كان السلطان قطع جوامكم ، بأن
يطلعوا يوم السبت للعرض ، فالذي يصلح للسفر
يعيد السلطان له جامكته ويكتبه للسفر . ثم من
بعد ذلك ظهرت اشاعة رد الجوامك التي قطعت .
فلما كان يوم السبت تاسعه جلس السلطان
بالميدان وعرض جماعة من الممالك القرانصة من
الشيوخ والعواجز وأولاد الناس أصحاب
الجوامك ، فلما عرضهم عين منهم جماعة للشرقية ،
وعين منهم جماعة مع كاشف الغريبة وجماعة الى
البحيرة وجماعة منهم الى الطرانة ، وجماعة الى
المنوفية وجماعة الى منفوط وجماعة الى الجيزة ،
وألزمهم بأن يكونوا مع الكشاف لرد العربان اذا
ظهر منهم فساد وحفظ البلاد في غيبة السلطان اذا
سافر . وقد قويت الاشاعات بسفر السلطان الى

حلب ، ودارت الطواشية على الممالك القرائنة وأولاد الناس بسبب هذا العرص حتى عين هؤلاء الجماعة الى هذه الجهات المذكورة لا بسبب رد الجوامك التي كانت قطعت للمالك العواجز وأولاد الناس ، واستقرت هذه الواقعة على ما ذكرناه .

وفي يوم الأحد عاشره نزل السلطان وعدي الى بر الجيزة وعرض جمال الأمير حناير بك لاسم العربي الذي توفي ، ثم عاد وطلع الى القلعة ودخل الى قاعة البيسرية ، وعرض في ذلك اليوم بكايير وفرقات وجوانسن وغير ذلك أشياء كثيرة من آلات السلاح من حواصل الذخيرة .

وفي يوم الاثنين حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى الشريف على العادة ونصب الخيمة العظيمة التي صنعها الملك الاشرف . وكانت هذه الخيمة كهية قاعة فيها لواوين ثلاثة وفي وسطها قبة على أربعة أعمدة ، فيل لم يعمل في الدنيا قط لها نظير وهي من فماش ملون ، وهذه الخيمة كان لا ينصبها الا لثلاثمائة رجل من النواتية ، وقيل ان مصروفها ستة وثلاثون ألف دينار ، فنصبها بالحوش ونصب الشربدارية في الحوش أحواض جلد مملوءة بالماء الحلو وعلقوا شوكلات بالكيزان الفاخرة ، وزينوا بالأواني الصينى والطاسات النحاس ، وأوسعوا في زينة الشرابخانة الزينة الفاخرة أكثر من كل سنة . ثم جلس السلطان في الخيمة ، وحضر الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء من المقدمين وغيرهم وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس والمباشرون والوعاظ على العادة ثم مدوا السماط وقد أوسع في أمره . وكان مولدا مشهودا أبهج مما تقدم من الموالد الماضية .

وفي ذلك اليوم توفي قاضى القضاة محيى الدين

ابن النقيب رحمة الله عليه ، وهو محيى الدين عبد القادر بن على بن مصلح الشافعى ... وكان يقرب للخوارج شمس الدين بن فضا الجوهري ، وكان من أهل العلم والفضل ، لكنه كان جاف النفس ، وينسب الى شح زائد وله في ذلك الامر أخبار شنيعة لم تذكر هنا لكنها شائعة بين الناس ، ومات وله من العمر نحو الثمانين سنة . وكان سبب موته أنه كان يمتنى في الأسواق بقبضاب سجدك فتوجه الى خان الحليلى فرفسه فرس فوقع على فخذه فأنكسر ، فحملوه الى خلوته التي في المدرسة المنصورية فأقام بها أياما ومات . وكان منفصلا عن القضاء وقد ولى منصب القضاء ست مرات ، ونفذ منه في هذه الست ولايات ستة وثلاثون ألف دينار ، وكانت اقامته في الست ولايات نحو سنتين ، وكان قليل الحظ عند الناس قاطبة ، وكان يسعى على القضاة المتولين ولا يزال عليهم حتى يعزلهم ويتولى منصب القضاة ، فعزل به قاضى القضاة زكريا ، وقاضى القضاة ابن أبى شريف وقاضى القضاة القلقشندى وقاضى القضاة عماد الدين الطويل وبدر الدين المكينى وعلاء الدين بن النقيب ، وكان يسعى بجملته من الأموال ولا يقيم في منصب القضاة غير أشهر ثم يعزل ، فنفذ منه مال له صورة على هذه الطريقة . وقد قلت في ذلك مداعبة لطيفة :

منصب الحكم فى القضا قال لما
كشف الله ما به من هموم

زال عنى ابن النقيب وانى
كنت معه فى قبضة الترسيم

وقيل كان متحصل ابن النقيب هذا فى كل يوم
من وظائفه نحو أشرفيين من خبز وجوامك ، وكان يحرم نفسه من المأكلى والمشرب والملبوس .

وفي ذلك اليوم توفي المهتار حسن شربدار
السلطان وكان في سعة من المال ، وصادره السلطان
غير ما مرة . فلما مات ختم السلطان على حواصله
ولم يلتفت الى أولاده .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشره توفي الشيخ محب
الدين الحلبي امام السلطان وكان من المقرين عنده
وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس رابع عشره ورد على السلطان
مطالعة من عند سييى نائب السلطان بالشام ،
فأرسل يقول له : « يا مولانا السلطان ان البلاد
الشامية مغلية والعليق والتبن لا يوجد ، والزرع
في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك ، ولا
يتعب السلطان سره ولا يسافر ، وان كان ثم عدو
متحرك فنحن له كفاية » . فلم يلتفت السلطان الى
كلامه واستمر باقيا على حركة السفر الى حلب .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره خلع السلطان على
الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، وقرره أمير
حاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير برسباي
القبيل أحد أمراء الطليخانات وقرره أمير حاج
الركب الأول ، فنزلا من القلعة في موكب حافل .

وفي هذا اليوم خلع السلطان على الأمير ألباس
أحد الأمراء العشراوات ، ويعرف بدوادار سكين
وقرره في ولاية الشرطة بالقاهرة عوضا عن الأمير
كرتباي بحكم انتقاله الى تقديمه ألف . وكان
الأمير كرتباي من أعيان مماليك السلطان ، وولى
كشف الشرقية وولاية القاهرة ثم أنعم عليه
السلطان بتقدمة ألف . وقيل ان الأمير ألباس سعى
في الولاية بأحد وأربعين ألف دينار منها عشرون
ألف دينار معجلة وواحد وعشرون يدفعها على
نقدات متفرقة .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على مملوكه

الأمير ماماي الصغير وقرره في نظر الحسبة الشريفة
عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكم انتقاله
الى استدارية الذخيرة ، وكانت مدة اقامة الزينى
بركات بن موسى في الحسبة احدى عشرة سنة
الا شهرا وعزل عنها والناس عنه راضية . وقيل
ان الأمير ماماي الصغير سعى في الحسبة بحمسة
عشر ألف دينار حتى وليها ، وكانت الحسبة
والولاية في قديم الزمان من أقل الوظائف ، ووليها
جماعة كثيرة من أبناء الناس والفقهاء ، ولكن عظم
أمر هاتين الوظيفتين في هذا الزمان الى الغاية ،
وصارتا من أجل الوظائف ، وهذه الأموال العظيمة
التي يسعى بها هؤلاء انما يستخلصونها من أضلاع
المسلمين ودمائهم والأمر الى الله .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان على العسكر
نفقة السفر ، وقد تحقق أمر خروج التجريدة ،
فأنفق على كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة
أشهر بثمانية آلاف وثمان جمل سبعة دنانير ، ثم
ان السلطان كتب أولاد الناس قاطبة الى السفر
ولم يعطهم نفقة بل أعطاهم جامكية أربعة أشهر
بثمانية آلاف ، وكان سبب ذلك أن القاضي شرف
الدين الصغير كاتب الممالك قال للسلطان : « انا
نظرنا في بعض التواريخ أن الملك الظاهر برقوق لما
خرج الى التجريدة لم ينفق على أولاد الناس شيئا » .
فأعجب السلطان منه ذلك ، وقطع نفقة أولاد
الناس قاطبة ، فكثر عليه الدعاء من أولاد الناس
بسبب ذلك . وكانت هذه الواقعة من أعظم
مساويه في حق أولاد الناس ، وحصل لهم كسر
خاطر شديد .

وفي يوم الأحد سابع عشره ظهر أحمد بن
الصائغ الذي كان ضد الزينى بركات بن موسى
في الحسبة وكان له مدة وهو محتف ، فظهر في

ذلك اليوم وقابل السلطان ثم خمد أمره ولم ينتج مع وجود الزينى بركات بن موسى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره توفيت خوند جان سكر الجركسية مستولدة السلطان وهى أم ولده الذى توفى فى الفصل سنة عشرين وتسعمائة ، وكانت دبنة خيرة قليلة الأذى ، فلما أشيع موتها طلع الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان المباشرين ، فصلى عليها الخليفة عند باب الستارة ونزلوا بها من سلم المدرج وهى فى بشعانة زركش ونهبت الكفارة من قدامها قبل أن تنزل من القلعة ، ومشى الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء قدامها من القلعة الى مدرسة السلطان التى فى الشرايشين ، فدفنت هناك على أولادها . ولم يدخلوا بها من باب زويلة بل دخلوا بها من خوخة أيدغمش . وكانت جنازتها حافلة ، وكثر عليها الأسف والحزن من الناس .

وفى يوم الخميس حادى عشره وقف جماعة من أولاد الناس الى السلطان بسبب النفقة ، فلما وقفوا له ساعدتهم الأمير علان الدوادار وبقبة الأمراء ، فلم يرث لهم السلطان ، وقال : « أنا ما عندى نفقة لهؤلاء فالذى لا قدرة له على السفر يرد الأربعة شهور الجامكية التى أخذها وأنا أترك له شهرا ويستريح وتنقطع عنى جامكيته » . فرد جماعة كثيرة من أولاد الناس جامكية الأربعة شهور التى أخذوها واستمر أمرهم مبنيا على السكوت .

وفى يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان على بقية العسكر النفقة . وفى يوم السبت ثالث عشره أكمل السلطان النفقة على العسكر قاطبة من قرانصة وجليان ، ونادى عليهم فى الحوش أن السفر أول الشهر ، فاضطربت أحوال العسكر وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصار

المماليك يهجمون الطواحين وبأخذون منها الخيول والبغال والأكادينس ، فغلقت النواحين قاطبة ، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء ، وغلقت أسواق القماش بسبب المماليك واختفى الصنائعية والخياطون ، واضطربت أحوال القاهرة واختفى جماعة من النجار خوفا من المماليك ، واختفى طائفة من العلماء خيفة السر ، وصارت أحوال مصر مثل يوم الفياحه كل واحد يقول يارب روحى . وفد عاب العسكر على السلطان هذا الرهج الذى وقع منه ، ولم يستس على طريقة الملوك السالفة عند خروجهم للسفر مع انه لم يكن أمر يستحق هذا الرهج العظيم ، ولا جاءت أخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى حلب ولا جاليشه ولا تحرك على بلاده ، وعابوا على السلطان أيضا عرضه عسكر مصر قاطبة فى أربعة أيام ، وأنفق عليهم مع العرض ، فحشوا أن يتساع فى بلاد ابن عثمان وبلاد الصفوى أن السلطان الغورى قد عرض عساكره جميعا فى أربعة أيام فينسبونهم الى قلة وانه ما ثم بمصر عسكر ، وربما يطمع العدو اذا سمع بذلك . وما كان هذا رأى من الصواب وهذه الأحوال كلها غير صالحة .

وفى يوم السبت المقدم ذكره أرسل السلطان نفقة الأمراء المقدمين ، فأرسل للأتابكى سودون العجمى خمسة آلاف دينار ، والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب لكل واحد أربعة آلاف دينار ، وبقية الأمراء المقدمين الذين هم بغير وظائف لكل واحد منهم ثلاثة آلاف دينار . وأين هذه النفقة من النفقة التى كان يرسلها الأشرف قايتباى للأمراء المقدمين عند خروجهم الى

تجاريد ابن عثمان ؟ فكان يرسل للأتابكي أزبك وحده ثلاثين ألف دينار والأمير تمتاز أمير سلاح عشرين ألف دينار وأمير مجلس مثل ذلك وبقية الأمراء المقدمين لكل واحد منهم عشرة آلاف دينار حتى عد ذلك من النواذر الغربية ... ولم يفعل الأشرف قايتباي ذلك الا في آخر تجاريد لابن عثمان سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، فبلغت نفقة الأمراء قاطبة دون الجند مائة ألف دينار .

وفي يوم الأحد رابع عشرية نزل السلطان وتوجه الى مدرسته التي بالشرابشين فأقام بها الى ما بعد العصر ، وأشيع أنه قد عرض موجود خوند ، فان حواصلها كانت هناك فظهر لها موجود عظيم ما بين ذهب وفضة عين وفصوص وقماش فاخر وغير ذلك .

وفي يوم الاثنين خامس عشرية أفتق السلطان على الأمراء الطلبخانات والأمراء العشراوات ، وصار يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية ، فأعطى لكل أمير طلبخانات خمسمائة دينار ، وأعطى لكل أمير عشرة مائتي دينار ، ولم يرسل للخليفة نفقة ، فحصل له غاية المشقة وتراعى على جماعة من الأمراء في أن يقرضوه مبلغا بربح ، ودخل في جهته ديون كثيرة ... ولم يتفق قط أن السلطان اذا سافر البلاد الشامية وصحبته الخليفة أن يخرج بلا نفقة ، وكانت عادة جميع السلاطين أن برك الخليفة اذا سافر يكون على السلطان ، وكان يرسل اليه خمسمائة دينار لأجل جوامك أتباعه ، فلم يلتفت السلطان لشيء من ذلك وشح معه في أمر النفقة ، وكان الخليفة مظلوما مع السلطان في هذه الواقعة . ثم انه عرض الممالك القرانصة الشيوخ والعواجز وكتب منهم جماعة

الى الشرقية والغربية والصعيد والزمهم أن يخرجوا بلا نفقة وكانوا نحو خمسمائة مملوك .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرية نزل السلطان من القلعة وتوجه الى الريدانية ، ورتب الفراشين كيف ينصبون الوطاق اذا برز السلطان للسفر ، ورتب منازل الأمراء وكيف تكون منازلهم بالريدانية .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان لولده أمير آخور كبير بأن يعسل برفه ويسافر صحبته ، وكان في الأول رسم له بأن يكون مقبلا بباب السلسلة الى أن يحضر السلطان ثم بطل ذلك ، ورسم له بأن يشرع في عمل برفه الى السفر .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرية ، الموافق لسادس بشنس القبطي ، خلع السلطان الصوف ولبس البياض . وكانت أول جمعة خوند زوجة السلطان التي توفيت فصنع لها السلطان مادة حافلة وحضر هناك الخليفة والقضاة الأربعة وجماعة من الأمراء المقدمين ، وحضر قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة منسهودة بمدرسة السلطان التي بالشرابشين .



وفي يوم السبت مستهل شهر ربيع الآخر جلس السلطان بالميدان ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنوه بالشهر الجديد وعادوا الى دورهم . وفي ذلك اليوم خلع السلطان على ولد المهتار حسن الشريدار الذي تقدم ذكر وفاته وقرره في وظيفة أبيه في مهتارية الشراپخاناه عوضا عن أبيه بحكم وفاته .

وفي ثانيه فرق السلطان على مماليكه الجلبان لبوس الخيل من حرير ملون وخود وأتراس وبدلات ما بين زنود وركب فولاذ ، وغير ذلك من آلة السلاح التي في الزردخانه ، فتزاحمت عليه الممالك

وصاروا يخطفون اللبوس الملاح بأيديهم ، ولا يرضون بالذى يفرفه السلطان عليهم ، فعجز عن رضاهم فى ذلك اليوم وكثر تنمردهم فى هذه الأيام الى الغاية .

« أعجوبة » قيل ان امرأة ولدت ولدا له رأسان وأربع أيدي وأربع أرجل ، فلما شاهده السلطان تعجب منه وقيل وقع مثل ذلك فى زمن الامام على رضى الله عنه .

ومن جملة انعام الله تعالى على المسلمين أن السلطان أبطل سفر العربان الذين أفردهم على البلاد الشرقية والغربية والصعيد ، وقد تقدم القول على أن السلطان قصد أن يأخذ معه فى التجريدة جماعة من الخيالة من فرسان العرب يكونون أمام العسكر وقت الحرب ، فأحضر مشايخ العربان والكشاف ، وأفرد عليهم نحو خمسمائة خيال وقيل خمسة آلاف خيال ، فنزلوا الى البلاد قاطبة ، وصاروا يفردون على كل بلد خيالين بمائة دينار وعلى البلد الكبيرة أربع خيالة بمائتى دينار . فلما سمع أهل النواحي من الفلاحين بذلك الأمر أخلوا البلاد وتركوا زروعهم فى الأرض ورحلوا وخرب بعض بلاد فى هذه الحركة ... فلما بلغ الأمراء ذلك وقفوا للسلطان وشكوا له من ذلك ، وأن غالب البلاد تخرب وأخلاها الفلاحون وأغلظ الأمراء على السلطان فى القول وقالوا له : نسافر معكم وتخرب بلادنا فمن أين نأكل ونسدد ديواننا اذا سافرنا ؟ فاستحى منهم السلطان وأمر بإبطال ذلك ، وأخرج مراسيم شريفة الى الكشاف ومشايخ العربان بإبطال ما كان قد رسم به فى الأول ، واعادة ما أخذ من الفلاحين بالنواحي . فخرجت المراسيم الشريفة الى البلاد بمنع ذلك ، ولو استمر على قوله الأول لخربت مصر عن

آخرها ووقع بها الغلاء العظيم من خراب البلاد .
فله الحمد على ذلك .

ومن الحوادث فى هذه المدة أن السلطان صادر ابنة الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين ، وهى زوجة الأمير تانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وهى التى كان وقع لها ذلك الأمر الفاحش المقدم ذكره ... فلما صادرها قرر عليها مالا ثقيلآ له صورة ، فأرسل رسم عليها بجماعة من الطواشية . فلما تحققت ذلك شرعت فى بيع جهازها وجميع ما تملكه من صامت وناطق . وكان سبب ذلك أنه لما توفى والدها الأمير خاير بك تكلم الأعداء فى حقها بأنها أخذت من موجود أبيها ثلاث قدور فيها مال جزيل له جرم ، فأرسل خلفها فلما حضرت بين يديه سألها عن ذلك فأنكرت وحلفت أنها مارأت تلك القدور الذهب التى اتهموها بها ، فحقق منها السلطان وقال لها : « أنسى ذنبك ؟ » يعنى أمر الصبى الذى وجدوه عندها ، فحلف السلطان ان لم تحضر بالمال الذى أخذته من مال أبيها والا يغرقها ، وصمم على ذلك ... فلما جرى ذلك شرعت فى بيع جهازها لتورد المال الذى قرر عليها ، فصار فى كل يوم سبت وثلاثاء يحضر الزينى بركات بن موسى وجماعة من المباشرين ويبيعون قماشها مثل التركة . وقد وقع لابنة يشبك الدوادار زوجة الأمير قانباى أمير آخور كبير كهذه الواقعة بعينها وصودرت وباعت جهازها وقماشها وجواربها مثل التركة ، وغلقت ما عليها من المال . وقد تقدم ذكرها .

وفى يوم الخميس سادسه صرف السلطان للعساكر المتوجهة الى السفر ثمن اللحوم المنكسرة لهم على ثلاثة أشهر لكى يتوسعوا فيها ، ولم

يصرف للذين تأخروا بصبر شيئاً ، وأحالهم على
الطباخين يصرفون لهم في غيبته .

وفي ذلك اليوم برز السلطان خيامه الى الريدانية
وقد تحقق أمر سفره الى البلاد الشامية ، ثم نادى
للعسكر في الميدان أن كل من جهز برقه ولا بقى له
عاقبة يخرج ويسافر ويتقدم قبل خروج السلطان ،
ولكن الى الآن لم يعلق السلطان الجاليش
الذى هو مقدمة الجيش اذا سافروا الى البلاد
الشامية ، وكانت العادة أنهم اذا سافروا الى البلاد
الشامية يعلقون الجاليش قبل خروجهم بأربعين
يوماً ، فلم يمش السلطان على طريقة الملوك
السالفة .

وفي يوم الخميس المذكور أرسل السلطان الى
أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله نفقة السفر ،
على يد حسام الدين الألواحى بواب الدهيشة ،
ألف دينار وكان الساعى له في ذلك الأمير طومان
باى الدوادار الكبير ، ولولا هو ما كان يرسل له
شيئاً ، فان السلطان أرسل للقضاة الأربعة يقول
لهم اعملوا برقكم ، ولم يرسل لهم شيئاً من النفقة ،
وقد حصل لهم غاية الكلفة والمشقة لأنه من حين
سافر الأشرف برسباى الى آمد سنة ست وثلاثين
وثمانمائة لم يخرج الخليفة ولا القضاة الأربعة الى
البلاد الشامية صحبة السلطان ، وكان للخليفة
والقضاة الأربعة على السلطان عادة أنهم اذا سافروا
الى البلاد الشامية يرسل لهم نفقة السفر ، فتغافل
السلطان عن ذلك .

ثم بعد أيام أرسل السلطان للخليفة سيفاً مستظاً
بالذهب ، على يد شخص من الزردكاشية يقال له
محمد العادلى ، وقد تقدم القول على أنه أرسل له
نوبة جام جديد ، فكان مجموع ما حصل له من
السلطان من الانعام ، ذهب وغير ذلك ، دون ألفى

دينار ، وقد تكلف الخليفة في هذه الحركة على
مصروف برقه وغير ذلك نحو الخمسة آلاف دينار
أو أكثر .

وفي يوم الجمعة سابعه خرجت جماعة كثيرة من
ممالك السلطان ، وتوجهوا الى السفر نحو البلاد
الشامية ، وقد نادى عليهم السلطان قبل ذلك أن
كل من جهز برقه يخرج ويسافر قبل خروج
السلطان ، فصار يخرج في كل يوم جماعة من
العسكر شيئاً فشيئاً ولم يسافروا .

وفي ذلك اليوم حضر خليفة سيدى أحمد البدوى
وقد حضر بطلب من السلطان فلما مثل بين يديه
قال له اعمل برقك حتى تسافر صحبتى الى حلب .
فلما سمع ذلك تعلل وأظهر أنه ضعيف ولم يقدر
يسافر ، فحنق منه السلطان وألزمه بالسفر ولم
يقبل له عذراً . وأرسل بقول لخليفة سيدى أحمد
الرفاعى رحمة الله عليه اعمل برقك حتى تسافر
صحبتى .

فلما تحقق القضاة سفر السلطان أخذوا في
تجهيز أمرهم وعمل برقهم ، وعينوا معهم جماعة
كثيرة من النواب ، فتقلقوا من أمر السفر ، فعند
ذلك فرض القضاة الأربعة مبلغاً له صورة على
نوابهم على كل واحد من النواب قدر معين على
قدر مقامه ، فقامت الثائرة والشناعة على القضاة
بسبب ذلك . ولما بلغ السلطان ذلك الخبر أنكر
على القضاة هذه الفعلة .

وفيه طلع قاضى القضاة الشافعى كمال الدين
الطويل وصلى بالناس صلاة الجمعة ، ثم استأذن
في الدخول على السلطان ، فدخل عليه وهو
بالدهيشة ، فلما جلس بين يدي السلطان شرع
يحلف له أنه لم يدخل كيسه شيئاً مما قرروه على
النواب ، وانما النواب الذين عينوا للسفر قالوا

نجعل كلنا على النواب المقيمين بمصر . فلما سمع السلطان ذلك قال : « لا تشوشوا على أحد من النواب ولا تأخذوا أحدا منهم بالغصب ، فالذي يسافر من تلقاء نفسه يسافر والذي لا يسافر لا تفصبوه على السفر » ... فبطلت تلك الحادثة الشنيعة والله الحمد بعد ما كان جماعة من النواب شرعوا في بيع قماشهم وكتبهم . وقد حصل لهم الضرر بسبب ما قرروه عليهم كما تقدم ذكره . ولم يقع للقضاة مع نوابهم مثل ذلك لما سافر الأشرف برسباي الى آمد .

وفيه عرض السلطان غلمانا للبيوتات من القراشين والبايية والركبخانة والحجارين والشريدارية والزردخانية من النفطية وغير ذلك ، وطلب الأمير علم الدين الذي يحكم على الطبالين والزمارين وألزمه أن يصرف على من يسافر صحبته من الطبالين والزمارين والمنقرين من كيسه ، وقال له : أنت تأكل معلوم هذه الوظيفة عدة سنين فأنتفق عليهم من عندك والا فعندنا من يلي هذه الوظيفة ويفعل ذلك . ثم عرض مغاني الدكة وهم أحمد أبو سنة والمحوجب والمحلاوى ، وأمرهم بأن يسافروا صحبته ، ثم عين جماعة من النجارين والحجارين وأمرهم بالسفر معه ، ثم عرض هؤلاء المذكورين ولم ينفق عليهم شيئا ، بل صرف لهم جامكية أربعة شهور لا غير ، ولم يعطهم نفقة وقال لهم : « أنتم تأكلون جوامك السلطنة كذا وكذا سنة فعند ارادتي سفركم تطلبون مني نفقة » . وكان قبل ذلك لما قرر القضاة على نوابهم مبلغا مساعدة للنواب الذين يسافرون ، أفرد شمس الدين الظريف تقيب القراء على جماعة من القراء والوعاظ والمؤذنين ، وأمرهم أن يسافروا صحبة السلطان كما فعل القضاة مع نوابهم .

وفي يوم الأحد تاسعه حضر الى الأبواب الشريفة العجمي الشنقجي ، نديم السلطان الذي كان توجه بالأفيال الى نائب الشام ونائب حلب وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته غير ما مرة ، فظهر أن السلطان أرسله الى شاه اسمعيل الصفوي في الخفية في خبر سر بين السلطان وبين اسمعيل شاه كما أشيع ذلك بين الناس .

وفي يوم الاثنين عاشر ربيع الآخر خرج طلب السلطان . وكان من ملخص أمره أنه أخرج الطلب من الميدان قبل طلوع الشمس ومشى به من الرميثة ونزل من حدره البقر وطلع به من الصليبة ، وكان ما اشتمل عليه ذلك الطلب أنه جر فيه خمس عشرة نوبة هجن بأطوار زركش وكنابيش وخمس عشرة نوبة بأكوار مخمل ملون ، وأما الخيول فثلاثمائة فرس ، منها مائة فرس بيركستوانات فولاذ مكفت بذهب وجواغين مكفتة بالذهب وشيء مخمل ملون ومنها ثلاث طوايل بكنابيش زركش وسروج ذهب ومنها ثلاث طوايل بعراقي وسروج بداوى وطبول بازات . وكان في الطلب أربعة وعشرون تختا بأغشية حرير أطلس أصفر وكجاوتين مخمل بزركش وهما الجوشنان ، وكان فيه ست خزائن بأغشية حرير أصفر ، وكان فيه محفتان على البغال بأغشية حرير أصفر ، وكان بالطلب خمسة رءوس خيل خاصة منها اثنان بأرقاب مزركش وكنابيش وسروج بلور مزيكة بذهب وشيء عقبق وطبول بازات بلور مزيكة بذهب ، وكان به فرسان بكنابيش وسروج ذهب عليها غواشي ذهب وعليها هلالات ذهب عوضا عن الطيور ، وكان راكبا بالطلب بعض أمراء عشراوات رءوس بالششاش والقماش ، وبعض خدام من الطواشية ، وكان

راكبا به من المباشرين القاضى محمود بن أجا كاتب السر ، والقاضى محيى الدين القصرى ناظر الجيش ، والقاضى علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص ، والقاضى تهاب الدين أحمد بن الجيعان كاتب السر ، والقاضى أبى البقاء ناظر الاسطبل ، والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، والقاضى شرف الدين الصغير كاتب الممالك وناظر الدولة ، والشرفى يوسى النابلسى الاستادار كان ، والقاضى كريم الدين بن الجيعان ، وأولاد الملكى وغير ذلك من المباشرين . ثم جاء الصنjq السلطانى وانجرت الكئوسات والصناjq السلطانية والخليفة ، وكان به أربعة طبول وأربعة زمور وعشرة أحمال كئوسات ، وكان عادة طلب السلطان أن يكون به أربعون حمل كئوسات ، فشق طلب السلطان من الرميلة واصطف العسكر والجَم الغفير من الناس بسبب الفرجة على الطلب ، فلما مر الطلب لم يعجب الناس واستقلوا الخيول اننى به .

وقال من أدرك طلب الأشرف برسباى لما خرج الى آمد : كان فى طلبه أربعمائة فارس مزينة بالبركستوانات المخل الملون والفولاذ ، وميز بعض الناس يشبك الدواidar لما خرج الى شاه سوار على طلب السلطان وشكره على هذا الطلب ، لأنه كان مرتبا عن طلب السلطان ونزل من جهة باب الوزير ودخل من باب زويلة ، وشق من القاهرة وكان يوما مشهودا حتى رجت له القاهرة فى ذلك اليوم . فاستمر ينسحب حتى خرج من باب النصر وتوجه الى المخيم الشريف بالريدانية .

وفى ذلك اليوم خرج سنيح أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وكان قدامه طبلان وزمران ونفير . ولم يخرج فى ذلك اليوم غير طلب السلطان فقط ، وكانت العادة القديمة أن يخرج السلطان

عقيب طلبه ثم تنسحب أطلاب الأمراء بعده شبنا فشيئا ، فلم يمس السلطان على النظام القديم وخالف عوائد الملوك فى أشياء كثيرة من أفعاله ، منها أنه لم يعلق الجاليش على الطبلخانات كعادة الملوك السالفة فانهم كانوا يعلقون الجاليش ، ويعرضون العسكر ثم ينفقون عليهم نفقة السفر ، ويستمر الجاليش معلقا الى أن يخرج السلطان ولو بعد شهرين .

وقد حكى عن الظاهر برقوق أنه لما جرد الى تمرلنك خرج طلبه ينسحب من باب الميدان وكان الظاهر برقوق يرتب طلبه بنفسه وهو راكب على فرسه وفى بده طبر وبكر بفرسه من باب الميدان الى الصوة .

قيل أن السلاطين المتقدمة كانوا يخرجون الى البلاد الشامية عند ما تنتقل الشمس الى برج الحمل فى أوائل فصل الربيع والوقت رطب ، وأما الغورى فانه سافر فى قوة الحر والشمس فى برج السرطان فحصل للعسكر مشقة شديدة فى الطريق وليس من العادة القديمة أن السلطان يشق عند خروجه القاهرة بل يخرج من الصوة ، وفى العود يشق القاهرة . وكان السلطان الغورى لا يقتدى الا برأى نفسه فى جميع الأمور .

وفى يوم الخميس ثالث عشره أشيع بين الناس أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان يقال له جانم الأفرنجى ، وكان مجرما عائقا مسرفا على نفسه ، خرج صحبة المماليك السلطانية الذين تقدموا قبل خروج السلطان ، فصار جانم هذا يخطف كل شىء لاح له ، ويؤذى الناس بطول الطريق . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل مراسيم شريفة الى أرباب الادراك بأن يقبضوا عليه ويشنقوه حبث وجدوه من غير مشورة ، فقبل انهم قبضوا عليه وشنقوه على شجره فى بليس وهو

بقماشة وسيفه وتركاشه ، ووضعوا غلماناه في الحديد الى أن أتوا بهم الى المقشرة .

وفي يوم الجمعة رابع عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى القرافة وزار قبر الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، وكان صحبته ولده أمير آخور كبير ، وقيل انه تصدق في ذلك اليوم بمال له جرم .

وفي ذلك اليوم برز سنيح السلطان وتوجه الى الريدانية ، وكذلك الأمراء خرج سنيحهم .

فلما كان يوم السبت خامس عشره خرج السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى الى البلاد الشامية والحلية ، وللناس مدة طويلة لم يروا سلطانا خرج الى تلك البلاد على هذا الوجه من حين توجه الأشرف برسباى العلائى الى آمد ، وذلك في سنة ست وثلاثين وثمانمائة ، فكانت المدة نحو سبع وثمانين سنة .

ولما كانت صبيحة يوم السبت المذكور اجتمع سائر الأمراء المقدمين عند السلطان بالميدان ، وهم بالشاش والقماش ، فخلع السلطان في ذلك اليوم ميمر وأطلسين على الأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس وقرره في امرية السلاح ، وكانت شاغرة من حين قرر الأمير سودون العجمى في الأتابكية ، فكانت عدة الأمراء المقدمين الذين تعينوا للسفر صحبة الركاب الشريف خمسة عشر أميرا ... منهم أرباب الوظائف خمسة وهم المقر الأتابكى سودون ابن جاني بك الشهير بالعجمى ، والمقر السيفى أركماس أمير مجلس سلاح ، والمقر الناصرى محمد ابن المقام الشريف أمير آخور كبير ، والمقر السيفى سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى قانصوه بن سليمان چركس ، ثم الأمير تمر الحسنى الشهير بالزردكاش ، والأمير

علان بن قراچا دوادار ثانى أحد المقدمين ، والأمير قانصوه كرت ، والأمير جان بلاط الشهير بالموتر ، والأمير تانى بك الشهير بالخازندار ، والأمير بييرس قريب السلطان ، والأمير أبرك رأس الجلبان الأشرفى ، والأمير أقباس الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين ، والأمير كرتباى الأشرفى الذى كان والى القاهرة أحد المقدمين . وأما الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف منهم الأمير يوسف الناصرى شاد الشرايخانة ، والأمير مغلباى ، والشرفى يحيى الزردكاش الكبير ، والأمير قاننى بك بن بخشباى رأس نوبة ثانى ، والأمير طومان باى قرا حاجب ثانى ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات . وأما الأمراء العشراوات فعين منهم جماعة كثيرة يخرجون الى السفر صحبة الركاب الشريف . وأما الأمراء الذين تخلفوا بالقاهرة فهم المقر السيفى طومان باى أمير دوادار كبير ابن أخى السلطان ، وقد تعين أن يكون نائب الغيبة عن السلطان الى أن يحضر ، والأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين ، والأمير أرزمك الشهير بالناشف ، والأمير قاننى بك النجمى أحد المقدمين وكان قرر في امرية الحاج ، والأمير أزيك الشهير بالمكحل أحد المقدمين ، والأمير قانصوه الفاجر أحد مقبضى الألوف ، والأمير بخشباى أحد المقدمين ، وكان قد توجه الى الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك ، والأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين وكان مقيما بشجر رشيد بسبب عمارة الأبراج التى هناك والسور ، والأمير خدابردى نائب الاسكندرية أحد المقدمين وكان مقيما بها ، والأمير قانصوه الشهير برجله أحد الأمراء المقدمين نائب قطيا وكان مقيما بها .

فلما أشرقت شمس يوم السبت خامس عشر

ربيع الآخر المقدم ذكره انسحبت أطلاب الأمراء المقدمين المتوجهين صحبة الركاب الشريف ، فكان أولهم طلب الأمير كرتباي أحد المقدمين ، وهو الذى كان والى القاهرة ، ثم طلب الأمير أقباي الطويل أمير آخور تانى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير تانى بك الخازندار ، ثم طلب الأمير علان بن الأشرفى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير قراجا الدوادار الثانى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير بيبرس قريب السلطان ، ثم طلب الأمير قانصوه بلاط الشهير بالموتر ، ثم طلب الأمير قانصوه كرت ، ثم طلب الأمير تمر الحسنى الشهير بالزردكاش ، ثم طلب الأمير قانصوه ابن السلطان جركس ، ثم طلب الأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، ثم طلب الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، ثم طلب المقر الناصرى محمد ، نجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، ثم طلب الأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس وقد قرر أمير سلاح ، ثم بعد ذلك مشى طلب الأتابكى سودون بن جانى بك الشهير بالعجمى وكان طلبه غاية فى الحسن والترتيب .

فلما انقضى أمر الأطلاب خرج السلطان من باب الاصطبل الذى عند السلم المدرج ، فخرج وقدامه النفير السلطانى المسمى بالبرغشى وهو فى موكب عظيم قل أن يتفق لسلطان موكب مثل ذلك الموكب فكان فى أول الموكب الأفيال الثلاثة وهى مزينة بأنواع الزينة ، ثم ترادف العسكر المنصور بالشاش والقماش ثم الأمراء رءوس النوب بالعصى يفسحون الناس ، وقد ترادفت الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات قاطبة ثم أرباب الوظائف من المباشرين ، منهم المقر القاضى محب الدين محمود بن أجا كاتب السر الشريف ، والقاضى ناظر الجيش محبى

الدين عبد القادر القصرى ، ومنهم ناظر الخاص علاء الدين ابن الامام ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ومستوفى ديوان الانشاء الشريف ، والقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الشريفة وكاتب العساكر المنصورة ، والقاضى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة واستادار الذخيرة ، والشرفى يونس النابلسى كاتب جيش الشام واستادار العالية كان ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاصطبل المعمور ، وأولاد الجيعان كتاب الخزائن الشريفة ، وأولاد الملكى كتاب استيفاء الجيش ، وكاتب الزردخاناه ، وغير ذلك من أرباب الوظائف من المباشرين ، والشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة

وكان حاضرا هذا الموكب السادة الأشراف اخوة الشريف بركات أمير مكة ، فكانوا فدام الأمراء المقدمين ، ثم تقدمت الأمراء المقدمون قاطبة وصحبتهم ولد السلطان المقر الناصرى أمير آخور كبير والى جانبه الأتابكى سودون العجمى . ثم من بعد ذلك تقدمت السادة القضاة الأربعة مشايخ الاسلام وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وقاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود ابن الشحنة ، وقاضى القضاة المالكى محبى الدين يحيى الدميرى ، وقاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ، ثم بعدهم أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين ، وعليه قباء بعلبكى بطراز أسود حرير ، ولم يكن على رأسه صنجق خليفتى ، وقد اختصر هذا الخليفة أشياء كثيرة مما كان يعمل للخلفاء المتقدمين من أقاربه . ثم مشى الجنائب السلطانية فكانوا طوائين خيل بعراقى وسروج

بغواشى حرير أصفر وطبول بازات ، وطوالتي خيل
بكنايش وسروج ذهب وميائثر زركش وبعضهم
بسروج بلور مزيكة بالذهب وشيء عقيق مزيك
بنفضة ، وقد تقدم ذكر الطلب بما شرح من وصفه
قبل ذلك ، ثم تقدمت جماعة من رعوس النوب
مشاة والجاويشية والطبردارية مشاة بالأطبار ،
ولهم يكن قدومه لا وطاق ولا شبابة سلطانية كما
هى عادة السلاطين فى الموالك . ثم مشى البقيج
والمجاميع مغطية بالحرير الأصفر ومشى البخورى
بالمبخره قدومه ، ثم أقبل السلطان الملك الأشرف
قانسوه الغورى عز نصره ، وكان الخليفة قدومه
بنحو عشرين خطوة . وكان السلطان راكبا على
فرس أشقر بسرج ذهب وكنبوش وعلى رأسه
كلوته وهو لابس قباء بعلبكى أبيض بطرز ذهب
على حرير أسود عريض قيل كان فيه خمسمائة
ذهب بنادقة ، وكان ذلك اليوم فى غاية الأبهة
والعظمة ، فانه كان حسن الهيئة تملأ منه العيون
مبجلا فى الموالك ، وأقبل والصنjq السلطاني
على رأسه ومقدم الممالك سنبل العثماني خلفه
وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش والجهم
الكثير من الخاصكية والجمدارية . فدخل من باب
زويلة وشق القاهرة فى ذلك الموكب الحافل ،
فارتجت له القاهرة فى هذا اليوم ، وضجت الناس
له بالدعاء من العوام وغيرهم ، وانطلقت له النساء
بالزغاريت من الطيقان ، فاستمر فى ذلك الموكب
حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا .
ثم وصل الى المخيم بالريدانية ، ثم فى عقب ذلك
اليوم نزلت خوخرجانات فيها الذهب والفضة
وضمن كل واحدة من الذهب العين ألف دينار
خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الأموال

التي جمعها من أوائل سلطنته الى أن خرج فى هذه
التجريدة ، وفرغ أيضا حواصل الذخيرة وأخذ
ما فيها من التحف وآلات السلاح الفاخرة التي
كانت بها من ذخائر الملوك السالفة من سروج
ذهب وبلور وعقيق وغير ذلك من كنايش زركش
وطبول بازات بلور ومينة وبركستوانات مكفتة
وأكوار زركش وغير ذلك من التحف الملوكية .
فنزل جماعة من كتاب الخزينة صحبة الخوخرجانات
وجماعة من الخازندارية وهم بالشاش والقماش ،
فكانت تلك الخوخرجانات محملة على خمسين
جملا ، ثم نزلت الزردخانه وهى محملة على مائة
جمل ، وقدامها طبلان وزمران وعيدان نقر على
جمال ، فتوجهوا الى الوطاق .

وفى يوم الأحد سادس عشره أرسل السلطان
نادى فى القاهرة أن الرحيل يوم الجمعة حادى
عشره ، فلا يتأخر أحد من العساكر الذى تعين
للسفر ولا يحتج بحجة ولا عذر ، ولما أقام السلطان
فى الوطاق عين جماعة من نواب السادة القضاة
للسفر صحبة الركاب الشريف . فأما نواب
الشافعية : فعين منهم الشيخ زين العابدين نجبل
القاضى كمال الدين الطويل ، والقاضى شمس
الدين بن وحيش ، والقاضى شمس الدين التفهنى
امام الأمير أركماس أمير سلاح ، والقاضى زين
الدين الظاهرى ... فجملة ذلك أربعة من نواب
الشافعية . وعين من مشايخ العلم الشافعية جمال
الدين الصابونى مفتى المسلمين ، والشيخ صلاح
الدين القليوبى قارئ الحديث الشريف ، وسافر
صحبة هؤلاء العلماء اخوة الشريف بركات أمير
مكة .

وأما من تعين من نواب السادة الحنفية : فالسيد
الشريف القاضى البردينى ، والقاضى زين الدين

الشرنقاوى ، والقاضى شرف الدين البلقينى ،
والقاضى عز الدين خليل . وأما نواب السادة
المالكية فتعين منهم : القاضى شمس الدين المدينى
والقاضى معين الدين بن يعقوب . وأما نواب السادة
الحنابلة فتعين منهم : القاضى شهاب الدين الهيشمى
والقاضى شمس الدين الطرابلسى . وأما من توجه
صحبة الركاب الشريف من مشايخ الصوفية :
فمنهم السادة الأشراف القادرية ، وخليفة سيدى
أحمد البدوى رضى الله عنه ، والشيخ محمد بن
كشك ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعى رضى الله
عنه ، والشيخ عفيف الدين شيخ مشهد السيدة
نقيسة رضى الله عنها . وأما من توجه صحبة
الركاب الشريف من أئمة السلطان : فقاضى القضاة
الحنفية شمس الدين السمديسى ، والشيخ شهاب
الدين بن الرومى . وأما من توجه من مشايخ
القراء صحبته : فالشيخ شمس الدين بن الظريف ،
والشيخ الخواص ، والرومى ، والشيخ حسن
الطنتائى ، وابن القاضى خليل ، والشيخ أبو الفضل
الفار ، وابن عثمان الاثنان . وأما من سافر معه
من المؤذنين ، فمنهم : نور الدين الخواص ،
ونور الدين الحسنى ، وجلال الدين ، وناصر
الدين . وأما من توجه صحبة السلطان من
الموقعين : فمنهم القاضى رضى الدين الحلبي ،
والقاضى عمر بن معين الدين ، والقاضى علم الدين
العباسى ، والقاضى محب الدين الظاهرى ، وشمس
الدين الجيزى ، وسعد الدين بن الرومى . وأما
من توجه صحبته من كتاب الخزينة فمنهم : القاضى
كريم الدين عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى
أحمد ، والقاضى شمس الدين محمد ابن القاضى
صلاح الدين بن الجيعان . وأما كتاب الزردخانة
فمنهم : القاضى زين الدين عبد الباسط ، والقاضى

عبد الكريم بن الأذننى ، وغير ذلك من المباشرين .
وأما من توجه صحبه السلطان من الاطباء فمهم .
محمد ابن الرئيس شمس الدين القوصوى وهو
رأس الاطباء الان ، وصحبته جماعه من الاطباء ،
ومن الكحالين عبد الرحمن ابن الشريف ، ومحمد
ابن العفيف ، وآخرون . ومن المزينين عبد القادر
المرشدى وآخرون من الجرايحية . وأما من توجه
صحبته من مغانى الدكة : فهم نور الدين المحوجب
وأحمد بن أبى سنة وأحمد المحلاوى . وتوجه
صحبة السلطان جماعة كثيرة من البنائين والنجارين
والحدادين كما جرت به العادة .

وسافر معه شيخ المشايخ ، المسمى بشيخ
الحرافيش ، وجنده وصنجه وطبله ، وكان هو
قدام طلب السلطان لما دخل الى دمشق كما جرب
به العوائد القديمة عند خروج التجاريد .

ولما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر رحل
من المخيم الشريف ثلاثة من الأمراء المقدمين وهم
الأمير كرتباى الأشرفى الذى كان والى القاهرة
وبقى مقدم ألف ، وكان جملة ما معه من مماليكه
أربعين مملوكا ، والأمير أبرىك الأشرفى والأمير
بيرس قريب السلطان ، وكان جملة ما معه من
مماليكه أربعة وأربعين مملوكا .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره رحل من الأمراء
المقدمين ثلاثة أيضا وهم : الأمير تانى بك الخازندار
وكان جملة ما معه من مماليكه اثنين وستين
مملوكا ، والأمير قانصوه كرت وكان جملة ما معه
من مماليكه اثنين وخمسين مملوكا ، والأمير قانصوه
ابن سلطان جركس وكان جملة ما معه من مماليكه
ستة وسبعين مملوكا ، وأما الأمير جان بلاط الموتر
فكان جملة ما معه من مماليكه ستة وثلاثين مملوكا ،

والأمير تمر الزردكاش كان جملة ما معه من مماليكه اثنين وسبعين مملوكا .

وفي يوم الجمعة حادى عشره رحل من الأمراء المقدمين أرباب الوظائف الأمير أنص باى حاجب الحجاب وكان جملة من معه من المماليك أربعة وستين مملوكا ، والأتابكى سودون العجمى ، وأما المقر الناصرى ولد السلطان أمير آخور كبير والأمير أقبای الطويل أمير آخور ثانى فانهما لا يرحلان الا فى ركاب السلطان ، وكان جملة ما مع الأتابكى سودون من مماليكه مائة وخمسة وثلاثين مملوكا ، وولد السلطان عشرين مملوكا كتابية صغارا للخدمة ، وجملة ما مع الأمير أقبای الطويل من مماليكه خمسة وأربعين مملوكا ، فكان جملة ما مع هؤلاء الأمراء الذين توجهوا صحبة السلطان تسعمائة وأربعة وأربعين مملوكا على ما قيل . ويقال ان عدة المماليك الذين خرجوا فى هذه التجريدة من القرانصة والجلبان وأولاد الناس خمسة آلاف نفر ، على ما قيل ، والله أعلم . وقيل تأخر بالقاهرة من المماليك القرانصة والعواجز والشيوخ والمماليك الجلبان فى الطباق والقلعة وأولاد الناس نحو ألفى نفر على ما قيل .

ولما كان السلطان بالمخيم الشريف ورد عليه مطالعة من عند نائب حلب واذا فيها : « ان ابن عثمان أرسل قاصدا فعوقناه عندنا وأخذنا الكتاب منه وهاهو واصل لكم » فوصل اليه وهو بالمخيم بالريدانية . ولما فكه السلطان وقرأه فاذا فيه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة ، منها أنه أرسل يقول له : « أنت والدى وأسألك الدعاء واني ما زحفت على بلاد على دولات الا باذنك وانه كان باغيا على ،

وهو الذى أثار الفتنة القديمة بين والدى والسلطان قايتباى حتى جرى بينهما ما جرى ، وهذا كان غاية الفساد فى مملكتكم وكان قتله عين الصواب . وأما ابن سوار الذى ولى مكانه فان حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد آبيه أو تولوا غيره ، فالأمر راجع اليكم . وأما التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فاني ما منعتهم وانما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا عن جلب المماليك اليكم ، وان البلاد التى أخذتها من على دولات أعيدها لكم وجميع ما ترومونه ويريده السلطان فعلناه » .

فلما سمع السلطان ذلك أحضر الأمراء المقدمين وقرأ عليهم كتاب ابن عثمان ، فانشرح الأمراء والسلطان لهذا الخبر ، واستبشروا بأمر الصلح والعود الى الأوطان عن قريب ... وكان هذا كله حيل وخداع من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده ، وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد .

وفي عقيب ذلك اليوم حضر الأمير اينال باى الدوادار سكين ، الذى كان توجه الى حلب بسبب كشف خبر ابن عثمان ، فلما حضر وجد السلطان قد برز خيامه الى السفر وخرج من القاهرة فأخبر أن قاصد بن عثمان وصل الى حلب ، وأن ابن عثمان يقصد الصلح بينه وبين السلطان ، فقدم لاينال باى هناك مقدمة حافلة .

ومما وقع للسلطان وهو بالوطاق أن ليلة رحيله من الريدانية خلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية بسمور حافلة وقرره نائب الغيبة بالقاهرة الى أن يحضر . وخلع على القاضى بركات بن موسى وقرره فى الحسبه عوضا عن الأمير ماماي الى أن

يحضر ، وجعل الزينى بركات بن موسى المذكور متحدثا في جميع أمور السلطنة . وفي تلك الليلة أحضر مشاعل موقدة فطارت منها شرارة على خيمة السلطان فاحترق جانب منها ، فلم تتفائل الناس بذلك بسبب السلطان . فلما دخل الزينى بركات ابن موسى الى القاهرة تضاعفت عظمتة الى الغاية وصار في مقام نظام الملك وهو المتصرف في أمور المملكة ، والأمير الدوادار الكبير معه كاللؤلؤ يديره كيف يشاء .

وفي تلك الليلة أيضا خلع على الأمير ألماس ، وقرره والى القاهرة وأوصاه بحفظها وعدم الظلم ، وخلع على الأمير ماماي المحتسب ورسم له بالسعر معه الى حلب ، فرجع الأمير الدوادار من عند السلطان وشق من الصليبة في موكب حافل وقدامه المنادون ينادون بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد من الناس يمشی من بعد العشاء بسلاح ، ولا يشوش مملوك ولا غلام على مسبب ، وأن من كانت له ظلامة أو حق شرعى على أحد ولم يدفعه له فعليه بباب الدوادار فارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء . وكان الأمير الدوادار محببا للرعية والفقراء ، قليل الأذى في حق الناس . ولما شق الصليبة شق في موكب حافل وقدامه السعاة والسقاة والجم الكثير من الناس والأتباع والماليك السلطانية ، وتوجه الى منزله في ذلك الموكب . وقد قلت في ذلك :

لقد شرف الأكوان نائب غيبة

أمير دوادار الى النهى والأمر

كريم شجاع في المعامع فارس

له نصره في الحرب بالبيض والسم

إذا ما اشتكى المظلوم من جور ظالم
له طلعة بالعدل تؤذن بالفجر
فيارب كن عوناً له ومساعد
على كل ما يغشاه من حادث الدهر
وأبق ابن موسى للرعية انه
كليم زكى القلب آمن من السحر
جناب كريم نهم ناظر حسبه
ومولده قد كان في ليلة القدر

وللسادة الأشراف ينظر بالتقى
ونال بهذا غاية الفوز بالأجر
وصار لديوان الذخيرة ناظرا
وعامله في أعناق أعدائه يبري
عزيز بمصر حاز طلعة يوسف
أعوذه بالنجم والنور والحشر

وفي يوم السبت ثاني عشر ربيع الآخر رحل السلطان من المحيم الشريف بالريدانية وصحبته الحليفة والقضاة الأربعة وولده المقر الناصري أمير آخور كبير وأقبای الطويل أمير آخور ثاني فصلی صلاة الصبح ورحل وتوجه الى خانقاه سرياقوس ، وكانت مدة اقامته في الوطاق بالريدانية سبعة أيام ، فلما توجه الى خانقاه سرياقوس أقام بها يوما وليلة ورحل عنها يوم الأحد ثالث عشره .

وفي يوم الاثنين رابع عشره فرقت الجامكية الثالثة على العسكر الذى تأخر بمصر ، فجلس الأمير طقطبای عند سلم المدرج ، وصرفت الجامكية بحضرته ... وهذه أول جامكية صرفت في غيبة السلطان .

وفي ذلك اليوم رسم الأمير الدوادار للأمرء المقدمين الذين عينهم السلطان الى الشرقية والغربية بأن يخرجوا ويسافروا لأجل حفظ البلاد

فقبضوا على ذلك الرجل الذى زعموا أنه فداوى وأحضروه بين يدى السلطان ، فقررره فأنكر فرسم بشنقه .

ثم ان السلطان أرسل يقول للأمير ألماس والى القاهرة بأن يكبس على علم الدين وعلى أقاربه ويقبض عليهم ويشنق علم الدين على بابه ، فلما بلغ علم الدين الجلبى ذلك اختفى وهرب من بيته .

ثم ان الوالى قبض على جماعة من الساسة من أقارب علم الدين ووضعهم فى الحديد ، فأشيع بين الناس أنهم شنقوهم فى المقشرة أو سجنوهم حتى يحضر السلطان . وكان قبل ذلك حرق للأمراء أيضا عدة شون دريس فى الحسينية بنحو ألفى دينار ، فنسبوا ذلك لفعل جماعة من الساسة من أقارب علم الدين الجلبى ، واذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها ، واستمر الطلب الحثيث على علم الدين الجلبى الى أن ظفروا به ، فقبل ان الوالى لما هرب علم الدين أرسل مماليكه باللبس الكامل فى طلب علم الدين فلم يظفروا به .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره خرج الأمير الدوادار وسافر بسبب سد جسر الفيض وجسر أبى المنجا وقد أعيا الخولة سدهما ، وكان النيل قد زاد قبل المنادة ، وكان فى اثنى عشر ذراعا فتعب الأمير الدوادار فى سد تلك الجسور غاية التعب ، وكسر مراكب فى أساس هذين السدين والماء بقوى على ما يصنعون الى أن أعان الله وسدهما ورجع .

وفى جمادى الأولى خرج الأمير مامى الصغير المحتسب وسافر ولحق السلطان ، وخرج صحبته صبي صغير عمره ثلاث عشرة سنة ويقال له قاسم

من فساد العربان ، فتوجه الأمير تانى بك الى الشرفية ، والأمير أزبك المكحل الى الغربية ، والأمير قانصوه الفاجر الى المنوفية ، والأمير قانصوه أبو سنه الى البحيرة ، والأمير بخشبای كان مسافرا الى جهة الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك . ثم نادى الأمير الدوادار فى القاهرة لجميع المماليك السلطانية المعينين الى البلاد بأن يخرجوا صحبة الأمراء الذين يسافرون الى الشرقية والغربية ولا يتأخر عن ذلك أحد من المماليك المعينة للسفر فامثلوا ذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشره توفى الأمير نوروز تاجر المماليك وأحد الأمراء الطبلخانات ، وكان أصله من ممالك الأشرف قايتباى ، وكان قد كبر وثقل فى الشحم حتى عجز عن الحركة ، واستمر على ذلك حتى مات ، فأشيع أن السلطان أنعم على مملوكه مامى الذى قرر فى الحسبة بترك نوروز وخيوله وبغاله وخيامه على ما قيل والله أعلم .

وفى ذلك اليوم أظلم الجو وأرعس وأبرق ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان ذلك فى أول بؤونة من الشهور القبطية ، فاستمر المطر عمالا ثلاثة أيام متوالية حتى عد ذلك من النواذر . وقام عقيب ذلك رياح واصفر الجو صفرة عظيمة وقت المغرب فتنفعل الناس بوقوع فتن فى الوجود وقد جرى فيما بعد .

وفى ذلك اليوم جاءت الأخبار من عند السلطان أنه لما رحل من الخائقاء وجد فى وطاقه شخص من السعادنة ، زعموا بأنه فداوى أرسله علم الدين جلبى السلطان الذى تغير خاطره عليه كما تقدم ذكر ذلك ، فقال أعداء علم الدين انه أرسل ذلك الفداوى ليقتل الصبى المسمى بعبد الرزاق الذى صار جلبى السلطان عوضا عن علم الدين ،

ابن أحمد بك بن أبي يزيد بن عثمان وكان عمه سليمان شاه ابن عثمان لما قتل أخاه أحمد بك فر ابنه قاسم هذا هو ولالاه ، ودخل الى حلب في الخفية ثم جاء الى مصر وأقام بها الى أن خرج السلطان الى جبة البلاد الشامية ، فأخذه صحبته ليبلغ بذلك مقاصده ، فلم يفد من ذلك شيء . ولما خرج صحبة الأمير ماماي خرج وقدامه جنائب ، وكان السلطان قد قام له بمصالح البرق ، وتكلف عنه بنحو ألفي دينار حتى يظهر أمره ويشاع ذكره في بلاد بني عثمان بأن في مصر من أولاد بني عثمان ولدا ذكرا ، وظن السلطان أن عسكر ابن عثمان اذا سمعوا ذلك يخامرون على سليمان شاه ويأتون الى هذا الصبي قاسم ، فلم يظهر لهذا الأمر نتيجة ولا أفاد ما قصده شيئا ، فشق من الصليبة وعلى رأسه عمامة تركمانية وفي وسطه خنجر ملوكي . وقيل كان في أذنه بلخشة مثنى ، وصحبته جماعة من العشمانية . وخرج صحبته الأمير ماماي والأمير اينال باي دودار سكين الذي كان قد حضر من البلاد الشامية ، فرسم له السلطان بالعود ثانيا صحبته الى حلب .

ومن الحوادث التي جرت في غيبة السلطان أن الأمير ألماس والي الشرطة صار يحجر على الناس ، ويأمرهم بأن يعمرؤا على الحارات والأزقة دروبا في أماكن شتى ، فعمرؤا دربا في رأس سوق الدريس ودربا في الحسينية ودربا على قنطرة الحاجب ودربا عند الفرايين وآخر عند خوخة القطانين وآخر عند المقس وعدة دورب في أماكن شتى ، وسد عدة خوخ كانت بالقاهرة فصار على رأس الناس طيرة بسبب المناسر والحريق بالقاهرة ، وأمرهم بأن يعلقوا على كل دكان قنديلا ،

وألا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء ولا يمشى بسلاح .

ومن الوقائع اللطيفة أن الأمير الدوادار لم يشوش على أحد من أجناد الحلقة ولا ألزمهم بالمبيت في القلعة في غيبة السلطان ، وكانت العادة القديمة أن السلطان اذا سافر نحو البلاد الشامية تتسلط ثقباء القصر على أولاد الناس من ثقباء الحلقة ويلزمونهم بالمبيت في القلعة في كل ليلة في مدة غيبة السلطان الى أن يحضر من السفر ، فيحصل لهم مشقة زائدة ويقاسون تعباً شديداً بسبب طلوعهم كل ليلة الى القلعة ليميتوا بها بعيداً عن بيوتهم في الشتاء ، والذي لا يبيت يقيم له بديلاً يبيت عنه بالقلعة . وكان ذلك يعمل الى أيام الأشرف قايتباي لما كان يسافر ، فلم يتعرض الأمير الدوادار لما سافر الغوري الى أحد من الناس من أجناد الحلقة ، فكتب ذلك في صحيفة الأمير الدوادار ودعا له أولاد الناس الذين أبطل عنهم هذه السنة السيئة .

ومن الحوادث في غيبة السلطان أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان قصد أن يشتري قمحا من مركب على شاطئ البحر ، فلما اشتراه لم يجد تراسا فوجد شخصا من الفلاحين الصعايدة ومعه حمار وزكية ، فأمسك المملوك ذلك الحمار والزكية فلم يعطه الفلاح اياهما ، وتنازع معه فضربه المملوك ضربا مبرحا على رأسه حتى سال دمه ، فألقى الرجل نفسه في البحر فأغمر عليه فمات ، فعند ذلك تكاثر الناس على ذلك المملوك فمسكوه وأتوا به الى بيت الأمير الدوادار ، فوضعه في الحديد وأرسله الى الوالى ... فلما بلغ خشدأشيينه أتوا الى بيت الدوادار فوجدوه غائبا نحو جسر الفيض بسبب سده ، فقليل للمماليك

ان ذلك المملوك سلمه الأمير الدوادار الى الأمير
ألماس الوالى ، فعند ذلك نزل من الطباق الجهم
الكثير من الممالك الجلبان لأجل أن ينهبوا بيت
الوالى ويحرفوه ويطلقوا المملوك ، فتغافل الأمير
الدوادار عن أمر ذلك القتل وراحت على من
راحت .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن شخصا من
الطواشية يقال له عنبر مقدم طبقة الأشرفية ، وكان
ساكنا بالقلعة فى خرائب تتر وكان متهما بالمال ،
وكان عنده ودائع من جوامك الممالك ، فنزل عليه
بعض الحرامية وهو راقد فى بيته ليلا وضربوه
على رأسه بالجلبات حتى مات ، وأخذوا جميع
ما فى بيته ، وقتلوا عبده وجاريتيه ولم ينتطح فيها
شأتان ، حتى تحير الأمير طقطباى نائب القلعة من
ذلك ، وكيف جرى فى وسط القلعة والأبواب تغلق
من بعد المغرب ... فعند ذلك من العجائب !

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى قاضى القضاة
الشافعية جمال الدين ابراهيم ابن الشيخ علاء
الدين القلقشندى رحمة الله عليه ، وكان من أهل
الدين والعلم والفضل وله سند عال فى الحديث
الشريف ، وولى منصب القضاة فى أيام الأشرف
الغورى مرتين . وكان قد كبر وشاخ وقارب
التسعين سنة ، وكان من أعيان علماء الشافعية
رحمة الله عليه .

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان دخل الى
الصالحية فى يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر .
قيل انه لما أراد الرحيل منها أذن للخليفة والقضاة
الأربعة أن يتقدموا الى غزة ، ثم لما وصل الى
قطيا لاقاه الأمير قانصوه رجلة نائب قطيا ومد له
هناك مدة حافلة ، وقدم له مقدمة جيدة على
ما قيل .

ومن الاشاعات التى أشيعت فى أثناء الطريق
أنه سرقت بغلة قاضى القضاة الحنفية ثم ظهرت
بعد ذلك وتكلف عليها الحلوان حتى رجعت اليه .
وأشيع أن بقجة فيها قماش قاضى القضاة الحنبلى
سُرقت من خيمته . وأشيع أنه قد سرق للسلطان
جمل عليه مال له صورة ، فقبض على من فعل
ذلك ، ووسط من الجمالة ثلاثة أنفار ... وكل ذلك
اشاعات ليس لها صحة .

ثم وردت الأخبار أن السلطان دخل مدينة غزة
المحروسة يوم الخميس رابع جمادى الأولى ،
فلاقاه الأمير دولات باى نائب غزة ومد له مدة
حافلة ، وقدم له مقدمة عظيمة ، وقيل انه أقام بها
خمسة أيام ورحل عنها .

وأشيع أن السلطان لما كان بغزة خلع على جمال
الدين الألواحى بواب الدهيشة وقرره معلم
المعلمين عوضا عن الشهابى أحمد بن الطولونى
بحكم انفصاله عنها ، وكان هذا من غلطات الزمان
فى تولية الوظائف غير أهلها .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره طلع ابن أبى الرداد
بشارة النيل المبارك ، فأخذ القاعدة فجاءت اثنى
عشر ذراعا وهذا من النوادر ، وقد بقى على الوفاء
سته أذرع . هكذا نقله المقرئ فى الخطط ، وزاد
الشيخ جلال الدين السيوطى فى كتابه المسمى
بكوكب الروضة أربعاً وعشرين اصبعاً . وكان
الناس من أيام الناصر محمد بن قلاوون ما رأوا
القاعدة جاءت اثنى عشر ذراعا ، فإن أيامه ستة
أحدى وستين وسبعمئة جاءت القاعدة اثنى عشر
ذراعا وكان الوفاء سادس مسرى وبلغت الزيادة فى
تلك السنة الى ما بقرب من أربعة وعشرين ذراعا ،
فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل ،

واستسقوا في هبوطه حتى هبط بعد ما مكث الى آخر توت .

ثم في أيام الأشرف برسباي في سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة جاءت القاعدة أحد عشر ذراعا وعشر أصابع . وكان الوفاء ثانى مسرى وبلغت الزيادة في تلك السنة عشرين اصبعاً من الذراع العشرين ، وثبت الى أواخر يابه . فلما جاءت القاعدة في هذه السنة اثني عشر ذراعاً حسبت الناس أن النيل يمكث على الأراضي وقت أوان الزرع وأنه يبقى في غير أوانه ، فما حصل في هذه السنة الا كل خير ، ووفي النيل في أوانه ، وسيأتي الكلام عليه في موضعه .

وفي يوم السبت سابع عشره توفي الأمير جاني باي من طبقة الزمامية ، وكان من أمراء الطبلخانات وأصله من مماليك الأشرف قايتباي ، وكان لا بأس به .

وفيه أخرجوا فلوساً جديداً وأبطلوا الفلوس العتيق ، ونادوا بأن الفلوس العتيق ينصفين الرطل والجديد معاددة ، فوقف حال الناس بسبب ذلك .

وفي جمادى الآخرة وكان مستهله يوم الثلاثاء ، توجه جماعة من نواب القضاة وأعيان الناس الى بيت الأمير الدوادار وهنوه بالشهر .

وفي هذا الشهر وردت الأخبار بأن السلطان دخل الى دمشق المحروسة يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى ، فلاقاه الأمير سيباي نائب الشام ودخل في موكب حافل وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشراوات وأرباب الوظائف من المباشرين والجه الكثير من العسكر والناس . ولما لاقاه أمراء الشام وعساكرها ، وحمل على رأسه القبة والجلالة كما جرت به عوائد الملوك من قديم الزمان ، فزينت

له مدينة دمشق زينة حاذية ودقت له البشائر بقلعة دمشق ، وتتر على رأسه بعض دجار الأفرنج ذهباً وفضة وفرش له سيباي نبت حافر فرسه الشقيق الحرير ، وازدحمت عليه المماليك بسبب نثار الذهب والفضة ، فكاد السلطان يستقل عن ظهر فرسه من شدة زحام الناس عليه ، فمنعهم من نثار الذهب والفضة ومن فرش الشقيق الحرير تحت حافر فرسه ، فكان له بدمشق يوم دسرهود وعد ذلك من المواكب المشهودة . فاستمر ذلك الموكب الحفل حتى دخل من باب النسر الذي بدمشق ، وخرج الى الفضاء منها ، وتوجه الى المصطبة التي يقال لها مصطبة السلطان ، وهي بالقابون القاقوني ، فنزل هناك ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها ، وكانت قد تشعثت من مرور السنين . وهذا الموكب لم يتفق لسلطان من بعد الأشرف برسباي لما توجه الى الشام في سنة ست وثلاثين وثمانمائة سوى الملك الأشرف قانصوه الغوري .

ثم ان السلطان أقام بالمصطبة التي بالقابون تسعة أيام . وقيل ان قاضي القضاة كمال الدين الطويل خطب بجامع بنى أمية جمعتين ولم يحضر السلطان هناك لصلاة الجمعة . وقيل استمرت مدينة دمشق مزينة سبعة أيام ، ثم ان السلطان رحل عنها وتوجه الى حمص ، ثم رحل عنها وتوجه الى حماه فلاقاه نائبها جان بردى الغزالي . قيل انه مد له هناك مدة حافلة أعظم من مدة أمير الشام على ما أشيع . وقيل ان السلطان لما رحل من حماه نزل بها قاسم بك بن أحمد بن عثمان الذي تقدم ذكره عندما خرج من مصر وسافر صحبة الأمير ماماي المحتسب كما تقدم .

وقيل انه في ليلة الاثنين رابع عشر هذا الشهر خسف جرم القمر خسوفاً فاحشاً ، حتى أظلمت

الدنيا وأقام في الخسوف فوق خمسين درجة ،
وتغطى بالسواد جميعه ، واستمر في الخسوف الى
ثلث الليل الأخير .

وفي يوم الاثنين رابع عشره رسم الأمير الدوادار
بشنق شخص من العربان المفسدين على قنطرة
الحاجب .

وقد ضبط الأمير الدوادار أحوال الديار المصرية
في غيبة السلطان ضبطا جيدا ، ورسم للأمير ألماس
والى القاهرة بأن يطوف في كل ليلة من بعد
العشاء ، وعين معه مائة مملوك من المماليك الجلبان
يطوفون معه : كل ليلة تنزل جماعه من المماليك
من طباقهم بالنوبة ويطوفون مع الوالى الى طلوع
الفجر ، فلم يقع في غيبة السلطان في القاهرة الا كل
خير ، وكان ذلك على غير قياس .

وكان الأمير الدوادار في كل وقت يقمع الأمير
ألماس الوالى بسبب ما أخذه من الناس لأجل
الدورب ، وقد أفحش في الظلم في هذه الحركة ،
فكان يتفق مع أرباب الأدراك والخفراء فيجبون له
من سكان الخطط والحارات لأجل عمارة
الدورب ، فجبوا له من الناس أموالا لها صورة ...
فكانت الخفراء اذا وقفوا على باب أحد من
السكان يقررون عليه من الدراهم بحسب ما
يختارونه من ذلك ، فاذا هرب صاحب الدار
سمروا الباب على أولاده وعياله حتى يحضر ويدفع
لهم ما قرروه عليه ، والمرأة الأرملة يسمرون بابها
عليها ويتركونها بالجوع والعطش حتى ترمى لهم
من الطاقة اللحاف أو الطراحة أو البساط أو غير
ذلك ، فكانوا يقررون على الفقراء من الناس شيء
أشرفى وشيء أشرفين ، وأما أعيان الناس فكانوا
يقررون عليهم شيء خمسة أشرفية وشيء عشرة
أشرفية بحسب ما يختارونه ... ففعلوا مثل ذلك

بخط المقس وخط باب البحر وسويقة اللبن
بالحسينية وسوق الدريس وخط بركة الرطلى
وغير ذلك من الأماكن والخطط ، ففعلوا في هذه
الحركة ما لم يفعله هناد ، من وجوه الظلم
والفساد ، وهم يزعمون أن في ذلك نفعا للمسلمين
في عمارة الدورب . فجبوا من هذه الحركة مالا له
صورة ، ولم يصرفوا منه الا القليل .

ثم حسنوا للوالى عبارة بأن يجبى من جامع
ابن طولون الى مشهد السيدة نفيسة الى
آخر السوق الطولونى على جميع الأملاك
والدكاكين التى هناك ، وزعموا أنهم ينشئون
سورا على حدة ابن قميحة الى باب القرافة ،
وزعموا أن ذلك يمنع هجمة العربان على حين
غفلة ، وكل هذا حيلة على أخذ مال الناس .
فشرعوا في كتب أسماء الدكاكين والأملاك التى
بتلك الحارات الطولونية والقرافية . فلما بلغ
الأمير الدوادار زجر ألماس وحط عليه . وكان
أشاع ذلك على لسان الأمير الدوادار فحلف الأمير
الدوادار أيمانا مغلفة أنه ما له علم بذلك ، وأبطل
هذه الحادثة المهولة فدعا له الناس قاطبة .

ثم ان جماعة حاجب الحجاب قصدوا أن ينشئوا
مظلمة أخرى ، وهى أنهم يجبون من سكان بركة
الرطلى مالا له صورة بسبب قطع الطين الذى في
فم البركة ، فانه كان قد علا جدا حتى امتنع دخول
المراكب للبركة ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك
أبطل هذه الفعلة أيضا ورسم بسد فم البركة رأسا
حتى لا تدخل اليها المراكب .

وفي يوم السبت تاسع عشره حضر الأمير
الدوادار وكان قد توجه الى الفيوم ليكشف عن
الجسر الذى عمره الأمير بخشبائى هناك ، فكشف
عليه وعاد بعد أيام .

وفي غيبة السلطان كان الأمير الدوادار يركب كل يوم ومعه الأمراء العشراوات الدين بمصر ويسيرون نحو المطرية وبركة الحاج ، فاذا رجع يدخل من باب النصر ، وقدامه الجهم الكثير من الأمراء والعسكر ، وكل هذا لأجل العرب والفلاحين حتى لا يظنوا أنه ما بقى في مصر عسكر ولا يطمعوا في أمر العامة ، وكان هذا من الآراء الحسنة .

وفي يوم الاثنين حادى عشرى جمادى الآخرة الموافق لسابع عشرى آيب كان وفاء النيل المبارك ، وفتح السد يوم الثلاثاء ثانى عشرىه الموافق الثامن عشرى آيب ، وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة أيام ، وكان للناس مدة طويلة من سنة خمس وأربعين وثمانمائة ما رأوا النيل وفى سابع عشرى آيب الا فى تلك السنة . فصنف منادى البحر هذه الكلمات : « يا حبيب اهنا وطيب ، النيل أوفى فى آيب ، وقد بقينا فى هنا ، يافرحنا » . وكلمات آخر غير ذلك .

فلما وفى النيل توجه الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبة لفتح السد فنزل فى مركب الحراقة وتوجه الى المقياس وخلق العمود . ثم نزل من المقياس فى الحراقة المذكورة وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين الذين كانوا بمصر ، منهم الأمير طقطباى نائب القلعة والأمير أرزمك الناشف وآخرون من الأمراء ... فتوجه لفتح السد وكان يوما مشهودا . فلما فتح السد عاد الأمير الدوادار الى بيته فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء بالشاش والقماش ، وجماعة من المباشرين . فلما فتح السد جرى الماء فى الخلجان بعزم قوى ، وسر الناس فى ذلك اليوم بوفاء النيل قبل مياعده ، وقد قيل فى المعنى :

تمتع بماء النيل قبل وفائه
فقد طاب منه الشرب وهو لنا طب

وقد سكبت منه الجنادل فيضها
فأضحى بلا شك حلاوته سكب

ومن الحوادث أن الأمير الدوادار نائب الغيبة منع الناس أن يسكنوا الجسر الذى ببركة الرطلى والخلجان فاطبة ، وعمل جسرا على خليج الزريبة عند موردة الجبس ، فآل أمر الجزيرة الوسطى الى الخراب . فلم يكن بها بيت ، ولا فتح فيها دكان ، ومنع المقاصفية أن ينصبوا مقصفا فى الجسر ، ولا فى الزريبة ، فلم يكر فى الجسر ولا فى الزريبة بيت ولا دكان ، ولم يسكن المسطاحى ولا حكر الشامى ولا الزريبة ، وصارت بيوت بركة الرطلى خاوية على عروشها ولا سيما بيوت أولاد الجيعان وبيت كاتب السر وغير ذلك من بيوت الأعيان ، فحصل للناس فى هذه السنة غاية الإنكاد بسبب ذلك ، وخسر الناس كراء بيوتهم . وأشيع سد خوخة الجسر ، فثلطف القاضى بركات بن موسى المحتسب بالأمير الدوادار فى أن يسمح للناس فى دخول المراكب على العادة ، وأن يسكنوا الجسر فأبى من ذلك ، وقال ان العوام يفسدون نساء الأغوات المسافرين صحبة السلطان فى هذه النيلية ، واستمر مصمما على منع ذلك .

ثم فى أواخر النيلية شفع القاضى بركات بن موسى فى خمسة مراكب للبياعين أن تدخل فى البركة على العادة ، فدخل الخلوانى والجلبان والفاكهانى والعداس والسويخاتى لا غير ، فأقاموا أياما يسرون فلم يجدوا من يبيعون عليه ، فمضوا الى حال سييلهم . واستمرت بركة الرطلى ليس بها ديار ولا نافخ نار ، فعند ذلك عمل الشيخ بدر

الدين الزيتوني هذه المراثية اللطيفة في واقعة الحال
فقال :

سألت إله المرش بنعم بالنصر
لسلطاننا الغورى فهو أبو النصر
ملك عزيز أشرف ومظفر
مؤيد دين ظاهر كامل القدر
لغيبته أضحى على الكون وحشة
فهما بركة الرطلى مدمعها بجرى
يحق لنا نرثى المقاصف بالبكا
خصوصا من المسطاح مع لذة الجسر
لقد كان فيه للخليع تواصل
لعمرك ان الوصل خير من الهجر
وكان بها جسيمة طاب ظلها
فناح عليها الطير والوحش في القفر
على ما جرى للجسر ساقية بكت
وصاحت بقلب صار في غابة الكسر
ودوخته تبكى بجامعه دما
وقد أصبح الشامي يبكى على الحكر
وأضعب بيوت الجسر خالية فلا
لصاحبها سكنى ولا أحد يكرى
وقد أصبحت تلك القصور خواليا
فياوحشة السكان من كل ذى قصر
على بركة الرطلى نوحوا وعددوا
لما حل فيها من نكال ومن خسر
فكان بها للقادسي حلاوة
مشبكها يشدو من المسك والعطر
وكان بها الفكاه يسعى بمركب
بخوخ ورمات يبشر بالبشر
وزهر ونسرين وآس ونوفر
لها بهجة للمرء طيبة النشر

وكان بها الجبان يقلى بمركب
فيجمع بين النار والماء في البحر
وكان بها للأكلين قطايف
بها عطش تسقى من الغيث بالقطر
لها رونق في الصحن من فستق بها
وسكرها يروى حديث أبي ذر
وكان بها للراكين مراكب
مسترة فيها وأخرى بلا ستر
وكم داخل فيها مغن ومنشد
بنغمة فم من خفيف ومن شعر
وكم آلة للمطربين عهدتها
وجناك وأعواد تغرد كالقمرى
وقد درست تلك المعاهد كلها
وناحت بها الغربان والبوم في الوكر
وشق شقيق الروض فيها ثيابه
وأرمى غصين الدوح مافيه من زهر
وقد ليس الشحرور سود ثيابه
وأبدى خريز الماء لظما من النهر
وسالت دموع السحب من أعين السما
وصار ضياء الصبح كالليل اذ يسر
وقد كسفت شمس الضحى في سمائها
وأظلم نور البدر بالخسف للفجر
جزيرتنا الوسطى خراب لأنها
بها وضعوا سد الماء بها بجرى
وقد أخذوا أنقاضها لمبيعها
ولم يبق فيها من بناء سوى الجدر
وقد أصبح النوتى في غاية الضنا
ولا يلتقى فيها معاش ولا مكرى
وباع قماش الستر منها وقلعها
وباع المدارى حيث يدرى ولا يدرى

فيامقلتي جودي بدمع تحسرا
 ويامهجتي صبرا وناهيك بالصبر
 رعى الله أياما تقضت بطيها
 ونحن بمصر في أمان وفي بشر
 وكان الدوادار الكبير هو الذي
 أشار بهذا المنع بالنهي والأمر
 أراد بهذا المنع صون حريم من
 غدا صحبة السلطان والبنت في الحدر
 فكان بهذا الأمر أكرم صائين
 حريم جميع الناس من آفة الدهر
 ولولا ابن موسى كان في البعض شافعا
 وقد نال شكر الشاكرين مع الأجر
 لما سمحوا فيها بمركب بائع
 ولا لاح فيها من جليس على الجسر
 فياربنا أنعم علينا بنصرة
 لسلطاننا الغوري والعسكر المصري
 وأنعم بعود الكل في خير مقدم
 الى الأهل والأوطان في غابة الجبر
 وصل على المختار من آل هاشم
 محمد الهادي الى الخير والبشر
 كذا الآل والأصحاب والتبع الأولي
 لهم غاية الاحسان في موقف الحشر
 عليهم صلاة الله ما هبت الصبا
 صباحا على عود وما غرد القمرى
 وناظمها العوفي يدعو لكل من
 رأى عيب زيتونى وينعم بالستر
 وفي يوم الجمعة خامس عشره توفي الشيخ تاج
 الدين الذاكر رحمه الله وكان من أعيان مشايخ
 الصوفية ، وله شهرة طائلة بالصلاح والاستقامة
 بين الناس ، وكان لا بأس به .

وفي شهر رجب توفي الأمير طراباي أحد الأمراء
 العشراوات ، وكان مستهله يوم الخميس فتوجه
 جماعة من نواب القضاة والكتاب والأعيان الى
 بيت الأمير الدوادار نائب الغيبة وهنئوه بالشهر .
 وفي يوم الخميس ثامنه توفي تغرى بردى
 المعروف بالشمشمانى وكان يدعى أنه من الأمراء
 العشراوات ، قيل انه كان من جملة السقاة فمات
 عن عدة أقاطيع ورزق مشترياته ، وكان في سعة
 من الرزق ، وكان ينسب الى شح زائد وبخل .
 وفيه جاءت الأخبار بوفاة شحص من الأمراء
 العشراوات يقال له مساييد ، وكان مسافرا صحبة
 السلطان في التجريدة ، وكان أصله من مماليك
 الأشرف قايتباي .

وفيه دخل الأمراء الذين كانوا في نواحي
 الشرقية والغربية كما تقدم ذكر ذلك فرجعوا عندما
 أوفى النيل وتقطعت الطرقات بالمياه .

وفيه قلق الناس بسبب الفلوس الجدد فصارت
 البضائع تباع بسعرين ، ووصل صرف النصف
 الفضة بالفلوس العتق الى ستة عشر درهما وكانت
 الفلوس الجدد تصرف معاددة وهى في غاية الخفة ،
 فتضرر الناس لذلك وغلقت الدكاكين بسبب ذلك
 وتشحط الخبز وسائر البضائع ، وكادت أن تنشأ
 من ذلك غلوة .

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان وصل الى
 حلب فدخلها في يوم الخميس عاشر جمادى
 الآخرة . فكان لدخوله يوم مشهود ، وقدامه
 الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء كموكبه
 بالشام ، وحملت القبة والجلالة على رأسه ، وكان
 حاملها ملك الأمراء خاير بك نائب حلب كما فعل
 سيباي نائب الشام .

وفي حال دخول السلطان الى حلب حضر قصاد

سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، ف قيل انه أرسل اليه قاضي عسكره — وهو شخص يقال له ركن الدين — وأحد أمراءه يقال له فراجا باشا ، وصحبته سبعمائة عليقة ، فنزلوا بمدينة حلب . وبلغني من الكتب الواردة بالأخبار أن السلطان لما حضر بين يديه قاضي ابن عثمان وقراجا باشا شرع يعتبهم على أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه وما جرى منه في حقه ، وأخذه لبلاد على دولات ، فقال له القاضي وقراجا باشا : « نحن فوض لنا أستاذنا أمر الصلح ، وقال كل ما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاوروني » ... وكل هذا حيل وخداع حتى تبطل همة السلطان عن القتال وينشئ عزمه عن ذلك . وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد .

ثم ان قاضي ابن عثمان أحضر فتاوى من علماء بلادهم ، وقد أفتوا بقتل شاه اسمعيل الصفوى ، وأن قتله جائز في الشرع . وأرسل يقول في كتابه للسلطان : « أنت والدي وأسألك الدعاء ، لكن لا تدخل بيني وبين الصفوى » .

ومن جملة مخادعة السلطان ابن عثمان للسلطان الغورى أنه أرسل يطلب منه سكرًا وحلوى فأرسل له الغورى مائة قنطار سكر وحلوى في علب كبار وهذه حيلة منه ، وأرسل يقول في كتابه : « انى لا أحول عن اسمعيل شاه أبدا حتى أقطع أثره من وجه الأرض ، فلا تدخل بيننا فيما يكون في أمر الصلح » . وأظهر أنه قاصد نحو الصفوى ليحاربه والأمر بخلاف ذلك في الباطن . وذكروا له أنه على القيسارية يقصد التوجه الى الصفوى .

ثم ان السلطان خلع على قصاد ابن عثمان الخلع السنية ، وقيل ان السلطان ابن عثمان أرسل الى السلطان الغورى مقدمة حافلة ، وللخليفة وأمير كبير سودون العجمي ، فكان ما أرسله ابن عثمان

من التقدمة أربعين مملوكا ، وأبدان سمور وأثواب مخمل وأثواب صوف وأثواب بعلبكية وغير ذلك . وكان ما أرسله الى الخليفة بدنين سمور وثوب مخمل بكفوف قصب وثوبين صوف عال . وأرسل اليه قاضي عسكر ابن عثمان ثوبين صوف وسجادة وبغلة . وأرسل ابن عثمان الى أمير كبير أيضا مقدمة حافلة ما بين سمور ومخمل وصوف ومن الممالك اثنين .

ثم ان السلطان عين الأمير مغلباى دوادارسكين بأن يتوجه الى ابن عثمان وعلى يده مطالعة من عند السلطان الى ابن عثمان تتضمن أمر الصلح بينهما ، والأمراء والعسكر منتظرون رد الجواب عن ذلك . وقد نظمت هذه القصيدة في معنى واقعة سفر السلطان من حين خروجه من مصر الى دخوله مدينة حلب فقلت :

ادعو بنصر للمليك الأشرف
سلطان مصر ذى المقام الأشرف

قد قدر الرحمن نقل ركابه
نحو الشام وحسنها المستظرف

اختار أن يطأ البلاد لكشفها
فعدت تجود له بجود متحف

خضعت له النواب طوعا باللقا
من غير حرب أو حسام مرهف

لو كان ذو القرنين حيا في الورى
لاقاه بالاكرام والفضل الوفي

تاريخه فاق الملوك تعاظما
فاصغى له واسمع بغير تكلف

عاينته يوما مضى في موكب
يزهو على برقوق وهو الأشرف

ركب الخليفة والقضاة أمامه
وجيوشه منها الأسود تختفي
عودت طلعتة بسورة يوسف
وجميع عسكره بأى الزخرف
فى غزة قد كان يوم دخوله
يوم الخميس بعسكر مترادف
قالت دمشق لفرحها لما أنى
أهلا بسلطان الأنام النصف
وتهلت بالنور جهة ربوة
لما اكتست بالزهر حلة يوسف
وحماة أحماها بصائح عدله
فأطاعه العاصى بغير توقف
واشتافه نهر الفرات وقد أتى
تيساره بالماء فى عزم وفى
واستأنست حلب به مذ زارها
واستوحشت مصر له بتكلف
شرفت به حلب وقالت فرحة
يا حبذا من قادم مستظرف
سلطاننا الغورى صار مؤيدا
مذ حفه الرحمن باللطف الخفى
فأله يفيه على طول المدى
ما أسكرت ريح الصبا كالقرقف
قد صار لابن اياس شعر قاله
لكن نظى قد أتى بتضعف
ثم الصلاة على النبى المصطفى
خير البرية ياله من مسعف
والآل والأصحاب ما جن الدجى
أو ضاء صبح بعد ليل أوطف
وختام مسك قد شذا لما بدا
سلطان مصر ذو المقام الأشرف

وحكى أن السلطان لما دخل الى حلب رسم
لقاضى القضاة كمال الدين الطويل بأن يحطب فى
الجامع الكبير الذى بحلب ، فاجتمع الجهم الكثير
من أهل حلب فى الجامع المذكور ، فخرج قاضى
القضاة كمال الدين الطويل ورفى المنبر وحطب
خطبة بليغة ، وأورد أحاديث شريفة فى معنى الصلح .
وأذن المؤدبون بالجامع وفراوا حزب السلطان
هناك ، وعملت الوعاظ . وكان يوما مشهودا بالجامع
المذكور ، ولم يحضر السلطان ولم يصل صلاة
الجمعة هناك كما فعل بدمشق ، فعابوا عليه ذلك .
وكان قاضى القضاة كمال الدين يحطب بالجامع
الكبير مدة إقامة السلطان بحلب .

ومن الحوادث التى وقعت من السلطان بحلب
أنه أنعم على قانصوه نائب حلب بنصفه ألف ،
وعلى يوسف الناصرى شاد الشرايحة الذى كان
نائب حماه ، وعلى طراباى نائب صفد ، وعلى
تمراز نائب طرابلس .

ومنها أنه أنفق على أولاد الناس الذين توجهوا
صحبتة بلا نفقة ، لكل واحد منهم ثلاثون دينارا .
وكان رسم لهم قبل ذلك لكل واحد بخمسين دينارا ،
فعارض فى ذلك كاتب الممالك وجعلها ثلاثين
دينارا . وصرف المعسكر تمن اللحم عن ثلاثة
شهور .

ثم ان السلطان فرق على ممالكه الحلبان من
حواصل قلعة حلب عدة سلاح لم يعبر عنها ، وفرق
عليهم خيولا ما لها عدد ، وصار نعم عليهم
بالعطايا الجزيلة من مال وخيول خاص وسلاح
بطول الطريق ، ولم يعط الممالك الفرائضة شيئا
فقر ذلك عليهم فى الباطن .

ثم ان السلطان فرأ ختمة فى الميدان الكبير بحلب
يوم الخميس مع ليلة الجمعة ، وحضر أمير المؤمنين

المتوكل على الله والقضاة الأربعة ومشايخ الزوايا ،
وصلى أمير المؤمنين بالسلطان في الحيمة صلاة
العصر وصلاة المغرب .

وأنعم السلطان في ذلك اليوم بأربعمائة دينار ،
ومائة رأس غنم ، وأنعم على قاضي القضاة
الشافعي بسبعين ديناراً ، وعلى نوابه ومن معه من
العلماء بسبعين ديناراً ، والقاضي الحنفي كذلك .
وأنعم على القاضي المالكي بخمسين ديناراً ، وعلى
نوابه الثلاثة بثلاثين ديناراً ، وكذلك القاضي
الحنبلي . وأنعم على مشايخ الزوايا لكل واحد
منهم خمسون ديناراً ، ، وأنعم على الفقراء الذين
سافروا صحبته لكل واحد منهم عشرة دنائير ،
وأنعم على القراء الذين حضروا هذه الختمة من
قراء حلب وغيرها لكل واحد خمسة دنائير . وفي
عقيب ذلك أحضر السلطان الأمراء المقدمي الألواف
والنواب والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات
وحلفهم على المصحف الشريف بأنهم لا يخونونه
ولا يغدرونه ، فحلفوا كلهم على ذلك .

ثم نادى للعسكر بالعرض في الميدان الذي في
حلب فعرضوا وهم باللبس الكامل وأدخلهم من
تحت سيفين على هيئة قنطرة ، كما هي عادة
الأتراك . وعندهم أن هذا هو القسم العظيم .

ثم ان السلطان أرسل خلف قاسم بك ، في حماة
فلما حضر خلع عليه وأشهر أمره بحلب .

ثم وردت الأخبار إلى حلب بأن سليم شاه بن
عثمان قبض على قاصد السلطان الذي كان أرسله
إلى ابن عثمان ، وهو الأمير مغلباي أحد الدوادارية
ووضعه في الحديد . وكان السلطان جهز الأمير
كرتباي الأشرفي أحد الأمراء المقدمين الذي كان
والى القاهرة إلى ابن عثمان وصحبته هدية حافلة
بنحو عشرة آلاف دينار ، وخلع على قاضي عسكر

ابن عثمان ووزير قراجا باشا الذي تقدم ذكرهما
خلعة سننية بطرز يلبغاوى عريض ، وأذن لهما
بالعود إلى بلادهما . وكان هذا هو عين الغلط من
السلطان الغورى ، حيث أطلق فصاد ابن عثمان
قبل أن يحضر مغلباي ويظهر له من أمر ابن عثمان
ما يعتمد عليه .

ثم لما وصل الأمير كرتباي إلى عنتاب بلغه أن
السلطان ابن عثمان أبى الصلح وقبض على الأمير
مغلباي ووضعه في الحديد بعد أن قصد شنقه ،
فشفع فيه بعض وزرائه وقصد حلق لحيته . وقد
قاسى منه من البهدة ما لا يمكن شرحه . فلما
تحقق الأمير كرتباي ذلك رجع إلى حلب ، وأعلم
السلطان بما فعله سليم شاه ابن عثمان بالأمير
مغلباي ، وأن طوالع عسكره قد وصلت إلى عنتاب
وملكت قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغير ذلك من
القلاع . ولما وصل الأمير كرتباي بهذه الأخبار
الردية إلى السلطان اضطربت أحواله وأحوال
الناس وأحوال العسكر قاطبة .

ثم ان السلطان أنعم على الأمير عبد الرزاق
وولاه على اقليم أولاد ذو الغادر ، فخرج من حلب
وصحبته ملك الأمراء خاير بك في موكب حافل .
فخرج نائب حلب وأمراؤها وعساكرها ونزلوا عن
حلب بيوم ، وصحبته من المشاة خمسة آلاف
ماش ، وأنفق عليهم السلطان جامكية شهر واحد .
ثم خرج بعدهم ملك الأمراء سيباي نائب
الشام ، وتمراز نائب طرابلس ، وطراباي نائب
صفد ونائب حمص ونائب غزة ، فخرجوا من حلب
يوم السابع عشر من شهر رجب . وقد أشيع أن
ابن عثمان ماش من جهة وابن سوار ماش من
جهة .

ثم ان السلطان نادى للعسكر بالرحيل من

حلب والنزول على جيلان لقتال الباغي ابن عثمان ،
وأن السلطان والأمراء عن قريب يخرجون الى
القتال ، والذى يريد الله هو الذى يكون ...
وهذا ما نقل من شرح كتاب أمير المؤمنين الى ولده
أمير المؤمنين يعقوب .

ثم ذكر فيه عن أمر الأسعار فى حلب ، فقال :
الشعير كل أردب بسبعة وعشرين نصفا ، والخبز
لل رطل بثلاثة دراهم ، والجبن بنصفين الرطل ،
واللحم بنسعة دراهم كل رطل مصرى ، والدبس
بصنف فصه الرطل المصرى ، وتناهى سعر القمح
الى أشدهين لل أردب ، والكرسنه علق الجمال
بمائة وأربعة وعشرين درهما الأردب

ثم ان السلطان أرسل مثالا شريفا الى الأمير
الدوادار تتضمن الوصية بالربعة ، وأن الممالك
الجلبان الدين بالطباق كهمون الأذى عن الناس
ولا تشوشون على أحد من المتسبيين ، وأن الأمير
الدوادار يعرض جميع من فى الحبوس قاطبة من
رجال وساء ، ويطلق المديوين وغيرهم ، ولا
يترك بالحبوس غير أصحاب الجرائم ممن عليه
دم . وأرسل أيضا يقول له ان كان درب الحجاز
آمنا من العربان فجهز الحاج من القاهرة ، وان
كان مخوفا فلا يسافر أحد من الحجاج فى هذه
السنة .

وأرسل أيضا مثالا شريفا الى الممالك الجلبان
الذين بالطباق بأنهم لا ينزلون من الطباق الى
المدينة ، ولا يشوشون على أحد من الناس قاطبة ،
ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة ، فقريء
عليهم هذا المثال بالقلعة بين يدى الأمير طقطباى
نائب القلعة ، وأرسل بالسلام على الأمراء
والعسكر قاطبة .

وفى شهر شعبان — وكان مستهله يوم الجمعة —

ووافق ذلك يوم النوروز من السنة القبطية
فعد ذلك من النواذر ، وفد دخلت سنة قبطية فى
أول يوم من الشهور العربية ، ولا سيما يوم
الجمعة وهو يوم فيه ساعة الاجابة .

وفى يوم السبت خلع الأمير الدوادار على
شخص من الخاصكية يقال له جانى بك القصير
وهو من ممالك السلطان وقرره فى كشف منفلوط
عوضا عن اينال بن جانى بك الذى كان بها ، وقد
ضعف بصره .

وفى يوم الأحد ثالثه عرض الأمير الدوادار
المحاييس الذين بالسجون وعرض النساء اللاتى
بالحجرة فأطلق منهم جماعة ممن عليهم دين ،
وصالح أرباب الدبون من ماله وارصاهم ،
واستتاب جماعة من الحرامية وأطلقهم ، ورسم
بتوسيط جماعة ممن عليهم الدم ، وأبقى منهم
جماعة فى السجون الى أن يحضر السلطان .

ثم ان الأمير الدوادار تصدق على الفقراء بمبلغ
له صورة ، ورسم بقراءة ختمات فى جميع مساجد
القاهرة ، وقال ادعوا للسلطان بالنصر .

وفى يوم الاثنين رابعه خلع الأمير الدوادار على
يوسف البدرى وأعاده الى الوزارة كما كان ،
وهذه رابع ولاية له بالوزارة .

وفى ذلك اليوم نودى فى القاهرة بسفر الحاج
على العادة ، وكان أشيع عدم خروج الحاج فى
هذه السنة .

وفى يوم الثلاثاء خامسه مع ليلة الأربعاء توفى
قاضى الحنفية كان برهان الدين ابراهيم بن الكركى
وهو ابراهيم بن الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن
اسماعيل الكركى الحنفى وكان عالما فاضلا رئيسا
حشما من أعيان الحنفية ، سمع على الشيخ محيى
الدين الكافيجى ، والشيخ سيف الدين وآخرين

من علماء الحنفية . وكان امام الأشرف قايتباي ، ورأى في أيامه غاية العز والعظمة ، وولى عدة وظائف سنية ، منها أنه ولى مشيخة أم السلطان التى فى التبانة ، ومنها استيفاء الصحبة ، ثم ولى قاضى قضاة الحنفية مرتين ، ثم ولى مشيخة المدرسة الأشرفية وقاسى محنا وشدائد من الأشرف . وكان بشوش الوجه عنده رقة حاشية ولطافة ، غير كفيف الطبع ومات وهو فى عشر الثمانين ، وعاش سعيدا ومات شهيدا ، وكان فى أرغد عيش من المال والجاه . وكان سبب موته أنه كان ساكنا على بركة الفيل فنزل يتوضأ على سلم القيطون وفى رجله قبقاب ، فزلقت رجله بالقبقاب ، فوقع فى البركة وكانت فى قوة ملئها أيام النيل ، ولما وقع ثقلت عليه الثياب فمات من وقته رحمة الله عليه ومات شهيدا .

وفيه خلع الأمير الدوا دار على شخص من الخاصكية يقال له قجماس وقرره فى كشف المنوفية عوضا عن قانصوه الذى كان بها .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة شمس الدين محمد بن ناشى شيخ سوق الكتبيين ، وكان مقربا عند السلطان ، وقد حاز عدة وظائف سنية .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الأمير يوسف الشهير بالمقطش الذى كان نائب صفد وعزل عنها ثم توفى بحلب . وأشيع وفاة أبرك الذى كان كاشف اقليم الجيزة وكان من الأمراء العشراوات . وأشيع وفاة جماعة كثيرة كانوا صحبة السلطان بسبب وخم حصل لهم . فمات فى غزة وفى انشام وفى حلب من الأمراء العشراوات والخاصكية والعلمان وغير ذلك مالا يحصى عدده ماتوا من كثرة الأوخام التى كانت معهم بطول الطريق .

وفيه جاءت الأخبار بصحة ما تقدم ذكره . وأن السلطان لما كان بحلب أنعم بتقادم ألوف على جماعة

من الأمراء منهم الأمير يوسف الناصرى شاد الشرا بجاناه ، ومنهم طراباى بن يشبك نائب صفد ، ومنهم قانصوه استادار الصحبة ، ومنهم قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب ، ومنهم تميزاز نائب طرابلس ، وآخرون . والذى يظهر من أمر السلطان أنه كان يريد ابطال جماعة من الأمراء المقدمين العواجز ويجعل هؤلاء عوضا عنهم .

وفى يوم الجمعة خامس عشر شعبان ، توفى الحاج على البرماوى بزددار السلطان والمتحدث على جهات الديوان المفرد ، وقد رأى من العز والعظمة ما لم يره غيره من البزددارية ، وساعدته الأقدار حتى وصل الى ما لم يصل اليه غيره فى هذه الوظيفة ، وكان سبب موته أنه طلع له شفقة فى ظهره فانقطع اثنى عشر يوما ومات .

وكان أصله من فلاحين برمة يبيع الخام والطرح فى الأسواق وهو راكب على حمار الى أن فتح الله عليه ، وكان لا بأس به ، وعند له لين جانب مع تواضع زائد ، وظهر له من الموجود بعد موته من الذهب العين خمسمائة ألف دينار وستمائة دينار . ووجد له فى مكان اثنا عشر ألف دينار ذهب عين برسيهية ، ووجد له من الحجورة والمهسارة نحو خمسة وأربعين رأسا ، ومن الجاموس مائة رأس ، ومن الغنم الضأن ألف رأس ، ووجد له بالدواليب أربعمائة ثور ، وضاع له عند الفلاحين بالبلاد أكثر مما تقدم ذكره ، فقوم ذلك الموجود بمائة ألف دينار .

وفى يوم السبت سادس عشر شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ... وما ذاك الا أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مجرد مطرد من عند الأمير علان دوا دار ثانى أحد

الأمراء المتقدمين وضمنه أن السلطان كان يكذب في أمر سليم شاه بن عثمان تارة ويصدق أخرى ، إلى أن حضر الأمير مغلباي دوادار سكين من عنده وهو في حال نحس ، بزنت أقرع على رأسه ، وعلى بدنه كبر عنيق دنس ، وهو راكب على اكديتس هزيل ، وقد نهب جميع بركه ، وأخذت خيوله وقماشه . وأخبر أن ابن عثمان أبي الصلح وقال له : « قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق » . وأخبره أنه وضعه في الحديد ، وقصد أن يحلق لحيته ، وقدمه إلى الشنق ثلاث مرات فشفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله في قفة على رأسه ، وقاسى منه من الهوان والأهوال ما لا خير فيه . فلما سمع السلطان هذه الحكاية تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان . فقليل أنه أنعم على مغلباي بألف دينار وخيول وقماش في نظير ما ذهب له .

والذي استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه صلى الظهر وركب ، وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء في العشرين من رجب وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله ، والقضاة الأربعة ، وكان قد تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط حتى رجت لهم حلب .

فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى جيلان فبات بها ، فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشر رجب رحل السلطان من جيلان وتوجه إلى مرج دابق ، فأقام إلى يوم الأحد خامس عشر رجب — وهو يوم نحس مستمر — فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه ابن عثمان ، فصلى السلطان صلاة انصبح ، ثم ركب وتوجه إلى زغزغن وتل الفار ، قيل أن هناك مشهد نبي الله داود عليه السلام .

فركب السلطان وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طبر وصار يرتب العسكر بنفسه . وكان أمير المؤمنين على الميمنة وهو بتخفيفة وملوطة وعلى كتفه طبر مثل السلطان ، وعلى رأسه الصنجق الخليفة . وكان حول السلطان أربعون مصحفا في أكياس حرير أصفر وعلى رؤوس جماعة أشراف وفيها مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان رضى الله عنه . وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم خليفة سيدي أحمد البدوي ومعه أعلام ، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدي أحمد بن الرفاعي ومعه أعلام ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود ، وكان الصبي قاسم بك ابن أحمد بك بن عثمان المقدم ذكره واقفا بازاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أصفر وقيل أحمر ، وكان الصنجق السلطاني خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعا ، وتحتة مقدم المماليك سنبل العثماني والسادة القضاة الأربعة والأمير تمر الزردكاش أحد المتقدمين ، وكان على ميمنة العسكر الأمير سيباي نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب ، فقليل أول من برز إلى القتال في الميدان الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرائصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة منكرة ، وأخذوا منهم سبع صنائج وأخذوا المكاحل التي كانت على العجل ورماة البندق . فهم ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشر آلاف انسان ، وكانت النصر لعسكر مصر أولا وياليتها تم ذلك . لكنه قد بلغ المماليك القرائصة أن السلطان قال للمماليك الجلبان :

« لا تقاتلوا أبدا ، واخلوا الممالك القرانصة يقاتلون
وحدهم » ...

فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما
هم على ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قتل
في المعركة ، وقتل ملك الأمراء سيباي نائب الشام ،
فانهزم في الميمنة من العسكر جانب كبير . ثم ان
خاير بك نائب حلب انهزم وهرب ، فكسر الميسرة .
وأسر الأمير قانصوه بن سلطان چركس ، وقيل
قتل . وقيل ان خاير بك كان موالسا على السلطان
الغوري في الباطن ، وهو مع ابن عثمان على
السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان
هو أول من هرب قبل العسكر قاطبة وأظهر
الهزيمة ، وكان ذلك من الله تعالى خذلانا لعسكر
مصر حتى نفذ القضاء والقدر . وصار السلطان واقفا
تحت الصنjq في نفر قليل من الممالك ، فشرع
ينادي : « يا أغوات هذا وقت المروءة ، هذا وقت
النجدة » فلم يسمع له أحد قولا وصاروا يتسحبون
من حوله ، وهو يقول للفقراء : « ادعوا الله تبارك
وتعالى بالنصر فهذا وقت دعائكم » وصار لا يجد
له معينا ولا ناصرا ، فانطلقت في قلبه جمرة نار
لا تطفأ ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد
بين العسكرين غبار حتى صاروا لا يرى بعضهم
بعضا ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب
على عسكر مصر ، وغلت أيديهم عن القتال ،
وشخصت منهم الأبصار . وقد قلت في هذه الواقعة
هذه الأبيات :

لما التقى الجيشان مع سلطاننا

في مرج دابق قال هل من مسعفى

فله أجاب لسان حال قائلا

عرضت نفسك لليل فاستهدف

واشتد بالجلبان رعب قلوبهم
وغدوا يقولوا أى أرض نختنى

والهيب أطمعهم لذل نفوسهم
حتى آتاهم بالقضاء المتلف

فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ،
خاف الأمير تمر الزردكاش على الصنjq السلطاني
فأنزله وطواه وأخفاه . ثم تقدم الى السلطان ونال
له : « يا مولانا السلطان ان عسكر ابن عثمان قد
أدركنا فانج بنفسك وادخل الى حلب » . فلما تحقق
السلطان ذلك غلبه في الحال خلط فالج ، أبطل شنه
وأرخی حنكه ، فطلب ماء فأتوه بساء في طاسة من
ذهب فشرب منه قليلا ، وألفت فرسه على أنه يهرب
فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس الى الأرض ، فأقام
نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ،
وقيل فقتت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر .

فلما أشيع موته زحف عسكر ابن عثمان على من
كان حول السلطان فقتلوا الأمير بيبرس أحد
المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية وغلما
السلطان ممن كان حوله ، وأما السلطان من حين
مات فلم يعلم له خبر ، ولا وقف له على أثر ،
ولا ظهرت جثته بين القتلى ، فكأن الأرض قد
ابتلعتة في الحال ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر . فداس
العثمانية وطاق الغوري بما فيه من الأمتعة والأرزاق
التي كانت حوله بأرجل الخيول ، وفقد المصحف
العثماني ، وداسوا أعلام الفقراء وصناجق الأمراء ،
ووقع النهب في أرزاق عسكر مصر وبرقهم ، وزال
ملك الأشرف الغوري في ملح البصر ، فكأنه لم
يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

فاضل أمره وزال ملكه ، بعد ما تصرف في
ملك مصر وأعمالها ، والبلاد الشامية وأعمالها ،
وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر

وعشرين يوما ... فانه ولى ملك مصر فى مستهل
شوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفى فى الخامس
والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة
وكانت الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك وفد
قلت فى المعنى :

اعجبوا للأشرف الغورى الذى

مذ تنهى ظلمه فى القاهرة

زال عنه ملكه فى ساعة

خسر الدنيا اذن والآخره

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس الى
ما بعد الظهر ، وانتهى الحال الى الأمر الذى قد
قدره الله تعالى ، فقتل فى تلك الواقعة من عسكر
السلطان ابن عثمان ومن عسكر السلطان الغورى
ما لا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة
وهم : الأتابكى سودون العجمى ، وبيرس قريب
السلطان ، وأقباي الطويل ، وأسروا قاصوه بن
سلطان چركس ، وقتل سيباي نائب الشام وتمراز
نائب طرابلس وطراباي نائب صفد وأصلان نائب
حمص وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق
وأمرأ حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة
كثيرة من أمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية
وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرائصة .

ولم يقتل من المماليك الجلبان الا القليل فانهم لم
يقاتلوا فى هذه الواقعة ولا ظهر لهم فروسية ولا
جذبوا سيفا ولا هزوا رمحا فكأنهم خشب مسندة .
وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه ،
وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق
الأربعين أميرا ، وقتل فى ذلك اليوم القاضى ناظر
الجيش عبد القادر القسروى وجماعة كثيرة من
الجند يأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكانت

ساعة يشيب منها الوليد ، ويذوب لسطوتها الحديد .
فكان مرج دابق فيه جثث مرمية وأبدان بلا رءوس
ووجوه معمرة بالتراب قد تغيرت محاسنها ، وصار
فى ذلك المكان خيول مرمية موتى ، وسروج مفرقة
وسيوف مسقطة بذهب وبركستوانات فولاذ
بذهب وخوذ وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت اليها
أحد ، وكل من العسكرين قد اشتغل بما هو أهم
من ذلك ، وقال بعض المواليا فى المعنى :

صفق جوادى وقد جسيت يوم الحرب

عودى فغنت صوارم شرقها والغرب

ضربت عادة تنقط فى سماع الضرب

رءوس الأعادى وترفض داخله فى الحرب

ثم ان ابن عثمان زحف بعسكره وأتى الى وطاق
السلطان ، ونزل فى خيامه وجلس فى المدورة ،
واحتوى على الطشتخاناه وما فيها من الأواني
الفاخرة ، وعلى الزردخاناه وما فيها من السلاح ،
وعلى خزائن المال والتحف ، ونزل كل أمير من
أمرائه فى وطاق أمير من أمراء الغورى واحتوى على
ما فيها ، فاحتوى على وطاق خمسة عشر أميرا
مقدمى ألوف خارجا عن أمراء الطبلخانات
والعشراوات ، واحتوى العسكر على خيام العسكر
المصرى والشامى والحلبى وغير ذلك كما يقال :
« مصائب قوم عند قوم فوائد » .

ولم يقع قط للملوك ابن عثمان مثل هذه النصرة
على أحد من الملوك قاطبة ، بل ان قرلنك زحف على
بلاد ابن عثمان وحارب أحد أجداده وهو شخص
يقال له يلدرم . فلما حاربه انكسر فأسره تيمور
ووضعه فى قفص حديد وصار يعجب عليه فى بلاد
العجم ، فما طاق ابن عثمان ذلك فابتلع فص الماس
فمات وهو فى ذلك القفص الحديد . ولم يقع قط
لأحد من سلاطين مصر مثل هذه الكائنة ، ومات

تحت صنجقه في يوم واحد وانكسر على هذا الوجه أبدا ، ولا سمع بمثل ذلك ونهب ماله وبركه بيد عدوه غير فاصوه العورى . وكان ذلك في الكتاب مسطورا ، وكان السلطان والأمراء ما منهم أحد ينظر في مصالح المسلمين بعين العدل والانصاف ، فردت عليهم أعمالهم ونياتهم وسلط عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ما جرى كما قيل في المعنى :

آين الملوك الأولى في الأرض قد ظلموا

والله منهم لقد أخلى أماكنهم

ثم ان السلطان ابن عثمان نحول من مرج دابق فدخل الى حلب فملكها من غير مانع ونزل بالميدان الذى بها في المكان الذى كان به السلطان الغورى ...

وهذا ما انتهى اليه من ملخص هذه الواقعة مع ما فيها من زيادة ونقصان ، وهذا ما كان من أمر السلطان الغورى وابن عثمان . وأما ما كان من أمر الأمراء والعسكر بعد الكسرة فانهم توجهوا الى حلب وأرادوا الدخول بها ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبرقهم ، ووضعوا أيديهم على ودائعهم التى كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب ما لم يجز عليهم من عسكر ابن عثمان .

وكان أهل حلب بينهم وبين المماليك السلطانية حظ نفس من حين توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة الى حلب صحبة قانى باى أمير آخور كبير . فنزلوا في بيوت أهل حلب غصبا وفسقوا في نسائهم وأولادهم وخصل منهم غاية الضرر والأذية لأهل حلب ، فما صدق أهل حلب أن وفعت لهم هذه الكسرة فأخذوا بثأرهم منهم ... فلما رأى الأمراء وبقيّة العسكر ذلك خرجوا من حلب على حمية وتوجهوا الى دمشق ودخلوها وهم في أفحش حال ،

لا برك ولا قماش ولا خيول ، ودخل غالب العسكر الى الشام وبعضهم راكب على حمار وبعضهم راكب على جمل وبعضهم عريان وعليه عباءة أو بشت . ولم يقع لعسكر مصر مثل هذه الكائنة ، فأقام الأمراء والمباشرون والعسكر في الشام حتى تكامل البقية ويظهر السالم من العاطب ... قيل ان الأمراء لما دخلوا الى الشام وصاروا في حر الشمس لم يجدوا ما يستظلون به حتى صنع لهم الغلمان عرايس من فروع الشجر يستظلون بها .

وأما ما كان من أمر سليم شاه ابن عثمان فانه أقام بالميدان الذى في حلب فتوجه اليه أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة محيى الدين الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى . وأما قاضى القضاة محمود بن الشحنة فانه هرب مع العسكر الى الشام ونهب جميع بركه وقماشه ، ودخل الى الشام في أنحس حال .

قيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن عثمان وهو بالميدان عظمه وأجلسه وجلس بين يديه فأشيع انه قال له : أصلكم من أين ؟ فقال له : من بغداد ، فقال له ابن عثمان : نعيدكم الى بغداد كما كنتم . والأقوال في ذلك كثيرة ... فلما أراد الخليفة الانصراف خلع عليه خلعة سنينة من ملابسه ، وأنعم عيه بمال له صورة وردّه الى حلب ووكل به ألا يهرب .

وقيل لما دخل عليه القضاة الثلاثة المذكورون وبخهم بالكلام ، وقال لهم أأنتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ، وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء ، وما منكم من أحد يرشد الى الخير ، لأنكم لم تمنعوا سلطانكم عن المظالم التى كان يفعلها بالناس ، وأنتم ترون ذلك منه ولا تنكرونه .

وأشاعوا من هذه الأخبار العجائب والغرائب ،
والمعول في ذلك على الصحة .

وأخبرني من رأى سليم شاه ابن عثمان أنه مربوع
القامة واسع الصدر أقتص العنق مكرفس الأكتاف
مترك الوجنتين واسع العينين درى اللون وافر
الأنف ملئ الجسد حليق اللحية ليس له غير
الشوارب ، كبير الرأس عمامته صغيرة دون عمام
أمرائه . فلما جاء الى حلب سلمه أهلها المدينة من
غير نزاع ، وهرب قانصوه الأشرفي نائب القلعة ،
وتوجه الى الشام مع العسكر وترك أبواب قلعة
حلب مفتحة ... فلما بلغ ابن عثمان ذلك أرسل اليها
شخصا من جماعته أعرج أجروود وفي يده دبوس
خشب ، فطلع الى قلعة حلب فلم يجد بها مانعا
يرده . فختم على الحواصل التي بها واحتوى على
ما فيها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك ، وقد
فعل ابن عثمان ذلك ليقال انه أخذ قلعة حلب
شخص أعرج وفي يده دبوس خشب وهو أضعف
من في عسكره وقد قيل في المعنى :

لا تحقرن صغيرا في مخاصمة

ان الذبابة تدمى مقلة الأسد

وأشيع أن ابن عثمان من حين استولى على مدينة
حلب لم يدخلها غير ثلاث مرات : المرة الأولى دخلها
وطلع الى القلعة بسبب عرض حواصلها ، فلما
عرضت عليه رأى ما أدهشه من مال وسلاح
وتحف ، وكان فيها من المال نحو مائة ألف ألف
دينار ، ورأى من الكنايش الزركش والرقاب
الزركش والطبر والسروج الذهب والبلور وطبول
البازات واللجم المرصعة والفصوص المثمنة
والبركستوانات الفولاذ الملون والسيوف المسقطة
بالذهب والزرديات والخوذ الفاخرة وغير ذلك من
السلاح ما لم يره قط ، ولا فرح به أحد من

أجداده ، ولا أحد من ملوك الروم ، لأن الذي
جمعه الغوري من الأموال من وجوه الظلم
والجور ، والتحف التي أخرجها من الخزائن من
ذخائر الملوك السالفة من عهد ملوك الترك
الچراكسة ، احتوى عليه جميعه السلطان سليم شاه
ابن عثمان من غير تعب ولا مشقة . هذا خارج عما
كان للأمراء المقدمين والأمراء الطبلحانات
والعشراوات والمباشرين والعسكر قاطبة من
الودائع بحلب من مال وسلاح وقماش وبرك وغير
ذلك ، فاحتوى ابن عثمان على ذلك جميعه .

وقيل انه ملك ثلاث عشرة قلعة من بلاد
السلطان ، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح
وغير ذلك ، فكان الذي ظفر به سليم بن عثمان
في هذه الواقعة من الأموال والسلاح والتحف وغير
ذلك لا ينحصر ولا يضبط ، وقد قسم له ذلك من
القدم ... واحتوى على خيول وبغال وجمال
لا يحصى عددها ، واحتوى على خيام وبرك
ولا سيما ما كان مع السلطان وأمراء العسكر ، كما
يقال في المعنى :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا

وآخر يأتي رزقه وهو نائم

ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة في جامع
الأطروش الذي بحلب وخطب باسمه ودعى له على
المنابر في مدينة حلب وأعمالها ، وزينت له مدينة
حلب وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وارتفعت
له الأصوات بالدعاء وهو مار عند عوده من
الجامع ، وفرح الناس به فرحا شديدا ، واتسمى
اليه الخواجا ابراهيم السمرقندى والخواجا يونس
العادلى والعجمى الشنقجى . وكان هؤلاء من
أخصاء الغوري ، وكانوا مع ابن عثمان في الباطن
ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار

المملكة . فلما فقد السلطان الغورى أظهروا عين المحبة لابن عثمان وصاروا يحطون على الغورى ويذكرون أخباره الشنيعة لابن عثمان ، وصاروا من جماعته ونسوا احسان الغورى اليهم كما يقال فى المعنى :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار
فلا تبالى أصدوا عنك أو زاروا

أخلاقهم حين تبلوهم أوعار
وفعلهم منكر للمرء أو عار

لهم لديك اذا جاءوك أوطار
اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وممن كان موالسا على السلطان فى الباطن خاير بك نائب حلب ، فانه أول من كسر عسكر السلطان ، وانهزم عن ميسرته ، وتوجه الى حماه . ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه ، فلما حضر اليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ولبس زى التراكمة — العمامة المدورة والدلامة — وقص ذقنه وسماه السلطان « خاين بك » لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان . فلما جرى ذلك تسحبت ممالك خاير بك ، وتوجهوا صحبة العسكر الى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان .

وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المعتصم بالله وملك هولاءكو بغداد وقتل الخليفة ، فصار ابن العلقمى مقربا عند هولاءكو ثم انقلب عليه وقتله ، وقال : « أنت ما فيك خير لأستاذك فما يكون فيك الخير لى » . وربما يقع لخاير بك مثل ذلك .

ثم ان ابن عثمان دخل الى مدينة حلب ثالث مرة بسبب أنه دخل بها الحمام وأنعم على المعلم بمبلغ

له صورة ... واستمر الخليفة والتضاضة الثلاثة الشافعى والمالكي والحبلى فى الترسيم بحلب لا يخرجون منها الى ان يأذن لهم ابن عثمان ، وأقام بحلب جماعة كثيرة من أعيان الناس بعد الكسرة منهم : القاضى عبد الكريم بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ، وعبد الكريم بن فخرية أحد كتاب الممالك ، وعبد الكريم بن الأدمى مستوفى الزردخانه ، والرئيس محمد بن القيسوى امام السلطان الغورى ، والسمايسى الذى كان قاضى القضاة الحنفية وامام السلطان ، والخواص مؤذن السلطان ورفيقه رصاص المؤذن ، وبعيى بن بكير ورفيقه ، وجماعة آخرون لم تحضرنى أسماؤهم الآن ... فهؤلاء تخلفوا بحلب بعد الكسرة حتى يؤذن لهم .

وقيل لما دخل ابن عثمان الى مدينة حلب نادى فيها بالأمان والاطمئنان والبيع والشرء ، وكل من كان عنده للأمرء والعسكر شئ من خيول أو سلاح أو قماش يحضر ما عنده ، وان لم يحضر ما عنده وغمز عليه شئ من غير معاودة .

وأما من قتل فى هذه المعركة من الأمراء وأعيان الناس ، فالذى يحضرنى من ذلك وتحققته : الأتابكى سودون العجمى ، وملك الأمراء سيباى نائب الشام ، والأمير قانصوه بن سلطان چركس ، وقيل لم يقتل وأسر الأمير بيبرس قريب السلطان وهو صاحب المدرسة التى بالقرب من الجودرية ، والأمير أقبابى الأشرفى الطويل أحد المقدمين أمير آخور ثانى ، فهؤلاء الذين قتلوا من الأمراء المقدمين فى هذه الواقعة .

وأما من قتل من النواب : فتمراز الأشرفى نائب طرابلس ، ونائب صنفد ، وأصلان نائب حمص ، وجماعة كثيرة من نواب الشام وحلب .

وأما من قتل من الأمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة : منهم طومان باي ابن قرا حاجب ثاني وجاني بك العبادلي شاد الشرايجاناه كان ، وقانصوه حبابية ، وبرد بك رأس نوبة عصاه ، ونوروز رأس نوبة عصاه ، وقانصوه الذي كان أستاذار الصحبة ، وبخشباي قرا شاد الشون ، وقيت الأحول ، وقرقماش المقرى توفى بالشام ، ويوسف المفتش الذي كان نائب صفد . ومن الأمراء العشراوات جانبهم المحمدي ، وجان بردى الذي كان كاشف الرميطة ، وبرسباي أحد الأمراء العشراوات ، وتوفى أقباي الطويل الذي كان كاشف الشرقية ، وملاج الذي كان نائب القدس ، وجان بردى وطراباي أخو الأتابكي قيت الرحبي ، وخدا بردى ، وقانم الأعرج ، وجانم الطويل ، وقايتباي أخو اصطمر . وتوفى مسسايد ، وتوفى طراباي قرا ، وأقطوه الطويل خادم السادة ، وجان بلاط الذي كان والي قطيا ، وبرسباي أحد الأمراء العشراوات وصهره ، وتوفى لاجين ناظر مقام سيدى أحمد البدوى بغزة ، وقانصوه الناصري ، وطراباي الأشرفي ، وتوفى الأمير أينال خازندار الأمير قاني باي أمير آخور كبير وكان من أمراء الطبلخانات ، وغير ذلك ممن يأتى ذكره ، حتى قيل انه مات في هذه الواقعة من أمراء مصر والشام وحلب وغير ذلك نحو أربعين أميراً لهم تحضرني أسماؤهم الآن .

وقتل أزيك العجمي أمير طبلخانات ، وقتل جان بلاط الساقى أمير طبلخانات ، وتوفى شاد بك نائب المهمندار ، وتوفى الأمير اياس المشطوب رأس نوبة عصاه من العشراوات .

وأما من توفى من المباشرين فالقاضي ناظر الجيش عبد القادر القصري ، وقتل بوطاق السلطان .

وقتل محمد العفيف رئيس الكحالين ، وتوفى جلال الدين أحد كتاب المماليك بغزة عند العود ، وخليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، وغير ذلك ممن لا تحضرني أسماؤهم ، وأما القاضي جمال الدين عبد الله مباشر وقف قاني باي الجركسى فقد قيل انه قتل في الواقعة .

وأما من توفى من أولاد الناس فالشرفي يونس ابن قانصوه أحد أولاد بنت قرقماس الطبردارية وشخص يقال له محمد بن قرقماس الجمالي أحد الطبردارية أيضا ، وقتل ابراهيم قريب الشرفي يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وآخرون من الأعيان ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن . وقتل بعد الواقعة بحلب عبد الكريم الأدمى مستوفى الزردخاناه ، وقتل ابن على الزردى .

ومن هنا نرجع الى أخبار القاهرة بعد هذه الواقعة ، فانه لما ورد كتاب الأمير علان الدوادر الثانى بما وقع من هذه الأمور المهولة في تلك الواقعة وقتل الأمراء والأعيان والقضاة ، قام العزاء والصراخ في بيت الأتابكي سودون العجمي وكان أميراً دينا خيرا لين الجانب ، وكان يعرف بسودون بن جاني بك وكان أصله من ممالك الأشرف قايتباي وولى عدة وظائف سنية منها امرية مجلس ، وامرية سلاح ، والأتابكية ، واصطلى الحرب وأظهر الفروسية في هذه الواقعة ، واستمر يقاتل حتى قتل على ظهر فرسه رحمة الله عليه .

وقام نعى السلطان في ذلك اليوم ، ونعى الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار في كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء بسبب من قتل من العسكر وغيرهم ، ورجت القاهرة

وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القال والقليل .

وفي يوم الأحد سابع عشر شعبان وردت الأخبار على الأمير الدوادار بأن عربان بنى عطية والنعمائم نهبوا ضياع الشرفية وأخذوا منها نحو أربعمائة رأس غنم من غنم السلطان والدوادار ودخلوا وادى العباسية ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك صلى الظهر ثم ركب وخرج اليهم وصحبته خمسمائة مملوك ، فكبس عليهم ، فهربوا من وجهه وغنموا ما نهبوه من الأموال والمواشي والغلال وغير ذلك ، فرجع الأمير الدوادار الى داره .

وفيه خلع الأمير الدوادار على الزينى بركات ابن موسى ، فشق القاهرة وأشهر النداء بالأمان والاطمئنان وأن المشاهرة والمجامعة بطلاة ، وجميع المظالم الحادثة بطلاة ، وأن الزينى بركات بن موسى على عادته ولا يحتذى عليه أحد ، وقد تضاعفت حرمة ، ونفذت كلمته فوق ما كان ، واجتمع معه عدة وظائف سنية ، وصار هو المتصرف فى جميع أمور المملكة ليس على يده يد .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره أنفق الأمير الدوادار الجامكية على العسكر الذين فى القاهرة ، فجلس الأمير طقطباى نائب القلعة عند سلم المدرج ، وأنفق الجامكية هناك ، والاشاعات فاشية بموت السلطان ، والأحوال مضطربة .

وفيه رسم الدوادار بعرض من فى السجنون حتى النساء اللاتى بالحجرة ، فلما عرضوا عليه أفرج على جماعة كثيرة منهم جان بك دوادار الأمير طراباى ، وكان له مدة وهو فى السجن بالمقشرة بسبب المال الذى تبقى عليه من حين كان

متحدثا فى نظر الديوان المفرد ، وأفرج عن القاضى بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط ، وكان له مدة فى المقشرة على بقايا من مال المصادرة ، وأفرج عن ولده شمس الدين وأخيه نجم الدين ، وأفرج عن صلاح الدين ابن كاتب غريب ابن أخى أبى الفضل ، وأفرج عن المعلم شنشو اليهودى الذى كان يهوديا وأسلم وقد تقدم سجنه ، وأفرج عن المعلم يعقوب الصائغ معلم دار الضرب ، وأفرج عن جماعة كثيرة من العمال والفلاحين وغيرهم ، حتى أفرج عن النساء اللاتى كن بالحجرة ، وعنمن كانوا فى السجنون من الأعيان . ولم يبق فى السجنون غير أصحاب الجرائم ومن عليه دم قديم . وقطع أيدي جماعة وأطلقهم ، ثم وسط جماعة من المجرمين منهم شخص يقال له عبدالقادر أبو دية وآخرون منهم ، وقطع أيدي جماعة من الحرامية ، وأفرج عن القاضى صلاح الدين بن أبى السعود ابن القاضى ابراهيم بن ظهيرة قاضى قضاة مكة ، وكان له مدة وهو فى الحديد فى بيت الزينى بركات بن موسى فى الترسيم ، وأقام على ذلك مدة طويلة حتى أفرج الله عنه ، وكان سبب ذلك شخص يقال له ابراهيم السمرقندى ترافع معه عند السلطان حتى قال انه لقي خبيثة بمكة فيها مال كثير ، وأرسل السلطان أحضره على غير صورة مرضية من مكة ، ولما حضر قال له : « المال الذى لقيته أحضره لى » فأنكر ذلك فوضعه السلطان فى الحديد وسلمه الى الزينى بركات ، فأقام عنده فى الترسيم فى الحديد مدة طويلة بغير ذنب .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره خلع الأمير الدوادار على الشهابى أحمد بن المنذرى حسن ابن الطولونى وأعاده الى وظيفته معلم المعلمين ، وكان السلطان أخرجها عنه وجعل جمال الدين

الزواحي بواب الدهيشة متكلمًا في العلنية
عوضًا عن ابن الطولوني .

وفيه رسم الأمير الدوادار نائب الغيبة بإشهار
المناداة في القاهرة بأن جميع المكوس الحادثة
بظالة ، وتجري على ما كانت عليه أيام الأشرف
قايتباي من غير زيادة على ذلك ، فارتفعت له
الأصوات بالدعاء .

وفي ذلك اليوم شق الزيني بركات بن موسى
القاهرة ، وسعر جميع الأسعار ، حتى الكفاة
سعرها بدرهمين الرطل ، وكانت بأربعة دراهم
كل رطل ، وسعر الأجبان واللحوم .

وفي أثناء ذلك الشهر فتح سد أبي المنجا ،
وكان النيل يومئذ في عشرين ذراعًا ، ووافق ذلك
ثاني عشرين توت أول الشهور القبطية . وكان
الأمير الدوادار في مدة غيبة السلطان يركب في
كل يوم ويسير نحو المطرية ، فاذا رجع يدخل من
باب النصر ويشق من القاهرة وقدامه الأمراء
المقدمون الذين تخلفوا بمصر ، والجسم الكثير من
العسكر . فيشق القاهرة وقدامه الساعة والعييد
النفطية ومماليكه متقلدون بالسيوف وبأيديهم
رماح بشطقات حرير ملون ، فترتج له القاهرة
وترتفع له الأصوات بالدعاء من الناس ، فكانت
نفسه تحدثه بالسلطنة قبل وقوعها ، وقد عظم
أمره جدا وهابه الناس هيبة عظيمة .

وفي يوم الجمعة ثاني عشره لما تحقق موت
السلطان لم تدع الخطباء في ذلك اليوم على
المنابر باسم السلطان ، بل دعوا باسم الخليفة
فقط ولم يذكروا اسم السلطان ، وبعضهم قال :
« اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا » .
واستمر الحال على ذلك مدة طويلة ومصر بلا
سلطان ، وكذلك البلاد الشامية .

وفي تلك الأيام وقع الفساد من العربان في
الشرقية وغيرها من البلاد ، فنهبوا عدة بلاد من
المنزلة وغيرها من ضواحي الشرقية ، ولم يبقوا
لهم مواشي ولا بقرا ولا غنما ، حتى أخذوا صيغة
النساء ، وقتل من الفلاحين في هذه الحركة ما لا
يحصى عددهم ، وكذلك من القصاص وغيرهم .
وانقطعت جميع الطرقات من المسافرين ولا سيما
لما تحققوا موت السلطان ، وصارت مصر في
اضطراب والاشاعات قائمة بالأخبار الرديئة عما
جری للسلطان والعسكر .

وكان أكثر من شن هذه الغارات أولاد شيخ
العرب الأمير أحمد بن بقر وجماعة من العشير ،
وفعلوا ما عظم خبره في العساكر والتجار الذين
دخلوا صحبة القفل الشامية ، فقتلوا من العساكر
والتجار ما لا يحصى عددهم ، وأخذوا أموالهم
وجمالهم ، والذي سلم من القتل عروه ، وجري
على العسكر من هؤلاء العربان ما لم يجر عليهم
من عسكر ابن عثمان ، ووقع لهم ذلك بين قطيا
والصالحية عند ما وصلوا الى الأمان .

وفي هذا الشهر أشيع أن المماليك الجلبان
قصدوا أنهم ينزلون من الطباق ، وينهبون خان
الخليلى ثم يحرقونه ، ويقتلون من به من تجار
الأروام ، وقالوا : هؤلاء التجار من جهة ابن عثمان
وقد شمتوا بأستاذنا لما مات ... فلما بلغ الأمير
الدوادار ذلك أحضر أغوات الطباق وقال لهم :
« لا أطلب خمود هذه الفتنة الا منكم » .
فمنعواهم من النزول من الطباق ، ولولا أن الأمير
الدوادار قام في هذا الحركة حتى خمدت هذه
الفتنة لخربت مصر عن آخرها من المماليك الجلبان .
وفيه اهتم الأمير الدوادار بعمل طوارق خشب
وكفيات ويندقيات وغير ذلك من آلات الحرب ...
وأشيع أنه يتسلطن قبل مجيء العسكر ، وكان

القائم في ذلك الأمير طقطباى نائب القلعة والأمير
علان الدوادار الثاني .

وفي يوم الجمعة الثانية لهم تذكر الخطباء اسم
سلطان في الدعاء كما فعلوا في الجمعة الماضية ،
ومن حين ورد كتاب الأمير علان بما جرى للعسكر
من أمر الكسرة وأمر السلطان لهم ترد من بعد
ذلك أخبار صحيحة ، وانقطعت الأخبار عن مصر
نحو أربعين يوما ، وكثر القال والقال في ذلك على
أنواع شتى .

ومن جملة ما أشيع أن جان بردى الغزالي نائب
الشام منع أن يصل الى مصر أحد ، وعوق العسكر
بالشام .

وفيه وردت أخبار من عند الأمير حسين
نائب جدة ، والرئيس سلمان العثماني ، أنهما لما
توجها الى الهند صحبة العسكر المقدم ذكرهم ،
ووصلا الى كمران ، وهى ضيعة من ضياع الهند ،
أنشئوا هناك قلعة ذات أبراج ، فكمل بناؤها في
نحو خمسة أشهر . ثم ان الأمير حسين أرسل
طائفة من العسكر نحو مكان يسمى اللحية ،
وأرسل طائفة من العسكر الى مكان يسمى مورا ،
وأقام الأمير حسين هو وبقية العسكر في مكان
يسمى « بيت الفتية » فأقاموا بها نحو شهر . ثم
ان الأمير حسين والأمير سلمان والعسكر
توجهوا الى نحو زبيد ، وحاصروا صاحبها عبد
الملك أخا الشيخ عامر فملكوا منه زبيد وذلك
صبيحة يوم الجمعة في العشرين من جمادى الآخرة
سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فوجدوا بها من
الأمم ما لا يحصى عددهم ، ثم ذكروا في الكتاب
أن الأمير حسين لما أن فتح زبيد توجه الى حصار
مدينة عدن ، وأنه أشرف على أخذها ، ولما ملكوا
زبيد أقاموا بها شخصا من مماليك الأشرف الغورى
وهو من أمراء العشراوات يسمى برسباى ، ومعه

بعض جماعة من المماليك وأولاد الناس الذين
كانوا صحبتهم ، والتف عليهم جماعة من العربان
نحو عشرة آلاف انسان . ولما ملك برسباى زبيد
تسلطن بها ورتب له دوادارا وخازندارا وأرباب
وظائف كمادة السلاطين ، وغنم منها أموالا جزيلا
هو ومن معه من العسكر . ولما توجه الى حصار
عدن أيضا ملكها كما قيل .

وفي هذا الشهر عرض الأمير الدوادار العسكر
الذين في القاهرة وكان ذلك العرض في بيته وكان
سبب هذا العرض أنه بلغ الأمير الدوادار أن عدة
مراكب وصلت الى ثغر اسكندرية ورشيد ، فخشى
أن تكون من عند ابن عثمان ، فبادر الى عرض
العسكر وقال لهم : كونوا على يقظة وعبوا برقكم
حتى يتضح هذا الخبر ، وانفصل المجلس على
ذلك ... فانصرف العسكر في هرج .

وفي شهر رمضان ، وكان مستهله يوم السبت ،
توجه لبيت الأمير الدوادار جماعة من نواب القضاة
وهنثوه بالشهر وكانت القضاة الثلاثة والخليفة في
أمر سليم شاه ابن عثمان بحلب لا يمكنهم العود
الى مصر .

وفي يوم الأحد ثانيه كان أول باب من الشهور
القبطية ، فثبت فيه النيل المبارك على عشرين
ذراعا ، وكان في العام الماضى أرجح من ذلك ،
واستمر في ثبات الى أول هاتور ، ثم وردت الأخبار
على يد ساع بأن الأمراء والعسكر دخلوا الى
الشام وهم في أنحس حال ، وقد نهب بركههم
وخولهم وجمالهم وجميع مايملكونه ... وأخير
ذلك الساعى أن أهل الشام لما تحققوا موت السلطان
وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشام ،
وأخذوا أموالهم ، وقتلوا منهم جماعة ، واضطربت
أحوال البلاد الشامية غاية الاضطراب .

وفيه دخل قاضى القضاة محمود بن الشحنة وقد نهب جميع بركه وكل ما يملكه ، وأخبر أن ابن عثمان ملك ثلاث عشرة قلعة ، وخطب باسمه فيها ومشى حكمه من الفرات الى حلب . وأخبر أن الخليفة والقضاة الثلاثة فى أسر ابن عثمان بحلب ، ولولا أنه هرب مع العسكر والا كان أسر معهم . وأخبر أن ابراهيم السمرقندى ويونس العادلى والعجمى الشنقى — الذين كانوا من أخصاء السلطان — لما مات الغورى التفوا على سليم شاه ابن عثمان ، وصاروا من جماعته ، وصاروا يتقربون اليه بذكر مساوى أستأذهم الغورى وأمرائه ، ويظهرون له معائبهم وقبائحهم ، ولم يذكروا شيئا من احسان الغورى لهم لا جليلا ولا حقيرا ، وكأنه لم يكن سلطانا لهم ولا أستاذا ، ونسوا جميع انعامه واحسانه اليهم ، ولا سيما ما أحسن به الى العجمى الشنقى من سلاريات وشقق حرير وسمور ومال وانعامات جزيلة ، فلم يثمر ذلك فيهم . فلما بلغ الأمير الدوادار ذلك رسم للوالى أن يكبس على بيت السمرقندى ويونس العادلى ، فتوجه اليهم الوالى وقبض على عيال السمرقندى ويونس العادلى وحريمهما وحاشيتهما ، ووضع عبد السمرقندى فى الحديد ، وختم على حواصل السمرقندى ويونس العادلى ، وظهر أنهم كانوا موالسين على السلطان ، وكانوا يكاتبون سليم شاه ابن عثمان فى الباطن بأحوال السلطان وأمور المملكة ... وصاحب البيت أدري بالذى فيه .

* * *

وفى يوم الجمعة سابعه صلى الأمير الدوادار صلاة الجمعة ، وخرج الى ملاقاتة الأمراء المقدمين الذين حضروا من الشام ، وقد بلغه وصولهم الى بليس ، فدخل القاضى محمود بن أجا كاتب السر

وهو فى محفة وصحبته الشهابى أحمد بن الجيعان ، ودخل الأمير أركماس أمير سلاح وهو فى محفة عليل ، ودخل الأمير أنص باى حاجب العجائب وتمر الزردكاش والأمير علان الدوادار الثانى وآخرون ، ثم دخل بقية العسكر وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع والضعف ، ودخلوا وأطواقهم مفككة ، وأظهروا الحزن على السلطان ، وصار الأمراء والعسكر يدخلون شيئا فشيئا .

وفى يوم الخميس ثالث عشره دخل الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والأمير كرت قانصوه والأمير جان بردى الغزالى نائب حماه ، ودخل المقر الناصرى محمد نجل السلطان الغورى ، والأمير جان بلاط الموتى والأمير أبرك الأشرفى والأمير تانى بك الخازندار والأمير كرتباى .

وفيه تكامل دخول الأمراء فسلم عليهم الأمير الدوادار ورجع الى منزله ، ودخل صحبته الأمير قانصوه الأشرفى الذى كان نائب قلعة حلب ، وهو الذى سلم القلعة بما فيها من المال والسلاح والقماش والكنائش الزركش والسروج الذهب وغير ذلك من التحف ، فتسلمها ابن عثمان من غير أن يحاصر القلعة ، فخرج قانصوه هذا والأمراء الذين معه فارين الى جهة الشام ، مع أن قلعة حلب حصينة مانعة ... فلما قابله الأمير الدوادار وبخه بالكلام ، ورسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة ، واستوعده بكل سوء .

فلما دخل الأمراء الى القاهرة اجتمع رأى الجميع على سطنة طومان باى الدوادار . وترشح أمره لأن يلى السلطنة ، فصار يمتنع من ذلك غابة الامتناع ، والأمراء كلهم يقولون : « ما عندنا من نسلطنه الا أنت ، ولا محيد لك عنها طوعا أو كرها » .

ثم ان الأمير الدوادار ركب وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين ، منهم الأمير علان والأمير أنسباى حاجب الحجاب والأمير تمر والأمير طقطباى نائب القلعة وآخرون من الأمراء وتوجهوا الى العارف بالله تعالى الشيخ أبى السعود الذى فى كوم الجارح ، فلما تكامل المجلس عنده ذكروا له أمر سلطنة الدوادار وانه امتنع من ذلك ، فأحضر لهم الشيخ مصحفاً شريفاً ، وحلف الأمراء الذين حضروا صحبة الدوادار بأنهم اذا سلطنوه لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله ... فحلف الجميع على ذلك .

ثم ان الشيخ حلفهم ألا يعودوا الى ما كانوا عليه من ظلم الرعايا ، وألا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، ولا يجددوا مظلمة ، وأن يبتلوا جميع ما أحدثه الغورى من المظالم ، ويبتلوا ما كان على الدكاكين من المشاهدة والمجامعة ، وأن يجروا الأمور على ما كانت عليه فى أيام الأشرف قايتباى ، ويمشوا الحسبة على طريقة شبك الجمالى لما كان محتسباً ... فحلفوا على ذلك .

ثم ان الشيخ ذكر للأمراء أن الله تعالى ما كسرهم وذلكم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، الا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر ، فقالوا : « تبنا الى الله تعالى من اليوم عن الظلم » . ثم انفض المجلس على ذلك وخرجوا من عند الشيخ أبى السعود على أن يسلطنوا الأمير الدوادار ، وأخذ الشيخ عليهم العهد بجميع ما حلفهم عليه بحضرته كما تقدم . وترشح أمر الأمير الدوادار الى السلطنة ، وتسلطن كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف الغورى ، فانه خرج من القاهرة خامس عشر ربيع الآخر من

هذه السنة ، واستمر نافذا الكلمة وافر الحرمة الى أن دخل الى حلب وأقام بها ، وأرسل اليه ابن عثمان عدة قصاد بالخلع السنية ، وأنعم عليهم بالعطايا الجزيلة الى أن حضر مغلباى دوادار سكين الذى كان أرسله الى ابن عثمان ، فلما رجع من عنده وهو فى غاية التحقير كما تقدم ، وكان السلطان أرسل مغلباى هذا الى ابن عثمان فى هيئة تشعر بالشدة والقوة ، لابس آلة الحرب باللبس الكامل . فشق ذلك على ابن عثمان وبهدله . فلما حضر الى الغورى أعلمه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح .

فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان يريد الشر معه نادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب ، فخرج العسكر قاطبة وهم كالنجوم الزاهرة ، من آلة السلاح والخيول الفاخرة ، وكل فارس مقوم بألف فارس من عسكر ابن عثمان ، ولكن الله تعالى يعطى النصر من يشاء ... فتوجهوا الى مرج دابق يوم الأحد خامس عشرى رجب من هذه السنة ، فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى تل الفار ، ركب صبيحة يوم الأحد المذكور وهو يوم نحس مستمر ، فبرز فيه الى قتال ابن عثمان ، وكانت الكسرة أولا على عسكر ابن عثمان ، ثم بدل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر ، وعادت الكسرة على عسكر مصر .

ولما رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يلفت فرسه ليهرب وينجو بنفسه ، فاعتزته سارقة من الرجفة فأغمى عليه فسقط عن ظهر فرسه الى الأرض فطلعت روحه فى تلك الساعة ، وصار ملقى على الأرض ، فزحفت عساكر ابن عثمان ، ففر من كان حوله من الغلمان ،

والساحدازية والماليك الجلبان ، وتركوا جثته على الأرض فكان آخر العهد به ولم تر له جثة ولا عرف له مكان قبر ، فكأنما ابتلعت الأرض ، ولم يقف له أحد من الناس على خبر .

ومن العجائب انه لم يدفن في مدرسته التي صرف عليها نحو مائة ألف دينار ، وظن أنه يدفن بها على عزة وحفظ مقام ، فكان المقدور خلاف ذلك ، وصار مرميا في البرارى تنهشه الذئاب والنمور ، ومات وله من العمر نحو ثمانية وسبعين سنة .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما . وكانت هذه المدة على الناس كل يوم كآلف سنة مما يعدون .

وكانت صفته أنه طويل القامة ، غليظ الجسد ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلعنه الشيب الا قليلا . وكان ملكا مهيبا جليلا مبجلا في المواكب ، تملأ العيون منه في المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية لكان خيار ملوك الجراكسة ، بل وخيار ملوك مصر قاطبة .

وكان في يومى الاثنين والخميس ينزل الى الحوش السلطاني ، ويومى السبت والثلاثاء بالميدان . فينزل من السبع حدرات وقدامه طوالتين خيل بسروج ذهب وكنابيش زركش . وكان يكثُر في الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوى والركب العراض ، وكان يشد في وسطه حياصة ذهب عوضا عن الشد البعلبكي ، وكان يلبس في أصابعه الخواتم الياقوت والفيروزج والزمرد والألماس وعين الهر ، وكان مولعا بشبه الرائحة الطيبة من المسك والعود والعنبر ، وكان ترفا في

ملبسه ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويميل الى أبناء العجم وربما كان يميل الى مذهب النسيجية من ميله الى معاشرة الأعاجم ، وكان مولعا بخرس الأشجار وحب الرياضيات وسماع الأطيوار المفردة ، ونشق الأزهار العطرة . وكان يستعمل الطاسسات الذهب يشرب فيها ، وكان يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهما في الأكل والشرب ، وكان يغوى طيور المسموع .

وكان يعرف بقانصوه بن ببيردى الغورى ، واستمر يرتع في ملك مصر على ما ذكرناه من التمتع والرفاهية وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة ، والأمراء والنواب والعسكر في قبضة يده لم يختلف عليه اثنان في كلمة ، الى أن وقعت الواقعة بينه وبين سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، فخرج اليه كما ذكرنا وجرت له هذه الكائنة التي لم تقع لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا . وقد قلت في معنى ذلك :

طالعت تاريخ الملوك فلم أرى

فيما سمعت حوادثا مما جرى

لا زالت الأيام يبدو فعلها

بعجائب وغرائب بين الورى

لكن هذى وقعة ما مثلها

سبقت لسلطان ولا متأمرا

والأشرف الغورى كان مليكنا

لكنه قد جار فينا واقبرى

والموت أوجب هزمه مع جيشه

قد كان ذلك في الكتاب مسطرا

أعماله ردت عليه بما جنى

والدهر جازاه بأمر قدرا

وكان للغورى محاسن ومساوى ، لكن مساويه

أكثر من محاسنه ...

فأما ما عد من محاسن الغورى فانه كان رضى الحلق ، يملك نفسه عند العصب ، وليس له زيادة حدة عند قوة خلقه . ومنها أنه كان له اعتقاد زائد فى الفقراء والصالحين . ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم . ومنها أنه كان ماسك اللسان عن سب الناس فى شدة غضبه . ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء ، وليس له هرج . وكان سغرمًا بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار ، وكان قريبًا من الناس ، يحب المزح والمجون فى مجلسه ، غير أنه كشف من حيث النظر الى داته . وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا كبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك فى أفعالها .

وأما ما عد من مساويه فانه كثيرة لا تحصى ؛ منها أنه أحدث فى أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث فى سائر الدول من قبله . ومنها أن معاملته فى الذهب والفضة والفلوس الجدد انحس المعاملات جميعها : زغل ونحاس وغش ، لا يحل بها بيع ولا شراء . ولا معاملة فى ماله من المثل . ومنها ما قرره على الحسبة فى كل شهر وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار . وكانت السوق تبيع البضائع بسا يختارونه من الأثبان ، ولا يفدر أحد أن يكلمهم ، فان كلهم أحد بفولون علينا مال السلطان ، فكانت سائر البضائع فى أيامه غالية بسبب ذلك .

وقرر على دار الضرب مالا له صورة فى كل شهر ، فكانوا يضيفون فى الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهارا . فكان الأشراف الذهبى اذا صنفى بظهر فيه ذهب يساوى اثنى عشر نصفًا . وقد سلم السلطان دار الضرب الى شخص يسمى جمال الدين ، فلعب فى أموال المسلمين ، وأتلف المعاملة ،

وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منها لا دينار ولا درهم . فلما شفق جمال الدين قرر فى دار الضرب المعلم يعقوب اليهودى ، فمشى على طريقة جمال الدين . وقد استباح أموال المسلمين فكان النصف الفضة ينكشف فى ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر . فاستمر الغش فى معاملته فى مدة دولته الى أن مات . وقد ورد الحديث الشريف « من غشنا فليس منا » .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف فيأخذ كل منهم المثل أمثالا ، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد الشامية والحلبية . وكان يفرد عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة فيأخذونها من الرعية وزيادة بالظلم والعسف ... فكان كل واحد من الرعية أصحاب الأقطاع والأوقاف يتمنى الرحيل من بلاده الى غيرها من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى أفرده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل لأهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره الى الحراب . وعز وجود الشاشات بمصر ، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الافرنج ، والأرز والأنطاع ، وخرب البندر ، وكذلك بندر الاسكندرية ، وبندر دمياط ، فامتنت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم .

وكان كل أحد من أراذل الناس يتقرب الى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرّر على بيع الغلال قدرا معلوما يؤخذ على كل اردب ثلاثة

أنصاف من البائع والمشتري ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى خرج على بيع الملح ، وجدد في أيامه عدة مكوس من هذا النمط لم يفعلها هناد في زمانه ، ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره .

وصادر أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه مالا له صورة ، ودخل في جملة ديون حتى أورد ما فرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، فمنهم القاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، ومنهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس الدين ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ماتوا في سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله النسيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ورزقهم من غير سبب ، وإعطاء ذلك إلى مماليكه الجلبان . ومنها قطع جوامك الضعفاء والأيتام من الرجال والنساء والصغار ، وحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك . ومنها أنه أرسل فك الرخام الذى بقاعة ناظر الخاص يوسف التى تسمى نصف الدنيا ، فوضع ذلك الرخام في قاعة البيسرية التى بالقلعة .

ومنها أنه قطع معتاد الناس من الديوان المفرر من قديم الزمان ، وجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضى ، وكانت المقطعين تقاسى من الهوان والذل ما لا خير فيه . ثم تزايد حرصه على جمع الدنيا وشحه حتى صار يحاسب السواقين الذين في سواقى القلعة ، والخولة الذين في سواقى الميدان ، على الجلة وروث الأبقار وما يتحصل في كل يوم مما يبيعونه ، وقرر عليهم مبلغا يؤدونه للذخيرة الشريفة . وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه في غاية الضيق ،

لا يغفل عنهم من المصادرات يوماً واحداً . وكان من حين توفي الأمير خاير بك الخازندار يباشير ضبط أمر الخزانة بنفسه ، ما يدخل إليها وما يخرج منها وما يعرضون عليه من الأمور في ذلك جميعه من الوصولات ، وما يصرف من الخزائن في كل يوم . وكانت هذه الأموال العظيمة التى تدخل له يصرفها في عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويخرف الحيطان والسقوف بالذهب ، وهذا عين الاسراف لبيت مال المسلمين ... وكان يهرب من المحاكمات كما يهرب الصغير من المكتب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرضى ، بل على أمور مستقبحة . وكان يتغافل عن أمر القتل ويدفعهم الى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليها . وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلم على المراسيم الا قليلا ، فتتعطل أشغال الناس بسبب ذلك ، حتى كانت تشتري العلامة العتبة بأشرفى حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الجوائج . ولو شرحنا مساويه كلها لطال الشرح في ذلك .

وأما من تولى الخلافة في أيامه فأمر المؤمنين محمد المتوكل على الله ، نجل امين المؤمنين المستمسك بالله يعقوب .

وأما قضاة الشافعية فأولهم شيخ الاسلام قاضى القضاة زكريا ، وقاضى القضاة محبى الدين عبد القادر النقيب ، تولى وظيفه القضاء في أيامه خمس مرات ، وقاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف المقدسى ، وقاضى القضاة ابن فرفور المقدسى ، وقاضى القضاة جمال الدين القلقشندى ، تولى القضاء في أيامه مرتين ، وقاضى القضاة كمال الدين بن محمد بن على الشهير بالطويل القادرى ، وقاضى القضاة بدر الدين المكينى ، وقاضى القضاة علاء الدين بن النقيب ، ثم أعيد

قاضي القضاة كمال الدين الطويل ، وقد ولي القضاء في دولته أربع مرات .

وأما قضاة الحنفية فالقاضي سري الدين عبد البر ابن الشحنة ، ثم القاضي برهان الدين بن الكركي ، ثم القاضي شمس الدين محمد السمديسي ، ثم القاضي حسام الدين محمود بن الشحنة .

وأما قضاة المالكية فالقاضي عبد الغني بن تقي الدين ، ثم القاضي برهان الدين الدميري ، ثم ولده محيي الدين يحيى ، ثم جلال الدين بن قاسم ، ثم أعيد محيي الدين بن الدميري ثانيا .
وأما قضاة الحنابلة فالقاضي شهاب الدين أحمد الششيني ، ثم ولده عز الدين محمد ، ثم شهاب الدين الفتوحى .

وأما كتاب سره فالقاضي معب الدين الحلبي .
وأما نظار جيشه فالقاضي شهاب الدين أحمد بن الجمالي يوسف ناظر الحاص ، والقاضي عبد القادر القصري . وأما نظار خواصه فالقاضي علاء الدين ابن الصابوني أولا ، ثم علاء الدين ابن الامام ، ثم ناصر الدين الصفدي ، ثم أعيد ابن الامام ثانيا .
وأما وزراؤه فالأمير طقطبى بن ولى الدين ، وجمع بين الوزارة والأستادارية ، ثم الأمير نعرى برمش ، ثم الأمير يوسف البدرى .

وأما استادارياته ، فالأمير نعرى بردى بن بلباى القادرى ، ثم الأمير نسرلى حارندار الملك العادل طومان باى . ثم الشرفى يوسف النابلسى . ثم قرر الأمير طومان باى الدوادار فى الأستادارية مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى ، واستمر بها الى أن تسلطن .

وأما من ولى الحسبة فى أيامه فالأمير قرقماس المقرى ، والأمير جان بردى الغزالى . ثم أعيد

قرقماس المقرى ، ثم الزينى بركات بن موسى ، ثم الأمير مامى الصغير .

وأما أتابكياته فأولهم قيت الرحبى ، وقرقماس ابن ولى الدين ، ودولات باى بن أركماس ، وسودون العجمى .

وأما دوادارياته فأولهم مصرى باى ، ثم أزدمر بن على باى ، ثم طومان باى الذى تسلطن بعده .

وأما حجابيه فالأمير خاير بك بن باى الذى نور فى نيابة حلب ، والأمير أنص باى بن مصطفى .
وأما بقية الأمراء وأرباب الوظائف فعلى حكم ما تقدم من أخبارهم .

وأما نوابه بالشام : فالأمير دولات باى بن أركماس ، ثم قانصوه المحمدي الشهير بالبرجى وسىباى بن بخت خجا . وأما نوابه بحلب : فأركماس بن طراباى ، وبخشباى بن عبد الكريم ، وسودون بن يشبك ، وجانم ويشبك وأبرك الأشرفى ، وتمراز الأشرفى . وأما نوابه بصفد : فقانصوه بن قرا ، وقانى باى العثمانى ، وسودون الدوادار . وأما نوابه بغزة : فالأمير صلاح الدين الذى كان نائب القدس ، وأزبك الصوفى الذى كان نائب القدس أيضا ، وأقبابى الذى كان كاشف الشرقية . وآخر من ولى بها فى أيامه دولات باى الأعشى ، وقد جمع له بين نيابة القدس والكرك ونيابة غزة ، وولى بها آخرين غير هؤلاء .

وأما ما أنشأه بالقاهرة : فمن ذلك الجامع والمدرسة اللذان أنشأهما عند الشرايشين ، والوكالة والحواصل والربوع التى أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة ... ومن انشائه المؤذنة التى عمرها بالجامع الأزهر وهى برأسين ، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التى بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التى بخان الخليلى ، وجدد عسارة

خان الخليلى ، وأنشأ به الحواصل والدكاكين ...
وأنشأ فى باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وكذلك
الربعين اللذين بين السورين والطاحون عند
المصبغة ... وأنشأ البيت الذى فى البندقانيين
لولده ، وتناهى فى زخرفته . وأنشأ هناك ربعا
ووكالة .

وأنشأ الميدان الذى كان تحت القلعة ، ونقل
اليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجرى اليه ماء
النيل من سواق نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة
والمقعد والمبيت برسم المحاكمات ... وأنشأ جامعا
خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومئذنة ،
وجدد عمارة بالقلعة منها الدهيشة ، وقاعة البيسرية ،
وقاعة العواميد ، وقاعة البحرة . وأنشأ المقعد
القبطى الذى بالحوش ، وجدد عمارة المطبخ الذى
بالقلعة ، وجدد عمارة سبيل المؤمنين ، وجعل سفهه
معقودا بالحجر . وأنشأ الربع والدكاكين التى
بسويقة عبد المنعم . وأنشأ الربع والوكالة التى فى
الجسر الأعظم . وجدد عمارة ميدان المهارة الذى
بالقرب من قناطر السباع ، وبنى بالحجر الفص
المشهر بعد ما كان بالطوب اللبن . وأنشأ المجراة
ونقلها من درب الخولى الى موردة الحلفاء .

وجدد عمارة المقياس ، وأنشأ به القصر على تلك
البسطة التى كانت هناك . وأنشأ بها المقعد المطل
على البحر ... وجدد عمارة قنطرة بنى وائل ،
والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب ، وقنطرة
الخرنوبى وأعلاها ، حتى صارت تدخل المراكب من
تحتها . وجدد عمارة قناطر السباع . وأنشأ المساطب
وعليها الدعائم عند قبة الأمير يشبك التى بالمطرية .

وأنشأ بالطيئة على ساحل البحر المالح قلعة
لطيفة بها أبراج وجامع بخطبة . وأنشأ بشجر رشيد
سورا وأبراجا لحفظ الشجر ، وجدد عمارة الأبراج
بالأسكندرية ، وأصلح طريق العقبة ، ودوار حقن .

وأنشأ هناك خانا وأبراجا على بابه ، وجعل فيه
حواصل لأجل ودائع الحجاج . وأنشأ فى الأزم
خانا وجعل فيه حواصل مثل الخان الذى فى العقبة ،
وحفر هناك الآبار فى عدة مواضع من مناهل
الحجاج .

وأنشأ بسكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين
والمنقطعين هناك ، وأجرى عين يازان بعد ما كانت
انقطعت من سنين ، وأنشأ بجدة سورا على ساحل
البحر المالح ، وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر
جدة من الفرنج ، وجاء هذا السور من أحسن
المبانى هناك . وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة
مبان بها نفع للمسلمين .

وبالجملة أن السلطان الغورى كان خيار ملوك
الچراكسة على عوج فيه ، ولم يجرى من بعده أحد
من الملوك يشابهه فى أفعاله وعلو همته وعزمه فى
الأمور . وكان كفؤا تاما للسلطنة ، مبجلا فى
المواكب ، تملأ منه العيون .

وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء ،
ومشايخ الاسلام ، وقضاة القضاة ، فمنهم : الشيخ
بدر الدين ابن عبد الرحمن الديرى رحمة الله عليه ،
وكان من أعيان علماء الحنفية مفتيا مدرسا عريفا
ولى مشيخة الجامع المؤيدى ، وكان من خيار أبناء
الديرى . وتوفى الشيخ شهاب الدين ، خليفة
سيدي أحمد البدوى رحمة الله عليه ، وكان من
أعيان مشايخ الحقيقة . وجاءت الأخبار بوفاة قاضى
القضاة الحنبلى بهاء الدين بن قدامة ، توفى بدمشق
ولى قضاء الحنابلة بمصر والشام . وتوفى الشيخ
ابراهيم المواهبى الشاذلى رحمة الله عليه ، وكان
من أعيان مشايخ الصوفية . وتوفى العلامة تقي
الدين الأوجاقى شيخ الحديث ، رحمة الله عليه .
وتوفى الحافظ العلامة جلال الدين عبد الرحمن
الأسيوطى ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، بلغت

مصنفاته ستمائة مؤلف ، وكان بارعا في علم الحديث ، توفي في جمادى الأولى سنة احدى عشرة وتسعمائة . وتوفي قاضى قضاة المالكية برهان الدين الدميرى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة . وتوفي القاضى ناصر الدين محمد بن جرباش ، وكان من أعيان علماء الحنفية . وتوفي الشيخ علاء الدين العجمى الشافعى شيخ تربة جاني بك نائب جدة ، وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفي قاضى قضاة الحنابلة شهاب الدين أحمد الشينى ، وكان علامة في مذهبه ، توفي سنة تسع عشرة وتسعمائة . وتوفي الشيخ عبد الباسط بن خليل المؤرخ ، وكان من أعيان الحنفية ، وكانت وفاته في ربيع سنة عشرين وتسعمائة . وتوفي الشيخ العارف بالله تعالى ، محمد ابن عنان رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الصوفية . وتوفي قاضى قضاة الشافعية كان ، محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، وكانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة . وتوفي قاضى القضاة كان ، جمال الدين ابراهيم بن علاء الدين القلقشندي الشافعى ، وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفي الشيخ نور الدين على المحلى وكان يعرف بفريبه ، وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفي الشيخ تاج الدين الذاكر ، وكان من أعيان الصوفية . وتوفي قاضى قضاة الحنفية ، وكان يسمى برهان الدين بن الكركى ، وكان من أعيان علماء الحنفية ، مات غرقا في أبام دولته . ومات غير هؤلاء جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم هنا خشية الاطالة . ولا بأس بإيراد هذا الزجل الذى عمله الشيخ بدر الدين أبقاه الله تعالى ، يرثى به الملك الأشرف قانصوه الغورى عند وقوع تلك الفتنة المقدم ذكرها وما جرى له ، وهو قوله :

غربت شمس دولة الغورى

وابن عثمان يجمو طلع ساير

وبهذا رب السما قد حكم
والفلك دار ولم يزل دابر
ابن عثمان باداه بأخذ القلع
ويمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا الى مصر مملوك
ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا
ومن الصوف ما عاد يجينا ثياب
على الصوف ياما قعدنا سنين
ما يعى من عندو ولا تاجر
والأمارة جمو للملك قالوا
ابن عثمان باغى عليك جابر
الأمير الكبير سى سودون
للعجم نسبتو خلاف القياس
والمقر الأشرفى العنالى
هو أمير سلاح سى أركساس
وبسودون رأس نوبة النواب
لو رياضه مع سائر الأحناس
وأنص باى هو حاجب الحجاب
لو شجاعة في الحرب بالساتر
ومحمد يدعى أمير آخه .
نجل سلطان أشرف عزيز نامر
والدوادار تانى أمير علان
وان أردت المقدمين تذكر
ابن جركس مقدم كبير
وتمسر بالزردكاش يسر
وكذا جنبلات معو كرتباى
وأربعين في ذى العدد واكثر
وتبعهم من الاساوة كثير
طبخافاه يانصر تباشير

والعساكر معهم كثير فرسان
عشراوات من ترك تكاثر
فرب الكل بينهم مشورة
قالوا ملت منا القلوب والنفوس
نحن نخرج جميع لاجل القتال
بالجنائب والسلاح واللبوس
ونجرد لنصرة السلطان
نكسر الروم والأراضي ندوس
راهنوا بالنفوس وهم أقنار
كل واحد بهجتو قام
ولا يدري ما قد خبي في الغيب
من تقادير القادر القاهر
خامس العشر من ربيع آخر
لتعمية اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادي
شافع الخلق في نهار الزحام
كان خروج السلطان بتجريدة
لابن عثمان طالب بلاد الشام
والامارة في خدمتو موكبين
بالماليك والطلب تنفاخر
وخروج الجميع من القاهرة
كان بتقدير الواحد القاهر
في محفة خرج معو القاضي
كاتب السر المنتخب محمود
والخليفة المتوكل ولد يعقوب
هو محمد فعلو الجمل محمود
وقضاة القضاة ومن معهم
كل نائب قد أبذل المجهود
خرج معو لاجل الخلع
ناظر الخاص الناهي الأمر

هو المباشر للخاص وهو العامل
وكذا القسروى للجيش ناظر
دخلوا الشام أوكب بهم موكب
ما سمعنا موكب رثى مثله
ولا نالوا ملك ولا سلطان
في المواكب ولا أحد قبله
ومن الشام خرج دخل في حلب
وقطع من وعمره الى سهله
وسليم شاه لما سمع أظهر
أن طبعو منها بقى حابر
طلب الصلح أرسل لهم قاصد
بالهدايا والملبس الفاخر
قالوا دا الصلح سيد الأحكام
من بخالف يرجع هداه في ضلال
والأمانة في محمل الانسان
وأبى حملها عوالى الجبال
وقضى ربنا بحفن الدما
وكفى الله المؤمنين القتال
جو جواسيس الأشرف الغورى
أعلموه انو عليه ماكر
قالوا احذر تركز الى صلحو
واعلم انه خاين عليك غادر
حقق القول ومن حلب برز
والعساكر معو لاجل القتال
وجد الروم مجهزين بالسلاح
والتراكيش معمره بالنبال
ووقع بين العسكرين وقعة
للفريقين شابت لها الأطفال

نصر الله المصري على الرومي
 وبجبلو أضحي عليه غاير
 ولا يدري ما قد خبي في الغيب
 ولا يدري ما هو اليه صاير
 ابن عثمان كان لو من العسكر
 خلق كانوا على الشمال كامنين
 في اشتغال العسكر بنهب الروم
 خرجوا في القتال لأجل السنين
 فاستغاث الملك وبو سارقه
 ارتقى على الأرض عن جوادوينين
 جا ابن عويبيرس واقباي الطويل
 كل واحد نصرته بادر
 والشجاعة ما تغلب الكثرة
 قطعوههم بالصارم الباتر
 جل ربي محرك الحركات
 جعل الله لكل قتله سبب
 والعجب كان في قتلة الغوري
 في التواريخ تكتب بماء الذهب
 تسعمائة اثنين وعشرين عام
 ما جرى لو خامس وعشرين رجب
 نسال الله أن يحسن العاقبه
 وبعيد الرابع هو الحاسر
 يكشف العار عنا بأخذ التار
 ويرد الكره على الكافر
 أشتى التار لقتلة الغوري
 ولعل أن أبلغ الأوطار
 والتهاني ذاك النهار عندي
 ويعنوا على وسر أو طار

بعد هذا ما أخشى غراب البين
 أن زعق في دارنا أو طار
 والعجائب في قتلة الغوري
 راح برجلو لقتلو خاطر
 وحسنا كل الحساب الا
 ما جرى لو ما مر بالخاطر
 دمه العين منى على الغوري
 من دماها بجرى لعزني عين
 أرتجى عين في الناس تساعدني
 من صباحي حتى تغيب العين
 كان عليه ترقب زمان ملكو
 والسعاده حتى أصابو عين
 الجواد غاب بين العباد أرماء
 مات ودمعو من العيون غاير
 كل من غار منو بقي فرحان
 بعد ما كان غابر على الغاير
 ذي العساكر شبهتها روضه
 فيها أغصان فرسان عليها زهور
 والنسيم في النهر فصل زرد
 وإذا هو كالسيف ظهر مشهور
 واللبوس من فوق الحديد تحكي
 ورد أحمر بين الرياض منشور
 ومن البان شطقات غصون مذهبه
 وجمها صناجق الباتر
 وحكى الياسمين بدن مجروح
 وشقيق النعمان عليه دابر
 في سما حرب عسكر السلطان
 تطلع انجم فرسان تزين اللبوس

والأسنة تحكى شهب ثاقه
 وخودهم مثل النجوم فى الشمس
 والملك بينهم قمر مخسوف
 وحكى الرعد ضربهم فى التروس
 خلت أسهم من قوس قزح ترمى
 للعساكر فى ليل غبار عاكر
 السحاب صار يطر سهام خارقه
 للأعدى ولم يزل ماطر
 ذى العساكر بستان وفيه فاكهه
 ودماهم خمر العنب مدقوق
 واحد اصفر لونو حكى مشمش
 وذا لون العناب وذا معشوق
 ما رأى حد مثل ذى الوقعة
 لا تقل لى الناصر ولا يرقوق
 والأماره تحكى شجر مشر
 فى رياض نشروا غدا عاطر
 والمدافع ترمى سفرجل كبار
 ول رمان يحكى من الفحول فاخر
 كم أسلى قلبى على الغورى
 وأقلو يا قلب اتفكر
 أين سليمان وأين هو النمرود
 وأين هو فرعون وأين هو اقيصر
 وأين ملوك الزمان وذو القرنين
 واللى يسمى ان صح الاسكندر
 وأين كسرى أنو شروان وايوانه
 مات والايوان بعدو بقى دائر
 كل حادث بأمر القديم راحل
 والاقامة للأول الآخر

لو يكن فى هذا البلد حمال
 ويراهن فى واجب الملعب
 نحن عصبه نحزن على غلبه
 لما يبقى دستو عليه مقلوب
 فايش تقل سلطاننا الغورى
 لما جرد قتل ومات مكروب
 بعد ملكو خمسة وعشر سنين
 تسعة أشهر بالكاتب الحاصر
 ويليهما خمسة وعشرون يوم
 عز كاتب حاسب أمين ذاكر
 العجب كان فى قتلة الغورى
 كل مقدور لا يمنعه المحذور
 ويوم خروجو من البلد أوكب
 ولا يدري ما فى الجبين مسطور
 بالمقدر قال لو لسان الحال
 قد بقى من عمرك ثلاث شهور
 اتبه من رقدة الغفلة
 واحمل الطول من الأمل قاصر
 بعد الأشهر عدة تسعة أيام
 والمنية تكون فى العاشر
 ذى الملك كان رئيس وهو مقدم
 وابن عثمان مؤخر ولاح كسره
 خندس الرياح عليه وحل مركبو
 وابن عثمان غوم وبان نصره
 غرق السفن واخرب السفان
 وبسيفو رمى الجميع بحره
 من جشهم ومن دماهم صار
 بحرهم بر بالجنت صادر

وتركهم لما رجع مقلع
برهم بحر بالدماء حادر
قد جلا لو عروس جمال ملكو
خالق الخلق ربنا ذو الجلال
وجبا لوانو يقع ميت
عن جواد ويوم الحروب والقتال
وزوى لوانو يموت مقهور
ولا يعرف قبره ليسوم الزوال
كم تطير بالرمل والرمال
طاير الله هو أعظم الطائر
طار حسابو وكل ما أمل
وبهذا ما طار عليه طاير
ابتدأ في النظم والخاتم
بمديحي في المصطفى المختار
كلمو الضب والذراع والبعير
وسعت لو في خدمتو الأشجار
والغزاة حديثها مشهور
ونطق لو في راحتو الأحجار
والقمر انشق له بصفين
بعد ما كان كامل صحيح ناير
وأشبع الجيش كلو ببعض الزاد
وجرى الماء من اصبعو فاير
ان يقولوا أبو النجاة العوى
في نظامو ما في البلد مثلو
يا الذي جا يسمع عقود نظمه
خذ وحرر عنو بديع نقلوا
وان أتالك من يطلب التاريخ
والوفايح عن الملوك قلو

غربت شمس دولة الغورى
وابن عثمان نجمو طلع ساسين
وبهذا رب السما قد حكم
والفلك دار ولهم نزل دايين
وهذا آخر ما انتهى اليها من أخبار دولة الملك
الأشرف أبي النصر قانصوه الغورى رحمة الله
عليه . وقد افتتح أوائل دولته بمصادرات وظلم ،
وأخذ أموال بغير حق ، واختتمت أواخر دولته بفتن
وضرب سيف وذهاب أموال وأرواح ، وأمور
مهولة وحوادث غريبة ، وفتن عظيمة ليس لها آخر .
والأمر الى الله تعالى من قبل ومن بعد ، يفعل ما يشاء
ولا يسأل عما يفعل .
واستمر سليم شاه بن عثمان مستوليا على البلاد
الشامية والحلبية وملك قلاعها وأعمالها ، وحكم
من الفرات الى الشام ثلاثة شهور ، وملك ثلاث
عشرة قلعة بالأمان من غير حرب ولا قتال ، وملك
قبل ذلك عدة قلاع من أعمال شاه اسمعيل
الصفوى . والذي وقع لسليم شاه ابن عثمان من
السعد والنصرة على الصفوى وسلطان مصر ،
وأخذ أموالهم وبركهم وحيولهم وأحنوائه على
بلادهم ، وخزائن أموال الأمراء وأموال السلطان
العورى وناهيك بها — ما وقع لظلم لأحد من ملوك
الروم قبله ولا بعده ، وهذا الأمر من الله تعالى ،
وقد وعده بذلك من القدم ، ان يعد الله حق . وهو
لا يخلف الميعاد .

الأشرف أبو النصر طومان باي

وهو السابع والأربعون من ملوك الترك
وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الحادى
والعشرون من ملوك الإبراكسة وأولادهم في

العدد وكان أصله من كتابية الأشرف قاينباى ، اشتراه الملك الأشرف فأنصوه العورى ، وكان يلود له بصرايه . فلما اشتراه قدمه الى الأشرف قاينباى ، ولهذا يدعى طومان باى بن قانصوه . فصار من جيلة مماليكه الكتائية ، واستمر على ذلك حتى تسلطن الملك الناصر محمد ابن قايتباى ، فأخرج له حيلة وقماشاً وغلماناً وصار من مستخرجات الناصر ومعانيقه . وبقي جمدارا ثم بقي خاصكيا ، واستمر على ذلك حتى سلطن قريبه قانصوه العورى ، فأنعم عليه بامرية عشرة ، واستمر على ذلك الى سنة عشر وتسعمائة ... فلما توفي ابن السلطان المقر الناصرى فى الفصل الذى جاء بها أنعم عليه السلطان بامرية طبلخاناه وجعله شاد الشرايخانه عوضاً عن ولده بحكم وفاته ، واستمر على ذلك الى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة .

فلما توفي الأمير أزدمر بن على باى الدوادار الكبير فى جمادى الأولى وهو مسافر بجبل نابلس ، خلع عليه السلطان وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضاً عن الأمير أزدمر بحكم وفاته ، فاستمر فى الدوادارية الكبرى الى أن خرج السلطان الى التجريدة بسبب ابن عثمان ... فجعله نائب العيبة عوضاً عن نفسه الى أن يحضر من السفر ، فساس الناس فى عيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية ، وأطاعه العسكر الدين بحلفوا بمصر فاطبة . وقد جسع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف ونائب العيبة .

وكان يركب فى كل يوم اثنين وخمس ويسير نحو المطرية ، ويدخل من باب النصر ، ويشق القاهرة وفداهه الجم الكثير من العسكر والأمراء المقدمين ، وفداهه سعاة وعبيد نفطية يرمون بالنفط .

من المكاحل فترج له القاهرة كلما شق منها وفتح السد فى عيبة السلطان ، وكان يوم مشهود ولم يزل على ذلك حتى تبت سوت السلطان العورى : ورجعت الأمراء من التجريد ، فوقع الاختيار منهم على سلطنته ، فامتنع من ذلك غاية الامتناع ، والأمراء تقول ما عمدنا سلطان إلا أنت ، وهو يمتنع من ذلك

ثم ركب هو والأمير علان وجماعه من الأمراء المقدمين ويوجهوا الى كوم الجارج عند الشيخ أبى السعود ، فلما جلسوا بين يديه وذكروا له ذلك نعال الأمير طومان باى على السدس ، نواع من العل . منها ان حزانن يئت مال المسلمين يس فيها درهم ولا دينار ، فادا سلطنته انفس على العسكر تسيئا . ومنها ان ابن عثمان ملك البلاد الشاميه وهو راحف على مصر ، وأن الأمراء لا يطاوعونى على الرجوع الى السفر ثانياً ومنها أنه اذا تسلطن يعدرون به ، ويركبون عليه ، ويخلعونه من السلطنة ، ويرسلونه الى السجن بشعر الاسكندرية ، ولا يبقونه فى السلطنة الا مدة يسيرة . ثم ان الشيخ أبى السعود احضر بين يدي الأمراء مصحفاً شريفاً وحلف عليه الأمراء الدين جاءوا بضجته بأنهم اذا سلطنوه لا يحامرون عليه ولا يعدروه ، ولا يثيرون فتناً .. وأنهم ينتهون عن مظالم المسلمين قاطبة فحلفوا كلهم على المصحف الشريف بسعى ذلك فلما بحالفوا ترشح أمر طومان باى الى السلطنة ، وانقض المجلس على ذلك ، ويوجه الأمراء الى بيوتهم .

فلما كان يوم الجمعة رابع عشر شهر رمضان من هذه السنة صلى الأمير الدوادار صلاة الفجر ، وركب ومعه الأمراء المقدمون وقدامه الفسوايس والمشاعل ، فطلع الى باب السلسلة وجلس به .

فلما ركب من بيته الذى فى درب البابا شق من الصليبة . وهو بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء ، وكذلك الأمراء الذين طلّعوا صحبته . فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وانطلقت النساء له بالزغاريت من الطيقان .

فلما استقر بباب السلسلة أرسل خلف أمير المؤمنين يعصوب والد أمير المؤمنين المتوكل على الله ، فحضر وصحبته سيدي هرون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله وأولاد ابن عمهم خليل ، وحضر قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود بن الشحنة ، والقاضى شرف الدين يحيى ابن البرديسى أحد نواب الشافعية ، وجماعه نواب القضاة الذين بالقاهرة ، فلما تكامل المجلس واجتمع سائر الأمراء المقدمين وغيرهم من الأكابر والأصاغر والعسكر أظهر أمير المؤمنين يعصوب وكالة مطلقة عن ولده محمد المتوكل على الله بأنه وكله فى جميع أموره ، وما يتعلق به من أمور الخلافة وغيرها ، وكالة مفوضة ، وثبت ذلك على يد القاضى شمس الدين بن وحيش ، فاكتفوا بذلك ... وكان أشيع أن يولو الخلافة الى أحد من أولاد سيدي الكبير خليل ، فان الخليفة المتوكل على الله كان فى أسر ابن عثمان ، ووالده يعقوب عزل نفسه من الخلافة ، فلما أحصر هذه الولاية عن ولده اكتفوا بذلك ... وكان قاضى قضاة الشافعية كمال الدين الطويل فى أسر ابن عثمان وكذلك قاضى قضاة المالكية محبى الدين الدميرى وقاضى القضاة الحنبلى الشهابى الفتوحى . فلم يحضر هذه المبايعة من أعيان نواب الشافعية الا الشرفى يحيى بن البردينى . فبايع السلطان الخليفة أمير المؤمنين يعقوب ، وشهد عليه بذلك الشرفى يحيى بن البرديسى وجماعه من نواب القضاة نيابة

عن محمد المتوكل ، وحضر فى آخر المجلس قاضى القضاة الحنفى محمود بن الشحنة .

فلما تمت له البيعة أحضروا له خلعة السلطنة ، وهى الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيوف البداوى ، فأفيض عليه شعار الملك ، وتلقب بالملك الأشرف ، مثل قريه الغورى . ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنش ولا سرج ذهب ، ولا وجدوا له فى الزردخانات لا قبة ولا طيرا ، ولا الغواشى الذهب . فركب من سلم الحراقة التى بباب السلسلة ، والخليفة قدومه . فطلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على كرسى الملكة ، وقبل له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته .

وكان محببا للعوام ، فانه كان لين الجانب ، قليل الأذى ، غير متكبر ولا متجبر . فلما انتهى أمر المبايعة خلع السلطان على أمير المؤمنين ونزل الى داره فى موكب حفل . وزالت دولة الغورى كأنها لم تكن . فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغير على طول المدى . وقد قال محمد بن قانصوه :

قد ذهب الغورى الى ربه

وذا الذى قدره الله

الملك لله فمن شاء من

عباده للملك ولاء

فلما كان وقت صلاة الجمعة فى ذلك اليوم خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة ، وخطب به الشرفى يحيى بن البردينى ، واستمر يحط به فى كل يوم جمعة . ثم ان الخطباء حطوا باسمه فى ذلك اليوم على منابر مصر فى القاهرة بعد ما كان الخطباء لم يذكروا فى الخطبة اسم سلطان ، ولم

بدعوا نحو خمسين يوما ، بل كانوا يدعون
للحلبه فمط

وفي هذا السوم قبض السلطان على قانصوه
الأشرفي نائب قلعة حلب الذي سلم القلعة الى
ابن عثمان من غير حرب ولا محاصرة ، فلما حضر
قانصوه هذا صاحبه العسكر نغير حاطر السلطان
عليه بسبب ذلك ، فنقبض عليه وأودعه في البرج
بالقلعة . حتى يكون من أمره ما يكون

وفي يوم السبت خامس عشر رمضان حضر جماعة
من الأمراء ممن تحلف بعهد العسكر بدمشق ،
محضر الأمير جان بردى العزالي نائب حماء وقد
ترشح امره أن يلي نيابة الشام ، والأمير سودون
الدوادار رأس نوبة النوب ، والأمير فانصوه كرت
أحد المقدمين وكان مريضاً فلما حصروا وجدوا
الدوادار قد تسلطن فعز ذلك على الأمير سودون
الدوادار . وكان قد ركن الى السلطنة وهو
بالشام فلم يسم له ذلك فلما حصروا طاعوا الى
القلعة وقبلوا الأرض للسلطان . ونزلوا الى
دورهم

ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن أمير عربان
حماء الأمير ناصر الدين بن الحنش طاعه
أن ابن عثمان أرسل چالش عسكره وصاحبه ابن
سوار — الذي كان يعصب له — فلما وصلوا
الى قابون بالقرب من دمشق ، تمهم ابن الحنش ،
وحصل يسه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة
مهولة ، وقتل منهم جماعة وأطلق عليهم الماء من
أنهر دمشق ، حتى صار كل من دخل في تلك الماء
نفرسه يوحل ، فلا تقدر على الخلاص فهلك من
عسكر ابن عثمان جماعة كثره حسبما أشيعت
بذلك الأخبار . وقد قلت في المعنى :

قل لا بن عثمان اذا قابلته
اقبل نصيحه ناصح ودع الطيش

واحذر بعارض شاميا بجهالة
نحشى عليك اللدع من ابن الحنش

فلما دخلت الأمراء دخل صاحبهم جماعة كثيرة
من أعيان أهل دمشق وأولادهم وعيالهم ، وسبب
ذلك أنه لما حصل لعسكر مصر هذه الكسرة ،
وقتل سييائ نائب الشام ، واضطربت الأحوال ،
وتب أهل الشام بعضهم على بعض . ونهبوا حارة
السرة ، وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم وكذلك
فعلوا بتجار الفريج الدين هناك ، ونهبوا أموالهم .
وكانت فتنة مهولة . ونهبوا بيوت اعيان الناس
بدمشق من القضاء والنجار . فخرج غالب أعيان
دمشق منها بسبب ذلك ، وبسبب فتنة ابن عثمان
وفساد الأحوال بمصر والبلاد الشامية فلما بلغ
السلطان ما فعله ناصر الدين بن الحنش مع عسكر
ابن عثمان رسم له بنيابة حمص ، وفيل برزت له
المراسيم الشريفة أنه اذا كسر عسكر ابن عثمان
قررر السلطان في الأتابكة بدمشق ، فإن ابن
الحنش أرسل يقول للسلطان . « مدني ببغض
عسكر وأنا أجبع العربان وضمنان كسرة عسكر
ابن عثمان على » وكان في قديم الزمان بعض
أجداد الحنش متولبا على نيابة حمص ..

وفيه حضر شخص يقال له اينال الأعور وكان
جان بردى العزالي قررر في نيابة صفد فلما بعث
اليها دواداره ومباشريه وثب عليهم أهل صفد ،
ولم يمكنوهم من الدخول الى المدينة ، وربما
قتلوا منهم جماعة فحضر الى مصر ليلبس خلعة
وبعضى الى صفد ، لقتنص من أهلها

وفي يوم الاثنين سابع عشره أنفق السلطان
الجامكية على العسكر في الحوش ، وحصل في

ذلك اليوم بين الأمراء خلف بسبب الوظائف ،
وحصل بين الأمير علان الدوادار الثاني وبين جان
بردى الغزالي تشاجر حتى خرجا فيه عن الحد .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض
وهم الذين كانوا مقيمين بمصر ولم يخرجوا في
التجريدة صحبة السلطان . ونادى أيضا أن كل
من أخذ شيئا من نهب سلاح العسكر أو قباشهم
يرده ، ومن لم يرد شيئا وغمز عليه شنق من غير
معاودة . وقد بلغه أن جماعة من الغلمان والعبيد
ممن كان في التجريدة نهب أشياء كثيرة من مال
وسلاح وقماش وغير ذلك .

ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما تسلطن أمر
بهدم المسطبة التي كان أنشأها السلطان الغورى
بالحوش أيضا عوضا عن الدكة التي كان يجلس
عليها الأشرف قايتباى ، فهدم السلطان المسطبة
وأعاد الدكة كما كانت في أول الأمر وجلس عليها ،
وكانت قد تكسرت فأصلحوها وجعل لها غشاء من
الجوخ الأصفر وصار يجلس عليها للمحاكمات كما
كان يجلس الأشرف قايتباى ، وقد قلت في المعنى :

قد عادت الدكة للحكم

وانهدمت مسطبة الظلم

وصار طومان باى بين الورى

يمشى به الذيب مع الغنم ،

فيأله من ملك عدله

قد شاع بين العرب والعجم

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، جلس السلطان
على الدكة وعرض العسكر بالحوش ، وكتب منهم
نحو ألفى مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين الذين
كانوا بمصر نحو ستة مقدمين . وعين الأمير جان
بردى الغزالي باشا على العسكر ، وقد ترشح أمره
بأن يلى نيابة الشام .

وفيه قبض السلطان على المهتار محمد الفجولى ،
وعلى أخيه على مهتار الطشطجاناه بخدمة السلطان
الغورى ، وفبض على جمال الدين الألواحى بواب
الدهيشة ، وهذا كان أول حكم للسلطان طومان
باى . وسبب ذلك أن السلطان لما تسلطن عرض
الخزائن فوجدها فارغة ليس فيها درهم ولا دينار .
وكان محمد المهتار وجمال الدين البواب من حين
تولى الأمير خاير بك الخازندار جعلهما السلطان
الغورى متحدتين في أمور الخزائن الشريفة ،
فصارا يتصرفان فيها كيف يختاران ، فطاشا وركبا
في غير سرجيها ، وما كانا يظنان أن السلطان
الغورى يموت في هذا الزمان . فكان ذلك من
أكبر أسباب الفساد في حقهما كما يقال في المعنى :

أمور تضحك السفهاء منها

ويبكي من عواقبها اللبيب

وفي يوم الخميس عشرى شهر رمضان ، عمل
السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وجلس على
الدكة بالحوش ، وخلع على من يذكر من الأمراء ،
وهم المقر السيفى سودون التهابى الدوادار ، وقرره
أتابكى العساكر عوضا عن سودون العجمى بحكم
قتله في واقعة ابن عثمان . وخلع على المقر السيفى
جان بردى الغزالي ، وقرره في نيابة الشام عوضا
عن سيابى بن بخت خيجا بحكم قتله في واقعة ابن
عثمان . وخلع على المقر السيفى أركماس بن
طراباى ، وقرره في امرية سلاح على عادته . وخلع
على المقر السيفى بخشبباى بن عبد الكريم وقرره
أمير مجلس عوضا عن أركماس بحكم ولايته في
امرية سلاح . وخلع على المقر السيفى أنص باى
ابن مصطفى وقرره أمير آخور كبير عوضا عن نجل
المقام الشريف الغورى بحكم انفصاله عنها . وخلع
على تمر الحسنى وقرره رأس نوبة النوب عوضا

عن سودون الدوادارى بحكم انتقاله الى الأتابكية .
وحاج على منطباى العالائى نائب القسعه وفرره
حاجب الحجاب عوضا عن أنص باى بحكم انتقاله
الى امریه آخور الكبرى . وخلع على الأمير علان
ابن فراجا وفرره أمير دوادار كبير عوضا عن المقام
الشریف بحكم انتقاله الى السلطنة . وخلع على
الأمير أبرك الأشرفى وفرره وزيرا واستادارا
وكاشف الكساف عوضا عن المقام الشریف . وخلع
على كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين وقرره
دوادارا تانيا مقدم ألف كما كان علان . وخلع على
مامای دوادار قانى باى قرا أمير آخور كبير كان ،
وقرره أمير آخور تانيا عوضا عن أقبای الطویل
بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان . وخلع على شخص
من الأتراك يقال له تنم السیفى مغلبای الساقى ،
وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن خدا بردى
الأشرفى ، بحكم أنه بقى مقدم ألف . وخلع على
شخص يقال له بحشباى الذى كان كاشف البهسنا
وفرره فى نيابة صفد . وخلع على شخص آخر من
الأتراك وقرره فى نيابة طرابلس . وخلع على شخص
يقال له تانى بك الأشرفى وقرره فى نيابة القلعة عوضا
عن طقطباى بحكم انتقاله الى الحجوية الكبرى .
وخلع على أقطوه وقرره كاشف الشرقية ثم أبطل
ذلك فيما بعد . وخلع على الأمير بشبك الفقيه
وقرره خازندارا كبيرا عوضا عن خاير بك الذى
توفى . وخلع على جتتم وقرره خازندارا ثانيا .
وخلع على مامای الصغیر وأقره فى الحسبة على
حاله . وخلع فى ذلك اليوم على جماعة كثيرة
وقرره فى وظائف معلومة .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين ، فخلع على
القضاى محمود كاتب السر ابن أجا وأقره على
حاله . وأقر الشهابى أحمد ناظر الخاص ابن يوسف
متحدثا فى نظارة الجيش عوضا عن القسروى بحكم

قتله هناك . وخلع على سائر المباشرين من أرباب
الوظائف باستمرارهم على وظائفهم . وخلع على
نقيب الجيش ، وأزدر المهندار ، والمساس والى
الشرطة ، وسنبل مقدم المماليك ، باستمرارهم على
عاداتهم .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرية خلع السلطان على
شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر باستمراره على
عاداته . وقد حصل من أولاد أحمد بن بقر فى هذه
السنة من الفساد ما لا يحصل من بلاد الفرنج ،
من قتل النفوس ونهب الأموال ، ولا سيما ما فعله
ابن الجذامى بالعسكر لما رجع وهو مكسور ، وما
فعله أولاد عبد الدائم بالشرفية من نهب الأموال
وقتل النفوس ، ولم تنتلح فيها شاتان . وخلع عليه
وراحت على من راح .

وفى يوم الخميس سابع عشرية ، خلع السلطان
على مصرباى الأقرع أحد أمراء الطبليخانات وقرره
فى الحجوية الثانية عوضا عن طومان باى قرا بحكم
قتله فى واقعة عثمان . وخلع على تسرباى العادلى
وقرره تاجر المماليك عوضا عن نوروز بحكم
وفاته . وخلع على شادبك وفرره شاد الشرايخانة
عوضا عن يوسف الناصرى بحكم انتقاله الى
النقمة . وخلع على على بك وقرره على نظر
الجوالى عوضا عن القسروى . وخلع على فخر
الدين بن سوز واستنفر به ثالث فلم فى كتابة
المماليك عوضا عن جلال الدين بحكم وفاته .
وخلع على حاجب الحجاب بدمشق باستمراره
على عاداته .

وفى أواخر هذا الشهر قرىء عهد السلطان
بحضرة أمير المؤمنين يعقوب وقاضى القضاة
الحنفى ، وجماعة من النواب ، وحضرت جماعة من
المقدمين على العادة . ثم ان السلطان أنعم على
أمير المؤمنين يعقوب لما بايعه بالسلطنة بحصة

ونصف وثلث في منشية دهشور ، فأنعم عليه في ذلك اليوم بما ذكرناه .

وفي يوم السبت تاسع عشره طلع ناظر الخاص بخلع العيد وعرضها على السلطان وهي مزفوفة على رءوس الحمالين .

وفي يوم الأحد سلخ هذا الشهر حضر الناصري محمد ابن بلباي المؤيدي حاجب ميسره بدمشق وأخير بأن سليم شاه بن عثمان فد ملك مدينه دمشق وملك قلعتها ، وقتل على باي الأشرقي نائب القلعة ، وقتل ستة وثلاثين أميرا من أمراء دمشق غير من وجده من الرعية بالشام .

وحضر ابن بلباي هذا وهو في زى العرب ببشب وزنط على رأسه . فلما أشيعت الأخبار في القاهرة بأن ابن عثمان ملك الشام صارت الناس في أمر مريب بسبب ذلك ، وقالوا ما بقى بعد أخذ الشام الا مصر ، وجزموا بهذا الأمر . وعول بعض الناس على الهروب الى جهة الصعيد ... فتنكد السلطان والأمراء والناس قاطبة لهذا الخبر ، ولا سيما أنها ليلة عيد الفطر ، والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان وكسرة العسكر ، والأشلة قائمة بسبب من قتل من العسكر ، وقد قلت :

يا ابن عثمان كف عن أخذ مصر

بلد شرفت بخير امام

حبرنا الشافعي قطب ولى

نجل ادريس عمدة الاسلام

هى تدعى كنانة من غزاها

قسم الله ظهره بالحسام

وفي شوال ، وكان مستهله يوم الاثنين ، صلى السلطان صلاة العيد ، وخلع على الأمراء ومن له

عادة . فخطب بالسلطان في ذلك اليوم الشرقي بحبي ابن البرديني ، وكان موكب العيد حفلا .

وفي يوم الجمعة خامسه ، الموافق لاربع هاتور القبطي ، قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وقد عجل بلبس الصوف .

وفيه توفي الأمير جانم الابراهيمي أحد الأمراء الطليحانات .

وفي يوم السبت سادسه طلع الى السلطان شخص يقال له على الشعباني نقيب المحتسب ، وشخص آخر يقال له ابن خبيز السمسار في الغلال ، فلما وقفا بين يدي السلطان تكلما معه بأن يجعل على الحسبة مالا معيناً ، وعلى الغلال أيضاً ، ولا يحصل من ذلك ضرر للمسلمين ... فلم يلتفت السلطان الى كلامهما وضرب على الشعباني بالمقارع وابن خبيز ، وأشهر الشعباني في القاهرة وهو ماش مكشوف الرأس ، وفد صرب بالمقارع ونودى عليه : هذا جزاء من يتعاون في انشاء المظالم في الدولة العادلة بعد ما بطلت ، وأمر السلطان بعزل الشعباني من التحدث في أمر الحسبة ، فأقام الشعباني بعد ذلك أياما يسيرة ، وأشيع موته من الضرب الذي حصل له كما تقدم .

وفي يوم الاثنين نامنه ، حضر دوا دار نائب غزة المسمى بعلی بك الأحديب ، وأخير بأن ابن عثمان من حين دخل الشام تلاشى أمره ووقع الوخم في عسكره ، فصار يموت منهم في كل يوم جماعة ، وعز عندهم وجود الأقوات من الغلال والعلف . وقد ضيقت عليه العربان ومنعوا عنه ما يجلب من الشعير والقمح والتين ، وكل من خرج من عسكره الى الضياع قتله العرب ، وقد تجون بدخوله فما بقى يمكنه الخروج منها ، وسارت خيول عسكره سائبة تأكل من ورق الأشجار وهي في غاية الحصر .

وفيه حضر خدابردى نائب الاسكندرية وخرج اليها نهم الذى قرر بها ، وحضر الأمير خاربك المعمارى الذى كان توجه الى ثعر رشيد بسبب عمارة السور والأبراج التى هناك كما تقدم .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له ملباى المشرف وقرره فى استدارية الصحبة عوضا عن قانصوه الأشرفى بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه كانت كائنة الزينى بركات ابن موسى مع الشيخ أبى السعود وسبب ذلك أن شخصا مدابعا يبيع الجلود ، يقال له الدمراوى — مكاسا على بيع الجلود — فجار عليه ابن موسى ، فوقع بينه وبين ابن موسى حظ نفس ، فقصد ابن موسى أن يقبض عليه فتوجه الدمراوى الى الشيخ أبى السعود واحتتمى به ، فأرسل الشيخ أبو السعود رسالة الى ابن موسى بسبب ذلك ، وقد شنع فيها ، فتوقف ابن موسى فى أمره ولم يلتفت الى رسالة الشيخ وطاوله فى أمر الدمراوى . فأرسل الشيخ لابن موسى فأحضره ، فما حضر عنده فى كوم الجارح وبخه الشيخ بالكلام ، وقال له : « ناكلب كم تظلم المسلمين » . فحنق منه ابن موسى وقام من عنده على غير رضا ، فأمر الشيخ بكشف رأس ابن موسى وضربه بالنعال . فصفعوه بالنعال على رأسه حتى كاد أن يهلك ، ثم وضعه فى مكان وأرسل خلف الأمير علان الدوادار الكبير ... فلما حضر قال له ضعه فى الحديد ، واطلع وشاور السلطان عليه وأعلمه بأنه يؤذى المسلمين .

فلما طلع الأمير علان وشاوره فى أمر ابن موسى وما جرى له مع الشيخ أبى السعود ، أرسل السلطان يقول للشيخ أبى السعود : مهما اقتضاه

رأيك فيه فافعله فلما ورد الجواب على الشيخ بذلك أمر باشهار ابن موسى فى القاهرة ثم يشنفونه على باب زويلة . فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التى فى كوم الجارح وهو ماش مكشوف الرأس بكبر طاق وهو فى الحديد نادى عليه : « هذا جزاء من يؤذى المسلمين » . فتوجهوا من كوم الجارح الى ساحل مصر العتبة وهم ينادون عليه الى أن وصل الى بيت الأمير علان الدوادار الذى بالناصرية ... فأراد أن يوقع فيه بشنق أو تعريق . ثم عاودوا الشيخ فى أمره بأن عليه مالا للسلطان ومتى شنق ضاع على السلطان ماله ، فعفا الشيخ عنه من القتل ، واستمر ابن موسى عند الأمير علان وهو فى الحديد حتى يكون من أمره ما يكون . وكانت واقعة مهولة بين ابن موسى والشيخ أبى السعود ، وقد أشرف ابن موسى فى هذه الكائنة على الهلاك . وقد قلت فى هذه الواقعة :

تعجبوا مما جرى فى الوجود
بين ابن موسى كان وأبى السعود

تشاجر قد طال ما بينهما
واشتعلت نيرانه بالوفود

فصرح الشيخ بعزلانه
وأكد القول بألا يعود

ويغلب الله على أمره
ويرغم القاهرة أنف الحسود

ليت شعرى ذا الهبوط الذى
نال ابن موسى بعده من صعود

ولما جرى لابن موسى ما جرى ، ظهر غريمه شهاب الدين بن الصائغ ، وكان يسعى عليه فى أيام الغورى . فلما وقعت هذه الكائنة لابن موسى

اتتدب الى مرافقته ابن الصائغ وقال : أنا أثبت في
جهة ابن موسى للسلطان مائة ألف دينار .

ثم ان ابن الصائغ توجه الى بيت ابن موسى
وصحبته طواشيه وقواسه وجماعة كثيرة ، وكبس
على ساء ابن موسى . وقبض عليهن وبهت ما في
بيوتهن من قماش وأمتعة . وقبض على عبيده
وغلماناه وحاشيته .

فلما رأى السلطان ما قد حل به توقف عما كان
فيه من أذى ابن موسى ... ثم ان ابن موسى قال
أنا أثبت في جهة ابن الصائغ مائتي ألف دينار ،
وقال للأمير علان . أرسل خلف ابن الصائغ وضعه
في الحديد حتى يعمل حسابه . فلما حضر ابن
الصائغ وضعه الأمير علان في الحديد حتى يقيم
حسابه مع ابن موسى .

وأما ما كان من أمر التسبخ أبي السعود ، فانه
لما فعل يابن موسى ما فعل قامت عليه النائرة
والأشلة وأنكر عليه الناس والفراء ، وقالوا . ابش
للشيخ شعل في أمور السلطنة واستقلت الناس به
ولم يشكروه أحد على ما فعله يابن موسى .

وفي يوم الأحد رابع عشره طلعت الى القلعة
خوند بنت الأمير أفبردى الدوادار ، وهى روجة
السلطان ، وأما بنت حاص بك أخت خوند زوجه
الأشرف قايتباى فطلعت وفت صلاة الصبح
بالتفانيس والمشاعل . ومعها الجم الكثير من
الحوندات والستات وأعيان ساء الأمراء
والمباشرين . فاستمرت في موكبها حتى طلعت الى
القلعة ودخلت الى قاعة العواميد . فحمل الأمير
بشير الطواشى رأس نوبة الستارة على رأسها
القبه والطير ، حتى جلست على مربتها ، وكان لها
يوم مشهود بالقلعة .

وفي يوم الأحد عرض الأمير علان الدوادار ابن
موسى ، وابن الصائغ ، وكان قرر على ابن موسى
عشرين ألف دينار ، وأن يورد منها على الجامكية
عشرة آلاف دينار ، فلم يورد منها شيئاً فبطحه
على الأرض . وضربه نحو عشرين عصا ، فوعد أنه
يورد ذلك القدر .

ثم طلب أحمد بن الصائغ وضربه فوق أربعمائة
عصا حتى كاد أن يهلك ، وأشيع بين الناس موته .
وفي يوم الخميس ثامن عشره لم يخرج المحمل
من القاهرة ولم يحج أحد من الناس قاطبة بسبب
فتنة ابن عثمان ، وأشيع أنه يرسل جماعة من
عسكره الى مكة المشرفة وصحبتهم كسوة
الى الكعبة ، فلم يثبت ذلك .

ثم ان السلطان أرسل الطواشى مرهف من البحر
المالح وصحبته كسوة الكعبة المشرفة والصرر لأهل
مكة المشرفة والمدينة . فتوجه الى الطور ونزل
من هناك الى البحر .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن الشيخ
أبا السعود أرسل خلف ابن موسى وفكه من الحديد
وأظهر أنه قد رضى عليه ، وصار يتصرف في أمور
المملكة من عزل وولاية ، فأنكر عليه الناس ذلك .

وفي يوم السبت عشريه طلع الزينى بركات بن
موسى الى السلطان على أنه يعيده الى وظائفه فلم
يلتفت اليه ، ونزل من عنده بعير طائل وهو في
التوكيل به حتى يعلق ما قرر عليه من المال ، فتوجه
الى بيته وهو في غاية الذل بعد ما زينت له حارته
في سويقة اللبن ، وتخلقت جماعته بالزعفران فنزل
عليهم خدمة بسبب ذلك .

وفي يوم الأحد حادى عشره ، خلع السلطان
على شرف الدين بن عوض وقرره في استدارية

الذخيرة عوضا عن ابن موسى بحكم انفصاله عنها

وفي يوم الاثنين ثاني عشره نادى السلطان للعسكر بأن يوم الثلاثاء أول النفقة .

وفيه وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التي كان أرسلها السلطان الغوري قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك ، وأنه قد وقع بين الرئيس سليمان العثماني وبين الأمير حسين نائب جدة ، وأن كلا منهما توجه الى جهة من جهات الهند .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له قجماس — وكان شادا في بنها العسل — وقرره في كشوفية الشرقية ، وأبطل من كان قرر بها .

وفيه أنفق السلطان على العسكر المعينين للتجريدة ، فأعطى لكل مملوك خمسين دينار ، فردوها عليه وقالوا « بق ، بق » ، وخرجوا من باب الحوش على حمية ، وقصدوا أن ينشئوا فتنة ، فأشار بعض الأمراء على السلطان بأن يرضيهم ، وأن ينفق عليهم كل واحد مائة دينار على جاري العادة . فاسترد من خرج من العسكر على غير رضا ، ثم لما ردوا أنفق لكل مملوك مائة دينار وجامكية ثلاثة شهور عبارة عن مائة وعشرين دينارا لكل مملوك . فأنفق في ذلك اليوم على أربع طباق ، وأشيع أن هذا العسكر لما يخرج يقيم في غزة هو والأمراء ويحرسون المدينة الى أن تخرج التجريدة الكبيرة بعد الربيع .

وفيه أرسل السلطان بالقبض على جماعة من الأروام الذين كانوا في خان الخليلي ، وقد بلغه عنهم أنهم يكاتبون ابن عثمان بما يقع في مصر من أمور المملكة ، وعندهم جواسيس لابن عثمان ، فأرسل بالقبض عليهم ووضعهم في الحديد .

وفيه أشيع أن السلطان طلب ابن عثمان الصبي الصغير الذي يقال له قاسم بن أحمد بك ابن عثمان الذي توجه مع السلطان الغوري الى التجريدة ، فلما انكسر العسكر رجع مع الأمراء الى مصر ، فبلغ السلطان أن جماعة يقصدون قتله ، فحاف عليه السلطان من القتل ... فطلع به الى القلعة وأسكنه في مكان بالبحر ورتب له ما يكفيه في كل يوم هو وجماعته .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الشرفي يحيى ابن الأتابكي أزبك بن ططخ ، وكان مضيما بحماه ، فلما ملكها ابن عثمان فر منها وجاء الى مصر من البحر المالح من جهة طرابلس .

وفيه خلع السلطان على الأمير طقطبای حاجب الحجاب ، وجعله متحدثا في كشوفية البحيرة عوضا عن يوسف البدرى مضافا لما بيده من الحجوية الكبرى .

وفي يوم الجمعة سادس عشره حضر الى الأبواب الشريفة القاضي عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابي أحمد بن الجيعان ، وكان في الأسر عند ابن عثمان بالشام ، ففر منه وحضر الى مصر وهو في زى جمال وعليه بشت وعلى رأسه زنط . وحضر صحبته شخص يقال له أحمد الدمياطي وهو تاجر في الوراقين ، وأخبر السلطان بأن ابن عثمان قد تلاشى أمره ، وأن عساكره مختلفون ؟ وأن ناصر الدين ابن الحنش ضيق عليه الطرقات . وصارت العربان تقتل كل من انفرد من عسكره في الضياع ، وأخبر أنه ملك مدينة الشام وقلعتها ، وملك قلعة طرابلس وصفد وأعمالها ، وصار بيده من الشام الى الفرات ، وأناب في هذه المدن التي ملكها جماعة من أمرائه كما فعل في حلب وحماه وحمص وغير ذلك من البلاد . وقيل ان ابن

الحشش أرسل الى السلطان مطالعة سستحثه في ارسال تجريدة بسرعة قبل أن يزحف ابن عثمان الى غزة . ثم ان السلطان خلع على القاضي عبد الكريم ونزل الى بيته .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره خلع السلطان على ابن خليفه سيدى أحمد البدوى الذى قتله ابن عثمان في حلب وفرره عوضا عن آيه بحكم قتله ، فنزل من القلعة في موكب حافل وعلى رأسه الأعلام وفداه سائر الفقراء الأحمديّة .

وفي ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وخلع في ذلك اليوم على الشرقى يحيى بن البردينى وفرره في قضاء الشافعية عوضا عن قاصى القضاة كمال الدين الطويل بحكم أسره عند ابن عثمان . وخلع على قاصى القضاة الحنفية حسام الدين محمود ابن التبحنه وأفره في قضاء الحنفية على عادته وخلع على الشيخ سسس الدين التتاي وفرره في قضاء المالكية عوضا عن القاضي محيى الدين الدميرى بحكم أسره عند ابن عثمان وخلع على قاصى القضاة عز الدين الششيشى وأعادته الى قضاء الحنابلة عوضا عن شهاب الدين الفتوحى بحكم أسره عند ابن عثمان ... وهذه ثانية ولايه وفعت لعز الدين بن الششيشى . فلما خلع السلطان على القضاة الأربعة في يوم واحد ونزلوا من القلعه وعليهم التشارييف رجت لهم القاهرة في ذلك اليوم ، واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة . وقد تولى هؤلاء القضاة والقاهرة في غاية الاضطراب بسبب ابن عثمان .

وفي ذلك اليوم أكمل السلطان النفقة على العساكر المعينة للتجريدة ، وأخذوا في أسباب عمل البرق والخروج الى غزة ... قيل ان السلطان أنفق

على نحو ألفى مملوك ، وهم المعينون للسفر . وفي يوم الجمعة رابعه طلع ملك الامراء جان بردى العزالى نائب الشام الى القلعة فصى مع السلطان صلاة الجمعة ، ثم خلع عليه السلطان وجعله باشا على العسكر المعينين للتجريدة . فلما نزل من القلعة توجه الى وطاقه الذى بالريداية وخرج من غير طلب ، بل قدماه بعض جنائب حيول بعرافى وطبول بازات ، وقدماه عبيد نفطية ، فتوجه الى الريداية في ذلك اليوم قبل خروج الأمراء والعسكر .

وفي يوم السبت خامسه نادى السلطان للعساكر المعينة للتجريدة بأن يخرجوا صحبه الباشا في ذلك اليوم ، ومن لا يخرج يستاهل ما يحترى عليه فوقف له جماعة من المماليك المعينة وقالوا لا يخرج ولا سافر حنى تنفق علينا تمن جمل ستة أشرفية ، وتصرف لنا العليق ، وثن اللحم المنكسر . فحصل في ذلك اليوم بعض اضطراب ، وخرج المجلس مانعا ، والعسكر غير راض ، والأحوال غير صالحة ، وابن عثمان زاحف الى غزة ، ونائب غزة أرسل يقول : أدركونا بالعسكر قبل أن يملك ابن عثمان مدينة غزة ، وتتعبوا في خلاص البلاد من يده

وفي يوم الأحد سادسه خرج شحص من الأمراء المقدمى الألوف المعينين للسفر ، وصار في كل يوم يخرج منهم الى الوطاق جماعة شسبنا فشينا ، والباشا جان بردى مقيم بالريداية حتى يكمل خروج العسكر .

وفي يوم الاثنين سابعه أنفق السلطان على العسكر المعين للسفر ثمن اللحم عن ثلاثة أشهر ، فحصل كل مملوك نحو أربعة أشرفية ونصف توسعة عليهم ليستعينوا بذلك .

وفي ذلك اليوم حضر شخصان من المماليك السلطانية وكانا في بعض الضياع عند العرب .

فدخلوا مصر في هيئة الغلمان بأبشاث وعليهما
زفوط ، فأخبرا بأن ابن عثمان قد ثلاثى أمره وأن
عسكره مختلف عليه ، وقد وقع بينه وبين خاير بك
نائب حلب ، وربما أشاعوا قتله . ولم يكن لهذا
الخبر صحة في أمر ابن عثمان ولم تثبت صحة هذه
الأخبار .

وفي يوم الأربعاء تاسعه حضر دوا دار خاير بك
نائب حلب ، وزعم أنه قد فر من ابن عثمان ، وأخبر
أن ابن عثمان أرسل عسكرا نحو خمسة آلاف
فارس صحبة ابن سوار وقد أشرفوا على أخذ
غزة ، بل أشاعوا أخذها ، وأن نائب غزة قد
هرب . فاضطربت الأحوال لهذه الأخبار ، وتنكد
السلطان الى الغاية ، ونادى في ذلك اليوم بالخروج
من غير تأخير ، ومن تأخر يستاهل ما يجرى عليه .
فلما كان في ذلك اليوم خرجت العسكر على
وجوههم مسرعين ، وأشيع سفر السلطان بنفسه
وصحبته الأمراء قاطبة ، وأنه هو الذي يلاقى ابن
عثمان بنفسه وصحبته نائب حلب أمير كبير ، وهو
في الحديد ، وجماعة من أجناد الحلقة بغزة ، وهم في
الحديد ، وأرسل نائب غزة يرافع فيهم بأنهم كاتبوا
ابن عثمان بأن يحضر الى غزة ويملكها من غير
مانع .

فلما حضروا بين يدي السلطان حلفوا له أن هذا
الأمر ما وقع منهم ولا كاتبوا ابن عثمان ، وإنما
دولات باي نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ
نفس ، فكذب عليهم بهذه التهمة الباطلة ، فصددفهم
السلطان على ذلك . وأرسل جان بردى الغزالي
نائب الشام يشفع فيهم ويبرئهم مما قالوه في حقهم
بالباطل ، ففكهم السلطان من الحديد ، وأرسلهم
الى نقيب الجيش حتى يتبصر في أمرهم .

وفي يوم الخميس خلع السلطان على الأمير
يوسف البدرى الذى كان وزير وقرره ناظر

الذخيرة الشريفة ، ووكيل بيت المال عوضا عن
الزنى بركات بن موسى .

وفي يوم الجمعة حادى عشره تزايد أمر الاشاعات
بأن ابن عثمان أرسل الى غزة عسكرا صحبه جماعة
من أمرائه ، منهم شخص يسمى اسلندر باشا ،
والآخر يسمى داود باشا ، وآخرون من أمرائه .
وأشيع أنهم قد ملكوا مدينة غزة ، وأحرقوا منها
بعض بيوت . وأن نائب غزة هرب وعسكر
ابن عثمان زاحف على مصر ، وأن الاحوال غير
صالحة

فلما تحقق السلطان هذه الأخبار ، أشيع أنه
يخرج الى لقاء ابن عثمان بنفسه . ونادى في ذلك
اليوم بأن الزعر والصبيان الشطار والمعاربة وكل
من كان مخفيا على قتل قتل أو غلبه دم يظهر
وعليه امان الله ، والعرس بهم في الميدان ، وأن
السلطان بصرف بهم الجوامث وامرئوب وكونون
صحبة الزردخانات اذا سافر السلطان . فلم تعجب
الناس هذه المناداة لقوله ولو ذبوا قتلوا القتل
بظهور وعلمهم امان الله -- وكان السدوت عن هذا
أجمل -- فاضطربت الأحوال في ذلك اليوم ،
وارتجت القاهرة ، وخرج العسكر المعين للسفر
على وجوههم مسرعين .

وفي ذلك اليوم خرج الأمير خدا بردى الأشرفي
أحد المقدمين الذى كان نائب الاسكندرية ، فخرج
في موكب حفل بعير طلب ، وفسداهم الجنائب
الحربية ، وصحبته الجهم الكثير من العسكر من
ماليكه . وقيل كان عنده ثلثمائة مملوك ...
فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ،
والنصرة للعسكر على ابن عثمان . وقد صارت
الناس في وجل بسبب ابن عثمان .

وفي يوم السبت ثانى عشره جلس السلطان على

الدكة بالحوش ، وحضر الأمراء فاستحثهم السلطان على أن يخرجوا كلهم في ذلك اليوم فقال الأمير طقطبای حاجب الحجاب : أنا عزمت على السفر الى البحيرة ... وكان السلطان قد جمعه متحدثا في كشوفية البحيرة . فقالت الأمراء : الخروج الى قتال ابن عثمان أوجب من الخروج الى البحيرة ، وأنت ما خرجت سحبة السلطان العورى لما سافر ، ولا نهب لك برك ولا قماش . فتعلل أنه ضعيف ، فحصل بينه وبين الأمراء في ذلك اليوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان ، وفصد الممالك الجلبان أن ينزلوا فينهبوا بيته ويحرقوه ... وقبل أن بعض الممالك اكمه وقاسى من البهدة ما لا خير فيه ، فتقرر الحال على أنه يخرج الى التجريدة صحبة الأمراء ، ومنع السلطان الممالك من نهب بيته . وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض قاطبة .

وفي ذلك اليوم خرج الأمير نائب حماء الذى قرر عوصا عن جان بردى الغالى فحصر بطلب حربى .

وفي ذلك اليوم خرج الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين وطلب طلبا حربيا ، وكان قدماه جنائب وطبلان وعلى رأسه صنجق ، وصارت الأمراء تخرج شيئا بعد شيء الى قتال ابن عثمان .

وفي يوم الأحد ثالث عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر الذين كانوا مسافرين الى التجريدة ، فكتبهم الى السفر ثانيا ولم يترك منهم الا القليل . فعرض في ذلك اليوم أربع طباق وكتب غالب من فيها من الممالك .

وفي ذلك اليوم عرض السلطان عجلة من خشب تجرها أبقار ، وفيها رماة بالبندق الرصاص ... وكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك . وعرض

جمالا وفوقها مكاحل ورماة يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال . وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب . فقوى قلب العسكر في ذلك اليوم على القتال ، وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه الى قتال ابن عثمان ، واستحث بقية الأمراء على الخروج بسرعة ولم ينفق على الأمراء شيئا ، وقال لهم : اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فان بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار ، وأنا واحد منكم ، ان خرجتم خرجت معكم ، وان قعدتم قعدت معكم ، وما عندي نفقة أنفقها عليكم .

وفي يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالحوش وعرض من العسكر أربع طباق .

وفي ذلك اليوم أشيع أن السلطان تغير خاطره على الزينى بركات بن موسى وأعادته الى الترسيم بعد ما كان نرشح أمره الى اعادته في وظائفه . وكان سبب ذلك أن السلطان لما حصل لابن موسى ما حصل قرر عليه مالا فلم يورد منه الا القليل ، وادعى العجز . فلما جاء على السلطان أمر نفقة العسكر وخروجهم بسرعة ، ضيق على أصحاب المصادرات ، منهم : ابن موسى ، ومحمد المهتار ، وجمال الدين بواب الدهيشة ، وآخرون ممن بقيت عليهم بوافى الأموال المنكسرة لبستعين بذلك على نفقة العسكر ... ومن حين قرر يوسف البدرى في وظائف ابن موسى آل أمره الى العكس والزوال .

وفيه خرج الأمير قانصوه الفاجر أحد المقدمين وتوجه الى السفر .

وفي يوم الاثنين المتقدم ذكره خرج الأمير طقطبای حاجب الحجاب وتوجه الى السفر ، فطلب طلبا وقدامه طبلان وزمران وبعض جنائب ، كما خرج أرزمك الناشف .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره جلس السلطان بالميدان وعرض بقبة العسكر ثم نادى في ذلك اليوم بأن الأمراء وبقية العسكر يخرجون في هذا اليوم ومن تأخر لا يسأل عما يجرى عليه . وقد خرج هذا العسكر في قلب الشتاء في وسط الأريمانية وقاسى غابه المسفة .

وفي هذا اليوم خرج الأمير تاني بك النجسى أحد الأمراء المقدمين بطلب حربى .

وفي يوم الخميس سابع عشره خرج الأمير الماس والى القاهرة وبرز الى السفر في ذلك اليوم .

وفيه قبض على شخص أعجمى كان يصنع السنبوسك عند قناطر السباع ، فوجدوه قد سجد الى كلب أسود سدين فذبحه وسلحه وعمل منه السنبوسك ، فلما قبضوا عليه أحضروه بين يدى الأمير مامى المحاسب ، ف ضرب العجمى بامفارخ وأشهره في القاهرة والكلب معلق في رقبته ، فطافوا به في المدينة ثم سجنوه في المعتبر ولم تزل الاعجام تقع منهم هذه المعله التسيعة من قبل .

وفي يوم الاثنين حادى عشره وقع فيه من الحوادث ان بعض المماليك السلطانية خرجوا بسيرون نحو المطرية ، فرأوا جماعة مصلين من نحو يركه الحاج ، فلما قربوا منهم قادا بهم من جماعه ابن عثمان ، فقالوا لهم من أنتم ؟ قالوا نحن قصاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وكانوا نحو حسنة عشر انسانا ، وفيهم القاصد الكبير ، وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخملة . ورأوا صحبتهم شخصا من مصر يقال له عبد البر ابن محاسن ، كان كاتب الخزانة عند الأتابكى سودود العجمى ، فلما قتل وملاك ابن عثمان حلب والشام ، تحشر فيه بواسطة يونس العادلى والسرقندى ، فلما أرسل ابن

عثمان هذا القاصد ما جسروا يجيئون من جهة عزه ، فان نائب الشام جان بردى العزالى كان بالقرب من عزه يحاصر جماعة ابن عثمان الدين بعزة ، فبرطل القاصد بعض العربان بمال له صورة حتى أتوا بهم من طريق الدرب السلطاني وطلعوا بهم من التيه وأتوا بهم الى عجرود فلما صادفهم هؤلاء المماليك قبضوا على القاصد الكبير وعلى جماعته وعلى محاسن ، ووجدوا معهم ثلاثة من العربان ، فقبضوا على الجميع فبينما هم على ذلك اد رأوا ثلاثة أنصار من الأروام الدين في خان الحليلى فد أتوا اليهم وسلموا عليهم ، وبأسوا أيديهم ، فقبض عليهم هؤلاء المماليك وقالوا لهم . « من اين علمتم ان هذا القاصد بجىء اليوم حتى أتيتم اليه ؟ ما أنتم الا جواسيس من عند ابن عثمان » . فقبضوا عليهم بعد ما أنسجعوهم ضربا ، وأتوا بالكل الى بيت الأمير علان الدوادار الكبير .

فلما دخل القاصد بيت الأمير علان ، قالوا له انزل عن فرسك وسلم على الأمير الدوادار ، فلم يوافق على ذلك ، وأغلظ عليهم في القول . ثم سل سيفه وهاش على من حوله من جماعة الدوادار .

فلما رأى الدوادار الكبير ذلك ، رسم للمماليك أن ينزلوه عن فرسه عسبا ، فأنزلوه وأخذوا سيفه منه ، ثم بهدلوه ومن معه من العثمانية ، وضربوهم ومسكوهم وعروهم من نياهم ، ووضعوهم في الحديد بعد ما فاسوا غاية البهدة من جماعة الدوادار .

فلما بلغ السلطان ذلك رسم الأمير مغلباى دوادار سكين — الذى كان أرسله السلطان العورى الى ابن عثمان وحصل منه في حقه غاية البهدة — فقال

له السلطان « انزل وبهاتل فاسد ابن عثمان كما بهدلوك » . فأخذ خشمداشيينه ووجهه بهم الى بيت الأمير علان على أنهم يوفعون في جماعة ابن عثمان فعلا من أنواع البهذلة . أو يقتلونها ، فما مكنهم الأمير علان من ذلك .

...
صحبتهم ، فلما مثل بين يدي السلطان شرع بطس في أوصاف ابن عثمان وفي تزايد عنفنته . فمن جملة ما حكى عنه أنه لما دخل الى حلب قطع في يوم واحد ثمانمائة رأس من جماعة اهل مصر من جملة حليفه سيدي أحمد المدوني وأحرار من الأعيان ممن تحالفوا بحلب . وأخبر أن عسكر ابن عثمان قد في السنين ألف انسان ، وأنه خطب باسمه من بغداد الى الشام ، وأن معاملته ماتيية من بغداد الى الشام ، وأنه لما دخل الى الشام وملئها شرع في عبارة سمور وأبراج من القبابون الى آخر مدينة دمشق . ويجعل في ذلك السور أبوابا نعلق على المادسة ، وهو في هذه زائدة ، ويقول ما أرجع حتى أمات مصر . وأهل جميع من بها من الممالكات الجيران أخبر أن ابن عثمان يجتنب عن عسكره أن يدا لا يظهر دينا ، فهي هذه المدة يقتل عسكره حاكم على المدسة ويستخرجون بالمعاصي والفسوق لا يقومون تسهر رمسان ، وشربون هذه التيسر والبسورة . ويسعمون هذه التيسر والسيسر ، ويعملون الفاحشه في الصبيان المردي شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلي صلاة الجمعة الا طملا وقد أشيعت عن ابن عثمان عمدة الاخبار المتنبعة من غير ابن محاسن ومن اشياء هذا من افعال عسكره بحلب والشام .

فلما أظن ابن محاسن في أخبار ابن عثمان ، حنق منه السلطان ، وقال له : « أنت جاسوس

من عند ابن عثمان أتيت لتكشف أخبارنا وتطالعه بذلك » . فرسم بسجنه في البرج الذي بالناعية ، فسجن به أياما حتى طلع الأتابكي سودون الدواداري وشفع فيه حتى أطلقه من البرج ، وقد قطع قلب العسكر بما حكاه عن ابن عثمان .

ثم ان السلطان رسم بشنق اثنين من العربان الذين أنوا بالقاصد من هذه الطريق التي كانت يحفه عليهم . وأشيع أنه حضر صحبة القاصد من جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفرا ، فاختفوا في القاهرة . فلما بلغ السلطان ذلك نادى في خان الحليلي « بأن لا أحد يأوي عنده عريبا من جماعة ابن عثمان ، ومن عمر عليه بأن عنده أحد من العثمانية شنق من غير معاودة » .

ثم ان السلطان أرسل أخذ المطالعات التي حضرت على يد القاصد ، ولم يقابله . فوجدوا معه عدة مطالعات للأمراء والمباشرين وأعيان الديار المصرية . فالدى أشيع من مطالعة السلطان أن غالب ألقاها تركيه ، وكان من مفسونها : من مقامه السعيد الى الأمير طومان باي ، أما بعد ، فان الله قد أوحى الى باني أملك البلاد شرقا وغربا كما ملكها الاسلندر ذو القرنين . ومن جملة المطالعة وعد ووعيد ، وتهديد وتشديد فس جملة ذلك « أنك مسلوك بباع ونشري ، ولا تصح لك ولايه ، وأنا ملك بن ملك الى عشرين جدا ، وقد بولين الملك بعهد من الخليفة والقصة » . وذكر في مطالعته أشياء كثيرة من هذا النمط . ثم ذكر في أثناء المطالعة « وان أردت أن تنجو من سطوه بأسنا فاضرب السكة في مصر بأسنا ، وكذلك الخطبة ، وتكون نائبنا بصر ، ولك من غزة الى مصر ، ولنا من الشام الى الفرات ، وان لم تدخل تحت طاعتنا ، أدخل الى مصر ، وأقتل جميع من بها من الجراكسة حتى أشق بطون الحوامل ، وأقبل الأجنة التي

في بطونهم من الجراكسة . وأظهر التعاضم وفوة البأس ، ولعل الله تعالى أن يخله بسبب هذا التعاضم الزائد . وفي آخر مطالعته : « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » . فلما قرئت هذه المطالعة على السلطان بكى وحصل له غاية الرعب . وكانت الممالك الجلبان اتفقوا على أنه إذا طلع القاصد الى القلعة ، يقطعونه بالسيوف ، فلم يطلع الى القلعة بسبب ذلك .

وفيه أشيع بين الناس ما في مطالعة ابن عثمان من هذه الدعاوى العريضة كما تقدم ذكره . ثم اضطربت أحوال الديار المصرية ، وأخذ كل أحد حذره من ابن عثمان ، وقالوا مثل ما طرقتنا قصاده على حين غفلة ، كذلك هو يطرقنا أيضا على حين غفلة . فشرع الناس في تحصين أماكن في أطراف المدينة وجوابها ليحتفوا فيها إذا دخل ابن عثمان الى مصر ، وبعض الناس عول على أن نزل هو وأولاده وعياله ويتوجه الى أعلى الصعيد إذا تحقق مجيء ابن عثمان .

وأشيع أن خاير بك نائب حلب ، الذي عصى ودخل تحت طاعة ابن عثمان ، أرسل مطالعات الى بعض الأمراء المقدمين ، وهو يرعبهم في الدحول تحت طاعة ابن عثمان ، وشرع يطنب في محاسنه وعدله بين الرعية ، وأنه إذا دخل مصر يبنى كل أحد من الأمراء على وظيفته وعلى رزقه . وكل هذا حيل وخداع ، حتى يتمكن من الدحول الى مصر .

ثم إن السلطان نادى للعسكر أن أول النفقة يوم الأربعاء ثالث عشر الشهر ، فجلس السلطان بالحوش على الدكة ، وطلع العسكر لقبض النفقة فلما طلعوا أنفق عليهم لكل مملوك ثلاثون دينارا وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين دينارا ، فرموا تلك

النفقة في وجهه ، وقالوا ما نسافر حتى نأخذ مائة دينار كل مملوك ، فاننا لم ببق عندنا لا خيول ولا قماش ولا برك ولا سلاح ، فنزلوا كلهم من القلعة على حمية ، وهم على غير رضا ، فحقن منهم السلطان وقام عن الدكة وطلع المقعد ، وقال « ما أقدر على مائة دينار لكل مملوك ، والخزائن فارغة من المال ، وإن لم ترضوا بذلك فويلوا عليكم من تختارونه في السلطنة ، وأنا أتوجه الى مكة أو غيرها من البلاد » فوقع في ذلك اليوم بعض اضطراب ، وأشيع أن بعض الممالك قال للسلطان « إن كنت تعمل سلطانا فامش على طريقة من تقدمك من الملوك ، وإن رحت لعنة الله عليك ، غيرك يجي يعمل سلطانا » . فسمع ذلك بأذنه منهم .

وأشيع أن السلطان قال للعسكر « أتم أخذتم من السلطان العورى ثلاثين دينارا ولم تقاقلوا شيئا ، وكسرتهم السلطان وحنتموه حتى قتل » . فنزل العسكر على غير رضا ... وأشيع اثاره فتنة بين العسكر .

ثم إنه في ذلك اليوم نادى السلطان بأن جميع الأمراء من الأكابر والأصغار يطلعون غدا باكر النهار ، فإن العرض عام . وانفض المجلس على ذلك .

فلما كان يوم الخميس رابع عشره ، جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وطلع الأمراء قاطبة والعسكر ، وطلع سيدي محمد ابن السلطان الغورى ، فقال السلطان : « هذا ابن أستاذكم قد حضر ، اسألوه إن كان أبوه ترك في الخزائن شيئا من المال يجبركم بذلك ، وإن كنتم تسلطونه فانا أول من يبوس له الأرض » . فقالت الممالك الجلبان : « نحن نسافر بلا نفقة حتى نأخذ بشار

أستاذنا » . وقالت المالك القرائصة « نحن ما نساfer حتى نأخذ مائة وثلاثين دنارا كما أعطى من مسافر قبلنا » . فانفض المجلس مانعا أيضا ... وكثر القال والقليل في ذلك اليوم .

وأشيع أن بعض الأمراء قال للسلطان : اعمل كما عمل الأشرف قايتباي والسلطان العورى ، وخذ من الأملاك والأوقاف والرزق والاقطاعات لتستعين بذلك على النفقة بسبب دفع العدو عن مصر . فلم يوافق السلطان على ذلك ، وقال : ما أحدث في أيامى مظلمة أبدا . فشكره الناس على ذلك ، ودعوا له . ولو فعل ذلك جاز وقالوا يعذر لأجل دفع العدو . وما ثم في الخزائن مال ولكن وفقه الله تعالى إلى فعل الخير ، وسطر أجر ذلك في صحيفته إلى يوم القيامة ، فكان كما قيل في المعنى :

للحير أهل لا تزا ل وجوهه تدعو إليه
طوبى لمن جرت الأمور ر الصالحات على يديه
وفي هذا اليوم أشيع أن السلطان أرسل بقول لأولاد الملك المؤيد . وأولاد الملك المصور ، وأولاد الأمراء الدين بمصر ، اعلموا برفكم وإخرجوا للسفر ، والذي لا يسافر منكم يقيم له بديلا عوضا عنه للسفر

وقيل وزع على جماعة من المباشرين والخدام من الطواشيء مالا له صورة مساعدة السلطان على النفقة . وشرع السلطان في بيع فاش وسلاح وتحف وذخائر وصوف وسمور وبعبلى وغير ذلك من الأصناف ، وأخذ من ابن السلطان العورى مالا له صورة مساعدة على النفقة

وفي ذلك اليوم أشيع أن السلطان أرسل بعض الخاصكية إلى الأتابكي فيت الرحى لنقله من ثغر الاسكندرية إلى ثغر دمياط ، وأرسل مراميم

شريفه إلى الظاهر فاصوه حتى يسر . . . أن يسكن في قاعة الملك المؤيد بالاسكندرية ، وأن يركب ويصلى صلاة الجمعة مع الناس في الجامع ، وأن يسير نحو البساتين التي بالاسكندرية .

وفي يوم الجمعة خامس عشره خرج الأمير خاير بك المعسار أحد الأمراء المقدمين والأمير أزيك المكحل ، فحرجا في ذلك اليوم إلى التجريدة وطلبا أطالبا حربية .

وفي يوم السبت سادس عشره طلع العسكر بسبب العرس . وهم بطلع في ذلك اليوم أحد من الأمراء المقدمين ، واحتجب السلطان في الدهيشة ولم يخرج إلى العسكر ، فنزلوا إلى بيوتهم من غير طائل .

وفي هذا اليوم ، نادى السلطان بأن لا أحد من الناس يتجاهر بالمعاصي ، ولا يهودى ولا نصرانى يبيع خمرا ، ومن شمر عليه بيع الخمر شق من غير معاودة ، وكذلك البوزة والحشيش . فلم يسمع له أحد ذلك ولم ينهوا عما هم فيه .

وفي ذى الحجة ، كان مستهل الشهر يوم الخميس ، طلع القضاة الذين بولوا جديدا في الشهر الماضى ، وهنوا السلطان بالتسهر ونزلوا إلى بيوتهم .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم السبت ثالث الشهر ، وقد اتفق مع العسكر على أنه بنفق لكل مملوك خمسين دنارا ، ويصرف ثمن اللحم المنكر خمسة أشهر ، والعليق المنكر ، فتراضوا .

وفيه أنعم السلطان بأمرية عشرة على جماعة من الخاصكية نحو عشر أنفس ، منهم شخص يقال

٢٠ حابر بب ابجهدار ، وهو من خيار مماليك
الأشرف قايتباي .

وفيه أشيع أن السلطان خرج عن ألف دينار
فرقها على الفقراء الذين في الزوايا وفي المزارات
التي بالقرافة وغيرها من المزارات ، وفرق عليهم
أيضا قمحا لكل زاوية خمسة أراذب . وقال لهم
ادعوا بالنصر للسلطان وهلاك العدو . وقرأ عدة
ختمات في المزارات ، منها عند الامام الشافعي
والامام الليث وغير ذلك من المزارات .

وفيه استحث السلطان أولاد السلاطين وأولاد
الأمراء والمباشرين والخدام فيما قرره عليهم من
المال بسبب النفقة ، وأشيع أنه أخذ من ابن
السلطان الغوري مالا له صورة . وقيل ان
السلطان الغوري كان قد خصص ولده قبل أن
يسافر الى البلاد الشامية بمائة ألف دينار ...
هكذا أشيع .

وفي يوم السبت ثالثه طلع العسكر الى القلعة
ليقبضوا النفقة كما نادى ، فورد على السلطان في
ذلك اليوم أخبار ردية بأن العسكر الدين
توجهوا الى عزة قد انكسروا في يوم الأحد
رابع عشرين دي القعدة .

ومن العجائب أن الواقعة الأولى التي انكر
فيها السلطان الغوري كانت في يوم الأحد خامس
عشرين رجب ، فكان التفاوت بينها وبين هذه
الواقعة يوما واحدا ، وهذا من العجائب . وهذه
الكسرة الثانية كانت يوم الأحد .

وكان من ملخص أخبار هذه الكسرة ، أن جان
بردي الغزالي — نائب الشام — خرج الى
التجريدة قبل العسكر بمدة أيام ، وصار الأمراء
والعسكر يخرجون بعده متفرقين بتكاسل زائد
فلما أبطأوا على الغزالي جمع بعض عربان وتقدم
الى غزة هو والأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين

الذي ولي نيابة حماه ، ودولات باي نائب غزة ،
وأصله من مماليك السلطان الغوري ، وجماعة من
المماليك السلطانية ، فقاطعوا على عسكر ابن عثمان
من طريق الدرب السلطاني ، فتلاقوا مع عسكر ابن
عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان .

وكان باش العسكر العثمانية سنان باشا ومعه
آخرون من أمرائه ومن العساكر العثمانية الجم
الكثير ، وكان جان بردي الغزالي ومن معه من
الأمراء في فئة قليلة من العسكر ، فوقع بين الفريقين
هناك واقعة مهولة تشيب منها النواصي ، وكان
ذلك بالقرب من بيسان ، فانكسر الأمير جان بردي
الغزالي ومن معه من العساكر والأمراء ، وقتل
الأمير خدابردى أحد الأمراء المقدمين ، وقتل الأمير
على باي السيفي ، وأزدر الدوادار أحد الأمراء
الطبلخانات ، وأشيع موت جماعة من الأمراء ولكن
لم آقف على صحة من قتل من الأعبان في هذه
المعركة .

وأشيع أن الأمير جان بردي الغزالي قد جرح
والأمير أرزمك الناشف أيضا . وقتل من المماليك
السلطانية جماعة ، ومن الغلمان ما لا يحصى
عددهم ، وقد حزت رؤوسهم بالسيوف . وفيل
ان هذا الخبر ورد من عند الأمير طقطباي حاجب
الحجاب ، وكان من حين خرج الى السفر وهو مهيم
بالصالحية ، فورد عليه بعض المماليك السلطانية
وأخبره بذلك ، فطالع السلطان بما قد جرى من
أمر هذه الحركة المهولة .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان قد احتوى على
برك الغزالي وأرزمك الناشف لما وقعت الكسرة ،
فلم يتركوا لهما بركا ولا خيولا ولا جمالا ولا
سلاحا . وقد تقوى العثمانية ثانيا بهذه الكسرة

الثانية ، ولم ينج من عسكر مصر في هذه المعركة
الا من طال عمره .

وقيل ان ممالك الغورى هم الدين احسوا
بالعسكر وبادروا بالهروب حتى وقعت هذه
الكسرة الثانية ، ولما تزايدت الأقوال في ذلك عين
الأمير سنبل مقدم الممالك بأن يسوجه الى الصالحية
ليكشف الأخبار ، فخرج من بومه وسافر .

وفي يوم الأحد رابعه وقعت حادثته مهولة وهى
أن السلطان نزل الى الميدان ، واجتمع الأمراء
والعسكر فلم يشعروا الا وقد قامت ضجه كبيرة
في الرميعة ، وأشاعوا أن عسكر ابن عثمان قد
وصل الى الريدانية ، فقال السلطان للعسكر :
« كم فلنا لكم اخرجوا للتجريدة ما ترضون
تسافرون . فاخرجوا ولا فوا ابن عثمان » . فلبس
العسكر آلة الحرب وركبوا قاطبة ، ورجت
القاهرة رجا مهولا ، ووزع الناس قماشهم في
الأماكن المخفية .

فلما اضطربت الأحوال ركب العسكر وتوجهوا
الى الريدانية ، فلم يروا هناك أحدا من العثمانية ،
فرجع العسكر الى بيوتهم بعد ما ارتجت القاهرة ،
وعول الناس على أن يحتفوا في فسافى الموتى ،
ثم أسفرت هذه الواقعة عن جماعه من العربان
نزلوا من الجبل وأبوا الى الريدانية فأشاع
الذى رآهم من بعد أنهم من العثمانية ، فانتشرت
هذه الأخبار في القاهرة من غير سبب

وفي هذا اليوم أفرج السلطان عن الأمير قانصوه
الأشرفى الذى كان نائب حلب ، وسلم القلعة الى
ابن عثمان من غير قتال ولا محاصره . فتعير خاطر
السلطان عليه بسبب ذلك وسجنه في البرج بالقلعة ،
فأقام به مدة ثم أفرج عنه في ذلك اليوم .

وفي يوم الاثنين خامسه دخل الأمراء والعسكر
الذين توجهوا الى عزه وانكسروا من عسكر ابن

عثمان ، فدخل جان بردى الغزالي وأرزمك
الناشف وبعض أمراء عشراوات ، ودخل العسكر
وهم في آنحس حال مما جرى عليهم من النهب
والقتل ، آنحس من المرة الأولى ... فدخل بعض
الممالك السلطانية وهم راكبون على حمير ،
وبعضهم على جمال ، وقد نهب قماشهم وخيولهم
وسلاحهم ، ولم يسلم من القتل الا من كان في
أجله مدة . وذكروا عن ابن عثمان أن مع عسكره
رماحا بكاليب يحفظون بها الفارس عن فرسه
وبلفونه على الأرض . وذكر جان بردى أنهم رموه
على الأرض ولولا غلمانهم فاتلوا عنه العثمانية
لكانوا حزوا رأسه مثل الأمير خدابردى الذى قتل .

وحكوا عن عسكر ابن عثمان أنهم مثل الجراد
المنتشر ، لا يحصى عددهم ، وأن معهم رماة بالبندق
الرصاص على عجالات ختب تسحبها أبقار
وجاموس في أول العسكر ، وحكوا عنهم أشياء
كثيرة من هذا النمط .

وحضر الأمير دولات باى نائب غزة الذى كان
بها . وحصر أيضا الأمير بحشباى الذى كان
مشد الشون ، أخو الأمير كرباى الذى كان والى
القاهرة ، وكان أشيع موته في الواقعه التى وقعت
في مرج دابق ، فظهر أنه في بيد الحياة ، وكان
محتفيا عند العرب ، فحضر في ذلك اليوم ، وحصر
أيضا شخص من الأمراء العشراوات يقال له
فرقماس الرحبى ، وكان أشيع موته في الواقعه التى
كانت في مرج دابق ، فظهر أنه في بيد الحياة ،
وحضر أيضا جماعة كثيرة كان أشيع موته ، فظهر
أنهم في بيد الحياة .

فلما طلع الأمير جان بردى الغزالي والأمير
أرزمك الناشف الى القلعة ألبسهما السلطان
ملابيات بسمور ونزلا الى منزلهما . وقد فرح

كل واحد من الناس بسلامتهما لأنهما فرسان الاسلام ، فدقت لهما البشائر على أبواب دورهما .

فلما حضر العزالي ومن معه من الأمراء والعسكر ، ظهر أمر من قتل من الأمراء العشراوات والعسكر والغلمان ، فصار في كل حارة نعي مثل أيام الفصول .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم الثلاثاء سادسه ، فلما طلع النهار بادر العسكر بالطلوع الى القلعة فابتدأ السلطان بتفرقة النفقة على العسكر ، فأعطى لكل مملوك خمسة وعشرين دينارا ، وأعطاهم ثمن الأصحية على العادة ، وكان أولا سألهم بأن يعطيهم ثلاثين دينارا لكل مملوك فأبوا ذلك .

فلما رأوا عين الجدة وأن ابن عثمان زاحف على البلاد ، وقد وصل الى فطيا ، رصوا بحمسة وعشرين دينارا نفقة ، ونزلوا من القلعة وآخذوا في أسباب آلة السفر .

وفيه ورد على السلطان أخبار ردية بأن سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان الذي ملك مدنة غزة قد لعب في أهل غزة بالسيف ، وقتل منهم نحو ألف انسان ما بين نساء ورجال وصغار . وكان سبب ذلك أن العزالي لما تلافى مع سنان باشا على الشريعة ، أشيع في غزة أن العزالي قد انصر على عسكر ابن عثمان ، وقتل سنان باشا ، وعسكر ابن عثمان . فبادر على بى دوا دار نائب غزة وأجناده فنهبوا وطاق العثمانية وأحرقوا خيامهم ، وقتلوا من كان في الوطاق والمدينة من العثمانية نحو أربعمائة انسان ما بين شيوخ وصبيان ، ومن أكان بها مريضا ، وأحرقوا الحيام النى كانت في وطاقهم .

فلما ظهر أن الكسرة على عسكر مصر ، وقتل

من قتل من الأمراء ، رجع سنان باشا اليه غزة ، فوجد من كان بها قد قتل ونهب الوطاق ، فجمع أهل غزة قاطبة وقال لهم : « من فعل ذلك بنا ا » ، قالوا : « على بى دوا دار نائب غزة وأجناد غزة ، ولم نفعل نحن شيئا من ذلك » . فأمر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا بها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم . فقال لهم سنان باشا : « نحن لما دخلنا غزة هل شوشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيئا ؟ » قالوا لا ، فقال لهم : « كيف فعلتم بعسكرنا ذلك ؟ » فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجة ... فعند ذلك أمر عسكره أن يلعبوا فيهم بالسيف ، فقتلوا منهم ما لا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا . وقد قيل في المعنى :

ان ترمك الأقدار في أزمة
أوجبها أجرامك السالفه
فادع الى ربك في كشفها
ليس لها من دونه كاشفه

وفي يوم الأربعاء سابعه حضر الى الأبواب الشريفة جماعة من طوائف العربان من غزاة ومحارب ، ومن عربان هواره . وكان السلطان ألزم مشايخ العربان أن يأتوا وصحبتهم جماعة من فرسان العربان ممن هو أشجعهم ، حتى بنوجهوا صحبة التجريدة مع العسكر . فلما حضروا نزلوا بالجيزة ، واجتمع بها الجهم الكثير من العربان ، ثم دخلوا الى الرميلة ونزلوا بها حتى عرضهم السلطان بالميدان . وقد انحط أمر الترك عند العرب والفلاحين بسبب هذه الكسرات التى وفعت للعسكر ، وتملك ابن عثمان البلاد الشامية ، وثبت عند الناس أن دولة الجراكسة قد آلت الى الانقراض ، وأن ابن عثمان هو الذى يملك البلاد

وصار جماعة من الفلاحين اذا أتاهم قاصد من باب أستاذهم يقولون ما نقدر نعطى خراجا حتى يتبين لنا أن البلاد لكم أو لابن عثمان ، فنبتى بورد الخراج مرتين . وقد اضطربت الأحوال برا وبحرا والأمر الى الله تعالى .

وفى ذلك اليوم أشيع بين الناس أن السلطان رسم بتغريق القاصد الذى حضر من عند ابن عثمان ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فأشيع أنهم أغرفوه ومن معه من العثمانية تحت الليل ... هكذا أشيع .

وفيه ابتداء السلطان بتفرفة الأضحية على العسكر ولم يعط المماليك الذين كانوا صحبة الغزالي وانكسروا ، فقال لهم السلطان : أنتم هربتم ولم تقاتلوا شيئا ، وختتم الأمراء حتى انكسروا .

وفيه أشيع بين الناس أن أوائل عسكر ابن عثمان قد وصل الى قطيا ، وقد تملنوا القلعة التى بالطينة ، وهرب من كان بها من أولاد الناس القاطنين بها . وقيل لم يثبت أمر هذه الاشاعة

وفى يوم السبت عاشره كان عيد النحر فخرج السلطان وصلى صلاة العيد ، وطلع الأمراء بالشاش والقماش على جارى العادة وكان موكب العيد حافلا ، لكن كان الناس فى غابة الوجل والخوف من ابن عثمان . وقد بلغ الناس أن أوائل عسكره وصل الى قطيا ، ولا سيما ما بلغ الناس مما فعله عسكر ابن عثمان بأهل غزة من القتل والنهب وسبى النساء وقتل الأطفال ، كما أشيع ذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره أخرج السلطان الزردخانة الشريفة التى يخرجها صحبة العسكر ، فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب التى كان صنعها بسبب التجريدة ، فكانت عدتها مائة عجلة وتسمى عند العثمانية ربة ، وكل عربة منها يسحبها زوج أبقار ، وفيها مكحلة نحاس ترمى

بالبندق الرصاص ... فنزل السلطان من المتعد وركب وفى يده عصا ، وصار يرتب العجلات فى مشيها بالميدان ، ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل محملة طوارق بحو ألف وخمسمائة طارقة ، ومحملة أيضا بارودا ورصاصا وحديدًا ورماح خشب ، وغير ذلك . وقدام العجلات أربعة طبول وأربعة زمور . وقدامها من الرماة نحو مائتى انسان ما بين ريمان ومغاربة ، وبأيديهم صناجق بعلبكي أبيض وكندكى أحمر ، وهم يقولون الله ينصر السلطان . وجماعة من النفطية ما بين عبيد وغيرهم يرمون بالنفط قدام العجلات .

وركب قدامها الأمير مغلباى الزردكاش الكبير ، ويوسف الزردكاش الثانى ، وجماعة من الزردكاشية ، وعبد الباسط ناظر الزردخانة ، والشهابى أحمد بن الطولونى ، وقدامهم الحزم الكثير من النجارين والحدادين الذين يعينوا للسفر مع التجريدة ... فخرجوا من باب الميدان الى الرملة ونزلوا من جهة القبور ، وشقوا من البسطين ، ودخلوا من باب زويلة ، وشقوا من القاهرة فرجت بهم القاهرة فى ذلك اليوم ، واصطفت الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكان يوما مشهودا . وارتفعت الأصوات له بالدعاء بالنصر على ابن عثمان الباغى ، وتباكى الناس لما عاينوا تلك العجلات والمكاحل والهمة العالية التى من السلطان فيما صنعه . واستمروا شاقين من القاهرة حتى خرجوا من باب النصر وتوجهوا الى الريدانية عند تربة العادل التى هناك .

وأشيع أن امرأة قتلت فى ذلك اليوم من شدة الازدحام ، فلما وصلت العجلات الى تربة العادل صفوهم هناك الى أن تخرج الأمراء . فكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة فى الفرجة

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره ، أشيع أن بعض

الناس شفع في الممالك الذين حضروا من غزة ،
ولهم يصرف لهم السلطان الأضحية ، فصرفها لهم
في ذلك اليوم بعد ما وبّحهم بالكلام . وقال لهم :
كيف هربتم حتى كسرتهم الأمراء ولم تقاتلوا وبقي
وجهكم أسود بين الناس ؟

وفي يوم الأربعاء رابع عشره ، حضر إلى الأبواب
الشريفة الناصري محمد بن شمس الدين
القوصوي رئيس الطب ، وكان في حلب أسيرا
عند ابن عثمان ، فهرب من هناك مع العربان ،
وغرم لهم مالا له صورة حتى أتوا به إلى مصر
فطلع وقابل السلطان في ذلك اليوم ، وقد غير
هيبته وحلق ذقنه وتزيا بزي العرب ، حتى نخلص
من جماعة ابن عثمان ، وأخير السلطان أنه قد
بلغه عن ابن عثمان أن عسكره مختلف عليه ، وأنه
مات له من الجمال والخيول ما لا يحصى عدده من
الثلج الذي وقع بالشام ، وأن الغلاء هناك ، وأن
عسكره قد قلق من البرد والثلج وموت الحيول .
وأشيع في ذلك اليوم أن عسكر ابن عثمان كان
في غزة ورحل عنها ، وقد صارت العربان تقتل منهم
جماعة كثيرة ممن يجدونه في الضياع ، فيقتلونهم
ويهربون في الجبال .

وفي يوم الخميس خامس عشره طلع العسكر
لقبض الجامكية ، فقال لهم الطواشية :
« يا أغوات ما في هذا اليوم جامكية ، البلاد
خراب ، والعرب مشتتة في الطرقات ، والمدركون
ومشايع العربان ما أرسلوا من التقاسيط التي
عليهم شيئا ، فإن حصل شيء على يوم الاثنين ينفق
لكم » .. فنزل العسكر من القلعة وهم في غاية
النكد ، فإن لهم ستة أشهر لم يصرف لهم السلطان
من اللحم المنكسر شيئا ، وقد تعطلت الجوامك
أيضا .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على قانصوه رجلة ،
أحد الأمراء المفدمين الذي كان نائب قطيا ، وقرره
كاشف الترفيه عوضا عن فجماس الذي كان بها ،
فانه كان عاجزا عن اصلاح أحوال الشرقية . وخلع
على ألماس كاشف الغريبة بأن يستمر على عادته في
كشف العربية . وخلع على الأمير أبرك الوزير
والاستادار باستمراره على عادته . وكان أشيع
عزله . وقد صارت أحوال الدبار المصرية في هذه
الأيام في غاية الاضطراب من وجوه شتى

وفي يوم الجمعة صلى السلطان صلاة الجمعة ،
ثم خلع على الأتابكي سودون الدواداري ، وقرره
باش العسكر على التجريدة .

وفيه حصر الأمير طقطبای حاجب الحجاب وكان
قد توجه صحبة التجريدة المعينة إلى غزة ، فأظهر
أنه مريض ، وأقام بالصالحية فلما انكسر جان
بردى الغزالي ورجع إلى مصر ، أقام بقية الأمراء
في الصالحية إلى أن تخرج التجريدة التي نعينت
ثانيا ، فلما حضر الأمير طقطبای دون الأمراء الذين
هناك عز ذلك على الأمراء والعسكر ، ونسبوه إلى
العجز ، وصار ممقوتا عند العسكر قاطبة .

وفيه أشيع أن السلطان رسم لطوائف العربان
الذين حضروا بأن يرجعوا إلى بلادهم . وقد أشار
بعض الأمراء على السلطان أن العربان ليس لهم
فائدة في خروجهم مع التجريدة ، فرسم لهم بالعود
إلى بلادهم .

وفي يوم الأحد ثامن عشره ورد على السلطان
اخبار ردة بأن ابن عثمان خرج من الشام بنفسه
هو وعساكره ، وهو قاصد مصر ، وقد أشيع أنه
قسم عسكره فرقتين ، فرقة تجيء من الدرب
السلطاني ، وفرقة تجيء من التيه .

وفي أثناء هذا الشهر خلع السلطان على الأمير

اينال خازندار الأمير طراباي ، أحد الأمراء العسراوات ، وقرره في نيابة دمياط عوضا عن كان بها ، فلما بلغ السلطان هذا الخبر المتقدم أرسل أحضر الأمراء وضربوا مشورة في ذلك . وأشيع أن السلطان يخرج الى الريدانية وقيم بها ، ويقسم العسكر فرقتين فرقة تتوجه الى ناحية عجروود ، والفرقة الثانية تتوجه الى المكان الذي جاء منه القاصد الذي تقدم ذكره . وكان الأمراء عولوا على خروج التجريدة من أول السنة الجديدة ، فلما وردت عليهم هذه الأخبار اضطربت أحوالهم ، ورسم لهم السلطان أن يبرزوا خيامهم في الريدانية بسرعة ، ويكونوا على يقظة ، فإن ابن عثمان قد وصل الى غزة ... وقيل انه توجه يزور بيت المقدس ، ثم يمشى بعساكره الى مصر ، وقد كثر القال والقيل في ذلك ، واضطربت أحوال الناس قاطبة ، الى أين يذهبون حتى تنقضي هذه الفتنة .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء المقدمين ، ويقول لهم برزوا خيامكم بالريدانية في هذا اليوم . فخرجت خيام جماعة من الأمراء في ذلك اليوم الى الريدانية .

وفي هذا اليوم نادى السلطان بأن جميع المغاربة الذين في مصر والقاهرة يحضرون عدا للعرض .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره ، جلس السلطان على الدكة في الحوش ، وطلع الجهم الكثير من المعاربة . فلما طلّعوا الى القلعة لم يجتمع عليهم السلطان ، وأرسل اليهم الأمير شاد بك الأعور ، فقال لهم . « السلطان يقول لكم عينوا منكم ألف انسان من شجعانكم حتى يخرجوا مع التجريدة » فأرسلوا يقولون للسلطان : « نحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر ، ونحن ما نقاتل الا الافرنج ، وما نقاتل مسلمين » وأظهروا التعصب لابن عثمان .

فلما عاد الجواب على السلطان بما قاله المغاربة ، عز على السلطان ذلك ، وأرسل يقول لهم : « ان لم تخرجوا وتقاتلوا ابن عثمان والا فالهاليك الجلبان يقتلون كل مغربي في مصر حتى لا يخلوا فيها مغربيا يلوح » . فنزلوا من القلعة على غير رضا من السلطان .

وفيه أشيع أن ابن عثمان أرسل كتابا الى شيخ العرب أحمد بن بقر ، يقول له فيه : « ادخل تحت طاعتنا ولك الأمان ، ولاقينا من الصالحية ، وصحبتك ألف أردب شعير »

وأشيع أن عبد الدائم أحمد بن بقر الذي كان عاصيا توجه الى ابن عثمان لغزة ، والاشاعات في أخبار ابن عثمان كثيرة .

وفي يوم الاثنين المقدم ذكره نادى السلطان للعسكر قاطبة من كبير وصغير بأن يعرضوا غدا في الريدانية وهم باللبس الكامل من آلة السلاح .

ثم ان السلطان نزل الى الميدان ، وصلى صلاة العصر وركب من هناك وتوجه الى الريدانية ، وبات بها في الوطاق . وهذا أول نزوله من حين ولى السلطنة .

وفي يوم الثلاثاء عشريه لبس العسكر آلة السلاح وخرجوا للعرض بالريدانية بحضرة السلطان .

وفي ذلك اليوم صارت الأمراء المقدمون يخرجون الى الريدانية ، وهم الأمراء الذين عينوا للتجريدة وصاروا يخرجون شيئا بعد شيء وهم بأطلاب حربية ، ومماليكهم لابسه آلة الحرب ، وهم على جرائد الخيل .

ثم خرج الأتابكي سودون الدواداري ، وجان بردى الغزالي نائب الشام ، وأركماس امير سلاح ،

وبحسبى أمير مجلس ، وأنص باى أمير آخور كبير ،
وسر رأس نوبه النوب ، وعلاء الدوادار الكبير ،
وظفطبانى حاجب الحجاب ، وفيل بل أغنى من
السمر بسبب ضعفه ، ولكن الأصح سفره .
وخرجت بقية الأمراء المقدمى الالوف قاطبة ،
والأمراء المضلحانات ، والعراوات فاطمة ، وعساكر
مصر ، ولم يبق بها من الأمراء والعساكر الا القليل .
وهذه التجربة أكثر عسكرا من التجربة التى
خرجت مع السلطان الغورى .

وكان هذا السلطان له عزم شديد فى عمل هذه
العجالات وسبك المكامل ، وعمل البندق
الرصاص ، وجمع من الرماة ما لا يحصى ، وكانت
له همة عالية ومفصد جميل ، ولعل الله تعالى أن
ينصره على ابن عثمان . وكان ابن عثمان باغيا على
عسكر مصر ، وقد عاداهم وتعدى عليهم بغير
سبب ، والباغى له مصرع .

وفيه أشيع أن السلطان رسم بأن الأقبال الكبار
تخرج صحبة العسكر اذا تقاتلوا مع ابن عثمان
بعد ثلاثة أيام .

وفى ذلك اليوم لما خرج العسكر ركب السلطان
من الوطاق ، وتوجه الى المصطبة التى بالريدانية ،
التى تسمى المطعم ، فجلس بها واجتمع اليهم
الكثير ، وهم لا يسون آلة السلاح ، وقد سدوا
الفضاء واجتمع هناك السواد الأعظم من العوام
حتى النساء ، وقد أطلقوا الزغاريت هناك ،
وارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان بالنصر ،
وكان يوم مشهود .

فلما نظر السلطان الى العسكر لم يعرضهم
بامتدعاء هناك ، بل نادى بأن جميع العسكر
المصور من كبير وصغير لا يناحر منهم أحد ، وأن
العرض فى الصالحية ، وأن السلطان لا توجه الى

الصالحية حتى يخرج العسكر قدامه من هناك ثم
يعود الى القلعة وكان ذلك عين الصواب .

وفى يوم الاربعاء حادى عشرية اسمر السلطان
مهيما بالريدانية وخرج فى ذلك اليوم بقية
العسكر وقد ترادف الخروج من غير عذر ولا
حجة والسلطان يستخهم فى سرعة الخروج .

ولما نزل السلطان من القلعة أخذ صحبته قاسم
بك ، وهو الصبى الذى من أولاد ابن عثمان ، وقد
تقدم ذكره . فجعل له السلطان بركا وسنحا على
انفراده ، ورسم له بأن يسافر صحبة العسكر ،
ويقف وقت الحرب تحت الصجق السلطاني .

وأشيع أن سليم شاه فى قلبه الواجس من هذا
الصبى ، وفيل أن غالب عسكره مائل الى هذا
الصبى ، ويقولون اذا انكسر سليم شاه مالنا الا
إلى استادنا هذا سلطانه عوضا عن سليم شاه .

وفى ذلك اليوم أشيع أن صاحب رودس ، أرسل
الى السلطان ألف رام من جماعته يرمون بالبندق
الرصاص . وأرسل اليه عدة مراكب فيها بارود ،
فدخلت تلك المراكب الى ثغر دمبساط ، وأرسلوا
يعلمون السلطان بذلك ، وهذه عوثة من صاحب
رودس الى سلطان مصر ، حتى يسنعين بذلك على
قتال ابن عثمان الباغى على أهل مصر . فلم يظهر
لاشاعة هذه العوثة خبر ولا تبجعة ، وانما هى
اشاعة ليس لها صحة فيما نقل عنها .

ولما خرج السلطان الى الريدانة أشيع أنه بتوجه
من هناك الى الصالحية للاقى عسكر ابن عثمان .
فمعه الأمراء من التوجه الى الصالحية ، وقالوا
ما نقم بيننا وبينه قتال الا فى الريدانة .

ثم إن التجار صارت تنقل أمتعتها وأموالها من
الدكاكين الى الأسواق ، وبدخلوها فى الأماكن
المنسية ، حتى تسلم ، وما سلم منها شيء .

وفيه تحول غالب الناس من أطراف المدينة ودخلوا القاهرة وسكنوا بها ، ونقل اعيان الناس فماشهم الى الترب ، والى المدارس والزوايا والمزارات ، والى بيوت العوام التى فى الرباع ، لعله يسلم وما سلم منه شئ ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى آخر هذه السنة توفى الشهابى أحمد بن الأمير أنسبغا الطيارى رأس بوبه السوب كان . وكان الشهابى أحمد من اعيان أولاد الناس الرؤساء ، وكان حشما رئيسا لا بأس به ، ومات وله من العمر ما قارب التسعين سنة ، وكان من المعمرين فى الأرض .

وفى يوم الخميس ثانى عشره وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد خرج من غزة ، وأن أوائل عسكره قد وصل الى العريش . وأشيع أن السلطان رسم بحفر خندق من سبيل علان الجبل الأحمر والى آخر غيطان المطرية ، ثم ان السلطان نصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل معمرة بالمدافع ، وصف حولها العربات الخشب التى صنعها بالقلعة كما تقدم ذكر ذلك .

ثم ان السلطان رسم للأمير مامى الصغير المحتسب بأن ينادى فى القاهرة للسوقة وأرباب البضائع من الزياتين والخبازين والجزارين بأن يحولوا بضائعهم الى الوطاق عند تربة العادل ، وينشئوا هناك سوقا ويبيعوا على العسكر الذى هناك .

ثم ان السلطان رسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة للعسكر الذين تأخروا بأن يخرجوا الى الريدانية ولا يتأخر منهم أحد . فنادت المشاعلية فى الحارات والأزقة بأن الممالك السلطانية تخرج فى ذلك اليوم الى الوطاق ، وكل من تأخر منهم شنى على باب

منزله من غير معاودة . وجعل يكرر المناداة فى ذلك اليوم مرتين ، فانه قد بلغ السلطان أن جماعة من الممالك السلطانية صاروا يتوجهون الى الوطاق فى باكر النهار حتى ينظرهم السلطان ، ثم يرجعون الى بيوتهم ويبيتون بها ، فشق ذلك على السلطان وحجر عليهم بأن يبيتوا فى الوطاق كل ليلة .

وفى يوم الجمعة ثالث عشره وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل أوائله الى قطيا ، فاضطربت أحوال الناس لذلك .

وفى يوم السبت رابع عشره عرض السلطان العسكر الذين بالوطاق ، فاجتمع منهم الجهم الكثير فوعدهم السلطان أنهم اذا قاتلوا عسكر ابن عثمان بقلب ، وانتصروا عليهم ، ينفق على كل واحد منهم عشر أشرفيات ، وينعم على كل واحد منهم بسيف وترس . ورسم للأمير أنسبغا أمير آخور بأن يصلح بين زعر الصليبة وزعر المدينة .

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان اهتم بعمل حائط يستر بها المكاحل التى نصبها بالريدانية ، وأشيع أن السلطان جعل يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين . فلما رأى العسكر أن السلطان حمل الحجارة بنفسه ، صار الممالك يحملون الحجارة ويشيلون التراب مع الفعلة فى حفر الخندق ، وعمل الحائط التى تستر المكاحل .

ثم وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل الى بلبس .

وفى يوم الأحد خامس عشره ، حضر الأمير قانصوه العادلى ، الذى كان كاشف الشرقية ، وكان السلطان قد أرسله ليكشف أخبار عسكر ابن عثمان ، اذا كانوا قد وصلوا الى هناك ، أى الى القرب من الصالحية . فلما وصل الأمير قانصوه الصالحية ، رأى جماعة من عسكر ابن عثمان قد

وصلوا الى هناك ، فقبض على شخصين منهم وحز رأسيهما وأحصرهما بين يدي السلطان . وكان صحبه تلك الرعوس شخص من أبناء حلب من جماعة حايربك نائب حلب الذي خامر على السلطان الغورى والتف على ابن عثمان . فلمسا وقف بين يدي السلطان طومان باي أخبره أن الواصل اليك حايربك نائب حلب وصحبته ابن سوار وجماعة من أمراء ابن عثمان ، وأن هذا الجاليش فيه من عسكر ابن عثمان ثمانية آلاف فارس ، وقد بطلت خيولهم من التعب والجوع ، وأن انفلاء موجود في عسكره . ووجدوا مع ذلك الرجل الحلبي عدة مطالعات من خاير بك نائب حلب الى الأمراء المقدمين الذين بقصر ، فأخذ السلطان المطالعات التي كانت معه ، ووضع ذلك الرجل الحلبي في الحديد .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل بلبس نادى لأهل بلبس بالأمان والاطمئنان ، وأن لا أحد من العساكر العثمانية يشوش على أحد من أهل بلبس ، ولا الفلاحين فاطبة .

ثم ان العريان من السوالمه صاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من الغنمايه ، وبفطعون رؤوسهم ويحصرونها بين يدي السلطان ، فيرسم السلطان بأن يعلى على باب النصر وباب زويلة .

ثم ان السلطان عرس العسدر بالريدايه وهم لا بسون آلة الحرب حتى عرس الأمراء المقدمين والعشراوات ... وحضر الأمراء المقدمون وهم بالطبول والزمر ، وكان لهم يوم مشهود بالريدانة .

ثم ان السلطان سار الى بركة الحاج وصحبته الأمراء والعسكر فاطبة فسير بهم ، ثم رجع الى الوطان وفداه الضبول والزمر والنفوط ، فامتدت العساكر من الجبل الأحمر الى غطان المطرانية حتى سدت الفضاء .

وأشيع أن السلطان لما تحقق وصول ابن عثمان الى بلبس ، رسم بحرق النور التي في بلبس وما حولها ، حتى النور التي في الخانكاه ، فأحرقوا أشياء كثيرة من النبن والدريس وغير ذلك من القمح والشعير والفل ، وذلك لأجل عسكر ابن عثمان حتى لا يهبطها بسبب خيولهم ، فيفوى بذلك العسكر على القتال .

ثم أشيع أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى العكرشه ، فلما تحقق السلطان ذلك أراد أن يخرج بالعسكر وبلاقيهم من هناك ، فلم تمكنه الأمراء من ذلك ... ولو لاقاهم من هناك كان عين الصواب ، فان خيولهم كانت قد بطلت من الجوع والتعب ، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم من حين خروجهم من الشام وهم في غاية التعب ، فكان ربما يكسرهم قبل أن يدخلوا الى الخانكاه ، ويجدوا العليق والمأكول والمشرب والراحة من التعب ... فلم يتفق للسلطان أن يلاقيهم من هناك حتى تمكنوا من الدخول الى الخانكاه .

ثم رسم السلطان للعسكر بأن يبيتوا تلك الليلة

وفي هذه المدة صارت العربان تقطع رؤوس
العثمانية الذين نظفرون بهم في الطرقات ، فيرسل
السلطان يعلق تلك الرؤوس على أبواب المدينة .
ومن الحوادث في هذه السنة انه اشيع أن
السلطان كان جالسا في الحية وادا بسجس من
الترکمان قد دخل عليه وهو لايس رباطا أحمر وث
وسطه محقق وبركاش ، وقد صرب على وجهه
لثاما ، وكان السلطان في نفر قليل من الخاصكية .
فلما هجم ذلك الشخص على السلطان وقرب منه
دفعه بعض الطواشييه الدين كانوا وافقين بين يدي
السلطان ، فلما مس صدر ذلك الشخص وجد في
صدره ثديين طويلين فكشف اللثام عن وجهه ، فاذا
ذلك الشخص امرأة من سماء التراكمة ، فتوهم
السلطان انها تقصد قتله ، فقال أخرجوها من
قدامي . فلما خرجت من بين يديه وجدوها لابسة
زردية من تحت ثيابها وهي مسحمله بخنجر كبير من
تحت ثيابها ، فلما عانها المماليك الحلبان على تلك
الحالة صربوها بالسيوف ، وقد بحفوها أنها هجمت
على السلطان تريد قتله لا محالة . فلما قتلوها رسم
السلطان بأن يعلقوها على باب النصر ، فأتوا بها
وهي عريانة وصاروا يسحبونها من الريدانة الى
باب النصر ، حتى علقوها هناك على مكان نجاه
باب النصر ، واستمرت معلقة هناك يومين عريانة
وعورتها مكشوفة بين الناس ، ثم دفنت .

ثم ان السلطان أرسل مع دوا دار الوالى رأسين
مقطوعين ، فزعموا أن أحدهما رأس ابراهيم
السمرقندى ، والآخر رأس أمير من أمراء ابن
عثمان ، فعلقوهما على دكان عند باب زويلة . وقد
تحيل بعض العربان على ابراهيم السمرقندى
وأضافه وبات عنده ، وكان السمرقندى أتى صحبة
ابن عثمان . فلما بات تلك الليلة عند البدوى حز

رأسه تحت الليل ، فلما طلع النهار أحضرها بين
يدي السلطان طومان باي وقال له : « الذي يأتيك
برأس ابراهيم السمرقندى ايش تعطيه ؟ » فقال له
السلطان : « أعطيه ألف دينار » . فأخرج رأس
السمرقندى من تحت برنسه وقال له : « هذا رأس
ابراهيم السمرقندى » ، فلما نحقق السلطان ذلك
دفع لذلك البدوى ألف دينار . وكان ابراهيم
السمرقندى أصله من المدينة الشريفة ، وطاف من
بلاد العجم الى بلاد الروم ، وكان يعرف اللغة
التركية ... فلما دخل الى مصر تحشر في السلطان
الغورى وصار من جملة أخصائه ، فلما جرى
للغورى ما جرى وانكسر التف على سليم شاه بن
عثمان وصار من أخصائه . وفيل هو الذي حسن
لابن عثمان أن يدخل مصر وبملكها وبقطع جاذرة
الچراکسة من مصر ، وأطعمه في ذلك حتى دخل
مصر ... وكان السمرقندى من الظلمة الكمار ، ولو
عاش الى أن ملك ابن عثمان مصر ما كان يحصل
لأهلها منه خير قط . وكان يرافع في اعيان مصر
أشد المرافعة ، فأراح الله تعالى منه الناس قاطبة
وكفاهم شره .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشرى ذى الحجة وردت
الأخبار بأن جاليش عسكر ابن عثمان قد نزل
الحاج ، فاضطربت أحوال عسكر مصر ، وأغلقت
باب الفتوح ، وباب النصر ، وباب الشعرية ، وباب
البحر ، وباب القنطرة ، وغير ذلك من أبواب
المدينة . وغلقت الأسواق الى بالقاهرة ، وتعطلت
الطواحين ، وتشحط الدقيق والخبز من الأسواق .
ثم ان السلطان لما تحقق وصول عسكر ابن عثمان
الى بركة الحاج ، زعق النفير بالوطلاق ، فركب
العسكر قاطبة وركب سائر الأمراء المقدمين والأمراء
الطليخانات والعشراوات ، وركب قاسم بك بن

وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب .

فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله الى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير في الوطاق ، وفادى السلطان للعسكر بالخروج الى قتال ابن عثمان ، فركب الأمراء المدموم ودهوا الطبول حربيا ، وركب العسكر فاطبة حتى سدوا الفضاء ، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر ، وهم السواد الأعظم ، فتلافى الجيتان في أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين وافته مهولة يطول شرحها ، أعظم من الواقعة التي كانت في مرج دابق . فقتل من العنماية ما لا يحصى عددهم ، وقتل سنان باشا لالا ابن عثمان ، وكان أكبر وزرائه ، وقتل من أمرائه وعسكره جساعة كثيرة ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان الى نربة الأمير بشبك الدوادار

ثم ان العثمانية تحايوا وجاءوا من كل ناحية أفواجا أفواجا كأنهم قطع الغمام ، ثم انقسموا فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية . وطرشوهم بالبندق الرصاص وهجموا عليهم هجمة منكرة ، فما كان غير قليل حتى قتل من عسكر مصر ما لا يعلمه الا الله تعالى . وقتل من الأمراء المقدمين جماعة كثيرة منهم أزبك المكحل ، وجرح الأتابكى سودون الدوادارى جرحا بالغا ، وقيل انكسر فخذاه فاختفى في غيط هناك ، وجرح الأمير علان الدوادار ، فلم تكن الا ساعة سيرة مقدار خمس عشرة درجة ، حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة . فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة ، وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك

عثمان ، فاجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقا ، واجتمع من العساكر من أرباب الوطاق ومن المماليك السلطانية ومماليك الأمراء والعربان نحو عشرين ألف فارس ، ودقت الطبول والزمر حربيا ، وصار السلطان طومان باى راكبا بنفسه ، وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم ، وصف العسكر من الجبل الأحمر الى غيط المطرية ، فاجتمع هناك الجم الكثير من العسكر ، وكان السلطان طومان باى له همّة عالية ، ولو كان السلطان الغورى حيا ما كان يفعل بعض ما فعله السلطان طومان باى ، لكن لم يعطه الله النصر على ابن عثمان ، ولم يقع في ذلك اليوم بين الفريقين قتال ، ولم يبرز كل منهما الى غريمه . فقطعوا في ذلك اليوم بعض رعوس من العثمانية ، وأرسلوا علقوها على أبواب المدينة .

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة وقعت فيه كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذاك الا أن السلطان طومان باى لما توجه الى الريدانية ونصب بها الوطاق ، حصن الوطاق بالمكاحل والمدافع ، وصف هناك طوارق ، وصنع عليها تساتير من خشب ، وحفر خندقا من الجبل الأحمر الى غيط المطرية ، وقد تقدم القول على ذلك . ثم ان السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف حمل جمل وعلبها زكائب فيها عليق ، وعلى أكتابها صناجق بيض وحمرة تخفق في الهواء ، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل ، وظن أن القتال بطول بينه وبين ابن عثمان ، أو أن الحصار يبقى مدة طويلة ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج ، أقام بها بومين ، فلم يجسر السلطان طومان باى أن يتوجه اليهم ، ولو توجه

السلحدارية فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى . فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية ، ورأى العسكر قد ذهب من حوله ، خاف على نفسه أن يفبصوا عليه ، فطوى الصنجق السلطاني وولى واختفى ، فبل انه توجه فحوطوا هذه ثالث كسرة ودفعت بعسكر مصر .

وأما الفرقة العثمانية التي توجهت من تحت الجبل الأحمر ، فأنها نزلت على الوطاق السلطاني ، وعلى وطاق الأمراء والعسكر ، فنهبوا كل ما كان فيه من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبقار وغير ذلك ، تم نهبوا المكاحل التي كان نصبها السلطان هناك . ونهبوا الطوارق والتسائير الحشب والعربات التي تعب عليها السلطان وصرف عليها جملة من المال ، ولم يفده من ذلك شيء . ونهبوا البارود الذي كان هناك ، ولم يبقوا بالوطاق شبيلا قليلا ولا كثيرا ، فكان ذلك مساجرت به المقادير ، والحكم لله العلى الكبير .

ثم ان جماعة من العثمانية لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق ، دخلوا القاهرة بالسيف عنوة ، وتوجه جماعة منهم الى المقشرة ، وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحاييس ، وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية ، فأطلقوهم أجمعين ، وأطلقوا من كان في الديلم والرجبة والقاعة أجمعين .

ثم توجهوا الى بيت الأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين ، فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس الترجمان ، وكذلك بيوت جماعه من الأمراء وأعيان المباشرين ومسائير الناس ، وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت في حجة العثمانية ، فانطلق في أهل مصر جمرة نار .

ثم دخل جماعة من العثمانية الى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والاكايش وأخذوا

عدة جمال من جمال السقائين ، وصارت العثمانية فنهب ما يلوح لهم من القماش ، وغير ذلك . وصاروا يحطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود ، واستمر النهب عمالا في ذلك اليوم الى ما بعد المغرب ، تم توجهوا الى شون القمح التي بمصر وبولاق ، ونهبوا ما فيها من الغلال حق المسلمين . وهذه الحادثة التي وقعت لم تكن لأحد على بال ، وكان ذلك مساجرت به الأقدار في الأزل . وقتل في هذه المعركة ابن سوار بالريدانية ، ودفن على جده سوار في تربته التي تجاه يشبك الدوادار ، وقتل سنان باشا وزير ابن عثمان الأكبر . وفي ذلك يقول الشيخ بدر الدين الزيتوني :

نبكى على مصر وسكانها
قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة
من بعد ما كانت هى القاهرة

وفي يوم الاثنين — سلخ سنة اثنتين وعشرين ونسعمائة — دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله القاهرة ، وصحبته وزراء ابن عثمان والجم الكثير من العساكر العثمانية ، ودخل ملك الأمراء خاير بك ، ودخل قاضي القضاة الشافعية كمال الدين الطويل ، والقاضي المالكي محيى الدين الدميرى ، والقاضي الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ، وكل هؤلاء كانوا في أسر ابن عثمان من حين مات السلطان الغورى .

فلما دخل الخليفة من باب النصر ، شق القاهرة وفداه المشاعليه تنادى للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وأن لا أحد من العسكر العثماني يشوش على أحد من الرعية . وقد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل ، وان كل من كان عنده مملوك چركسى ولا يغمز عليه وظهر عنده يشنق من غير معاودة ، والدعاء للملك المظفر

سليم شاه بالنصر . فضج له الناس بالدعاء ، ولكن لم يلتفت أحد من العثمانيه لهذه المناداة ، وصاروا يهبون بيوت أولاد الناس ، حتى بيوت الربوع في حجة آلهم بفتشون على المماليك الجراكسة فاستمر النهب والهجم عمالا في بيوت الأمراء والعسكر وأهل البلد ثلاثة أيام منواليه لا يتركون خيلا ولا بعالا ولا فماشيا ولا قليلا ولا كثيرا ، وما أبقوا في ذلك ممكنا .

ودخل في ذلك اليوم يونس العادلي ، وخشقدم الذي كان متد الشون بمصر ، وكان قد هرب من المحوري الى البلاد العثمانية ، وهو الذي كان سببا لهذه الفتنه العظيمة .

وفي يوم الجمعة حطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة ، وقد ترجم له بعض الخطباء في خطبته فقال : « وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجينيين ، وسلطان العراقيين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصرا عزيزا ، وافتح له فتحا مبينا يا مالك الدنيا والآخرة يارب العالمين » . وقد قلت في ذلك :

حسم العمام بحرب وكدر
وجرى للناس عابات الضرر

وأتاهم حادث من ربهم
كل هذا بفضاء وقدر

سنة ثلاث وعشرين ونسهمايه (١٥١٧ م) :

كان مستهل المحرم يوم السبت ، وفيه أرسل السلطان سليم شاه جماعة من الألكشارية وأوقفهم على ابواب المدينة يمعون الهابة من نهب البيوت ، ولما انكسر عسكر مصر حول السلطان سليم شاه

وطاقه من بركة الحاج ونصبه في الريدانية ، وشرع العثمانيه بقبض على المماليك الجراكسة من الترب وفسافي الموتى ، ومن عيطان المطرية ، فلما أحصروهم بين يدي السلطان أمر بصرب أعناقهم

ثم ان بعض مشايخ العربان قبض على الأتابكي سودون الدواداري ، وأحصره بين يدي السلطان سليم شاه . فلما حصر بين يديه وبجه بالكلام فوجده قد جرح وكسر فخذيه وهو في حالة الأموات ، فلم تأخذه عليه شفقه ، بل أركبه على حمار وألبسه عمامه زرقاء وجرسه في وطاقه ، وقصد أن ينهره في القاهرة ، فمات وهو على ظهر الحمار ، وقيل حز رأسه بعد الموت وعلقوها في الوطاق .

وصار العثمانية يكبسون الترب ، ويقبضون على المماليك الجراكسة منها ، وكل تربة وجد فيها مملوك چركسى حزوا رأسه ورأس من بالتربة التي وجدوه فيها من الحجازيين ، وعلقوا رؤوسهم في وطاق ، فضرب في يوم واحد ثلثمائة وثلاثون رأسا من سكان الصحراء . وقيل كان فيهم ينابعة وأشراف ، فراحوا ظلما لا ذنب لهم ، وصاروا يتكبسون الحارات والبيوت ، ويفبصون على المماليك الجراكسة من اصطبلاتهم باليد ، ويتوجهون بهم الى الوطاق بالريدانية ، فيصربون أعناقهم هناك . فلما كثرت رؤوس القتلى بالريدانية نصبوا صواري وعليها حبال وعلقوا عليها رؤوس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرهم ، حتى قيل قتل في هذه الواقعة بالريدانية فوق أربعمئة انسان ، ما بين چراكسة وغللمان ، وعربان من الشرقية والغربية . وصارت الجثث مرمية من سبيل علان الى تربة الأشرف قايتباي ، فجافت منهم

الأرض وصارت لا تعرف جثة الأمير من جثة المملوك ، وهم ابدان بلا رءوس وأما من قتل من عسكر ابن عثمان في هذه الواقعة فلا يحصى عددهم

ثم ان ابن عثمان أرسل خلف المقر الناصري محمد بن السلطان العورى ، فلما حصر ألبسه قفطانا من محمل أحضر مذهب ، وألبسه عمامه عثمانيه ، وأعطاه وردة بالأمان له على نفسه ، ورسم له بأن سكن في مدرسه آية التي أنشأها في الشرايشيين ، وأسكن الدفتردار في بيته الذي في البندقانيين ، وهو احد وزراء السلطان سليم شاه .

ثم توجه اليه الأمير يوسف البسدرى الوزير فأعطاه أمانا وألبسه قفطانا سحملا وأفره محدثا على جهات العرييه . وخلع على الأمير فارس السيفى تراز وأفره كاشف المنية ، وغير ذلك من الجهات القبليه وخلع على الزينى بركات بن موسى ، وجعله متحدثا في الحسبة على أن يمرر بها من يختاره

وفي يوم الأحد تبنى المحرم أشيع أن السلطان سليم شهد قبل وطافه من اربدانية وبصيه في بولاق من تحت ترسيف الى آخر لجزيره الوسطى ، وفد أحصروا اليه مهابيح قلعه الجبل فلم يلتفت الى ذلك ، واختار الإقامة على شاطئ بحر النيل فلما كثرت العشاييه بالقاهرة صاروا بدورون في الحارات والأزقة والأسواق ، وكل من رأوه من أولاد الناس لابسا زينا أحمر وتحفقه بهولون له أنت جركسى ، فيقطعون رأسه فلبس أولاد الناس كلهم عباثهم حتى أولاد الامراء والسلطين قاطبة ، وأبطلوا لبس التحافيف والزنوط من مصر .

وفي يوم الاثنين ثالث المحرم أوكب السلطان سليم شاه ، ودخل الى القاهرة من باب النصر وشق

المدينة في موكب حافل ، وقدامه الجنائب المسومة الكثيرة العدد ، والعساكر التراكمة ما بين مشاة وركاب ، حتى ضاقت بهم الشوارع . واستمر سائرا من المدينة حتى دخل من باب زويلة ، ثم عرج من تحت الربع وتوجه من هناك الى بولاق ، ونزل بالوطاق الذي نصبه تحت الرصيف .

فلما شق من المدينة ، ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة . وقيل ان صفته درى اللون ، حليق الدفن ، وافر الأنف ، واسع العينين ، قصير القامة ، وعلى رأسه عمامة صغيرة وكان عنده خفة ورهج ، كثير التلفت اذا ركب الفرس . وقيل انه كان له من العمر حين ذلك نحو أربعين سنة أو دون ذلك ، وليس له نظام يعرف مثل نظام الملوكة السالفه . وكان سييء الخلق ، سفاكا للدماء شديد الغضب ، لا يراجع في القول .

ولما شق من القاهرة كان قدامه الخليفة والقضاة الأربعة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر . وكان ينادى كل يوم في القاهرة بالأمان والاطمئنان ، والنهب عمال من جماعته ، ولا يستمعون لمناداته . وحصل للناس منه الضرر الشامل .

ومما أشيع عنه أنه قال في بعض مجالسه بين أخصائه وهو بالشام : اذا دخلت الى مصر أحرق بيوتها قاطبة ، وألعب في أهلها بالسيف . ف قيل تلتطف به الخليفة حتى رجع عن ذلك ، ولو فعل ذلك ما كان يجد له من مانع منعه ، ولكن الله سلم والله غالب على أمره .

ولما زاد صرر العثمانية في القاهرة صارت أعيان الناس والمباشرين يجعلون على أبوابهم جماعة من العثمانية يحفظون بيوتهم من النهب ، وصارت العثمانية يمسون أولاد الناس من الطرقات ، وشولون لهم أتم جراكسة فيشهدون الناس

عندهم أنهم ما هم چراكسة . فيقولون لهم اشتروا أنفسكم من القتل ، فيأخذون منهم بحسب ما يختارونه من المبلغ . وصار أهل مصر تحت أسرهم ، ثم صار الزعر وعياق مصر يغمزون العثمانية على حواصل الخوندات والستات فينهبون ما فيها من القماش الفاخر . فانتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من بهب فساخ وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شيء جليل ، وظفروا بأشياء لم يظفروا بها قط في بلادهم ، ولم يروها قبل ذلك ، ولا أستاذهم الكبير .

ومن هنا نرجع الى ترجمة سليم شاه ابن عثمان وذلك على سبيل الاختصار من أخباره بحسب ما يتيسر لي من ذلك ، على ما مشيت عليه طريقة التاريخ من مبتداه الى هذه الواقعة .

سليم شاه بن أبي يزيد

هو الملك المتلطف سليم شاه ، بن السلطان أبي يزيد ، بن السلطان محمد بن السلطان مراد خان ابن أبي يزيد المعروف بيلدرم بن أرخان بن أردن بن عثمان بن سليمان بن عثمان الكبير ، الشهيد بالغزاة بعد أن عاش تسعا وستين سنة .

وسليم شاه هذا هو الشهير بابن عثمان ، من خلاصة ملوك الروم ، وهو الثامن والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث من ملوك الروم بمصر . فان أول ملوك الروم بمصر الظاهر خشقدم ، والثاني الظاهر تمرغا ، والثالث سليم خان ابن عثمان .

ملك القاهرة عنوة بقائم سيفه ، وقد حصل له سعد عظيم لم يحصل لأبائه ولا لأجداده من قبله . وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطار ، فتصدي

الى قتال شاه اسماعيل الصفوي سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فانكسر منه الصفوي ، وقتل غالب عسكره ، واحتوى على أمواله وسلاحه من غير مانع ، وملك غالب بلاده التي بالعراقين .

ثم تصدى الى قتال الملك الأشرف قانصوه الغوري ، وتلاقى معه على مرج دابق في رجب سنة انتين وعشرين وتسعمائة ، فلم يحمل معه غير مائة يسيرة وانكسر ، ومات قهرا في وسط الحرب .

وملك سليم شاه مدينة حلب وقلعتها من غير محاصرة . فلما ملك قلعة حلب أرسل اليها شحما من جماعته أعرج أعور وفي يده دبوس خشب ، وهو ماش على أقدامه ، فتسلم الأموال والسلاح التي كانت بها ، حتى قيل كان بها من الأموال السلطانية للغوري مائة ألف ألف دينار وثمانمائة ألف دينار ، خارجا عن السلاح والكناييس الذهب والسروج الذهب والبلور والعقيق والخلع التي بالطراز الذهب اليلبغاوي ، وغير ذلك من التحف الفاخرة . فاحتوى على ذلك جميعه خارجا عن برك السلطان والأمراء وأولادهم ، وبرك العساكر وخيولهم وبغالهم وجمالهم ، وخيامهم فاحتوى على ذلك جميعه .

ثم توجه الى الشام فملكها بالأمان ، ثم نزل اليه اغات الشام بالأمان فقتله وقتل معه نحو أربعين أميرا من أمراء الشام ، وملك قلعتها واحتوى على ما فيها من الأموال والسلاح والغلال والبارود وغير ذلك مما كان بها .

ثم خرج من الشام وقصد التوجه نحو الديار المصرية ، فتسلم طرابلس وصنفد وغزة وبيت المقدس وجبل نابلس وعدة بلاد من تلك الجهات ... تسلم الكل بالأمان من غير حرب ولا مانع ، ولم يتفق ذلك لأحد من الملوك قبله .

ثم توجه الى القاهرة فتلاقى مع الأشرف طومان باى على الريدانية فوق بينهما قتال هين ، فلم يكن الا عشرون درجة وانكسر الأشرف طومان بان وولى مهزوما ، وقتل من العسكر ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر ملك مصر والقاهرة عنوة بقائهم سيفه .

ومن عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه فاتح مصر سنة اثنتين وعشرين من الهجرة النبوية عنوة بقائهم سيفه ، لم يفتحها أحد من الملوك بعده عنوة سوى سليم شاه بن عثمان ، ولم يقع مثل ذلك الا لبختنصر فى قديم الزمان .

ومن هنا رجع الى أخبار بن عثمان ، فانه لما نزل بالوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف أقام به الى يوم الثلاثاء رابع المحرم .

فلما كانت ليلة الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء لم يشعر ابن عثمان الا وفد هجم عليه الأشرف طومان باى بالوطاق بما معه من العسكر ، واحتاط به ، فاضطربت أحوال ابن عثمان الى الغاية ، وظن أنه مأخوذ لا محالة . وأسيح أنه هجم عليه بجمال محملة ساسا وأطلق دها النار ، فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان ، وأوقع فيهم السيف تحت الليل ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، واجتمع هناك الجهم الكثير من الزعر وعياق بولاق من النواتيه وغيرهم ، وصاروا يرممون فى الوطاق بالمقاليع وفيها الحجارة . واستسروا على ذلك الى أن طلع النهار ، فلاقاهم الأمير علان الدوادار الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير ، فأسعفهم .

وكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر ، هناك واقعة تشيب منها النواصى ، فسلخوا منهم من رأس الجزيرة الوسطى الى قنطرة باب البحر ، والى

قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر الى ما بعد المغرب .

ثم أشيع أن العربان لما وفعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذى كان بالريدانية .

ثم ان المماليك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية ، كما كانت العثمانية تكبس البيوت على الجراكسة ، ومثل ما يعمل شاة الحمى فى القرظ ، يعمل القرظ فى جلدها ، فصاروا يدورون فى الحارات ، وكل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ، ويحضرونها بين يدى السلطان طومان باى ، وصار الطالب مطلوبا ، ولكن لم يتم لهم ذلك .

فلما كان يوم الخميس سادس المحرم ، اشتد القتال بين الفريقين ، ونادى السلطان طومان باى فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن « كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ، ويقطع رأسه ، ويحضرها بين يدى السلطان » .

ثم ان العثمانية طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة النيل . وملكوها منهم ، ثم ان الأتراك خرقوا عقد قنطرة قديدار خوفا من العثمانية أن يهجموا عليهم ، ثم ان العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عساد الدين التى بالناصرية ، وقبضوا على من بها من المماليك الجراكسة ، وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية ، ونهبوا القناديل والحصر التى فى الزاوية ، وقتلوا جماعة كثيرة من العوام ، وفيهم صغار وشيوخ لا ذنب لهم .

ثم ان العثمانية طردوا الأتراك من الناصرية الى قناطر السباع ، ثم ان السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو بالعمري الذى بالصليبة وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة الى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر . ثم رسم بخفر خندق فى رأس

الصليبية ، وآخر عند قناطر السباع ، وآخر عند رأس الرملة . وآخر عند جامع ابن طولون ، وآخر عند حدة البقر .

ثم ان السلطان طومان باي رسم بحرق خان المتبلى ، فمنعه بعض الأمراء من ذلك ، وأشيع أنه قسم العسكر الى أربع فرق . فرقة الى جهة قناطر السباع ، وفرقة الى جهة الرملة ، وفرقة الى جهة جامع ابن طولون ، وفرقة الى جهة باب زويلة . فلم يقاتل من الممالك الجراكسة الا النسل ، وصاروا يختفون في الاضطرابات والزوايا خوفا من القتال ، وقد دخل الرعب في قلوبهم من العثمانية فما بقي يخرج منها .

ثم ان طائفة من العثمانية توجهوا من جهة مصر العتيقة ، وطلعوا من جهة باب القرافة ، وملكوا من باب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فدخلوا الى ضريحها ، وداسوا على قبرها ، وأخذوا قناديلها الفضة والشمع اللى كانت عند قبرها ، وبسطوا الزاوية ، وأخذوا من مقامها شيئا كثيرا ، وقتلوا أيضا في مقامها ممالك جم اكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا اجتمعوا بها حين هربوا من المعركة .

ثم ان السلطان قصد أن يهدم قناطر السباع ، فهدم من عقدها بعض شيء . ثم ان الأتراك سجنوا جماعة من العثمانية ، فهربوا وطلعوا الى مآذن الجوامع . فطلعوا مئذنة المؤيد ، وصاروا يرمون الناس بالبندق والرصاص ، ويمنعونهم من الدخول الى باب زويلة ، واستمروا على ذلك حتى طلع لهم الأتراك وقتلوه في المئذنة شر قتلة .

ثم صارت القتل من الأتراك والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق الى قناطر السباع ،

والى الرملة والى تحت القلعة ، وفي الحارات والأزقة ، وهم آبدان بلا رعوس .

هذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب يعرفون الناس ، وبأخدون أثوابهم ، ويقتلونهم ويقتلون كل من يلوح لهم من العثمانية ، وغيرهم ، ولولا لطف الله تعالى لهجموا على الناس في القاهرة ، ونهبوا أسواقها ودورها .

ثم ان السلطان طومان باي نادى في القاهرة أن كل من أمسك أحدا من العثمانية ، وطلب منه الأمان لا تقتله ويأتى به حيا .

ومن العجائب في هذه الواقعة ، أن السلطان طومان باي لما ظهر في هذه المرة بعد انهزامه في الريدانية ، خطب باسمه في القاهرة ، وكان في الجمعة الماصية خطب باسم سليم شاه بن عثمان فكان كما يقال في المعنى :

لا نياسن من فرج ولفظ

وقوة نظهر بعد ضعف

فاستمر السلطان طومان باي يرتفع امره مع عسكر ابن عثمان ، ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصى من يوم الأربعاء الى طلوع شمس يوم السبت ثامن المحرم ، فتكاسل العسكر عن القتال ، واختفوا في بيوتهم ، وتفرقت الأمراء عنه كل واحد في ناحية ، واستمر السلطان طومان باي يقاتل في عسكر ابن عثمان وحده في نفر قليل من العبيد الرماة وبعض ممالك سلطانية وبعض أمراء ، كالأمير شاد بك الأعور ، وآخرين من الأمراء العشراوات . فلما ظهر انه الغلب هرب وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله كما قيل في المعنى :

فليس الحظ ليس له دواء

ولو كان المسيح له طيب

وهذه رابع كسرة وقعت لمصر مع ابن عثمان ، وقد غلت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا .

ولما هرب السلطان طومان باي وفعت في القاهرة المسيحية العنصرية التي لم يسمع بشئها فيما تقدم من الزمان ، وهو أنه لما هرب السلطان طومان باي صبيحه يوم السبت ثامن المحرم .

طفشت العثمانية في الصليبية وأحرقوا جامع شبحو ، فأحرق سقف الايوان الكبير والقبعة التي كانت به ... فعلوا ذلك لتوبيه كان به وفعت الحروب لما تقدم ، وأحرقوا البيوت التي حوله في درب ابن عزيز . ثم هجموا على الشرفي بحبي بن العداس خليف الجامع ، وأحسروه بين يدي سليم شاه ابن عثمان ، فهم بضرب عنقه ، فلما بلغ الخليفة ذلك ، ركب وأبى الى ابن عثمان ، وشفع في ابن العداس ، وأخذه من القل ، ولولا أنه كان في أجله فسحة لأخربوا عنقه في الجبال ، وفاسى شدة من الشربة .

ثم ان العنصرية طفت في جميع البحارات والأماكن ، وحطوا عنيتهم في المبد والعداس والعوام من الزمر وعبرهم ، ولعبو بهم بالسيف ، وراح الصالح بالطالح ، وربما حرق من لادب له فصارت جنهم مرمية في الطرفات من باب زوبلة الى الرملة ، ومن الرملة الى الصليبية الى قناطر السباع ، الى الناصرة الى مصر العنيفة فكان مقدار من قتل في هذه المرافعة من بولاق الى الجزيرة الوسطى الى الصليبية فوق العنصرة آلاف انسان ، في هذه هذه الأربعة الأيام ، ولولا لطف الله تعالى لفنى أهل مصر فاطمة بالسيف .

ثم ان العثمانية صارت تكس على الممالك الجراكسة في البيوت والحارات ، فمن وجدوه

منهم ضربوا عنقه ، وكذلك الجوامع الكبار ، والمدارس والزوايا . فهجموا على الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون ، وغيرها ، وقتلوا من وجدوه من الممالك الجراكسة فيها . فقبل قبضوا على نحو ثمانمائة مملوك ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ، ومسايلك سلطانية . فضربوا رقابهم أجمعين بين يدي السلطان سليم . وقيل ان المشاعلى الذى كان هنالك افرنجي ، وقيل يهودى من الروم . وكان اذا ضرب عنق أحد من الجراكسة يعزلها وحدها ، ويعزل رؤوس الغلمان والعربان وحدها ، ثم ينصب الجبال على الصواري ويعلق عليها تلك الرؤوس في الوطاق الذى بالجزيرة الوسطى . وكان المشاعلى اذا حز رأس الممالك يرمى جثهم في البحر .

وأخبرنى من أثق به أنه شاهد جثة الأمير قانصوه رجليه أحد الأمراء المقدمين الذى كان نائب قطيا وهى مرمية قدام سميل السلطان ، والكلاب تنهش في متارينه وشحم بطنه ، فانه كان رجلا جسيما . وقتل في هذه الواقعة الأمير بخشبای الذى كان فرره السلطان طومان باي أمير مجلس كما تقدم ، وقتل آخرون من الأمراء الطليعانات والعشراوات والخاصكية وغير ذلك ، وصارت الحث مرمية في الرملة الى سوق الخيل ، ثم الى الحسين ، وقد تنهست الكلاب أجسادهم .

ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط . الا ما كان في زمن بختنصر البابلى لما أتى من بابل وزحف على البلاد بعسكره وخربها وهدم بيت المقدس . ثم دخل مصر وخربها عن آخرها ، وقتل من أهلها مائة ألف ألف انسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ، لس بها ديار ولا نافخ نار . فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من

يزرع عليه الأراضي ولا ينتفع به . لكن هذه الواقعة لها نحو ألفى سنة وهي قبل ظهور عيسى ابن مريم عليه السلام .

ثم وقع مثل ذلك في بغداد في فتنة هولاء ، وهو المعروف بتتار ، لما زحف على بغداد وخرّبها وأحرق بيوتها ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، واستمرت من بعد ذلك خرابا الى الآن ، فوقع لأهل مصر ما يقرب من ذلك ، وما زالت الأيام تبدى العجائب .

فلما هرب السلطان طومان باى وقتل من قتل من الأمراء والعسكر ، رجع السلطان سليم شاه الى وطاقه الذى فى الجزيرة الوسطى ، وبص فى وطاقه صنجقين أحدهما أبيض والآخر أحمر ، وذلك اشارة عندهم لرفع السيف عن أهل المدينة . هكذا عادتهم فى بلادهم اذا ملكوا مدينة وفتحوها بالسيف عنوة .

وفى هذا الشهر توفى الشيخ شهاب الدين القسطلانى ، وكان علامة فى الحديث ، وله شهرة طائلة بين الناس ، وكان لا بأس به .

وفى تلك الأيام صار الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحل والعقد ، والأمر والهمى بالديار المصرية . وصارت أولاد السلاطين جالسه فى دهليز بيته لا يعبا بهم ، مثل المقر العلائى على بن المؤيد أحمد ، وابن الظاهر خشقدم ، وأولاد الملك المنصور عثمان ، وغير ذلك من أولاد الأمراء ، وأعيان الناس من الرؤساء والمباشرين ، وجماعة من الأمراء مثل قانى بك رأس بوية ثانى ، وسنبل مقدم الممالك ، وغير ذلك من الأمراء ، فى دهليز بيته لم يلتفت اليهم ، وصار رنكه مضروبا على غالب البيوت . وكانت مراسلته ماشية فى المدينة لا ترد ، وشفاعته كافية فى كل أمر اشتد . وصار هو

فى مقام سلطان مصر فى نفوذ الكلمة ، وظهور العظمة فى تلك الأيام . ودخل عليه من الناس أموال وتفادم عظمة لم تصل لأبائه ولا أجداده ، وصارت الستات والحوندات مرمية فى دهليز بيته لا يلتفت اليهن ، وصارت خوند ابنة الأمير أقبردى الدوادار زوجة السلطان طومان باى مقيمة فى بيته ، وقد قرر عليها السلطان سليم شاه مالا جزيلا تورده الى الديوان . فلا زال الخليفة يتلطف بالسلطان سليم شاه حتى حط عنها جانبا من المال الذى قرره عليها . وحصل له من الستات والحوندات خدم جزيلة . فطاش الخليفة فى تلك الأيام الى الغاية ، وظن أن هذا الحال بنم له ، وما علم أن القبان بآخره . كما قيل فى المعنى :

أمور تضحك السفهاء منها

ويبكى من عواقبها اللبيب

ومن الحوادث أن أولاد الزنكلونى الدين جرى لهم مع السلطان العورى ما جرى ، ومات أبوهم تحت الضرب . وابن نور الدين المشالى الذى شنقه العورى — كما تقدم ذكره — لما تعيرت الدول ودخل ابن عثمان الى القاهرة ، ونادى من كانت له خلاصة يرفع أمره الى السلطان سليم ، ثار أولاد الزنكلونى وابن نور الدين المشالى على القاضى شمس الدين وحيش ، وقالوا له أنت كنت سببا لشنق نور الدين المشالى ، وضرب الزنكلونى . وقصدوا أن يمضوا به الى ابن عثمان ليقطع رأسه ، فترامى على الخليفة فى عمل المصلحة بينه وبين أولاد الزنكلونى وابن المشالى ، فتكلم الخليفة بينهم على أن ابن وحيش يدفع الى أولاد الزنكلونى ثلثمائة دينار ، ولابن المشالى مائتى دينار ، فأبوا من ذلك ، واستمرت دعوتهم باقية على شمس الدين بن وحيش الى أن يعرضوا ذلك على ابن عثمان .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم ، نادى
لسلطان سليم شاه بعد العصر فى القاهرة بأن
لأمرء المقدمين والأمراء الأربعينيات والأمراء
العشراوات الذين اختفوا بعد الواقعة يظهرون
وعليهم أمان الله تعالى .

وقيل ان السلطان سليم شاه كتب للأمراء عهدا
وأمانا فى ورقة طويلة وعلقها المنادى على جريدة ،
ونادى أيضا بأن الأمراء المختفين يظهرون
ويتوجهون الى مدرسة السلطان العورى وعليهم
الأمان . فظهر الأمير أركسأس أمير سلاح ، والأمير
أنص باى أمير آخور كبير ، والأمير تسر الحسى -
رأس نوبة النوب ، والأمير طقطبباى حاجب
الحجاب ، والأمير تانى بك الحازندار أحد
المقدمين ، والأمير تانى بك النجمى أحد المقدمين ،
والأمير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين .

ومن الأمراء الطبلخانات الأمير مصرباى الأقرع ،
والأمير قانى بك رأس نوبة ثانى ، والأمير يتبك
الفقيه دوادار السلطان طومان باى ، وكان مختفيا
فى الجامع الأزهر فطلع بالأمان .

وظهر من الأمراء العشراوات نحو أربعين أميرا
وأكثر من ذلك وآخرون من الخاصكية .

فلما ظهروا واجتمعوا فى المدرسة الغورية
احتاط بهم جماعة من العثمانية ، ثم مضوا بهم الى
الوطاق وأرادوا أن يخونوهم . فلما قابلوا السلطان
سليم وبخهم بالكلام وبسق على وجههم ، ودكر
لهم ظلمهم وما كانوا يصنعون ، تم رسم لهم بأن
يطلعوا الى القلعة ، ويقيموا بها محتفظا بهم فطلعوا
الى القلعة .

وفيه أشيع أن جان بردى الغزالى أرسل بطلب
الأمان من السلطان سليم شاه . وقد وصل الى

الخاتقاه وصحبته جماعة من المماليك الجرائسة
الذين هربوا بعد الكسرة ، فأرسل له السلطان
سليم شاه أمانا .

وفيه أشيع أن السلطان طومان باى لما هرب من
الواقعة التى كانت بالصليية ظهر بعد ذلك أنه
توجه الى البهنسا وأقام بها ، فلما ضجر من الذى
قاساه من الحروب والشرور ، أرسل القاضى
عبد السلام قاضى البهنسا ليطلب له الخليفة الأمان
من السلطان سليم شاه .

وفيه أشيع أن العثمانية هجموا على مقام
الامام الشافعى رضى الله عنه ونهبوا ما فيه من
السطر والقناديل فى حجة المماليك الجراكسة ،
وكذلك مقام الليث بن سعد أيضا نهبوا ما فيه .

وفي يوم الثلاثاء ، ثامن عشر المحرم ، دخل
جان بردى الغزالى القاهرة وعلى رأسه منشور
فيه أمان من السلطان سليم شاه ، فتوجه اليه وهو
فى الوطاق وفابله هناك . وكان الغزالى لما انكسر
السلطان طومان باى فى الريدانية أشيع أنه هرب
الى عكة ، وقيل الى غزة ، ومعه جماعة من المماليك
الجراكسة . وكان جان بردى الغزالى منوطا مع
ابن عشان فى الباطن من أيام الغورى . وكان سببا
لكسرة العسكر فى مرج دابق هو وخاير بك نائب
حلب ، وانهزما قبل العسكر ، وأشاعا الكسرة على
عسكر مصر .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر المحرم ، أشيع أن
المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالى رسموا
عليهم ، وقيل سجنوهم بالقلعة ، وكانوا نحو
أربعمائة مملوك ، وقد ظهروا بالأمان من ابن
عشان . فلما ظهروا قبض عليهم وغدر بهم ، وكان
من عادته يعطى الأمان للأمراء والمماليك ثم يغدر
بهم فى الحال ، فكان لا يثق أحد منه بالأمان .

وعيه قرر السلطان سليم شاه جماعة من أمرائه في الولايات على بعض البلاد ، منهم نائب غزة ، ومنهم كاشف المحلة والشرقية والغربية ، فولى عدة اكتشاف في أماكن مختلفة من البلاد .

وفي يوم الخميس عشرين المحرم ، نادى السلطان سليم شاه في الصليبية وقناطر السباع بأن أصحاب الأملاك الذين في الصليبية وجامع ابن طولون يخلون بيوتهم ، فان السلطان سليم شاه طالع الى القلعة ليقيم بها ، وصار يكرر المنادة في كل يوم بذلك ، فأخلى الناس بيوتهم .

فلما طلع الى القلعة نادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وكيف الأمان وقد خرجت الناس من بيوتهم على وجوههم في أسوأ الأحوال ، وانطلقت في قلوبهم جمره نار ، وهجمت الطوائف العثمانية على الناس في بيوتهم ، وأخرجوهم منها وسكنوا بها ، حتى صارت الحارات والأزقة ما تنشق منهم ، وصاروا كالجراد المنتشر من كثرتهم ، من الصليبية الى جامع قوصون الى قناطر السباع الى داخل باب زويلة ، وما خلا منهم موضع في المدينة . وصارت الناس تسد أبوابها وتضيقها مثل الحوخ حتى لا تدخل فيها الخيول ، ولم يقد ذلك شيئا ، وهدموا ما بنوه وسكنوا بها .

تم ان السلطان سليم شاه طلع الى القلعة في موكب حافل رجت له القاهرة ، وكان معه المماليك الذين طلّعوا بالأمان ، وقيدوهم وأودعوهم في الوكالة التي خلف مدرسة السلطان الغوري .

وفي أوائل هذه السنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم العلامة برهان الدين ابراهيم بن أبي شريف المقدسى الشافعى ، كان عالما فاضلا في مذهبه ،

بارعا في العلوم ، ورعا زاهدا ... ولى قضاء الشافعية في أيام السلطان الغورى ، فأقام بها مدة وعزل عنها ، ثم قرره الغورى في مشيخة مدرسته ، وقاسى في أواخر عمره شدائد ومحنا من السلطان الغورى وأقام مدة طويلة وهو عليل ، حتى مات ، وعاش من العمر فوق الثمانين سنة . ولما أن مرض ثارت الحروب والفتن وتكاثرت الأهوال على الناس بمصر ، فمات ولم يشعر بموته أحد من الناس ، رحمة الله عليه .

وتوفى أيضا البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين كان ، وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس ، وكف بصره قبل موته بمدة طويلة ، وكان أنشأ له تاريخا لضبط الوقائع ، وكان علامة في كل فن ، رحمة الله عليه .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشرين المحرم ، خلع السلطان على الشرقى يوس الاستادار قفطانا من المحمل بالذهب ، وجعله متحدثا على جهات بلاد الشرقية ، ليمسح البلاد ويكشف ما فيها من اقطاعات المماليك الجراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف . فأخذ فوائم من أولاد الجيعان بمعنى ذلك . ونزل الى الشرقية ، فما أبقى من أبواب المظالم شيئا حتى فعله بالشرقية . وقرر فخر الدين ابن عوض وبركات آخا شرف الدين الصغير متحدثين في جهات الغربية . وقرر الزينى بركات بن موسى متحدثا على جهات المحلة . وقرر شرف الدين الصغير وأبا البقا ناظر الاصطبل متحدثين في الجهات القبليّة ، فأظهر كل منهم أنواعا من المظالم في حق الناس بسبب الاقطاعات والرزق .

وأشيع أن السلطان سليم شاه أوقف أمر المناشير

التي بيد أولاد الناس بسبب أقاظيعهم ، فحصل لهم غاية الضرر بسبب ذلك .

وفي آخر هذا الشهر تشحطت الغلال وارتفع الخبز من الأسواق ، وسبب هذا الأمر أن العثمانية لما دخلوا القاهرة نهبوا المغل الذي في الشون ، وأطعموه لخيولهم ، حتى لم يبق في الشون شيء من الغلال . ونهبوا القمح الذي كان بالطواحين ، واضطربت أحوال الناس قاطبة

ثم ان الأخبار ترادفت بأن طومان باي ظهر أنه في الصعيد ، عند أولاد عمر ، ومنع المراكب من الدخول الى مصر بالغلال . فبسبب ذلك وقعت التشحيطة بمصر .

وأما السلطان سليم فانه لما طلع الى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد ، ولم يجلس على الدكة بالحوش السلطاني جلوسا عاما ، ولم يفصل بين ظالم ومظلوم ، بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأسر وأخذ أموال بغير حق . وكان هذا على غير القياس . فانه كان أشيع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم في بلادهم ، قبل أن يدخل سايم شاه الى مصر ، فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة ، ولا متى سليم شاه على قواعد السلاطين السالفة ، ولم يكن له نظام يعرف لا هو ولا وزرائه ولا أمراؤه ولا عسكره ... بل كانوا همجا لا يعرف الغلام من الأسناذ .

ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ، ربطت العسكر ، الخيول في الحوش الى باب القلعة عند الايوان الكبير وباب الجامع الذي بالقلعة ، وصار روث الخيل هناك كأنه كيما ن التراب على الأرض ، حتى سد الطريق .

وخرب ابن عثمان غالب الأماكن التي بالقلعة وفك رحامها ونزل به في المراكب يسوجهون به الى القسطنطينية .

ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره بالرميلة من باب القرافة الى سوق الخيل ، ثم ان العثمانية نصبوا حية في وسط الرميطة وجعلوا فيها دنان بوزه ، وخيمة أخرى فيها جنغان حشيش ، وخيمة أخرى فيها صبيان مرد لأجل المحارفة كعاداتهم في بلادهم .

وفي يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان باي قويت شوكته ، والتف عليه جماعة كثيرة من العربان ، واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجم الكثير

وأشيع أنه وصل اليه من نغر الاسكندرية زردخاناه ما بين ثياب وقسي وبارود . فلما تحقق السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الملك الأشرف طومان باي ، وصار على رأس أهل مصر طيرة مما جرى عليهم في الواقعة التي كانت بالصليية ، فخشوا من مثل ذلك .

وفي صفر وكان مستهله يوم الأحد ، في يوم الثلاثاء ثائه حضر العالائي على ناظر الخواص ، وكان قد توجه الى نغر الاسكندرية ، فلما حضر أحضر صحبته جماعة من المالبك الجراكسة كانوا هناك ، فأحضرهم في زناجير . ثم أشيع بعد ذلك أن ناظر الخواص كان قد توجه الى ... ١ ويقول لهم سبحانه الله ان كنتم نسيتمونا فنحن ما نسيناكم . وأرسل يعتب عليهم ويتجرش بهم .

ثم بعد أيام أشيع أن طومان باي أرسل يقول لابن عثمان : « ان كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك ، وأكون أنا قائبا عنك بمصر ،

(١) بياض بالأصل .

وبردبك داوادر الخليفة ، الى السلطان طومان باى
نحو الصعيد .

وفى هذه الأيام قويت الاشاعات بأن السلطان
طومان باى جمع من العساكر والعربان ما لا يحصى
عددهم وهو زاحف على ابن عثمان فى بر الجزيرة .
فكثرت القيل والقال ، ووقع الاضطراب فى القاهرة
بسبب ذلك .

ثم أشيع أن الأمير علان بن قراجا الدوادر
الكبير قد توفى بالصعيد ودفن فى بعض الضياع
هناك وصلى عليه السلطان طومان باى والأمراء
الذين كانوا هناك . وكان الأمير علان جرح فى
الواقعة التى كانت بالريدانية ، واستمر عيلا من
ذلك الوقت حتى مات هناك ، وكان من فحول
الأمراء وأشجعهم والله غالب على أمره .

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر تزايد فساد
العربان بالشرقية ، وصاروا يقطعون الطريق على
العثمانية ويقتلونهم ويأخذون خيولهم وجمالهم
وسلاحهم ، ونهبوا بلاد عبد الدائم بن أبى
الشوارب وأحرقوها ، ونهبوا عدة بلاد من
الشرقية ، منها قلوب وقلقشندة ، وغير ذلك من
البلاد ، ووصلوا الى شبرى ، وصاروا يعدون من
شبرى الى قنطرة الحاجب . فلما تزايد الأمر
أرسل اليهم السلطان سليم شاه تجريدة فيها من
العسكر نحو ألف وخمسمائة عثمانى ، وجعل عليهم
جان بردى الغزالى باشا ، فخرجوا من القاهرة على
حماية وتوجهوا الى الشرقية فأقاموا بها أياما ،
فذهبت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبال
فرجع العسكر ولم يلاقوهم .

وفى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من الصعيد
بأن القضاة الأربعة وبردبك داوادر الخليفة ، وقاصد
ابن عثمان مصلح الدين الذى كان أرسله معهم ،

وأحمل اليك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه
بيننا من المال الذى أحمله اليك فى كل سنة ،
فأرحل عن مصر أنت وعسكرك الى الصالحية ،
وصن دماء المسلمين بيننا ، ولا تدخل فى خطيئة أهل
مصر من كبار وصغار وشيوخ ونساء ، وإن كنت
ما ترضى بذلك أخرج ولاقنى فى بر الجزيرة ،
ويعطى الله النصر لمن يشاء منا .

فلما وقف السلطان سليم شاه على مطالعة
السلطان طومان باى ، أرسل خلف أمير المؤمنين
والقضاة الأربعة ، وأحضر جماعة من وزرائه ،
وكتب بحضرتهم صورة حلف الى السلطان طومان
باى ، وكتب ابن عثمان خطه عليها ، ووقع الاتفاق
فى القلعة على أن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجهون
الى السلطان طومان باى بذلك الحلف على
أيديهم .

ثم إن ابن عثمان خلع على القضاة الأربعة خلعا
سنية وقال لهم : « انزلوا فى هذا الوقت واعملوا
برقكم حتى تتوجهوا الى طومان باى نحو
الصعيد » . فنزلوا من القلعة على ذلك .

ثم إن الخليفة امتنع من التوجه الى السلطان
طومان باى ، وقال أنا أرسل دوادارى برد بك الى
طومان باى صحبة القضاة الأربعة . وأشيع أن
المطالعة التى أرسلها طومان باى الى ابن عثمان
ذكر فى ذيلها : « ولا تحسب أنى أرسلت أسألك
فى أمر الصلح عن عجز ، فإن معى ثلاثين أميرا
ما بين مقدمى ألف وأربعينيات وعشراوات ، ومعى
من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا ،
وما أنا بعاجز عن قتالك ، ولكن الصلح أصلح
لصون دماء المسلمين » .

ثم فى عقب ذلك توجهت القضاة الأربعة ،

وجماعة من العثمانيين ، وصلوا الى قريب البهنسا ، فخرج عليهم جماعة من الجراكسة فقتلوا العثمانيين ، وهرب برد بك دوا دار الحليفة حتى بجا من القتل ، ونهب جميع ما معه من القماش ، وغيره . وأشيع قتل قاضي البهنسا عبد السلام ، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك ، وما سلموا من القتل الا بعد جهد كبير .

فلما بلغ ابن عثمان ذلك اغتاض غيظا شديدا وتحقق أن السلطان طومان باي قد أبى الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان ، ثم اد ابن عثمان نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى الى بركة الحبش . وفي يوم السبت حادى عشرين صفر نزل السلطان سليم شاه من القلعة ومعه الجهم الكثير من العساكر ببركة الحبش ، ونوجه المباشرون صحبته ، حتى القاضي كاتب السر ، وأخذ السفائين بجمالهم ، فضج الناس من العطش لأن السلطان ابن عثمان طلب جميع السفائين بجمالهم ورواياهم ليسافروا معه الى الصعيد بسبب السلطان طومان باي ، وإن كان يهرب منه الى بلاد الزنج وينبعه ، فوصل ثمن الراوية الماء أربعة أنصاف .

وفي يوم السبت ثامن عشرين صفر أشيع أن أوائل عسكر السلطان طومان باي قد وصل الى نرسه بالقرب من الجزيرة ، فرسم ابن عثمان بعسل وحسات على شاطئ البحر بجهة طرا لأجل تعديه العسكر ، وكذلك في بر مصر العيقة . وفي هذه الأيام امتنع جلب البضائع التى دلت ندخل الى القاهرة من الجبن والسنن والأغنام وغير ذلك من البضائع التى كانت تجلب من الجزيرة وبواحيها ، وقلوب وشبرى وغير ذلك من البلاد ، واضطربت أحوال القاهرة جدا بسبب اقامة هذه الفتنة .

وفي ربيع الأول ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ،

أشيع أن جان بردى الغزالي لما خرج من بلاد الشرقية ، كبس على عدة بلاد منها حين وصل الى التل والزكلون ، فنهب مافيها من الأبقار والأغنام والأوز والدجاج ، وأسر نساء الفلاحين وأولادهم الصبيان والبنات ، وصاروا يبيعونهم فى القاهرة بأبخس الأثمان ، كما فعل أقبردى الدوا دار فى الأحامدة وأولادهم . فاشتري بعض الناس بنتا بأربع أشرفيات وأعتقها ووهبها الى أمها ، وقد رق عليها .

ثم ان جان بردى الغزالي فعل فى الشرقية ما لم يفعله بختنصر لما دخل الى مصر . ثم ان يونس باشا نادى فى القاهرة أن كل من اشترى شيئا من نهب بلاد الشرقية من الأبقار والأغنام يرده على أصحابه ، وكذلك أولاد الفلاحين . ولام الغزالي على فعله ذلك فى الشرقية لوما عنيفا . وقد قيل فى المعنى :

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا
بيع الهوان وبحث أم لم تربح

قدم وآخر من أردت من الورى
مات الذى قد كنت منه تستحى

وفي يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول رسم السلطان سليم شاه بأن الأمراء الذين كانوا بالقلعة فى الترسيم يحضرون بين يديه فى الوطاق الذى فى بركة الحبش ، فنزلوا بهم من القلعة : شىء على بغال ، وشىء على حمير ، وشىء مشاة . وهم فى جنازير وعليهم كبوره عتق ، وعلى رؤوسهم كوافى بغير شاشات . وقيل كان فيهم من الأمراء المقدمين سبعة ، وهم : أركماس أمير سلاح ، وأنص باي أمير آخور ، وتسر رأس نوبة النوب ، وطقطباي حاجب الحجاب ، وتانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وتانى بك النجسى أحد الأمراء المقدمين ، وقانصوه أبو سنة أحد الأمراء المقدمين .

وأما الأمراء الطبلخانات فهم قانى بك رأس نوبة
ثانى ، ومصرياى الأفرع ، وألماس والى القاهرة ،
وماماي السعير المحسب ، ويوسف الأشرفى
الزردكاش الثانى . وآخرون من الأمراء الطبلخانات
لم نحضرنى أساؤهم الآن .

وأما الأمراء العتراوات فجساعة كثيرة هم
تحضرنى أساؤهم . فكان مجموع هؤلاء الأمراء
المقدم ذكرهم أربعة وخمسين أميرا ما بين ممدى
ألوف وغير ذلك . فلما منلوا بين يدى السلطان
سليم شاه ، وبجهم بالكلام ، تم امر ضرب أعناقهم
أجسعين ف ضرب أعناقهم فى الوطاق الذى ببركة
الحش ، وذلك فى يوم السبت خامس ربيع الأول .
وصارب أجسادهم مرميه على الأرض تنهشهم
الكلاب بالنهار ، والضباع والذئاب بالليل وصارت
المرأة من ساء الأمراء المقدمين تبرطل المشاعلة
بسال له صورة حتى يسكنوها من نكل جته زوجها
فتحضر له تابونا وحالين يحملونه من برقة الحش
الى المدنة ، فتغسله ونكفنه وتدفنه فى ترابه ان
كان له تربة . وتركت جت البسه هناك مرمية
تنهشها الكلاب .

وكانت هذه الكائنة من أعظم الكوائن فى حق
الأمراء . وقد ظهوروا بالأمان لابن عثمان ، تم
غدرهم وقتلهم ، فكان لا يثق احد له بالأمان ،
وليس له قول ولا فعل .

وفيل كان سبب قتل هؤلاء الأمراء أن السلطان
طومان باى لما قتل قاصد ابن عثمان وجساعة من
عسكره الذين توجهوا صحبه القضاة الأربعة ،
لما طلب طومان باى الأمان من ابن عثمان ، فلما فعل
ذلك طومان باى علم ابن عثمان أنه قد أبى من
الصلح ، فقتل هؤلاء الأمراء ظلما بعد أن أعطاهم
الأمان وكان ذلك من شدة عيظه وحمه وقد قلت
فى هذه الواقعة :

جل الذى أفنى عساكر مصرنا
من دولة أتراكها من جركس
وأنت الينا دولة عوجاء من
أولاد عثمان ذوى الفعل المسمى
قتلوا أكابرنا بأيسر حيلة
عملت عليهم لا بأسهم القسى
يالىت شعري دولة الأتراك هل
تأتى كما كانت ونذكر مانسى ؟!

ومن الحوادث أن السلطان سليم شاه لما قتل
هؤلاء الأمراء أرسل فقبض علم نسائهم ورسم
عليهن ، وأرسلهن الى بيت ناظر الخاص وأشيع
أنه قصد مصادرتهن ، وقرر عليهن مالا يوردنه .
فأقمن فى بيت ناظر الخاص أياما ، ولم يوردن من
المال شيئا ، فنقلوهن الى بيت الدفتردار فقصد أن
يعاقبن ، وقبل سجن مهن جساده فى الحجره حتى
يوردن ماقرر عليهن من المال . ورسم على مباشرى
الأمراء الدين قتلوا حتى يمسوا حساب اقطاعانهم
فأقاموا فى الترسيم مدة .

وفى يوم الأحد سادس ربيع الأول عدى السلطان
سليم باى بر الجيره بسبب قتال الأشراف طومان
باى . وقد بلعه أنه وصل الى المنوات ، ومعه من
العربان والعسكر ومن المساليك الجراكسه الحجم
الكثير .

فلما عدى الى بر الجيزة أقام بها الى يوم الخميس
عاشر شهر ربيع الأول ، فتلاقى عسكر ابن عثمان
وعسكر السلطان طومان باى على وردان ، وقيل
على المنوات ، فكان بين الفريقين وافعة لم يسمع
بشلها ، أعظم من الواقعة التى كانت بالريدانية .
وقيل كانت هذه الواقعة عند كوم الحمام وانكسر
عسكر ابن عثمان فوق ما مرة ، وطردتهم الأتراك

الجراكسة حتى ألقوا أنفسهم في البحر ، وكانت الكسرة عليهم أولا ، وقتل منهم جماعه كثيرة .

ثم بعد ذلك تكاثرت العثمانيه على الأتراك ، وطرشتهم الرماة بالبندق الرصاص ، فهزموهم هزيمة منكرة ، ووقع الكسرة على الأتراك ، وولى السلطان طومان باى مهزوما فنوجه الى قرية تسمى البوطة في أعلى تروجه ، وهذه خامس كسرة وقعت على عسكر مصر . وكان السلطان طومان باى ليس له سعد في حركاته ، كلما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس ، كما يقال في المعنى :

إذا لم يكن سود من الله للفتى

فأول ما يجى عليه اجتهاده

فلما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر ، قطع رءوس المساليك الجراكسه ، وقطع رءوس جماعه كثيره من العربان الذين كانوا مع السلطان طومان باى فلما تكامل قطع الرءوس رسم ابن عثمان باحضار مراكب ، فلما حصرت وضعوا فيها رءوس الذين قتلوا ، فلما عدوا الى بولاق صعدوا مدارى خُشب ، وعلفوا عليها تلك الرءوس ، وحملتها النوانيه على أكتافهم ، ولافتهم الطبول والزمور ونادوا في القاهرة بالزينة فزينت زينه حافلة ، وشموا بتلك الرءوس من البحر الى باب القنطرة ، وطلعوا بهم على سوق مرجوش ، وشقوا بهم من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود وفيل كان عدة الرءوس الذين قتلوا في هذه الواقعة ودخلوا القاهرة نحو ثمانمائة رأس ما بين أتراك وعربان وغير ذلك ، والذين قتلوا هناك وألقوهم في البحر أكثر من ذلك .

وفي يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول ، كانت

ليلة المولد النبوى ، فلم يشعر به أحد من الناس . وبطل ما كان يعمل في ليلة المولد من اجتماع العلماء

والقضاة الأربعة والأمراء بالحوش السلطاني ، والأسمطة التي كانت تعمل في ذلك اليوم ، وما كان يعطى للمقرئين والفقراء من الشقق والأنعام في تلك الليلة ، فبطل ذلك جميعه .

وأشيع أن ابن عثمان لما طلع الى القلعة وعرضت عليه الحواصل التي بها رأى خيمة المولد فباعها للمغاربة بأربعمائة دينار ، فطعواها قطعاً وباعوها للناس ستائر وسفر . وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا لم يعمل مثلها قط . قيل ان مصروفها على الأشرف قايتباى ثلاثون ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، وكانت غاية في التجميل حين تنصب ليلة المولد الشريف . وكانت كهيئة قاعة ، ولها أربعة لواوين ، وفوقها قبة بقمریات ، والكل من قماش . وكان فيها تقاصيص غريبة ، وفصوص غريبة ، وصنائع لا يعمل الآن مثلها أبداً ، وكانت اذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة انسان حتى ينصبوها في الحوش السلطاني ، وكانت من جملة شعائر المملكة السلطانية بالقاهرة ، فابتيعت بأبخس الأثمان ، ولم يعرف ابن عثمان قيستها ، وفقدتها الملوك من ذلك الوقت ، وهذه من جملة مساويه التي فعلها بمصر .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما بلغه أن الدفتردار رسم على نساء الأمراء الذين قتلوا ، أنكر على الدفتردار ذلك ، وأمر باطلاقهن من الترسيم ، وأمر ألا يأخذ أحد منهن شيئاً ويتركهن ما تأخر عليهن من المال . فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، ولم يظهر لهذا الكلام تنبجة فيها بعد ، واستمرت المصادرات عسالة كما كانت بل ازدادت أضعافاً .

وفيه جاءت الأخبار من البهنسا بأن قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محسود ابن قاصى القصاصة عبد البر بن الشحنة قد قتل هو وأخوه أبوبكر . وكان

السلطان سليم شاه أرسله مع القضاة الثلاثة الى السلطان طومان باى بالبهنسا ، لما أرسل يطلب من ابن عثمان الأمان . فكتب له أمانا وصورة حلف ، وأرسله على يد قاضى القضاة ، وأرسل صاحبتهام أميرا من أمرائه ، وجباة من العنمانية . فلما وصلوا هناك لم يوافق السلطان طومان باى على الصلح ، ولم يسكنه الأمراء من ذلك ، وتآروا على جباة ابن عثمان وقتلوهم عن آخرهم وقتلوا عبد السلام قاضى البهنسا وقتلوا قاضى القضاة محسود بن الشحنة .

ويقال ان سبب قتله أن أخاه آبا بكر كان عنده عمرسه وملوحة رغبة ، فنهبا سباه الناس المور ، فزعموا أنه غمز على شخص من المماليك الجراكسة كان مختفيا في مكان ، فدل العنانية عليه ، فهجموا على ذلك المملوك وقطعوا رأسه .

فلما سافر قاضى القضاة محسود بن الشحنة الى السلطان طومان باى بسبب الأمان الذى أرسله اليه ابن عثمان ، سافر أبو بكر صجبة أخيه محسود الى البهنسا ، فثارت الجراكسة على جماعة ابن عثمان وقتلوهم هناك ، فكان للمملوك الذى قتل أخ هناك فغمزه بعض المماليك على أبى بكر وقالوا له هذا الذى غمز على أخيك حتى قطعوا رأسه فوئب ذلك المملوك على أبى بكر وقطع رأسه هناك . فنعصب له أخوه محسود بن الشحنة ، فوثبوا عليه فقطعوا رأسه أيضا ، ودفنا هناك .

هذا ما أشيع واستفاض بين الناس من أمرهما . ولما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر أقام في بر الجيزة أياما ، وسار من هناك وتخرج على الأهرام وتعجب من بنائها .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره نادوا في القاهرة بإبتيال الفلوس العتيق . وضربوا للناس فلوسا

جددا كل اثنين بدرهم ، وعليها اسم سليم شاه ، وكانت في عاية الحقة ، فنصرر الناس معها الى الغاية .

وفي أثناء هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا الناصرى محمد الأشقر شيخ الشيوخ بحاqqه سريافوس ، وكان اصيلا عريفا من ذوى البيوت . وكان والده القاضى محب الدين الأشقر ولى نظارة الجيش . وكتابة السر بالديار المصرية . وكان من أعيان الرؤساء رحمه الله عليه ، مات وله من العمر فوق التسعين سنة . وكان عنده لى جانب مع تواضع زائد ، وكان أسير اللول جدا ، كانت أمه جارية حبشية مسولدة الأشقر .

ومن هنا نرجع الى اخبار السلطان طومان باى فانه لما تلافى مع عسكر ابن عثمان على المنوف وفيل بوردان ، انكسر عسكر السلطان طومان كما تقدم القول على ذلك ، فتوجه طومان باى الى نحو تروجة بالغريسة منهزما ، فلافاه حسن ابن مرعى وشكر ابن أخيه مشايخ البحيرة في ضيعة تسمى البوصه ، فغزما على السلطان طومان باى ليصيفاه . وكان حسن بن مرعى بينه وبين السلطان طومان باى صداقة قديمة ، فركن له السلطان طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة .

ثم ان السلطان طومان باى أحضر الى حسن بن مرعى وشكر مصحفا شريفا وحلفهما عليه ابهما لا يحونانه ، ولا يعدران به ، ولا يدلسان عليه بشىء من الأشياء ، ولا بسبب من أسباب المسك ، ولا يدلان عليه . فحلقا له على المصحف سبع أيمان بمعنى ذلك ، فطاب قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عندهما .

فلما استقر عندهما احتاطت به العربان من كل جانب وهو لا يدري بما به المقادير تجري . ثم انهما

أرسل إلى السلطان سليم شاه أعلماه به ، فأرسل إليه جماعة من عسكره فقبضوا عليه ، ووضعوه في الحديد ، وتوجهوا به إلى ابن عثمان ، ولما رأى من كان مع السلطان طومان باي من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه ، تفرقوا من حوله ، وتشتتوا في البلاد . وتمت الحيلة على السلطان طومان باي ، وخانه حسن بن مرعى بعد أن حافه على المصحف الشريف وركن إليه .

وكان حسن بن مرعى من أعز أصحاب السلطان طومان باي . وله عليه غاية الفضل والمساعدة من أيام السلطان العورى ، وقام بما عليه من المال مراراً ، فلم يذكر له من هذه الأخلاق نبينا ولا أثر فيه الحير . فكان كما قيل في المعنى :

لا تركزن إلى الحريف فماؤه

مستوخم وهوأوه خطاف

يمشى مع الأجسام مشى صديقها

ومن الصديق على الصديق يخاف

فلما أحضروا السلطان طومان باي بين يدي ابن عثمان وهو لابس مثل لبس العرب الهوارة ، وعلى رأسه زنط ، وعليه شاش ، وعلى بدنه ملوطة بأكمام طوال . فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له ثم عاتبه ببعض كلمات ، فلما خرجوا به من قدامه توجهوا به إلى خيمة من الخيام ، فأقام بها ، واحتاطت به الأنكشارية بالسيوف لأجل الحفظ به . فأقام هناك أياماً وهو بوطاق ابن عثمان ببر انبابة .

وفيه وردت الأخبار إلى القاهرة بمسك السلطان طومان باي ، فصارت طائفة من الناس تكذب بمسبكه ، وطائفة تصدق ذلك . فأقام السلطان طومان باي في الوطاق عند ابن عثمان ، وهو في الحديد إلى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الأول من تلك السنة . وكان ذلك اليوم يوم الخميس ،

وهو يوم قطر النصارى وعيدهم الأكبر . فعدوا بالسلطان طومان باي من بر انبابة إلى بولاق ، وطلعوا به من هناك وهو راكب على أكديش : وهو في الحديد ، وعليه لبس العرب الهوارة كما تقدم . وكانت مدة اقامته في الوطاق على تلك الحالة نحو سبعة عشر يوماً . وأشيع أن ابن عثمان قصد أن يرسل طومان باي إلى مكة ولا يقتله ، ثم بدا له بعد ذلك ما سنذكره .

فلما علم ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باي ، حنق من ذلك وعدى به إلى بولاق ، فلما طلع إلى بولاق وشق من المقس ، كان قدامه نحو أربعمئة عثماني ورماة بالنفط ، فطلع من جهة سوق مرجوش ، وشق من القاهرة ، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق . حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدري ما يفعل به .

فلما أتوا إلى باب زويلة ، أنزلوه عن فرسه وأرخصوا له الجبال ، ووقفت حوله العثمانية بالسيوف مسلولة . فلما تحقق أنه يشنق وقف على أفدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : افرأوا لى الفاتحة ثلاث مرات . ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات ، وقرأت الناس معه ، ثم قال : للمشاعلى : اعمل شغاك .

فلما وضعوا الحية في رقبتهم ورفعوا الجبل ، انقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الجبل مرتين ، وهو يقع على الأرض ثم يعلقونه وهو مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياء جوخ احمر ، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفي رجليه لباس من جوخ أزرق ... فلما شنق وطلعت روحه ، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . فانه كان شاباً حسن الشكل ، كريم الأخلاق ، سنه نحو أربع وأربعين سنة . وكان

شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان ، وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفتك في عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات ، وهو في نفر قليل من عسكره . ووقع منه في الحرب أمور لم تقع من الأبطال العاترة .

وكان لما سافر عمه السلطان الغورى ، جعله نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من حلب ، فساس الناس في غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية في غيبة السلطان ، وكانت القاهرة في تلك الأيام في غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك .

لما مات السلطان الغورى عمه ، وتسلطن عوضه ، أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل في أيام الغورى ، ولم يشوش على أحد من المباشرين في مدة سلطنته .

ولما وصل ابن عثمان الى الشام وقصد أن يخرج اليه ، قيل له ان الخزائن خالية من الأموال . فقال له الأمراء وجماعة المباشرين : « افعل كما فعل السلطان الغورى ، وحد أجرة الأماكن التي بالقاهرة سبعة أشهر ، وخذ من الرزق والأقطاعات خراج سنة » . فلم يسمع لهم شيئا وأبى من ذلك ، وقال : « ما أجعل هذا مسطرا في صحيفتى » .

وكان ملكا جليلا قليل الأذى . كثير الخير ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما ، فانه تسلطن رابع عشر رمضان ، وانكسر وهرب تاسع عشر ذي الحجة .

وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد ، وقاسى شدائد ومحنا ، وحروبا وشرورا وهجاجا... وتشتت في البلدان ، وآخر الأمر شنق على باب زويلة . وأقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى فاحت رائحته .

وفي اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ، ووضعوه فيه ، ونوجهوا به الى مدرسة السلطان الغورى عمه ، ففسلوه وكفنوه ، وصلوا عليه ودفنوه في الحوش الذي خلف المدرسة ، ومضت دولته كأنها لم تكن ، وقد قلت من أبيات :

لنفي على سلطان مصر كيف قد
ولى وزال كأنه لن يذكر
شنقوه ظلما فوق باب زويلة
ولقد أذافوه الوبال الأكبر
يا رب فاعف عن عظام جرمه
واجعل جنان الحلد رب له قرى

وكان شنق السلطان طومان باي من غابات سعد السلطان سليم شاه بن عثمان ولم يسمع بمتل هذه الواقعة فما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولم يعهد مثل هذا ، ومن عهد شاه سوار الذي كلموه على باب زويلة ، لم يعلق أحد ممن له شهرة طائلة غير السلطان طومان باي .

ثم ان ابن عثمان لما شنق طومان باي صفا له الوقت ، وفعل بعد ذلك أمورا يأتى الكلام عليها . ثم أخذ في أسباب التوجه الى نحو بلاد القسطنطينية ، فأشع أنه يجعل بوس باشا نائبا عنه بمصر . ثم حلق على شخص من جماعته وقرره نائب غزة . وخلع على شخص آخر وقرره نائب القدس . فخرجوا من القاهرة في آخر هذا الشهر ، وقدامهما طبلان وزمران وجنايب . وخرجوا في موكب حافل .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره صنع بعض النفطية الى السلطان نفطا ، وتوجه به الى وطاقه بانباية ، فأحرقوه فدأمه بالوطاق .

ومن الحوادث المهمة أنه قد أشيع أن السلطان سليم شاه ، عول على جماعته من أهل مصر من أعيانهم يرسلهم إلى اسطنبول .

وفي يوم الجمعة خامس عشرية أتى السلطان سليم شاه من وطاقه الذي في ابابه ، وعدى إلى بولاق وتوجه إلى القاهرة ، وشق من باب الحرق ، ودخل من باب زويلة ، وتوجه من هناك إلى الجامع الأزهر ، وزينت له القاهرة ، فصنى بالأزهر صلاة الجمعة ، وتصدق هناك ببسخ له صورة . ثم توجه إلى بولاق من الطريق التي أتى منها ، وكان في موكب حافل .

ثم بعد أيام أشيع أنه دخل إلى حمام الاستدار التي ببولاق فأتى من الرملة ولم شق بولاق . وكان أهل بولاق زينوا له السوق ، ولما خرج من الحمام عاد من الطريق التي أتى منها ، وفيل أنه أنعم على الحمامي في ذلك اليوم بعشرين ديناراً ، وأعجبه حمام بولاق وشكره ثم عاد إلى الوطاق . ثم ان جماعته من وزراء ابن عثمان وأهل مشورته جلسوا في المدرسة العورية ، وشرعوا يطلبون جماعة من القضاة والشهود والمباشرين ، وأعياد تجار المغاربة ، وتجار الوراقين ، ونجار الشرب ، والباسطية ، وجماعة من البزارية والرسل ، وجماعة من السوق المتسبين في البصايم ، وطائفة من البنائين والنجارين والمرحسين والمبطلين والحدادين وغير ذلك من أرباب الحرف ، حتى ملأوا جماعة من أعيان اليهود فلما تكامل عرضهم في المدرسة العورية عيسوا جماعة منهم أن يسافروا إلى اسطنبول . فكتبوا أسماؤهم في قوائم ، وألزموا كل واحد منهم بأن يحضر له ضامناً تضمنه . فلما أحضروا لهم الضمان أطلقوهم إلى حال سبيلهم .

ويأتي الكلام بعد ذلك في أمورهم وما نهم لهم في هذه الحركة .

وفي يوم الأحد سابع عشرية قبض الوالي على شخص من العمالية قيل أنه حطف امرأه من السوق وزنى بها ، فأما بلغ ابن عثمان ذلك أمر الوالي أن يقطع رأسه فقطع رأسه في الحال ، وطاف بها في القاهرة وهي على رمح ، فظهر من ابن عثمان في ذلك اليوم عدل عظيم لعل أن يعتبر به عسكره ويكفوا عن الأذى .

وفي أثناء ذلك الشهر وقع أن ابن عثمان شرع في فك الرخام الذي بالقلعة في قاعة البيسرية والدهيشة ، وقاعة البحرة والقصر الكبير ، وغير ذلك من أماكن بالقلعة ، وفك العواميد السماقية التي كانت في الأيوان الكبير ، قيل أنه قصد أن ينشئ له مدرسة في اسطنبول مثل مدرسة السلطان العوري ، فلم تبسر له ذلك .

ثم صار يحيى بن بكر برك ويأخذ معه جماعة من المرحمين . فبهجمون قاعات الناس ، ويأخذون ما فيها من الرخام السماقي والزرزوري الملون . فأحربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيوت الأمراء فاطمة ، حتى القاعات التي ببولاق ، وقاعات الشهابي أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص التي عنى بركة الرطلي ، وغير ذلك من قاعات المباشرين والتجار وأبناء الناس ، والمدارس التي فيها الكتب النفيسة ، فنقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها ، ولم يعرفوا الحلال من الحرام .

وفيه نادوا في القاهرة بإبطال الفلوس العتق . وصرخوا الناس فلوساً جديداً خفافاً جداً ، فحسر الناس الثلث ، ووقف حال الناس بسبب ذلك ... فصار البضائع تباع بيسعيرين : سعر بالفلوس العتق ، وسعر بالفلوس الجديد .

وفيه صاروا يقبضون على جماعة من مباشرى
الأمراء ، ويقولون لهم حاسبونا على خراج الأمراء
الدين فتلوا في المعركة .

وفي ربيع الثاني وكان مسهله يوم الأربعاء ،
أشيع أنه قد حضر قاصد من شاه اسمعيل الصفوى
وعلى يده مطالعة لابن عثمان ، فلما قرأها تنكد
وقصد أن يقبض عليه ، فهرب ذلك القاصد من
عند ابن عثمان ، وكان بالمقياس . فلما هرب صاروا
يكبسون بيوت مصر العتيقة ، وبيوت الروضة ،
فلم يحصلوه لا في البر ولا في البحر ، فحصل لأهل
مصر المتبعة غاية الضرر من كبس البيوت بسبب
هروب هذا القاصد . فمن الناس من يقول انهم
قبضوا عليه فيما بعد وقطعوا رأسه ، ومنهم من
يقول انهم لم يحصلوه واستمر هاربا .

ومن الحوادث أن شحصا من التجار الأروام
كان له دين على الزينى عبد القادر الملكى وأخيه
أبى بكر بن الملكى ، نحو خمسة آلاف دينار ،
وفيل عشرة آلاف دينار ، فكان كلما طالبتها سوفاً
به ومطلاه . وتماديا على ذلك مدة طويلة ،
فشكاهما الى الدفتردار ، فأرسل حلفهما ، فلما
حضر اعترفا لذلك التاجر بالقدر المذكور ، فأمرهما
الدفتردار بأن يدفعوا له ذلك ، فقالا ما معنا شيء
من المال ، ولكن يصبر حتى يبعث الله لنا شيء من
المال ، فندفع له حقه . فقال لهما ما بعيت أصبر
عليكما . فحنق منهما الدفتردار وأمر بسجن
عبد القادر وأخيه أبى بكر ، فسجنا في سجن
الديلم ، وأقاما به أياما حتى سعى لهما الشهابى
أحمد ابن الجيعان وأطلقا من السجن ،
ثم استرضوا ذلك التاجر حتى أفرج عنهما .

وفي أوائل هذا الشهر حضر قاضى القضاة
الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى المالكى

محيى الدين بن الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب
الدين الفتوحى ، وكانوا توجهوا الى نحو البها
بسبب الأمان الذى توجهوا به من عند ابن عثمان
الى السلطان طومان باى ، ولم نفذ توجه هؤلاء
القضاة اليه شيئا .

ولما حضر هؤلاء القضاة أخبروا بصحة قتل
قاضى القضاة حسام الدين محمود بن الشحنة
الحنفى وأخيه أبى بكر ، وقد تقدم القول على
سبب قتلها ودفنها هناك .

وفي يوم الاثنين سادسه أشيع أن ابن عثمان
عدى الى المقياس . وكان في ذلك اليوم رياح
عاصفة فكاد أن يغرق . فلما سلم من الغرق أقام
بالمقياس ونقل وطاقه الى الروضة ومصر العتيقة
ثم ان أمراءه طردوا السكان الذين بالروضا
وبمصر العتيقة ، وسكنوا في دورهم ، فحصل
للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، فأعجبه المقياس
فأقام به مدة أيام ، وكان وزراؤه يعدون الى
الروضة في كل يوم وبطالونه بالأمور التى يفعلونها
في الناس من خير أو شر .

وفي يوم الثلاثاء سابعه توفيت ابنة الأمير يشبك
ابن مهدى أمير دوادار ، وهى روجه قاضى باى أمير
آخور كبير ، وقاست قبل موتها شدايد ومحنا ،
وصودرت غير ما مرة من السلطان العورى ، ومن
ابن عثمان أيضا ، واستمرت محتفنة حتى ماتت .
وكانت من أعوان الستات في سعة من المال ، وكانت
لا بأس بها .

وفيه خلع السلطان على شخص من العلماء .
يقال له الشيخ شمس الدين بن يس الطرابلسى :
وقرره في قضاء الحنفية عوضا عن مجسود بن
الشحنة بحكم قتله كما تقدم

وفيه وقعت كائنة عظيمة لحوند ابنه المقر آفبردى

الدوادار ، وهى زوجة السلطان طومان باى ،
 بذلك انه كان عندها جارية بيضاء چركسية
 رقاصه ، فهربت من عندها وتوجهت الى بعض
 وزراء ابن عثمان ، فعرفه بمكان حاصل سيدها .
 فتوجهوا اليه ونقلوا لل ما كان فيه من بنات
 زركتش وعنبر ومقاعد سمور ووسى وحياصات
 ذهب ولؤلؤ وجوهر مرصع وكوامل ذهب ، وغير
 ذلك من الامتعة الفاخرة ، وأواى بلور وأواى
 فضة ونحاس مكلف بالذهب . وحسبى موتى
 بلازورد ، وغير ذلك . فنقلوا جميع ما كان لها
 فى الحاصل ، فذهب لها أشياء كثيرة بحو حمسين
 ألف دينار . وما فتح ابن عثمان بذلك . فصايرها
 وفرر عليها وعلى والدتها بنت العالانى على بن خاص
 بك عشرين ألف دينار . وقبل أكثر من ذلك القدر .
 فحصل لها ولوالدتها الضرر الشديد : وفاسدا
 شدايد عقيمة ومحن وبهدلة وشهددا بالقتل . وما
 جرى عليهما خبر .

وفى يوم الجمعة سابع عشره رسم الدفتردار
 باخراج طائفة من اليهود ممن كان تعين الى السمر
 الى اسطنبول . فخرجوا فى ذلك اليوم جملة
 واحدة . فنزلوا فى المراكب وتوجهوا الى نهر
 الاسكندرية الى أن مضوا الى اسطنبول ...
 فأخذوا نساءهم وأولادهم ومضوا . وفى عقب ذلك
 خرج طائفة من البائين والمهمسين والنجارين
 والحدادين والمذبحين والمبطلين ، وفهم البعض
 من الصارى . وطائفة من الصلابة ، وذلك بسبب
 المدرسة التى أراد ابن عثمان أن ننسها باسطنبول
 مثل مدرسة السلطان العورى . وأشيع أنه أرسل
 طائفة من المغاربة أيضا تقيم باسطنبول .

وفى يوم السبت ثامن عشره خرج الى السفر
 لاسطنبول طائفة أخرى من نواب القضاة والتهود
 فمنهم القاضى شمس الدين الحلبي أحمد نواب

الشافعية ، وفد قاسى من العثمانية غاية البهولة
 من الضرب والصك ، وأنزلوه المركب على رعم
 أنفه ، ومنهم الزينى زين الدين الشرقاشى ، أحد
 نواب الحنفية ، والقاضى شمس الدين بن جمال
 الدين الأثميدى ، أحد نواب الشافعية ، والقاضى
 بدر الدين البلقينى ، نقيب قاضى القضاة الشافعى ،
 والقاضى شهاب الدين بن الهيثمى ، أحد نواب
 الحنابلة . والشريف البردينى الحنفى ، وآخرون
 من نواب القضاة الأربعة .

وخرج فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من تجار
 السرب والورافين ... منهم محمد المسكى
 الأسود . ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب
 الأسمر ، ومن بجار خان الخليلى وغيره ...
 وخرج يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وخرج
 ابن شفرة التاجر الذى بمرجوش . ومن تجار
 الهرامزة وغير ذلك من التجار والأعيان من مشاهير
 الناس ... فهؤلاء خرجوا فى ذلك اليوم ثم تبعهم
 طائفة أخرى يأتى الكلام عليها . وكانت هذه
 الواقعة من أشنع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل
 مصر قط مثلها فيما تقدم من الزمان . وهذه عبارة
 عن أسر المسلمين وتقيهم الى اسطنبول .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره أشيع بين الناس
 أن ابن عثمان كان فى أصبعه خانم من الفضة
 وهو مرصود للمقابلة . وكان يتبرك به فسقط من
 أصبعه فى البحر وهو فى المقياس ، فتأسف عليه
 غاية الأسف ، وأحضر الغطاسين فغطسوا عليه عدة
 مرات فلم يجدوه فى ذلك المكان . ويقال ان هذا
 الخاتم كان فى ذخائر أجساد ابن عثمان حتى
 فقد منه .

وفى أواخر هذا الشهر أرسل ابن عثمان بقول
 لأمير المؤمنين : « اعمل برقت حتى تسافر الى

اسطنبول « فلما تحقق الخليفة ذلك اضطربت
أحواله ، وشرع في عمل برفه وقال سافر أنت
وأولاد عمك خليل وصهرك محمد بن خاص بك .
فلما بلغهم ذلك تنكدوا أجمعون .

وفيه نزل ابن عثمان بالرخام الذي فكه من
القلعة ، فوضعه في صناديق خشب ونزلوا به في
المراكب لنوجهوا به الى اسطنبول

ومن العجائب أن السلطان العورى ظلم أولاد
ناظر الحاص يوسف ، وأخذ رخام قاعتهم التي
تسمى بنصف الدنيا ، وجعل ذلك الرخام في فاعة
البيسرية ، فسلط الله تعالى عليه بعد موته ابن
عثمان ، ولم ينتفع به أحد من بعده ، والمجازاة من
جنس العمل . وقد خرج هذا الشهر على الناس
وهم في أمر مريب مما جرى عليهم من ابن عثمان .

وفي شهر جمادى الأولى ، وكان مستهله يوم
الجمعة ، ففى ذلك اليوم خرج المقر العلاني على
ابن الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف انال ،
وكان تعين الى السفر الى اسطنبول ، فخرج في
ذلك اليوم ، وخسرج جماعة من الفقهاء وأعيان
التجار ممن تعين الى اسطنبول ، فمنهم شمس الدين
ابن روق وكان القاضي بدر الدين بن الوقاد
أحد نواب الخنفة تعين الى السفر الى اسطنبول ،
فلما تحقق ذلك اختفى ، وحصل على نقب الجيش
من الدفتردار ما لا خير فيه ، وبهدله وهم بضربه
لأنه كان ضامنه .

وفي يوم السبت ثاني الشهر ، عرض السلطان
سليم شاه عسكره ببر الحيزة ، وعين منهم جماعة

مسافرون صحته الى ثغر الاسكندرية ، وأشيع
سفره الى هناك

وفي يوم الاثنين رابعه عدى ابن عثمان من
المقباس الى بر مصر العتيقة ، وشق من حاص ابن
طولون وطلع الى القلعة ، ثم عاد من يومه الى
المقباس وأقام به .

ومن الحوادث أن شحصا من نواب الشافعة
قيل عنه انه زوج امرأة من ساء الأتراك لشخص
من العثمانية ، فظهر أنها لم تكمل عدة زوجها الذي
مات ، فدلس ذلك على القاضي الذي زوجها الى
العثماني فلما رفع أمرها الى ابن عثمان احضر
ذلك القاضي ولم يقبل له عدرا ، ويطحه وصربه
ضربا شديدا ، ثم كشف رأسه وألبسه عليها كرشا
من لروش البصر بروتة ، ورببه على حمار
مقلوبا ، وأشهره في القاهرة ، وكان قبل ذلك
نادى السلطان في القاهرة بان لا أحد من فضاة
مصر يعقد عقدا لعثماني ، ولا يزوج به أحد من
ساء الأتراك . وكذلك الشهور . وخرج عليهم في
ذلك الى الغسانه ، فلم يسمع له فضاة مصر شيئا
من ذلك ، وصاروا بزواج العثمانية بنساء
الأتراك الذين قتلوا في الحرب كما تقدم القول
على ذلك .

وفي يوم الخميس سابع هذا الشهر نزل
السلطان سليم شاه من المقباس في مراكب هو
وجماعة وفصدوا النوجه الى ثغر الاسكندرية
وفيل كان معه من فرسان عسكره ألف فارس ،
وتوجه يوس باشا من البر على تروجة بعسكر
آخر يلاقيه من هناك .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الأولى خرج
أمير المؤمنين المتوكل على الله قاصدا السفر الى

اسطنبول ، وخرج صحبته أولاد عمه خليل ، وهما أبو بكر وأحمد ، وخرج صحبته الناصري محمد ابن العسلائي على بن حاص بك صهر الخليفة ، وخرج السرفي يونس ابن الإتابدى سودون المعجمي ، وآخرون من الأعيان ، فتوجهوا إلى بولاق ، ونزلوا من هناك في المراكب لسوجهوا إلى ثغر رشيد ، فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر عانة الأسف ، وقالوا قد انقطعت الخلفاء من مصر ، وصارت باسطنبول ... وهذه من الحوادث المبهولة .

ثم ان الخليفة عوم من بولاق إلى رشيد ، ثم بعد ذلك وردت الأخبار بأن الخليفة قد وصل إلى ثغر رشيد ، وأقام به هو وجساؤه من الذين سافروا ، ثم دخلوا إلى ثغر اسكندرية ووجدوا الصهاريج التي بها مشحونة من الماء . فبلغ ملء كل كراز خمسة أنصاف ، وذلك من كثرة الخلق الذين اجتمعوا هناك ، ولا سيما لما دخل إليها عسكر ابن عثمان .

وأشيع أن السلطان سليم شاه لما دخل ثغر الاسكندرية ، رسم بأن الجساؤه الذين أتوا من مصر سيجنون في الحانات ، وفي أبراج الاسكندرية إلى أن ينكاملوا ، ثم سافروا دفعة واحدة . فوضعوهم في الأبراج وساء بهم في الحانات ، ففاسوا مشقة عظيمة بسبب ذلك .

وخرج في عقيب ذلك مقدم المماليك سنبل وسافر إلى اسطنبول ونائبه جوهر ، وقيل توجه سنبل إلى بيت المقدس من بعد ذلك

وفي يوم الجمعة ثاني عشرى جمادى الأولى

خرج إلى السفر إلى اسطنبول الشهابي أحمد ناظر الجينس وابن الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وخرج صحبته بدر الدين وأخوه كمال الدين ، وخرج ناصر الدين العزى ويحيى بن الطنساوى موقع الدرج ، وخرج جان بك دوا دار طراباى . وفي يوم الجمعة المقدم ذكره حضر السلطان سليم شاه من ثغر الاسكندرية ، فكانت مدة غيبته في هذه السفرة خمسة عشر يوما ذهابا وإيابا ، وفيل انه أقام بثغر الاسكندرية ثلاثة أيام لا غير . ودخل عليه من التقدم من مشايخ العربان بالغربية شىء كثير ما بين خيول وجمال وأبقار وغير ذلك . فلما حضر أتى إلى المقياس وشق من جهة الروضة بالمراكب ، فانطلقت له النسوان من الطيقان بالزغاريت .

وفي يوم السبت ثالث عشرىه عرض يونس باشا الذى قرر نائب السلطنة بمصر عسكر ابن عثمان ذلك اليوم ، وأشيع أن ابن عثمان قد طرقتة الأخبار الرديئة من عند الصفوى وأنه قد زحف على بلاده وملك منها عدة بلاد .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرى جمادى الأولى خرج إلى السفر إلى اسطنبول الشيخ زين العابدين ابن قاضى القضاة الشيخ كمال الدين الشافعى الطويل ، فكثر عليه الأسف والحزن فانه كان محببا للناس ، وخرج زين الدين البتنولى ناظر المواريث أيضا وآخرون من مباشرى المواريث . وخرج جماعة من الزردكاشية منهم يحيى بن يونس ومحمد العادلى المعروف بابن البدوية وزين الدين بن محمود الأعور وأحمد بن الهوارى وآخرون من صناع الزردخانه . وخرج ابراهيم مصلح الدولة وخرج جماعة من مباشرى الخوشكانة .

وفي أثناء هذا الشهر توفي تقي الدين بن الطريني
كاتب السعير بالشئون السلطانية ، وكان لا بأس به .

وفي يوم السبت سلب هذا الشهر طلع ابن ابي
الرداد ببشارة النبل المبارك ، وجاءت القاعدة تماي
آدرع وست عشرة أسبعا . وكانت القاعدة في العام
الماضي لما أخذ قاع النبل انتى عشرة دراعا ، حتى
عند ذلك من النوادر العربية

وفي جمادى الآخرة ، وكان مستهله يوم الأحد .
في ذلك اليوم كان أول المنادة على النبل المبارك
فزاد ثلاث أصابع ... وفي ذلك اليوم أشيع أن
السلطان سليم شاه خلع على وريره يونس باشا
وفرره نائبا عنه بمصر وأعمالها اذا سافر الى بلاده .
فلما تقرر يونس باشا في النيابة بمصر ، وأشيع
سفر ابن عثمان ، ظهر جماعة كثيرة من الممالك
الچراكه وتزيوا بزي العنمانية ولبسوا الطراير
والقفاطين الحرير ، وصاروا بخالطون العثمانية ،
ويركبون معهم في الأسواق بطول النهار .

وفي يوم الأربعاء رابع هذا الشهر نادى السلطان
في عسكره بأن كل من كان متزوجا من مصر بامرأة
بطلقها ، والا شتى من غير معاودة فمنهم من طلق
زوجته ومنهم من أبقاها في عصمته .

ومن الحوادث أن القاضي بدر الدين بن الوقاد
لما تعين للسفر الى اسطنبول وضمنه نفس الجيش
تخلص واختفى أباما فغمز عليه فقبضوا عليه من
المكان الذي كان به . فلما أحصروه بين يدي
الدفتدار وبخه بالكلام ، وبطحه على الأرض ،
وهم بضربة حتى شفع فيه بعض الحاضرين ،
وقاسى من البهدة والسب ما لا خير فيه ، وغرم
مالا له صورة ، وآخر الأمر سافر الى اسطنبول ،
والذي خاف منه قد وقع فيه .

وفي يوم الخميس خامسه ، عدى السلطان سليم
شاه من الروصنه ، وطلع الى الرميلة ، وعرض
عسكره في الميدان الذي تحت القلعة ، وعين منهم
جماعة يسمون بمصر صحبة يونس باشا ، وعين
جماعة يسافرون صحبته ، ورسم للمشاة من
عسكره بأن يسافروا في البحر ، واستمر بعرض
عسكره ثلاثة أيام متوالية

وفي ذلك اليوم خرج حريم ملك الأمراء خابر
بك ، وحريم جان بردى الغزالي ، للاقامة بحلب
الى أن أتى السلطان هناك . وقد فوت الاشاعات
بسر السلطان عن قريب

وفي يوم الجمعة سادس هذا الشهر ، خرج
جماعة من المباشرين للسفر الى اسطنبول ، منهم
القاضي عبد الكريم أخو الشهابي أحمد بن الجيعان
كاتب الحزائن الشريفة ، وخرج الناصري محمد
ابن القاضي صلاح الدين بن الجيعان كاتب الحزائن
أبضا ، وخرج الزيني عبد القادر بن الملكى مستوفى
ديوان الجيش . وخرج شحص من أولاد ابن
البارزى يقال له بهاء الدين ، وخرج محمد المجولى
معتار السلطان الغورى بالطشتخاناه الشريفة ،
وخرج عبد الباسط بن تقي الدين ناظر الزردخانه
وولده زين الدين ، وخرج في ذلك اليوم بعض
نصارى من كتاب الحزينة . وخرج كمال الدين
بزددار الطرايبية ، وخرج فرج الدين البريدى رأس
نوبه حاجب الحجاب ، وخرج فتح الدين بن فحيرة
أحد كتاب الممالك . وخرج جماعة كثيرة من
البزددارية ، والرسل وأرباب الصنائع من كل فن
ممن تعين الى اسطنبول ، وخرج الشهابي أحمد
ابن البدرى وحسن بن الطولونى معلم المعلمين ،
وخرج يحيى شكار دودار ، وشيخ سوق الغزل
بدر الدين ، وخرج ابراهيم مقدم الدولة ، وخرج

جماعة كثيرة غير هؤلاء في أوقات متفرقة ، ونزلوا في المراكب ونوجهوا الى نهر الاسكندرية ، ومن هناك ينوجهون الى اسطنبول . وقبل ان عده من خرج من أهل مصر الى اسطنبول ألف وثمانمائة انسان ، وقيل دون ذلك .

وفيل ان السلطان سليم شاه لما أخذ من مصر هؤلاء الجماعة أحضر غيرهم من اسطنبول يقيمون بمصر عوضا عن الذين خرجوا منها ، وفيل ان هذه عادة عندهم اذا فتحوا جهة أخذوا من أهلها جماعة يمشون الى بلادهم ، ويحضرون من بلادهم جماعة يقيمون في تلك المدينة عوضا عن الجماعة الذين أخذوهم .

وفيه نادوا في القاهرة أن لا عهد ولا جارية ولا امرأة ولا صبي أمرد يخرج الى السوق حتى يخرج العسكر العثماني من مصر ، وذلك خوفا عليهم من التركمان أن يخطفوههم ويسافروا بهم .

وفيه توجه السلطان سليم شاه الى بئر البلسان التي بالمطرية وأضافه هناك الناصري محمد بن الرئيس شمس الدين القوصوني ومد له هناك مدة حافلة ، وكذلك الشيخ دمرداش ، وانشرح ابن عثمان في ذلك اليوم الى الغابة ، وغسل وجهه من مائها ، وأقام هناك الى ما بعد العصر ، ثم رجع الى الوطاق .

ومن الحوادث في هذا الشهر أن الدفتردار ضيق على الناس أصحاب الأملاك بسبب أملاكهم ، وندب الشرفي يوس تقيب الجيش الى ضبط البيوت التي في القاهرة قاطبة . فصار الناس يعرضون عليه مكاتيبهم ، فالذي يكون من الأعيان يفرج له عن بيته ، ويواسي تقيب الجيش بشيء من الدراهم ، ويكتب على مكتوبه « عرض » . والذي يكون جاريا في ملك الممالك الجراكسة ، ولم يظهر

له أصحاب ، يكون ملكا للسلطان ، ويدخل الى الدخيرة .

ويقرب من هذه الواقعة أن الدفتردار رسم لقاضي القضاة المنفصل علاء الدين بن النفيب أن يتحدث على أوقاف الحرمين الشريفين قاطبة ، ورفع بد قاضي القضاة كمال الدين الطويل التسامح من التحدث على أوقاف الحرمين الشريفين ، فكان أصحاب الأوقاف يعرضون مكاتيبهم على قاضي القضاة علاء الدين ويكتب عليها « عرض » ، ثم يمشون بها الى الدفتردار فبحرج مراسيمهم بالافراج عن ذلك . فبقع عليهم كلفة للقاضي علاء الدين ، وكلفة لمراسيم الدفتردار ، وان لم يفعلوا ذلك ، ولم تخرج مراسيم الدفتردار بالافراج عن جهات الأوقاف ، يضع المباشرون والظلمة أيديهم على بلاد الأوقاف ، ويستخرجون منها الخراج ، ويروح ذلك على النظار . وهذا من جملة مساوي ابن عثمان فيما فعله في أهل مصر من الأنكاد والضرر الشامل لهم .

وفي يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الآخرة ، حضر الشرفي يونس النابلسي الاستادار ، وكان قد توجه الى بلاد الشرقية بسبب جمع الخراج من بلاد المقطعين والأتراك والأمراء الذين قتلوا في المعركة ، فمسح بلاد الشرقية قاطبة وحصل منه غابة الضرر . وضيق على الناس في أرزاقهم من نساء ورجال ، ووضع يده على خراجهم بغير حق ، وما حصل لأحد منه خير . فكان كما يقال في المعنى : مباشر في الوري لم تخف سيرته

بين الأنام وما بخشي من الريب
تنجو به رجليه مما جنت يده
كأنه القط في خطف وفي هرب
وفي يوم الأحد خامس عشره ، حضر الى

الأبواب الشريفة ابن السيد الشريف بركات أمير مكة ، وكان سبب حضوره أنه أتى ليهنئ ابن عثمان بمملكة مصر ، وأحضر صحبته تقادم فاخرة ، وحضر صحبته يبردى بن كسباى أحد الأمراء العشراوات الذى كان باش المجاورين بمكة ، وحضر قراكر الذى كان محتسبا بمكة . فلما حضر أشيع بين الناس أن حسين نائب جدة قد قتل على يد الرئيس سلمان العثماني ، وقيل أنه أعرفه في البحر . وكان حسين قد ظلم وجار على أهل مكة وجدة ، وجدد مظالم في أيام السلطان الغورى ، وكان من المفسدين في الأرض ، فقتل كما تقدم ، وكان غير محب لأهل جدة ومكة .

ومن الحوادث أن النيل المبارك توقف في أثناء الزيادة واستمر في التوقف ستة أيام ، فقلق الناس لذلك ، وزاد سعر القمح ، وتشحطت سائر الغلال ، واضطربت الأحوال جدا . ثم بعد ذلك زاد النيل المبارك أصعبا واحدة فسكن الحال قليلا .

وفي يوم الاثنين سادس عشره ، حضر جماعة من المباشرين الذين كانوا قد توجهوا إلى الغربية والمنوفية والمحلة ... فحضر أبو البقاء ناظر الأسطبل ، وبركات أخو شرف الدين الصغير ، ويحيى بن الطنساوى وآخرون من المباشرين .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره أشيع أن يبردى باش المجاورين وقراكر المحتسب والماليك الذين حضروا صحبتها من مكة يريد قتلهم ابن عثمان ، فشفع فيهم ابن الشريف بركات من القتل ، فرسم أن يتوجهوا إلى اسطنبول ، فخرجوا في ذلك ونزلوا في المراكب ، وتوجهوا إلى ثغر الاسكندرية ومن هناك توجهوا إلى اسطنبول .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشره ، حضر الزينى بركات بن موسى المحتسب ، وحضر فخر الدين بن

عوض ، وكانا في بعض جهات الغربية ، بسبب استخراج الحراج وعمارة الجسور التي هناك وفي يوم الخميس تاسع عشره ، توفيت ابنة السلطان طرمان باي . وكان لها من العمر نحو عشر سنين ، وكان قد حصل لها طربة على أبيها لما قتل .

وفي يوم الأحد ثاني عشره اضطربت أحوال القاهرة ، وصارت الأدراك تقف على أبواب المدينة ويمسكون الناس من رئيس ووضيع ، ويضعونهم في الحبال حتى من بلوح لهم من القضاة والشهود ، وما يعلم ما يصنع بهم . فلما طلّعوا بهم إلى القلعة أسفرت هذه الواقعة عن أنهم جمعوا الناس ليسحبوا المكاحل النحاس الكبار التي كانت بالقلعة ، وبزلوها إلى شاطئ البحر ، ثم وضعوها في المراكب ، وبمضوا بها إلى اسطنبول .

وكان قبل ذلك بمده نزلوا بالعمودين السماقي اللذين قلعهما من الابوان لدى بالقلعة ، فارتجت لهما الصليبة لما نزلوا بهما من القلعة . وقاسى الناس في سحبهما عاهة المشقة ، وحصل لهم بهدلة من الضرب والصك وخطف العمائم والشدود ثم في عقيب ذلك نزلوا بالمكاحل من القلعة وصاروا يربطون الرجال بالحبال في رقابهم ، ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ، ولو كانوا من أعيان الناس . فحصل للناس بسبب ذلك ما لا خير فيه .

وفي يوم الخميس سادس عشره رسم السلطان سليم شاه باحضار ألف رأس من الغنم ، ومائة جمل ومائة بقرة ، فلما حضرت بين يديه أمر أن تفرق قربانا على مجاورى الجوامع والمساجد والزوايا ومزارات الصالحين التي بالقرافة وغيرها من المزارات المشهورة ، حتى على أبواب ترب

السلاطين المتقدمين . ففرقوا ذلك جميعه وصاروا
يذهبون الغنم والبقر والجمال على أبواب الجوامع
والمساجد والزوايا ويفرقونها على المجاورين الذين
بها وقبل ان سبب ذلك أن لهم عادة في بلادهم
إذا حلت الشمس في برج الأسد يفرقون هذا
القربان على مجاورى الجوامع والمساجد والزوايا ،
ويفرقونها على المجاورين الذين في بلادهم قاطبة ،
ففعل مثل ذلك بمصر .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه نزل في مركب
وتوجه نحو الآثار الشريفة ، فقام عليه ريح عاصف
فانقلبت به المركب في البحر ، فكاد أن يعرق ،
وأغمى عليه وما بقى من موته شيء ، وقيل انه كان
سكران لا يعى ، فكاد في أجله فسحقة حتى عاش
الى اليوم .

ومن الحوادث في هذا الشهر أن الخليفة لما
سافر إلى اسطنبول أخرجوا عنه نظر مشهد السيدة
نفيسة رضى الله عنها ، وكان ذلك بيد الخلفاء من
قديم الزمان ، وكان من جملة تعظيمهم . وكان
يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من السوسع
والزيت ، وكان يحصل لهم في كل يوم من الصندوق
الذى تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ له صورة
من النذور التى كانت تدخل عليهم ، فخرج ذلك
كله عنه ، وحصل للخليفة بعفوب والد المتوكل على
الله غاية الضرر بسبب ذلك ، وشق عليه ذلك ، ولم
يفده من ذلك شيء .

وفي أثناء هذا الشهر ، خرج الشرفى يحيى بن
البردينى الذى كان ولى قضاء القضاة في دولة
الأشرف طومان باى ، ولما رأى الأخوان مضطربة
وبعثوا أعيان الناس إلى اسطنبول ، سعى بسال له
صورة حتى قرر في مشيخة الحرم الشريف النبوى ،
كما كان جاهين الجمالى . فخرج من هذا الشهر

وسافر من البحر المالح وتوجه الى المدينة الشريفة
من ينبع ، وكان من قديم الزمان لا يلى مشيخة
الحرم الا الطواشية .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما كان
بالمقياس ، أحضر في بعض الليالى خيال الظل ، فلما
جلس للفرجة قيل ان المخايل صنع صفة باب زويلة
وصفه السلطان طومان باى لما شنى عليها ، وقطع
به الحبل مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك ، وأنعم
على المخايل في تلك الليلة بشمانين دينارا ، وخلع
عليه فقطانا مخرلا مذهبا ، وقال له اذا سافرا الى
اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه أنشأ له قصرا
من حاسب بالمقياس فوق القصر الذى أنشأه
السلطان الغورى فوق بسطة المقياس ، وصار يجلس
به في اليوم الحر ، وأحضر جعاعة من التجارين
والبناتين وشرع في بنائه حتى درغ في أسر مدة .
وفد قلت في ذلك :

لو علم الغورى أن قصره
يسكن للمظفر المؤيد

أضرم فيه النار من يومه
ولم بدع في جدره جلمد

وفي رجب وكان مستهله يوم الاثنين ، في يوم
الأربعاء تالته ، توفي القاصى رضى الدين الحلبى
الموقع ، وكان شابا حسن الشكل والهيئة . وكان
من أخصاء القاضى كاتب السر محمود ابن أجا ،
وكان من أعيان الموقعين ، وكان من جملة أصحابنا
رحمة الله عليه . وكان له مدة وهو متسوعك في
جسده ، وكان تعين الى سفر اسطنبول فمرض
عقيب ذلك . فدخل انكشارى من العثمانية فرآه
مريضا ، فقال له اخرج في هذا اليوم وسافر . فقال

له لا أستطيع القيام ، فحمله العثماني بالنطع الذي تحته ، وأراد أن يخرج من الباب ، فدخلوا عليه ودفعوا له سبع أشرفيات حتى تركه ومضى . فمات تلك الليلة من الرجفة التي حصلت له .

وفي يوم الخميس رابعه خرج الى السفر ابن السيد الشريف بركات أمير مكة ، فتوجه الى وطاقه الذي بالريمانية ، فكان له موكب حافل ، وخلع عليه السلطان قفطان تماسيح مذهب ، وفدامه الرماة بالنفط . وخرج صحبته غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة ، وقد أشار عليه السلطان بأن الحجازيين الذين بالقاهرة تخرج صحبته الى اسطنبول .

وأشيع أن السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بأن يكون عوضا عن الباشا الذي بها ، وجعله هو المتصرف في أمر مكة قاطبة . وأضاف له نظر الحسبة بمكة أيضا ، وأنصفه غاية الانصاف . وتزايدت عظمة السيد بركات الشريف الى الغاية ، وأكرم ولده غاية الاكرام .

وقيه ترافع جماعة من المباشرين مع بعضهم ، وانتبذ الى عمل حسابهم الزينى بركات بن موسى ، وألزمهم بالعود الى البلاد ثانيا ليغلقوا ما كان يقى عليهم من الخراج في البلاد ، فانهم كانوا أرسلوا خلفهم بالاستعجال الى سفر اسطنبول .

وفي أثناء هذا الشهر توفي القاضي ناصر الدين محمد بن العمري ، موقع الأمير يشبك الدوادار ، وكان من المعمرين في الأرض .

ومن الحوادث أن الدفتردار أوقف المناشير التي في يد أولاد الناس بسبب اقطاعاتهم ، ولم يمض غير الأوقاف والرزق التي بالمكاتب ، والمربعات الجيشية فقط . فحصل لأولاد الناس غاية الضرر

بسبب ذلك ، ووضع المباشرون أبدعهم على حراجهم ، وراح عليهم الحراج في هذه السنة بين الفلاحين والمباشرين .

وفي يوم الأربعاء عاشر رجب حضر شيخ العرب أحمد بن بقر ، وقد أرسل اليه ابن عثمان أمانا بالحضور ، فحضر وقابل يوس باشا وبفيسة الوزراء ، وكان له مدة وهو عاص في وادي العباسية ، ومعه جماعة من المماليك الجراكسة ، وكان يحسن اليهم بالعليق وغير ذلك من القوت . وفي يوم السبت ثالث عشر رجب ، الموافق ثامن مسرى من الشهور القبطية ، أظلم الجو ظلمة شديدة ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى توحلت منه الأرض والأسواق . وكانت الشمس في برج الأسد ، فتعجب الناس غاية العجب من كون المطر جاء في غير أوانه ، وكان قد بقى على ميعاد الوفاء أربع وستون أصبعا ، والنيل في قوة الزيادة ، فخشى الناس على النيل من النقص ، وأشيع كسوف الشمس في ذلك اليوم .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره تحول السلطان سليم شاه من المقياس ، وأتى الى بيت الأشرف قايتباي الذي خلف حمام الفارقاني المطل على بركة النيل ، فأقام به ، فتعجب الناس لذلك كيف ترك المقياس في ليالى الوفاء وسكن في هذا المكان الذي بين الدروب ، فاختلف الناس في الأقوال بسبب ذلك ، ولم يعلم ما سبب تحوله من المقياس الى هذا المكان مع وجود كثرة رغبته في اقامته بالمقياس . فلما سكن في ذلك المكان طفشت عساكره في بيوت الناس التي حول الصليبة وأعمالها ، وطردها أصحابها منها وسكنوها ، فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفي يوم الخميس خامس عشره طلع ابن عثمان الى القلعة ودخل الى الحمام الذي بها بالبحرة ، ثم

رجع الى بيت الأشراف قايتباي ، فقتل اصطفى
عساكره من الصليبي الى باب السلسلة ما بين مشاة
وركاب .

وبه وردت الأخبار من البحيرة بأن حسن بن
مرعى محاصر مع الجويلي ، فأرسل لهما السلطان
تجريدة الى البحيرة ، وعين بها ألف غنماي من
عساكره .

ومن الحوادث الموهولة أن النبل المبارك توقف
ليالى الوفاء على اصبع واحدة . وكان مضى من
مصرى ثمانية عشر يوما ، فاضطرب أحوال الديار
المصرية بسبب ذلك . ثم أشيع أن النبل قد نقص
أربع أصابع ، واستمر في ذلك التوقف ستة أيام ،
وقد مضى من مصرى واحد وعشرون يوما ،
فاضطربت الأحوال بسبب ذلك . ولولا خوف
السوق من ابن عثمان لرفعوا الحيز من الأسواق ،
وكادوا أن ينسبوا علوة عظيمة . وقد توقف النبل
في هذه السنة مرتين ستة أيام في أييب وستة أيام
في مصرى ، ولولا أن الله بعث الزيادة بعد ذلك
لأكل الناس بعضهم بعضا ، وقال القائل في المعنى :

لو نطق النبل قال قولا

بشفى به غاية الشفاء

قد كثر الجور فاعذروني

لما توففت في الوفاء

فلما كان يوم السبت سابع عشرى رجب ،
الموافق لثاني عشرى مصرى ، زاد الله في النبل
المبارك اصبعاً واحدة عن النقص الذى كان نقصه .
ثم في يوم الأحد ثالث عشرى مصرى القبطى ،
الموافق لثامن عشرى رجب ، زاد النبل ما كان
نقصه ، ووفى ست عشرة ذراعا واصبعا من السابعة
عشرة ، وكان النقص أربع أصابع عن الوفاء ، فزاد
النقص وأوفى وزاد اصبعاً من السابعة عشره ، وذلك

من فضل الله تعالى على عباده . فلما كان يوم الاثنين
ناسخ عشرى رجب الموافق لرابع عشرى مصرى
فتح السد وجرى الماء في الخليج الحساكى
والناصرى ، وقد قيل في المعنى :

عجبت ليل مصر حين وفى

على جور الأنام العاديات

فخضنا في حديث النيل لكن

مزجناه بأوصاف الفرات

وكان الذى فتح السد في ذلك اليوم يونس
باشا نائب السلطنة ، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة
مثل العادة . وبطل ما كان يعمل في ذلك اليوم من
الأسطه التى كانت تصنع بالمقياس ، والمجامع
الحلوى ، والمشات الفاكهة التى كانت تصرف في
ذلك اليوم . فنزل يونس باشا في الحراقة السلطانية
وتوجه الى السد وفتحه على العادة . ولكن أين
الشراب من يد المتساول بالنسبة لما كان يعمل يوم
الوفاء بمصر .

ومن الحوادث أنه لما دخل الماء الى بركة الرمل
سكنت العثمانية في بيوت الجسر قاطبة . وربطوا
خيولهم في القواطين المظلة على البركة ، وأخذوا
الأبواب والطيفان والدرابزانات وأوفدوها في
النار ، وكذلك بيوت المصطاحي وحكر الشامى ،
وسكنوا في بيوت الأكابر التى كانت على البركة
فاطبة ، فامتنعت مراكب البياعين من الدخول الى
البركة ، وكذلك المتفرجون ، ومنعوا المتفرجين من
الدخول الى الجسر ، وصاروا يهوشون على الناس
بالعصى . وأما الجزيرة الوسطى فانها خرجت عن
آخرها . ولم يبق منها الا الجدر ، ونقل أصحاب
الأملاك سقوف البيوت والأبواب والطيقان ، ولم
يسموا منها غير الحيطان . وأما بركة الأزبكية فان

التركان نصبوا وطاقهم بها ومنعوا الماء من
الدحول اليها وحربوا غالب بيوتها ، وأخذوا غالب
ما فيها من الأبواب والطبقان وغير ذلك من
الأخشاب

وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر رجب أشيع أن حسن
ابن مرعى شيخ عربان البحيرة قد حضر بالأمان ،
وكان قد بهى له ادلال على ابن عثمان ، من حين
تحيل على السلطان طومان باى وقبض عليه . فلما
قابل ابن عثمان قبض عليه وسجنه بالبرج الذى
بالقلعة ، وقبض على ابن صقر ، وقبض على ابن
أخى الجويلى ، وسجنهم بالبرج أيضا . وكان
شيخ العرب أحمد بن بفر أتى ليقابل ابن عثمان ،
فلما رأى ما جرى على مشايخ العربان هؤلاء رجع
بعد أن دخل القاهرة ، ومضى الى الشرقيه . وقد
شمت فى حسن بن مرعى كل الناس ، فانه كان
سببا لمسك السلطان طومان باى حتى شق .
والمحازاة من جنس العمل

وفي آخر هذا الشهر وفى صاحبنا القاضى
أبو الفتح السراجى أحد نواب الخفصة رحمة الله
عليه ، وكان عالما فاضلا بارعا فى النحو ، وكان له
شعر جيد وألف عدة كتب . وكان من الأفاضل فى
عصره ، عارفا بطريقة صنعة التوقيع ، حسن
العبارة وكان مجلسه يحط جامع ابن طولون
وعاش من العمر ما قارب السبعين سنة ، وكان
حسن الهيئة ، وقلت :

لوحوا على مصر لأمر قد جرى

من حادث عمت مصيته الورى

زالت عساكرها من الأتراك فى

غمض العيون كأنها سنة الكرى

وأتى اليها عسكر سيماهمو

حلق الذقون ولبس طرطور يرى

وأميرهم بين الورى قد حقرا
لا يعرف الأستاذ من غلمانه
جل الاله مصدقا عما حكى
فى سورة الروم العظيمة أخبرا

قد أوعد الرحمن وعدا صادقا
أن ابن عثمان بلى وكذا جرى
ولاه رب العرش سلطانا على
مصر وهذا الأمر كان مقدرا
أين الملوك بمصر من ساداتها

مثل الدور تضى وكانت أنورا
يا لهف قلبى للمواكب كف لم

تلقى بقلعتها الحزنة عسكرا
لهفى على ذاك النظام وحسنه
ما كان فى الترتيب منه أفجرا
لهفى على ضرب الكرات ولعبها

فى الحوش صارت فى الحضيض الى ورا
لهفى على الشباب والرمح الدي
كانا مع الدبوس بكسر عنتسرا
لهفى على لبس الكلوتة والقبأ

كانا بها التجميل من غير ازدرا
لهفى على تلك التحايف التى
كانت على الأمراء تزهو منظرأ
لهفى على لبس الكراف بقندس

بطلت وألغوا كل زنط أحمرأ
لهفى على المهماز والخف الذى
كانا نهار الحرب أصون للثرا
لهفى على أعياد مصر كيف قد

أفنت تشايرفا بها ومتمسرا
وكدا الكنايش التى قد زخرفت
كانت تشد خيولها عند السرى

وكذا السروج المفرقات بلمعها
كانت كبرق أو كليل أقمر
لهفى على الأبواب كنف تكسرت
وخلت أماكنها وصاحبها سرى
لهفى على نهب القماش وبيعه
وبأبخس الأثمان صارت تشتري
وأشيع بيع الخيمة العظمى التي
للمولد النبوى أحسن ما يرى
بيعت بأبخس قيمة عما حكى
يالهنف قلبى كم يزيد تحسرا
لهفى على شبحو وجامعه الذى
قد كان للصلوات مجمع للورى
درست معالمه بحرق صار من
بعد التزخرف والرباضة أغبرا
لهفى على سوق الصليبة كيف قد
أخلت حوانيت به مما جرى
لهفى على فك الرخام ونقله
من كل بيت كان زاه أزهر
زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بها تزهو على كل القرى
لهفى على الأمراء كيف تشتتوا
وخلت منازلهم وعادت مقفرا
لهفى على أترالك مصر اذ غدت
مكسورة وقلوبها لن تجبرا
لهفى على الفرسان كيف تقطعت
أعناقهم بيد العدو اذ افتري
صارت على الطرقات من أجسادهم
رمم حكت عيد الضحى الأکبرا
لهفى على ذاك الحريم وهتكه
من بعد صون فى الحريم مخدرا

وتيمت أطفال جند قد غدت
أجسامهم نهش الكلاب على الثرى
قتلوا بأصغر بندق من شأنها
كالم تجرى فى الجسوم ولا ترى
لما تكسرت الجراكسه التي
كانوا بمصر أذلهم رب الورى
لهفى على سلطان مصر كيف فد
ولى وزال كأنه لم يذكر
شتقوه ظلما فوق باب زويلة
ولقد أذاقوه الوبال الأکبرا
يارب فاعف عن عظائم جرمه
واجعل جنان الخلد رب له قرا
يالهنف قلبى للخليفة كيف قد
طرده عن مصر بجور واقترا
وأذيق من ذل السؤال وفاقة ال
أيدي وأتعاب بما قد أقهرا
وكذا بنو عم له قد أخرجوا
معه لأسطنبول وامتد السرى
وكذاك أبناء الملوك تحيروا
عند الخروج ولم يراعوا الأوقرا
وكذاك أعيان التجار وغيرهم
صارت دموعهمو بصر أنهرا
لهفى على الشرع الشريف وحكمه
قد كان فى زمن القضاة موقرا
يالهنف قلبى للشهود بمجلس
كانوا بهم تقضى الحوائج للورى
الله أكبر انها لمصيبة
وقعت بمصر ما لها مثل يرى
ولقد وقفت على تواريخ مضت
لم بذكروا فيها بأعجب ما جرى

لهفى على عيش بمصر قد خلت
ألمامه كالحلم ولى مدبرا
وأتى من التكدير ما لا مخبر
سمعت به أذن ولا عين ترى
وتوقف النيل السعيد عن الوفا
في هذه الأيام آخر ما جرى
وتزايد الكرب العظيم لأجله
حتى وفى وبه المنادى بشرا
قد كان هذا الانتقام بمصرنا
سبقت به الأقدار كان ممدرا
يأليت شعري بعد هذا كله
تنفى الهموم وترتجى فرجا نرى
يارب انا بالنبي المصطفى
والأئبياء الكل سادات الورى
نسألك كشفا للأمر بسرعة
واعف عن الأجرام عفوفا واغفرا
قد جاد لابن اياس شعر قاله
لكن منه النظم يحكى جوهرها
ثم الصلاة على النبي محمد
والآل والأصحاب ممن بشرا
ما ماس غصن في الرياض وغردت
أطياره عند النسيم اذا سرى

وفي أول شعبان المكرم وكان مستهله يوم
الأربعاء ، أشيع أن شيخ العرب أحمد بن بكر لما
رأى أن السلطان سليم شاه قبض على حسن بن
مرعى شيخ عربان البحيرة ، وسجنه بالبرج ، خاف
على نفسه ، وخرج من القاهرة على حين غفلة ،
وتوجه الى جهات الشرقية ، ولاقتسه العربان .
ولو تكاسل يوما واحدا لقبض عليه ابن عثمان
وسجنه ، كما قد فعل بحسن بن مرعى .

وفيه أشيع أن جماعة من العثمانيه قتلوا أميرا
من أمراء ابن عثمان وهو نائم على فراشه ، وكان
صاحب صنjq ، ولم يعلم ما سبب ذلك . وقيل
قبضوا على من فعل ذلك من العثمانيه وشنق منهم
جماعة من أجل ذلك .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه بدا له أن
يعزل يونس باشا من نيابة السلطنة بمصر ، ويولى
ملك الأمراء خاير بك عوضا عنه لأمر قد عن له .
ومن الحوادث ، أن ابن عثمان لما سكن في
بيت الأشرف قايتباى المطل على بركة الفيل ،
وجرى الماء في الخليج الحاكمى ، أمر بسد الخليج
من عند قنطرة عمر شاه حتى تملأ بركة الفيل
بسرعة .

وفي يوم الجمعة ثالث شعبان ، أشيع أن ابن
عثمان قوى عزمه على العود الى بلاده ، وحروجه
من مصر ، فعين شخصا من أمرائه يقال له على بك
في ذلك اليوم ، وصحبته جماعة من العثمانيه ،
بسبب اصلاح الآبار في طريق غزة ، وتنظيف
الطرقات من الوعر قبل خروج السلطان ، فلما
تحقق عسكره أمر خروجه الى السمر لأسطنبول
شرعوا في عمل برقههم ، ومشتري أزوادهم ،
فارتجت لهم القاهرة بسبب ذلك .

وفي يوم السبت رابع شعبان ، وقعت حادثة
مهولة ... وهى أن السلطان سليم شاه قص على
جماعة من عسكره نحو أربعة وعشرين انسانا ،
وقيل أكثر من ذلك . فلما قبض عليهم رسم بشنق
جماعة منهم في أماكن مختلفة ، وكلب منهم اثنين
على باب زويلة ، واثنين على باب الصاغة ، واثنين
بين القصرين ، والبقية عند جامع قوصون ، وشيء
في الصليبة ، وشيء في قناطر السباع . وأشيع أن
سبب ذلك أن جماعة من الانكشارية قصدوا أن

بقتلوا ابن عثمان لما كان بالمقياس ، فاستدرك أمره ، وتحول الى بيت السلطان قايتباى الذى خلف حمام الفارقانى ، وصار يقبض على من كان سببا لاشاعة قتله .

وفيه حضر الرئيس سلمان العثمانى الذى كان قد توجه صحبة المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى الى الهند .

وفيه أشيع أن الرئيس سلمان هو الذى أغرق حسين نائب جدة ، وكان يسهما عداوة من أيام الغورى ، فلما مات الغورى وظفر سلمان بحسين قتله على ما قيل . ولما حضر الرئيس سلمان أحضر صحبته جماعة من الفرنج الذين كان أسرهم من بحر الهند ممن كان بعث به ، ويقطع الطريق على مراكب التجار الذين يمرون من هناك .

وأشيع أن الرئيس سلمان ، وحسين نائب جدة ، كانا فتحا عدة بلاد بالهند من بلاد الشيخ عامر ، وغنموا منها أموالا جزيلة لا تحصى هم والعسكر الذين نوجهوا صحبتهما فى أيام الغورى ، وهم من عسكر الطبقة الخامسة التى كان جدها الغورى فى زمانه .

وفى يوم السبت حادى عشر شعبان كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية . وفيه أشيع أن ابن عثمان أرسل الى خاير بك الذى قرره فى نيابة السلطنة صنجقا ، وتحقق الناس أنه نائب السلطنة عوضا عن يوسف باشا ، وكان ابن عثمان قرره فى نيابة السلطنة قبل ذلك .

وفيه عرض ابن عثمان عسكره بالميدان الذى تحت القلعة وهم لابسو الزرديات ، وفى أيديهم الرماح والأتراس . وأشيع سفره أواخر الشهر الى اسطنبول

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره وقفت جماعة

الوالى على أبواب المدينة ، وصاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من العوام وغيرهم ، فاذا قبضوا عليهم يضعونهم فى الحبال . وصاروا يقبضون على الناس من شطوط بولاق ، ومن شطوط مصر العتيقة ، وكذلك يقبضون على جمال السفائين بالروايا التى عليها ، فاضطربت أحوال الناس ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، واختفت الناس فى البيوت ، وكثر القيل والقال فى ذلك فمن الناس من يقول انهم يقبضون عليهم بسبب أنهم بمسكون الحيول الجنائب اذا سافر ابن عثمان ، ومنهم من يقول انهم يقبضون عليهم حتى يسافروا بهم الى اسطنبول فى المراكب . فحصل للناس الضرر الشامل بسبب هذا .

وأما سبب مسك جمال السقائين ، فانهم أشاعوا أن ابن عثمان اذا خرج يأخذ معه جمال السقائين بالروايا الى أن يصل الى غزة ، لأجل عدم الماء فى الطريق من هنا الى غزة ، فامتنع السفاءون من الخروج فى هذه الأيام وعز وجود الماء ، فضجت الناس لذلك ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية .

وفيه خرج الوالى الذى كان ابن عثمان فرره فى ولاية القاهرة ، فخرج وبرز الى الريدانية الى أن يخرج ابن عثمان .

وفيه أشيع أن ابن عثمان أطلق الجماعة الذين كان قبض عليهم من العوام والفلاحين والسوقة ، وكان أشيع عنهم أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول . وكانوا لما قبضوا عليهم سجنوهم فى أماكن متفرقة حتى يكون من أمرهم ما يكون . ثم نادى فى القاهرة بأن لا أحد يشوش على أحد من العوام ولا من الفلاحين ، فسكن الاضطراب قليلا ، وفتحت الدكاكين فى الأسواق ، وخمدت هذه

الحركة . قيل ان بعض وزراء ابن عثمان شفع عنده في اطلاق الناس الذين سجنوهم كما تقدم . وفي يوم الجمعة سابع عشره توجه السلطان سليم شاه الى الجامع الأزهر وصلى به الجمعة وتصدق في ذلك اليوم بمال له صورة ، ثم شق من القاهرة في موكب ، وكان ذلك آخر مواكبه في القاهرة ، ثم رجع الى المكان الذي كان به .

وفي يوم الاثنين عشريه عرض السلطان سليم شاه كسوة الكعبة الشريفة ، وكسوة ضريح النبي صلى الله عليه وسلم ، وكسوة ضريح سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، وصنع للمحمل الشريف كسوة . وقد تباهى في كسوة الكعبة بخلاف العادة ، وتباهى في زركشة البرقع الى الغاية ، وكذلك في ثوب المحمل الشريف ، وما أبقى في ذلك ممكنا .

وفيه أطلق ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا في سجن الديلم فأطلقهم أجمعين ، وكانوا نحو أربعة وخمسين مملوكا ، وقد راج أمر المماليك الجراكسة قليلا .

وفي يوم الأربعاء ثاني عشريه خرج القاضي محب الدين بن أجا — كاتب السر الشريف وصاحب ديوان الانشاء — فخرج هو ونساؤه وعياله وصهره الجمالى يوسف بن الطحان ، فخرجت النساء في محائر وشقائف . فلما خرج القاضي كاتب السر سكن في بيته الذي عند قنطرة سنقر الوزير يوسف البدرى .

وفي يوم الخميس ثالث عشريه سبعان خرج وتوجه الى السفر سلطان مصر الملك المظفر سليم شاه بن عثمان ، فخرج من بيت السلطان قايتباي الذي خلف حمام الفارقاني ، وشق من الصليبة

وطلع الى الرميلة ، فخرج في موكب حافل ، وقدامه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب ، وجان يردى الغزالي نائب الشام ، وقدام العسكر طبلان ورمزان وعدة جنائب حربية . وكان راكبا على بغلة صفراء عالية — قيل انها من بغال السلطان الغورى كان يركبها في الأسفار — وكان عليه ققطان مخمل أحمر ، وقدامه جماعة من الوزراء ، منهم يونس باشا والدفتردار وبقية الوزراء والأمراء والجم الكثير من عساكره ما بين مشاة وركاب . فطلع من جهة الصور ، ونزل من جهة تربة الأشرف قايتباي ، ووقف هناك وقرأ سورة الفاتحة وأهداها اليه . وكان قدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط المربعة . ثم شق من بين التراب الى تربة العادل التي بالفضاء ، واستمر على ذلك حتى نزل بالوطاق الذي نصبه ببركة الحاج . ولو شق من القاهرة لكان يوما مشهودا ، ولكن خرج على حين غفلة فلم يشعر به أحد من الناس . ولما خرج من بين التراب قسم عسكره فرقتين: فرقة مرت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة من تربة العادل ، ثم تلاقوا على بركة الحاج . ولما وصل الى الوطاق لم ينزل به وتوجه على ظهر الخاتقاء فنزل هناك .

ثم ان ابن عثمان لما رحل من مصر ترك بها من عسكره ، ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك ، نحو خمسة آلاف فارس ، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام . وقرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشا ، وجعله نائب القلعة ، يقيم بها ولا ينزل الى المدينة .

ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوى ملك مصر

الذى افتخر به فرعون اللعين حيث قال : « أليس لى ملك مصر » وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا ، ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر ، وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أبطالها ، ويتم أطفالها ، وأسر رجالها ، وبدد أحوالها ، وأظهر أهوالها فلم يدخل إليها أحد من الحوارج ، ولا ملكها قط أحد ، ولا جرى مثل ما جرى عليها من ابن عثمان الا ان كان فى زمن بختنصر البابلى ، فقد جرى عليها من ابن عثمان بعض ما جرى عليها من بختنصر . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

وأشيع أن ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جبل محملة ، ما بين ذهب وفضة ، هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والعيى والنحاس والمكفت والحيول والبغال والجمال وغير ذلك ، حتى نقل منها الرخام الفاخر ، وأخذ منها من كل شىء أحسنه ، مما لم يفرح به أبأؤه ولا أجداده من قبله أبدا . وكذلك ما غنمه وزرائه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره ، فأنهم غنموا من النهب ما لا يحصى وصار أقل ما هههم أعظم من أمير مائة ومقدم ألف ، مما غنمه من مال وسلاح وحيول وغير ذلك ... فما رحلوا عن الدار المصرية الا والناس فى غابة البلبه .

وفى مدة اقامه ابن عثمان بالقاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل . وبطل منها نحو حسين صنعة ، وتعطلت منها أصحابها ، ولم يعمل بها فى أيامه بمصر . وكانت مدة اقامة ابن عثمان بمصر ثمانية أشهر الا أياما فلائلا . ومدة استيلائه على مصر والبلاد الشاميه والحلبيه من حين قتل الغورى ، واستيلائه على حلب الى خروجه من مصر ، سنة وشهر واحد . وهو مالك من الفرات الى مصر

الى الشام ، ويخطب فيها باسمه ، وكذلك السكة على الذهب والفضه باسمه ، وكذلك ما حول العراقين ، وقد وعده الله بذلك .

وفى مدة اقامه ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاما ، ولا رآه أحد ، ولا أنصف مظلوما من ظالم بل كان مشغوبا ببلدته وسكره واقامته فى المقاس بين الصبيان المرد ، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه . فكان ابن عثمان لا يظهر الا عند سفك دماء الجراكسة ، وما كان له أمان اذا أعطاه لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض لا ثبت على قول واحد كقول الملوك وعاداتهم فى أفعالهم ، وليس له سباط يعرف ، ولا نظام كعادة السلاطين فى سباطهم كانت تجلس عليه الخاصكية فى كل يوم .

وأما عسكره فكانوا جميعا عيوبهم دنية ، ونفوسهم قدرة ، يأكلون وهم راكبون على خيولهم فى الأسواق ، وعندهم عفاشة فى أنفهم زائدة وقلة دين ، يتجأهرون بشرب الخمر فى الأسواق بين الناس . ولما جاءهم شهر رمضان كان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجامع ، ولا صلاة الجمعة الا قليلا منهم ، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة ، وليس لهم نظام يعرف لأهم ولا أمراؤهم ولا وزرائهم ، وهم همج كالبهائم .

ولما خرج ابن عثمان من مصر ، رسم لابن السلطان الغورى بأن يسافر معه فبرز سنبجه ، وخرج وسافر صحبتته . وأشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج مع ابن عثمان كان وعده بنبابة الشام ، بل قيل انه ولاه نبابة طرابلس ونبابة صنفد ونبابة غزة ونبابة الرملة وبيت المقدس وجبل

(١) فى الاصل : « ولا أنصف طالبا من مظلوم »

نابلس ولم يولّه نيابة الشام ، فشق ذلك عليه ، ثم قرره في نيابة الشام وتوجه اليها صحبته .

وفي يوم السبت خامس عشرية نادى خاير بك بأن المماليك الجراكسة تظهر وعليهم أمان الله تعالى . فظهر منهم الجهم الكثير وهم في أسوأ حال في زى الفلاحين ، وعليهم زنوط قرع وبرد سود وفمصان بأكمام كبار . فاذا رآهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين .

وفيه وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى بلبس ، وحصل له توعك في جسده ، فأرسل الى خاير بك يطلب محفة ، فأرسل له خاير بك محفة الى بلبس .

وفي يوم الأحد سادس عشرى شعبان ، طلع المقر السيفى ملك الأمراء خاير بك بن بلباى نائب السلطنة بالديار المصرية الى قلعة الجبل ، فكان له موكب حافل ، وقدامه عدة جنائب بغواشى حرير أصفر ، وقدامه جماعة كثيرة من العشائية مشاة يرمون بالنفط ، وقدامه الجهم الكثير من عسكر ابن عثمان . فشق من الصليبة بعد طلوع الشمس ، وطلع الى القلعة وأقام بها ... وصارت مصر نيابة بعد أن كانت سلطنة ، ونقلت الأحوال ، وكثرت الأقوال . وقد قلت في خاير بك لما تولى نيابة السلطنة شعرا وهو :

مصر أضحت في سرور عندما

قد تولى للنيابة خير بك

فلسان الحال عنها قائل

ياعمرى قد أتانى خير بك

فلما أقام خاير بك بالقلعة ، أرسل خلف البنائين والنجارين والمبطلين ليرموا ما فسد من أماكن القلعة . ثم ان خاير بك خلع على شخص من

الأتراك يقال له كشبغا ، وقرره في ولاية القاهرة وهو مملوكه .

وفيه خلع ملك الأمراء خاير بك على جماعة من المباشرين وقرره في وظائف سنية : فخلع على المصاوى ناظر الجيش « علاء الدين ابن الامام » وقرره كاتب السر الشريف ، عوضا عن محمود بن آجا بحكم توجهه الى السفر كدا تقاسم ، وقرره ناظر الجيش ايضا عوضا عن الشهابى أحمد ابن ناظر الخاص ، وأبقى علاء الدين في نظارة الخاص مضافة لما بيده من هذه الوظائف . وفيل انه قرره في نظر الكسوة الشريفة ، وجعله أمير ركب المحمل أيضا ، فصار بيده خمس وظائف سنية ، فتضاعفت عظمته فوق ما كان .

وخلع على الزينى بركات بن موسى ، وقرره مدير المصلحة ، وناظر الحسبة الشريفة ، وناظر المارستان المنصوري ، وناظر الدخيرة الشريفة ، وغير ذلك من الوظائف . وتزايدت عظمته ، واجتسعت الكلمة فيه ، وصار عزيز مصر في هذه الفترة ، فنوجه الناس الى بابه لقضاء حوائجهم ، وصار هو حاكم البلد ، وقد قلت فيه :

يا نجل موسى عدت بالبركات في

أعلى المراتب حيث كنت وأزيدا

قد كان قطعاً زال عنك ولم تزل

في السعد عسالا على رغم العدا

وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان ، وقرره نائب كاتب السر على عادته ، ورسم له بأن يتوجه الى مكة من البحر المالح وكسوة الكعبة بصحبته .

وخلع على القاضى شرف الدين الصغير وقرره متحدثا في ديوان الوزارة . وخلع على الشرفى يونس النابلسى وقرره استادار العالية وصاحب الديوان المفرد . وخلع على فخر الدين وأخيه

شمس الدين كاتب الممالك ، وقررها في التحدث على جهات الذخيرة . وخلق على عبد العظيم الصيرفي وقرره في استدارية الشعير وغير ذلك من الوظائف ... فنزلوا من القلعة وهم بالقضاة المخمل عوضا عن الخلع ، فخلع على هؤلاء الجماعة في يوم واحد ، وهذا أول تصرف خاير بك في أحوال المملكة .

وفيه أشيع أنه قد عقد لخاير بك على خوند مصر باي زوجة الظاهر قانصوه .

وفيه ظهر الزيني أبو بكر ابن الملكى وكان له مدة وهو محتف ، فلما ظهر خلع عليه خاير بك ققطانا محملا ، وفرره في استيفاء الجيش على عادته

وفي يوم الثلاثاء ، ثامن عشر شعبان ، حضر الأمير قايتباي الذى كان نائب الكرك ، وكان قد ارسله خاير بك الى ابن عثمان بمطالعة من عنده لأجل أن جساعة من عسكره الانكشارية ثاروا على خاير بك ، وقالوا له « رتب لنا جامكية كما كانت تأخذ الممالك الجراكسة ، واجعل لنا لحما وعليقا مثل الجراكسة » فقال لهم : « حتى أرسل أستأذن استاذكم بذلك » .. فأرسل الأمير قايتباي نائب الكرك الى ابن عثمان بسبب ذلك . فلما حضر ما علم احد بمسادا أجاب ابن عثمان عن تلك المطالعة التى أرسلها بسبب جماعه الانكشارية كما تقدم . فلما حضر قايتباي أشيع أن ابن عثمان لمسا دخل الى الخطارة قطع رأس يونس باشا ، ولا يعلم ما سبب ذلك . وكان يونس باشا أعظم وزرائه ، وكان لطيف الذات وعنده رقة حاشية بخلاف طبع الأتراك . وكان قرره أولا في أن يكون نائبا عنه بمصر ، ثم رجع عن ذلك وقرر خاير بك في النيابة . وكان يونس باشا مقربا عند ابن عثمان الى الغاية بخلاف بقية الوزراء ، ويقال ان يونس

باشا هو الذى كان سببا لولاية سليم شاه على مملكة الروم دون اخوته ، فما زال يجتهد ويسعى حتى ولاء الروم ، ثم سار معه على ذلك حتى دخل الى مصر وملكها .. ولكن سليم شاه ابن عثمان ليس له صاحب ولا صديق ، ولا أمان منه لأحد من وزرائه ولا من عسكره ، ومن طبعه الرهج والخفة ، ويحب سفك الدماء ولو كان لولده . ويقال انه قتل أباه واخوته لأجل مملكة الروم ، وآخر الأمر قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة ، وكان يونس باشا يظن أن سليم شاه يرمى له الود القديم ، فكان كما قيل في المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى

خوفه أولى به من أمله

رب من ترجو به دفع الأذى

سوف يأتيك الأذى من قبله

فلما أشيع قتل يونس باشا ، اضطربت القاهرة وغلقت أبواب المدينة من بعد العصر ، وخشوا من هجمة العرب على المدينة ، ثم سكن ذلك الاضطراب قليلا .

وفي شهر رمضان ، وكان أوله يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الرؤيا ركب الزيني بركات بن موسى المختسب من المدرسة المنصورية ، وقدامه الفوائس موقودة والمشاعل كذلك على العادة ، وكان له موكب حافل .

فلما كان صبيحة شهر رمضان ، خلع ملك الأمراء خاير بك على القاضى شرف الدين الصغير وابن موسى ، ققطانين مخملين كما هى عادتهم في أول شهر رمضان ، ونادوا في القاهرة بأن لا أحد يحتمى على الزيني بركات ابن موسى ناظر الحسبة الشريفة .

وفي يوم الخميس ، مستهل الشهر ، خلع ملك الأمراء خاير بك على الأمير قايتباي الشهير

بنائب الكرك وقرره في الدوادرية ، وكانت شاغرة من حين مات الأمير علان الدوادر .

وفي يوم الخميس ثامن شهر رمضان طلعت الى القلعه خوند مصرياي — وقد تقدم القول بأن ملك الأمراء خاير بك قد تزوج بها — وطلعت الى القلعة في ذلك اليوم قبل شروق الشمس وصحبته نساء كثيرة من نساء أعيان وهن على حمير المكارية .

وفي يوم الجمعة تاسع الشهر أشهروا في القاهرة أربع نسوة ، وهن على حمير ووجوههن ملطخة بالسواد ، فيل انهن كن يجسعن عندهن الأجانب من الأتراك في شهر رمضان ، ويأتين لهم بالنساء الأجنبية ، فغمز عليهن ، وأمر خاير بك باشهارهن على تلك الحالة .

وفي يوم السبت عاشره ظهر الأمير قانصوه العادلي الذي كان كاشف الشرفه ، وفد أرسل اليه ملك الأمراء خاير بك مندبل الأمان ، وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة . فلما طلع الى القلعة ، وقابل خاير بك ، خلع عليه قفطانا مخملا ، ونزل فسكن في بيت الأمير قانصوه جركس الذي في حارة السقائين . وأشيع ظهور جماعه من الأمراء العشراوات .

وفيه قابل شيخ العرب أحمد بن بقر ، وخلع عليه وعلى ولده بيبرس ، وقد التزما باصلاح جهات الشرفبه ولم نهم ذلك . واستمرت أحوال الشرقية في غاية الفساد من جبد الدائم بن بهر واخوته .

وفي يوم الاثنين ثاني عشر رمضان — وكان أول بابيه من الشهور القبطه — ثبت النيل المبارك على اربع عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، واستمر في ثبات الى آخر أيام بابيه ، وشرق غالب بلاد الصعيد ، وأكثر البلاد العالية التي لا تروى الا

من عشرين ذراعا ، وكان نيلا شحيحا من أوله الى آخره .

وفيه ظهر أبو البقاء ناظر الأسطبل ، وكان مختفيا ، فلما ظهر ألبسه خاير بك قفطانا مخملا ، وأقره على عادته متحدثا على جهات الاسطبل الخاص .

وفي يوم الاثنين المقدم ذكره ، عرض ملك الأمراء خاير بك كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ، وكسوة مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ، وكسوة ضريح النبي صلى الله عليه وسلم ، وعادة ستور من قبل ابن عثمان ، وقد تناهوا في زركشة البرقع ، وسيج كسوة الكعبة الى الغاية ، بخلاف العادة .

فشقوا بها من القاهرة وهدامهم الأعيان من المباشرين والجم الكثير من العساكر العثمانية ، ومن الرماة جماعة كثيرة يرمون بالنفوط ، وكان ذلك اليوم متشهودا . فلما طلوعوا الى القلعة عرضوا على خاير بك نائب السلطنة ، تم رجعوا ثانيا من حيث جاءوا .

وفي يوم الأربعاء رابع عشر رمضان ، نادى ملك الأمراء خاير بك ، بأن المماليك الجراكسة الدين ظهروا بمصر يركبون الحبول ويشترون السلاح ، وكان قبل ذلك نادى في القاهرة لتجار القبول بأنهم لا يبيعون على المماليك الجراكسة شيئا من آلة السلاح ، فشق ذلك على العثمانية ، ووقفوا لخاير بك في الحوش ، وكلموه وأرادوا معه فتح باب الشر ، وقالوا له : « نحن ما يكفيننا هذا القدر الذي ربناه لنا ، وهو ثلاثة أنصاف في كل يوم ، وكل شيء في السوق عال » . ثم قالوا له : « رتب لنا جوامك في كل شهر ألفين ، ولحمنا وعليقا ، وفرق علينا اقطاعات مثل ما كانت المماليك الجراكسة » . وأغلظوا عليه في القول ، فقال لهم :

« ليس لي هذا التصرف ، لأنني أنا نائب السلطنة ، وهذا لا يكون إلا بأمر السلطان ، فهو الذي يفرق عليكم الاقطاعات ، ويجعل لكم الجوامك واللحوم والعليق » . فلما سمعوا ذلك منه سبوه سبا قبيحا وهبوا بقتله ، فقام ودخل البيت مسرعا ، وأغلق عليه الباب دونهم . فوقع في ذلك اليوم بعض اضطراب بالقلعة ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة . وثاروا على خير الدين الذي جعله السلطان نائب القلعة ، فأغلق باب القلعة واختفى . ثم أشيع أن خاير بك أرسل إلى ابن عثمان ساعيا يخبره بما وقع من أمر هذه الحركة ، وعول خاير بك على رد الجواب عن ذلك .

وفي يوم الاحد ثامن عشر رمضان ، نادوا في القاهرة بأن المماليك الجراكسة الذين طهروا يلبسون الزنوط الحمر والملايط على عادتهم ، ولا يتزيوا بزى العنمايه ولا يخرجوا إلى الطرقات . وسبب ذلك أنه أشيع أن جماعة من الجراكسة يتزيوا بزى العثمانية ، ويخرجون إلى الطرقات . ويحفظون عمائم الناس . وما بلوح لهم من البصائع وغيرها في حجة العثمانية . فسادى خاير بك تلك المناداة حتى سار الجراكسة من العثمانية ، ولم ينفذ ذلك شيئا .

وفي يوم الاثنين ناسع عشره خرج الشهابي أحمد ابن الجيعان نائب نائب النسر . ومصلح الدين خاونددار ابن عثمان ، وصحبهما لسود اسلميه الشريفه وهى محزومة محمله على الجمال ، وأشيع أنها بموجهان بها من البحر المالح إلى جده إلى مكة المشرفة ، فنادى لهما في القاهرة موكب حافل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وخرج صحبتهما ألفا عثمانى وقدامهم طبلان وزمران ورماة بالنفط وركب قدامهما الأمير قاينباى الدوادر الكبير ، وأعيان المباشرين ، فلما خرجوا من القاهرة رجعت

لهم مصر ، فخرجوا من باب النصر ، وتوجهوا إلى الوطاق بالريداية .

وفي ذلك اليوم ثارت جماعة من العثمانية على الزينى بركات بن موسى المحتسب ، بسبب الفلوس الجدد ، فان ابن عثمان ضرب فلوسا جديدا وجعل فيها اسمه ، ورسم للسوفة ونادى لهم بأن يصرف كل سنة عشر جديدا بنصف فضة معاددة . وكانت هذه الفلوس في غاية الخفة ، فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، ووقف حالهم وغلقت الدكاكين . فلما جرى ذلك نادى الزينى بركات بن موسى بأن النصف الفضة يصرف بأربعة وعشرين جديدا ، ليعرف الدرهم الفلوس من الدرهم في المعاملة ، فثارت العثمانية على ابن موسى ، وقالوا له : « هل مات السلطان سليم شاه بن عثمان ، حتى تبطل من مصر معاملته » ؟ وهموا بضربه فنادى في ذلك اليوم بأن كل شيء على حاله من الفلوس ، كل ستة عشر جديدا بنصف فضة كما كان في الأول . فأغلقت السوق دكاكينهم ، ورفعوا البضائع ، ووقع في القاهرة بعض اضطراب .

وأشيع أن خاير بك نائب السلطنة صنع من الخوازيق الحديد عدة ، وأنه بعد العيد يخوزق جماعة من السوق على باب القاهرة ، فلما أشيع ذلك خافت السوق وفتحت الدكاكين ، ومشوا صرف النصف بستة عشر جديدا ، كما كان في الأول .

وفي يوم الثلاثاء عشرين شهر رمضان ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه إلى تربة العادل ليودع مصلح الدين والشهابي أحمد بن الجيعان ، فودعهما ورجع ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة في موكب حافل ، وقدامه نحو ألفين من العثمانية ، وجماعة مشاة يرمون بالنفط ،

باسمه ، فكان سائر الخطباء يدعون في يوم الجمعة باسمه ، ويقولون : « وانصر اللهم السلطان المملى . المظفر سليم شاه » . وكذلك اسمه على الدنانير والدرهم والفلوس الجدد .

ثم كان مستهل شوال يوم السبت ، فطلع القضاة الأربعة وجماعة من أعيان المباشرين ، فخرج ملك الأمراء خاير بك وصلى صلاة العيد بجامع القلعة . ثم أنه مد مدة حافلة لجماعة من العثمانية ، فنزلوا على ذلك السباط منل الصفورة ، فلم يبقوا منه غير العظام ، ولم يفضل لعلمان القلعة شيء . وكان خاير بك يظن أن الأمراء الجراكسة الذين ظهروا والخاصكية يطلعون ويحضرون المدة ، فلم يطلع له أحد من هؤلاء ، وخافوا أن تكون مكيدة أو حيلة . وكان هذا اليوم لم يكن عبدا ، بل كان في غابة الخسود في كل نىء .

وفي هذا العيد لم يخلع خاير بك على أحد من قضاة القضاة ، ولا على أحد من المباشرين قاطبة كما كانت العادة القديمة .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشره ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى نحو البريم على سبيل التنزه ، ونصب له هناك خياما ، وأراد أن يبيت على شاطئ البحر ، وأحضر جماعة ممن يقلون السسك ، وقصد أن ينشرح في ذلك اليوم هناك ، فصنع له السيد نقيب الأشراف مدة حافلة وأحضرها هناك ، فخرج عليها جماعة من العثمانية في أثناء الطريق ، فخطفوا ذلك الأكل من فرق رءوس الجمالين . فلما بلغ خاير بك ذلك تنكد من العثمانية بسبب هذه الفعلة ، ولم يكن له عند العثمانية حرمة ولا وقار ، ولا مراعاة له في سائر الأحوال .

فرجت له القاهرة في ذلك اليوم ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ، وهندا أول مواكبه بالقاهرة من حين تولى نيابة السلطنة .

ثم في يوم الخميس ثانى عشره ، نزل ملك الأمراء من القلعة ثانيا ، وتوجه الى باب الشعرية ، وزار الشيخ عبد القادر الدشوطى ، وجلس عنده ساعة . فقبل ان الشيخ عبد القادر قال له استوص بالرعية فانك تسأل عن ذلك يوم القمامة . فبكى خاير بك ، وقبل يده وخرج من عنده ، وعاد الى القلعة من يومه .

وفي يوم السبت رابع عشرى شهر رمضان ، ظهر الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين . فلما طلع الى القلعة وقابل ملك الأمراء خاير بك ومنديل الأمان على رأسه ، قام له خاير بك واعتنقه وأجلسه بين يديه . وكان لما طلع القلعة لابسا زى العرب ، وعليه زنت وشاش وملوطة بأكمام كبار ، فألبسه خاير بك قفطانا مخملا بتماسيح ، وألبسه عمامة عثمانية . وكان لما قابله معه ستة أنفار ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ، فخلع عليهم قفازين مخملة ونزلوا من القلعة الى أماكن أعدت لهم .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشرى شهر رمضان ، ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وحضر ملك الأمراء خاير بك والقضاة الأربعة وجماعة من أعيان العلماء والفقهاء وأعيان المباشرين .

فلما انفض المجلس خلع خاير بك على القضاة قفازين من جوخ أزرق بوجه صوف ، وفرق على الفقهاء والعلماء صررا فيها دراهم ، وكان ختما حافلا . وشتان بين هذا الختم وما كان يعمل في ختم السلاطين الماضية في مثل هذا اليوم .

ولما سافر سليم شاه بن عثمان ، وخرج من مصر ، استمرت الخطبة والسكة عمالة في مبصر

وفي ذلك اليوم فتح البريم بحضرة خاير بك ،
وأحد ساعه من الصيادين في مراكب ومعهم
أسماك كثيرة ، فصار القلايون يقلون من هذه
الأسماك ويطعم العسكر الدين بصحبته ، وانشرح
في ذلك اليوم الى الغاية ، وأقام هناك الى ما بعد
العصر ، ثم نزل في مركب وتسق من جهة الروضة ،
وطلع من بر مصر العتيقة الى القلعة .

وفي ذلك اليوم أتبع أن السلطان سليم شاه بن
عثمان أرسل مطالعة الى خاير بك على يد ساع ،
فكان من مصسوبها انه وصل الى التمام
ودخل اليها ، وزينت له لما دخلها ومن مصسون
تلك المطالعة أن ابن عثمان أرسل يطلب من
خاير بك أربعين ألف أردب شعير وفسح يرسلها له
في مراكب من البحر المسالج الى التمام ، فألزم
خاير بك المباشرين بذلك ، فأخذوا في تجهيز ذلك
وارسالة من البحر كما برز الامر .

وفي أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من عند
الجماعة الذين خرجوا من مصر ووجهوا الى
اسطنبول ، بأن مركبا من المراكب التي توجهوا بها
قد غرقت في البحر المالح ، وغرق للناس فيها جملة
مال ، وغرق فيها أربعمئة انسان ، وفيهم جماعة
من الأعيان الذين خرجوا من مصر ، ولكن لم
يثبت الى الآن أسماء من غرق فيها من الأعيان .
وقد أشيع أنه كان فيها يبردى بن كسباى أحد
الأمراء العشراوات الذى كان باش المجاورين بمكة ،
وحضر صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة ، وقد
تقدم القول على ذلك .

وكان بتلك المركب قراكن الحكيم رأس نوبة
عصا ، الذى كان محتسبا بمكة ، وكان بها نحو
أربعين مملوكا ، وكانوا صحبة باش المجاورين ،
وحضروا صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة .
وقد تقدم القول على ذلك .

وكان بتلك المركب محمد بن ابراهيم
النراييتى . الذى كان نالسر الاوقاف المتعلقة
بالزمامية في أيام السلطان الغورى ، وكان بها غير
هؤلاء جماعة كثيرة من الناس فأشيع غرقهم أجمعين ،
ولكن لم يتأكد القول بذلك الى الآن . وأشيع
غرق جماعة من البزدداريه الدين كانوا خرجوا من
مصر ليتوجهوا الى اسطنبول . وأشيع أن الطاعون
عسال باسطنبول وبها الوخم والغلاء ، وهذا
ما أتبع والله أعلم بصحة ذلك .

وفي يوم السبت خامس عشر شوال ، حضر أمير
من عند ابن عثمان من الشام يقال له الأمير على ،
فيل هو الذى كان واليا بالقاهرة لما كان بها ابن
عثمان ، فخرج الأمير قايتباى الدودار الى ملاقاته ،
فدخل من باب النصر .

وحضر صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ،
وجماعة من الماليك المتعلقين بملك الأمراء خاير
بك الذين كانوا بحلب . فيل انهم نحو ثلثمائة
مملوك ، فأنزلوا هذا القاصد في بيت الأتابكى
سودون العجى الذى في قنطرة سنقر ، فلم تصح
هذه الاشاعة ، وأنزلوه في مكان غير ذلك المكان
الذى ذكروه ، فأخبر هذا القاصد بأن ابن عثمان
دخل الى الشام وهو مقيم بها . وقيل انه يشقى
هناك ، وأن أهل الشام في غاية الضنك والشدة
من عسكره ، لأنهم طردوهم عن بيوتهم وسكنوا
بها ، وحصل منهم لأهل الشام الضرر الشامل
أكثر مما حصل لأهل مصر . وأخبر أن الغلاء
بالشام حتى بلغ ثمن العليقة الواحدة ستة أنصاف
ولا توجد .

واختلفت الأقوال في مجيء هذا القاصد ...
فسن الناس من يقول جاء بسبب استعجال هذا
المغل الذى أرسل يطلبه ابن عثمان ، ومن الناس
من يقول ان ابن عثمان ولاه نيابة الاسكندرية ،

وقيل جاء بسبب غير ذلك . والأقوال في ذلك كثيرة .

وفي يوم الأحد سادس عشره نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى منشييه المهراني ، بسبب وسق المراكب بالمغل الذي أرسل بطلبه ابن عثمان ، فقيل جهاز من المغل نحو ثلاثين ألف أردب قمحا وشعيرا ، وقيل أكثر من ذلك

وفي يوم الاثنين سابع عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة في موكب حافل ، وكان أمير ركب المحمل في تلك السنة القاضي علاء الدين بن الامام ناظر الخاص ، الذي قرر في كتابة السر كما تقدم .

وقد خرج الحاج في هذه السنة ركبا واحدا ، الأول والمحمل معا . وكان الحاج في هذه السنة قليلا جدا خوفا من فساد العربان في الطريق ، لأنه في السنة الماضية — في دولة الأشرف طومان باي — لم يخرج المحمل من القاهرة ، ولم يحج فيها من أهل مصر أحد .

ولما خرج القاضي ناظر الخاص ، طلب طلبا حربيا ، يشتمل على أربعة نوب هجن بأكوار مخمل ، وبعض خيول جنائب عليها بركستوانات فولاذ وكناييش زركش ، وثلاثة خزائن بأغشية حريز أصفر ، ومحفة جوخ أزرق ، وقدامه طبلان وزمران من غير صنجق . وقد احتفل بعمل سنح حافل بسبب من حج معه من العثمانية في هذه السنة .

ولما شق من القاهرة كان قدامه الأمير قايتباي الدوادار والأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمي الألوف الذي ظهر عن قريب ، والأمير قانصوه العادلي الذي كان كاشف الشرقية ، وكان قدامه جماعة من أمراء ابن عثمان ومن عسكره

ورك قدامه سائر الأعيان من المباشرين من كبير وصغير ، ثم أتى بعده المحمل وقدامه القضاة الأربعة على العادة

ومن حج في هذه السنة من الأعيان قاضي القضاة محيي الدين المالكي — وهو ابن الدميري — فألبسه خاير بك قفطانا محملا ، وقرره قاضي المحمل وحج آخرون من الأعيان لا يحضري أسماؤهم الآن .

وقد جدد ابن عثمان كسوة المحمل في هذه السنة ، فصنع له كسوة فاخرة كلها زركش ، وكتب عليها اسمه ، ولما شقوا من القاهرة كان لهم يوم مشهود على العادة القديمة . هذا ما كان من ملخص خروج المحمل في ذلك اليوم .

وفي يوم السبت ثاني عشره خلع ملك الأمراء خاير بك على قانصوه العادلي قفطانا مخملا بتناسيح ، وقرره كاشف الشرقية كما كان أولا .

وفي يوم الأحد نالت عسريه قبض الوالى على خمسة أنفار من العثمانية أشيع عنهم أنهم يحطفون العمائم ويعرون الناس في الطرقات ، وأنهم يخطفون النساء والصبيان المرد ، وتزايد منهم الفساد . فلما قبض عليهم ، رسم سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان أن يشنقوا على باب زويلة

فشنق منهم اثنان على باب زويلة ، وواحد على باب الشعرية . وأما الاثنان فقد شفع فيهما من الشنق في ذلك اليوم فسجنا

وكانت العثمانية الذين بمصر كثر منهم الأذى في حق أهل مصر من حين رحل ابن عثمان عنهم ، وصاروا لا يسمعون لخاير بك كلامه ، ولا له عليهم حرمة .

وفي يوم الاثنين رابع عشر شوال توجهت المماليك الجراكسة الى بيت الأمير قايتباي الدوادار

بسبب أنه وعد المماليك أنه يصرف لهم جوامك في ذلك اليوم ، فطلع الى القلعة واجتمع بملك الأمراء خاير بك ، وأقام بالقلعة الى قريب الظهر ، والمماليك الجراكسة في انتظاره على بابه ، فلما نزل قال لهم : « با أغوات شاورت ملك الأمراء عن أمركم ، فقال حتى يجمع المال ، ونفق عليهم الجوامك » . ولم يواعدهم على يوم معين ، فرجعوا من عنده بغير طائل .

وقد صارت المماليك الجراكسة في غاية الذل من الفقر والعري ، ومنهم من سأل الناس في رغبة يقتات به ، ومنهم من يطوف في الأسواق يسأل التجار والسوقة في درهم يشتري به كبشة فول يأكلها ، فسبحان من بعز ويذل . وصاروا يمشون في الأسواق لا خيول لهم ولا قماش ولا سلاح ولا بيوت تأويهم ، ولا اصطبلات ولا عبيد ولا غلمان ، وقد نظر الله اليهم بعين المقت جزاء ما كانوا يعملون ، فسبحان من قهر الجبابرة بعز سلطانه .

وفي يوم الأحد كان مستهل ذي القعدة الحرام ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بالشهر ، وعادوا الى بيوتهم .

وفي يوم الخميس خامسه خلع ملك الأمراء على يوسف البدرى وأعادته الى الوزارة كما كان أولا ، فخلع عليه ققطانا مخملا عوضا عن المتمر . وقد صارت الأمراء الجراكسة الذين ظهروا كلهم بققطانات مخملة ، وبعضهم بققطانات جوخ وطراير جوخ أسود ، وعليهم عمائم مدورة ، وفي أرجلهم سقمانات جلد في زى العثمانية ، فصارت الأمراء الجراكسة والمماليك السلطانية كلهم على

هذه الهيئة ، واختلط العثمانية مع الجراكسة ، حتى صاروا لا يعرف هذا من هذا الا بتىء واحد وهو أن المماليك الجراكسة تعسرف بذقوبهم ، والعثمانية بغير ذقون . وقد قلت في هذا المعنى مواليا :

امشى مع الدهر قدر الجهد يا غلطان
واخلع تياب المواكب واتبع السلطان

في لبس سقمان أو طرطور أو ققطان
وكن مع القوم في الملبوس والأوطان
وفي يوم الأحد ثامن الشهر ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة باكر النهار ، وتوجه الى نحو قبة الأمير يشبك الدوادار التي بالمطرية ، وأقام هناك الى آخر النهار ، ومد في ذلك اليوم مدة حافلة ، واهدت اليه جماعه من المباشرين مجامع حلوى ، ومشنات فاكهة ، وسكر وخرفان شوى ، وأقفاص أوز ودجاج ، وغير ذلك أشياء فاخرة ، على أعناق الحمالين وظهور الدواب ، وكان يوما سلطانيا . ولم يتم حتى وقعت حادثة ... وهى أنه في ذلك اليوم بعد العصر ، نزل جماعة من العربان من نحو الجبل الأحمر ، بالقرب من سبيل علان ، فقطعوا الطريق على جماعة من الفلاحين معهم جمال محملة قمحا وبطيخا ، فأخذوا منهم نحو أربعين جملا ، وذهبوا بها الى الجبل ، ومضوا بها ولم تنتطح فيها شاتان . فلما بلغ ملك الأمراء ذلك تنكد غاية النكد بسبب ذلك ، فلما ذهبت العرب بالجمال أتى الفلاحون الى ملك الأمراء واستغاثوا بين يديه وبكوا ، فقام من وقته وهو منكدر ، وطلع الى القلعة بعد العصر ، ولم يخرج من يده شيء في رد الجمال من أيدي العربان الى أصحابها .

وفي يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة حضر الى الأبواب الشريفة شيخ العرب عبد الدائم بن شيخ

من أن جماعة من المباشرين بالديوان المفرد ، منهم يوس النابلسي الأسنادار ، وفجر الدين وأخوه أولاد ابن عوص ، وبركات أخو شرف الدين التسعير . وشرف الدين الكبير ، وأبو بكر بن الملكى مسوفى ديوان الجيش ، وبركات بن موسى وعلاء الدين ناظر الحاص . وعبد العظيم أسنادار التسعير ... فهؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، اتفقوا على أخذ أموال المسلمين ، فاستباحوا أموالهم ودماءهم ، وما ذاك إلا أن غالب البلاد قد شرق فى هذه السنة بسبب خسة النيل . وكان المباشرون الترموا بتعليق المال الذى على البلاد ، فلما حصل هذا الشراقى صربوا مشوره بين بعضهم وقالوا : « نحن فى العام الماضى أوقفنا اقطاعات أولاد الناس التى بالمناشير ، وأخذنا خراجهم ، وفى هذه السنة أوقفوا الرزق التى بالمربعات الجيشية ، ونضع أيدينا على خراجها فى هذه السنة فى نظير شراقى البلاد » فطلعوا الى ملك الأمراء خاير بك ، وعرضوا عليه ذلك وحسنوا له عبارة فى استخراج خراج الرزق فى هذه السنة فى نظير الشراقى ، فقال لهم : « انزلوا افعلوا ذلك » فنزلوا من عنده ، وأطلقوا فى الناس النار ، وأرسلوا العمال بالمراسيم الى البلاد ليستخرجوا منها الأموال من الرزق التى بالمربعات قاطبة ، حتى الرزق الأحباسية ، ولو كانت الرزقة تشتري بمربعة شربة . فضجت أولاد الناس والنساء الأرامل من هذه الحادثة المهولة ، وحصل الضرر الشامل للأرامل والأيتام . والله تعالى لا يغفل ولا ينام .

وصار الناس يقفون الى ملك الأمراء خاير بك ، ويشكون اليه ذلك ، فبقولهم : « أنا أوقفت المناشير والمربعات بأمر الخنكار ابن عثمان » ، فنزلوا من عنده فى أسوأ حال ، وصاروا يسألون

الأسنادار بمال يدفعونه له حتى يفرج عن رفقهم ، فلا يجيبهم ولا يفصى لهم حاجة .

ثم ان فجر الدين بن عوض — لا جزاه الله خيرا — استدرج من الرزق الى خراج بلاد الأوفاف التى كانت بالملكاتب الشرعية ، فصار يستخرج خراج الأوفاف ويأكله على أصحابه رغما عن أنفسهم ، فتحصل للناس فى هذه الحركة غاية الضرر الشامل ، وقد اشتد الأمر على الناس بسبب ذلك ، وكل هذا من المباشرين وأداهم فى حق المسلمين . وقد قلت فى المعنى مواليا :

كان ابن عثمان مذجا مصر مثل الضيف
رحل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجوروا فى الشتا والصيف
أطراف أقالمهم تفعل مثل فعل السيف

وفى يوم الأحد ثانى عشرى ذى القعدة ، خرج الأمير قايتباى الدوادار ، وعدى الى بر الجيزة ، وخرج صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ، ومعهم مكاحل نحاس ومدافع نحاس وعجل ، وقد أشيع أن عدة قبائل من العرب نزلوا على الجيزة فافتتوا مع عرب عزالة ، وحصل منهم غاية الفساد . فخرج الأمير قايتباى وصحبته تجريدة وعسكر من الجراكسة بسبب العربان وطردهم عن البلاد فخرج وقام فى بر الجيزة الى أن يتكامل العسكر .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرية ، اجتمع المماليك الجراكسة فى بيت الأمير قايتباى الدوادار — وهو بيت الأتابكى قرقماس الذى عند حوض العظام — واجتمع القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، ولم يكن الأمير قايتباى الدوادار حاضرا ، بل حضر أخوه جان بك . فاتفقوا على المماليك الجراكسة لكل واحد منهم ألفا درهم .

وصاروا يستوعبونهم طبقة بعد طبقة ، فأنفقوا عليهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء رابع عشره ، وأنفقوا يوم الأربعاء ويوم الخميس أيضا ، وقد ظهر من الممالك الجراكسة الجهم الكثير فوق الخمسة آلاف مملوك ، وقد كانوا موزعين في البلاد عند الفلاحين ، وآخرون قد اختفوا في البيوت والحارات ، حتى خمدت الفتنة ثم ظهورا بعد ذلك .

وفي يوم الخميس سادس عشره ، أشيع أن الأمير قايتباي الدوادار ، لما توجه الى بر الجيزة بسبب فساد العربان ، وأقام هناك أياما حتى يتكامل خروج العسكر ، وردت الأخبار بأن العسكر العثماني لما توجهوا الى هناك ، وقع بينهم خلف في بعضهم ، فونبوا على باشهم ، وهو شخص من أمراء ابن عثمان ، وراموا قتله فهرب واستجار بالأمير قايتباي . فلما جرى ذلك أرسل الأمير قايتباي كاتب ملك الأمراء بما جرى من العتسية في حق باشهم .

ثم أشيع واستفاض بين الناس ، أن حمادا شيخ عربان عزالة قد حصر عند ملك الأمراء خاير بك ، وأخبره أن العربان الذين أتوا الى بر الجيزة ، عدة قبائل لا تحصى ، وأن العسكر الذي أرسله لا يفاوم هذه العربان الكثيرة ، فأنهم فوق العشرين ألف اسان . ونشأ هذا كله من حسن بن مرعى لما هرب من الحبس ، فانه طاف بالعربان وأنشأ هذا الفساد . ثم قال له : « ان لم تخرج أنت بنفسك ، وتعدى بر الجيزة ، والا فما يقع للعسكر اتفاق بينهم » ، فصلى ملك الأمراء خاير بك صلاة الفجر ، ثم نزل من القلعة وقدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط ، والجهم الكثير من العثمانية ، ومعهم مناجق حديد أحمر ... فشق من الصليبه وتوجه الى بولاق ليعدى الى الجيزة .

وفي يوم الجمعة سابع عشره ، حضر الأمير قايتباي الدوادار ، وكان قد خرج باش التجريدة الذي توجهت الى السرب ، وأخبر أنه لم يظفر بحسن ابن مرعى ، ونرافع هو والعربان الى الأودية والجبال . وأشيع أن باش عسكر العثمانية هو الذي أهمل في أمر حسن بن مرعى حتى أخلى من وجه العسكر ، ومضى بسجعه ، ودخل الى الأودية والجبال .

وفي آخر هذا الشهر وقع بين القاضي فخر الدين بن عوص ، وبين خشمدم الأشرقي مملوك السلطان العورى . الذي كان تناد الشور وهرب وتوجه الى بلاد ابن عثمان ، وكان سببا لانشاء هذه الفتنة بين سليم شاه بن عثمان وبين السلطان العورى . وقد تقدم القول على ذلك - فلما دخل ابن عثمان الى مصر وملكها فرر خشمدم هذا كاشف أسيوط مع منفلوط فلما رحل ابن عثمان عن مصر ، وفرر ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بمصر ، عزل خشمدم من التحدث على أسيوط . فلما حضر خشمدم من أسيوط وفعب بينه وبين فخر الدين بن عوص فتنة بسبب الرزق التي هالك ، فحصل بينهما نشاجر عظيم ، فتشامتا وتسابا سبا فييجا . وقال فخر الدين بن عوص لخشمدم : أنت كنت سببا لوفوع الفتنة بين أستاذنا الغورى وبين ابن عثمان ، فتحمل خشمدم من فخر الدين بن عوص ، وشق عليه ذلك .

فلما كان يوم السبت ثامن عشرى دى الحجة ، طلع خشمدم الى القلعة ، ووقف الى ملك الأمراء خاير بك ، وشكا له فخر الدين بن عوص مما قاله في حقه ، فتعصب له جماعة من العثمانية ، وأغلظوا على خاير بك في القول بسبب فخر الدين بن عوص فلما طلع ابن عوص الى القلعة يوم السبت ، وبخه

خاير بك بالكلام ، وقامت عليه النائرة من أمراء ابن عثمان الدين بمصر ، وقالوا له : « هذا خلى أساده الغورى وهرب من عنده وجاء الى الخنكار وصار من جماعته ، وأنت نبهله وتشتبه ؟ » ، فقامت البيه على ابن عوض بأنه شتم ختفدم وسبه ، فغضب خاير بك على ابن عوض ، وأمر بوضعه فى الحديد ، وأسلمه للوالى ، ورسم له بأن يوسطه ، فقصده الوالى آن بنزل به من القلعة ليوسطه . فقامت جماعة من المباشرين ونداخلوا على ختفدم ، وأصلحوا بينه وبين فخر الدين بن عوض ، فدخل الى ملك الأمراء خاير بك ، وشمع فيه من التوسيط وقاسى ابن عوض فى ذلك اليوم غاية البهدة من أمراء ابن عثمان بسبب ختفدم .

وكان ابن عوض مستحفاً لذلك ، فانه صار فى هذه الأيام من وسائل سوء ، ولا سيما ما فعله فى جهات الغربية . ووضع يده على رزق الناس وأوقفهم ، واستخراج حراجهم ، وضاعت على الناس حقوقهم ، وحصل منه الضرر البالغ ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفى ذلك اليوم حضر هجان بكتب الحاج ، وقد حضر فى السابع والعشرين من دى الحجة ، وأشيع عن كتب الحجاج أن مكة بها غلاء ، وفد وصل الحمل الدقيق الى أربعين ديناراً ، ووصل الأردب القمح الى عشر أشرفيات ، ووصلت البطة الدقيق الى ثلاث أشرفيات . وكذلك اشتد السعر فى سائر البضائع والأصناف والغلل . وذكروا أنه مات من الجمال ما لا يحصى ، حتى وصل كراء الموهية الى أربعين ديناراً . وذكروا من هذا النمط أشياء كثيرة ، وأن أمير مكة السيد الشريف نادى فى مكة أن لا أحد من الناس يجاور بمكة تلك السنة بسبب الغلاء .

وأشيع عن كتب الحجاج أن الشهابى أحمد بن الجيعان قد جاور بسكة ، وكذلك مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، وغير ذلك من الأعيان ، والذين كانوا بها نزلوا صحبة الحجاج لما اشتد أمر الغلاء بسكة .

انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة على خير ، وكانت سنة صعبة شديدة على الناس ، كثيرة الحوادث والفتن ، جرت فيها أمور شنيعة لم تجر فى سالف الأزمان ، وقتل فيها جماعة من الأمراء والعسكر والمماليك السلطانية فى فتنة ابن عثمان ، وقتل فيها من أهل مصر من ليس له ذنب وراح ظلماً . فقتل من الناس ما لا يحصى عددهم ، ولعب السيف فى أهل مصر سبعة أيام ، وقتل فيها ثلاثة سلاطين وهم : الأتurf الغورى ، والأشرف طومان باى ، والظاهر قانصوه — قتل فى البرج بعر الاسكندرية — وتغير فيها ثلاث دول ، وخرب فيها دور كثيرة ، ونهب فيها أموال وقماش لا يحصى . وتيتم فيها أطفال ، وترملت فيها نساء ، وجرت فيها مفاصد كثيرة لم يسمع بمثلا . ولم تقاس أهل مصر شدة أعظم من هذه الا فى زمن بختنصر البابلى ، فانه خرب مصر وأحرقها حتى أقامت أربعين سنة خراباً . فكان النيل يطلع ويهبط ، ويفرش على الأرض فلا يجد من يزرع شيئاً من أراضيها . وهذا كله بتقدير الله تعالى فنسأل الله تعالى حسن الحاتمة ، ورد العاقبة الى خير .

وقد وقفت على كتاب تأليف الشيخ جلال الدين السيوطى رحمة الله عليه ، ذكر فيه « أن فى هذا القرن يبدو الحراب فى مصر فى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم يتزايد الأمر الى سنة خمسين وتسعمائة ، فيقع فيها فناء عظيم ، حتى

يفنى من أهل مصر نحو النصف . وقد ظهرت علامة ذلك في هذه السنة . ومن أعظم مساوىء ابن عثمان اخراج أعيان الرؤساء بالدار المصرية ، وتفيهم الى اسطنبول ، ونحن نذكر منهم ما تيسر فنقول :

ذكر من توجه في هذه السنة الى القسطنطينية من أعيان رؤساء الديار المصرية

وهم : مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله ابن المستمسك بالله يعقوب ، وأولاد ابن عمه سيدى خليل ، وهما : أبو بكر وسيدى أحمد ، ثم المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

ومن أولاد الأمراء : الشرفى يونس بن الأتابكى سودون العجمى ، والجناب الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك صهر الأشرف قايتباى . ومن الأمراء ببيردى ابن كسباى الذى كان باش المجاورين بمكة أحد الأمراء العشرافات ، وقراكز الجمكى أحد الأمراء العشرافات ، وقانصوه القيم باش المدنة الشريفة ، وجماعة من الممالك السلطانية الذين كانوا مجاورين بمكة المشرفة ، وجان بك دوادار الأمير طراباى .

ومن أولاد الناس : الشهابى أحمد بن البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين ، ويوسف بن أبى الفرج الذى كان تقيب الجيش ، ويحيى بكار الذى كان دوادار الوالى

ومن نواب السادة الشافعية : الشيخ زين العابدين بن قاضى القضاة كمال الدين الطويل ، والشيخ شرف الدين بن دوق ، والشيخ شمس الدين الحلبي والشيخ شمس الدين بن وحيش ، والشيخ كمال الدين بن مظفر . والشيخ بدر الدين البلقينى ، والشيخ برهان الدين الأبناسى ،

والشيخ شمس الدين الحجازى ، والشيخ شمس الدين بن الآدمى الدمياطى ، والقاصى شمس الدين المفسى العزيزى ، والسيد الشريف الحجار ، والقاصى ولى الدين البتنوى ابن الشرمساحى ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأتميدى .

ومن نواب السادة الحنفية الشيخ زين الدين الترنهاتى ، والسيد الشريف البرديسى ، والشيخ بدر الدين بن الوفاء السعودى ، والشيخ بدر الدين محمد بن الرومى .

ومن نواب السادة المالكية : الشيخ شهاب الدين أحمد بن الفيتى ، والشيخ شهاب الدين الأبناسى .

ومن نواب السادة الحنابلة : الشيخ شهاب الدين الهيتى ، والشيخ جلال الدين الطنبدى ، والقاصى جمال الدين الحنبلى .

وأما من توجه الى اسطنبول من المباشرين السلطانية فهم : المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش ابن ناظر الخاص يوسف ، وابن أخيه بدر الدين ابن كمال الدين ، والجناب الشمسى محمد بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان أحد كتاب الخزانة الشريفة ، والقاضى زين الدين عبد القادر الملكى مستوفى ديوان الجيوش المنصورية ، والشمسى محمد البارزى .

ومن كتاب الممالك وغيرهم : شمس الدين محمد بن فخر الدين ، وسعد الدين ورج وكريم الدين ، وفتح الدين من أولاد ابن فحيرة ، وابن أبى المنصور ، ومحمد بن عبد العظيم ، ومحيى الدين ابن بهاء الدين من أولاد ابن البقرى ، وأبو الحسن ابن الرقيق ، وعبد العظيم بن غالب ، ويحيى بن الطنساوى ، وشهاب الدين بن عبد العظيم ، وعبد العظيم بن تقى الدين ناظر الزردخانا ، وولده زين الدين ، وتاج الدين أخو عبد الكريم اللادى ،

وكمال الدين من أولاد ابن البفرى ، وشرف الدين
وعلى المرجوشى ، وأبو يوسف الاستادار ، وابن
الزكى ، ومحمد بن على كاتب الحزاة ، وأحمد
ابن قريميط ، وعبد القادر بن قريميط ، وأبو
السعادات ، وأفضل الدين المنوفى ، وناصر الدين
العزى الموضع ، وولى الدين ناظر المواريت ، وعامل
المواريت ، وسعد الدين أحو علاء الدين ناظر
الخاص ، وبركات المنوفى وسعد الدين المنوفى ،
ومحمد الكوير ناظر الخاص ، وأحمد بن حسنو
البطن ، وابن نصر الله ، وكريم الدين شهر عبد
الفتاح ، ومحمد بن أبى غالب ، وصفى الدين بن
الهيثم ، وتاج الدين بن البفرى ، وشقيقه بركات
بن سلمان ، وكمال الدين بن الناصرى ، وعبد
الرحمن مباشر أمير آخور كبير ، وبدر الدين بن
خازوفه ورقيقه ، وأبو الفضل مباشر الوالى
ورقيقه ، والعبادى ورقيقه ، وبدر الدين مباشر
الأمير أنص باى ، وكمال الدين العائق مباشر أمير
آخور كبير ، وآخرون من المباشرين هم تحضرى
أسماءهم الآن .

ومن أعيان الناس : المهتار محمد التجولى مهتار
السلطان العورى كان ، والمهتار سليمان ، ومحمد
ابن يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وعلم الدين
جلبى السلطان العورى ، وعلى مقدم الدولة .

ومن الزردكاشية : يحيى بن يوسف ، ومحمد
العادلى الشهير بابن البدويه ، وزين العابدين بن
محمود الأعور ، وجماعة من السيوفيه والصياقلة
والسباكين والحدادين .

ومن تجار الباسطية : شهاب الدين الخطيب
الأسمر ، وأحمد الديروطى ، وأولاد ابن نفيس ،
وعلى بن خشيم ومن تجار سوق مرجوش : ابن
الشقيرة ، وأبو الموز الحمصاى . وبدر الدين
شيخ سوق الغزل . ومن تجار المعارية : الشيخ

سالم التاجورى ، وسعيد اللبدى ، وأبو سعيد ،
وآخرون لم تحضرنى أسمائهم من المباشرين
والتجار بأسواق القاهرة وغيرها .

ومن الخدام : مقدم الماليك سنبلى العثمانى
ونائبه ، وعثمان الرومى ، وشهاب الدين أحمد
الجارجى . فیل مات من الرجفة قبل سفره بإيام .
ومن البزددارية كمال الدين بن بزددار أمير كبير ،
وعبد القادر بن المنقار ، وابن الشيخ محمد ابن
رسلان ، وناصر الدين واسمعیل ومحمد الكاتب ،
وأبو بكر وابن السمينى ، ويحيى بن يحيى ،
وبركات بن المبيض ، ومحمد بن الجيعان ، وبركات
النائب ، وسعد الدين بن البحلاق ، ويحيى مقدم
الخاص ، وحسن نائب البرماوى ، والسوهاجى ،
ومحمد قطارة ، ومحمد بن فرو شيخ جهات
الأميرية ، وآخرون ما تحضرنى أسمائهم الآن .
ومن رءوس النوب : فرج بن البردينى وآخرون .
ومن مقدمى السقائين : عبيد وأبو الخير وابن فريخ
النار .

وتوجه الى اسطنبول جماعة من البنائين
والنجارين والحدادين والمرخين والمبلطين والخراطين
والمهندسين والحجارين والفعلاء جماعة كثيرة لم
تحضرنى أسمائهم الآن . وقد زعموا أن الخنكار
ابن عثمان نقصد أن ينشئ له مدوسة فى اسطنبول
مثل مدرسة السلطان العورى التى بالشرابشين .

وتوجه الى اسطنبول جماعة من طائفة اليهود
والسامرية . ومن طائفة النصارى : بانوب الكاتب
بالخزائن الشريفة ، وأبو سعيد ، وأمين الدولة ،
ويوحنا الصغير ، ويوسف بن هبول ، وشيخ
الملكيين الأسكندرى وولده ، وآخرون من
النصارى واليهود لم تحضرنى أسمائهم . فيقال ان
جميع من خرج من أهل مصر وتوجه الى اسطنبول
دون الألف انسان ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وفيهم

نسوان أيضا وأولادهم صغار رضع ، ومنهم كبار .
ولم يفاس أهل مصر من قديم الزمان أعظم من
هذه الشدة ، ولا سمع بمثلها في التواريخ القديمة ،
وكان ذلك في الكتاب مسطورا ... ففارق الناس
أوطانهم وأولادهم وأهاليهم وتغربوا من بلادهم
إلى بلد لم يطئوها قط ، وخالطوا أقواما غير
جنسهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
وكانت سنة مشومة على الناس ، مباركة على
المباشرين الذين بمصر ، وصاروا هم الملوك
يتصرفون في المملكة بما يختارونه من الأمور ،
ولا سيما ما فعلوه في جهات الشرفية والغربية
وجهات الصعيد ، ووضعوا أيديهم على رزق الناس
والإقطاعات ، ثم استدرجوا إلى أن أخذوا أموال
الناس بغير حق شرعى ، ثم استدرجوا ثانيا إلى أن
أخذوا أموال الأوقاف . وصاروا ليس على يدهم
يد ، يفعلون ما شاءوا من هذا النمط ، فغنموا في
هذه السنة أموالا جزيلا من البلاد مما أخذه من
خراج الناس ... فكان مجيء ابن عثمان غنيمة
للمباشرين ، وبعض الأفراد الذين أودع عندهم
الأمراء الجراكسة والعسكر الأموال والقماش
وقتلوا في الواقعة ، فقعدوا على تلك الودائع ،
وراحت على من راحت ، فكان كما يقال في المعنى :
« مصائب قوم عند قوم فوائد » .

سنة أربع وعشرين وتسعمائة (١٥١٨ م) :

فيها كان افتتاح شهر المحرم يوم الأربعاء ، فطلع
القضاة إلى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء خاير بك
بالعام الجديد ، ثم رجعوا إلى دورهم
فلما كان يوم السبت رابع المحرم ، شكوا
الناس من أدى العثمانية الذين بمصر ، وتزايد
منهم الفساد في حق الناس ، وصاروا يتوجهون
إلى الأماكن التي في زقاق الكحل والمسطاحي والتي
في الجسر وحكر الشامي والأزبكية يأخذون

ما فيها من الأبواب والسقوف والشبابيك الحديد
والطيفان ، ويحملونها على الجمال بين الناس على
النداء والاجهار ، ويبيعونها بأبحس الأثمان ، ولم
يجدوا من يردهم عن ذلك .

ثم صاروا يطلعون بالنساء إلى القلعة ويتحشرون
بهن في أطباق الممالك الدين بالقلعة ، وصنعوا
بأطباق أطباق بوزة ، وصارت خانه يرسم حرافهم .
وصاروا يأخذون ما بالطباق من الأبواب والسقوف
ويطبخون بها الطعام ، حتى خربوا غالب السقوف
التي بالقلعة .

ثم تزايد منهم الفساد حتى صاروا يحطفون
النساء والصبيان المرد وعمائم الناس من الطرافات
والأزقة والأسواق في النهار والليل ، وصار الناس
على رءوسهم طيرة من العثمانية ، ويجدون القتل
مرمية في الطرافات .

فلما تزايد هذا الأمر دخل جماعة من الناس إلى
القاضي الذي جعله ابن عثمان في المدرسة الصالحية
أمينا على قضاة مصر ، فشكوا له من أفعال
العثمانية وما يفعلونه بالناس . فلما سمع هذا
الكلام ركب وبوجه إلى بيت الأمير قايتباي
الدوادار ، وأركبه وطلع به إلى القلعة ، وأخبروا
ملك الأمراء خاير بك بهذه الأحوال التي تصدر
من العثمانية .

ثم إن قاضي ابن عثمان أغلظ على خاير بك في
القول وقال له : « انظر في أحوال المسلمين والا
تحرّب مصر عن آخرها ، فقد فسدت الأحوال جدا ،
ومتى بلغ الحنكار هذه الأخبار يرسل يضرب
أعناقنا ، ويقول لنا كيف كتمتم عنى أخبار مصر ،
وغفلتم عن أحوال المسلمين ، حتى جرى فيها
ما جرى » .

فلما سمع ملك الأمراء خاير بك هذا الكلام
وعد القاضي والأمير قايتباي إلى يوم السبت حادى

عشر الشهر ، فأحضر الأنكشارية والأصباكية وعرضهم ، وفحص عن يفعل هذا منهم .

ثم أن خير بك نادى فى القاهرة بأن لا امرأة تخرج من بيتها ولا صبي أمرء ، ولا يتوجهون فى هذا الشهر الى السيدة نفيسة ، ولا الى مشهد الحسين ، ولا الى بين القصرين ، وان الدكاكين والأسواق تغلق بعد المغرب ، ولا يشئ أحد من الناس بعد المغرب .

وفى يوم الاحد ثانى عشر المحرم ، حضر من الشام من عند ابن عثمان قاصدان زعما أنهما من أعيان أمراءه ، وقيل ان أحدهما أغات طائفة الانكشارية ، والآخر أغات الأصباكية ، فلما بلغ ملك الأمراء حضورهما نزل من القلعة ولاقاهما ، وكان لهما موكب حافل ، فطلعا الى القلعة . واجتمعت الأمراء العثمانيه والأمير قايتباى الدوادار وقرءوا مطالعة الخنكار .

ثم أشيع أن ابن عثمان أرسل يطلب الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، والأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية ، والأمير تهرباى العادلى ، وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الأصباكية الذين كان قد تركهم بمصر ، فكش القيل والقال فى ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشره أرسل ملك الأمراء خير بك الى الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، والأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية ، والأمير تهرباى العادلى ، وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الاصباكية الذين كان قد تركهم بمصر ... فكش القال والقيل فى ذلك .

وأرسل ملك الأمراء خير بك الى الأمير أرزمك الناشف أربعائة دينار وقال له . هذه نفقة السفر :

فاعمل بها برقت واخرج سافر . فشكا أرزمك من ذلك وقال ايش يكفينى هذا القدر لعمل برق السفر . ثم ركب وتوجه الى بيت الأمير قايتباى الدوادار وشكا له من أمر هذه النفقة ، فقال له : اصبر حتى أطلع الى ملك الأمراء خير بك فى ذلك اليوم .

ثم فى يوم الأربعاء خامس عشره ، أشيع بين الناس أن جماعة من الانكشارية والاصباكية لما تحققوا أن الخنكار أرسل يطلبهم أظهروا العصيان ، وخرج بعضهم الى نحو الشرفية والغربية وتفرقوا فى البلاد .

ومن الحوادث الغريبة أنه فى يوم الجمعة سابع عشر المحرم من هذه السنة ، أشيع واستفاض بين الناس أنه قبض على قاسم بك بن أحمد بك بن أبى يزيد بن محمد بن عثمان ملك الروم . وقاسم بك هذا هو الذى كان قانصوه الغورى اجتهد كل الاجتهاد حتى أدخله الى مصر ، وصار ضدا لسليم شاه ابن عثمان . وكان سليم شاه يخشى من أمر قاسم بك هذا أن يلتف عليه عسكر الروم من عساكر جده ويولوه مملكة الروم . وسافر قاسم بك هذا صحبة الأشرف قانصوه الغورى الى حلب ، وصنع له برقا وسنيحا حافلا ، وجعل له صنجقا من حرير أخضر وأحمر كما هى عادة ملوك الروم ، وحضر الواقعة التى كانت فى مرج دابق . فلما فقد السلطان الغورى وجرى ما جرى ، رجع قاسم بك صحبة الأمراء الى مصر وصار معظما عند السلطان طومان باى ، وحضر معه فى الواقعة التى كانت بالمطرية ، فلما انكسر السلطان طومان باى هرب معه الى جهة الصعيد ، فلما وقع السلطان طومان باى هو وابن عثمان فى الجيزة بالقرب من وردان انكسر طومان باى وهرب . فلما قبضوا عليه وشنق اختفى قاسم بك ولم يعلم له

خير مدة طويلة ، وقد فاته القتل مرارا عديدة .
وكان السلطان حاسب حسابه جدا ليلا ونهارا ،
وكان عسكر ابن عثمان قصدهم المخامرة
عليه والتوجه الى قاسم بك . وقد أشيع بين الناس
انه لما هرب بعد كسرة طومان باي ، توجه مع
بعض العربان الى نحو الجبل الأخضر الذي بأعلى
البحيرة ، وكان قد نسي أمره .

فلما كان يوم الجمعة المقدم ذكره أشاعوا أنهم
قد قبضوا عليه في مكان عند العطوف بالقرب من
البرقية ، وقد غمز عليه بعض غلمانه في ذلك المكان ،
فتوجه اليه كمشبغا والى القاهرة وشخص آخر
يقال له جانم الحمزاوي شاد الشون من خدمة ملك
الأمراء خاير بك ، وهو دوا دار الآن ، فتوجه اليه
وقبضا عليه من ذلك المكان المذكور . فلما قبضوا
عليه عروه من أثوابه وقلعوه عمامته وألبسوه
برنسا أسود وغطوا وجهه . وسبب ذلك أنهم
خشوا أن العثمانية متى بلغهم أنهم قبضوا عليه
وهو طالع الى القلعة يخلصونه ويقتلون من معه ،
وتشور بين العثمانيين فتنة عظيمة ، وتكون سببا
لزوال ملك سليم شاه بن عثمان . فلما طلعوا به
الى القلعة بعد العصر قريب المغرب من يوم
الجمعة ، عرضوه على ملك الأمراء خاير بك ،
فرسم بإدخاله الى سجن العرقانة الذي هو داخل
الحوش السلطاني ، فأدخلوه به وأغلقوا عليه باب
السجن .

ثم اجتمع ملك الأمراء خاير بك ، والأمير
قايتباي الدوا دار ، ومن الأمراء العثمانيين فائق بك
وسنان بك ومصطفى بك وخير الدين بك نائب
القلعة . فلما اجتمعوا ضربوا مشورة في أمر قاسم
بك ، فقال ملك الأمراء خاير بك : دعوه في السجن
وأرسلوا كاتبوا الخسكار في أمره وانتظروا الجواب
فيما يرسم به . فقال فائق بك : هذا ما هو رأي ،

متى بات في قيد الحياة تدخل علينا التراكمة وتقتلنا
عن آخرنا وتقع فتنة كبيرة . فلما دخل وقت العشاء
أحضروا المشاعلى ودخلوا عليه وهو في العرقانة
فخنقوه بها ، وكان آخر العهد به .

فلما أصبح يوم السبت ثامن عشره ، أخرجوا
قاسم بك من العرقانة وهو مبيت ، وورقده على
مسطبة بالحوش ، وكشفوا عن وجهه ، وأرسلوا
خلف العثمانيين قاطبة حتى رأوه ، فقالوا لهم : هذا
قاسم بك بن أحمد بك ابن أبي يزيد بن عثمان . ثم
صاروا يقلبونه باطنا وظاهرا ، ثم شهد منهم جماعة
كثيرة أن هذا هو قاسم بك ابن أحمد بك ابن
عثمان . ثم بعد ذلك أرسل ملك الأمراء خاير بك
خلف قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ،
وقاضي القضاة الحنفى الطرابلسي ، وقامت عندهما
البينة بصحة معرفة قاسم بك هذا ، فكتبوا بذلك
محضرا وثبت عند قاضي القضاة . ثم انهم شرعوا
في تجهيز قاسم فغسلوه وكفنوه ، وأخرجوه فدام
الدكة التي بالحوش السلطاني ، فصلوا عليه هناك ،
وكان الذي صلى عليه قاضي القضاة الشافعي .
وكانوا أطلقوا له نذراء في القاهرة بأن الصلاة على
الشاب الشهيد قاسم بك بن عثمان ، فانه ينزل من
القلعة . ثم ان ملك الأمراء خاير بك أشهر المناداة
في القاهرة بأن يصلى على قاسم بك بن عثمان
صلاة الغيبة في الجوامع ، كل هذا حتى يتحقق
الناس موته عن يقين .

فلما صلوا عليه بالحوش حمل الأمراء نعشه
على آكتافهم ، ثم نزلوا به من سلم المدرج ،
ووضعوا عمامته على نعشه ورفعوا عليه علما
أبيض ، ثم توجهوا به الى تربة البجاني فدفنوه
فيها على أقاربه . وكانت جنازته مشهودة ، وكثر
عليه الأسف والحزن من الناس ، فانه كان شابا
جميل الصورة ، حسن المنظر ، له من العمر سبع

عشرة سنة ، وقد قتل فلما بغير ذنب ، وقد تناحرت عليه العثمانيون بالبكاء

فلما دفنوه ولحدوه قطعوا رأسه بليل ووضعوا في علبه وتوجه بها جانم الحمزاوي هي والمحضر الى الخنكار بالشام ... هذا ما أسمع واستفاضل بين الناس ، والله أعلم بصحة ذلك .

وقد عد مسك قاسم بك وقتله أعظم من مسك الأشرف طومان باي وقتله ، فتعجب الناس من موه سعد سليم شاه بن عثمان من مبدئه الى منتهاه ، وهذا أمر من الله تعالى ليس في فدره بتر . وكانت الناس تظن أن قاسم بك هذا سيلى مملكة الروم بعد عمه سليم شاه ، فخابت فيه الظنون وعاجله ريب المنون ، وكان ذلك مما سبقت به الأقدار ، والحكم لله الواحد القهار

وفي يوم الأحد تاسع عشره أنفقوا الجامكية على الممالك الجراكسة في بيت الأمير فابتى الدوا دار ، فأنفقوا لكل مملوك ألفى درهم ، وهى جامكية شهر واحد ، فأنفقوا عليهم يوم الأحد ويوم الاثنين .

وفي ذلك اليوم نادى ملك الأمراء خاير بك في القاهرة بأن لا أحد من الناس يخبى في بيته عثمانيا ولا انكشاريا من عسكر ابن عثمان ، وكل من خبا عنده أحدا وغمز عليه شنىق على باب داره من غير معاودة . وسبب ذلك أن الخنكار بن عثمان لما أرسل يطلب جماعة من الانكشارية ومن الاصباية اختفى منهم جماعة وجماعة تفرقوا في الشرقية والغربية وتوجهوا اليها هارين في البلاد ، وأطهروا العصيان ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفي يوم الاثنين سابع عشره أشهره المنادة في القاهرة حسبما رسم ملك الأمراء بأن جميع الانكشارية والاصباية يخرجون يوم الاثنين

صحبة القصاد ، وكل من تأخر منهم شنىق من غير معاودة ، فشنىق بن القاهرة جساءة من الأمراء العثمانية وقدامهم مشاعلى ينادى بالتركي وآخر ينادى بالعربى وذلك بعد الظهر . فلما بلغ العثمانية ذلك اضطربت أحوالهم وخرج غالبهم الى فحوى الشرقية ، وقد التفت عليهم الممالك الجراكسة ، وصاروا يرمون بينهم وبين الأمراء العثمانية الذين بمصر الفتن حتى يقع بينهم الشر ويظهروا العصيان على ابن عثمان .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرى المحرم ، دخل الحاج الى القاهرة ودخل المحصل الشريف ، والقاضى علاء الدين ناظر الخاص أمير ركب المحصل ، وقاضى قضاة المالكية محبى الدين بن الدميرى ، وبقية الحجاج ، وأخبروا أنهم قاسوا في هذه الحجة مشقة زائدة وشدائد عظيمة من الغلاء وموت الجمال ، وفساد العربان في الطريق ، وكثرة الأمطار والسيول ، وقلة العليق . ومشى غالب الحجاج على أقدامهم في الرجعة ، وقد أثنوا على ناظر الخاص فيما فعله بالحجاج في الطريق من البر والصدقات وفعل الخير ، وكان اذا رأى أحدا من الحجاج منقطعا يركبه على جماله وينعم عليه بالماء والبقسماط في الطلعة والرجعة . فرجع الحجاج وهم عنه راضون فيما فعله بهم ، وقد رفق بهم في مشى الركب بسبب المنقطعين من الحجاج ، وقد أثنوا عليه خيرا .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشره ، دخل الى القاهرة الأمير قانصوه العادلى كاشف جهات الشرفيه ، وكان أشيع عنه العصيان من حين عين للسفر ، فأتى لتبطل عنه الاشاعات . فلما طلع يوم الخميس الى القلعة خلع عليه ملك الأمراء خاير بك ققطانا مخملا مذهبا ، ونزل يعمل برقه .

وقد مضى هذا الشهر وعسكر ابن عثمان في خلف بينهم بسبب السفر الى الشام ، واستمرت الانكشارية في أمر العصيان عن السفر ، وصاروا يكبسون عليهم بيوتهم وحاراتهم ، ويقبضون على نسائهم اللاتي تزوجن بهن من مصر ، وحصل لهن الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفي صفر الخير ، وكان مستهله يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، فهنأوا ملك الأمراء خاير بك بالشهر ورجعوا الى دورهم . وفي هذا اليوم خرج جماعة من الانكشارية والاصباهية من الطائعين منهم دون العاصين الذين هربوا كما تقدم ، فخرجوا صحبة القصاد الذين جاءوا لطلبهم من الشام حسبما رسم الخنكار سليم شاه بن عثمان . قيل انه أرسل بطلب ألف انسان من الاصباهية ، ومن الانكشارية أربعمائة انسان .

وفي يوم الاثنين رابع صفر ، خرج بقية العسكر العثماني الذي تعين للسفر ، وخرج الأمراء المعينون للسفر ، وهم : الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، والأمير قانصوه العادلي كاشف الشرقية ، والأمير تبراي العادلي ، والأمير خشقدم الأشرفي الذي كان شاد الشون أيام السلطان الغوري . ولم يشعر بخروجهم أحد من الناس ، ولم يطلبوا طلبا على جاري العادة ، فلما خرجوا توجهوا الى الريدانية ونزلوا بها الى أن يرحلوا منها .

وفي هذه الأيام تزايد القال والقليل بين الناس بوقوع فتنة كبيرة .

وفي يوم الثلاثاء خامس صفر خلع ملك الأمراء خاير بك على شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر وقرره في مشيخة جهات الشرقية عوضا عن ابنه عبد الدائم ، وقد أظهر عبد الدائم العصيان ونهب

منية عمر وأحرقها وغيرها من بلاد الشرقية ووقع الاضطراب بها ، وطفشت العربان في البلاد بالفساد والنهب ، وحصل منهم الضرر الشامل . وصار عبد الدائم رأس كل فتنة في كل دولة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفي يوم السبت تاسعه قويت الاشاعات بعصيان عبد الدائم ، وأنه قد التف عليه عربان كثيرة من الشرقية والغربية ، وطردهوا آباءه من الشرقية . واضطربت أحوال الشرقية الى الغاية

وأشيع في البلاد أن مصر ما بقي فيها أحد من عساكر ابن عثمان . فلما بلغ ملك الأمراء خاير بك ذلك رسم لخبر الدين بك نائب القلعة وجماعة من الأمراء العثمانية بأن يسفوا من القاهرة ومعهم الانكشارية الذين تأخروا بمصر . فنزل من القلعة وقدامه من الانكشارية نحو ثلثمائة انسان وهم مشاة وبأيديهم مكاحل ، وشق من الصليبة وتوجه من بين الصوريين وطلع من جهة سوق مرجوش ، وشق من القاهرة فرجت له في ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك أخذ في أسباب تحصين القلعة ، وسد منها عدة أبواب ، وأبقى منها الأبواب الكبار على حاكمها ، وقصد أن يسد بعض أبواب من القاهرة ، وأظهر الخوف والفرع ، ودخلت رأسه الجراب من عبد الدايم بن بقر وكثرة العربان التي اجتمعت معه . وكثر القيل والقال في ذلك والروايات مختلفة .

وفيه أشيع أن الرئيس سلمان العثماني الذي كان في البرج بالقلعة وضعه خاير بك في الحديد وأرسله الى ابن عثمان بالشام ، وكثرت الحوادث في هذه الايام جدا .

وفي يوم الاثنين حادي عشره أشيع أن ملك

الأمراء خاير بك عين الأمير قايتباي الدوادار بأن يخرج الى عبد الدائم بن بفر وصحبته جماعه من المماليك الجراكسة ومن العثمانية . وعرض في ذلك اليوم طائفة من العثمانية يقال بهم كلمبا ، فعرضهم في بيت سنان باشا العثماني ، وعين منهم جماعة يخرجون الى التجريدة صحبة الأمير قايتباي الدوادار بسبب عبد الدائم كما تقدم .

وفي أثناء هذا الشهر أشيع أن الخنكار سليم شاه ابن عثمان خرج من دمشق وفصد الوجه الى حلب ، وما يعلم سبب ذلك . وكثر الافاويل في خروجه من الشام الى حلب .

وفي يوم الأربعاء عتري صمر عرس الأمير قايتباي الدوادار المماليك الجراكسة في بيته الذي بين القصرين ، وعين جماعه منهم يخرجون الى الشرفية بسبب عصيان شيخ العرب عبد الدائم بن بقر ، وقد قويت الاشاعات بعصيانه ، وقد التفت عليه جماعة كثيره من العربان ، وفسدت أحوال الشرقية قاطبة من قطع الطريق على القصاد ، ونهب البلاد ، ووقع الاضطراب جدا هناك حتى كادت أن تحرب بلاد الشرقية ، ولما عرس الأمير قايتباي الجراكسة وجد غالبهم مساة على أقدامهم بغير خيول ولا سلاح ، فبطل أمر العرض والتجريدة .

وفي يوم السبت ثالث عشره خرج شيخ العرب بيبرس بن بفر أخو عبد الدائم وصحبته الشيخ أبو الحسن بن الشيخ أبي العباس الغسرى يسعون بين عبد الدائم وبين أبيه الأمير أحمد وبين اخوته بالصلح . وأشيع أن ملك الأمراء خاير بك أرسل صحبتهما خلعة الى عبد الدائم لعله يقع الصلح على أيديهما ، وكذا جرى .

وفي يوم السبت مستهل شهر ربيع الأول حضر جانم الحمزاوي دوادار ملك الأمراء خاير

بك ، وقد تقدم القول على أنه كان توجه الى الشام عند السلطان سليم شاه ابن عثمان بإشارة قتل قاسم بك بن عثمان ، فلما أخبر سليم شاه بذلك سر الى الغاية . وأشيع أنه أنعم على جانم الحمزاوي بنيابة ثغر الاسكندرية ، ثم رسم له بالعود الى القاهرة ، وأرسل على يده خلعة الى ملك الأمراء خاير بك في استمراره بنيابة السلطنة بمصر على عادته ، وأرسل خلعة الى الأمير قايتباي الدوادار ، وقيل الى كمشينا والى القاهرة لكونه قبض على قاسم بك ابن عثمان . فلما وصل القاصد صحبه جانم الحمزاوي الى الريدانية بات في تربة العادلي . وفي هذا اليوم نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة وصحبته الأمير قايتباي الدوادار والأمراء العثمانية الذين بمصر ، وطائفة من الانكشارية والاصبائية وغير ذلك من الطوائف الذين تركهم ابن عثمان بمصر ، وصحبتهم جماعة كثيرة من الأمراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر كما تقدم . وخرج الجهم الكثير من العساكر العثمانية وفبهم من يرمى بالنفوط . فتوجه الى تربة العادلي وجلس على المسطبة التي هناك . ثم ان ملك الأمراء خاير بك لبس القفطان المخمل المذهب الذي أرسله له السلطان سليم شاه ابن عثمان ، فأشيع ذلك اليوم أن ابن عثمان جعله مستمرا على نيابته بمصر على عادته ، وأن يجعل السكة والخطبة باسمه ، فلم تصح هذه الاشاعات فيما بعد .

ثم ان ملك الأمراء ركب من هناك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة في موكب حافل وقدامه قضاة القضاة . وموجب ذلك أن هذا اليوم كان مستهل الشهر ، فتوجهت اليه القضاة هناك ليهنوه بالشهر . فلما رجع الى القاهرة رجعوا صحبته وركبوا قدامه الى أن طلع الى القلعة ،

ورك قدامه أبتاً أعيان المباشرين ، ولاقتبه
النصارى بالشموع في أديبهم من باب النصر .
فلما وصل الى بين القصرين ومر على بيت الأمير
قايتباي الدوادار نثرت على رأسه كبشة جيدة من
الفضة ، فتخاطفتها الناس .

فلما شق من القاهرة زينت له زينة خفيفة في
بعض أماكن ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من
بعض الناس ، وأشبهوا النداء قدامه بالأمان
والألمئنان ، والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش
على أحد من الرعية ، وأن كل من ظلم أو قهر عليه
ببواب ملك الأمراء خاير بك ، والدعاء بالنصر
لمولانا السلطان سليم شاه ابن عثمان . فضج الناس
له بالدعاء قاطبة . واستمرت الانكشارية رمون
قدامه بالنفوط وهم مشاة حتى طلع الى القلعة
وكانوا نحو أربعمئة انسان .

وكان أشيع أن ملك الأمراء خاير بك يستقل
بملكة مصر ، ويجعل السكة والخطبة باسمه
حسبما رسم الخنكار ابن عثمان ، فلم تصح هذه
الاشاعة ، وخمدت كأنها لم تكن ، واستمر نائبا
على حكمه وكانت هذه الاشاعة من الكلام
المختلق من جملة كذب الناس ، وصار غالب أهل
مصر في هذه الأيام بختلقون الكلام الكذب ،
ويشيعونه بين الناس بما يختارونه ، ثم يبطلونه
وينقضونه وبأتون بكلام غيره . والكل ليس له
صحة وهو من جملة المختلق . وقال القائل في
المعنى :

أبناء مصر مقالهم عجب

تواتر الصدق منه مرفوض

مقالهم لا يزال مختلفا

وكله ناقض ومنقوض

ولما حضر جانم الحمزاوى أشيع بين الناس أن
السلطان سليم شاه لما أقام بالشام رسم لقاضى

القضاة الشافعى محب الدين ابن قاضى القضاة
شهاب الدين بن فرفور بأن يتقلد بمذهب
الامام أبى حنيفة وبترك مذهب الامام الشافعى
رضى الله عنه . وأشيع أنه لا يحكم بالشام غير
قاضى قضاة الحنفية لا غير ، كما هى عادة بلاد
الروم . وأبطل من الشام المذاهب الثلاثة فتساءل
الناس له بسرعة الزوال عن قريب بسبب ذلك ،
وأشيع أنه أبطل الوكلاء والرسل من أبواب القضاة
ونوابهم . فلما بلغ ملك الأمراء خاير بك ذلك رسم
لقضاة القضاة بمصر أن يحتفوا من نوابهم ، فرسم
لقاضى القضاة الشافعى بخمسة من النواب ،
وقاضى القضاة الحنفى بأربعة من النواب ، وقاضى
القضاة المالكى بثلاثة من النواب ، وقاضى القضاة
الحنبلية باثنين من النواب ، من غير زيادة على
ذلك . ثم ان ملك الأمراء خاير بك رسم لنواب
القضاة أن سطلوا الوكلاء والرسل من المدرسة
الصالحية ، وأن نواب القضاة لا يحكمون الا فى
بيوتهم من غير رسل ولا وكلاء ، فلم يتم هذا الأمر
ولم يسمع له شىء .

ومما وقع فى هذه الأيام من الحوادث الشيعة ،
أن شخصا من أمراء ابن عثمان صار يجلس على
دكة بباب الصالحية يسمونه المحضر ، وحوله
جماعة من الانكشارية ، فكان لا يقضى أمر من
الأحكام الشرعية حتى يعرض عليه فكان يققه
بين يديه الشاكى والمشتكى ويحاطبونه بترجمان
بينهما عن أمر الشكاسة ، فكان يقرر على كل
محكمة فى كل أشرفى ستة دراهم نقرة ، يأخذها
لنفسه من الشاكى والمشتكى ، يسمون ذلك
مصلحات . وكان اذا أمر بشىء لا تعارضه القضاة .
وكان يزعم أنه مستوفى على القضاة فى الأمور
الشرعية . وكان يضرب من يستحق الضرب ،
وبسجن من يستحق السجن ، ولا يراجع القضاة

فى ذلك ، فكان يتصل له فى كل يوم من ذلك القدر
المعلوم مال له صورة ، يأخذه من الشاكى
والمشتكى .

تم انهم أحدثوا مظلمة أخرى ، وهى أنهم
فرروا انصافا على كل دكان من الشهود ومجالس
القضاة الذين بمصر والقاهرة قاطبة كل شهر ستة ،
ويزعمون أنهم يوردون ذلك القدر لبيت مال
المسلمين ، وبجهزونه الى السلطان ابن عثمان .
وقد ضعفت شوكة الشرع فى هذه الأيام جدا ،
وقد قال القائل فى المعنى :

يارب زاد الظلم واستحوذوا
والفعل منهم ليس يخفى عليك
ومالنا الاك فانظر لنا
ونجنا منهم وخذهم اليك

ولما حضر الأمير جانم الحزاوى دوا دار ملك
الأمرء خاير بك أخبر بأن السلطان سليم شاه لما
دخل الى الشام استقر بالأمرء جانم بردى الغزالى
نائب الشام . وجعل له التحدث من غزة الى الشام
وأعمالها ، يولى من يختار ويعزل من يختار .
وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخلوا الى الشام
طردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا فيها كما
فعلوا بمصر ، وخرّبوا غيطانها وزروعها ، وقطعوا
أشجارها ، وأكلوا جميع فواكهها .

وفى يوم الاثنين ثالث ربيع الأول أشيع بين
الناس بالمراسيم التى حضرت من عند الخنكار سليم
شاه على يد الأمير جانم الحزاوى ، فكان
مضمونها أنه أرسل يقول لملك الأمرء خاير بك
« اصرف لأولاد الناس جوامكهم على العادة ،
وكذلك الممالك الجراكسة ، وكل من له جامكية
يصرفها له ، ويجرى الناس على عوائدهم من كبير
وصغير » . فشكر له الناس ذلك ودعوا له .

فلما بلغ أولاد الناس ذلك طلعوا الى القلعة
ونزلوا أسماهم عند القاضى شرف الدين الصغير
كاتب الممالك ، حتى كل من كان له جامكية أشرف
أو مائتا درهم . وأرسل يقول له احتفظ بالرعية .
وفى يوم الاثنين عاشره طلع الممالك الجراكسة
الى الميدان الذى تحت القلعة ، وحضر كاتب
الممالك شرف الدين الصغير ، وأنفق على الممالك
جامكية شهر واحد ، وبقي لهم شهران مكسوران .
ولم يحضر ملك الأمرء تفرقة الجامكية بالميدان ،
بل حضر شرف الدين الصغير وجماعة من كتاب
الممالك . وشرع شرف الدين كاتب الممالك يقول
للممالك : يا أغوات كل من أخذ الجامكية يعمل
برقه للسفر . ويقول له : اذا طلبت منك هؤلاء
الممالك للسفر فأحضر بهم . فنزلوا من القلعة على
ذلك .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول كانت
ليلة المولد النبوى ، فصنع له ملك الأمرء مولدا
لهم يشعرون به أحد من الناس . فقبل أحضر عنده
عشر جوخ للمقربين فضجوا من ذلك ، وقالوا
نحن كان يدخل علينا فى مولد السلطان لكل واحد
منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمرء
جوخة بأشرفيين ؟ فرسم لكل منهم بجوخة بأربع
أشرفيات لا غير .

ثم بعد العصر مد سباطا فى المقعد الثانى الذى
بالحوش ليس بكبير أمر ، تخاطفته العثمانية فى لمح
البصر وبات غالب الفقهاء بلا عشاء ، وأين الحسام
من المنجل بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين
الماضية من الأسطة الحافلة ، والشقق الحرير
التى كانت تدخل على المقربين والوعاظ ، ولا سيما
ما كان يعمل فى مولد السلطان قانصوه الغورى .
فكان يصرف على مولده فوق الأربعة آلاف من

الدنانير ، ويحضر عنده في تلك الخيمة المعظمة التي
لم يسمح الزمان بشلها أبدا القضاة الأربعة ، ومن
الأمراء المقدمين أربعة وعشرون أميرا مقدم ألف ،
غير بقية الأمراء والعسكر وهم بالشاش والقماش ،
فأين هذا النظام من ذلك النظام العظيم . فما أسفى
على تلك الأبنام ، كأنها منامات أحلام ! وقد قال
القائل في المعنى :

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا
بيع الهوان ربحت أم لم تربح

قدم وآخر من أردت من الورى
مات الذى قد كنت منهم تستحى

وفي يوم السبت خامس عشر ربيع الأول، خلع
ملك الأمراء خاير بك على الزينى بركات بن
موسى المحتسب واستقر به أمير ركب المحمل
الشرىف ، وكانت هذه الوظيفة لا يستقر بها إلا
أمير مقدم . ولعمري أن هذه الوظيفة فد هانت
حتى سامها كل مفلس ، فخلع عليه ققطانا مخملا
مذهبا ، ونزل من القلعة في موكب حافل وقدامه
أعيان المباشرين والأمراء العثمانية ، وجماعة من
الأمراء الجراكسة ، والمماليك الجراكسة ، فرجت
له القاهرة في ذلك اليوم ، وزينت له الدكاكين
بالشموع ، وعلقت له الأحمال بالقناديل ، ولاقته
مشايخ العربان من بنى هلال ، وكاشف الشرقية ،
ومشى قدامه جماعة من الانكشارية نحو مائتى
انسان يرمون بالنفوط ، ومشى قدامه جماعة من
القواسة نحو ثلثمائة انسان ، ومشى قدامه السقاءون
يرشون الماء بطول الطريق ، ومشى قدامه الضوية
بالمشاعل وعليها النفوط الزركشى ، ومشى قدامه
جميع الرسل قاطبة وبأيديهم العصي ، ولاقاه
الشعراء والشبابية السلطانية مثل مواكب
السلطين ، ولاقاه المعالى من النساء بالطارات ،

وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وساق
قدامه البرجاس عربان بنى حرام ، وكان ذلك اليوم
من الأبنام المشهودة قل أن يقع لأحد من الأمراء مثل
ذلك ، فلهج الناس بهذا الموكب ، وقالوا لعل هذا
نهاية سعد الزينى بركات بن موسى . ولم يقع مثل
هذا الموكب للملك المظفر سليم شاه ابن عثمان لما
دخل الى القاهرة حين ملكها . فلما نزل الزينى
بركات بن موسى الى داره ، أنعم على الانكشارية
بثلثمائة دينار ، فحصل لكل واحد منهم أشرفى ،
وأنعم على القواسة والسفائين أيضا بمبلغ جيد .
وقد قلت في هذا الموكب أبياتا :

ان ابن موسى لم تنزل حر كاته
تأبى بسعد خارق بين الورى

عابته في موكب حفل فلا
سمعت به أذن ولا عين ترى

في يوم سبت شرفوه بجعله
فاق الملوك وصار يزهو منظرا

لما استقر أمير محمل سرنا
واستبشرت لقدمه أم المرى

وتفائل الحجاج أن بكعبة
يلقوا الرخا والأمن من بشرنا

يا ربنا فأطل بقساه بنعمة
تحسد بها الركبان عاقبة السرى

وفي يوم الأحد ثالث عشره أنفق ملك الأمراء
على جماعة من الأمراء الجراكسة : فأعطى لكل
أمير طبلخانات أربعين دينارا ، وأعطى لكل أمير
عشرة عشر أشرفيات ، وقيل خمسة وعشرين أشرفيا
في نظير أقاطيعهم ولحومهم وعليقهم ، وأعطى
المماليك الجراكسة لكل واحد منهم ألفى درهم من
غير زيادة على ذلك .

وفي يوم الاثنين رابع عشرى ربيع الأول ، وافق

ذلك اليوم دخول أول يوم من الخمسين وهو يوم
حمد النصارى وفطرهم . ومن جده اتمام الله تعالى
أنه لم يقع في هذه الخمسين ، اعون بهنر ولا
غيرها من البلاد .

وفي ذلك اليوم كانت وفاة صاحبنا الناصري
محمد بن منكل بنغا ، وكان موته فجأة . وكان
لطيف الداب ، فيه المحاضرة حسن العبارة في
كلامه ، رقيق الطباع ، عتير الناس ... وكان
لا بأس به .

وفي هذا الشهر حضر الناصري محمد المروف
بابن الورد لاعب التطرنج ، وكان بالشام من حين
أرسل خلفه السلطان سليم شاه ، وكان السلطان
أرسل له مبلغا له صورته يتسهر به . فلما توجه الى
الشام وجد الحنكار غير منسرح بسبب الصفوى ،
فأقام مده بالشام ثم استأذن السلطان في عوده الى
مصر ، فأذن له بالعود الى مصر ، فأخبر الناصري
محمد بن الورد أن فساد الصفوى قدموا على ابن
عثمان وهو بالشام من مكان غير الطريق السالك ،
فما شعر بهم ابن عثمان الا وهم بين يديه ، فدفعوا
اليه مطالعة من عند الصفوى ، وتقدمة حافلة . فلما
قرأ تلك المطالعة وجد فيها عبارة لطيفة ، وألفاظا
رقيقة تتضمن أمر الصلح بينه وبين الصفوى ،
ونعته بنعوت عظيمة في المطالعة . فلما قرأ المطالعة
اضطرب لذلك ، وقال هذا كله مخادعة من الصفوى
حتى يبطل عزمى عن ملاقاته ، ثم بطرني على حين
غفلة ، كما فعلت أنا مع السلطان العورى . فرحل
من الشام على الفور . وبعثه السوجه الى حلب .
وقال لوزرائه : أنا أعلم من حيل اسمعيل الصفوى
ومخادعته ما لا تعلمونه . فدان لما قال في المعنى :

توقع كيد من خاصست يوما

ولا تركن الى ود الإعداى

فإن الجرح ينكث كل حين

إذا كان البناء على فساد

ثم أشيع أن ابن عثمان لما دخل الى حلب أخذ
في أسباب تحصين المدينة ، ثم قبض على جماعة من
أهل بالقوسه ممن كان مشهورا بالفساد ، فشنق
منهم جماعة . ثم أشيع أنه صادر جماعة من أهل
حلب ، وأفرد عليهم الأموال الجزيلة ، وحصل لأهل
حلب منه ومن عساكره غاية الضرر ، والأمر لله .

واستهل شهر ربيع الآخر ، وكان أوله يوم
الأحد . ففي يوم الخميس خامسه قدم الى الأبواب
السريفة مصلح الدين بك خازندار ابن عثمان ،
وكان توجه الى مكة من البحر المالح صحبة
الشهابى أحمد بن البجيعان ، فلما نزل ببركة الحاج
خرج الأمير فايتباى الدوادار الى ملاقاته ، وكذلك
أعيان المباشرين ، فلما طلع الى القلعة وقابل ملك
الأمراء خلع عليه ونزل الى منزله في موكب
حافل ، وفداهه الأمراء العثمانية والجراكسة والجم
الكثير من العساكر .

وفي يوم الثلاثاء عاشره وقعت حادثة غريبة ،
وهى أن ملك الأمراء خير بك أشهر النداء في
القاهرة بأن كل من رأى كلبا يقتله ويعلقه على
دكانه . فبادر الناس بالقبض على الكلاب ،
وصارت التراسه يسدون الدلاب من الطرقات
ويوسطونها بالسيوف نصفين ، فقتلوا في ذلك
اليوم ما لا يحصى من الكلاب ، حتى فيل انهم
قتلوا في ذلك اليوم فوق الخمسمائة كلب على
ما أشيع . وصار العياق بمسكون الكلاب من
الحرار والأزقة ويقتلوها شر قتلة ، وصاروا
يعلقونها على الدكاكين ، ولم يعلم ما سبب ذلك .
ثم أشيع بأن عادة التراكمة في بلادهم باسطنبول
إذا كثرت عندهم الكلاب في المدينة يقتلون منها
جانبا كبيرا في أيام الحماسين ، يزعمون أن بذلك
يخف الطاعون من المدينة ، فصارت عندهم عادة ،
ثم استمر السيف يعمل في الكلاب يوما وليلة حتى

هجت الكلاب مما دهاها الى الترب والصحراء .
وقد قلت فى المعنى :

تأملوا ما جرى بمصر
من حادى عم بالعذاب
فما رعى الترك فى دماء
فكيف يرفعوا دم الكلاب !

فلما تزايد الأمر فى قتل الكلاب ، طلع الزينى
بركات بن موسى المحتسب الى ملك الأمراء خاير
بك وشفع فى الكلاب من القتل ، وقال لملك الأمراء
لا تتعرض لقتل الكلاب لأن أربك أمير كبير تعرض
لقتل الكلاب التى كانت بالأزبكية ، فلم يعش بعد
ذلك غير سنة واحدة ومات ، فرجع ملك الأمراء
عن قتل الكلاب ، ونادى فى القاهرة بأن يرفعوا
القتل عن الكلاب ، وكل من قبض على كلب يطلقه
الى حال سبيله . فدعا الناس للزنى بركات بن
موسى الذى شفع فى الكلاب من القتل ، ثم سكن
الاضطراب الذى كان بالقاهرة بسبب قتل
الكلاب .

وفى هذه الأيام أشيع أن ملك الأمراء أخذ فى
أسباب تحصين القلعة وسد منها أبوابا ، وحصن
الأبراج التى بها وركب عليها المكاحل ، وشرع فى
عمل عجالات وعمل مكاحل ومدافع ، وعمل شتاب
ولم يعلم ما سبب ذلك .

ثم أشيع أن ملك الأمراء أحضر مصحفا شريفا
وأحضر الأمراء العثمانية الذين بمصر وحلفهم
بأنهم لا يخونونه ، ولا يغدروا ، وأن يكونوا
هم وإياه على كلمة واحدة . ثم انه حلف الأمير
قايتباى الدواidar بسعى ذلك ، فأقام الأمراء فى
القلعة على ذلك الى بعد الظهر وهم فى ضرب
مشورة بينهم .

ومن الوقائع الغريبة أنه فى يوم الثلاثاء سادس
عشره وقعت نادرة ، وهى أن شخصا ظهر بالحارية

وزعم أنه السلطان قانصوه الغورى ، وصار يفسد
عقول الفلاحين ، ويقول لهم أنا السلطان الغورى ،
وصار يكتب كتباً ويرسلها الى مشايخ العربان ،
وهى مخلقة بالزعران ، فسدى غالب الناس بأن
السلطان الغورى قد ظهر وهو فى قيد الحياة ،
فامتلات القاهرة بهذه الإشاعة . فلما قويت أخبار
هذا الرجل ارسل ملك الأمراء بالقبض عليه من
الحارية فقبضوا عليه ، واحضروه بين يدى ملك
الأمراء . فلما مل بين يديه عرفه ، وكان نصب عليه
قب ذلك وهو نائب وادعى انه قانصوه حسمانة
الذى تسلطن ، وأفسد عقول الناس أيضا بحلب .
فصر به ملك الأمراء فى حلب ، بالمقارع وفتح انه
ثم أتى الى مصر وأشاع أنه الأمير محمد بك قريب
السلطان العورى الذى قتل فى عزاة الفريج . وقد
نصب بسبب ذلك واحد من الدناف ومسايح
العربان جلسة تقادم . وقد قرب الى عقولهم أنه
الأمير محمد بك قريب السلطان ، بسبب عليه
السلطان العورى وصر به وسجنه بالمشرفة ، فأقام
بها مدة . وفيل كان أصله من القواسمة ببعض
جهاى دمشق . فلما سافر السلطان العورى الى
حلب واستقر الأمير طومان باى الدواidar نائب
العيه أطلقه من المشرفة مع جلسة من أطلقه ، فلما
ادعى أنه السلطان العورى وقبض عليه ملك الأمراء
خاير بك وقال له : « أنا ما قطعت أنفك فى حلب
وقلت لى انى نبت عن الكذب على الملوك » . ثم
انه رسم بتكليه على باب الشعرية ، فنزلوا به من
القلعة وربطوا رجله فى ذنب أكديش ، وصار
يسحب على وجهه الى باب الشعرية ، والمشاعليه
تنادى عليه : هذا جزاء من يكذب على الملوك .
فرجت له القاهرة فى ذلك اليوم . وكان يوما
مشهودا فى الفرجة عليه ، والناس تقول قد مسكوا
السلطان الغورى . فلما وصل الى باب الشعرية
كلبوه على الباب بين البرجين ، فاسس مكلبا ثلاثة

أيام لم يست . فلما بلغ ملك الأمراء أنه لم يست
الى الآن ، رسم بأن ينزلوه ويوسطوه ، فأنزلوه
ووسطوه عند باب الشعريه في مفرق الطرق ، بعد
أن فاسى أنواع العذاب ، ودفنوه ومضى أمره
وكفى الناس شره .

وفيه كاتب كائنه الشيخ أبرك الرومى ، وفد
تغير خاطر ملك الأمراء عليه فوضعه في الحديد ،
وهيل صربه بالمقارع ، وأتبع أنه فصد شنته فشفع
فيه بعض القصر . ولم يعلم ما دمه حتى تغير خاطر
خاير بك عليه . وقد اختلف الأقوال في أمره ،
ولان عنده حضر راند في الإلأير ، واحسر الامر
وقع في هذه الكائنه المهوله

وفي يوم الأربعاء سابع عشره نزل ملك الأمراء
من القلعه ، وغدى الى الروسه وأقام بالمقياس ،
ولان صحبته الأمير قايباى الدوادار وجماعه من
العثمانيه ، وأضافهم صيافه حافله . ومد لهم اسنطة
وطوارى . وسبب ذلك أن ملك الأمراء حاير بك
كان يسه وبين الأمير قايباى وحسه ، وقد صار
بعض الوسائط يرمى بينهما الفتن . ثم ان ملك
الأمراء حاير بك حلف الأمير قايباى الدوادار على
مصحف شريف بان يكون هو وإبناه على كلسة
واحدة ، ولا يحون بعضهم بعضا . وقد تقدم
القول على ذلك ، فلما بحالها ران ما كان يسه من
الوحشه .

وكان نفل الى ملك الأمراء أن الأمير قايباى
الدوادار منفق مع المسالك الجراكسه على زواله
وكانت هذه فتنه من الأعداء . ثم أشيع بين الناس
أن الشيخ أبرك كان يسعى بينهم بالفرن وينقل
الكلام الباطل ، فصنع ملك الأمراء تلك الوليسه
في المقياس . وعزم على الأمير قايتباى وجماعه من
الأمراء العثمانية ، وأقام ملك الأمراء بالمقياس الى
آخر النهار ، فأرسل اليه الزينى بركات بن موسى
هناك مدة حافلة على رؤوس الحمالين ، وصار كل

واحد من المباشرين يهذى اليه شيئا من المأكول
الفاحر ، وكان يوما سلطانيا ، ثم عاد ملك الأمراء
الى القلعه بعد العصر من يومه .

وفيه حضر شخص من حلب بهلوان ونصب في
بركة الفرع التى بالحسيه صوارى . حبالا . ولان
يوم الجمعة ، فاجتمع الجهم الكثير من الحلالق .
فلما صعد على الجبال اظهر اشياء غريبه في سعة
البهلوانية وهو واقف على الجبال ، منها أنه نصب
له آدماج وسيه ورمى بالنشاب في السيه وهو
واقف على الجبال ، ومنها أنه مشى على الجبال
وهو مفيد وعيناه مربوطه بخرقه ، ومنها أنه مشى
على الجبل وفي رجله فبقاب وتحتة ألواح صابون ،
ورمى في الادماج وهو واقف على سيوف مسلوله ،
ومنها أنه مى على الجبال مقلوبا وهو معسى
العينين ، وأظهر من هذه الألعاب العجائب
والغرائب... وكان لمصر لمدة طويلة من أيام الأشرف
برسباى لم يدخلها مثل هذا في صنعة البهلوانية .
وكان هذا البهلوان يدعى يوسف ، وفيل انه من
أبناء حلب ، وفيل انه نشأ باللاذقية . وكان شابا
جميل الصورة وله عبيد علمهم صنعه البهلوانية
يشنون على الجبال أيضا ويظهرون الفنون الغريبة
مثله .

وفيه حضر الزينى طيلان رأس نوبة ، وكان
توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبة
مصلح الدين بك والتهاى أحمد بن الجيعان ،
وكان أشيع عنه أنه توجه الى اسطنبول مع جملة
من توجه هناك ، فلم يصح ذلك ، وانما كان توجه
الى مكة وحصر من البحر المالح أيضا .

وفيه توفى العلائى على بن طوغان الذى كان
دوادار الأشرف قانصوه خمسمائة ، وكان من
أعيان أولاد الناس ، وكان رئيسا حشما لين الجانب
سيوسا في أفعاله ، وقاسى في آخر عمره شدة
ومحنا بسبب قانصوه خمسمائة .

وفيه حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه ،
فلما حضر أشيع بين الناس أن السلطان مصمم
بحلب ، وأن شاه اسماعيل الصفوي معرك على
ابن عثمان ، وهو في جمع كبير من العساكر ، وأن
ابن عثمان أخذ حدره منه . وأشيع بين الناس أن
نائب الشام جان بردى الغزالي نحيل على ناصر
الدين ابن الحنش شيخ الأعراب والبقاع وغير ذلك
من جهات دمشق . فلما نحيل عليه ونست حيلته
عليه قتله وفصل نحصا آخر من متايح العربان
يقال له ابن الحرفوش . وكان ناصر الدين بن
الحنش كثير العصيان على بواب حلب ، بل وعلى
سلاطين مصر أيضا . وكان لما ملك ابن عثمان
دمشق امتنع من المقاتلة به ، فتحايل عليه جان
بردى الغزالي حتى أخذه بغتة وقتله وحز رأسه هو
وابن الحرفوش ، وأرسل رأسيهما إلى ابن عثمان
وهو بحلب ، فعد ذلك من جملة سعد بن عثمان ،
ولولا تحيل الغزالي على قتل ابن الحنش بحيلة
صعدت من يده لما قدر على قتله ابن عثمان أبدا ،
وفد عجز عن ذلك سلاطين مصر .

وفيه أشيع أن الخنكار سليم شاه لما توجه إلى
حلب أرسل سيدي محمد ابن السلطان العوري
إلى اسطنبول من هناك ، وأرسل صحبه آخرين
من امرائه يتحفظون به إلى أن يدخل إلى اسطنبول
وأشيع أن الخنكار لما دخل إلى حلب أقام بها
مدة وحسن سورها وأبراجها وابوابها ، وعبر فيها
ما يحتاج إليه من العساة ، وقتل من أهل حارة
بأنقوسه جماعة من شرار أهلها ، وقيل وزع على
جماعة من أعيان حلب مالا له صورة ، وعمل فيهم
البطيط ، فلما بلغه أن شاه اسماعيل الصفوي يقصد
أن يزحف على البلاد الحلبيه أخذ يتلأق خواطر
أهل حلب ، ورفع عنهم ما أحدثه عليهم من المظالم .
وقد تقدم القول أن ابن عثمان لما كان مقيما بدمشق
طرقه قصاد الصفوي على حين غفلة من طريق غير

الطريق السالكة ، وهي أسربة قليلة السالك ، وهي
طريق يقال لها الحلويه بالقرب من ندمر ، فلما شعر
ابن عثمان إلا وهم بين يديه ، فقال لهم : « لم لا
أتينهم من الطرق السالكة » فقالوا له ، أن شياه
اسماعيل الصفوي أرسل اليك عدة قصاد ، ونوابك
الذين في البلاد يستلويهم ، فقال لنا: توجهوا من هذه
الطريق ، ثم قدموا إليه مطالعة الصفوي ، فأشيع
أن مضسونها أنه أرسل يترفق له في المطالعة ، وبعته
فيها بعوب سليمة بانك ملك البلاد والعباد ،
وملئت مصر ودمرت خادم الترمين الشرييين ،
وأنت الآن اسكندر عسكر ، والماضي بيننا لا يعاد ،
فتنوجه أنت إلى بلادك ، وأتوجه أنا إلى بلادى ،
ونصون دماء المسلمين بيننا ، ومهما كان ففسدك
فعلته لك . فلما وقف السلطان على مطالعة الصفوي
قال لوررانه . « ان هذه الهدية التي أرسلها اليها ،
وهذا الكلام الذي في المطالعة كله حيل وخداع ،
حتى يبطل عزمى عن ملاقاته ويترقى على حين
غفلة » كما فعلته قصاده . فتقبل أنه أخذ الهدية
التي أرسلها ، وقتل القصاد وما أبفى منهم سوى
كبيرهم فكان كما قيل في أمثال الصادح والباغم :
وان من يستنصح الأعدى يردونه بالعنى والفساد
ثم ان ابن عثمان لما وردت إليه دساد الصفوي
وهو بالشام رحل عنها ، وتوجه إلى حلب ، وأحد
في أسباب تحسيتها كما تقدم .

وفي جمادى الاولى ، وكان مسنهل الشهر يوم
الثلاثاء طلع القضاة إلى القلعة وهنأوا ملك الأمراء
بالنهر وعادوا إلى منازلهم .

وفي يوم الأربعاء تأنبه توفيت زوجة الأمير
قايتباى الدوادار ، وهي سريه الملك الأشرف ملومان
باى ، التي تدعى نال باى ، فلما ماتت دفن في
حوش مدرسه السلطان العورى .

وفي يوم الخميس ثالثه قدم القاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ، وكان توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبة مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، فسببه مصلح الدين وتأخر بعده مدة ثم حصر . فلما حضر طلع الى القلعة وفابل ملك الأمراء فحلح عليه ققطانا احمر مخملا مذهبا ، ونزل من القلعة في موكب حفل وقدامه علاء الدين الامام كاتب السر ، وأعيان المباشرين من ارباب الوظائف ، وركب قدامه نصيب الجيش الشرقي يونس وجماعة من الأمراء العثمانية ، ومن الأمراء الجراكسة . فزينت له حارة البندقانيين وأوقدوا له بها الشموع على الدكاكين ، وتخلقت جماعته بالزعفران ... وكان ذلك اليوم مشهودا في القصف والفرجة .

وفيه رسم ملك الأمراء بالافراج عما بأيدي أولاد الناس والنساء من المربعات التي كانوا أوقفوها من أول السنة ولم يمضها المباشرون ، فحصل لأولاد الناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، وعمل المباشرون بجملة مال له صورة ، وأمضوا للناس الافراج عن رزقهم واقطاعاتهم ونفعوا الناس عايه النفع ، ولم يشعر ملك الأمراء بشيء من ذلك .

وفيه وقعت حادثه تسيعة ... وهي أن شخصا من العوام كان أصله مؤذنا ، فدخل في بعض العيطان وفتح عيدان خيار تسير ووضعها في قفه ، فبص عليه الخولى وحصل بينهما تساجر ، فأغلظ عليه الخولى وأتى به الى بيت الوالى وقص عليه أمره ، فطلع به الوالى الى ملك الأمراء وعرضه عليه وهو حامل القفة التي فيها الخيار التسير . فلما علم ملك الأمراء بذلك ، وكان ملك الأمراء حرج على بيع خيار التسير ، وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه . ثم ان ملك الأمراء رسم للوالى بشنق ذلك الرجل الذى سرق خيار التسير ، فأشهره في القاهرة ،

وعلق القفة التي فيها الخيار التسير في رقبتة ، وشق به من القاهرة حتى أتى به الى القنطرة التي بزقاق الكحل فشنقه هناك ، وأقام ثلاثة أيام وهو مصلوب لم يدفن ، وراح الرجل ظلما على بعض عيدان خيار تسير ما تساوى أربعة أنصاف ، فتأسف الناس عليه كيف راح ظلما على شيء ما يسحق هذا كله . وكان له أولاد وزوجة .

وكان ملك الأمراء يبيت يسكر طول الليل ، ويصبح في خبال السكر يحكم بين الناس بما يقول له عقله ، ولم يظهر العدل في محاكماته قط منذ ولى على مصر .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره ، في تلك الليلة خسف القمر ، وأقام في الحسوف ثمانيا وأربعين درجة .

وفيه أنفق ملك الأمراء الجامكية على الأمراء الطبلخانات ، وعلى الأمراء العشروات ، وعلى المماليك الجراكسة ، فأعطى الأمراء الطبلخانات كل واحد أربعين دينارا ، وأعطى الأمراء العشروات كل واحد منهم خمسة وعشرين دينارا ، كما أنفق عليهم في الشهر الماضى . وأنفق على المماليك كل واحد منهم ألفى درهم على العادة . وأنفق على أولاد الناس ممن نزل اسمه في الديوان ، فأنفق على العسكر جامكية شهرين كانت منكسرة لهم في الديوان من غير لحوم ولا عليق .

وفي يوم السبت تاسع عشره توفيت والدته الشهابى أحمد بن الجيعان ، ولانت لها جنازة حافلة . وفي يوم الأحد عشريه وقعت حادثه مهولة ، وهي أن ملك الأمراء خاير بك كان عين جماعة من الانكشارية والاصباهية أن يسافروا الى الخنكار بحلب صحبة مصلح الدين . فلما قصد مصلح الدين السفر هربت الانكشارية والاصباهية في تلك الليلة ، وكسروا أبواب القلعة ونزلوا منها على

حمية ، وتوجهوا الى مصر العتيقة ، فنزلوا في المراكب الكبار ، ثم أخذوا جماعة من النواتية وسافروا في المراكب ، وفصدوا أن ينوجهوا الى جهة الصعيد .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل يقول للأمير قايتباي الدوادار : اخرج في هذه الساعة وسافر خلف الانكشارية ، وكل من ظفرت به منهم اقتله . فصلى الأمير قايتباي صلاة الصبح وركب وخرج على حمية ، وصحبته الأمير جاجم الحمراءوى ، والأمير على العثماني ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، وجماعة من العساكر العثمانية ، فعدوا الى بر الجيزة وأقاموا فيه ذلك اليوم حتى تكامل خروج العسكر ، وخرجوا أفواجا أفواجا ، فرجت لهم القاهرة في ذلك اليوم وكثر القال والقال في ذلك اليوم بين الناس بسبب ذلك ، واضطربت أحوال العثمانية في بعضهم ، وصاروا فرقتين : فرقة مع ملك الأمراء ، وفرقة معهم عليه

ثم ان الأمير قايتباي رحل من الجيزة هو والعسكر وتوجه الى نحو الميمون بالقرب من جزيرة بنى على ، فتلاقوا هناك مع الانكشارية والاصباهية الذين هربوا هناك .

ثم ان الزينى بركات بن موسى المحتسب رسم له ملك الأمراء خاير بك بأن يتوجه الى مصر العتيقة ويمسك مراكب ، ويرسل فيها رواده للأمراء والعسكر الذين توجهوا الى الميمون . فأوسق عدة مراكب فيها زوادة ما بين بسماط وجب حالوم ورز وسمن وعسل وغير ذلك من الزوادة . وأرسل ذلك الى العسكر .

ثم في يوم الأربعاء ثالث عشره وردت الأخبار بأن الأمير قايتباي الدوادار قصد اقتصر على الانكشارية والاصباهية الذين هربوا ، فلما تلاقوا

معه عند جزيرة بنى على تصدى الى قتالهم الأمير جاجم الحمراءوى والأمير على العثماني ، فحاصر الانكشارية في المراكب ، ورموا عليهم بالمدايع والبندق الرصاص ، فأحرقوا مراكبهم ، فطلبوا الأمان من الأمير على ، والأمير جاجم الحمراءوى وقد وقع غالبهم في البحر فعرو من عرو ، وفبصوا على الباقي وأسروهم ، فحزوا رؤوس جماعة منهم ، ولابوا نحو ستة وتلاين رأسا ، وأسروا الباقي بالحياة . ثم ان الأمير قايتباي أرسل تلك الرؤوس والأسارى الى ملك الأمراء في مراكب ، فلما طلوعوا بها علقوها على مدارى كما فعلوا برؤوس الجراكسة ، والمجازاة من جس العسل ، فلما طلوعوا بهم الى القلعة قصد ملك الأمراء أن يعلو تلك الرؤوس على ابواب المدينة فشق ذلك على بهية العثمانية ، ومسعوا ملك الأمراء من ذلك . وأما بقية الانكشارية الذين أسروا بالحياة فقطعوا رؤوسهم اجمعين ، فقليل كانت عدة الانكشارية الذين هربوا والذين هربوا والذين عرقوا نحو مائة وخمسين انسانا .

ومن العجائب أن التراكمه كانت في العام الماضي تقتل أولاد الجراكسة ، فعما قريب صارت المماليك الجراكسة تقتل التراكمه في الليل والنهار ، وهذا عجيب ! وقد ورد في بعض الأخبار « لا تكرهوا الفتن فان فيها حصاد المنافقين » ، وقد قيل في المعنى : لا تكرهوا الحرب ان فيه حصاد نذل مع الحبيث فمسنريح ومسراح منه كما جاء في الحديث وفيه خرج مصلح الدين خازنداد ابن عثمان ، الذى قدم من مكة ، فتوجه الى الريدانية ، وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان . وقد أشيع أن ابن عثمان كان قد أرسل خلفه ، فلما أقام بالريدانية نزل اليه ملك الأمراء وودعه ، ثم رجع ودخل من باب النصر وشق من القاهرة في مركب حافل ،

وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة . ثم ان مصلح الدين أقام بالريدانية أياما ثم عاد الى القاهرة ، فأشيع أن سبب ذلك أن قاصد صاحب اليمن قد وصل الى الطور ، وصحبته تقدمه حافلة الى السلطان سليم شاه بن عثمان ، فلما بلغ ذلك ملك الأمراء أرسل استرد مصلح الدين الى القاهرة حتى يدخل الى القاهرة قاصد صاحب اليمن ، ويأخذه صحبته مع التقدمه ويمضى الى الخنكار ، فهذا كان سبب رجوع مصلح الدين الى القاهرة .

وفيه رسم ملك الأمراء للقصة بأن يتوجهوا الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ويهرءوا هناك ، ويدعوا الله تعالى بالنصر للسلطان سليم شاه على اسماعيل الصفوى فتوجه فضاد النضاة الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ، وهرءوا هناك ختمة ، وفرقوا أجزاء الربعة على الحاصرين ، فقرءوا أجزاء الربعة عشر مرار ، وأهدوا ثواب ذلك للبنى صلى الله عليه وسلم ، ثم الى السلطان سليم شاه ودعوا له بالنصر على الصفوى .

وفى يوم السبت سادس عشرية حضر الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير جانم الحمزاوى والأمير على بك العثمانى ، وكانوا توجهوا الى الميمون بسبب محاربة الانكشارية الذين هربوا ، كما تقدم . فلما انتصروا عليهم وقتلوهم رجعوا وطلعوا الى القلعة ، فحلح عليهم ملك الأمراء ونزلوا الى منازلهم .

وفيه حضر الى القاهرة الأمير آرزملك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وكان لما ظهر أرسل الخنكار طلبه وهو بحلب ، فتوجه اليه هو والأمير قانصوه العادلى ، والأمير تمر باى العادلى ، وأقام عنده مدة ، ثم رسم له بالعودة الى القاهرة ، وكان أشيع بين الناس أن ابن عثمان قرره فى الأتابكية

بمصر . فلما حضر لم يظهر لهذه الاشاعة نتيجة ، واستمر بطالا مقيما بمنزله . ولما حضر حضر بصحبته الأمير شاد بك نائب المهندار ، والأمير جانم الطويل أحد الأمراء العشرافات ، وكان أشيع موتهما بمرج دابق ، فلما ظهر أنهما فى قيد الحياة حضر الى مصر .

وفى آخر هذا الشهر كثرت الاشاعات بأن عربان السوالم قد حضر منهم ما لا يحصى ، وقد فصدوا حرب ابن بقر ، وأظهروا غاية الفساد بالشرقية .

وفى جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الخميس ، فطلع قضاة القضاة الى القلعة وهنثوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس ثامنه رسم ملك الأمراء بقراءة سبع ختمات : واحدة فى مقام الامام الشافعى ، وواحدة فى مقام الامام الليث ، وواحدة فى مقام الشيخ عمر بن الفارض ، وواحدة فى مقام الشيخ أبى الحسن الدينورى ، وواحدة فى مقام الشيخ أبى الخير الكليبانى رضى الله عنهم أجمعين ، وواحدة فى المقياس ، وواحدة فى الجامع الأزهر . ورسم بأن يهدوا ثواب ذلك للسلطان سليم شاه ابن عثمان ، فانه خرج الى ملاقة اسماعيل شاه الصفوى .

فلما قدم رسول صاحب اليمن ، وعلى يده مقدمة حافلة للسلطان سليم شاه بن عثمان ، استمر القاصد مقيما بالقاهرة الى أن سافر صحبة مصلح الدين ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفى يوم الأحد حادى عشر هذا الشهر طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وأخذ قاع النيل فجاءت القاعدة ست أذرع وعشر أصابع أنقص من السنة الخالية بذراعين وست أصابع . فانه كانت القاعدة فى السنة الخالية ثمانى أذرع وست عشرة أصبعا .

وفي يوم السبت سابع عشره لم رقت ملك الأمراء أخبار ردينه ، بأن عربان السوالم قد طفست حتى وصلت الى بركة الحاج ، ووصل أوائلهم الى المطرية . فلما بلغ ملك الأمراء ذلك تنكد ، وأرسل الى الأمير قايتباي الدوا دار يقول له : « اخرج في هذه الساعة ، واطرد العربان » . فخرج من يومه هو والماليك الجراكسة وجماعة من العثمانية ، ورماة من الانكشارية ، فرجت لهم القاهرة في ذلك اليوم ، فخرجوا وهم سائقون الى بركة الحاج . فقبل حصل بين الترك والعربان عركة يسيرة ، فقتل فيها جماعة من العربان ، وأسروا منهم جماعة ، وقطعوا رؤوس أربعة . ثم رجع الأتراك بعد المغرب وقد وقعت خيولهم وبعض منها تفرقع من العطش ، وما رأوا خيرا ... فهربت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبل .

ثم رسم ملك الأمراء بشنق من أسر منهم على باب قنطرة الحاجب ، وعلقوا عليه تلك الرؤوس التي قطعوها من العربان ، وقيل قتلوا من الأتراك جماعة ورجعوا من غير مائل من العربان .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره وقعت حادثة شنيعة ، وهى أن شخصا يقال له حسين وكان طشتدار عند الأمير نوروز أحد الأمراء المقدمين ، ثم بقى في طشتخانات السلطان الغورى ، وهو رجل شيخ مسن زعم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم في المنام ، وقال له امض الى سليم شاه بن عثمان وقل له يرجع الى بلاده ويكف القتال عن المسلمين بسبب اسماعيل شاه الصفوى . وادعى أن ابن عثمان دفع اليه مالا له صورة فلم يقبله منه . ثم ان ذلك الرجل ذهب الى ملك الأمراء خاير بك وقص عليه تلك الرؤية فتهاون خاير بك بكلامه . ثم أن ذلك الرجل قال لملك الأمراء : « ارجع عن مظالم العباد أنت والمباشرون ، خربتكم مصر بظلمكم » ثم سب المباشرين بحضرة خاير بك سيا قبيحا ،

وقال لبركات ابن موسى أنت لو حججت في هذه السنة ما يقبلك النبى صلى الله عليه وسلم . فلما تزايد في القول حنق منه ملك الأمراء ، فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه في الميدان . وقيل ان ذلك الرجل تكلم بكلام كثير ، وأظهر أنه كشف له عن أمور تاتى في أواخر هذه السنة من الأحوال ، فان كان صادقا فيما قاله وادعاه من هذا الأخبار التي ذكرها فسوف تقع ، ويظهر أثره أو صلاحه أو كذبه .

وفيه أشهر ملك الأمراء النداء في القاهرة بأن لا أحد من الحجاج يسافر في البحر المالح ، ولا يرسل له أحمال من البحر ، وموجب ذلك فساد العربان في الطرقات ، وعبث الفرنج في سواحل البحر المالح .

وفي يوم الخميس ثانى عشره خرج مصلح الدين خازندار ابن عثمان وتوجه الى نحو الريدانية ، وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان ، فخرج وقت صلاة الصبح وصحبته الأمير قايتباي الدوا دار ، وأعيان المباشرين ، والأمراء العثمانية . فكان له موكب حافل .

ثم خرج بعده مقدمة حافلة أرسلها ملك الأمراء الى الخنكار هو وولده سليمان بك الذى باسطنبول . فكان ما اشتملت عليه تلك المقدمة من الخيول أربعين فرسا خاصات عليها عبي فلعى ، يصحبها أربعون فرسا من الأكاديش ، واثنتان وأربعون جملا محملة قماشاً محزومة ، قيل صنها تفاصيل سكندرية ، وأبدان منزلاوية ، وقماش فارسكورى ، وغير ذلك من شاشات وأرز ، وغير ذلك من مقاطع خمسينى ، وخام رفيع وغير ذلك ... ومن جملتها أربعة وستون جملا محملة سكرا ضمن صناديق جريد بأغشية لباد أبيض . قيل جملة ذلك أربعمائة قنطار . وقيل أن ملك الأمراء كرر السكر ثانيا وجعل فيه المسك والعنبر الخام .

ومن جملة التقدمة جمال محملة عصافرا وحذاء وغير ذلك ، ومن جملة التقدمة أحبال شفافف ضسها مرطبات أشربة مربى .

وأشيع أن ملك الأمراء أرسل الى الخنكار ابن عشان جبالا عليها مال من حراج مصر عن سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ولم يعلم ما قدر ذلك . فلما مضت تقدمة ملك الأمراء طلع فى عقيب ذلك تقدمة صاحب اليمن ، وهى تقدمة حافلة تشتتل على شاشات وأرز وتحف ومعادن ولؤلؤ وفصوص وطواشية وغير ذلك . فلما مضت تقدمة صاحب اليمن ، طلعت تقدمة الأمير على بن عمر صاحب جهات الصعيد ، وهى تقدمة حافلة منها مائتا فنطار سكر ، ورقيق ما بين عبيد وجوارى وخيل وجمال ، وغير ذلك أشياء حافلة تصلح للسلوك .

وفى يوم الجمعة ثالث عشره رحل مصلح الدين من الريدانية ، وتوجه الى الخانقاه . وأشيع أنه لما كان مصلح الدين بالريدانية سرق من تحت رأسه بقجة قشاش قيل ان فيها مبلغا له صورة .

وفى يوم الجمعة المذكور طرقت ملك الأمراء أخبار رديئة ، بأن حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، والتفت عليه عربان قبائل البحيرة وغيرها . فلما تحقق ملك الأمراء صحة هذا الخبر نزل الى الميدان قبل صلاة الجمعة وعرض المماليك الجراكسة ، والعسكر العثماني . فكتب من الفريقين نحو خمسمائة انسان ما بين انكشارية ورماة ، وعين صحبتهم عشر عجالات تكون قدام العسكر ، وعين الأمير قايتباى الدوا دار باش المماليك الجراكسة ، وعين أمير آخور باش العثمانية .

وفى هذه الأيام اضطربت أحوال ملك الأمراء جدا ، وقد بلغه أن العربان طردوا اسمعيل بن الجسويلى عن أرض البساط وملكوها منه ،

واضطربت أحوال الغربية الى الغاية ، واضطربت أيضا أحوال الشرقية بسبب عربان البحر . والم وعبد الدائم بن بقر واخوته ، واضطربت أيضا أحوال جهات الصعيد ، وقد ضاعت مصالح المسلمين بينهم . وخرب من الشرقية والغربية عدة بلاد ، وظهر الفساد والفتن برا وبحرا . والأمر لله تعالى .

وفى يوم السبت رابع عشره أرسل شكر أخى حسن بن مرعى شخصا من أقاربه يطلب الأمان له من ملك الأمراء ، فأرسل اليه ملك الأمراء مندبل الأمان وصورة حلف على يد القاضي فخر الدين ابن عوض ، وأرسل اليه قفطان حرير مخملا . وخلع على شخص من أقارب حسن بن مرعى الذى جاء يطلب الأمان من ملك الأمراء .

وفى يوم الأحد خامس عشره خرجت التجريدة التى كانت تعينت الى حسن بن مرعى ، وكان باش العسكر أمير آخور أخا ملك الأمراء وصحبته جساغة من العثمانية ما بين انكشارية ورماة بالبندق الرصاص ، وخرج صحبة العسكر تلك العجلات التى عينت لهم ، وكانت عدتها عشر عجالات ، وخرجت طائفة من المماليك الجراكسة وتوجهوا الى البحيرة وصحبهم الأمان والخلعة الى شكر بن مرعى .

وفى هذا الشهر وردت الأخبار من مكة بأن عدة مراكب فيها افرنج يعبتون فى البحر المالح ويقطعون الطريق على المسافرين فى البحر . وأرسل السيد الشريف مطالعة الى ملك الأمراء بأن يرسل له تجريدة بسرعة ، وقد ختى على بندر جسدة أن تطرقه الفرنج على حين غفلة ، ويملكوه من المسلمين .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره نزل ملك الأمراء الى الميدان الذى تحت القلعة ، وعرض العسكر ،

وعين منهم جماعة يسافرون الى جدة بسبب حفظ البندر . فلما عرض العسكر كتب منهم جماعة ما بين جراكسة وأولاد ناس رمنارية وغير ذلك . وكان مجموع ما كتبه من العسكر في ذلك اليوم نحو مائتين وخمسين انسانا ، وأنفق في ذلك اليوم على طائفة المنارية على حكم ما كان ينفق عليهم السلطان الغورى . فنزلوا من القلعة ، وشرعوا في أسباب عمل برقتهم الى السفر ، وأما بقية العسكر فلم ينفق عليهم شيئا . وقد صبر حتى يرد عليه من مكة خبر آخر في أمر الفرنج ينسند عليه .

وفي شهر جيب وكان مستهله يوم الجمعة طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى دورهم .

وفي يوم الاثنين رابعه حضر جان بك دوا دار الأمير قايتباي ، والأمير بخشباي فرا الذى كان شاد الشون ، والقاضى عبد الفتاح وآخرون من المباشرين . وكان هؤلاء توجتوا نحو الشرية بسبب أنهم مسحوا جهات الشرقية ، وميزوا الشراقى من الرى ، ومسحوا الأقطيع والرزق ، وعملوا بالباع والذراع فى الشرقية ، وجاروا على المقطعين فى المساحة . ثم انتقلوا من الرزق والأقطيع الى جهات الأوقاف فمسحوها ، وصاروا ينزلون الى البلاد ويفردون عليها المال ، ويضعون الفلاحين فى الحديد بعد الضرب المؤلم ، ويقررون على كل بلد ما يختارونه من الأموال . فجبوا من الشرفية فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينار ، وخرب فى هذه الحركة غالب بلاد الشرقية ، ورحل منها الفلاحون . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الناس ، فعمت هذه الحادثة أصحاب الرزق والأوقاف من الرجال والنساء حتى الأراامل والأيتام والمستحقين ، وقد تعطلت الأوقاف بسبب ذلك . وكان هذا كله بواسطة ملك الأمراء خاير بك فانه

كان سببا لذلك ، فعد هذا من جملة مساويه فى حق أهل مصر ، وحصل فى هذه الحركة غاية النفع للمباشرين الذين تكلموا فى أمر هذه المساحة بالشرقية . والأمر لله وحده .

وفي يوم الاثنين حادى عشره أشهر ملك الأمراء خاير بك المنادة فى القاهرة بأن الممالك الجراكسة لا يلبسون زنوطا ، ولا يمشون بقباقيب فى الأسواق ، ولا يجلسون على المساطب فى الحارات ، ولا على أبواب الجوامع ، وكان ملك الأمراء سامح لهم أولا فى ذلك ، ثم ضيق عليهم ومنعهم من هذه الأفعال فيما بعد .

وفي يوم السبت سادس عشره رسم ملك الأمراء بشنق شخص عجمى فشنق ، وكان هذا الشخص ناجرا فى سعة من المال ، فلما حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بصال له صورة طمع ملك الأمراء فى ماله وزعم أنه جاسوس من عند شاه اسمعيل الصفوى حضر ليكشف عن مصر وأحوالها ، ويطلع الصفوى بذلك . فشنقه ظلما ، واحتاط على جميع أمواله ، وجعل له ذنبا أنه جاء من عند الصفوى جاسوسا . وفي يوم الأربعاء عشريه حضر شيخ العرب شكر أخو حسن بن مرعى شيخ جهات البحيرة صحبة القاضى فخر الدين بن عوض ، وقد تقدم القول بأن ملك الأمراء كان أرسل له منديل الأمان على يد ابن عوض ، فأطاع وحضر الى القلعة وقابل ملك الأمراء فخلع عليه قفطان حرير ونزل من القلعة وتوجه ليحضر أخاه حسن بن مرعى ، فتوجه الى نحو قليوب وصحبته القاضى بركات المحتسب ليحضر حسن بن مرعى ، وأرسل له ملك الأمراء منديل الأمان على يد القاضى بركات المحتسب .

ثم فى أثناء ذلك اليوم حضر حسن ابن مرعى ودخل القاهرة وعلى رأسه منديل الأمان ، وصحبته جماعة من العثمانية ، وأمير آخور أخو ملك الأمراء ، والزينى بركات المحتسب ، وفخر الدين

ابن عوض ، وجماعة كثيرة من العربان . فشق من القاهرة ومنديل الأمان على رأسه . فلما طلع الى ملك الأمراء بالقلعة وفابله خلع عليه قفطانا محملا مدهبا ، ونزل من القلعة في موكب حافل .

وكان أشيع أن ملك الأمراء سيفبص عليه ، فانه وقع في ذنب عظيم . وسبب ذلك أنه كان مسجوناً بالقلعة من حين قبض عليه الخنكار وسجنه بها ، فتسحب من هناك ليلا وهرب ، واستمر في عصيان وهجاج مدة طويلة ، وكثر الميل والقال بسببه ، والتف عليه جساءة كثيرة من عربان الغريبة . فلما طلع وقابل ملك الأمراء وخلع عليه بطلت تلك الاشاعات التي كانت تشاع بين الناس بسبب عصيانه .

وفي يوم الاثنين خامس عشر شهر رجب ، كانت وفاة صاحبنا الشيخ بدر الدين محمد بن محمد الزيتوني العوفي رحمة الله عليه ، وكان أحد نواب السادة الشافعية ، وكان فاصلا غارفا بصعة القضاء والتوقيع ، ماهرا في الخطب . وكان فكه المحاصرة كثير العثرة للناس . وكان علامة في فن الزجل . وكان ينظم الشعر على فنون ، وهي الشعر ، والدوييت ، والموالي ، والموشحات . وكان له شعر جيد ، ونظم أرجوزة مفيدة في الفقه وشرحها شرحا على الأوضاع مفيدا في معناه . ومن شعره الرقيق قوله ملفزا في اسم حمرة :

يا ساتلي عن اسم من خدوده كالغنم
في خده وثغره وفي فؤاده المعرم
وكان مولده سنة احدى وثلاثين وثمانمائة ، وذلك في شهر شعبان في سادسه . فكانت مدة حياته أربعاً وتسعين سنة الا يوما . فلما مات حضر القضاة الأربعة وصلوا عليه ، وكانت له جنازة حافلة ، ودفن بحوش ربة الصوفية ، رحمه الله تعالى .

ولما توفي الشيخ بدر الدين الزيتوني رئساه ولده القاضي بدر الدين محمد بهذه القطعة الزجل اللطيفة وهي قوله :

يحق لي أن أرثي لموت والدي
كان أفصح النظام وغفلو رجيج
في درج الأكفان للقياما اندرج
واجب على ففدو بعزمي أصبح
كان والدي في فن الأزجال تقصدوا
حفاظ مصر والكل يبه يعتنون

وفي جميع العلوم مالو نظير
فقيه مدرس في جميع الفنون
يدري الأصول والنحو معرب خطيب
ومنطقي في الصرف عاقل مصون

جا الموت خدو وأصحت بين الوري
فريد وجيع الناس بحزني تيسح
وينسذبوا هسي عليه بالفراق
وما جرى من جفن عيني الفريح
قوموا بنا جسع الموالى والصحاب
نرتي الذي قد كان وكان في الدهور

زين الوجود مالو وجود في الوري
عارف بفن الشعر والكل زود
أصحابنا زيدوا النبواح والنحيب
على أديب يدري أصول البحور

مثلوا ما حد يحسن زجل في الأنام
ولا موشح لو ودوييت صحيح
والفرق ظاهر مثل صبح الدجى
ما بين قاضي الكل والزمر ريج

كان في الأدب ناظم وناثر فصيح
وقد حوى جملة محاسن ملاح
ان ملت في التحرير حريري النظام
بل سيدوا لما تعد الفصاح

أو عنتر العبي نهـار المجال
أو نشر حاتم طى عند السماح
وما لشماخ رقتوا فى البـديع
وقس ما ينقاس بنطقو الفصيح
وسائر الحفاظ تراهم لديه
ما يقتدوا الا بقولو الصحيح
يا من روى الأخبار كان والدى
مختص بالآداب وكان لى مفيد
مفتاح لباب الرزق للضيق فرج
وجهو سرور كعبو مبارك سعيد
مختار لفعل الخير بشير الفرح
مرشد ومحسن كل ما فيه مليح
ياقونيا الخط وبجوهراتى
فرقو صباح ظاهرو وجوهو صييح
كان آخر النظام وبحر العلوم
وروض تربه زاهر بديع الصفات
ونقلدان مع راح وريحان وروح
جمع ضريحو ذى المعانى الشات
كيف لا أحرك للضريح ساكنى
وأبكى عليه طوال الحيا للممات
ومشتكى خزنى وروضى الترب
والنقل والراح الذى لى يريح
والروح والريحان وما فد عدم
من الوجود موجود بذاك الصريح
بعدو على الدوم قد الفت النواح
والحزن عن يعقوب ورتت النحيب
أصبحت من ما نوح سفينى غريق
والدمع طوفان ما طفا لى لهيب
يارب هب لى صبر أيوب عليه
وارسل اليه رحمه بظه الحبيب
قلبى من أجلو صار بحزنى كلیم
والدمع لو فى صحن خدى مسيح

ونا غريق محروق بنار الخليل
وشبه اسماعيل بحزنو ديسح
قد نظم الجواهر بتأليف كتاب
حاوى لىوم الفقه سهل البيان
وقد شرح لو شرح واضح مفيد
وصار لو بيه تذكـار بطول الزمان
وقال دخيرة لى ليوم النشور
أسكنه ربى فى فسيح الجـان
دار النعيم فيها مقيم لم يزل
ما بين أشجار وكونر بسـيح
والحور والولدان وما يستتـيه
من الفواكه مع ممام فسيح
ونا ابن ريسوى عريق النسب
يا رب الارباب يا لطيف نا حير
اجبر بلطفك كسر قلبى الحزين
يا جابر العظم الرميم الكسير
واعطف على بحنو الورى
وما نعر فاجعلولى يسير
مدح المجد للحلائق شما
به يهتدى قلبى وبو أسـريح
ونا أريد أمدح محمد عسى
يطهى لهيبى واهتدى بالمـديح
صلوا على المختار حبيب الاله
من أرسلو الله للحلائق شفيع
يوم القيامة والخلائق زمر
ياتوا لآدم يقول ما أستطيع
اشفع تشفع فى أمتك يسمع الـ
مولى ويغفر كل ذنب قبيح
ويدخلوا الجنة كذا قد ورد
عن النبى مسند حديث صحيح

وفي هذا الشهر توقف النيل وسلسل في
الزيادة ، وصار يزيد في كل يوم أصبعا ، وتارة
أصبعين . وقد مضى من مسرى شتره أيام ولم يصل
النيل الى عشر أذرع . فاضطربت احوال الناس في
تلك الأيام ، وتشحطت الغلال ، وبلغ سعر البطة
الدفيق اثني عشر بصفا ... فعند ذلك رسم ملك
الأمراء بأن ينزل الوالى ويلبس الروضة ، فنزل
هو وجماعته من الأمراء العثمانيه وكبس الروضة ،
وفك الحيسام الى كات بهب ، واشهر للمناداة
هناك بأن لا أحد تتجهر بالمعاصي ولا يجمع
جموعا ولا ينصب حيمه على شاطئ البحر ،
ومن يفعل ذلك ينسحق على باب داره من غير معاودة
في ذلك . فانكف الناس عن التجاهر بالمعاصي
بالروضة ، فنزل في ذلك اليوم غالب الناس من
الروضة .

وفي شهر شعبان — وكان مستهله يوم الأحد —
طلع القضاة الأربعة ، وهنأوا ملك الأمراء بالسهل ،
ثم عادوا الى دورهم

وفي يوم الاثنين تاسع الشهر كانت وفاة
الشيخ الصالح القطب العارف بالله تعالى ، الورع
الزاهد الناسك الشيخ محيى الدين عبد القادر ،
ابن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى حسن ،
ابن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى بدر الدين ،
المدعو شرف الدين موسى الدشوطى ، رحمه الله
عليهم أجمعين . وكان الشيخ عبد القادر شافعى
المذهب مجذوبا واعيا . وكان مكتوف الرأس ،
وكان دائما شعره في رأسه وعلى جسده جبة خشنة
دائما . وكان سواحا لا يتخذ له سكنا ولا زوجة
ولا ولدا ولا عيالا . وكان تعذى بالقراقيش
والزعر دائما . وكان لا يأكل طعام اللحم الا قليلا .
وكان مهيبا معظما عند الملوك والسلطين وأعيان

الناس ، وكانت رسالته عندهم لا ترد . وكان في
أواخر عمره حصل له كفاف في عينيه واستمر على
ذلك حتى مات . وقد عاش من العمر نحو ثمان
وثمانين سنة أو فوق ذلك .

وكان محببا للناس ، وكانت النذور التى تدخل
عليه من عند الأكابر تنتهى بها جوامع بخطب
ومساجد . وله عدة جوامع ومساجد في أماكن
شتى . ولما توفى أوجب له القاهرة ، ونزل ملك
الأمراء والعثمانيه والأمير فايتباى الدوادار والقضاة
الأربعة وأعيان الناس وأرباب الدولة ، وخرج نعشه
من بيت المعلم حسن الصياد المهندس خارج باب
الشعريه ، ورفعت له الأعلام على نعشه ، وحضر
أطفال المكاتب وعلى رؤوسهم المصاحف ، ومشوا
حول نعشه ، واستمر على ذلك حتى وصل الى
مدرسته التى أنشأها تجاه سيدي يحيى البلخى
فدفن بها . وكانت جنازته حافلة ، رحمة الله عليه ،
وكان بمية السلف من الأولياء .

وفي هذا الشهر قبض ملك الأمراء على يوسف
البدرى الوزير ، ورسم عليه وعلى زوجته وعلى
عياله وعلمانه وحاشيته ، وقرر على يوسف البدرى
مالا له صورة ، وعلى زوجته وجماعته . وتمادى
أمره في المصادرة حتى ذهب ما يملكه جميعا من
صامت وناطق ، حتى باع أثاث البيت من قطارمين
وزلع ، حتى الحصر وغير ذلك ... واستمر في
المصادرة نحو شهرين هو وزوجته وهما في الترسيم
وعياله ، وآخر الأمر أرسلوه الى اسطنبول .
وسأتمى الكلام على ذلك في موضعه .

وفيه نادى ملك الأمراء في القاهرة للمباشرين
والعمال بأنهم لا يستخرجون من بلاد الشرقية
والغربية عن سنة أربع وعشرين وتسعمائة شيئا الا
بمرسوم من عند ملك الأمراء ، فاضطربت أحوال

المسلمين والمباشرين . وكثر بينهم القيل والقال بسبب ذلك .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره ، الموافق لسابع عشرى مسرى ، وفى النيل المبارك السب عسرة ذراعا ولم يزد من الذراع السابعة عشره شيئا ، فلم يفتح السد فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت رابع عشره ، وفى النيل المبارك وزاد اصبعاً من السابع عشر ففتح السد فى ذلك اليوم . فلما وفى نزل ملك الأمراء وتوجه الى المقياس وخلق العمود ، ومد هناك مده حافله . وحضر الأمراء العثمانية ، ثم نزل فى الحراقة وصحبته الأمراء العثمانية ، وتوجه الى السد وفتحه ، وكان يوما مشهودا ، واوكب وهو طالع الى القلعة موكبا حافلا . وكان وفاء النيل فى هذه السنة على غير القياس ، لأنه كان نيلا شحيحا ، وسلسل فى الزيادة وتوقف أياما وتشحطت أسعار الغلال جميعها ، ثم وفى بعد ذلك ففرح به كل أحد من الناس ، وكان الأمر كما قاله المعمار :

النيل وفى وزال الهم وانفجرت

عنا الهموم وهان القبح ثم رمى

وراح خزانة للنيل ننظره

فاستكثر الماء فى عينيه ثم عمى

ومن الحواث فى يوم وفاء النيل أن شحصا من العثمانية غرق فى البحر ، فتنكد ملك الأمراء والعثمانية بسببه .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره حضر قاصند من البحر من عند الخنكار ابن عثمان ، ولم يعلم ما قد جاء فيه ، وما سبب مجيئه . وكثر القيل والقال فى ذلك ، ثم ظهر من بعد ذلك ما جاء بسببه ، وسنذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ولما فتح السد وجرى الماء فى الخليجان ، لم

تسكن البيوت فى الجسر ولا التى فى المصطاحى ولا حكر الشامى فشكا أصحاب الأملاك من ذلك الى والى القاهرة ، فنادى للناس فى الجسر بأن يسكنوا وعليهم أمان الله تعالى ، والذى لا يسكن فى بيته ولا يعمره يضرب عليه ملك الأمراء رنكه ويصير ملكه ، فصار يكرر تلك المناداة للناس ثلاثة أيام متوالية . فسكن فى الجسر بعض بيوت ، ودخل بركة الرطلى بعض مراكب البياعين .

وأما الجزيرة الوسطى فانها خربت عن آخرها ولم يبق منها غير الجدر ورسوم البيوت لا غير ، وابناع أصحاب الأملاك بيونهم تقاصا . وكان السلطان الغورى سد خليج الزريه بجسر عند قنطرة موردة الجبس ، فتلاشى أمر الجزيرة الوسطى من يومئذ ، وخلت بيوتها من السكان ، وكانت من أجل متفرجات الديار المصرية . وكان مبتدأ منشئها فى دولة الأشرف اينال سنة اثنتين وستين وثمانمائة ، ولا زالت الناس تنشىء فيها الأملاك الجليلة الى سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فتلاشى أمرها وخربت جملة واحدة لما دخل ابن عثمان الى القاهرة وجرى منه ما جرى ، ونزل فى بر الجزيرة على رهلة البحر ، فصار عسكره بحرب بيوت الجزيرة وبأخذ سقوفها وأبوابها وطفانها ، فحربت بالكلية من يومئذ ، وانقطع الرجاء من عمارتها ثانيا . والأصل فى ذلك أنها أسست على غير تقوى ، وكانت نقعة فسق وزنا ، فآل أمرها الى الحراب سربعا .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرى هذا الشهر — وافق ذلك اليوم يوم النوروز — والنيل فى ست عشرة ذراعا ، ولم يدخل فى الذراع السابعة عشرة وكان من مبتداه الى منتهاه نيلا شحيحا .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره توفي سودون نائب
دمياط ، وهو أحد الأمراء العتراءات ، مات بطالا .

وفي شهر رمضان ، وكان مستهله يوم الاثنين ،
طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالصوم ،
ثم عادوا الى دورهم . ولما دخل شهر رمضان كانت
الأسعار مشحطة في سائر البضائع ، وقد تناهى
سعر القمح الى أشرفين كل أردب ، والبطة الدقيق
الى أربعة عشر نصفا ، والسكر تناهى سعره الى
أربعة وعشرين أشرفيا كل قنطار ، والقطر النبات
بخمسة أنصاف كل رطل ، والقطر المكرر بأربعة
أنصاف كل رطل ، والعسل النحل بثلاثة أنصاف
كل رطل ، والعسل الأسود بنصفين كل رطل ،
والسمن بثلاثة أنصاف كل رطل ، والجبن المقلّى
بثلاثة أنصاف كل رطل ، والجبن الحالم بنصفين
كل رطل ، والجبن الأزرق الذي في مائه بنصف فضة
كل رطل . وتشحط اللحم الضانى واللحم البقرى
حتى صار لا يوجد الا قليلا . فابتاع اللحم الضانى
بثمانية عشر كل رطل ، والبقرى بثمانية كل رطل ،
وابتعت الحلوى المشبك من القادري بخمسة
أنصاف كل رطل ، والمنفوش بستة كل رطل ،
وعمت هذه التشحيطة سائر البضائع وسائر
الحبوب حتى الخضر . وسبب ذلك أن الزينى
بركات بن موسى كان مشغولا بعمل برق الحجاز ،
وقد أهمل أمور الحسبة ، ولم يلتفت لها ، فجارت
السوق على الناس وهم في أمر مريب بسبب هذه
التشحيطة التى وقعت في تلك الأيام ، وكادت
الناس أن يأكل بعضها بعضا .

وفي يوم السبت ثالث عشره جلس ملك الأمراء
في المقعد الذى بالحوش ، فتكاثر عليه المماليك
الجراكسة في المقعد فحنق منهم ، فقال للانكشارية
الذين حوله : اضربوهم واطردوهم من المقعد . فلما

سرعوا منه ذلك ضربوا المماليك الجراكسة بالعصى
على وجوههم ضربا فاحشا ، فجاءت ضربه على
أكتاف جنائى بك ، دوا دار الأمير قايتباى الدوا دار
فانزعج كنفه . فحصل للمماليك الجراكسة في ذلك
اليوم كسر خاطر ، ونزلوا من القلعة على أنبيح
وجه .

ثم في عقيب ذلك اليوم طلع المماليك الجراكسة
الى الميدان بسبب تفرقة الأطلاق ، فحضر القاضي
شرف الدين الصغير كاتب الممالك وفرن الأطلاق ،
فأعطى لجماعة من المماليك فدان طين ونصف ،
وبعض فدانا ، وبعض نصف فدان ، فتضرر المماليك
من ذلك ، وقالوا : ايش يكفيننا النصف فدان ؟
وشكوا من ذلك فسبهم القاضي شرف الدين سبا
قبيحا ، وقال لهم : « يا كلاب يازرايين أنتم بفي
لكم باب والا راس حتى تتكلموا ، ييضتم
وجوهكم في ايش حتى تستحقوا اطلاقا » ؟
وبهدلهم غاية البهذلة ، فنزلوا من الميدان على أقبح
وجه . وقد قلت آياتا في هذا المعنى :

لما تكبرت الجراكسة التى

كانت بمصر أذلهم رب الورى

وأذاقهم ذل السؤال وفاقة ا

أبدى وأدبهم بما لهمو جرى

وفي هذا الشهر وقعت بين ملك الأمراء وبين
الأمير قايتباى الدوا دار فتنة ، وصار كلما طلع
اليه يفتنه . وسبب ذلك أن شحصا من عربان
السوالم كان عند قايتباى ، فأرسل خاير بك اليه
انكشاريا أخذه من عنده ، ووضع في الحديد ،
فصار بينهما حظ نفس في الباطن .

وفيه فدمت الأخبار من اسطنبول على يد
شخص من العثمانية ، وصار يفرق مراسيل على
عيال من توجه الى اسطنبول ، فذكروا في كتبهم

وفاة جماعة كثيرة من أهل مصر ممن توجه الى
اسطنبول لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وأشيع أن الخنكار لما رحل عن حلب الى بلاد
على دولات ، نزل برعش وأقام بها مدة ، ثم
رحل من هناك وتوجه الى اسطنبول ، وهى
القسطنطينية العظمى محل كرسى مملكة ابن
عثمان ، فقيل ان أمير المؤمنين محمد المتوكل على
الله لما بلغه مجيء الخنكار ، خرج من اسطنبول
ولاقاه هو وأولاد عه ، والعلائى على ابن الملك
المؤيد وأولاد الأمراء الذين هناك ، والمباشرون
وأولاد الجيعان الذين هناك ، وأولاد الناس من
أهل مصر الذين توجهوا الى اسطنبول ... فلما
وقعت عين الخليفة على ابن عثمان أراد أن ينزل
له عن فرسه ، فحلف عليه الخنكار ومنعه من
النزول اليه ، وقيل انه عظمه غاية التعظيم .

وأما بقية أعيان أهل مصر الذين هناك فلم
يلتفت اليهم لما خرجوا اليه ولاقوه ، هكذا أشيع
بين الناس ، وكانوا يظنون أن الخنكار اذا دخل
الى اسطنبول يفرج عنهم ويرسم لهم بالعود الى
مصر ، فلم يخاطب منهم أحدا ولم يلتفت اليهم .

وأشيع أنه لما دخل الى اسطنبول دخل فى موكب
محافل فأقام نحو ستة أيام ، ورحل عنها وتوجه الى
بلد من أعمال مملكته يقال لها أدرة فأقام بها .
وسبب ذلك أنه لما دخل الى اسطنبول وجد بها
قناء عظيماء ، وقد فتك بها الطاعون فتكا عظيما ،
ومات به من عسكره ما لا يحصى . وقيل مات من
أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول نحو من ثمانين
انسانا ، منهم أعيان وغير أعيان ، ولكن لم أقف
على حقيقة أسماء من مات هناك من الأعيان .
وس يظهر فيما بعد من توفى هناك من الأعيان .

ومن العجائب أن الفلكية وأرباب النجوم

حكموا بأن سليم شاه ابن عثمان ما بقى يدخل الى
بلده اسطنبول ، فكذبهم الله تعالى فيما قالوه ،
ودخلها وأقام بها أياما ، وبطلت أقوالهم الكاذبة ،
كما يقال فى المعنى :

لا ترقب النجم فى أمر تحاوله

فالله يفعل .. لا حدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر

فلا يضرك مريخ ولا زحل

وفيل بلغ الخنكار أن شاه اسماعيل الصفوى
طرد عسكر ابن عثمان عن البلاد التى كان ملكها ،
واستتاب بها جساغة من العشانية ، فطردهم
الصفوى عن بلادهم واستخلصها من أيديهم . فلما
بلغ ابن عثمان ذلك خرج من اسطنبول مسرعا ،
وأقام بأدرنة حتى يرى ما يكون من أمر شاه
اسماعيل الصفوى . هكذا أشيع بين الناس والله
أعلم بحقيقته ذلك .

وفى يوم الخميس مع ليلة الجمعة تاسع عشر
شهر رمضان ، صنع الزينى بركات بن موسى
مسايرة حافلة ، وركب معه جماعة من المباشرين ،
فشق من القاهرة بعد صلاة العشاء بأربعين درجة ،
وقدومه انكشارية وفواسة ومشاة بفوايس
ومشاعل كثيرة . فانطلقت له النساء بالزغاريت من
الطيفان ، وارتفعت له الأصوات من العوام
بالدعاء . وكانت من الليالى المشهورة . وارتجت
له القاهرة فى تلك الليلة ، وكان محببا للناس
قاطبة .

وفيه وقع من الحوادث أن شخصا من العشانية
كان فى خان الخليلى قد قبض على شخص من
العوام زعم أنه سرق من جيبه أربعة أنصاف ، فلما
قبض عليه طلع به الى ملك الأمراء ، فلما أوقفه بين
يديه قص عليه قصته وما فعله به فى خان الخليلى ،
وأنه قبض على يده وهى فى جيبه ، وأخذ من جيبه

وهو ماش أربعة أنصاف . فلما سمع ملك الأمراء ذلك رسم للموالى أن يقطع يده ، فقطع يده وعلقها في رفبته وأشهره في القاهرة . فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف ، وقد راحت ظلما !

وقد تقدم القول أن ملك الأمراء شنق رجلا على عيدان خيار شبر ، وكان ملك الأمراء يصبح وهو مخمور يحكم بين الناس بالعسف والظلم ، مما لا يسوع الشرع الحكم به ، وكان الغالب عليه الجهل وقلة الدين في أفعاله كلها

وفي يوم الخميس خامس عشره ، حصر شيخ العرب عبد الدائم بن بفر ، وكان ملك الأمراء أرسل اليه مندبل الأمان ، وخلعه بأن يستقر في شياخة الشرقية . فلما حضر وقابل ملك الأمراء تقدم اليه والده شيخ العرب الأمير أحمد بن بفر وبمسك ابنه عبد الدائم من طوقه بين يدي ملك الأمراء ، ثم التفت الى ملك الأمراء وقال له : يا ملك الأمراء متى أطلقت هذا صار في ذمتك الى يوم القيامة ، وخرب الشرقية عن آخرها . فتعصب للأمير أحمد خير الدين بك نائب القلعة ، وقال لملك الأمراء : « اذا كان أبوه يشكو منه فكيف تطلقه أنت ؟ » فساعده على ذلك سنان باشا ، فما وسع ملك الأمراء الا أنه وسعه في الحديد ، وسلمه الى خير الدين نائب القلعة .

ثم ان ملك الأمراء قبض على جماعة عبد الدائم الذين كانوا حضروا صحبته قاطبة ، وكانوا نحو ثلاثين نفرا من أعيان العربان ، ووضعهم في الحديد ، وأرسلهم الى السجن ، ثم أحضر قفطان حرير أخضر وخلعه على الأمير بيبرس ابن الأمير أحمد بن بفر ، وقرره في مشيخة الشرقية عوضا عن عبد الدائم وقد سر بمسك عبد الدائم كل أحد من الناس ،

فانه كان من المفسدين في الأرض ، ووقع منه أمور شنيعة من حين دخل ابن عثمان الى مصر ، وقطع الطريق على القوافل التي تأتي من الشام ، وقتل التجار وأخذ أموالهم ، وقتل جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا قد طفشوا في البلاد ، وأخذ سلاحهم وخيولهم . وقد فعل من هذه الأفعال القبيحة ما لا يحصى ، ووضع يده على خراج بلاد الأوقاف واستخرجها ، وفعل من هذا النمط أشياء كثيرة .

ثم ان ملك الأمراء أرسل صرب الحوطة على موجود عبد الدائم من صامت وناطق ، حتى على سواقيه وزروعه ومواشيه وثيرانه وأبقاره وغير ذلك ، والذي خبث لا يخرج الا نكدا

وفي يوم السبت سابع عشرى شهر رمضان نبت النيل المبارك على سب أصابع من سبع عشرة ذراعا ، وهبط سريعا ولم يزد في بابة غير خمسة أيام وتقص . وكان نيل شحيجا من مبداه الى منتهاه .

وفي ذلك اليوم نزل ملك الأمراء وشق من القاهرة ، وقد بلغه أن قاصدا حضر من عند الخنكار ابن عثمان فنزل الى ملاقاته . فلما شق من القاهرة ضجت اليه العوام من قلة الخبز في الأسواق ، وانطلقت الألس في حق ملك الأمراء بالكلام الفج ، وقالوا له انظر في أحوال المسلمين بنور الله تعالى والا يصير ذلك في ذمتك . فتكده ملك الأمراء في ذلك اليوم الى الغابة . وكان صحبته الزينى بركات ابن موسى المحتسب ، فقاسى في ذلك اليوم من ملك الأمراء ما لا خير فيه . وقال له : « قد غفلت عن الناس حتى صارت غلوة بمصر » .

ثم ان ملك الأمراء لما طلع الى القلعة ، رسم بفتح شونتين وأن تفرق على الطحانين ، ففعل ذلك .

وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان ، أرسل ملك
الأمراء أمير علم الى بيت الأمير قايتباي ، وقال له
قد رسم لك ملك الأمراء أن تدق على بابك في هذه
الليلة طبليخانات وكنوسات . فلما سمع ذلك الأمير
قايتباي أرسل يقول للملك الأمراء : « أدق الطبليخانات
على بابي دائما ، والا في هذه الليلة فقط » ؛ فلما
عاد الجواب الى ملك الأمراء قال : قل له في هذه
الليلة فقط . فلما بلغ الأمير قايتباي ذلك لم يوافق
على دق الطبليخانات على بابه في هذه الليلة فقط ،
وقال : « أدق الطبليخانات على بابي ليلة واحدة
حتى تضحك على الناس ؟ » . وامتنع من ذلك
ولم يدق الطبليخانات على بابه في تلك الليلة .
وقد بطل أمر دق الطبليخانات على أبواب الأمراء
من حين دخل ابن عثمان الى مصر وقد قلت في
ذلك :

لهفى على الكاسات قد دقت على

باب بسعد اميره قد بشرا

وفي شهر شوال كان عيد الفطر يوم الأربعاء ،
فخرج ملك الأمراء وصلى صلاة العيد في جامع
القلعة وخطب به فاضى الفضاة كمال الدين التسامى ،
وانفض موكب العيد كأنه لم يكن ، ولم يحل فيه
ملك الأمراء على أحد من أرباب الوظائف ،
ولا على قضاة القضاة ، ولا على أحد من المباشرين
ولا على الأمير قايتباي الدوادار . وبطل ما كان
يعمل في يوم العيد من تلك المواكب الجليلة
والخلع المتترات ، والتشاريق السنينة . وبطلت
تلك الطرز اليلغاوية العراض ، والفوقانيات
الحرير الأخضر ، وبطلت أشياء كثيرة كانت من
شعار المملكة . ووقع لى في المراثية التي قلتهما في
مصر أبيات في معنى ذلك وهي :

لهفى على أعياد مصر كيف قد
أفنت تشاريقا بها ومتمرا

وكذا الكنايتى التى قد زخرفت
كانت تشد خيولها عند السرى

وكذا السروج المفرقات بلسمها
كانت كبرق أو كيليل أقسرا

زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بها تزهر على كل القسرى

ثم نزل الزينى بركات بن موسى من القلعة في
موكب حافل ، وخدامه الماللية والمشاعل بالقوط
الزركش عليها ، والانكشارية بالقوط قدامه ،
والقواسم قدامه متساء . فشق من القاهرة في ذلك
الموكب .

وفي يوم الخميس ثانى شوال طلع جماعة من
أعيان المباشرين الى القلعة على جارى العادة ، فلما
تكاملوا أخرج اليهم ملك الأمراء مرسوم الخنكار
ابن عثمان الذى أرسله على يد صوباشى من
العشانية ، السدى تقدم ذكر حضوره من البحر
المالح . وكان من مضمون ذلك المرسوم أنه أرسل
يطلب خمسة من المباشرين يتوجهون الى اسطنبول
وهم : العلائى على ناظر الخواص الشريفة ،
والشرقى يونس النابلسى ، والقاضى بركات أخو
القاضى شرف الدين الصغير كاتب الرجى ، والقاضى
فخر الدين بن عوض ، والقاضى أبو البقاء ناظر
الاسطبل . وأرسل يطلب الأمير يوسف البدرى
الوزير الذى كان كاشف العريية وأرسل يطلب
الشرقى يونس نقيب الجيش ... فلما تحققوا ذلك
اضطربت أحوالهم ، ورسوا عليهم بالقلعة ، وقالوا
لهم اكتبوا وصاياكم ، ويوم الجمعة تسافرون من
البحر .

ثم في ذلك اليوم خلع ملك الأمراء على القاضى
شهاب الدين بن الجيعان ، واستقر به في كتابة السرى

عوضا عن علاء الدين ناظر الخاص . وخلع على القاضي شرف الدين بن عوض أخى فخر الدين ، واستقر به فى كتابة الخزانة ومتحدثا فى جهات الشرقية . وخلع على القاضي بركات بن موسى وقرره فى الحسبة على عادته ، وجعله متحدثا على الاستدارية عوضا عن يونس النابلسى ، وأشرك معه الشرفى يونس النابلسى استادار ملك الأمراء ، وخلع على القاضي أبى بكر بن الملكى وقرره على عادته مستوفى ديوان الجيش ، وخلع على يوسف ابن تقيب الجيش واستقر به فى نيابة الجيش عوضا عن أبيه . فخلع على هؤلاء الجماعة فى يوم واحد ونزلوا من القلعة وعليهم القفاطين الحرير .

وفى يوم السبت رابع شوال نزل ملك الأمراء من القلعة وسار نحو بركة الحاج وصحبته الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير سنان باشا وفائق بك ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، وجماعة من المماليك الجراكسة . ولما وصل إلى سبيل علان ساق قدامه الركاب بالخيول الجنائب ، وسأقت معهم خيول الأمراء ، فسبق فرس الأمير قايتباى الدوادار فرس سنان باشا .

قيل ان هذه عادة عند العثمانية أنه فى أيام العيد يخرج الخنكار ويسير فى الفضاء ، ويسوقون قدامه بالخيول ، فمن سبق فرسه ينعم عليه الخنكار بمائة دينار ، والذي تقصر فرسه عن السباق ينعم عليه ببطيخة ، وهذا من أنواع المماجنة . فانشرح ملك الأمراء فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفيه قبض ملك الأمراء على الخواجا شهاب الدين أحمد بن أبى بكر السكندرى ، ووضع فى الحديد ، وقرر عليه مالا له صورة . وأشيع أن الخنكار أرسل بطلبه الى اسطنبول ، فاضطربت أحواله بسبب ذلك الى الغاية .

وفيه خلع على محيى الدين بن يوسف بن أبى أصبع ، وقرره على عادته استادار الذخيرة الشريفة . وفى يوم الجمعة عاشره حضر القاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك الى الميدان ، وعرض جماعة من أولاد الناس ومن المماليك ، وكتب منهم جماعة بأن يتوجهوا الى عقبة أيلة ، وقيموا بالأزلم ... فكتب منهم جماعة فى ذلك اليوم نحو ستين انسانا أو فوق ذلك . فحصل لأولاد الناس بسبب ذلك غاية الضرر لأجل قلعة العليق ... وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الانشحات من قلعة العليق ، وعدم الجمال بسبب خروج الحجاج . وفى يوم السبت حادى عشره نزل ملك الأمراء وجلس بالميدان ، وعرضت عليه كسوة الكعبة الشريفة ومقام ابراهيم والمحمل ، وشقوا بهم من القاهرة . وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الأحد ثانى عشره أشيع أن ملك الأمراء أفرج عن القاضي نور الدين على الفيومى الحنفى ، وكان له مدة وهو فى الترسيم بالقلعة ، بسبب مكتوب ثبت عليه ، وكان غير محمود السيرة فى أفعاله ، وجرت له وقائع كثيرة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره أنفق ملك الأمراء على العساكر الذين تعينوا للعقبة والأزلم ، فأعطى لكل واحد منهم جامكية ثلاثة أشهر معجلا ، وهى عبارة عن ستة آلاف درهم . وقيل رتب لكل واحد منهم فى كل يوم رطلين بقسماطا تصرف لهم فى العقبة ، ورسم لهم بأن يجيئوا مع الحجاج اذا حضروا الى القاهرة . وتوجه هذا العسكر الى هناك لأجل حفظ ودائع الحجاج ، وملاقاتهم التى تتوجه لهم من مصر . فان العربان تزايد فسادهم فى حق الحجاج ، وأرسلوا يطلبون لهم نجدة عند عودهم الى مصر .

وفي يوم الأربعاء خامس عشره رسم ملك
الأمراء بشنق عشرة أنفار من جماعة عبد الدائم بن
بشر ، فانهم كانوا من المفسدين ، فشنعوا وعلقوا في
أماكن شتى من القاهرة ، فشىء في قنطرة الحاجب ،
وشىء في رأس الحسينية ، وشىء في باب النصر .
وقد وسطوا منهم جماعة ، وشنعوا منهم جماعة ،
وشىء خورقوهم .

وفي يوم الجمعة سابع عشر شوال أنزلوا من
القلعة جماعة من المباشرين ممن كانوا في الترسيم .
وودع تقدم التول أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول ،
فأنزلوهم من القلعة بعد صلاة الصبح : منهم من
هو راكب على بغلة ، ومنهم من هو راكب على
حصار . فشنعوا بهم من الصليبه وتوجهوا بهم الى
بولاق ، وحولهم جماعة من الانكشارية مشاة
باليوسف في أوساطهم . والصوباني الذي هو
متسفر عليهم راكب قدامهم . فكثر عليهم الأسف
والحزن والبكاء من الناس ... فكانت عندهم سبع
أنفس ، وهم : القاضي علاء الدين بن الامام ناظر
الخاص ، والشرفي يونس النابلسي الاستادار ،
والقاضي بركات أخو شرف الدين الصغير كاتب
الممالك ، والقاضي فخر الدين بن عوض ، والقاضي
أبو البقاء ناظر الخاص والأسطبل ، والشرفي يونس
نقيب الجيش ، والأمير يوسف البدرى وزير الديار
المصرية ، وأصله من ممالك الأمير يشبك بن مهدي
الدوادار ، كان قدمه للأشرف قايتباي ، ولا زال
يترقى حتى رأى من العز والعظمة غابة العلاء ،
وجرت عليه بعد ذلك شدائد ومحن ، وآخر الأمر
نفي الى اسطنبول .

فلما وصل هؤلاء الى بولاق نزلوا بقصر ناظر
الخاص الذي هناك حتى تنتهي أشغالهم ، فحصل
لنساء القاضي أبي البقاء والقاضي أبي البركات
كاتب الرجس على أزواجهن غاية الحزن ، فقمعن

لنعيهم ودققن عليهم بالطارات ، وكذلك زوجة
يوسف البدرى وبغية المباشرين . وكانت هذه
الحادثة من أشنع الحوادث التي لم يقع قط مثلاً
فيما مضى من الزمان . فاستمروا بقصر ناظر الخاص
بيولاقي الى يوم الاثنين عشرين شوال ، فنزلوا
وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية .

وكان هؤلاء المباثرون لما صفا لهم الوقت
طاشوا وصاروا كأنهم هم المملوك بمصر ، يتصرفون
في أمور المملكة بما يختارونه ليس على يدهم يد
واستغرقوا في اللذات ، وعكفوا على شرب
الخمور ، وسماع الزمور ، ولم يتفكروا في
عواقب الأمور ، فاستمروا على ذلك حتى طرقتهم
الأخبار الردية ، وأحاطت بهم كل رزية ، فكانوا
كما قيل في المعنى :

من يرتشف صفو الزمان

ن بغص يوما بالكدر

ثم في عقيب ذلك سافر الى اسطنبول الناصري
محمد بن الورد لاعب الشطرنج ، ورفيقه الشهابي
أحمد الاسكندراني . وقيل ان الخنكار سليم شاه
أرسل يطلبهما الى اسطنبول على لسان الخواجا
يونس العادلي ، وأرسل لهما مبلغاً له صورة بسبب
كلفة السفر ، وعمل الزوادة .

ويقال ان جماعة من المباشرين الذين توجهوا الى
اسطنبول سألوا ملك الأمراء بأن يعطوه مالا له
صورة ويعفيهم من السفر الى اسطنبول ، فما قدر
على ذلك .

وفي يوم السبت ثامن عشر شوال خرج المحفل
الشريف من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان أمير
الركب الزيني بركات بن موسى المحتسب ، فخرج
بطلب حافل ، فكان ما اشتمل عليه الطلب خمس
عشرة نوبة من الهجن ، عليها أكوار ، ما بين مخمل

ملون وجوخ أصفر ، وبعض جنائب بيركتوانات فولاذ ، وطبول ومحفطين جوح لنسائه ، وتلات خزائن على العادة ، وكاسات على العادة وطبلين وزمرين ، وعلى رأسه صنجق عثمانى حرير أحمر . وركب صحبته جماعة من المباشرين الذين تأخروا بمصر ، وهم : الشهابى أحمد بن الجيعان ، والقاضى شرف الدين الصغير كاتب الممالك ، والقاضى تقى الدين أبو بكر بن الملكى ، والقاضى عبد العظيم الصيرفى ، وآخرون من المباشرين . وكان قدامه انكشارية ورماة وقواسم نحو مائتى انسان ... فلما شق من القاهرة دعا له السوام ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فلهج الناس بأن ذلك سيكون آخر سعيه . وخرج فى هذه السنة حجاج كثيرة وغالبهم فلاحون وريافة .

وأشيع أن العربان وقفت لهم فى الطريق ، وأن الغلاء موجود معهم من حين خرجوا من مصر ، وكذلك العليق كان مشحوتا . فلما خرج الحجاج وقف جماعه من أولاد الناس ، والمماليك الذين عينوا الى العقبة الى ملك الأمراء ، وشكوا له من عدم الجمال وأنها لم توجد . فرسم بإبطال جماعة منهم نحو ثلاثين انسانا . وكان الذين تعينوا فى الأول نحو ستين انسانا أو فوق ذلك

وأشيع أن أرباب الأدراك من العربان وقفوا الى القاضى بركات بن موسى بسبب عاداتهم من الصر ، فنفر فبهم ونهرهم وسبهم ، فخرجوا من عنده على غير رضا ، وقيل ان ناظر الخاص لما حج فى السنة الخالية أنعم على العربان وأرباب الأدراك بألف جوخة حتى رجع بالحاج وهو سالم ويض وجهه عند الناس .

وفى شهر ذى القعدة وكان مستولاد يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالسهر ، فلما تكامل المجلس وقع تشاجر بين قاضى القضاة المالكى محبى الدين يحيى الدميرى ، وبين قاضى القضاة نور الدين على الطرابلسى الحنفى ، فتفاوضا الكلام فى ذلك حتى خرجا عن الحد بسبب وقفه الأمير شبك بن مهدى الدوادار الكبير ، فانه شرط فى وقفه النظر والتكلم للأمير تغرى بردى الاستادار ، وانه يدخل من شاء ويخرج من شاء من المستحقين ، ويستمر ذلك حتى يتوفى الأمير تغرى بردى . فسعت ابنة الأمير شبك عند قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة فى ابطال ما كان شرطه والدها للأمير تغرى بردى ، ويجعل لها النظر على ذلك والتحدث على وقف والدها ، فحكم بنفسه فى ذلك ، وقد ساعدها على ذلك السلطان الغورى . فلما ثبت ذلك على يد القاضى عبد البر وحكم بما فيه ، أبطل ما كان اشترطه الأمير شبك لتغرى بردى .

فلما توفى قاضى القضاة عبد البر ، وتوفيت ابنة شبك ، سعى جماعة من معاتيق شبك الدوادار لتغرى بردى ، فحكم بصحته وتبع فى ذلك شرط الواقف . فلما جرى ذلك عز على بقية القضاة ذلك لكونه نقض حكم قاضى القضاة عبد البر . فحضر فى ذلك اليوم شخص من أولاد عبد البر ، وقال لقاضى القضاة نور الدين الطرابلسى : « أتقض حكم شيخ الاسلام عبد البر وأنت من بعض طلبته » ؟ وساعده قاضى القضاة على ذلك ، وحط عليه ملك الأمراء خاير بك ، وكان المجلس كله عليه ، فما وسعه فى ذلك المجلس الا أنه قال : « رجعت عن حكمى ، وأبقت حكم قاضى القضاة عبد البر على ما كان عليه » . فشهدوا عليه فى ذلك المجلس بإبطال ما كان حكم به ، فعد ذلك منقصة

في حق قاضي القضاة نور الدين الطرابلسي ، ولامه الناس على سرعة نقضه لحكمه في الحال ... فعد ذلك من النوادر الغريبة . وصارت الوحشة عمالة بين قاضي القضاة المالكي والحنفي في الباطن ، فنزل قاضي القضاة الحنفى من القلعة في ذلك اليوم وهو في غاية التعس

وفي عقيب ذلك عزل قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل نوابه أجمعين ، ولم يبق منهم سوى أربع أنفس لا غير ... فاستمروا على ذلك مدة . ثم انه فوض لجماعة من أعيان نوابه ممن اختاره .

وفي مستهل هذا الشهر خلع ملك الأمراء على القاضي عبد العظيم الصيرفي وقرره في نظر الحسبة عوضا عن الزينى بركات بن موسى الى أن يحضر من الحجاز . فلما ولي القاضي عبد العظيم أمر الحسبة أظهر النتيجة العظمى في انحطاط سائر أسعار البضائع بعدما كانت تشحطت الأسعار في تلك الأيام ... وصارت غلوة كبيرة ببصر ، واضطربت أحوال الناس ، وارتفع الخبز من الأسواق ، وغلقت الطواحين ، وارتجت القاهرة بسبب ذلك .

وكان عقيب ذلك خروج الحجاج ، وسافر المحتسب ، فجارت السوق على الناس في سائر البضائع . فلما ولي القاضي عبد العظيم صار يطوف القاهرة كل يوم ثلاث مرات ، وشرع يضرب الطحانين والخبازين ضربا مبرحا ، ويشهرهم في القاهرة ، وصار يوعدهم والزياتين بالشنق والخوزقة ، حتى انحطت أسعار البضائع قليلا ، وسكن ذلك الاضطراب الذي كان بمصر .

ثم رسم للجبانين والسماكين بأن يقلوا بالسيرج الطرى دائما ، وكتب قسائم على المعصرانيين ألا

يصنعوا الزيت الحلو أبدا . ثم نادى في القاهرة بتسعير اللحم الضانى والبقرى والجبن وسائر البضائع ، ثم سعر الدقيق وجعل كل بطة بثلاثة عشر نصفا ، وكانت البطة الدقيق وصلت الى ستة عشر نصفا ، فنفع الناس غاية النفع بعد ما صار بمصر غلوة شديدة . فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة . ثم أحضر القزازين والتجار وعمل معدلهم في بيع الغزل والمقاطع الخام وسائر القماش الأبيض قاطبة . فهابته التجار والسوق ، ودخل في الحسبة دخولا مهولا ، وصار له حرمة وافرة وكلمة نافذة .

وفيه توفي الأمير ماماي أمير آخور ثانى كان . وكان من الأمراء الطبلحانات ، وأصله من مماليك الأمير تانى باي أمير آخور كبير . وكان موته فجأة على حين غفلة ، وقيل انه كان صحبة جماعة من العثمانية فوق بينهما تشاجر ، فضربه ، أحدهم فمات في ليلته .

وفيه ثارت العثمانية على ملك الأمراء وقالوا له : « زد في جوامكنا والا أعطنا دستورا نرجع الى بلادنا ، فانا اشتقنا الى بلادنا وعيالنا ، وان في مصر غلاء ، وكل شيء غال ، وهذه الجوامك ما تكفيننا » . فوعدهم أنه يرسل يشاور الخنكار ، وأمهلهم الى شهرين . وكان القائم في هذه الحركة جماعة الأصباهية .

وفيه قدمت الأخبار من بلاد الصعيد بأنه قد فشا الموت هناك في الأبقار والأغنام ، فمات منها ما لا يحصى عدده ، ووقع مثل ذلك بالشام ونواحيها ، ووقع مثل ذلك بجهات الشرقية والغربية ... وزيادة على ذلك ان الدودة رعت البرسيم من أرض الجيزة وغيرها من الأراضي التي زرعت بدريا . ووقع في أواخر هذه السنة تشحيط عظيمة في سائر الغلال .

وفي يوم الأربعاء سادسه رسم ملك الأمراء
بشنق ستة أنفار من جماعة عبد الدائم بن بفر ،
فشنقوا في عدة أماكن .

وفي يوم السبت تاسعه بودي في القاهرة بأن
لا أحد من الناس يصنع خيال الظل ، ولا مغاني
عرب ، ولا غير ذلك ، ولا يبطيء بزفة عريس الى
بعد العشاء ، ولا يمشي في الأسواق من بعد
العشاء ، وأن الأسواق تغلق من بعد المغرب
وسبب ذلك أن العثمانية صاروا يشوشون على
الناس في الليل ، ويخطفون العمائم والتدود ،
ويخطفون النساء والمردان من الطرقات ليلا
ونهارا ، وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل ،
وصارت المماليك العثمانية تؤدى الناس ، وصارت
الطرقات من بعد المغرب مقفرة من قلة السالك بها ،
وصار على الوجود خدمة

وفيه قدمت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن
الجماعة الذين توجهوا هناك من المباشرين ، لما
نزلوا في المراكب وسافروا في البحر المالح ، غابوا
فيه ثلاثة أيام ، ثم عادوا الى ثغر رشيد . وسبب
ذلك أنه في تلك الأيام ثار ريح عظيم فرد المراكب
من حيث جاءت ، فأقاموا في رشيد آناما حتى طاب
الريح ، ثم سافروا وقصدوا التوجه الى اسطنبول

وفيه أرسل القاضي بركات بن موسى المحتسب
يطلب من ملك الأمراء تجريدة تلاقيه من الأزلم
عند عود الحجاج ، فان العربان شوشوا على
الحجاج وأخذوا منهم جمالا محملة بما عليها من
الأحمال ، وحصل منهم غاية الفساد في حق الحجاج .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك نزل الى الميدان
وعرض جماعة من العساكر . وعين تجريدة تلاقى
الحجاج من الأزلم ، فكتب الى جماعة من المماليك

الجراكسة وجماعة من العسكر وجماعة من أولاد
الناس ، واستحثهم في سرعة الخروج الى الأزلم .

وفي يوم الاثنين خامس عشره نزل ملك الأمراء
من القلعة بعد صلاة الصبح ، وعدي الى بر الجيزة ،
وتوجه الى نحو شبرامنت وقناطر العشرة ، وذلك
على سبيل التنزه ، فصنع له الشهابي احمد بن
الجيعة هناك مدة حافلة ، وكذلك القاضي شرف
الدين الصغير كاتب المماليك . وكان صحبتة الأمير
فايتباي الدوادار ، والأمير أرزمك الناشف ،
وسنان باشا ، وفائق بك ، وجماعة من الأمراء
العثمانية ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة
فاستمر هناك الى ما بعد العصر ، وركب وعدي
من بر الجيزة ، وطلع الى القلعة . وأشيع أنه كان
بين ملك الأمراء وبين الأمير قايتباي الدوادار حظ
نفس في الباطن ، فعزم عليه هناك وزال ما كان
بينهما من تلك الوحشة ، وطامت الحواطر بينهما .

وفي يوم الجمعة سلخ الشهر خرج الأمير قايتباي
الدوادار ، وسافر الى نحو العباسية ، وسبب ذلك
أنه تغيب من المماليك الجراكسة من خشداشينه
لأجل تفرقة الأضحية ، فانها كانت غالية ومشحوة
ولا توجد .

وفي شهر ذى الحجة ، وكان مسنهله يوم السبت ،
طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك
الأمراء بالشهر ، وعادوا الى دورهم .

وفي يوم الخميس سادسه خرج العسكر المعين
الى الأزلم . وكان باش هذه التجريدة شخص
يسمى اياس ، فخرج مع العسكر

وفيه قدمت الأخبار من الصعيد بأن الأمير على
ابن عمر ، خرج يغزو صاحب النوبة ، وأن الصعيد
حواله مضطربة .

عثمان في سائر أفعاله » . وقطع الأضحية التي كانت تفرق في الأعياد .

وفي أواخر هذا الشهر وقع بين ملك الأمراء وبين الإصباهييه من عسدر ابن عثمان ، وقالوا له اعطنا دستوراً لنسافر الى بلادنا فانا اشتقنا الى بلادنا وعبالنا . فقال لهم حتى أرسل آشاور الحنكار . فقالوا نحن ما نصبر حتى تشاور . وأغلظوا على سنان باشا في القول ، وقالوا له هذا كله شغلك ، فانفق معهم ملك الأمراء أنه بعد مضي الشتاء يأذن لهم بالسفر والعودة الى بلادهم .

اتتهى ما أوردناه من أخبار سنة أربع وعشرين وتسعمائة وخرجت عن الناس على خير ، وكانت سنة كثيرة الحوادث ، منها خسة النيل ، ووقوع الغلاء في سائر البضائع والغلال ، واستمرت هذه التشحيطة تتزايد الى اواخر السنة ، ووقع من الحوادث نفى المباشرين الى اسطنبول ، وغير ذلك حوادث كثيرة تقدم ذكرها .

سنة خمس وعشرين وتسعمائة هجرية (١٥١٩ م) : كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنثوا ملك الأمراء بالعام الجديد ثم عادوا الى دورهم .

وفي يوم مستهل الشهر أمطرت السماء مطراً غزيراً ، فتفعل الناس بأن ذلك العام يكون مباركاً خصياً .

وفي يوم الخميس رابع المحرم ، وصلت من ملك الأمراء نائب الشام جان بردى الغزالي الى ملك الأمراء خاير بك مقدمة ليست بعظيمة أمر ، وهي أربعة أرؤس خيل ، وثمانية شقادات تشتمل على بطارمير ، ضمنها مخلل ، وفي بعض الشقادات

وفي يوم الجمعة سابعه خرج الأمير جانم الحمزاوي دوادار ملك الأمراء وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية ، وسبب ذلك أن ملك الأمراء أرسل على يده مقدمة حافلة الى شخص من أمراء ابن عثمان يقال له برى باشا ، وكان من أعيان أمراء ابن عثمان ، وكان مقيماً على البيرة ، وقيل بحلب . فلما خرج الأمير جانم الحمزاوي ووصل الى العكرشا ، وردت عليه الأخبار من هناك بأن الأمير برى باشا الذي خرج بسببه قد توجه الى نحو اسطنبول ، وقد تغلب عليه العسكر الدين كانوا على البيرة من الغلاء وشدة البرد ، فرجع الى اسطنبول الى أن يذهب الشتاء . فلما تحقق الأمير جانم الحمزاوي رجوع الأمير برى باشا الى اسطنبول ، أرسل يشاور ملك الأمراء في أن يرجع الى مصر أو يسافر الى حلب ، فرسم له ملك الأمراء بالعود الى مصر ، فرجع من العكرشا ، وصحبته المقدمة التي عينت لبرى باشا .

ومن الحوادث أن ملك الأمراء رسم للوالى بأن ينادى في القاهرة بسد قناطر الحروبى الثلاث ، فورعوا سد هذه القناطر على السكان الذين ييوتهم فوق السور . فحصل للسكان الذين ييوتهم فوق السور غاية الضرر من مصروف العمارة على ذلك . وأشيع سد قناطر السباع أيضاً ، وقنطرة الموسيقى ، ولم يعلم ما القصد من ذلك . فسدوا قناطر الحروبى الثلاث بالحجارة ، فعد ذلك من النوادر العرييه ، وكثر القيل والقال في ذلك .

وفي يوم الاثنين عاشره كان عيد النحر ، فلم يفرق ملك الأمراء على أحد أضحية ، لا على الأمراء ولا على العسكر ، وقطع ضحايا الفقهاء والمباشرين ، حتى ضحايا الزوايا والمزارات التي في القرافة وغيرها ، وقال : « أنا ما أمشي الا على طريقة ابن

كمثرى وتفاح وسواقه ، وأرسل ملك الأمراء جان بردى الى الأمير قايتباى الدوادار فرسا وأربع شقائف ، ومثل ذلك للأمير أرزمك الناشف ، ومثل ذلك الى جماعة من الأمراء العثمانية ، فشكروا له ذلك .

وفى يوم الجمعة خامس المحرم ، حضر مبشر الحجاج وأخبر بالأمن والسلامة لهم ، غير أن معهم الغلاء الشديد ، وموت الجمال ، فوصل كراء الجمل الى مائة وعشرين دينارا ، وأن مكة فيها غلاء شديد ، ونزل غالب من بها من المجاورين بسبب الغلاء ، وإن العربان جائرة فى الطرقات ، وكانت سنة صعبة شديدة على الحجاج .

وفى يوم الأحد سابع المحرم قدمت الأخبار من قطيا بأن والى قطيا وهو شحص من الأتراك يقال له قان بردى ، وأصله من مماليك الظاهر برقوق ، وفيل من مماليك الغورى قانصوه ، أرسل اليه ملك الأمراء انكشاريين يطالبانه بمال قطيا ، فلم يعطهما شيئا ، فأغلظا عليه فى القول وقالوا له نأخذك معنا فى الحديد الى ملك الأمراء ، فبطحهما على الأرض وضربهما بالمقارع حتى أشرفا على الموت وقيل مات أحدهما من الضرب . وقال لهما امضيا الى أستاذكما وقولا له ايش ما طلع من يدك افعله ، فحضر أحدهما وأخبر ملك الأمراء بذلك ، فلما سافرا من قطيا ، أخذ والى قطيا ماله وغلماؤه وتوجه الى جان بردى الغزالى فى غزة بسبب ملاقاته الحاج ، وقيل كان عند والى قطيا جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، فلما توجه الى الغزالى توجهوا معه اليه ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك خلع على شخص من الأتراك وقرره فى ولاية قطيا عوضا عن قان بردى بحكم عييته كما تقدم .

وفى يوم الأربعاء سابع عشره ركب عبد العظيم الصيرفى نائب المحتسب ، ونادى فى القاهرة بأن

أرباب الدكاكين من السوقه يبيضون دكاكينهم ويزخرفونها بالدهان ، ويبيضون آلات النحاس التى عندهم فى الدكاكين لأجل مجيء القاضى بركات ابن موسى المحتسب من الحجاز .

وفى يوم الأربعاء المقدم ذكره وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء نزل من القلعة وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وعزم على وردبش دوادار نائب الشام الذى حضر بالتقدمة ، فصنع له هناك مدة حافلة ، ونصب سييى له هناك سحابة عظيمة ، وحضر عنده الأمير قايتباى الدوادار ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، وحضر جماعة من الأمراء العثمانية منهم سنان باشا وفائق بك ، وحضر الأمير كمشبا والى القاهرة ، وجماعة من الجراكسة .

فلما انقضى أمر المدة أحضر ملك الأمراء سفرة الشراب ، فلما دارت عليهم الكاسات وطلع الحمر فى رءوسهم ، طفح ما كان فى قلوبهم من الغدر . فقال فائق بك لكمشبا والى : الجراكسة خائنون . وأجرى ذكر جان بردى الغزالى بما لا يليق فقال له كمشبا الله يعلم من هو الذى خان منا نحن أو أتم ، وقد كتبتم أمانكم فى أوراق وفرقتوها على الأمراء ووضعوها على رءوسهم ، وطلعوا اليكم بالأمان . فغدرتم بهم وقتلتموهم فمن خان منا نحن أو أتم . ثم تزايد بينهما الكلام الفج حتى خرجا فى ذلك عن الحد ، فوثب فائق بك على كمشبا والى بخنجر ليقتله فجاءت الضربة فى قفطانة فانخرق ، فوثب كمشبا على فائق بك ليقتله فحال بينهما الحاضرون .

ثم ركب كمشبا ، وركب جماعة من المماليك الجراكسة ، وسلوا سيوفهم ، وركب جماعة من العثمانية وسلوا سيوفهم ، وقصدوا الوثوب على بعضهم ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة تذهب فيها

الأرواح ، فتشكك ملك الأمراء لذلك وركب على
النور ، وحال بين الفريقين ، وخمدت هذه الفتنة
قليلا ، ورسم للعثمانية أن يمضوا على طريق مصر
العتيقة ، ومضى هو والأمراء الجراكسة على طريق
القرافة ، واستمر على ذلك حتى طلع إلى القلعة من
الميدان ، فما رأى نفسه في القلعة وفي عينه قطرة .
وقد اضطربت أحواله وخاف أن هذه الفتنة تتسع .
ف قيل انه حلف لا يشرب خمرًا في هذه السنة ،
واستمرت النفوس معمرة بالعداوة بين فائق بك
وبين كمشبغا الوالى ، وهذه الحادثة أول حوادث
سنة خمس وعشرين وتسعمائة .

ثم ان ملك الأمراء بعد وقوع هذه الحركة
انحجب عن الناس ثلاثة أيام ، لم يظهر لأحد من
شدة نكده مما قاساه في ذلك اليوم .

وفي يوم الاثنين ثانى عشرية خرجت المدورة
الى بركة الحاج بسبب الملاقاة ، فلما أقامت المدورة
هناك يوما وليلة أشيع أنها رجعت الى القاهرة ،
وسبب ذلك أن الزينى بركات بن موسى أرسل
هجانا الى ملك الأمراء وأخبره أن الحجاج وصلوا
الى عيون القصب ، وأنهم فى غاية ما يكون من
الأنكداء بسبب موت الجمال والغلاء وموافقة فتنة
العربان مع ذلك ، فتشكك الناس لذلك ، ورجع من
كان طلع الى بركة الحاج من الملافين .

وفي يوم السبت سابع عشرية حضر قاصد من
عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وحضر صحبته
الناصرى محمد الجلبى ، مهمندار ملك الأمراء ،
الذى كان توجهه صحبة التقدمة المتقدم ذكرها ،
وهى التى أرسلها ملك الأمراء الى ابن عثمان .

وحضر قاصد الأمير على بن عمر شيخ عربان
بجهاز الصعيد ، وكان قد توجهه صحبة التقدمة
التي أرسلها الى ابن عثمان ، فلما بلغ ملك الأمراء

وصول القاصد الى سرياقوس نزل من القلعة وتلقاه
من تربة العادلى التى بالمطرية . وخرج صحبه
الأمراء العثمانية ، والأمراء الجراكسة ، وأعيان
المباشرين ، والعسكر العثماني ، والافكشارية قدامه
مشاة يرمون بالنفوط . فلما وصل الى تربة العادل
نزل وجلس على المصطبة التى هناك . ثم حضر
القاصد وأخرج ققطانا مخملا تماشيح على أحمر
أرسله اليه الخنكار ابن عثمان بالاستمرار على
نيابة مصر ، فلبسه ملك الأمراء وقبل الأرض
مرارا . وأرسل ققطانات تماشيح الى فائق بك ،
وسنان باشا ، وخير الدين بك نائب القلعة ،
وأرسل ققطان تماشيح الى الأمير قايتباى الدوادار
باستمراره فى الدوادارية فلبسه .

ثم ركب ملك الأمراء من هناك ودخل من باب
النصر ، ونشق القاهرة فى موكب حافل ، ولقاه
قضاة القضاة الأربعة من باب النصر ، ثم مشى
طائفة النصارى قدامه بالشموع . وكان ذلك يوم
السبت فلم تحضر طائفة اليهود فى ذلك اليوم ،
واستتر فى ذلك الموكب الى أن طلع القلعة وكان
ذلك اليوم مشهودا .

فلما أقام القاصد أياما أشيع بين الناس أنه حضر
يطلب طائفة الاصباهية التى بمصر ، وأشيع أن
الخنكار ابن عثمان أرسل تقدمة حافلة الى الأمير
على بن عمر شيخ عربان الصعيد ، وأرسل اليه
ققطان تماشيح باستمراره على عادته ، ورسم بأن
التقدمة والققطان تتوجه اليه صحبة قاصده الى
الصعيد ، فتضاعفت عظمة الأمير على بن عمر بسبب
ذلك .

وفي يوم الأحد ثامن عشرية نزل الحاج بالبركة ،
وحضر المحمل الشريف صحبة القاضى بركات بن
موسى المحتسب أمير الجاج ، فتغدى فى بركة

الحاج ، وتوجه الى مدرسة السلطان الغورى ، فلما طلع النهار من يوم الاثنين تاسع عشره ، ركب من هناك وطلع الى ملك الأمراء وقابله فخلع عليه فبطانا محملا احمر مدهبا ، ونزل من عنده وشق القاهرة في موكب حافل ، وقدمه جماعة من الانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، فكانوا نحو مائتى انسان ، فشق الزينى بركات من القاهرة وهو لابس عمامة هوارية على زنط ، وهو ضارب لثاما .

ثم أشيع بين الناس أن الحجاج قاسوا في هذه السنة مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال وقلة العليق ، وكانت سنة صعبة شديدة بفساد العربان والغلاء ، وقد منعوا مبشر الحاج من الدخول الى القاهرة .

ثم أشيع وفاة الطواشى الأمير بشير رأس نوبة السقا ، وكان قد توجه الى المدينة الشريفة من حين دخل ابن عثمان الى القاهرة ، فتوجه صحبة قاضى القضاة الشرفى يحيى بن البردينى شيخ الحرم النبوى ، فأقام هناك الى أن مات ودفن بالمدينة وأشيع موت آخرين من الأعيان .

وكان غالب الناس قطع وجزم بعدم عود الزينى بركات بن موسى الى القاهرة . فانه حمل ما لا يطيق ، حيث طلع الى الحجاز أمير حاج ، وكانت هذه الوظيفة للأمراء المقدمين ، وكانت هذه السنة شديدة صعبة من فساد العربان في طريق الحجاز وشدة الغلاء وموت الجمال ، فأعانه الله على ذلك ، ورجع مع السلامة

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن جماعة من الاصباكية غاروا على صبية ، فلما توجهت الى غيرهم كبسوها بالوالى في ذلك المكان الذى كانت فيه وزعموا أنها كانت عند شخص نصرانى ،

فقبضوا عليها وعلى ذلك النصرانى ، فلما عرضوا على ملك الأمراء رسم بأن تعرى المرأة من آتوابها ، وتكتف أيديها وأرجلها ، وأن تربط من رجليها في ذنب اكديش ، وتسحب على وجهها من الكداشين الى باب زويلة ، ففعلوا بها ذلك وشقوا بها من القاهرة ، وفصدوا شنقها على باب زويلة ، فقبل انها ماتت في أثناء الطريق ، وقيل بل غرقوها في البحر عند الجزيرة الوسطى ، وقد مضى أمرها ، وقد قاست ما لا خير فيه حتى ماتت .

واستهل شهر صفر يوم الثلاثاء ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة وهناك ملك الأمراء بالشهر تم عادوا الى دورهم .

وفي أوائل هذا الشهر قدمت الأخبار من ثغر الاسكندرية مع بعض تجار البنادقة ، أن جماعة من المباشرين الذين خرجوا من مصر وتوجهوا الى اسطنبول في البحر المالح ، لما وصلوا الى قرب جزيرة اقريطش خرجت عليهم طائفة من الفرنج الروادسة الذين هم أشد طوائف الفرنج ، فتحاربوا مع الجماعة العشائية الذين خرجوا صحبة المباشرين ، فقتلوا منهم جماعة ومن جملتهم الخواجا هاشم ، وكان من أبناء العجم ، وكان من أخصاء ملك الأمراء خاير بك ، وكان قرره في نظر المارستان ونظر جهات الجوالى ، فقتل في هذه المعركة . وكان قصده أن يتوجه الى الخنكار صحبة المباشرين .

فلما خرجت عليهم الفرنج تحارب معهم حتى قتل في المركب التى كان فيها الشرفى يونس النابلسى الاستادار ، والقاضى بركات كاتب الرجوع أخو القاضى شرف الدين الصغير كاتب الممالك ، وكان بهذه المركب يوسف البدرى الوزير ، والناصرى

الدعاء من الناس ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب
ينقلبون ، وكان كما يقال فى الماضى :
فاستغن بالسمع عن مرآهمو عظة

فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم

وصاروا يفتحون على الناس أبوابا من المظالم
شيئا بعد شيء ، ووضعوا أيديهم على البلاد قاطبة ،
حتى على الأوقاف التى على الجوامع والمساجد
والزوايا ، وضاع على الناس حراجهم وحصل لهم
الضرر الشامل ، ثم انهم أبطلوا الاقطاعات التى
بالمناشير ، وأدخلوها فى ديوان السلطان ، ثم فى
السنة الثانية أوقفوا الرزق التى بالمربعات الجيشية
التى بيد أولاد الناس والنساء وغير ذلك ، وصاروا
يضعون أيديهم على بلاد الأوقاف ، ويستخرجون
منها الأموال ولا يفرجون عنها الا بعد جهد كبير
لمن يأخذون برطيلة .

وكانوا اذا قرروا مع ملك الأمراء شيئا من أمر
البلاد يطاوعهم على الفساد ، ويقول لهم افعلوا
ذلك ، وهو فى أيديهم مثل اللولب يدورونه كيف
شاءوا ، وكان الوقت قد صفا لهم ، وصاروا
يتصرفون فى أحوال المملكة بما يختارونه ، فأخذهم
الله أخذا وبيلا ، ولم يجدوا لهم من الله سبيلا ،
وتكدرت معاشهم بعد الصفا ، وخابهم الدهر بعد
الوفا ، وقد قلت :

اذا صفا الدهر يوما الى التكدر يرجع

هل من ليب تراه بأيسر الرزق يقنع

فليغبر من يشاهد لمصرع بعد مصرع

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن الحاج
الشامى قد استولت عليه الأعراب وعوقوهم عن
الدحول الى البلاد الشامية ، ونهبوا أموالهم
وجمالهم ، وغنموا منهم أموالا لها صورة ، فلما بلغ

محمد بن الورد لاعب الشطرنج أيضا ، فلما خرج
عليهم الفرنج رموا على مركبهم بالمدافع فانخرقت
وغرقت ، وغرق كل من كان فيها من المباشرين ،
وغيرهم ، فغرقوهم وأموالهم التى كانت معهم
جميعا ، فغرق الشرفى يونس النابلسى الاستادار ،
وبركات كاتب الرجج ، ويوسف البدرى الوزير ،
ومحمد بن الورد لاعب الشطرنج ، وقيل سلم من
الغرق مع رفيقه أحمد الاسكندراني .

ثم أشيع بأن المركب التى كان بها علاء الدين
ناظر الخاص ، وفخر الدين بن عوض ، والقاضى
أبو البقاء ناظر الاسطبل ، والشرفى يونس نقيب
الجيش ، وأحمد الاسكندراني لاعب الشطرنج ،
سلمت من الغرق ، فسار بها الهواء الى نحو جزيرة
افريطش ، فخرجوا وهم عراة حفاة مكشوفو
الرءوس ، ومشوا نحو سبعة أيام حتى أعيوا من
المشى وتورمت أقدامهم ، وأشرفوا على الموت
مرارا . وأما الشرفى يونس نقيب الجيش فانه مرض
هناك ومات ودفن بجزيرة اقريطش ، وأما علاء الدين
ناظر الخاص ، فانه مرض وعجز عن المشى حتى
حمله بعض الفرنج على أكتافه . وكذلك أبو البقاء
ناظر الاسطبل ، وفخر الدين بن عوض فاستمروا
على ذلك سبعة أيام حتى وصلوا الى صاحب جزيرة
اقريطش ، فلما رآهم أحسن اليهم وكساهم ،
وأقاموا عنده مدة طويلة ، ثم جهزهم وأرسلهم الى
اسطنبول ، هكذا أشيع والعلم لله تعالى .

فلما ثبت موت هؤلاء المباشرين خرج نعيمهم
وطيف بالقاهرة ، ودقوا عليهم بالطارات ، وكان
هؤلاء المباشرون تزايد ظلمهم على أولاد الناس ،
وضيقوا عليهم بسبب أرزاقهم ، وأوقفهم
واقطاعاتهم . ولا سيما ما فعله فخر الدين بن عوض
فى جهات الغربية من وجوه الظلم ، فكثر عليهم

مثل قوله ، فكثير بينهما القيل والقال بسبب ذلك ،
وقد دبت عقارب الفتن بين الاصباهية وبين سنان
باشا وفائق بك ، وأوعدوا سنان باشا بالقتل غير
ما مرة .

وفي شهر ربيع الأول — وكان مستهل الشهر
يوم الخميس — طلع القضاة الأربعة الى القلعة
وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .
وفي يوم الاثنين خامس الشهر . نزل ملك
الأمراء الى الميدان وعرض الاصباهية وعلم من فقد
منهم ومن بقى ، ثم ظهر له ما كان يأخذه سنان باشا
وفائق بك من جوامك الاصباهية وليس لهم وجود ،
فظهر زيفه في هذه الحركة .

وفي يوم الخميس ثامن الشهر قبض ملك الأمراء
على طيلان رأس نوبة ، وضربه بين يديه بالمقارع
في الحوش ضربا مبرحا ، وكان سبب ذلك أن أخت
السلطان طومان باى رافعته ، وذكرت أن السلطان
طومان باى أودع عنده ثمانية آلاف دينار ، فأنكر
طيلان ، وحلف أنه ما أودع عنده شيئا من ذلك ،
فلما تزايد الأمر من أفواه الناس بسبب هذه
الوديسة ، وصار طيلان ينكر ذلك ، حنق منه ملك
الأمراء وأمر بضربه بالمقارع ، وهو لم يفر بشيء .
فنزل من القلعة وهو في الترسيم حتى يحقق
ذلك .

وفي يوم الأحد حادى عشره مع ليلة الاثنين ،
كان المولد الشريف النبوى ، فجلس ملك الأمراء
في المقعد الذى فى الحوش السلطانى ، واجتمع
عنده بعض المباشرين ، وخير الدين نائب القلعة ،
وبعض أمراء عثمانية ، واجتمع عنده من القراء
والوعاظ ثلاث عشرة جوقة ، ثم فى أواخر النهار
مد سباطا لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وأين هذا

الأمير جان يردى الغزالى ذلك ، خرج الى العربان
من يومه ، وخرج صحبته نائب غزة بعساكر غزة ،
ونائب الكرك ، فاقتتل مع العربان وانتصر عليهم ،
وقتل منهم جماعة كثيرة ، وغنم أموالهم وما كانوا
غنموه من الحاج الشامى ، وهو شيء لا ينحصر ،
فاحتاط على جميع ما معهم ، وهربوا من وجهه الى
الجبال ، وخلص ما كانوا أسروه من رجال ونساء
وصبيان وغلمان ، فكان له الشكر على ذلك .

وفيه تزايد الضرر من الاصباهية فى حق الناس ،
وصاروا يخطفون النساء من الطرقات ، وكذلك
الصبيان المرد ، حتى قيل انهم خطفوا امرأة عند
سلم المدرسة المؤيدية تحت دكان الذى يبيع
الكعك ، والناس ينظرون اليهم وهم يفسفون بها ،
فلم يجسر أحد من الناس أن يخلصها منهم ، ثم
صاروا يقطعون الطرقات على نساء المسلمين ، وعلى
البياعين ، وصار أهل مصر منهم فى غاية الضنك
والامر لله تعالى .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره نزل ملك الأمراء
الى الميدان ، وأحضر سنان باشا أغات الاصباهية
وقد صار بينه وبينهم وحشة بسبب جوامكهم ،
فكان يأخذ من ملك الأمراء المال ولا يصرف لهم
شيئا ، فلما وقع الحساب وجد فى جهته لهم أحدا
وثمانين ألف دينار ، فاعترف أنها فى جهته وسيوصلها
الى الخنكار ، فحصل بينه وبين الاصباهية فى ذلك
اليوم تشاجر بسبب ذلك ، فقالت الاصباهية
لاتعطوا سنان باشا من جوامكنا شيئا من الآن ،
واصرفوا لنا مثل جوامك الممالك فى كل شهر على
البساط .

ثم فى يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء سلخ الشهر
عرض ملك الأمراء الاصباهية ، فمثل ما وجد عند
سنان باشا وجد فى جهة فائق بك من المال ، وقال

مما كان يعمل في مولد من تقدم من السلاطين ، ثم انه خلع على الوعاظ ققطانات واستردها بقدر هين .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره خلع ملك الأمراء على مملوكه برسباي ، واستقر به أمير ركب الحاج الشريف ، فنزل من القلعة في موكب حافل .

وفي يوم الخميس خامس عشره ، حضر قاصد من عند نائب حماه وصحبته مقدمة حافلة الى ملك الأمراء ، وأشيع أن الأمير جان بردى الغزالي نائب الشام قد قبض على أربعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، منهم قراجا بن طراباي ، فلما قبض عليهم حزرعوسهم وأرسلها الى الخنكار بأدرنة ، فلما فعل ذلك اضطربت أحوال جبل نابلس ، وصارت العربان ينهبون الضياع التي حول جبل نابلس ، ويقتلون أهلها ، وتزايد الغلاء بالشام من فلة الجالب اليها .

وفي يوم الثلاثاء عشريه قدمت الأخبار من الغريية بأن اينال السيفي طراباي . كاشف الغريية — قد احتال على حسن بن مرعي وأخيه شكر شيخى عربان الغريية ، وهما اللذان كانا سببا لمسك السلطان طومان باي — وقد تقدم ذكر ذلك — فعزم اينال على حسن ابن مرعي وأخيه شكر في مكان بالقرب من سنهاور ، فأتيا اليه وأمناه وظنا أن ذنبهما قد نسي مما قد فعلاه ، فكان كما يقال في المعنى :

قالت ترقب عيون الحي ان لها

عيننا عليك اذا ما نمت لم تتم

فلما أقاما عنده ذلك اليوم مد لهما مدة حافلة ، ثم بعد ذلك أحضر لهما سفرة الشراب ، فلما شربا ودخلا في السكر ، هجم عليهما جماعة من المماليك الجراكسة ممن كانوا عند اينال ، فعاجلوا حسنا

وشكرا بالجسام قبل الكلام ، فقطعوا رءوسهما ، واشتفوا منهما ، حتى قيل ان بعض المماليك الجراكسة شرب من دمهما ، وبعضهم جزل لحومهما بالسيف ، والمجازاة من جنس العمل ، وكما تدين تدان .

وفي يوم الأربعاء حادي عشريه حضر الى القاهرة رأس حسن ابن مرعي ورأس شكر ، فرسم ملك الأمراء للوالي أن يعلقوهما على باب النصر ، وقيل ان رأس حسن بن مرعي لما دخلوا بها وبرأس شكر ، علقوهما في رقبة فرس السلطان طومان باي الذي كان راكبا عليها لما قبضوا عليه في تروجه ، فصودف أن هذا الفرس كان تحت حسن بن مرعي لما أتى الى اينال ، فعند ذلك من النوادر الغريبة ، وقيل ان عيال السلطان طومان باي لما علقت رأس حسن وشكر على باب النصر ، أظهروا في ذلك اليوم الفرح والسرور ، وأطلقوا الزغاريت ، وتخلقوا بالزعفران . وأشيع أن أخا حسن بن مرعي كان مختفيا بالقاهرة لما قتل أخواه ، فعزم عليه ، فقبضوا عليه من بيت بعض أصحابه .

وفي يوم الجمعة ثالث عشريه قدمت الأخبار من ثغر دمياط ، بأنه قد وصل الى الثغر قاصد من البحر أرسله الخنكار ابن عثمان يطلب سنان باشا وفائق بك ، فلما سمعا ذلك تنكدا لهذا الخبر ، وقالوا لملك الأمراء خاير بك هذا كله شغلك أنت ، تكاتب فينا الخنكار في الدس وتراقع فينا عنده .

فلما وردت الأخبار بسجىء القاصد من دمياط ، رسم ملك الأمراء خاير بك للقاضي بركات بن موسى بالتوجه الى ملاقاته ، فخرج الى قليوب ورمى على البلاد من الشرقية والغريية أبقارا وأغناما وأوزا ودجاجا ، فجمع في هذه الحركة فوق ألف

رأس من الغنم ، غير البقر والاوز والدجاج ، فمد القاضي بركات بن موسى للقاصد في قليب مدة حافلة ، فأشيع أنه صنع له في تلك المدة أربعمائة رأس غنم ، ومثلها أوز ، ومثلها دجاج ، وخمسمائة مجمع حلوى وقيل ألف مجمع .

ثم مد له في أبي الفيث مدة ثانية مثل الأولى ، فلما وصل القاصد الى هناك فاذا هم أميران أحدهما يسمى اسكندر باشا ، والآخر يسمى فرحات بك ، وصحبتهما من الغلمان نحو مائة انسان ، فلما انتهى أمر المدة أحضرا القاضي بركات بن موسى بين أيديهما ، وقالوا له الخنكار يسلم عليك ، ويقول لك بيض الله وجهك ، حيث رجعت بالحجاج سالمين بخلاف ما جرى على الحاج الشامي ، فقام وقبل الأرض عدة مرات ، وكشف رأسه ، فلما وصل القصاد الى شبرا خرج الأمير قايتباي الدوادار الى ملاقاتهم ، وجماعته من الأمراء الجراكسة ، فسلموا عليهم ورجعوا الى دورهم .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره دخل القصاد الى القاهرة وقت صلاة الصبح ، فطلعوا على الجزيرة الوسطى ، وأتوا من باب الخرق ، وأتوا الى تحت الربع ، وتوجهوا على القرييين ، فأنزلوهم في بيت الأتابكي قرقماس بن ولي الدين الذي عند حوض العظام ، فأنزلوا به اسكندر باشا ، وأنزلوا فرحات بك في بيت الأمير كسباي المحتسب الذي عند مدرسة سودون بن زادة ، فمد لهما القاضي بركات ابن موسى هناك مدة ثلاثة لكل واحد منهما على انفراد ، واستمروا هناك يوم الثلاثاء سابع عشره .

وطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، واجتمعوا بملك الأمراء ، وقرءوا مطالعة الخنكار ، فكان من مضمون تلك المطالعة ، طلب سنان باشا وفائق بك

وخير الدين نائب القلعة ، وأرسل يقول لملك الأمراء خاير بك بأن يتوصى بالجراكسة ، وأن يصرف لهم جوامكهم على العادة ، ولحومهم وعليتهم ، وأن ينظر في أحوال المعاملة ، ويزيل عنها الغش من الذهب والفضة ، وأن يحفظ الثغور .

فلما تحقق سنان باشا وفائق بك أن السلطان أرسل يطلبهما ، اضطربت أحوالهما وهموا بقتل ملك الأمراء خاير بك ، وعلموا أن هذا كله مما كان يرسل به الخنكار يشكو له منهما فاختمى ملك الأمراء في الحريم ثلاثة أيام لم يظهر لأحد من الناس ، حتى أشيع أنه هرب من القلعة ، فاضطربت أحوال القاهرة ، ووزع الناس أمتعتهم في الحواصل ، ولهجوا بوقوع فتنة عظيمة تخرب فيها القاهرة ، وتنهب عن آخرها من الاصباهية والكسلية ، فأقامت الناس على وجل ثلاثة أيام .

ثم طلع القاضي بركات بن موسى الى ملك الأمراء وقال له : ارسم للوالى بأن ينادى في القاهرة للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن الأسواق والدكاكين تفتح وأن لا أحد يكسر كلامه ولا يتحدث في شيء لا يعنيه ، ومن تكلم في شيء لا يعنيه يشنق من غير معاودة ، فطاف الوالى في القاهرة وأشهر النداء بذلك .

وصار ملك الأمراء على رأسه طيرة من الاصباهية فبنى حائطا تجاه باب الستارة وصارت الاشاعات قائمة بوقوع فتنة عظيمة من الاصباهية ، وكانت عدتهم نحو ألفى انسان غير الكملية ، وصاروا يركبون في كل يوم ويقفون في الرميلة ، ويسبون ملك الأمراء سبا قبيحا ويهمون بالهجوم عليه .

وفيه قدمت الأخبار من الشرقية بقتل شيخ العرب على الأسمر ابن أبي الشوارب ، وقد احتال عليه كاشف المنوفية وعزم عليه ، وأسكره وهجم

عليه دواذاره فقتله بغتة ولعب فيه بالسيف ، فلما جرى ذلك خاف شيخ العرب حسام الدين ابن بغداد على نفسه ، فاختمى مدة أيام ، وقد قوى عزم المماليك الجراكسة من حين قتل الأمير أينال كاشف الغريبة حسن بن مرعى وشكرا أخاه .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على يونس الجلبى ، قيل ان أصله فلاح من الشرقية ، فبقى استادارا وكان له مقدار عند ملك الأمراء بسبب انسحاب المال على الجامكية ، فبطحه في الحوش وضربه ضربا مبرحا نحو ستمائة عصا ، فنزل الى بيته وهو مسطوح على حمار ، فأقام أياما ومات من الضرب .

* * *

وفي شهر ربيع الآخر ، في يوم الاثنين رابعه ، وقعت فتنة عظيمة بالقلعة بين الاصباهية والانكشارية من عسكر ابن عثمان ، قتل فيها من الاصباهية شخص ، وقيل اثنان ، فرسم ملك الأمراء للانكشارية بأن يقيمون بالقلعة دائما ، ولا ينزلوا الى المدينة ، فبطل أمر الانكشارية الذين كانوا يجلسون على أبواب المدينة ، وتشتكى الناس في خلاص الحقوق منهم ، فرسم لهم ملك الأمراء بأن يسكنوا باطباق المماليك التى بالقلعة ، ولا ينزلوا الى المدينة أبدا ، وكان يحصل منهم غاية الفساد في حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، والضيافات والبضائع من أيدي المتسبيين ، وضج الناس من ذلك .

وفيه أشيع ان سنان باشا وفائق بك قد برزا خيامهما في الريدانية بسبب السفر الى اسطنبول ، وأشيع ان سنان وفائق يتوجهان من البحر ويركهم يتوجه من البر .

وفي يوم الاثنين حادى عشره خرج سنان باشا وفائق بك وتوجها الى بولاق ، وشقا من الصليبة

في موكب حافل ، وقدامهما الاصباهية قاطبة والانكشارية ، وألبس كل منهما قفطانا مخملا ، وقيل أنعم على كل واحد منهما بألف دينار ، فاستمر معهما العسكر العثماني حتى أنزلوهما في المراكب من بولاق ، وساروا الى البحر الى ثغر دمياط ، ومن هناك نزلوا في الأغربة .

وفي يوم الجمعة خامس عشره ، انتهى العمل من الجامع الذى أنشأه المقر الشهابى أحمد بن الجيعان الذى عند بركة الرطلى ، بالقرب من حدرة الفول ، وخطب به في ذلك اليوم ، وكان مسجدا قديما بنى في دولة الناصر محمد بن قلاوون سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، ودفن به الشيخ خليل الرطلى ، وهو الذى تنسب اليه بركة الرطلى ، فاستمر على ذلك حتى خرب فجدده صاحب سعد الدين بن ابراهيم البشيرى في دولة الملك المؤيد شيخ ، فأقام مدة طويلة وجعل به خطبة لكونه كان بجوار بيته الذى بالبركة ، فاستمر على ذلك الى أن خرب ، وأقام مدة طويلة وهو خراب ، فجدد بناءه القاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر في هذه السنة ، فاجتمع به في ذلك اليوم القضاة الأربعة ، وأعيان الناس من المباشرين ، وغيرهم ، وخطب به ذلك اليوم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، فخطب به خطبة بليغة في معنى انشاء الجوامع .

فلما انقضى أمر الصلاة أحضر الشهابى أحمد بن الجيعان زبادى صينى فيها سكر نحو عشرين زبدية فطاف بها على الناس . ثم قامت جماعة من المنشدين وأنشدوا قصائد في انشاء هذا الجامع ، من نظم جمال الدين السلمونى الشاعر ، وعبد اللطيف الدنجيى ، وغيرهما من الشعراء .

ثم ان الشهابى أحمد بن الجيعان قرر بهذا الجامع حضورا من بعد العصر ، وصوفية ، وجعل

شيخ الحضور الشيخ نور الدين على بن ناصر
شيخ حضور الشافعية ، وشيخ الحنفية هو شهاب
الدين أحمد بن الصائغ ، وقرر شيخ الحديث
الشريف الشيخ شمس الدين الضيوطي .

وفي يوم الأحد سابع عشره أشيع أن المملوك
الذي قتل على الأسمر ابن أبي الشوارب ، قد
قبض عليه الكاشف ، وأحضره الى ملك الأمراء ،
فرسم بشنقه فشنق على باب زويلة ، وقيل ان أصله
من مماليك الاتابكي سردون الدوادار ، فأرضى
ملك الأمراء مشايخ العربان بشنق هذا المملوك .
وفي يوم السبت ثالث عشره وقعت فتنة كبيرة
بين الاصباهية والانكشارية ، فأغلقوا باب السلسلة
وباب الميدان في ذلك اليوم ، واستمر الشر عمالا
بين الفريقين الى ما بعد الظهر ، فنزل الكيخية
الكبير ليصلح بين الفريقين فضربوه فولى هاربا .
وفي يوم الاثنين خامس عشره ، كان يوم فطر
النصارى وهو أول الخماسين .

واستهل شهر جمادى الأولى يوم السبت ، فطلع
قضاة القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر
ثم عادوا الى دورهم .

ومن الحوادث في ذلك اليوم ، أن ملك الأمراء
أحضر طائفة الانكشارية الى القلعة ، ورسم لهم أن
يحضروا بسكاحلهم والبندق الرصاص الذي
عندهم ، فلما أحضروا ذلك رسم ملك الأمراء
بادخال تلك المكاحل والبندق الرصاص في
الزردخانة ، ورسم للانكشارية بأن يقيموا في
الأطباق التي بالقلعة ولا يتزلون الى المدينة أبدا ،
فشق ذلك عليهم الى الغاية ، وانتصفت عليهم طائفة
الاصباهية .

وفي يوم الأربعاء خامسه نزل ملك الأمراء في
مركب وعدى الى المقياس ، فأقام به الى آخر

النهار ، ثم توجه في المركب الى قصر ابن العيني
الذي بمنشية المهراني ، ثم توجه من هناك الى
بولاق وأقام بالسبتية . ثم طلع الى القلعة في أواخر
النهار وانشرح في ذلك اليوم الى الغاية .

وفيه خلع على القاضي شرف الدين الصغير ،
والقاضي شرف الدين بن عوض ، واستقر في
التحدث في جهات الشرقية ، عوضا عن يونس الذي
كان استادارا ومات تحت العقوبة .

وفي يوم الأحد تاسعه خرج القاضي بركات بن
موسى المحتسب ، الى مساحة بلاد الصعيد
واستخراج المخل الذي بها ، وكانت هذه وظيفة
الأمير يشبك الدوادار ، والأمير أقبردى الدوادار ،
وغيرهما من الدوادارية ، فخرج في موكب حافل
وقدامه الانكشارية يرمون بالنفوط ، وسافر معه
جماعة من المماليك الجراكسة ، وفعل في أمر
السنيع والنخيام والبرك ما عجز عنه الأمراء
المقدمون ، وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطان
ورأى من العز والعظمة في دولة ابن عثمان ما لم
يره في دولة السلطان الغوري .

وفي يوم الخميس ثالث عشره توفي الشيخ صالح
المعتقد عبد الرحمن البهنساوي ، الذي كان مفيما
بالمدرسة البرقوقية ، وكان للناس فيه اعتقاد .

وفيه عرض ملك الأمراء خاير بك طيلان رأس
نوبة ، وضربه بين يديه بالمقارع ثانيا ، وسبب ذلك
أنه تأخر عليه ألفا دينار مما كان تقرر عليه من
المال الذي يورده ، ثم بعد الضرب أرسله الى
سجن الديلم فأقام به .

وفيه قبض ملك الأمراء على جماعة من اليهود
من معلمى دار الضرب ، ومن الصيارف ، وسبب
ذلك أن معاملة السلطان ابن عثمان في الذهب
والفضة قد ذهبت وفسدت وصارت كلها غشا
وزغلا ، فقبض على معلم دار الضرب وألزمته بأن
يورد الى الخزائن الشريفة مائة ألف دينار ، وأن

المعلمين بدار الضرب قاطبة يتوجهون الى نحو اسطنبول أو يلتزمون باصلاح المعاملة ، فلما جرى ذلك أغلظ عايه جباعة من اليهود ، وقالوا له أرنا مرسوم الخنكار ان كان أرسل يطلبنا الى اسطنبول وأقاموا أياما بالسجن حتى يكون من امرهم ما يكون .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على الأمير كمشبغا والى القاهرة فحنق كمشبغا من ملك الأمراء ، فلما نزل الى بيته أغلق الباب وطرد النقباء عن بابه ، ورفع دكته وأقام أياما لم يخرج من بيته ، فنزل اليه الأمير جانم الحمزاوى ، وطلع به الى ملك الأمراء وقابله به ، فخلع عليه قفطانا مخملا ، ونزل الى داره على عادته بعد ما كان أشبع وقوع فتنة عظيمة ، وقيل انه أورد الى ملك الأمراء ستة آلاف دينار .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد ضرب زوجته خوند مصرباى الجركسية ، ضربا مبرحا حتى كادت أن تموت ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، وكثر فى ذلك القال والقيل .

وفى يوم الاثنين سادس عشره حضر من عند الخنكار أولاق يبشر بمجىء عسكر عوضا عن الاصباهية الذين بمصر ، وقد عين الخنكار عسكرا وهو فى أدرنه بأن يحضروا الى مصر ، وزعم هذا القاصد أنه أتى من أدرنه الى مصر فى أحد وعشرين يوما ، وكانت الاصباهية قد تقلقوا من الاقامه بمصر ، فجاء هذا الاولاق يبشر بمجىء العسكر حتى تطمئن الاصباهية بذلك .

وفى شهر جمادى الآخرة وكان مستهل الشهر يوم

الاثنين ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى طيلان رأس نوبة وقد نال من الضرب بالمقارع كما تقدم ، فاستمر عليلا حتى مات ، وكان من وسائل سوءه ، فلما عسوبا من جيلة أعوان الظلمة

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره حصر قاصد أيضا من عند الخنكار وأخبر أن الفرنج قد تحركت على الخنكار ، وأرسل يقول لملك الأمراء بأن يحفظ الثغور ، ويحصن ثغر الاسكندرية وثغر دمياط بالمكاحل وآلة السلاح وغير ذلك

وفى يوم السبت عشره طلع ابن أبى الرداد بيشارة النيل ، وأخذ القاع فجاءت القاعدة ستة أذرع وعشرين أصبعا أرجح من العام الماضى بعشرة أصابع ، وكانت الزيادة أول يوم خمسة أصابع ، فتفعل الناس بذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره حضر شخص شريف من عند ابن عثمان ، وزعم أنه قد قرره فى نقابة الأشراف ، وأظهر مرسوم الخنكار بذلك . وأشيع أن الخنكار أرسل يطلب الاصباهية بأن يتوجهوا الى اسطنبول فأخذوا فى أسباب عمل برقهم .

وفى يوم السبت سابع عشره ، خلع ملك الأمراء على القاضى عبد العظيم ، واستفربه فى التحدث فى نظر الحسبة الشريفة ، عوضا عن الزينى بركات ابن موسى ، وكان مسافرا نحو الصعيد كما تقدم ، وكان سبب ذلك أن ابن موسى لما سافر الى الصعيد جعل شخصا من العثمانية متحدثا عنه فى الحسبة الى أن يحضر من السفر ، فضاعت أحوال المسلمين فى هذه الأيام ، ووقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال ، وعز وجود الخبز فى الأسواق وتناهى سعر الأردب القمح الى ألف درهم ،

وتناهى سعر البطة الدقيق الى عشرين نصفا ، وعز وجود الشعير والبول والنبن ، فضج الناس من ذلك ، وعز وجود الأجبان والسمن والشيرج وغير ذلك ، فتوجه طائفة من التركمان الى بيت ابن موسى . وضربوا المباشرين والرسل الدين على الباب ، وهرب التركمانى الذى كان يتحدث فى الحسبة .

ثم ان التركمان توجهوا الى بيت القاضى عبد العظيم ، وهجموا عليه فى حريمه ، وأخذوه وأركبوه غصبا وطلعوا به الى ملك الأمراء ، وقالوا له ان لم تول هذا الحسبة والا تحرب مصر على أيامك وتنهب المدينة عن آخرها ، فما وسع ملك الأمراء الا أن أحضر له ققطانا وأفاضه عليه ، واستقر به ناظر الحسبة عوضا عن ابن موسى ، فنزل من القلعة بعد العصر ، وشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس ، وكان محببا لأهل مصر قاطبة ، ففرح كل أحد من الناس بولايته ، وظهر الخبز فى ذلك اليوم على الدكاكين وقد تفاعل الناس بكعبه بالرخاء ، وسكن ذلك الاضطراب الذى كان فيه الناس قليلا .

وفى هذه الأيام توقف النيل عن الزيادة أياما فقلق الناس لذلك .

وفى يوم الاثنين سلخ الشهر ثارت طائفة من الأصباية على الأمير جانم الحمزاوى وهو نازل من القلعة ، وعينوا له الضرب ، وقالوا له قل لملك الأمراء قد متنا من الجوع نحن وخيلنا من قلة الموجود ، فلا نلتقى فى الأسواق حزرا ولا شعيرا فاما يأذن لنا بالسفر أو يكفيننا من القوت ، فما خلص منهم الأمير جانم الحمزاوى الا بعد جهد كبير ، وذكروا أن لهم ثلاثة أشهر جامكية مكسورة فى الديوان .

وفى شهر رجب ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، طلع القضاة الأربعة وهنتوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى دورهم ، وقد قلق الناس من أمر الأصباية ، ثم ان النيل استمر فى التوقف لم يزد شيئا ، فأمر ملك الأمراء بإبطال المحرمات من النيذ والحشيش والبوزة ، ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش .

ثم ان الوالى قبض على امرأة يقال لها أنس وكانت ساكنة فى الأزيكية تجمع عندها بنات الخطا اللاتي يعملن الفاحشة ، وكان عليها مبلغ مقرر تورده كل شهر للوالى ، وكان أمرها مشهورا ، فرسم ملك الأمراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية ، زوجة أحد من الناس يقال له البغضى ، كانت ماشية على طريقة أنس هذه فى جمعها البنات الخطا ، فلما قبض الوالى على أنس توجه بها الى قصر ابن العيني الذى فى المنشية ، وغرفها هناك بعد العصر ، فاجتمع الجم الكثير من الناس بسبب الفرجة عليها ، وكان يوما مشهودا ، ففرقت على النداء والاجهار ، وأراح الله تعالى المسلمين وطهرت الأرض منها .

وفى يوم الجمعة رابع الشهر صلى ملك الأمراء صلاة الجمعة بالقلعة ، ثم نزل منها وتوجه الى المقياس وقرأ هناك ختمة ومد مدة حافلة للفقراء ، واستمر النيل سبعة أيام لم يزد فيها شيئا وأشيع أنه قص أربعة أصابع ، فقلق الناس لذلك ووقع الغلاء فى سائر البضائع والاصناف .

وفى يوم السبت خامس رجب زاد الله فى النيل المبارك أصبعا واحدا بعد أن وفى النقص ، ففرح الناس بذلك وسكن الاضطراب الذى كان بمصر قليلا ، وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه :

قد أصبح الخزان مذ زاد
هذا النيل بعد النقص في بوسى

وقد عدا يهرا على قمحه
قراءة تنسب للسوسى

فلما زاد النيل هذا الأصبع وسكن الاضطراب
شرع القاضى عبد العظيم المحتسب في تسعير
البضائع قاطبة ، فانصلحت أحوال الديار المصرية
قليلا ، ووقع الرخاء وتفاءل الناس بكعبه بالخير ،
وقد قلت في المعنى :

يا قاضيا قد عدا بالله محتسبا
على الأعادى ولا يخشى من الباس

رخصت أسعارنا من بعد ما علي
وحزت حسن الثنا من ألسن الناس

لما توليت زاد النيل وانفرجت
وقد حذى دل خزان ودراسى

ان زال هذا الغلا من مصر لا عجب
فكعبكم أخضر يزهو على الآس

ومن الحوادث أنه في يوم الخميس عاشر
رجب ، وقعت واقعة شنيعة ، وهى أن اسكندر
بك أحد أمراء ابن عثمان الذى كان حضر الى مصر
عوصا عن سنان باشا ، لما أقام بمصر صار يعارض
قضاة القضاة في الأحكام الشرعية ، فوقع بينه
ويين نور الدين على الميمونى تقيب قاضى القضاة
الشافعى .

ثم انه في يوم الخميس رسم بعزل على الميمونى
من النقابة ، ولم يكتف بذلك حتى أنه تكلم مع
ملك الأمراء في نفيه فنفاه الى دمنهور ، وأخرجه
من يومه .

ثم ان ملك الأمراء رسم بإبطال تقيب قضاة
القضاة الأربعة ، فعزل من النقابة شهاب الدين

أحمد بن سيرين تقيب قاضى القضاة الحنفى ،
وعزل تقيب قاضى القضاة المالكى شمس الدين
الدميرى ، وعزل من النقابة ابن قاضى القضاة
الحنبللى ، ومنع جماعة من الوكلاء ومن الرسل
أيضا ، وحصل لفضاة القضاة منه غاية الضنك
بسبب تقبائهم

وفد تقدم القول ان ملك الأمراء لما توقف النيل
سبعة ايام امر بإبطال ييوب الحثيس وييوب
الخمرة وييوت البوزة وعرق انس النى كانت
تجمع عندها بنات الخطا اللاتى كن يعملن الفاحشة
من امر الزنا ، فلما راد النيل رجع دل سىء على
حاله ، وسبب ذلك أن العثمانيه تعصبوا في اعادة
ذلك ، فان أكثرهم كان يبيع البوزة في الدكاكين
ورسم ملك الأمراء بأن أولاد أنس لا يعارضون
فيما يفعلون من جمع بنات الخطا ، كما كانت
تفعل أمهم أنس .

وفي هذا اليوم قدمت الأخبار من حلب بأن
الخنكار أرسل عسكريا يقيمون بمصر عوضا عن
الأصباهيّة الذين كانوا بها .

وفي يوم السبت ثانى عشره رسم ملك الأمراء
بشنق شخص سروجى فشنق عند باب خان الخليلى
وسبب ذلك انه كان له عبد فباعه لبعض المماليك
الجراكسه ، فهرب وخدم عند بعض التركمان ،
ثم ان السروجى توجه الى سيدى أحمد البدوى ،
فصادف ذلك العبد هناك فقبض عليه وأحضره الى
القاهرة ، فهرب ذلك العبد من بيت السروجى
وأتى الى التركمانى ، وادعى أنه لم يكن في ملك
السروجى وأنه معتوق ، فطلع التركمانى وقص
خبر العبد على ملك الأمراء ، فاحضر ذلك السروجى
وأخبر أنه قد باعه لمملوك جركسى ، وقتل في
الواقعة ومضى أمره ، فلم يثبت للسروجى عليه

حق فأغلظ السروجي على ملك الأمراء في القول
فحنق منه ملك الأمراء ورسم بشقه فشنق عند
خان الخليلي ، فقيل ان السروجي سأل ملك الأمراء
أن يفدى نفسه من الشنق بحسمائه دينار ، فأبى
ملك الأمراء من ذلك ، وشنق فراح ظلما .

وفي يوم الاثنين رابع عشره وقعت حادثة مهولة
وهي : ان جماعة من الكمالية والاصباكية وقفوا
الى ملك الأمراء يطلبون منه جوامكهم عن ثلاثة
أشهر ، ويأذن لهم بالسفر الى بلادهم ، فلم يلتفت
اليهم ، فنزلوا من عنده ووقفوا بالرميلة ، فلما طلع
الأمير جانم الحمزاوى أحاطوا به وضربوه وأنزلوه
عن فرسه ، وأرادوا قطع رأسه ، فهرب ودخل الى
الميدان وهو مكشوف الرأس ، فوقف في وجوههم
شخص من أمراء الجراكسة يقال له الأمير بخشباى
الذى كان كاشف الپهنسا — فرموا غبنهم فيه
فضربوه بالسيوف حتى أشيع موته ، فحملوه
وأدخلوه الى باب السلسلة وفيه بعض نفس .

ثم ان الكمالية استمروا بالرميلة طالين شرا مع
الجراكسة ، وانفتح بينهم باب الشر بسبب جانم
الحمزاوى ، ثم أنزلوا الأمير بخشباى الى بيته
فأقام الى يوم الأحد عشريه ومات ، وقد جرح في
رأسه جرحا بالغا ومات به ، وأشيع أن ملك الأمراء
كتب محضرا بأن الكمالية قتلوه وأرسل ذلك
المحضر الى الخنكار بأدرنه ، ثم حضر جماعة من
الأمراء الجراكسة وصلوا على الأمير بخشباى ،
وكانت له جنازة حافلة وصنعوا قدامه كفارة .

وفيه قدمت الأخبار من حلب بوفاة القاضى
محب الدين محمود ابن القاضى شمس الدين
محمد بن أجا الحلبي ، وكان رئيسا حثما أصيلا
عريقا فاضلا ، ولى قضاء الحنفية بحلب ، ثم ولى

كتابة السر بالديار المصرية ، وأقام في هذه الولاية
ست عشرة سنة ، وهو عزيز في مصر نافذ الكلمة
وافر الحرمة ، وهو آخر كتاب السر بالديار المصرية
ولم يوجد بعده من يناظره في الرياسة والتعظيم
والنظام ، ومشى مشى الرؤساء المتقدمين في كتابة
السر ، وكان مولده سنة اثنتين وخمسين
وثمانمائة ، ومات وهو في ست وأربعين سنة ،
وكان كثير الأمراض في جسده ، وأكثر اقامته في
داره ، والناس تسعى اليه في أشغالها ، ولما مات
رثاه الأديب ناصر الدين محمد بن فانصوه بهذه
المرثية :

ألا في سبيل الله نجل أجا الذى
يكل اذا عدت فضائله الفكر

فضائله كالزهر والزهر ذكرها
ومنظرها اذ فيهما النشر والبشر

كنجم بأفق الملك كان كم اهتدى
به من بليل الهم ضل به الحجر

كتابة سر الملك ماتت لكونها
به ختمت والسر من بعده جهن

لذا كان محمودا وبالقلب ذكره
رعى الله محمودا له الحمد والشكر

فمن مثل محمود ومن مثل قلبه
وذا القلب ممدوح يلذ به الذكر

لقد كان كالنعمان في العلم والسخا
وفي الفخر نعم العلم والجود والفخر

له فكرة كانت تمد يراعه
بدائع لفظ نظم ابداعها الدر

لعمرك ما في الفصل والوصل مثلها
بيان معانيها لرب الحجا سحر

أرى الله منه الروح روحا تفضلا
عليه وريحانا وزيد له الأجر

وصير قبرا ضمه خير روضة
يطيب بها فيه له اللف والنشر

وفي يوم الخميس رابع عشره ثارت الاصباهية
على ملك الأمراء وطلعوا الى الرميّة ، ووقفوا بها
فأغلقوا في وجوههم باب السلسلة ، وباب الميدان ،
فصاروا يسبون ملك الأمراء سبا فاحشا ، وكان
سبب ذلك أنه كان لهم ثلاثة أشهر جامكية منكسرة
فأنفق عليهم شهرين وتأخر شهر واحد ، فقالوا
ما نسافر حتى تنفق علينا الشهر المنكسر ، والا نزلنا
فنهبنا المدينة وشوشنا على الناس ، فوقع الاضطراب
بالقاهرة ، وغلقت الأسواق والدكاكين في ذلك
اليوم .

ثم ان الاصباهية توجهوا الى بيت الأمير قايتباي
الدوا دار ، وأركبوه من بيته عصبا وطلعوا به الى
ملك الأمراء ، وطلعوا أيضا بالأمير كمشباغا الوالى
فاجتمعوا بملك الأمراء وحدثاه في أمر الاصباهية
بأن ينفق عليهم ذلك الشهر الذى تأخر لهم ، فتوقف
في ذلك . ثم رسم لهم بأن ينفق عليهم ذلك الشهر
فيما بعد ، وأخذوا في أسباب عمل برقهم والتوجه
الى اسطنبول .

وفيه أشيع انه حضر من اسطنبول جماعة ممن
كان بها من السيوفية والحدادين والبنائين والنجارين
والمرخمين وغير ذلك من الصنائع ، وأشيع أن
الخنكار أنشأ له هناك جامعا وحماما ، فلما انتهى
العمل منهما وقفوا له وقالوا له ان خلفنا أولادا
وعيالا وقد أنهينا العمل الذى رسم به الخنكار
وما بقى لنا شغل ، فرسم لهم بالعود الى بلادهم ،
وكتب لكل واحد منهم ورقة بعدم المعارضة ،
وحضر صحبتهم أيضا الجمالى يوسف ابن تقي

الجيش بن أبى الفرج وشخص من أقارب ابن
الطولونى ، وقد أقاموا لهم ضمانا باسطنبول بأن
يتوجهوا الى مصر ، ويقضوا أشغالهم ، ثم يعودوا
الى اسطنبول ، وأخبر الجمالى يوسف بوفاة
جماعة كثيرة من الأعيان الذين توجهوا من مصر الى
اسطنبول ، ولم تحضرنى أسماؤهم .

واستهل شهر شعبان بيوم الخميس فطلع القضاة
الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى
دورهم .

وفي يوم الثلاثاء سادس الشهر حضر القاصد
الذى أرسله الخنكار بطلب الاصباهية ، وقد
أرسل عسكريا صحبة ذلك القاصد عوضا عن
الاصباهية ، فلما وصلوا الى الريدانية ، رسم لهم
ملك الأمراء بأن يطلعوا من بين الترب ، ولا يشقوا
من القاهرة ، قيل ان عدتهم دون ألف نفس ،
والباشا الذى عليهم يقال له قراموسى . فلما وصل
تحت القلعة أنزله ملك الأمراء بالميدان الذى تحت
القلعة ، فنصب خيامه به ، وصارت التركمان الذين
حضرُوا صحبتته يهجمون على الناس في بيوتهم
ويسكنون بها .

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشره خرج اسكندر
بك وخرج صحبتة الاصباهية الذين كانوا بصر
قاطبة ، فكان هو الباشا عليهم ، فشق عليه خروجه
من مصر ، وكان هو المشار اليه في أمور الديار
المصرية ، وصار يعارض قضاة القضاة في الأحكام
الشرعية ، فقلق الناس منه الى الغاية حتى بعث الله
تعالى بالفرج وأخرجه من مصر عاجلا . فلما خرج
اسكندر ، نزل اليه ملك الأمراء وودعه وأفعم عليه
بأشياء كثيرة من مال وخيول وزوادة وغير ذلك ،
ولما دخلت هذه الطائفة من التركمان الى مصر

صارت الناس تضيق أبوابها حتى لا يدخل منها
راكب لاجل التركمان .

وفي يوم الاربعاء رابع عشره رسم ملك الأمراء
بشنق سبعة أنفار من طائفة الكسلية ، فيل هم
الذين قتلوا الأمير بختبای كما تقدم ، فشنع منهم
سنة أنفار على شجرة النبق التي عند مدرسة
السلطان حسن ، والآخ تسق عند باب النصر ،
فشق ذلك على الكسلية ، ولم يطلع من أيديهم
شيء

وفي يوم الجمعة سادس عشر شعبان كان وفاء
النيل المبارك ، ووافق ذلك تاسع عشر مسرى ،
ففتح السد يوم السبت سابع عشر شعبان الموافق
لعشرى مسرى ، فأوفى الله الستة عشر ذراعا ، وزاد
من الذراع السابع عشر أصعين . وفتح السد في
العام الماضي ليلة النصف من شعبان ، فكان التفاوت
بينهما يومين ، وقد قال الناصري محمد بن قانصوه :

شاهدت عند النيل يوم الوفا

حرزا عظيما جانب الشط

للعين والنظرة فيه غدت

كتابة بالكسر والبسط

قلما طلع ابن الرداد ، وأخبر ملك الأمراء بوفاء
النيل المبارك ، نزل من القلعة ونوجه الى المقياس ،
وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة ، ثم قدموا له
المركب الغراب الذي كان عمره السلطان الغورى ،
فنزل فيه وتوجه الى نحو السد الذى عند رأس
المنشية ، ففتحه وأظهر التعاضم في ذلك اليوم ، وفرق
المجامع الحلوى ، والمشنات الفاكة ، وكان ذلك
اليوم مشهودا من كثرة المراكب والنفوط والطبول
والزمور . ثم ركب ملك الأمراء من هناك ونوجه

الى القلعة ، ثم توجه الأمير كمشبعنا الوالى ففتح
السد الذى عند قنطرة السد ، وفتح سد قنطرة
قديدار ، ورجع الى داره ، وكان يوما مشهودا ،
وقد عمت هذه الفرجة كل الناس .

وفيه أنفق ملك الأمراء الجامكية على الممالك
الجراكسة ، فأنفق لهم شهرين ، وكان لهم جامكة
أربعة أشهر مكسورة . ثم ان القاضي شرف الدين
الصغير ، عوق جوامك جماعة من أولاد الناس
بسبب ذلك .

وفيه تعير خاطر ملك الأمراء على جان بك كاشف
الشرقية ، فأرسل بالقبض عليه واحضاره في الحديد
وقد كثرت فيه الشكاوى من الناس ، واستغاثوا
من ظلمه ، فلما حضر بين يدي ملك الأمراء وبجه
بالكلام ، ثم وضع جنزيرا في عنقه ، وقيدا في
رجليه ، وأرسله صحبة جماعة من الانكشارية الى
الشرقية ، ورسم باشهار المنادة في الشرقية بأن من
ظلمه جان بك كاشف الشرقية ، عليه بملك الأمراء
يخلص حقه ، ثم عزل جان بك من كشف جهات
الشرقية ، وقرر شخصا من الأتراك يقال له اياس ،
وكان دوادارا بخدمة خاير بك المعمار قدما ، وقد
تعين باش العسكر الذى كان قد تعين الى جدة ولم
يتم له ذلك .

ثم ان ملك الأمراء في عقيب ذلك ، أرسل
بالقبض على اينال السيفى طراباى كاشف الغربية ،
وأحضره في الترسيم ، واستمر على ذلك الى الآن
لم يخلص من الترسيم .

وفي أواخر هذا الشهر قدمت الأخبار من مكة
المشرفة بوفاة ابنة العلائي على بن خاص بك ، وهى
أخت خوند زوجة الأشرف قايتباى ، وكانت رئيسة
حشمة في سعة من المال ، وقد تزوجت بعدة أمراء

مقدمي ألوف ، وهي حماة الأشرف طومان باي ،
جاءت بكفة وتوفيت هناك .

وفي يوم الخميس آخر الشهر ، كانت ليلة رؤية
هلال رمضان ، فتوجه قضاة القضاة الى المدرسة
المنصورية التي بين القصرين ، وحضر القاضي
عبد العظيم المحتسب ، فلما روى الهلال وانفض
المجلس ، قام القاضي عبد العظيم وركب من
المدرسة المنصورية ، فلاقته الفوانيس والمشاعل
من هناك ، وعلقت له القناديل على الدكاكين ،
ومشت قدماه الشموع والسقاةون بالقرب كما كان
يصنع القاضي بركات بن موسى المحتسب ، فاستمر
في هذا الموكب الحافل من بين القصرين الى بيته
الذي في باب النصر ، والرسل قدماه بالشموع
الموقودة ، وكانت تلك الليلة من الليالي المشهودة
في الفرجة والقصف ، وفيه يقول الأديب ناصر الدين
محمد ابن قانصوه :

كعب عبد العظيم كعب رخاء
ريح تسميره الرخاء رخاء
بأشر الحسبة الشريفة في المد
سل فراح الغلا وجاء الرخاء
من كذا كعبه لدى المحل خصب

فهو طب للداء فيه دواء
دام فيها مدير الحكم بالحك
سمة مقابل الصباح المساء

واستهل شهر رمضان بيوم الجمعة ، فطلع
القضاة الأربعة وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ، ومما
وقع في ذلك اليوم أن قاضي القضاة الشافعي كمال
الدين الطويل تكلم مع ملك الأمراء في ذلك المجلس

بسبب تقيبه نور الدين على الميموني ، وقد تقدم
القول أن ملك الأمراء نفاه الى دمنهور ، فلما كلمه
القاضي كمال الدين بسبب ذلك رسم باعادته الى
مصر ، بشرط أن يكون بطالا ، ولا يتكلم في النقابة
بباب القاضي أبدا ، ومنع بقية القضاة أن يجعلوا
لهم نقباء على أبوابهم ، ثم انفض المجلس على ذلك
وقامت القضاة .

وفي يوم الثلاثاء خامس رمضان كان يوم
النوروز ، وهو أول السنة القبطية سنة خمس
وعشرين وتسعمائة الخراجية .

وفيه قدمت الأخبار من مكة بأن في البحر المالح
قبالة جدة نحو أربعين مركبا من مراكب الفرنج
يعبثون بالتجار ويقطعون عليهم الطرقات ، فلما بلغ
ملك الأمراء ذلك عرض جماعة من المماليك
الچراكسة وغيرهم ، وعين منهم نحو ثلثمائة مملوك
وكلمية يتوجهون صحبة الحجاج ، ويطرقونها على حين غفلة .

وفيه أشيع بين الناس أن قاسم الشرواني الذي
كان استقر في نيابة جدة ، جمع المال الذي تحصل
من جدة فوضع بده عليه ، وأخذ المكاحل التي
كانت هناك والسلاح ، ونزل في مراكب وتوجه
نحو بلاد هرمز ، فتأكد ملك الأمراء لهذه الأخبار
الردية .

وفيه حضر شخص يقال له كيخيه أرسله ابن
عثمان يقيم بمصر عوضا عن أغات الانكشارية الذي
كان بمصر ، فانه أراد الحج في هذه السنة الى بيت
الله الحرام .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر رمضان قبض على
شخص من تجار الوراقين يقال له المحلاوي ، وكان
قيح السيرة مشهورا بأكل الربا ، وقد أنهوا في

حقه أنه يبيع الخمر والمعجون للتركمان في شهر رمضان ، وقد شهد عليه جماعة من الوراقين بذلك . فلما عرض على ملك الأمراء بالمبدان رسم بسليمه الى الوالى حتى يحرر ما يكون من أمره ، فتسلمه الوالى ونزل به الى داره ليعاقبه حتى يفر بما فيل عنه من بيع الخمر والمعجون ، وقد أوعده ملك الأمراء بالشنق بعد العيد ، فلما نزل به الوالى الى بيته قصد أن يكتب محضرا بسيرته ، فجاء اليه جماعة من الانكشارية من أصحاب المحلاوى الذين كان يبيع لهم المعجون ، فمنعوا الوالى من ذلك وأغلظوا عليه في القول ، ثم توجهوا الى سوق الوراقين وضربوا التجار الذين تعصبوا على المحلاوى ، وقصدوا نهب التجار ، فأغلظوا الدكاكين قاطبة .

فلما كان يوم الأربعاء عشرين رمضان طلع التجار الى ملك الأمراء وأخبروه بما جرى من الانكشارية فحنق منهم ورسم للوالى بأن يوسط المحلاوى على باب الميدان ، فوسطه هناك مسرعا ، ولم تنتطح في ذلك شاتان .

ثم قبضوا على عبد المحلاوى فادعى أنه قد اعتقه أستاذه قبل أن يتوسط ، فقطع الوالى أذنه وأطلقه الى حال سبيله ، فعند ذلك من الحوادث الموهولة . وما كان يجب على المحلاوى توسط فراح ظلما .

وفي يوم الجمعة ثمانى عشرية وقع من الحوادث أن ملك الأمراء كان وضع في الرميّة — عند القماحين تجاه سبيل المؤمنين — فلقين حشب بحل كهيئة المشنقة ، ووضع فيهما حبالا وكلايب حديد كبارا . وأشيع بين الناس أن ملك الأمراء يقصد بعد العيد أن يشنق جماعة من مشايخ العربان .

ويشنق جاني بك كاشف الشرقية ، واينال كاشف الغربية ، ويشنق جماعة من الكمليه والانكشارية ، فجاءوا الى تلك المشنقة ورموا الأخشاب التى هناك ، وقطعوا الكلايب والحبال ، ثم توجهوا الى بيت كمشبا الوالى وقصدوا أن يهجموا عليه ، ثم ضربوا النقباء الذين على بابه ، ثم توجهوا الى الوراقين وقصدوا أن يقتلوا الجماعة الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى حتى وسطوه ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة ، وباتوا على ما كانوا عليه من طلب الشر مع ملك الأمراء .

وفي يوم السبت ثالث عشرية ثارت الكمليه والانكشارية ، وطلعوا الى الرميّة ، وقصدوا نحو المماليك الجراكسة ، وكان الأمير قايتباى الدوادار واقفا قدام باب السلسلة ، فلما رأى التركمان وتزايد الأمر منهم ، سل السيف هو ومن معه من الأمراء الجراكسة ، وفصدوا مفاتلتهم ، وأغلظ التركمان على المماليك الجراكسة ، وقالوا لهم ايش أتم واقفون تتفرجوا علينا ، نحن في بعضنا نفتن ، ايش أدخلكم بيننا ، ثم انفض ذلك الجمع على غير رضا ، ونزل كل أحد الى داره ، ثم ان التجار نقلوا أمتعتهم من الدكاكين خوفا من النهب ، واختفى غالب تجار سوق الوراقين المعينين الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى .

وفي يوم السبت المذكور توجه جماعة من الانكشارية والاصباهية الى بيت شخص من تجار الوراقين يقال له كريم الدين البلدى ، فنهبوا كل ما فيه ، وقبضوا على أولاده ونسائه وعبيده وجواريه ولم يظفروا به . ثم أشيع أنهم قبضوا على جماعة من الوراقين ووضعوهم في الحديد ، وقيل انهم من تعصبوا وشهدوا على المحلاوى بما قيل عنه . فتأكد جميع التجار لهذه الواقعة ، وصار على رؤوسهم الطيرة من التركمان ،

وحولوا أمتعتهم من الدكاكين ، وصارت الناس
تأتى وجبل ، خوفا مما يأتى منهم ، واستمر التركمان
على ما هم عليه من إقامة دتنة عظيمة والأمر لله
تعالى .

وفي يوم الاثنين خامس عشرية نادى ملك
الأمراء بالقاهرة بأن القلعى شيخ سوق الوراقين
يظهر وعليه أمان الله تعالى ، وإن لم يظهر بعد ثلاثة
أيام ونفى عليه يحرق المكان الذى هو فيه والحارة
أيضا ، واستمر كمشبغا الوالى مختفيا لم يظهر .
وقد عين التركمان القتل لحمسة من تجار الوراقين
وشخص من تجار الجملون يقال له ابن ظلام ، وهم
الذين شهدوا على المحلاوى بما تقدم ، وتعصبوا
عليه . واستمر الاضطراب عمالا بسبب ذلك .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرية ، حضر القاضى
بركات بن موسى المحتسب ، وكان مسافرا نحو
الصعيد بسبب صم الغلال وغير ذلك ، وكان له
نحو خمسة أشهر وهو مسافر ، فلما طلع وقابل
ملك الأمراء خلع عليه قفطانا مخملا ونزل الى داره ،
فزينت له سويقه اللين ودكاكين الحشاشين .

وفي يوم الأربعاء سابع عشرية ، خلع ملك الأمراء
على الأمير كمشبغا الوالى وأعيد الى الولاية ، وكان
له عدة أيام وهو مختف لم يظهر بسبب واقعة
المحلاوى ، وقد وقع بينه وبين الكملى فتنه ، وعينوا
له القتل فاختمى وأغلق عليه أبوابه أياما ، فلما تلاق
ملك الأمراء خواطر التركمان وأرضاهم ، وزاد فى
جوامسكهم ، وخمدت تلك الفتنة ، ظهر كمشبغا ،
وخلع عليه واستقر على عادته ، فعز ذلك على
التركمان .

ولما حضر القاضى بركات بن موسى المحتسب
ضمن ابن ظلام شيخ سوق الجملون ، وخلصه من

الحديد ، وألبسه قفطانا مخملا ، وأقصره شيخ
الجملون كما كان ، وضمنه فى مال له صورة يورده
الى ملك الأمراء ، وكان ابن ظلام صهر القاضى
بركات بن موسى ، فبدل معه المجهود حتى خلاصه .

وفي يوم الخميس ثامن عشرى رمضان خرج
العسكر المعين الى بندر جدة ، فخرجت تلك
التجريدة فى ذلك اليوم وهم ماين ممالك جراكسة
وتركمان ، وكانت عدتهم نحو ثلثمائة افسان من
الفريقين ، وكان الياشا عليهم شخصا من العثمانية
يقال له أغات الكملى ، وقيل انهم يتوجهون الى
السويس ، وينزلون من هناك فى المراكب الى البحر
المالح ، حتى يصلوا الى جدة ، وقد كثرت الاشاعات
بسبب فساد الفرنج وعيبتهم فى البحر على التجار ،
وقد جاءوا نحو بندر جدة .

وفي شهر شوال وكان مستهله يوم الأحد ، طلع
القضاة الأربعة الى القلعة ، وصلوا مع ملك الأمراء
صلاة العيد ، ثم نزلوا الى دورهم ، وبطل ما كان
يخلع فى ذلك اليوم من الخلع على قضاة القضاة
والأمراء والمباشرين وأرباب الوظائف قاطبة ، وزال
ذلك النظام العظيم من مصر كأنه لم يكن أيذا

وفي يوم الخميس خامس شوال ، وافق ذلك
اليوم أول يوم من بابه ، فيه ثبت النيل المبارك على
ثنائى أصابع من عشرين ذراعا ، وكان أرجح من
نيل العام الماضى بذراعين وأصبعين ، فانه ثبت فى
العام الماضى على ستة أصابع من سبعة عشر ذراعا ،
وهبط سريعا فشرق غالب البلاد

وفي يوم الاثنين تاسع شوال جلس ملك الأمراء
بالميدان ، وعرض عليه كسوة الكعبة الشريفة
والمحمل الشريف وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الجمعة ثالث عشر شوال انتهى العمل من مدرسة الشيخ الدشطوطي رحمه الله تعالى عليه . التي بالقرب من حدرة القبول تجاه زاوية الشيخ يحيى البلحي ، وخطب في ذلك اليوم بها ، فاجتمع هناك الأمراء العثمانية ، والأمير جاجم الحمزاوي ، وقضاة القضاة الأربعة ، وأعيان المباشرين . ومشاهير الناس ، فلما كان وقت الصلاة صعد المنبر قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ، وخطب خطبة بليغة في المعنى ، فلما انقضى أمر الصلاة أحصر الأمير جاجم الحمزاوي زبادي صيني ضمنها سكر ، وشي أقسمه ، فطاف بها على الحاضرين ، وكان يوما مشهودا ، وجاءت هذه المدرسة في غاية الظرف ، وذلك ببركة الشيخ عبد القادر الدشطوطي رحمه الله عليه .

وفي يوم الخميس تاسع عشره ، خرج المحمل الشريف من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان ذلك اليوم مشهودا . وكان أمير ركب المحمل في هذه السنة الأمير برسباي دوادار ملك الأمراء ، فطلب طلبا حافلا يشتمل على محاسن كثيرة ، كما هي عادة الأطلاب القديمة ، وشق من القاهرة في موكب حفل ، وقدامه جماعه من الأمراء الإچراكسة والعثمانية وأعيان المباشرين ، والجسم الكثير من العثمانية والانكشارية يرمون بالنفوط ، وجماعة من القواسمة ، وخرج صحته سنيح عظيم من الزاد والماء ، وكانت الحجاج قليلة لأجل غلو العليق ، والكراء تشحط في هذه السنة الى الغاية .

وفي شهر ذي القعدة — وكان مستهله يوم الثلاثاء — طلع القصاد الأربعة الى القلعة وهنثوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ، وأشيع بين الناس أن سبب حضور هذا القاصد أن

الخليفه محمد المتوكل على الله ، لما توجه الى اسطنبول ، توجه سحبة أولاده ابن عمه خليل ، وهما أبو بكر وأحمد ، فوقع بينهما وبينه هناك فتنه ، فترافعوا الى الخنكار ، وقالوا انه لما كان بمصر فعده على ودائع كثيرة ما بين مال وقشاش أودعه عنده الأمراء الذين قتلوا ، وأخذ من خوند زوجة السلطان طومان باي وأمها مالا كثيرا ، وكذا أخذ من نساء الأمراء المقدمين الذين قتلوا من الأموال ما لا يحصى ، ولم يطالع الخنكار على شيء ، وتكلما في حقه بالباع والذراع ، وما أبقوا في ذلك ممكنا . فاعتدى الخنكار على الخليفة المتوكل على الله ، وانحط قدره عنده ، وساعدت الوزراء أولاد خليل عند الخنكار .

وكان الخليفة لما أقام باسطنبول أظهر فتكا زائدا ، واشترى له جوارى يضربن بالجنوك ، ثم انه قطع معلوم أولاد ابن عمه فشكوه الى الخنكار ، فحنق على الخليفة وأمر بأن جهاتهم تقسم ثلاثة أثلاث بين الجميع بالسوية ، فأرسل هذا القاصد يحاسب لهم على ذلك ، فلما حضر القاصد رسم على مباشرى الخليفة ، وعلى دواداره برد بك ، وقال لهم أقيموا لنا حساب معلوم أولاد خليل بغاية الانصاف

وفي يوم السبت خامسه جلس الأمراء بالمقعد الذي بالحوش السلطاني ، وحضر قدامه مصارعان ، وهما شخص يقال له الشاطر أبو الغيث الزريكشي ، وخصمه شخص أعجمي شنيع المنظر في خلقته ، فتصارع مع الزريكشي فغلب الزريكشي ورماه الى الأرض ، وركب فوقه وعصره في الأرض حتى كاد يموت ، فانتصر عليه وغلب أبا الغيث ، وألبس ملك الأمراء الأعجمي قفطان حرير ، ونزل من القلعة وقدامه طبلان وزمران ، وجماعة من العثمانية وشق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود .

وفي يوم الأحد مع ليلة الاثنين رابع عشره ،
خسف جرم القمر حسوفا فاحشاً حتى أظلم منه
الجو ، وأقام في الخسوف فوق أربعين درجة ، وقد
خسف أول ما أشرق عند طلوعه ، واستمر يتزايد
في الخسوف حتى مضى من الليل جانب كبير
ووقع مثل هذا الخسوف في السنة التي مات فيها
السلطان العوري ، وكان بين موته وبين الخسوف
نحو شهرين ، وجري ما جرى من الأحوال عقيب
ذلك . ونسأل الله اللطيف في هذا الخسوف الثاني .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره نزل ملك الأمراء
من القلعة ، وتوجه الى خليج الزعفران ، وسبب
ذلك أن الأمير كمشباغا الوالى صنع له هناك مدة
حافلة ، وأضافه فنزل اليه ، وأقام هناك الى آخر
النهار ، ثم عاد الى القلعة ، وكان قبل ذلك بيوم
توجه الى قصر ابن العيني الذي بالمنشبة ، وقيل
انه أقام هناك الى ما بعد العصر ، وعاد الى القلعة
من يومه المذكور .

وفي يوم الاثنين حادى عشره ، وقع بين خبر
الدين نائب القلعة وبين فرا موسى أغات الاصباهيه
بحضرة ملك الأمراء بالقلعة فتنة ، وسبب ذلك انه
وقعت فتنة كبيرة بين الانكشاريه وبين الاصباهيه ،
وصار في كل ليلة يوجد في الأزقة والطرفات جماعة
مقتولون بالسيوف ، فعز ذلك على قرا موسى ، وقال
لنائب القلعة خير الدين . هذا كله في ذمتك انت
الذى أطمعت الانكشاريه في حق الناس ، حتى
صاروا يحفظون النساء والصبيان ، ويحفظون
عمائم الناس بأيديهم ، ويعروههم وقتلوههم ،
ويحفظون بضائع السوق ، والخنكار ما يدرى
بشئ من ذلك ، وان بلعه ذلك فما يحصل لك خير .
ثم في عقيب ذلك صار الكيخية أغات الانكشاريه
يركب في كل يوم ويشق من القاهرة ، فان وجد

في طريقه انكشاريا يأخذ عصاه ويكسرهما ، ويقول
له اطلع الى القلعة واقعد في الطبقة ولا تنزل الى
المدينة أبدا . وقيل انه منع الناس ألا يشتكوا
أحدا من الانكشاريه مطلقا ، واستمرت الفتنة
ثائرة بين الاصباهيه والانكشاريه الى الآن ، وكل
مهما على حذر من رفيقه

ومما وقع في الشهر من الحوادث أن جماعة من
المماليك الجراكسة ، نحو عشرة ممالك ، فيل
فيهم شخص من قرابة الأمير قانصوه ابن الأمير
چركس ، وشخص آخر كان والى قليوب ، خرجوا
على حين غفلة وفصدوا أن سوجهوا الى الأمير
جان بردى الغزالي نائب الشام ، فلما وصلوا الى
قطيا قبض عليهم نائب قطيا ، ووضعهم في
الحديد ، وأرسل كاتب ملك الأمراء فيهم ،
فأرسل اليه ملك الأمراء جماعة من التركمان
ليحضروهم ، فلما ، وصلوا الى قطيا أظهروا
مرسوما من عند ملك الأمراء الى نائب قطيا بأن
يضرب رقابهم أجمعين ، فامتل ذلك وضرب رقاب
العشرة ممالك ، وكان فيهم شخص من العربان
يرشداهم الى الطريق ، فضرب عنقه أيضا وكان
قتلهم في مكان بين الصالحة وقطيا يسمى حيرة
والعافولة . فلما أشيع هذا الخبر شق ذلك على
جماعة من المماليك الجراكسة ، وشق ذلك على
نائب الشام أيضا ، ووقعت الوحشة بينه وبين ملك
الأمراء خاير بك من يومئذ ، ودبت بينهما عقارب
الفتن .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره ، كانت وفاة الكاتب
المجيد أبى الفضل محمد السنباطى ، المعروف
بالأعرج ، فيل انه مات فجأة على حين غفلة وكان
له حظ .

ومن الحوادث العجيبة الغريبة التي لم يسمع
بمثلها ما وقع في أواخر هذا الشهر ، وأشيع

واستفاض بين الناس ، أن قانصوه خمسمائة الذى تسلطن قد ظهر بعد مضي هذه المدة الطويلة ، وأنه باق فى قيد الحياة ، وقد تغيرت هيئته وصار له ذؤابة شعر فى رأسه ، وقد ابيضت لحيته . فكان من ملخص هذه الواقعة أن شخصا من أبناء العجم كان يرسل الى ابنة قانصوه خمسمائة — التى كانت زوجة انسباى حاجب الحجاب — ويقول لها انا أبوك ، فترسل اليه ما ينفقه ، فأقام على ذلك مدة طويلة ، ثم أنه حضر اليها تحت الليل صحبة طواشى ، فطلع الى باب السلسلة ، وكانت تزوجت بأمير أخور كبير مملوك ملك الأمراء ، فلما فشا أمره ، ولم يعرفه أحد من حاشية ابنة قانصوه خمسمائة ، بلغ ذلك زوج ابنة قانصوه خمسمائة ، فقبض عليه ووضع فى الحديد ، وسجنه فى البرج الذى يباب السلسلة ، حتى يعرضه على ملك الأمراء ، ويتبين ما يكون من أمره ، وقد أنكر ذلك الناس قاطبة ، فان قانصوه خمسمائة له نحو ثلاث وعشرين سنة من حين قتل عند خان يونس الذى بالقرب من غزة ، وكان من أمره ما كان مع الأمير اقبردى الدوادار ، وقطع رأسه هناك وأرسلها الى الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، وعلقت على باب زويلة ، فكان أمر وجوده من الأمور المستحيلة التى لا تقبلها العقول السليمة بعد هذه المدة الطويلة .

* * *

وفى شهر ذى الحجة ، وكان مستهله يوم الخميس ، طلع القضاة الأربعة وهنوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم . فلما كان يوم السبت ثالثه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان وجلس به ، وأحضر ممالك الأشرف قايتباى ، ثم أحضر ذلك الشخص الذى زعم أنه قانصوه خمسمائة ، فاذا هو شخص أعجمى مربوع القامة ، أبيض اللحية ، وله ذؤابة شعر فى

رأسه . فقال ملك الأمراء للحاضرين من ممالك الأشرف قايتباى : أهذا قانصوه خمسمائة الذى كنتم تعهدونه ؟ فقال العسكر فاطبه . ليس هذا قانصوه خمسمائة ، وهذا قصير القامة أحمر اللون . ثم أن ملك الأمراء ضيق على ذلك الشخص الذى زعم أنه قانصوه خمسمائة ، فقال له ملك الأمراء : ما حملك على ذلك ؟ قال . الفقر والفاقة وله ما فى اليد . فلما اعترف بدنبه رسم ملك الأمراء بتوسيطه ، ثم بدا له أن يضرب عنقه بين يديه فى الميدان ، ف ضرب عنقه ومضى أمره ، ثم أحضروا له تابوتا فحملوه فيه لبعلوه ويكفونوه ويدفنوه . فخدمت هذه الاشاعة التى أشبعت بسبب قانصوه خمسمائة . وكان غالب الناس الذين ليس لهم عقل صدقوا بذلك ، وقد تبين أن ذلك الرجل صاحب شيطان ، أخذ من ابنة قانصوه خمسمائة ، خمسمائة دينار . ويقول لها أنا أبوك . وكان ينصب على الناس ويقول لهم أنا قانصوه خمسمائة ، ويخلصهم غير ما مره ، فأراح الله الناس منه .

وفى يوم الخميس ثامن ، خرجت تجريدة الى الأزلم تلاقى الحجاج ، وكان بها نحو مائة مملوك ، وكان الباشا عليهم كاشف الشرقية وصحبته جماعة من الانكشارية يرمون بالبندق الرصاص وكان الباشا عليهم شخص من العثمانية . وفى يوم السبت عاشره ، كان عيد النحر ، وكانت الأضحية فى غاية الغلو ، وقد لا توجد ، فلم يضح من الناس الا القليل . وكان اللحم البقرى يباع فى تلك الأيام بنصف فضة كل رطل ، فلم يفرق ملك الأمراء على أحد من الناس أضحية فى هذه السنة ، وقطع أضحية الزوايا قاطبة ، وعادة الفقهاء والأتراك قاطبة ، كما فعل فى السنة الماضية . وفى يوم الأحد ثامن عشره ، نزل ملك الأمراء من القلعة وعدى بر الجيزة ، وتوجه الى نحو

الدين قاسم المالكي ، وكان عالما قاضيا ، علامة في مذهبه ، ولي قضاء المالكية في أيام السلطان الغوري ، أخذها عن قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن أبي شريف .

وفي ذلك اليوم وقع بالقلعة خباط هين ، وهو أن ملك الأمراء وقف له طائفة من المماليك الجراكسة بسبب أن لهم جامكية شهرين مكسورة ، فلما وقفوا اليه وبخهم بالكلام ، وطفش فيهم ، وقال لهم لازلتهم حتى أوقفتم بيني وبين نائب الشام ، وأنتم تفدون وتروحون وتشكونني عنده . فقام الأمير قايتباي الدوادار وجعل يرقع للمماليك ويقول له هؤلاء ممالكك وعبيدك ، وإنما يفعلون ذلك من الجوع والقلّة . فقال ملك الأمراء والله والله لولا أنا ما خلى الخنكار مملوكا يلوح على وجه الأرض ، فاني شفعت فيكم من القتل . فقال له الأمير قايتباي : الكل صاروا رعيتك ، ولهم أولاد وعيال ، وقد مسهم الفقر والفاقة ، والآل يطلبون صدقة الخنكار وصدقتك ، فرسم بشهر واحد يصرف لهم من جامكيتهم ، وكان لهم شهران مكسوران في الديوان .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ، وهم مرتابون من الغلاء وقلة الأمن وجور التركمان عليهم ، وتناهى سعر الأردب القمح الى ثلاثة أشرفية واثنى عشر نصفا كل أردب ، والبطّة الدقيق بأشرفي وخمسة أنصاف ، وقد تشحطت الأسعار في سائر البضائع من المأكّل والمشرب ، وصارت التركمان يخطفون عمائم الناس من فوق رؤسهم جهارا ، ولم يجدوا من يمنعهم من ذلك ، ويقطعون الطريق على المتسبين والضيافات التي تطلع من البلاد ، وصاروا يخطفون النساء والمرد من الطرقات كل يوم من بين الناس ، ولم يجدوا

شبرامنت على سبيل التنزه ، فأقام هناك من يوم الأحد الى يوم الثلاثاء ، وأخذ معه خياما كثيرة وسنيحا ، وصنع له هناك القضاة شرف الدين الصغير مدة حافلة ، وكان صحبته جماعة من الأمراء العشمانية وغير ذلك من المماليك الجراكسة ، فلما رجع من شبرامنت أقام بالقلعة ثلاثة أيام ، ثم عزم عليه الأمير كمشيفا الوالي في خليج الزعفران ، ومد له هناك مدة حافلة ، وأقام عنده الى ما بعد العصر ، ثم عاد الى القلعة في يومه ، وكان نهار شعت وغبار وهواء مريسي ، فلم يتنهأ بالفرجة في ذلك اليوم .

وفيه حضر قاسم الشرواني الذي كان نائب جدة ، وجرى منه ما جرى كما تقدم ذكره ، فأرسل ملك الأمراء خلفه ، وأحضره في الحديد ، فأحضره الشريف بركات أمير مكة في البحر المالح ، فلما حضر سجنه ملك الأمراء بالعرقانة التي هي داخل الحوش السلطاني الى أن يكون من أمره ما يكون .

وفيه حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الوقفة كانت عندهم بالجمعة ، وأن الأسعار انحطت عما كانت عليه قليلا ، وأخبر المبشر أيضا أنه لما دخل الحاج الى مكة ثارت فتنة عظيمة بين عبيد أمير مكة بركات ، وبين جماعة من العشمانية ، وقتل من الفريقين نحو عشرة أنفار ، ثم خمدت تلك الفتنة وزال الشر قليلا بعد ما كاد أن يتسع . وفيه توفي صاحبنا الشرفي يحيى بن الناصري محمد الأزبكي ، الذي كان أغات الغوري ، فأشيع بعد موته أنه وجد له من الذهب العين عشرة آلاف دينار ، فعد ذلك من النوادر ، فان أباه محمد الأزبكي لم يكن في سعة من المال ، ولا أجداده ولا أقاربه .

وفي يوم الخميس سلخ هذا الشهر ، توفي الشيخ جلال الدين عبد الرحمن ، ابن الشيخ زين

من يخلصهم من أيديهم ، وحصل للناس من أيديهم غاية الضرر .

ووقف الحال بسبب المعاملة من النضة ، فانها كلها غش ونحاس وزغل ، وصار الأشرى القايتباي يصرف بحمسة وستين نصف فصة ، والسوقة لا تقبل من النضة الا القليل ، وكذلك الفلوس الجدد . وقاسى أهل مصر في هذه السنة شدة عظيمة ما قاساها قط أحد من الناس ، والأمر لله تعالى من قبل ومن بعد .

سنة ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠ م) :

فيها في المحرم — وكان مستهل الشهر يوم السبت — طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء بالعام الجديد ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفي يوم الثلاثاء رابعه ، كان ختان ولد قاضى القضاة المالكى يحيى ، بن قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم الدميرى رحمة الله عليه ، فكان له في ذلك اليوم زفة حافلة رجت لها القاهرة ، فمشت من الجامع المؤيدى الى المدرسة الصالحية ، ومشى فيها أعيان الرؤساء من المباشرين والتجار ، ومشاهير الناس ، وغيرهم من الأعيان ، وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وكان يوما مشهودا . وفي أوائل ذلك اليوم مدت مدة حافلة حضرها الأمير جانم الحمزاوى وجماعة من الأمراء العثمانية ومن الأمراء الجراكسة وغير ذلك .

وفي يوم الاثنين رابع عشره ، دخل الحاج الى القاهرة صحبة المحمل الشريف ، وأمير الحاج الأمير برسباي ، وقد أثنى عليه الحجاج خيرا بما فعله في طريق الحج ، وكان معهم الأمن والرخاء بطول الطريق .

واستهل شهر صفر يوم الأحد فطلع القضاة الثلاثة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء بالشهر ، ولم يطلع قاضى القضاة الشافعى وكان مريضا منقطعا بداره له مدة طويلة لم يركب .

وفيه وقع من الحوادث أن ملك الأمراء عزل الشرفى يحيى بن التاج عن مشيخة الحضور بالجامع المؤيدى ، واستقر بشخص من أبناء المعجم ، وقيل من العثمانية ، عوضا عن يحيى بن التاج ، وكان ذلك الشخص عاريا عن العلم والفضيلة ، ليس له شهرة بين الناس ، فقامت الأشلاء على ملك الأمراء من العلماء والفقهاء ، وأنكروا عليه أنه عزل يحيى بن التاج عن مشيخة الحضور بالجامع المؤيدى من غير جنة ولا سبب ، وقرر بها من هو من غير أهلها ، ولم يكن يستحق ذلك ، وهذا من البدع المنكرة .

وفي يوم الخميس خامسه ، نزل ملك الأمراء من القلعة ، وصحبته الأمير قايتباي الدوادار وجماعة من الأمراء الجراكسة ومن الأمراء العثمانية ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة نحو خمسمائة مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ، ومن الاصباهية والكميلية والانكشارية الجيم الكثير ، وعدة رماة بالبندق الرصاص ، وأشيع عنه أنه يقصد التوجه نحو البلاد الشرفية ، فصى صلاة الصبح ، ونزل وشق من القاهرة ، وشق من بين التراب ، واستمر سائرا والأمراء والعسكر حوله حتى نزل بالعكرشا ، ثم توجه الى شبين ، ثم توجه منها الى مرصفة ، وقد اختلفت الأقوال في ذلك ، فمن الناس من يقول انه خرج يسرح في الشرقية على سبيل التنزه والفرجة ، ومن الناس

من يقول انه خرج بسبب محاربة عربان السوالم ،
والأول أصح ، فخرج صحبته سائر المباشرين قاطبة .

فلما كان يوم الثلاثاء عاشره . حضر القاضي
بركات بن موسى من عند ملك الأمراء وعليه عمامة
هوارية ، وقد خلع عليه قفطانا محملا مذهبا ،
وحضر صحبته ستة أنفار بو وقد سلخوا وحشوا
تبنا ، فقبل انهم من عربان السوالم فأركبهم على
خيول ، وعليها بركستوانات محمل ، والبسوهم
جوحا وشاشات على زنوط فوق رءوسهم ،
وفدامهم اثنا عشر رأسا مقطوعة ، وهى على رماح ،
قبل انهم من أعيان عربان السوالم ، فشقوا بهم
من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فعلقوا
جماعة من المسلوخين ومن الرءوس على باب
بؤيلة ، علقوا الباقي على باب النصر

وكان من ملخص هذه الواقعة ما أشيع
واستفاض بين الناس ، أن اياس كاشف الشرقية
تحيل على مشايخ عربان السوالم ، وأرسل لهم
بالأمان ، فركنوا له وحضروا اليه ، فصنع لهم
ضيافة ، فلما استقروا عنده أرسل يعلم ملك
الأمراء بذلك ، فأرسل اليه القاضي بركات بن
موسى ومعه جماعة من المماليك الجراكسة ،
فتوجهوا نحو عربان السوالم ، وخرج صحبتهم
عربان البلاد المجاورة من منية حمل والجوسق
المحروقة وغير ذلك ، فوقعوا مع السوالم ، وكان
بينهم واقعة مهولة ، فانكسرت السوالم وقبضوا
على بقية مشايخهم .

ثم ان العسكر والعربان نهبوا نجع السوالم عن
آخره ، وغنموا منه ما لا يحصى من جمال وخيول
وسلاح وقماش ونحاس ومصاغ وغير ذلك من
عبيد وجوار ، حتى أخذوا نساءهم وأولادهم ،
فلما وقعت هذه الكسرة على السوالم هرب من

بقي منهم الى الأودية والجبال ، فلما جرى ذلك
سلخ الكاشف مشايخهم وأرسلهم الى القاهرة كما
تقدم ذكر ذلك ، قيل كان فيهم من هو من أولاد
قراجا بن طراباي شيخ جبل نابلس .

وأشيع أن ملك الأمراء رحل من جهة مرصفة
وتوجه الى بنها العسل وأرسل سنيحه ومطبخه الى
القلعة وأشيع عوده الى القاهرة .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره رجع ملك الأمراء
الى القاهرة ، فأتى من جهة قنطرة الحاجب ودخل
من باب الشعرية ، وخرج من باب القنطرة ، وطلع
على سوق مرجوش . وشق من القاهرة فى موكب
حافل ، وقدامه جماعة من الانكشارية الرماة ،
وقدامه بعض جنائب ، ولاقاه الشعراء والشبابة
السلطانية من باب الشعرية ، وكان عليه قفطان
جوخ أحمر ، وكان قدامه ما اصطاده من الكراكي
والأوز العراقي ، فاستمر فى ذلك الموكب حتى طلع
الى القلعة ، وكان يوما مشهودا ، وكانت مدة
غيبته فى هذه السرحة سبعة أيام بلياليها .

ثم دخل بعده شيخ العرب نجم شيخ العائد ،
وهو فى الحديد ، وقد نسبوا اليه انه كان متواطئا
مع عربان السوالم وهو من أغراضهم ، فقبض عليه
ملك الأمراء ووضع فى الحديد حتى يكون من
أمره ما يكون . ولم يكن فى نزول ملك الأمراء
الى الشرقية خير للناس ، فرعى العسكر زرع البلاد
وقدمت له مشايخ العربان نحو ألفى رأس غنم ،
فوزعوا ذلك على بلاد الشرقية ، وأحضروا له من
شيبين ستمائة أردب شعير ، وذلك غير التقادم من
خيول وجمال وغير ذلك من ذهب عين فوق العشرة
آلاف دينار .

وقيل ان ملك الأمراء كان فى هذه السرحة
لا يصحو من السكر ليلا ولا نهارا ، حتى أشيع
عنه انه أخذ معه أربعين بغلا وهى محملة بيذا

اقريطشى ، فكان فى نزوله هناك غاة الضرر فى حق الناس ، ولولا أنهم أخذوا عرب السوالم بحيله لما قدروا عليهم أبدا .

وفى يوم تاريخه عاين مؤلف هذه الوقائع بالمشاهدة ، حضور الفاضى بركاب بن موسى المحتسب ، وطلوع ملك الأمراء فى ذلك الموكب المقدم ذكره ، فلما طلع ملك الأمراء الى التلعة قدمت الأخبار من الشريف بأن عربان السوالم لما حصلت لهم تلك الكسرة توجهوا الى الصالحية ونهبوا ما فيها فأحرقوها بما حولها من الضياع وحصل منهم عايه الضرر الشامل ، وهذا كله من سوء تدبير اياس كاشف الشرقية ، فانه استعجل بقتل مشايخ عربان السوالم وكانوا من توبع أعيان السوالم ، فسلخ الجميع . ومنها أنه نهب نجعهم ، وأخذ أموالهم ومواشيهم ، واسر حريصم حتى قيل انه أسر ستين امرأة من اعيان نسائهم ، واسر أولادهم . فلما طفشوا فى البلاد أرسل ملك الأمراء يهول للكاشف أطلق ساء السوالم وأولادهم الذين عندك من كل بد ، وقد استدرك ملك الأمراء ما وقع منه فى حق مشايخ عربان السوالم

وقد أشيع امر هذه الفتنة من كل جانب ، واستمرت أرباب هذه الدولة فى آراء معكوسه ، ليس لأحد منهم رأى سديد ، ولا له مستشار يرجع اليه ، وصار كل منهم يشير برأى غير صواب ، ويتكلم بكلام غير معبد ، وقد صاعت الكلمة بينهم وآل أمر مملكة مصر الى الحراب ، وكل هذا من سوء تدبيرهم ، وقلة معرفتهم ، وعدم بجوابهم للأمر ، وقلة نظرهم فى العواقب ، مما يؤول أمره الى خير أو شر ، فنسأل الله تعالى اصلاح الحال ، وحسن الخاتمة ، واخماد هذه الفتنة عن قريب

وفى يوم الجمعة ثالث عشره خلع ملك الأمراء على احدى نجبهم ، واستقر به شيخ العايد ، عوصا عن

أخيه نجم ، وقد بلغه أن أحوال الشرقية قسده اضطربت الى الغاية ، وثار بها العربان للفساد ، فلما خلع عليه خرج من يومه الى الشرقية بسبب هذا الفساد .

وفى يوم السبت رابع عشره ، أرسل ملك الأمراء تجريدة الى الشرقية ، وعين بها نحو مائة مملوك من الجراكسة وغيرهم ، وعين جماعة من الكميلة والاصباهية ، وجماعة من الرماة الانكشارية ، وجهاز عجالات تخرج صحتهم اذا خرجوا ، وقيل ان اياس كاشف الشرقية محاصر مع العربان فى بليس ، وقد أرسل يطلب نجدة بسرعة ، وأشيع أن عربان نجم شيخ العايد لما أمسك صاروا يعرون الناس فى رأس المطرية ، وعند قرية العادلى .

وفيه أشيع أن جماعة من الانكشارية هجموا على سوق النحاسين وأخذوا ما فيه من النحاس لأجل أن يسبكوه مكاحل للبندق الرصاص ، فحصل للتجار الضرر الشامل من ذلك ، وكانت حركة هؤلاء الجماعة الذين قتلوا من عرب السوالم من أكبر أسباب الفساد فى أحوال المملكة ، وأنهم لو أبفوهم فى قيد الحياة وسجنوهم لكان ذلك عين الصواب ، وأرجى لحمود هذه الفتنة ، ولكن عجلوا بقتلهم حيث طمروا بهم . فكان كما بهال فى المعنى :

أمور نضحك السفهاء منها

ويبكى من مراقبها اللبيب

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره خرجت التجريدة التى عيها ملك الأمراء الى السوالم ، وكان الباشا عليها تحصا من أمراء العشراوات فقال له جان برذى الأشمر - الذى كان كاشف البحيرة - اخوتهم الذى كان حازندار الملك الناصر محمد ابن الأشرف

قاتلوا ، ه كان بها من الممالك الجراكسة وغيرهم
مائة سبور . وتوجه قبل ذلك الى كاشف الشرقية
ستون سبور كما تقسمون عنده ، فخرجت التجريدة
في ذلك اليوم ، وتوجه من بها من المسالك الى
خانقاه سرياقوس

وفي يوم السبت حادى عشره ، حضر اياس
كاشف الشرقية وصحبته جماعة ممن بقى من أعيان
عربان السوالم ، وقد أتوا الى اياس طائعين بعد
أن رأوا عين الغلب ، فأحضرهم الى ملك الأمراء ،
فلما قابلوه خلع عليهم ، وأقرهم في مشيخة عربان
السوالم عوضا عن قتل منهم ، وخمدت فتنة
السوالم ، وكان ذلك على غير القياس من أمر هذه
الفتنة .

وفي شهر ربيع الأول وكان مستهله يوم الاثنين
طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك الأمراء
بالتشهر ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفي ذلك اليوم قدم قاصد من عند الخنكار
سليم شاه ابن عثمان ، وقد حضر من البحر المالح
الى نغر الاسكندرية ، فلما طلع الى القلعة قرأ
مراسيم الخنكار على ملك الأمراء .

وأشيع بين الناس أن الخنكار أرسل يقول لملك
الأمراء أن يتوصى بالممالك الجراكسة ، ويصرف
لهم جوامكهم ولحومهم وعلقهم والأضحية
والكسوة على العادة .

وأشيع أنه أرسل يقول لملك الأمراء كل من
شوش من التركمان على أحد من الرعايا يشنقه من
غير معاودة ، وأرسل يأمر ملك الأمراء بأن ينادى
للناس بقطع الطرقات والشوارع والأسواق قاطبة
فأخذ الناس في أسباب ذلك ، وشرعوا في قطع
الطرقات .

ثم أشهروا المناداة في القاهرة على لسان الخنكار
حسبما رسم بأن لا أحد من الانكشارية ولا من
الأصباويه يشوش على أحد من الناس ، ومن فعل
ذلك بأحد بمسكه من طوقه ويتوجه به الى
حير الدين نائب القلعة ، فأشهر المناداة بذلك أربعة
مشاعليه ، اثنان يناديان بالتركي ، واثنان يناديان
بالعربي ، وهم قدام الأمير كمشبعغا والى القاهرة ،
وأظهروا العدل في ذلك اليوم ، وليته دام .

ثم أشيع بين الناس أن الخنكار لما أرسل الى
ملك الأمراء بطلب سنان باشا وفائق بك بأن
يحصرا هما والأصباويه الى اسطنبول سافروا ، فلما
وصلوا هناك أحصر الخنكار سنان باشا بين يديه
وأمر بتشفه ، فاقام مصلوبا ثلاثة ايام لم يدفن .

وأشيع أن طائفة من الاصباويه الدين كانوا
ببصر وأرسل طلبهم ، لما دخلوا مدينة اسطنبول
سرب رقاب اربعمائة اصباهي منهم ، ممن أشيع
عنه الفساد ببصر من جماعه سنان باشا .

وأشيع أن الخنكار أرسل يحط على ملك
الأمراء خاير بك بسبب تراخيه في حق طائفة
الانكشارية والأصباويه حتى جاروا على الناس ،
وساروا يتشوشون على الرعية ، وقد بلغ الخنكار
ما يصنعونه ببصر من خطف النساء والمرد وبضائع
المتسبيين وخطف صياقات الناس ، فلما حضر
القاصد في ذلك اليوم وفرءوا مرسوم الخنكار
بحضرة قضاة القضاة ، شهدوا بأن ملك الأمراء
ناظر في مصالح الرعية ، والناس عنه راضية ،
وكانت هذه الشهادة عين الرياء ، واتباع الجاه
لأجل المناصب .

الفحص على كل من كان سببا لقتله ، وألزم الوالى
باحضار نسر الذى ذتل فى بيته

وفيه أخرج ملك الأمراء فجريدة الى ثغور
الاسكندرية بسبب عبت الفريج هناك بالمسافرين
وكان بها من العسكر نحو مائة انسان ، ما بين
مماليك جراكسه وأولاد ناس وستمانية وغير ذلك ،

وفى شهر ربيع الآخر - - وكان مستهل الشهر
يوم الثلاثاء - طلع فضاة القضاة الى القلعة وهنوا
ملك الأمراء بالشهر تم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس ثالثه خرج الأمير جانم
الحمزاوى الى السفر ، وقصد التوجه الى اسطنبول
فخرج فى موكب وصحبه الامراء الجراكسة
والمباشرون وأرباب الدولة من الأمراء العشانية ،
وقد أرسل ملك الامراء صحبته مقدمة حافلة الى
السلطان الملك المظفر سليم خان ، وكان ما اشتلت
عليه تلك المقدمة على ما قيل : من الحيول الخاص
خمسین فرسا ، وفيها بغلة قيل منتراها خمسمائة
دينار ، ومن الفماش الحرير والتفاصيل السكندرية
أشياء كثيرة ، ومن الشاشات المايى أشياء كثيرة
منها ما طوله مائة وعشرون ذراعا ، وأرسل اليه
ملك الأمراء من جملة هذه المقدمة خمسمائة
قنطار سكر معمولة بمسك ، ومن الأشرية والمربيات
أشياء كثيرة ، وأرسل اليه من الفصوص والمعادن
واللؤلؤ أشياء كثيرة ، ومن الصينى اللازوردى
والشفاف أشياء كثيرة ، وغير ذلك من التحف
الغريبة مما يهدى للملوك .

وفيه قدمت الأخبار من تونس ببلاد الغرب بأنه
قد وقع بها فتنة عظيمة بين صاحب تونس وبين
الشيخ محمد بن تليس صاحب بصرت ، وكانت
بينهما واقعة عظيمة فى أوائل صفر ، وقتل فى هذه

ثم ان ملك الأمراء قصد أن يكتب محضرا
ويأخذ عليه خط القضاة الأربعة بأن مصر فى غاية
العدل والرخاء والأمن ، فلم يوافقوه القضاة على
ذلك ، وقالوا نكتب خطوط أيدينا على شيء باطل
ويبلغ الخسكار بخلاف ذلك ، فنحنى على أنفسنا
منه أن نذكر أن مصر فى غاية العدل والأمن
والرخاء ، وأن التركمان لم يتوشوا على أحد من
الرعية ، وهذا باطل لا يجوز ، فرجع عن ذلك .

وفى يوم الخميس حادى عشره ، عمل ملك
الأمراء المولد الشريف النبوى بالقلعة ، وجلس
فى المقعد الذى بالحوش السلطانى ، وحضر
القضاة الأربعة على حكم السنة الماضية .

وفيه قدمت الأخبار من مكة المشرفة بأنه وقع
بين الشريف بركات أمير مكة وبين نائب جدة أغات
الكملية الذى يسمى الكيخية ، واضطربت أحوال
مكة الى الغاية .

وفى يوم الأحد رابع عشره ، خلع ملك الأمراء
على الأمير جانم الحمزاوى كاشف البهنا والفيوم
وقرره أمير الحج بركب المحمل ، فنزل من القلعة
موكب حافل

وفيه كانت كائنة الأمير جان بردى الأشقر ،
أحد الأمراء العشراوات ، وهو أخو تتم الذى
كان نائب الاسكندرية ، قيل انه عزم عليه شحص
يسمى تمر الظاهري ، فلما دخل عليها الليل وقع
بينهما تشاجر ، فثارت فى ذلك المجلس فتنة كبيرة
فقتل فيها جان بردى الأشقر ، ولا يعلم من قتله
من الحاضرين ، وقبضوا على من كان حاضرا ،
واختفى تمر صاحب البيت ، وكانت واقعة مهولة
فلما بلغ ملك الأمراء ذلك شق عليه قتل جان
بردى الأشقر ، فانه كان صاحبه ، فأخذ فى

المعركة نحو أربعين ألف انسان ، وآخر الأمر انتصر السلطان حسن بن محمد صاحب نوس على ابن تليس ، وغنم منه غنائم جزيلة ، ما بين مال وقماش وسلاح وخيول وجمال وغير ذلك .

وفيه نزل ملك الأمراء الى بولاق ، واقام بها الى قريب الظهر ، فأحضر اليه القاضي بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافلة ، ما بين خرفان شوى ، وقذور هريسة ، وماموية ، وفاكة وحلواء ، ومشموم .

ثم ان ملك الأمراء عرض المراكب الأغربة التي أنشأها ، ولعبت فدامه في البحر ، وانشرح في ذلك اليوم الى المايه ، ونصب له سحابة في الجزيرة التي تجاه انبابة ، وكان يوما مسهودا . وفي يوم الاثنين حادى عثريه ، كان عيد النصرى . وهو اول يوم الحماسين ، وكانت خماسين مباركة ، لم يظهر فيها الطاعون بمصر ، ولا في غيرها من الثغور .

وفيه توفي شرف الدين الجوينى الذى كان مباشر ديوان الأمير ازدمر الدوادار ، وبأمر أيضا ديوان الأمير كسباى المحتسب ، وكان لا بأس به . ومما وقع من الحوادث الشسعه ، أن امرأة مسلمة لبست مع شخص يهودى ، فلما شاع أمرهما فبص على اليهودى وعلى المرأة ، وعلى المكارى الذى أرك المرأة ، وفبص على شخص اسكافى كان واسطة بين المرأة واليهودى ، فلما عرض امرهم على ملك الأمراء ، أمر بضربهم بالمقارع ، وسجن المرأة بالحجرة ، وسجن اليهودى بالدلم ، حتى يكون من أمرهم ما يكون .

وفيه قدمت الأخبار من حلب : أن عبد الرزاق أخا على دولات ، وثب على ابن أخيه سوار ، وقد التفت عليه جماعة من التركمان البيضاء والأكراد .

فحصل بينهما واقعة مهولة ، فقتل بها جماعة كثيرة من التركمان ، وأشيع قتل سوار في المعركة ، وفد ملك عبد الرزاق من سوار الابلستين والمرعش وغير ذلك من البلاد ، واستمرت الحرب ثائرة بين الفريقين ثمانية أيام ، وانتصر عبد الرزاق على سوار ، ثم خمدت هذه الاشاعات من بعد ذلك كأنها لم تكن .

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الخميس ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعه ، وهنثوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفي هذا الشهر تزايد أمر الغلاء بالديار المصرية ، وبلغ سعر القمح ثلاث أشرفيات كل أردب ، وبلغ سعر الأردب الشعير أربعمئة درهم ، والفول ستمائة درهم كل أردب ، وشطح السعر في سائر الحبوب ، وبلغ كل رطل سمن أربعة أنصاف ، والشيرج ثلاثة أنصاف كل رطل ، والأجبان قاطبة في غابة الغلو ، واللحم الضأنى كل رطل بثمانية عشر درهما ، واللحم البقرى كل رطل بستة عشر نقرة ، وبلغ سعر السكر ثمانية أنصاف كل رطل ، وبلغ سعر العسل الأسود كل رطل ثلاثة أنصاف ، وبلغ سعر الصابون كل رطل خمسة أنصاف ، وعلى هذا فقس سائر البضائع والغلال وغير ذلك ، حتى بلغ سعر الراوية من الماء أربعة أنصاف ، وعم هذا الغلاء أنواع القماش قاطبة ، البياض والملون والحرير والصوف والجوخ ، وغير ذلك من القماش . وسبب ذلك الغش في المعاملة من الذهب والفضة ، وصار الأشرفى البرسبى يصرف بثلاث أشرفيات فضة ، والأشرفى القايتباهى يصرف بأشرفيين وثمانية أنصاف ، والأشرفى الغورى يصرف بأشرفيين وأربعة أنصاف ، وكذلك الأشرفى العثمانى ضرب الخنكار . وأما الفضة فجميعها في غاية الغش والفساد ، وصار

الناس في أمر مريب بسبب ذلك . وقد تغيرت أحوال الديار المصرية تصيرا فاحشا الى الغاية ، وفوق ذلك جور التركمان في حق أهل مصر من الخطف والنهب ، وأخذ أموال الناس بغير حق ، وخطف النساء والمرد من الطرقات .

ومن الوقائع الغريبة ، كائنة الشيخ محمد الرشيدى الذى كان ناظر الكسوة ، وناظر الجوالى وغير ذلك من النظارات ، وكان الخنكار قرره في ذلك ، وقد سعى له حليم جلبى في ذلك ، وكان من جماعة الخنكار ، فاستمر على ذلك . ثم سعوا في الرشيدى من عند ملك الأمراء ، فأخرج عنه ما كان بيده من النظارات ، فحصل له غاية القهر ، فاخفى وخرج في الدس صحة بعض الهجانة على أنه يتوجه الى الخنكار بشكو له ملك الأمراء الذى أخرج عنه النظارات التى كان الخنكار قرره فيها ، فلما وصل الى قطبا قبض عليه نائب قطيا ، وعلى الهجان الذى كان صحبتته ، وقال له أمعك مرسوم ملك الأمراء ، فقال انما رسم لى مشافهة ، فضيق عليه نائب قطيا ، فاعترف الرشيدى أنه خرج هاربا من ملك الأمراء . فقبض عليه نائب قطيا ووضعه في الحديد ، وأشيع أنه شنق الهجان هناك ، وأرسل الرشيدى في الحديد الى ملك الأمراء . فلما وقف بين يديه وبخه بالكلام ، وقال له أنت تتوجه الى الخنكار وتشكونى له . ثم ان ملك الأمراء رسم بسجن الرشيدى في العرفانة التى هي داخل الحوش السلطانى .

وفيه أرسل ملك الأمراء بالقبض على شخص يسمى محرات مقدم ، كاشف الغريبة ، وقد كثرت فيه الشكاوى من الفلاحين ، وأشيع عنه أنه ضرب شخصا من الفلاحين حتى مات تحت الضرب ، فلما

مثل بين يدى ملك الأمراء أمر بتوسيطه فوسطوه في باب زويلة .

وفي ذلك اليوم رسم ملك الأمراء بشنق اثنين من الكمالية لأمر أوجب ذلك .

ومن الحوادث أنه في يوم الثلاثاء سادسه ، وقع للأمير قايتباى الدوادار واقعة مهولة ، وهى أنه سار الى نحو المطرية وعاد ، فلما دخل من باب النصر ، وجد عند وكالة الصابون بعض الانكشارية قد أخذ من شخص يبيع الصابون خمسة أرطال ، ودفع اليه ثمانية أنصاف ، وكان الصابون قيمته أشرفيا ، فلما رأى صاحب الصابون الأمير قايتباى الدوادار تعلق بلجام فرسه ، وقص عليه قصته ، وكان الانكشارى ضرب صاحب الصابون حتى آدمى وجهه ، فأرسل الأمير قايتباى مع صاحب انصابون بعض مماليكه الى الانكشارى لعله يعطى صاحب الصابون شيئا فوق ذلك القدر ، فلما قابل ذلك المملوك الانكشارى أغلظ عليه المملوك في القول ، فحنق منه الانكشارى ف ضرب المملوك على وجهه فأدماه . ثم ان المملوك ضربه على وجهه بدبوس فأدماه ، فأتسعت الفتنة بينهما ، فمضى الانكشارى الى أصحابه وأعلمهم بما جرى له مع مملوك الدوادار ، فاجتمع الجرم الكثير من الانكشارية وتوجهوا الى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، وهجموا عليه ، وبأيديهم سيوف مسلولة ، وقصدوا أن يحرقوا بيته وينهبوه فاخفى منهم . فلما بلغ الكيخية أغات الانكشارية ركب ورد الانكشارية ، وخمدت تلك الفتنة . فلما بلغ ذلك ملك الأمراء شق عليه ذلك ولام الأمير قايتباى الدوادار على ما فعله .

ثم ان ملك الأمراء أرسل طلب المملوك الذى ضرب الانكشارى وأثار هذه الفتنة ، فلما مثل

بين يديه أمر بضربه فضر به ضرباً مبرحاً ، وسجن بالعرقانة ، فسكن ذلك الاضطراب قليلاً ، وصار الأمير قايتباي على رأسه طيرة من الانكشارية ، وهو مهدد بالقتل منهم في كل يوم ، وزعم الانكشاري الذي ضرب أنه سقط منه خنجر مفضض وسيف ، وادعى أنه كان معه ثلاثون ديناراً فسقطت منه ، فدفع اليه الأمير قايتباي الدوادار عشرين ديناراً على ما أشيع . هكذا قيل . وصار الأمير قايتباي لا يأمن على نفسه أن يطلع القلعة وحده ، وكان يركب في كل يوم ومعه جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، ويتوجه الى قبة يشبك التي بالمطرية ، ويقوم بها الى آخر النهار ، ثم يعود الى داره ومعه المماليك الجراكسة ، فاستمر على ذلك أياماً ، ثم خمدت تلك الفتنة والله الحمد .

وفي يوم الجمعة تاسعه ، قدمت الأخبار من حلب بأن خارجياً من التركمان يقال له جلال المهتدي ، قد تصدى لمحاربة الأمير على بن شاه سوار ، والتفت عليه جماعة كثيرة من التركمان . وكان جلال هذا من قرية بالروم يقال لها اعلاق شري بوز ، فكان بينه وبين الأمير على بن سوار واقعة مهولة ، وقتل من التركمان بها نحو ثلاثة آلاف انسان ، وأشيع أن الأمير ابن سوار قد جرح في وجهه بطبر ، وانتصر ابن سوار على ذلك الخارجى الذى يقال له جلال المهتدي ، وفر منه الى بلاده ، فخلع ملك الأمراء على الهجان الذى أتى بهذا الخبر ، ثم خمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن .

وفي ليلة الخميس خامس عشره ، خسف القمر ، وأظلمت الدنيا ، فأقام في الحسوف نحو ساعة ثم انجلي عنه ذلك الخسوف .

وفي ذلك اليوم قبض القاضي بركات بن موسى المحتسب على أخى محمد بن خير ، وضربه ضرباً

مبرحاً حتى كاد أن يهلك ، ثم أشهره في بولاق . وكان سبب ذلك أنه حجز على بيع الفول ، وصار يشتريه على ذمته ويحزونه ، فشطح سعر الفول في تلك الأيام ، وكان أخوه محمد بن خير متحدثاً في أمر الغلال التى كانت ترد من البلاد قاطبة ، وكان محتماً بالأمير جانم الحمزاوى ، فجار على الناس بسبب بيع الغلال ، فحنق عليه القاضي بركات بن موسى وضربه كما تقدم .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء كان سعر الذهب العثمانى أن يصرف بأشرفيين ، وكان قبل ذلك يصرف بأشرفيين وخمسة أنصاف ، وصار البيع يبعين بيع بالذهب ، وبيع بالفضة ، فوقعت أحوال الناس بسبب ذلك .

ثم ان ملك الأمراء نادى في القاهرة بأن لا أحد من الناس يرد محاملة الفضة ، وكل من ردها تنق من غير معاودة ، وكانت الفضة يومئذ في غاية الغش كلها نحاس ، اذا باتت ليلة واحدة تنكشف كلها ، وكانت الانكشارية تدخل الأسواق وترمى تلك الفضة النحاس على التجار ، فكل من رد منها شيئاً تنهب دكانه ، ويضرب ذلك التاجر حتى يأخذها غصبا على رغم أنفه ، فيأخذون منه أشرفيا ذهبيا ويعطونه أشرفيين من تلك الفضة النحاس ، فحصل للناس في ذلك غابة الضرر الشامل .

وفي يوم الجمعة سادس عشره خطب في مدرسة الست خديجة ابنة درهم ونصف ، التى بالقرب من جامع التركمانى عند طاحون السدر ، فاجتمع هناك قضاة القضاة الأربعة ، وأعيان المباشرين ، وأعيان الناس ، وخطب بها في ذلك اليوم قاصى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وكان ذلك اليوم مشهوداً .

وكان أصل هذه المدرسة قاعة أنشأها الدرهم ونصف ، ثم بدا لابنته خديجة أن يجعلها مدرسة ،

فأنشأت بها المحراب وجعلت بها منبرا ومئذنة ، وجعلت فيها خلاوى للصوفية ، ثم أنها وقفت عليها جميع جهاتها المختلفة عن والدها ، فجاءت من محاسن الزمان ، وكان ذلك عين الصواب ، وفصدت بذلك الأجر والثواب

وفي هذا الشهر قدم جماعة كثيره من اسطنبول ممن كان نفى اليها من الأعيان بالديار المصرية ، منهم كمال الدين بن معين الدين الموفق ، وابن نصر الله ، ومرعى الذي كان من جماعة الأتابكي سودون العجمي ، وأحمد الضيروطي ، ومحمد بن فروشيخ جهات الأميرية ، وحضر محمد بن ابراهيم الذي كان متحدثا على الزمامية ، وحضر محمد ابن القاضي فخر الدين بن العفيف الذي كان كاتب المماليك ، وحضر محمد بن علي كاتب الحزانة ، وحضر ابن العسريطي ، وحسام الدين بواب الدهيشة ، وآخرون منهم لم يحضرني أسماؤهم الآن ، والكل فروا من اسطنبول من غير اذن من الخنكار ابن عثمان .

وحضر جماعة من السيوفيه والحدادين والنجارين والبنائين والمرحمين وغير ذلك ممن كان توجه الى اسطنبول ، فحصر الكل هارين من غير علم السلطان ، فلما حصروا أشيع موت ابن سقيرة التاجر الذي من سوق مرجوش ، وأشيع موت جماعة كثيرة هناك من اعيان اهل مصر قبل ذلك . وقدمت الأخبار ب وفاة جاز بك دوادار الأمير طراباي ، وكان من وسائط السوء . وتوفي محمد ابن يوسف الذي كان ناظر الأوقاف ، وكان من وسائط السوء أيضا . وتوفي محمد المسكي الذي كان من سوق الوراقين ، وتوفي هناك جماعه كثيرة لم يحضرني أسماؤهم الآن .

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من اليهود الصيارفة ، من جماعة المعلم يعقوب اليهودي .

فضربه بالمقارع ثم قطع يده وعلقها في عنقه ، وأشهره في القاهرة ... وكان سبب ذلك ما أنسب عنه أنه يشتري الفضة النحاس المفشوشة ، ويضعه في الجامكية ، وقد قلق العسكر من ذلك

وفي يوم الخميس تاني عشريه ، كان دخول الشرفي يحيى ابن الأمير طراباي رأس نوبة التوب على ابنه الأمير بيبرس ابن بنت سيرين ، وليس أعلم اسم أبيه ولا جده ، وهو يزعم أنه ينتسب الى الملك الظاهر برقوق بقوله ، فكان كما يقال في المعنى .

شبهته مثل العقاب فأمه

معلومة وله أب مجهول

فكان له مهم حافل من المهمات المشهورة ، فصرف على المحبوز في السماط ألف دينار ، ودبح فيه اثنتي عشرة بقرة ، ومن الخيل ثلاثة رؤس ، ومن الغنم مائة رأس . ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز مائتي زوج ، وصرف على الشمع المزهر مائة دينار ، وصرف على الخيام والتعليق أربعين دينارا ، وعلى السقائين عشر أشرفيات ، وكان له زفة حافلة مشى فيها جماعة من الأمراء الجركسة والأمراء العثمانية ، فمشوا فيها من بيت الأمير قانتباي الدوادار الى بيت القاضي عبد العظيم الذي عمل فيه العرس وكانت ليلة حافلة . وفيه رسم ملك الأمراء بشنق شخص من عمال البلاد ، فشنع على قنطرة الجاجب بعد العصر ، وكان سبب ذلك ما أشيع عنه أنه زور مراسيم على لسان بعض المباشرين باستخراج الرزق التي بالغربية ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل أحضره ، فلما حضر أمر بشنقه من يومه ، فشنع بعد العصر وأراح الله الناس منه .

واستهل شهر جمادى الآخرة يوم الجمعة ،
فطلع القضاة الأربعة الى القاعة وهنأوا ملك الأمراء
بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الاثنين رابعه قدم قاصد من البحر
المالح وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليم
خان ابن عثمان ، فكان من مضمونها : انه ارسل
يطلب الأمير كمشبغا والى القاهرة ، وقد بلغه
ما فتحه من أبواب المظالم بمصر ، وقد كثرت فيه
الشكاوى من الناس عند الخنكار ، فطلبه من
ملك الأمراء عدة مرار ، وهو يتناسى عليه ، فلما
رأى الطلب حثيثا فى أمره ، فما وسعه الا أن
أرسله ، فخرج على وجهه فى أثناء هذا الشهر ،
وسافر الى اسطنبول من البر دون البحر . وكان
من وسائل سوء ظالما غشوما ، عسوقا سفاكا
للدماء ، استباح أموال المسلمين ودماءهم ، فلم
يتأسف لخروجه أحد من الناس ، وفرح غالب
الناس لخروجه من مصر . وكان أصل كمشبغا
هذا من ممالك ملك الأمراء رومى الجنس ، سبىء
الخلق شديد البأس ، فلهج الناس بعدم عوده
الى مصر .

وفى يوم الثلاثاء خامسه توفيت الست فضل
العزيز ، وكانت يومئذ متزوجة بالشيخ عبد المجيد
الطرينى ، فكانت لها جنازة مشهورة

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع للشيخ عبد المجيد
الطرينى بسبب القتل الذى قتل ، واتهموا
به جماعته ، واتسعت هذه الكائنة حتى كاد أن
تخرب دياره فى هذه الحركة ، وأمرها مشهور بين
الناس بما وقع له بالمحلة ، واتصل خبرها بملك
الأمراء ، وكان من أمرها ما بطول شرحه ، وتعصب
لأبى الصبى الذى قتل الشيخ عبد الله بن الغمرى ،

وآل أمر هذه الكائنة الى مال له صورة غرمه
الشيخ عبد المجيد الطرينى .

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام
الأمير جان بردى الغزالى تغير خايله على قاضى
القضاة الشافعى ، والدين محمد ابن قاضى
القضاة شهاب الدين أحمد بن ترقور الدمشقى ،
فهم بقتل القاضى ولى الدين غير ما مرة ، ففر منه
واختفى مدة طويلة ، ثم ظهر بعد ذلك بمدينة
حلب ، قيل انه كاتب ابن عثمان بما وقع له مع
الغزالى ، فأرسل اليه مرسومه بأن يلى قضاء
الشافعية بحلب ، فاستقر بها وأرسل لاجتماع عياله
وأولاده من دمشق ، وتزوج بالست حلية زوجة
القاضى محمود كاتب السر بن آجا ، وصار صاحب
الحل والعقد بمدينة حلب ، فشق ذلك على جان
بردى الغزالى نائب الشام ، ولولا أن تدارك
القاضى ولى الدين وفعل ذلك لقتله الغزالى
لا محالة .

وكان سبب الوحشة بينه وبين الغزالى ، أن
الغزالى قبض على شخص من المباشرين ، فوجد
معه ثلاث مطالعات متوجهة بها الى الخنكار ،
احداها بخط القاضى ولى الدين الشافعى ،
والأخرى من عند شخص يسمى المظفرى شيخ
المدرسة التى أنشأها الخنكار بدمشق ، والثالثة
من عند نائب دمشق ، فكان من مضمون تلك
المطالعات عدة شكاوى الى الخنكار فى الغزالى
نائب الشام ، بأنه قد أظهر العصيان وهو يعمل
فى برق عظيم ، وقد التفت عليه جماعة كثيرة من
المماليك الجراكسة . فلما بلغ ذلك القاضى ولى
الدين ، فر من الشام واختفى ، حتى ولى قضاء
حلب ، وأمره مشهور ، وصار الغزالى فى قهر من
القاضى ولى الدين ، وقيل انه شنق المظفرى ،

وشتق الهجان الذي وجدت معه تلك المطالعات ،
ولو ظفر بالقاصي ولي الدين لتنقه أيضا

وفي يوم الجمعة خامس عشره توفي محيي الدين
البليسي احد نواب الشافعية وكان لا بأس به .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره توفيت زوجة المقر
الشهابي أحمد بن الجيعان ، وكانت چركسية
الجنس تدعى شهددار ، وكانت بديعة في الحسن
والجمال من أجل النساء حسنا ، فافتتن بها المقر
الشهابي أحمد ابن الجيعان حتى شغلته عن أحوال
المملكة ، قيل انها كانت تحسن الضرب بالسبع
آلات المطربة ، وهي الجنك والعود والصنطير
والقانون والدربج والكمنجا والصيني . وكان
أصل شهددار هذه من جوارى ابنة الأمير يشبك
بن مهدي الدوادار الكبير ، فادعت انها معتوقة
فتزوجها الشهابي أحمد بن الجيعان ، وأمهرها
مائتي دينار ، ودخل عليها فأحبها حبا شديدا دون
سائه ، وافتتن بها الى الغاية ، وأقامت عنده مدة
طويلة ، ثم بين بعد ذلك انها في روى ابنه الأمير
يشبك الدوادار ولم يثق ، وصار الخوف فيها الى
بنت الأمير يشبك الدوادار ، فاشتراها المقر الشهابي
أحمد بن الجيعان من الورثة بخمسمائة دينار ،
وقاسى بسببها مشقة عظيمة زائدة ، فأقامت عنده
مدة ، ثم انها مرضت وتزايد بها المرض حتى
ماتت ، فحصل له عليها حزن شديد وتأسف عليها
حتى كاد أن يموت من الحزن ، واستمر مغبما
بالتربة أياما ، وبادر اليه الناس بالتعزية والسلام
عليه ، وصنع عدة مأتم ، واجتمع هناك القراء
والوعاظ ، وعمل فيها الشعراء عدة مرات بديعة ،
قيل لما توفيت زوجه زين الدين عمر بن الوردى
أنشأ يقول :

إذا ما زوجة الانسان ماتت
فما بقيت لمسكنه مسكنه

وكيف يطيعه نظم ونثر
ولا بيت لديه ولا قرينه

ويغرب من هذه الواقعة التي وقعت للشهابي
أحمد بن الجيعان ، ما وقع ليزيد بن عبد الملك بن
مروان ، وذلك أن أحد الخلفاء الأموية قد اشترى
جارية مولدة من مولدات البصرة ، وكانت تسمى
حبابة ، اشتراها بألف دينار ، وكانت تشتغل على
جملة من المحاسن ، منها أنها كانت تضرب بالعود
والجنك والقانون وسائر آلات الطرب ، وتحسن
الغناء الجيد وتنظم الشعر ، وتحسن العربية ، ولها
خط جيد ، وتلعب بالنرد والشطرنج ، وكانت
بديعة الجمال ، فافتتن بها يزيد بن عبد الملك وأحبها
حبا شديدا حتى أنها شغلته عن أمور الخلافة
والنظر في أحوال الرعية ، فاتفق له في بعض الأيام
أنه توجه الى بستان في دمشق ، وصحبته تلك
الجارية ، وقال لوزرائه وحجابه اذا كان الغد فلا
يخبرني أحد منكم بشيء من أمور المملكة ، ولا
بكتاب يرد من سائر الجهات قاطبة

فلما استقر بالبستان أحضر سفرة الشراب ،
ودارت بينهما الكاسات ، ولم يكن في المجلس غير
يزيد وحظته حبابة ، فبينما هما في أرغد عيش ،
اذ تناولت حبابة رمانة لتأكلها فشرقت بحبة من
الرمان ، فوقفت في حلقها فأنحنقت واضطربت
اضطرابا شديدا ، فخرجت روحها في الوقت
والساعة فلما عاين يزيد ذلك كادت روحه أن
تزهق من جسده ، وتأسف على حبابة غاية الأسف .

قيل لما ماتت أقامت سبعة أيام لم تدفن وهي بين
يدبه شاهدها ويقبلها ويقول ما نظرتها في عيني
أحسن من اليوم ، فلما جافت وتغيرت هيئتها ، ركب

عليه آثاره وابن - من وفتحه ، حتى ما قبله ، وأخذوا
فتات البخارية والبردا ، فالج ودفنوها ، واستمر
يرد في الأسف والحنين حتى مات بعدها بسنة
بمسيرة .

وفي هذا السير انما رمت أحوال القاهرة ،
منافسة الأسوان في الذهب والفضة ،
بجعل ملك الأمراء على الأسواق انكشارية بسبب
صرف العنايف الذهب بأكثر من أشرفيين فضة ،
وأشيع أن شخصا حجازيا من الصيارفة صرف
أشرفيا ذهبيا بأشرفيين فضة وخمسة أنصاف ، فرسم
ملك الأمراء بإشارة في القاهرة وخزم أنه ، وعلق
مها الميزان بم شنته فراح ظلما

وفيه توفي محمد الرئيس فتات العنبر رئيس
المجطين ، وكان أستاذا في صناعة الحبال ، وكان
ثاق على يريوه في هذا الفن .

وفي يوم الاثنين الخامس عشرية قدم ابن الشريف
بركات أمير مكة وهو الذي يسمى تفيه وصحته
صهره عرار ، فلما حضر خرج امراء الجرائسة
والأمراء العثمانية الى مازقائه ، فدخل القامره في
موكب حافل ، وقدامه الانكشارية يرمون بالنفوط ،
فلما سعد الى القلعة تلقاه ملك الأمراء من وسط
الجوش السلطاني ، وبالح في اكرامه الى الغاية ،
وخلع عليه ققطانا ، وخام على من معه من العريان
وانزلهم في مكان أعده لهم .

وفيه توفي الأمير طقطباى استادار الصحة ،
أحد الأمراء العشراوات ، فلما مات دفنه ملك
الأمراء في مدرسته التي بباب الوزير .

واستهل شهر رجب يوم السبت ، فطلع القضاة
الأربعة الى القلعة ، وهنؤا ملك الأمراء بالشهر ، ثم
عادوا الى دورهم . وفي ذلك اليوم قرىء كتاب

الشريف بركات أمير مكة بحضرة القضاة ، فكان
من مضمونه أنه أرسل يطلب من ملك الأمراء
استقرار قاضي القضاة الشافعية بمكة صلاح الدين
ابن ظهيرة على عادته فأجيب الى ذلك . ثم عين في
ذلك اليوم فاض مالكي وفانن حنبلى الى المدينة
الشريفة ، وانضم المجلس على ذلك .

وفي يوم الأربعاء خامس رجب ، طاح ابن أبي
الرداد بإشارة النيل المبارك ، وجاءت القاعدة ستة
أذرع وعشرة أصابع ، وكانت في العام الماضي أربعين
من ذلك بعشرة أصابع .

وفي يوم الخميس سادسه ، رسم ملك الأمراء
بشئى شخص من اعيان الاصباويه وكان من أكبر
المفسدين ، يحطف النساء والمرد والعنائم القلهر
الاحمر ولا يجد من يرد عنه ذلك ، فلما كثرت فيه
الشكاوى نهض على شنته ملك الأمراء ،
فرا موسى احد امراء ابن عثمان ، ونام في ذلك
تايه القيام ، وأغلظ على ملك الأمراء في التمول ،
وقال له الخنكار ما يدري بشئ من ذلك ، فلما
شئى ذلك الشخص عز على الاصباوية وتأسفوا
عليه ، وأنزلوه عن المشقة وغسلوه وكفنوه ودفنوه
وفيل شئى معه في ذلك اليوم اثنان من الاصباوية ،
وكانا من كبار المفسدين ، وهما اللذان توجهتا الى
بيت شاد البرلس ، ونهبا ما فيه وسبيا حريمه ، ولم
يكن له ذنب يوجب ذلك ، وتقدم القول على هذه
الواقعة .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشره ، خرج قاسم
الشروانى الذى كان نائب جدة وعزل عنها وجرت
عليه شذائد ومحن ، وسجنه ملك الأمراء بالعرقانة
وقيده ، ثم ان الخنكار ابن عثمان أرسل طلبه
فتوجه الى اسطنبول وسافر اليها في ذلك اليوم .

ومن الحوادث . في هذا الشهر أن ملك الأمراء تكلم مع القضاة الأربعة بأن يحففوا من نوابهم ، وأغلظ عليهم في القول ، فاقترص قاضي القضاة الشافعي على خمسة عشر نائبا ، وأما القاضي الحنفي فانه عزل نوابه كلهم واقتصر على اثنين ، وهما شهاب الدين بن شيرين ، وابن بنت البدرى محمد ابن الدهان ، الذي كان شيخ الجامع المؤيدي . فاما القاضي المالكي فاقترص على سبعة من النواب ، وأما القاضي الحنبلي فاقترص على سبعة من النواب أيضا ، ولم يتم ذلك فيما بعد ، وحصل للنواب في هذه الحركة غاية الضرر . وكان سبب ذلك أن نائبا من نواب القاضي الحنفي طلب امرأة الى الشرع فامتنعت من الحضور ، فقبض عليها القاضي ، وضربها نحو ثمانين عصا ، وقع له مثل ذلك مرتين . ثم ان امرأة طلعت وشكته الى ملك الأمراء فمقت القضاة بسبب نوابهم وما يفعلونه ، وقال لهم اغزلوا جماعة من نوابكم المناجيس .

وفيه توفي الأمير ماماي الساقى أحد الأمراء العشراوات الطبلخانات ، وكان أصله من مساليك السلطان الغوري ، وكان رئيسا حنسا لابأس به فنزل ملك الأمراء وصلى عليه وكانت جنازته حافلة . وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، كان ختان ولد القاضي شهاب الدين أحمد بن شيرين أحد نواب الحنفية ، فكان له زفة حافلة ، مشي فيها أعيان الناس من المباشرين وغير ذلك .

واستهل شهر شعبان يوم الاثنين ، فضعد القضاة الأربعة وهنؤا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم . وفيه كانت كائنة محب الدين ابن أصيل الكفيف . فكان من ملخص واقعه أنه كان بيده مشيخة المدرسة الشيخونية والجلالية ، أخذها بنزول شخص من القضاة عنها فأقامت بيده مدة ، ثم اتدب له من رافعه ، وقال له شرط

الواقف أن تكون مشيخة الجمالية لأعلم علماء الشافعية ، وأنت شخص عار عن العلم ، فأخرجه ملك الأمراء ، وقرر بها شيخ الاسلام زين الدين زكريا الشافعي ، فشق ذلك على محب الدين بن أصيل ، وحصل له غاية البهدة من ملك الأمراء وقصته مشهورة بما جرى له

وفيه وقعت كائنة عظيمة للأمير الماس أخى أمير آخور كبير قرقماس ابن ولى الدين ، وكان من ملخص هذه الواقعة أنه كان عند الأمير الماس مملوك عايق يتزيا بزي العثمانية ، ويخرج بالليل يقطع الطريق ويخطف العمائم ، وقد وجدنا هذا المملوك يقطع الطريق في بولاق وغيرها من الأماكن فقال ملك الأمراء هذا مملوك من ؟ فقيل له مملوك الأمير الماس ، فقال له ملك الأمراء ليش ما كنت ترجع مملوكك عن الفساد ؟ فقال الماس ما كان يسمع لى . فقال ملك الأمراء ليش ما كنت شكوته لى وأنا كنت أنصفك منه . فطال بينهما الكلام . ثم ان الأمير الماس أغلظ على ملك الأمراء في القول فحنق منه فبطحه على الأرض ، وضربه ضربا مبرحا حتى عاين الموت ، قيل ضربه عشر نوب . ثم رسم بنفيه الى منفلوط ، وقيل الى قوص ، ثم رسم بتسليم ذلك المملوك الى الوالى ليعاقبه ، وخرج الأمير الماس منفيا من يومه

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من الصيارف الحجازيين ، وكان يجلس عند شخص بسوق الباسطيين ، فلمسا قبض عليه رسم بشنقه فشفع فيه خير الدين نائب القلعة ، وغرم مبلغا له صورة ، حتى سلم من الشنق ، ولا ذنب عليه يوجب ذلك سوى انه خالف المناداة وصرف أشرفيا ذهبيا بخمسة وخمسين نصفا بزيادة خمسة أنصاف فكاد أن يشنق ظلما .

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق خمسة أنفار مسكهم شيخ العرب ابن أبى الشوارب ، زعم أنهم

كانوا من أكابر المنسحر وأعيان المنسدين . فلما قبض عليهم ابن أبى الشوارب ، أرسل كاتب ملك الأمراء بذلك ، فأرسل اليه القاضى بركات بن موسى المحتسب . فأحضرهم الى القاهرة ، فرسم ملك الأمراء بشنقهم ، فشنعوا . وشتق في ذلك اليوم شخص من الناس زعموا أنه سرق ازارا وتقابا وشعرية فراح ظلما . وكان ملك الأمراء عجولا في أمر القتل .

وفيه نزل ملك الأمراء وسار الى نحو بلقيس ، ثم رجع من هناك ودخل من باب النصر وشتق القاهرة ، فلما شق منها لم يدع له أحد من الناس بالنصر ، ولا زغرت له النساء من الطيقان ، بل أغلظ عليه بعض العوام ، وقال له انظر في أحوال المسلمين بالشفقة بسبب الخبز والدقيق ، وسائر الأسعار ، فان البضائع متشحطة .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه توفي القاضى شمس الدين محمد بن عبد الكافى ، أحد بواب الشافعية ، وكان من أعيان النواب ، وكان ضخم الجسد مثقلا بالشحم جدا .

وفي يوم الأربعاء عاشره كان أول مسرى من الشهور القبطية ، ففيه زاد الله في النيل المبارك عشر أصابع ، فسر الناس بذلك ، وكان في أول الزيادة صار يسلسل في الزيادة أصبعا أصبعا على عشرة أيام متوالية ، ثم في اليوم الثانى من مسرى زاد الله في النيل المبارك خمس عشرة أصبعا في دفعة واحدة فسر الناس بذلك الى الغاية

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره كان ختان أولاد النصف من شعبان ، فأقرأ ملك الأمراء في تلك الليلة ختمة بالقلعة ، واستدعى القضاة الأربعة . فلما تكامل المجلس شرع قاضى القضاة محبى الدين

يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى تتكلم مع ملك الأمراء بأن يشفع في الفاصى نور الدين على الفيومى ، وقد تقدم القول أن ملك الأمراء تغير خاطره عليه فنفاه الى دمنهور ، وأقام بها مدة طويلة . فلما شفع فيه القاضى المالكى رسم باحضاره من دمنهور ، وكان أحد بواب الحنفية فكثرت فيه الشكاوى ، وكان غير محمود السيرة

ثم في ذلك المجلس شفع قاضى القضاة المالكى أيضا في شمس الدين محمد السرماجى ، فتوقف ملك الأمراء في أمره قليلا ، وعد له جملة مساوى ، فلا زال قاضى القضاة يتلطف به حتى رضى عليه ، وكان منعه أن يعمل قاضيا أو شاهدا ويلزم بيته دائما ، فكتب عليه قسامة بذلك فرضى .

ثم ان قاضى القضاة شفع في نور الدين على الحسنى المعروف برصاص المؤذن بأن تعاد له وظائفه التى كانت في المدرسة العورية ، وكانت خرجت عنه لما توجه الى اسطنبول وأقام بها ، فلما شفع فيه رسم له باعادة وظائفه التى كانت بالعورية ، وكان قاضى القضاة المالكى عند ملك الأمراء من المقربين ، وكان يحضر مجلس محاكماته في كل يوم سبت ، ويفصل المحاكمات بحضرة ملك الأمراء ، ورأى في أيامه غاية العز والعظمة فوق ما رآه قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة في أيام الملك الأشرف قانصوه الغورى ، فعند من النواذر اطاعة ملك الأمراء لقاضى القضاة المالكى في جميع ما كلمه فيه في ذلك المجلس بالاجابة ، ولم يرد له شفاعته في ذلك المجلس في أمر من الأمور

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأن الأمير جانم الحمزاوى ، لما وصل الى اسطنبول ، قابل الخنكار وقبل منه الهدية التى أرسلها معه ملك الأمراء ، وأكرمه الى الغابة ، وأذن له بالعود الى مصر ، وهو واصل عن قريب .

وأشيع في الأخبار الواردة من اسطنبول ، أن جماعة من الأعيان تسحبوا من اسطنبول ، منهم القاضي علاء الدين ناظر الخاص على ابن الامام ، وأخوه محمد ، والقاضي أبو البقاء ناظر الاسطبل ، وأخوه يحيى أولاد ابراهيم المستوفى . وبهاء الدين ابن البارزى وجلال الدين بن الشبراوى وآخرون من المباشرين الذين هناك . فلما بلغ الخنكار تسحبهم من اسطنبول ، شق عليه ذلك وأرسل خلفهم ستين شاويشا ، فقبضوا عليهم من أثناء الطريق ، ووضعوهم في الحديد ، وقاسموا من البهدة والاخراق بهم ما لا يمكن شرحه ، ودخلوا بهم الى اسطنبول ، وهم مشاة في الحديد ثم سجنوهم ولا يعلم ما جرى لهم بعد ذلك .

وفيه قدمت الأخبار من بلاد المغرب بأن الفرنج توجهوا الى مدينة جربة — وهى من أجل المدن — ثم ان جماعة من ملوك الفرنج حاربوا من بها من ملوك الغرب ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة ، قتل بها من الفريقين نحو ثلاثين ألفا ، وكانت النصره لصاحب جربة على ملوك الفرنج ، وغنموا منهم أشياء كثيرة .

وفي يوم السبت عشريه ، خلع ملك الأمراء على ابن الشريف بركات أمير مكة ، وخلع على صهره عرار وأذن لهما بالعود الى بلادهما ، فكان لهما موكب حافل . فلما شقوا من القاهرة كان صحبتهما الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية والجم الكثير من الانكشارية يرمون بالنفوط ، وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشريه كان ختان أولاد قاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين الفتوحى المعروف بابن النجار ، فكان له زفة حافلة ، مشى فيها جماعة من الأعيان ، لكن فصر وصفها عن زفة

أولاد قاضى القضاة محبى الدين الدميرى المالكى ، وابن الحسام المنجلى .

ومن الحوادث الشنيعة ، أن شخصا يقال له محبى الدين بن مشرى البزدار . له ابنة صغيرة لها سن العمر نحو سبع سنين ، وكان أبوها ساكنا في المراغة بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكان على رأس تلك البنت كوفية ذهب ، فوقفت تلعب مع الصغار في الحارة ، وكان لهم جار صبى أمرد يعمل صنعة القمریات ، فلعبت عينه على الكوفية الذهب التى على رأس البنت ، فلعب بعقلها وقال لها أمك في السيدة نفيسة وأرسلت تطلبك هناك ، فمضت معه وأخذ معه عبدا أسود ، فلما مضوا توجهوا بتلك البنت الى تربة خراب خلف مزار السيدة نفيسة ، فذبحوها هناك وحملوها وألقوها في فسقية موتى هناك ، وأخذوا الكوفية التى على رأسها ، وتركوها تتلعب في دمها ، فأقامت هناك يوما وليلة ، فكش التفطيش عليها من أمها وأبيها ، فنزل أبوها الى السوق وأوصى التجار على الكوفية الذهب التى كانت على رأس ابنته ، فاذا رأوها فليأتوه بها .

فبينما هو في الصاغة واذا بالصبى الأمرد الذى أخذ الكوفية وذبح البنت في الصاغة ومعه الكوفية ، فأشهرها في المناداة ، فتناهى سعرها الى أربعين أشرفيا ، فقال له بعثك فقال له الدلال أحضر لك ضامنا ثقة فلم يجد من يضمنه ، فقبضوا عليه ، وأحضروا أبا البنت فقبض عليه ، وتوجهوا الى باب الأمير كمشبقا ، فلما عرضوه على الوالى ضربه بعض عصى فأقر أنه أخذ الكوفية عن رأس البنت وذبحها ورمها في فسقية موتى خلف مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فقالوا له امض معنا وأرنا ذلك المكان الذى رميتها فيه ، فخرج معهم وهو في الحديد ، وأتى بهم الى تلك الفسقية التى

رماها بها ، فنزل أبو البنت إليها فوجدتها راقدة
وهي مذبوحة وفيها بيض روح ، ولم يقطع
وربدها من الذبح ، فحملها وطلع بها من تلك
الفسقية .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل فأحضر الجميع
بين يديه ، وقصوا عليه قصة الصبي ، وما جرى
له مع البنت ، فحزن عليها ملك الأمراء وقال لها
من فعل بك هكذا فأشارت الى الصبي والعبد
الأسود الذي على باب البيت الذي منه البنت ،
وأحضروا للبنت من قطب لها مكان الذبح الذي
برقتها ، وعاشت بعد ذلك وبرئت من الذبح ،
فعد ذلك من العجائب والنوادر الغريبة .

قيل ان البنت لما رماها الصبي في الفسقية وهي
مذبوحة ، حكى لأمرائها وقالت لما مت في الفسقية
دخلت على امرأة وعلى وجهها برقع ، وقالت لا تخافى
أنا السيدة نفيسة ، وغدا أخلصك من هذا المكان ،
ثم مسحت الدم من رقبتى فانقطع في الحال ، وسكن
روعى مما كنت فيه . وهذه الواقعة قد اشتهرت
في القاهرة .

وفي شهر رمضان وكان مستهله يوم الثلاثاء ،
طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر
ثم رجعوا الى دورهم . وفي ليلة الرؤيا توجه
القاضى بركات بن موسى المحتسب الى المدرسة
المنصورية التى بين القصرين واجتمع القضاة الأربعة
هناك ، فلم تثبت رؤيا الهلال الا بعد العشاء ،
فلما رجع القاضى المحتسب الى داره ، لاقاه ابن
عوض بالفوائس ، وعدة مشاعل كثيرة ، وكانت
له ليلة حافلة .

ومن العجائب أن النيل المارك كان على وفاء ،
ولم يتأخر عليه غير أربع اصابع ، فأشيع بعد العصر

أن النيل نقص في تلك الليلة أصعبين ، فاضطربت
أحوال الناس بسبب ذلك ، وكان قد مضى من
مسرى أحد وعشرون يوما ، ولم يف النيل ، وكانت
أسعار الغلال والبضائع كلها في غاية الارتفاع ،
فكان كما يقال في المعنى :

رب وف النيل انا منه فى كرب وبلوه
ما بقى للناس صبر يحملون اليوم غلوه

فاستمر النيل في هذا التوقف على أربع أصابع ،
وفيل نقص بعد ذلك أربع أصابع ، فاستمر على
ذلك خمسة أيام لم يزد فيها شيئا ، فرسم ملك
الأمراء لقضاة القضاة ومشايخ العلم ومشايخ
الصوفية بأن يتوجهوا الى المقياس ، ويبتهلوا الى
الله تعالى بالدعاء في وفاء النيل ، فتوجه قاضى
القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى
الحنفى الطرابلسى ، والقاضى المالكى محيى الدين
الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ،
ومن مشايخ الصوفية الشيخ محمد المنير وغير
هؤلاء من مشايخ الصوفية ، فلما توجهوا هناك
وباتوا بالمقياس نقص النيل في تلك الليلة أصعبين
فصار النقص ستة أصابع ، ثم نقص عشرة أصابع ،
وكان تأخر عن الوفاء على أربع أصابع ، ونقص
من بعد ذلك عشر أصابع فصار النقص أربع عشرة
أصبا عن الوفاء .

فلما كان يوم الأحد سادس رمضان ، نزل ملك
الأمراء وتوجه الى المقياس ، وكان قد مضى من
مسرى ستة وعشرون يوما ، فأقام ملك الأمراء في
المقياس ذلك اليوم ، وفرقوا أجزاء الربعة على
الحاضرين من الفقهاء فتمروا فيها عشرين دورا ،
ثم قرءوا صحيح البخارى هناك .

وأشيع أن ملك الأمراء فرق هناك على الفقهاء
مالا له صورة ، وأحضر الأطفال الأيتام وفرق عليهم

مبلغاً له صورة ، وأحضر من الآثار الشريفة القميص
من المدرسة الغورية ووضع في فسقبة المقياس ،
وغسلوه في الماء الذي بها ، وكثر هناك الضجيج
والبكاء والتضرع الى الله تعالى بالزيادة ، فأقام
ملك الأمراء في المقياس الى قريب الظهر ، ثم طلع
الى القلعة ، فلما طلع أمر بإطلاق من في السجون
من الرجال والنساء والأطفال ، فأطلق منهم نحو
ثمانين انساناً ، ونزل الى القرافة وزار من بها من
الصالحين ، وفرق على الزوايا التي هناك مالا له
صورة ، وفعل من وجوه البر والصدقات أشياء
كثيرة ، وما أبقى في ذلك ممكناً .

فلما كان يوم الأربعاء ، الموافق لتاسع عشر
مسرى ، عول ملك الأمراء على أن يخرج الى
الاستسقاء وصحبته الناس قاطبة يوم الخميس ،
وقد تزايد قلق الناس الى الغاية ، واشتد الأمر
عليهم بسبب نقص النيل عند ليالى الوفاء وقد
قال القائل في المعنى :

بمسرى النيل ما أوفى فضجوا

ودب القحط فينا من أيب

ولم أضرع لمخلوق لأنى

وجادت الله أشفق من أبى بى

وفي هذه الواقعة يقول الأديب البارع الناصري
محمد بن قانصوه بن صادق وقد أجاد حيث قال :

أسبل النيل من عيولى عبره

مذ أرانى من التنقص عبره

يا لها عبرة ثوت بفؤادى

ورمت بالهموم في القلب جمره

شهر مسرى تسع وعشرون يوماً

فيه فات الوفا فأين المسره

وبنا الطف بالخلق في النيل واطلق
بزياداته من النقص أسره

واشرح الصدر بالوفامتك واسبل
يا سميع الدعا بفضلك ستره

واجعل الأرض منه في خير خصب
ورخاء واجبر بلطفك كسره

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشرى مسرى ، طلع
ابن أبى الرداد الى ملك الأمراء بعد الظهر وبشره
بأن النيل قد زاد من النقص ثلاث أصابع ، فسر
ملك الأمراء بذلك . وقيل أنهم عليه بمائة دينار
وفرس وألبسه ققطانا مخملاً مذهباً ، وأنعم على
الصبي الصياح الذى ينادى على البحر بجوخة
حمراء . فلما أشيع ذلك سر به الناس قاطبة ،
وانطلقت النساء بالزنازيت من الطيقان ، وكانت
فرحة عامة لجميع الناس قاطبة .

فلما كان يوم الجمعة حادى عشر رمضان الموافق
لأول أيام النسيء زاد الله في النيل المبارك خمس
أصابع ، فسر الناس بهذه الزيادة ، وقد تأخر عن
الوفاء ست أصابع ، فكانت مدة توقفه عن الزيادة
ثمانية أيام متوالية ، حتى يئس الناس من طلوعه
في هذه السنة .

ثم في ليلة السبت وفي الله الستة عشر ذراعاً
وفتح السد في يوم السبت ثانى عشر شهر رمضان
الموافق للثانى من أيام النسيء ، فأوفى الله الستة
عشر ذراعاً وأصبغ من السابع عشر ، وقد فات
الوفاء عن ميعاده حتى مضت مسرى ، ودخلت
أيام النسيء ... ولكن تقدم أن النيل تأخر عن
الوفاء الى سادس أيام النسيء ، وذلك في سنة
أربع وتسعين وستمائة ، وبلغت الزيادة في تلك
السنة ستة عشر ذراعاً ثم هبط سريعاً ولم يثبت ،

فشرقت البلاد ، ووقع الغلاء . واتفق مثل ذلك أن النيل وفي في آخر أيام النسيء ، في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وكان نيلاً شحيحاً لم يثبت ، وشرقت البلاد ، ووقع الغلاء . نزل ذلك الشيخ جلال الدين السيوطي رحمة الله عليه .

فلما وفي النيل نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه إلى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل في الحراقة وفتح السد ، وكان يوماً مشهوداً ، كما وقع له في السنة الخالية . وكان الوفاء على غير التقياس مما جرى على النيل في هذه السنة ، وقد قال الناصري محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال في المعنى :

الحمد لله زاد النيل وانشرحت

سدورنا وأرانا بشره قرحا

والقلب أصبح بعد الكسر منجبراً

والأمر أمسى عقيب الضيق منفسحاً

وقال آخر :

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم

ما أحسن الستر قالوا العفو مأمول

ستر الآله علينا لا يزال فما

أحلى تهتكنا والستر مسبول

وفي يوم الأربعاء سادس عشر رمضان كان أول النوروز ، وهو أول يوم من السنة القبطية ، وهي سنة ست وعشرين وتسعمائة خراجية ، ففي ذلك اليوم زاد الله النيل المبارك سبع أصابع ، فأوفى الله السبعة عشر ذراعاً وأصبعاً من الذراع الثامن عشر ، فسر الناس بذلك .

وفي يوم السبت سادس عشرية قدمت الأخبار بأن الأمير جانم الحمزاوي قد وصل إلى قطيا ، وقد تقدم القول أنه كان توجه إلى السلطان سليم خان ابن عثمان ، وصحبته مقدمة حافلة من عند ملك الأمراء إلى الخنكار ابن عثمان ، فلما قابله أكرمه وخلع عليه ، وقبل منه تلك المقدمة فأقام هناك مدة . ثم إن ابن عثمان رسم للأمير جانم بعوده إلى مصر ، وكان أكثر الناس جزموا بعدم عوده إلى مصر ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما أشيع وصوله إلى قطيا خرج أعيان الناس إلى ملاقاته ، وخرج الأمير ناصر الدين محمد المهندي والأمير برسباي الدوادار وسائر المباشرين قاطبة .

فلما كان يوم الأحد سابع عشر رمضان ختم صحيح البخاري بالقلعة على العادة ، وفرقت الصرر على الفقهاء ، ومن له عادة ، وخلع على قضاة القضاة .

وفي يوم الاثنين ثامن عشرية ، دخل الأمير جانم الحمزاوي إلى القاهرة ونزل بتربة العادلي .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشرية نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه إلى تربة العادلي ، ونزل على المصطبة التي هناك ، ولبس خلعة الخنكار التي أرسلها له على يد الأمير جانم الحمزاوي باستمراره في النيابة بمصر ، وهي قفطان بتماسيح على مخمل أحمر ، فركب من هناك ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة في موكب حافل ، وقدامه جماعة من الأمراء الجراكسة ، ومن الأمراء العثمانية ، والعساكر الأصباهية والانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، ولاقاه طائفة من النصارى وبأيديهم الشموع موقدة ، ولاقاه الشـعراء والشبابة السلطانية .

ولما وصل الى قبة الأمير يشبك التى فى رأس الحسييه لاقاه القضاة الأربعة ، فكان القاصى الشافعى عن يمينه ، والحنفى عن يساره ، والمالكي والحنبلية قدامه ، والأمير جانم الحمزاوى قدامه ، وعليه ففطان مخمل مذهب كان ألبسه له الخنكار فاستمر فى ذلك الموكب الى أن طلع الى القلعة وكان يوما مشهودا . فكانت مدة عييه الأمير جانم الحمزاوى فى اسطنبول عند الخنكار ستة أشهر ، وقيل انه قابل الخنكار فيها مرة واحدة .

وأما ترجمه الأمير جانم الحمزاوى فهو جانم بن يوسف بن أركساس السيفى قانى باى الحمزاوى نائب الشام ، كان من أعيان أبناء الناس ، وقد رعى فى دولة ملك الأمراء خاير بك حتى صار صاحب الحل والعقد بمصر ، وصار فى مقام أمير كبير بمصر .

ولما استقر الأمير جانم الحمزاوى فى داره أشيع بين الناس أنه أخبر أن الخنكار ابن عثمان تغير خاطره على الخليفة محمد بن يعقوب المتوكل على الله الذى توجه الى اسطنبول ، فلما تغير خاطره عليه أخرجه من اسطنبول على غير صورة مرصية وهو فى غاية ما يكون من البهذلة ، ونفاه الى مكان عسر يسمى السبع قليات ، قيل ان بينه وبين اسطنبول سبعة أيام ، وهو المكان الذى يضع فيه الخنكار أمواله وتحفه لكونه فى غاية التحصين .

وقد اختلف فى سبب تغير خاطره عليه ... فمن جملة الأقوال أن أولاد ابن عمه خليل رافعوه بسبب اقطاع الخلافة أن يعطيهم منها الثلث ويأخذ هو الثلثين فأبى من ذلك . الثانى أن الخليفة طاش هناك وصار ينهم العيش جهارا ، واشترى له جوارى يضربن له بالجنوك ، وفتك فى البسط

والانشراح غاية الفتك ، فباع ذلك الخنكار فتغير خاطره عليه ، وكان الوزراء مساعدين أولاد عمه خليل ، ومحطين على الخليفة . الثالث أن جماعة كثيرة من أهل مصر ممن كان باسطنبول ، تسحبوا من هناك ، منهم بدر الدين ابن القاضى كمال الدين ناظر الجيش ، وتسحب آخرون من الأعيان ، فخشيت الوزراء أن الخليفة يتسحب من هناك فضيقوا عليه والله أعلم .

وفى شهر شوال كان عيد الفطر يوم الخميس ، فطلع القضاة الأربعة وصلوا مع ملك الأمراء صلاة العيد ، وخطب بهم قاضى القضاة الشافعى خطبة بليغة ، وكان موكب العيد موكبا حافلا .

وفى يوم الأحد رابع شوال ، جلس ملك الأمراء بالدهيشة ، وأرسل خلف القضاة الأربعة ، وأرسل خلف أعيان التجار ومشايخ الأسواق بسبب أمر المعاملة فى الذهب والفضة ، فلما تكامل المجلس قام ملك الأمراء ودخل الأشرفية التى بجوار الدهيشة ، ودخل معه القضاة الأربعة ، وأرسل خلف الأمراء العثمانية ، وهم قرا سوسى ، وفرحات ، وخير الدين نائب القلعة ، والقاصد الذى حضر صحبة الأمير جانم الحمزاوى ، فلما دخلوا الى الأشرفية لم يدخلها غير هؤلاء ، ولم يأذن للأمراء الجراكسة بالدخول معهم .

ثم ان القاصد أخرج مرسوم الخنكار الذى أرسله صحبة الأمير جانم الحمزاوى ، فاجلس القضاة الأربعة على أربعة كراسى ، واجلس الأمراء العثمانية على أربعة كراسى ، وقرئ عليهم مرسوم الخنكار ، وذلك على طريقة النسق العثمانى ، وكانت ألفاظ ذلك المرسوم باللغة التركية . فكان من مضمونه ما أشيع بين الناس أنه قد أرسل يأمر ملك الأمراء بالتوصية بالرعية غاية الوصية ،

وأن ينصرف للساليك الجراكسة جوامكم ولحومهم ، مايتنهم على العادة القديمة . وأرسل يقول لملك الأمراء أن يتوسى بأولاد الناس فاطبة ، وكل من كان له جناحية وقطعت يردّها إليه . وأرسل يقول له في إصلاح المعاملة من الذهب والفضة ، فأحضروا من على تلك الألفاظ التركية التي في المرسوم ، فبدان هذا معناها .

ثم ضربوا مشورة في أمر المعاملة فأشار الحاضرون على ملك الأمراء أن يبنى كل شيء على حاله من أمر المعاملة حتى يراجع الخنكار في ذلك مرة أخرى ، بأن الذهب والفضة ينتص في معده الحركة الثلث ، فخرج ملك الأمراء ورسم بأشهر المناذاة في القاهرة بأن كل شيء على حاله ، وأن الأشراف العثماني والغوري لا ينصرف بأكثر من حسيين نصف فضة من غير زيادة على ذلك ، وأن النصف الفضة النحاس يرمى ، وما عدا ذلك يستى . ثم انتفض المجلس على ذلك ، ونزل القضاة الى دورهم ، وسكن الاضطراب قليلا في أمر المعاملة .

وفي يوم الجمعة تاسع شوال ، قدم من البحر المالح الى تعز الاسكندرية جماعة نحو تسعة ائف من كان أسر وتوجه الى اسطنبول ، فحضر في ذلك اليوم الشيخ بدر الدين محمد السعودي المعروف بابن الوقاد أحد نواب الحنفية كان ، وحضر الشيخ كمال الدين الذي كان بزدار الأمير طومان باي ، وحضر كمال الدين العائق مباشر أمير أخور كبير ، وحضر زين الدين حامل المزة ، وحضر القاضي كريم الدين المجولي أحد نواب الشافعية كان ، وحضر الخواجه عمر بن معروز المغربي ، وحضر المهتار بدر العادلي ، والخواجه زين الدين العجسي ، ويوسف مناخير ، والمعلم حسين معلم المحاك بدار الضرب . وكان هؤلاء باسطنبول

وشكوا الى الوزراء بأن وظائفهم التي بمصر خرجت عنهم ، ونزلت جهاتهم ، وأخذ الناس أموالهم بسوجب غيابهم في اسطنبول ، فقال لهم الوزراء : « أقيسوا لكم سدا وتوجهوا الى مصر صحبة جماعة من الانكسارية ، وانكشفوا على جهاتكم ووظائفكم ، وارجعوا الى اسطنبول على وجه الصيغ » . ففعلوا ذلك وحضروا الى مصر وصحبهم الانكسارية ، وفيهم من ترك اولاده وعياله باسطنبول الى أن يرجع اليها .

ثم في عقيب ذلك اتسيع أنه حضر أيضا من اسطنبول جماعة ، منهم شمس الدين بن المرقوق المباشر ، وفرج بن البريدي ، والطواشي مسك ، وقيل ان الطواشي أقام بالشام عند الخوالي نائب الشام ، ورتب له ما يكفيه كل شهر ، ومحمد بن علي كاتب الخزنة ، وآخرون حضروا في الحنفية وصاروا يسحبون من اسطنبول شيئا بعد شيء ويحضرون ، وكل ذلك من غير العلم بالخنكار ، فذلك يلطف بهم .

وفي يوم الجمعة سادس عشره ، الموافق لأول يوم من يابه ، ثبت النيل المبارك على خمس أصابع من تسعة عشر ذراعا ، وكان في الحام الماضي نيل على ثماني أصابع من عشرين ذراعا ، فكان هذا النيل أقص من النيل الماضي بذراع وثلاث أصابع ، وكان نيلاً شحيحاً من بسداً زيادته الى حين هبوطه . وقد شرف غالب البلاد ، واشتد أمر الغلاء بالديار المصرية ، وتكالبت الناس على مشتري النسيج ، وارتفع التسح من السوائل ، وصار اذا وصاف مركب قسح لا تباع ولا تشتري الا باقراج من عند المحتسب ، ولو كان ضيافة أو من الخراج ، فحصل للناس الضرر الشامل ، وارتفعت القاهرة بسبب مع القمح ، ووقع الاضطراب الشديد فكادت أن تتكبد غلوة كبيرة .

وفي يوم الأحد ثامن عشره توفي شخص من
الأمرء الطليخانات يقال له مامى الصغير ، ودفن
في المدبرة القورية .

وفي يوم الاثنين قاسم نسر خراج المحمل
الشريف من القاهرة في قنصل عظيم ، وكان أمير
المتمسك الأمير جانم كاشف منفلوط والبنس ،
طلب طلبا حافلا على العادة القديمة كنادة الأمرء
المقدمين ، وتطلع على الأمير باباى أحد الأمرء
العشراوات ، واستقر به في مشيخة الحرم النبوى
عوضا عن الشرفى يحيى بن البردينى بحكم انفصال
عنها ، وكان قاضى المحمل في تلك السنة الشيخ
فتح الدين أبو الفتح الوفاى المالكى أحد النواب
بل من أعيانهم ، فحصل للحاج به غاية النفع .
ولم يحج في هذه السنة من الأعيان الا القليل ،
وكان أكثر الحجاج فلاحين ، وريافة من البلاد .

وفي شهر ذى القعدة ، وكان مستهله يوم
السبت ، طلع القضاة الأربعة ودنوا ملك الأمرء
بالشهر تم عادوا الى دورهم . وفي يوم مستهله
وقع لقاضى القضاة الحنفى الطرابلسى بين يدى
ملك الأمرء بعض توبيخ بسبب نائبه كمال الدين
ابن زريق ، وقد انكشف رده في مكتوب ظهر أنه
زوره وجرى بذلك أمور يملول شرحها ، فحصل
للقاضى بعض هت من ملك الأمرء ، فيما رصعه
الا أنه عزل كمال الدين بن زريق بحضرة ملك
الأمرء عزلا مؤبدا ما دام حيا ، وانقض المجلس
على ذلك .

وفي ذلك اليوم رسم ملك الأمرء بأشهار المنادة
في القاهرة بسبب المعاملة في الذهب والفضة فأطلق
أربعة مشاعلية ، في القاهرة ومصر البتقة ، أن
الأشرفى الذهب العشائى والغورى بعرف بحمسين
نصفا من غير زيادة على ذلك ، وأن الأشرفى الذى

هو ضرب جمال الدين يصرف بأثنين وأربعين نصفا ،
وأن الفضه على مالها لا يرد منها الا النصف
المكشوف ، وكل من ساقب في ذلك شاق من غير
معاودة ، فسكن الافراد فليان بصدقه المنادة
بعد ما كان أشيع بإزالة هذه المعاملة لانها ، وتخصر
الناس من أموالها الثلث ، فتسأل الناس من البيع
والشراء أياها ، وغلقت الأسواق . فلما نادوا بإبقاء
كل شىء على حاله سكن الرجح الذى كان فيه
الناس .

فيل ان ملك الأمرء أرسل يشاور الخكار
ابن عثمان في أمر المعاملة اذا بلف يتعسر الناس
من أموالهم الثلث ، والأمور في ذلك مسوول على
التجواب .

وفي يوم الأحد ، ثانى الشهر ، خلع ملك الأمرء
على شخص من الشماعية يقال له الأمير على الكيحية
أغات الانكشارية ، واستقر به في ولاية القاهرة ،
عوضا عن كشيخنا الذى كان والى القاهرة وتوجه
الى اسطنبول كما تقدم .

وفي يوم الخميس سادسه ، نزل ملك الأمرء
من القلعة وتوجه الى الروضة ونصب له خياما في
حطوم الروضة فجاءه نصر ابن الينى ، فنزل هناك
وكان صحبتة جماعة من الأمرء المشائى والقاصد
الذى حضر مع الأمير جانم الحسزاوى ، والأمير
قايتباى الدوادار ، وبعض أمرء من الجراكسة ،
والجهم الكثير من الاصباغية والانكشارية ، فلما
استقر هناك حضر اليه القاضى بركات بن موسى
المحتسب مدة مضافة ، فيل صرف عليها نحو
خسمائة دينار . فمن جملة ذلك أربسون خروفا
شوى ، وأربعمائة مجمع حلوى وعدة مطابق
ضمنها مأمونية سكب ، ومأمونية حوية محشوة
بسكر ، وسنبوسك بسكر ، ورخامية بسكر ،
وسمك على أنواع مختلفة ، وأشياء غير ذلك

موتقة ، وأحمال بطيخ صيفى وعبيدى ، وأطنان
قصب ، وأحمال تسطة وبطلط جلاب ، وأحمال
موز وغير ذلك ، وما أبتى ممكنا فيما صنعه فى
هذه المدّة من الأشياء التى تصلح للسلوك ، فشكره
ملك الأمراء على ذلك ، وآتى عليه بحضرة
لأمراء .

وكان القاضى بركات المحتسب ، عالى الهمة ،
نافذ الكلمة ، مسعود الحركات فى سائر أفعاله ،
وقد وقع له أشياء غريبة لم تقع لأحد قبله من
المباشرين ، ولا غيرهم ، ولا سيما ما كان يصنعه
للسلطان . فأقام ملك الأمراء الى ما بعد العشاء ،
بم عدى من هناك وطلع الى القلعة ، وانقضى ذلك
اليوم السلطانى .

وفى يوم السبت ثامننه ، وقعت كائنة مهولة ...
وسبب ذلك أن ملك الأمراء جلس للمحاكمات على
العادة ، فعرض عليه ثلاث محاكمات فى ذلك اليوم :
الأولى أن شخصا من اليهود يقال له شمس
الدين محمد البساطى ، كان يجلس على رأس حارة
زويلة ، وكان يخطب فى جامع ابن قريسط الذى
فى حارة زويلة ، فجاءت اليه مبايعة جارية حبشية
كانت على ملك شخص من النصارى ، فابتاعها
لشخص من الفرنج ، فهربت وآتت الى بيت
الوالى وقالت له : « أنا جارية مسلمة ، كنت عند
شخص نصرانى ، فباعنى لشخص افرنجى ، وقصد
أن يسافر بى الى بلاد الفرنج ، فهربت من عنده
وأيتت اليكم » . فعرض الوالى هذه الواقعة على
ملك الأمراء خاير بك فطلب النصرانى البساطى
فهرب ، وهرب الفرنجى المشتري ، فقبض على
شخص كان واسطة ، وعلى شمس الدين البساطى ،
وقبض على النصرانى والأفرنجى فيما بعد ، وعوقبا
وقرر عليهما مال له صورة . فلما وقف شمس الدين
البساطى بين يدى ملك الأمراء قال له : ليش ماسألت

الجارية ان كانت مسلمة أو غير مسلمة ؟ فاختلط
فى الكلام وتلجلج لسانه عن الجواب . فاشتد
غيط ملك الأمراء عليه ، فرسم بقطع يده اليمنى
فقطعت ، وأن يشهر فى القاهرة ففعل به ذلك .
وكان حاضرا فى المجلس قاضى القضاة المالكى
محيى الدين الدميرى ، والقاضى شهاب الدين بن
شيرين أحد نواب الحنفية ، والقاضى شمس الدين
العبادى ، والأمير أرزمك الناشف ، وجماعة من
الأمراء العثمانية ، فلم يجسر أحد منهم أن يشفع
فيه لشدة غضب ملك الأمراء عليه ، وكان يوما
مهولا .

والمحاكمة الثانية ، عرض عليه شخص يقال له
محمد بن عز الدين ، كان أبوه من جملة رسل
الصالحية ، وكان يعرف بابن يابه ، وكان ابنه فيصح
الصورة والسيرة ، مشهورا بنزوير المراسيم عن
لسان المباشرين ، وسببت له وفائع كثيرة عن لسان
الأكابر ، ففيل انه زور مرسوما على لسان القاضى
شرف الدين بن عوص ، فقبض عليه ابن العياشى
وأحضره بين يدى ملك الأمراء ، فكثرت فيه من
الناس الشكاوى ، فرسم بأن يشنق فشنق ، وشهر
فى القاهرة وهو مخزوم الأنف ومقطع الآذان ،
فأراح الله تعالى العباد منه ، فانه كان كثير النصب
والحيل ، وتحكى عنه الغرائب والعجائب فى أمر
الحيل والنصب والسرقة .

والمحاكمة الثالثة ، عرض عليه شخص من
الفلاحين سرق ثورا ، فرسم بأن يخوزق وتقطع أنفه
وآذانه وأن يركب على الثور ، ويشهر فى القاهرة
ثم يخوزق . وكان ملك الأمراء عجولا فى أمر
القتل ، وقد شنق وخوزق ووسط فى أيام ولايته
على مصر ما لا يحصى من الناس ، والغالب راح
ظلمنا من غير ذنب ، وكان ملك الأمراء شديدا

التسوية صلبا في الأمور جدا ، وكان الأمر كما قيل في المعنى :

احذر تعاشر من يكن طبعهم
ظلم الزدى دأبا وان أحسنوا
لقول رب العرش سبحانه
في محكم الذكر ولا تركنوا

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، رسم ملك الأمراء يشنق ثلاثة أنفار من القواسة كانوا حراسا على قصب ، فأتى اليهم بعض التركمان ليسرق من القصب ، فضربه أحد القواسة فبجعت الضربة صائبة فمات ذلك التركمانى . فلما بلغ خشمه اشينه ذلك توجهوا الى تبرى ونهبوا ما فيها ، ثم قبضوا على القواسة وعرضوهم على ملك الأمراء ، فرسم يشنقهم فشنقوا في ذلك اليوم ومضى أمرهم . ويقال انهم أخذوا ظلما فليسوا هم الذين قتلوا التركمانى . والذين قتلوه هربوا ولم يحصلوهم ، وراحوا ظلما وراحت في كيسهم .

وقد وقع لملك الأمراء أنه قتل ثنائى أنفس في هذه الجمعة ، فشنق منهم جماعة ، وخوزق منهم جماعة ، واقترحوا لهم العذاب حتى ساروا يخوزقونهم من أضلاعهم ، وراح غالبهم ظلما ، والأمر لله تعالى .

وفي يوم الجمعة رابع عشره أرسل كاشف الشرقية اثنين من العربان المفسدين قطاع الطريق ، فرسم ملك الأمراء بشنقهما فشنقا . وقد وقع لملك الأمراء أنه شنق وخوزق في هذا الشهر جماعة كثيرة بخلاف العادة .

وفيه أشيع أن صبيانا صغارا قعدوا يلعبون في بعض الحارات ، فعمل واحد منهم ملك الأمراء ، وآخر والى القاهرة ، ونادوا أن لا أحد يخرج من

بعد العشاء ، فقام بعض الصغار وخطف عمامة آخر بعيت عليه ، فقبضوا عليه وأحضره بين يدى الذى جعلوه ملك الأمراء ، فرسم لاذى أقاموه واليا بأن يقبض عليه ويخوزقه ، فدقوا له عصا في الأرض وأقعدوه عليها غضبا ، فمنهم من قال أن الصبى مات من وقته ، ومنهم من قال لم يمت ، فلما جرى ذلك تباربت الصغار الى حال سبيلهم ، وقد هان القتل في هذه الايام حتى عند الصغار . وهذه الواقعة لم تثبت الا اشاعات .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، قدمت الأخبار بأن الفرنج قد أتوا الى ساحل بيروت وحاصروا من بها ، فكسروهم وملكوا مدينة بيروت ، وأقامت معهم ثلاثة أيام . فلما بلغ ملك الأمراء نائب الشام جان بردى الغزالي ذلك عين دوا داره ومعه الجم الكثير من العساكر ، فتوجهوا الى بيروت واقتتلوا مع الفرنج ، وكان بين الفريقين واقعة مهولة ، قتل فيها ما لا يحصى من الفرنج ، وأسر منهم ثلثمائة انسان ، وغنموا منهم أشياء كثيرة من سلاح وقماش وغير ذلك . وقيل أسروا جماعة من أولاد ملوك الفرنج ، وملكوا ثلاث برشات من كبار مراكبهم ، وكانت النصره عليهم للغزالي نائب الشام ، بعد ما ملك الفرنج بيروت ، فطردهم عنها بعون الله تعالى .

ومن الجوادث العظيمة الغريبة ما وقع يوم الأربعاء تاسع عشر ذى القعدة من سنة ست وعشرين وتسعمائة ، أنه قدم قاصد من البحر المالح وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن السلطان سليم شاه بن عثمان ، بأن السلطان سليم شاه قد توفي الى رحمة الله تعالى . وحضر صحبة القاصد مطالعة من عند الرئيس شمس الدين محمد القوصونى الى صهره قاضى القضاة محيى الدين الدميرى ، تتضمن أخبار موت السلطان سليم شاه

ابن عثمان ، وهى الأخبار الصحيحة ، فأخبر أن
السلطان سليم شاه خرج يتصيد ، فرجع من الصيد
وهو متوعك فى جسده ، وقد طلعت له فرخة جمر ،
تناهها ولزم الفراش أياما ، وثقل فى المرض
واستد عليه الأمر جدا ، فمات فى يوم الخميس
تاسع شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة . فلما
مات كتم موته عن العسكر ثلاثة أيام ولم يدفن .
وكان ولده سليمان غائبا عن اسطنبول ، فلما
حضر وقد جد فى السير حتى دخل الى اسطنبول
وجلس على سرير الملك ، أنشع موت أبيه سليم
شاه ، فأحضروه فى سجلية وهو مصبر ، وصلوا
عليه ، ومنست الوزراء والعسكر قاطبة قدومه ،
وكان دفنه يوم الأحد ثانى عشر شوال أو يوم
الاثنين كما قيل ، ودفن على جده السلطان محمد
ابن عثمان فى مدرسته باسطنبول ، ومضى الى رحمة
الله تعالى كأنه لم يكن ، وزال عنه الملك فى طرفة
عين ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا بتغير . وفى
ذلك يقول ناصر الدين محمد بن قانصوه بن
صادق فى المعنى :

عظم الله أجركم فى ملك الورى سليم
عنه فد زال ملكه وغدا فى الثرى رميم
وتوفى لملك المظفر سليم شاه وله من العمر
نحو سبع وأربعين سنة على ما أشيع ذلك ، ووقع
له من الأمور الغريبة ما لم يبع لأحد من آبائه ولا
أجداده ، بل ولا لأحد من ملوك الشرق ، ولا
ملوك الغرب ، ولا غيرهم ، فانه زحف على شاه
اسماعيل الصفوى ملك العراقين ، وحاربه فكسره
وقتل من عساكره ما لا يحصى حتى قيل : قتل فوق
الخمسين ألفا ، وملك بلاده وطرده عنها . ثم تحرش

بسلطان مصر ، ولا زال يخادعه ويظهر أنه تحت
طاعته حتى خرج اليه وغدر به وحاربه وانكسر منه
وفقد ، وقد طرقه على حين غفلة ، وجرى عليه منه
ما جرى كما تقدم ذكر ذلك ، فملك مدينة حلب
وقلعتها فى خمس درج ، واحتوى على أموال
السلطان الغورى التى كانت بقلعة حلب من غير
مانع ، ثم توجه الى دمشق فملكها وملك قلعتها
من غير مانع فى أسرع من طرفة عين ، ثم توجه
الى الديار المصرية ، وحارب السلطان طومان باى
فكسره ، وقتل غالب عسكر مصر من المماليك
الجراكسة ، وقتل من الأمراء ما تقدم ذكره ، وملك
الديار المصرية فى نحو عشر درج .

وكانت مدة استيلائه على حلب والشام ومصر
أربع سنين وخمسة أشهر ، وهو يحطب باسمه على
مناير حلب وأعمالها ، ودمشق وأعمالها ، ثم خطب
باسمه فى الديار المصرية وأعمالها وثغورها ،
وضربت السكة باسمه فى هذه المدة .

وكان استيلاؤه على مدينة حلب فى أواخر رجب
سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، واستولى على
دمشق فى سلخ رمضان ، واستولى على الديار
المصرية فى المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ،
فكانت مدة اقامته فى القاهرة نحو ثمانية شهور
من مستهل المحرم الى أواخر شعبان ، واستقر
بخاير بك نائبا عنه بمصر

وأما مدة استيلائه على مملكة الروم من حين
توفى والده السلطان أبو يزيد الى الآن ، فنحو
تسع سنين الا شهرا ، فان والده أبا يزيد توفى فى
ثانى جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ،

و كان استيلاؤه على مملكة الروم في حياة والده
بأشهر ، فان والده أقام مريضا ملازما الفراش مدة
طويلة ، فيقال انه عجل على آبيه وقتله لأجل الملك ،
ثم انه خنق أخاه فرقط ، وقتل أخاه أحمد ،
وظن أن الوقت قد صفا له ، فتلاعبت به الدنيا كما
تلاعبت بغيره من الملوك ، ودهاه الموت الذي
لا يدفع بقوة ولا حياة ، وقد صار في رسمه رهين
الذنوب ، لا يعلم أهو في نعيم أو في عذاب ، وفد
رثيته بهذه الأبيات :

لابن عثمان قصة فاسمعوها
واعجبوا من صنع ربى تعالى
ملك الشام للفرات وأضحى
فانتكا في الأنام روح ومالا
وأراد الدخول في كل مصر

قلت هيهات رمت هذا محالا
طردته عنها سهام الدياجي
بدعاء فيها نفوق النبلا
بعد ما جار في الأنام بقتل
من جيوش يدك منها الجبالا
منذ جاروا وبالفرا في آذاهم
قد سألنا الاله بكشف حالا

فاستجاب الدعا ومن علينا
بانفراج الهموم جل تعالى
وأتتنا أخباره بزوال
صيرت رشده حقيقا محالا

كم ملوك أذلها بعد عز
وسطا فيهمو وآفنى الرجالا
لهف قلبي على ملوك تفانوا
من سطا سيفه وطال اشتعالا

ذلت الروم بعد ما قد دهاهم
موت استاذهم وشاعوا المقالا
زال عنا بموته دون حرب
وكفى الله المؤمنين القتالا

وفي ذلك اليوم أشيع موت ابن ملك الأمراء
الذي كان مقيما باسطنبول ، وكان رهينا عند ابن
عثمان من حين استولى أبوه على نيابة السلطنة
بمصر ، ولما تحقق ملك الأمراء موت السلطان سليم
شاه أظهر الحزن والأسف وشق آثوابه ولبس
السواد . وكذلك الأمير قرا موسى ، وخير الدين
نائب القلعة وفرحات ، وسائر الأمراء العثمانية
لبسوا السواد ، حتى الأمير قايتباي الدوادار لبس
السواد ، ووضع على رأسه شدا أزرق وأظهر
الحزن .

وفي يوم الخميس عشريه رسم ملك الأمراء
بأربعة مشاعلية تنادى في القاهرة : اثنان يناديان
بالتركي ، واثنان يناديان بالعربي ... ترحموا على
الملك المظفر سليم شاه ، وادعوا بالنصر للملك
المظفر سليمان شاه . فارتجت القاهرة في ذلك
اليوم ، وتحققوا موت سليم شاه من غير شك ،
وقالوا سبحان من هذ الجابرة ... وأما المماليك
الچراكسة فتزايد عندهم الفرح والسرور ،
واستبشروا بالفرج كما يقال : « مصائب قوم عند
قوم فوائد » .

فاستمر الأمراء وهم لابسون السواد ثلاثة أيام
متوالية وهم يظهرون الحزن على سليم شاه ابن
عثمان ، وكان مونه من الغرائب على حين غفلة ،
ولو عاش وصفا له الوقت ما حصل لأحد منه
خير ، فكفى الله الناس شره .

الملك سليمان بن سليم

هو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار الرومية من بنى عثمان ، استولى على الروم بالقسطنطينية العظمى يوم الأحد ثاني عشر شوال سنة ست وخمسين وستمائة وجمادى الأولى على سرير الملك بعد وفاة أبيه سليم شاه . وصار ممتلكا على المملكة الرومية والديار المصرية ، وما مع ذلك من أقاليم ، قيل واستولى على الملك وله من العمر نحو ثمان وعشرين سنة ، وله أولاد ذكور وإناث ، وقيل منه أنه من ذوى العقول ، وفيه أقول :

سرنا لما ولي سلطانا

ابن عثمان وصرنا في أمان

وارثا لملك عن أجداده

فهو في الملك سليمان الزمان

وأما ترجمته ، فهو سليمان بن سليم شاه الذي أخذ مصر عنوة بالسيف ، ثم والده سليم أبو يزيد . ولد سنة إحدى وخمسين وثمانمائة ، وولى على مملكة الروم ، وجلس على سرير الملك يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وتوفي سنة ثمانى عشرة وتسعمائة ، وكانت مدة سلطته ببلاد الروم نحو ثلاث وثلاثين سنة .

ثم والده السلطان محمد وهو أول ملك لقب بالسلطان من ملوك الروم ، ولد سنة خمس وستين وسبعمائة ، وكانت مدة حياته نحو ستين سنة .

ثم والده مراد خان ويدعى غازى أيضا ، ولد سنة عشر وسبعمائة . وكانت مدة سلطنته بمملكة الروم إحدى وثلاثين سنة ، وعاش من العمر نحو ثمان وستين سنة .

(١) هذه العبارة من أولها إلى آخرها فيها مخالفات كثيرة لما ذكره المؤرخون . فليكن ذلك معلوما .

ثم والده أبو يزيد المعروف ببندرم ، ويولد بدم بالغة التركية اسم البرق ، وهو الذى أسره تمرلنك ووضع في قفص من حديد ، وطاف به في البلاد بعجب عليه ، وكانت وفاته في القفص الحديد سنة خمس وثمانمائة ، وكانت مدة مملكته على بلاد الروم تسع سنين أو نحو ذلك .

ثم أبوه أورخان عاش نحو ثمان وستين سنة .

ثم أبوه على أردن ، ثم أبوه عثمان الثانى ، ثم أبوه سليمان ولد في بلاد الروم ، وكانت مدة استيلائه هو وعثمان الثانى على مملكة الروم من سنة سبع وثمانين وستمائة ، واستمر على ذلك حتى قتل في الغزاة ببلاد الفرنج ، وخلف ابنه سليمان . فنزلوا كلهم من نسل عثمان الثانى ، فأطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان ، وهم تسعة بالعدد .

وأما جدهم الكبير عثمان ، فقال بعض المؤرخين أنه ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وعاش تسعا وستين سنة ، وأن أصله من عرب الحجاز من وادى الصفراء بالقرب من المدينة النبوية . فلما وقع الغلاء بالمدينة خرج منها عثمان فإرا إلى بلاد قرمان فنزل هناك ، وكان شجاعا بطلا فتزيا بزى أهل قونيا ، وكان ملك الروم يومئذ بيد طائفة يقال لهم السلجوقية ، فصار عثمان في خدمة الأمير على بن فرمان ، فعظم أمر عثمان عنده ، ومشى على طريقتهم ، وتكلم باللغة التركية ، وصار له أتباع كثيرة وأعوان ، وعدة عساكر نحو عشرين ألفا . فعند ذلك خرج عن طاعة السلجوقية والقرمانية ، وصار له عدة بلاد افتتحها ، وصار يغزو بلاد الفرنج في كل سنة ، ويغنم أموالهم ، ففتح عدة حصون تلى خليج القسطنطينية ، ولا زال ملك بنى عثمان يكثر وجنودهم تكثر ، وأظهروا العدل في الرعية ، وعمروا التكايا والزوايا والخوانق .

وكان عثمان يحب العلماء ويقرب الصلحاء ، وكان طويل القامة أسمر اللون أقنى الأنف . وقيل عاش عثمان هذا نحو سبعين سنة ، ومات شهيدا في بعض غزوات الفرنج ، وهو جد بنى عثمان قاطبة . قال الشيخ تقي الدين أحمد المقرئى . لم يكن في أبناء عثمان من يلقب بملك ولا بسلطان ، بل كانوا اذا كاتبهم أحد من ملوك مصر وعظمتهم يقول لهم الخنكار أو الأمير فلان . وقال المقرئى انهم سببون الى أبى مسلم الحراسبى ، صاحب دعوة خلفاء بنى العباس ، الذى تعصب لهم ونزع الخلافة من يد الأموية ، وجعلها الى العباسية . انتهى ما أوردناه من سبب ابن عثمان ، وهذا هو النسب الصحيح عنهم ، والله أعلم بحقيقة ذلك

ومن هنا نرجع الى خبر الملك المظفر سليمان بن سليم شاه ابن عثمان ، فالذى أخبر به القوصونى في كتابه ان السلطان سليمان لما جلس على سرير الملك ، أظهر العدل في الرعية ، فأرسل أحضر الخليفة من المكان الذى كان سجنه فيه والده سليم شاه ، فأحضره الى اسطنبول كما كان ، ورتب له في كل يوم ستين درهما .

وأفرج عن علاء الدين ناظر الحاص ، وعن جماعة كثيرة من المباشرين الذين كاد سجنهم والده ، وأفرج عن جماعة من التجار الأعجام الذين كان والده سجنهم وزعم أنهم من عند الصفوى وأخذ منهم حريرا بنحو اثني عشر ألف دينار . فلما آل اليه الملك أفرج عنهم ، وأعاد لهم الحرية الذى كان أخذه والده منهم ورسم لهم بالعود الى بلادهم وذكر عنه أشياء كثيرة من العدل من هذا النمط . وفي يوم الجمعة حادى عشرية رسم ملك الأمراء بأن يصلى على السلطان سليم شاه ابن عثمان صلاة الغيبة بجامع القلعة ، وسائر جوامع القاهرة ، وأن يدعى للسلطان سليمان على المنابر ومضى أمر السلطان سليم شاه كأنه لم يكن .

وفي يوم السبت ثانى عشرية ، نودي في القاهرة بالزينة ثلاثة أيام متوالية بسبب سلطنة الملك المظفر سليمان ، فزينت مصر والقاهرة زينة حافلة حتى داخل الأسواق وغالب الحارات ، ولا سيما خان الخليلي ، فان تجارهم زينوا زينة عظيمة ، وصار الأمير على الكيخية والى القاهرة يطوف في كل يوم عدة مرار ، وقدامه جماعة من الانكشارية ، وهو ينادى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش على أحد من الرعية . وصار يأمر بتقوية الزينة ، ويضرب أصحاب الدكاكين بسببها ، وفي ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه ابن صادق .

مذ غدت بعد سليم بعد حزن في تهانى زينب مصر وأضحت لسليمان الزمان ومن الحوادث أن طائفة من الانكشارية قصدوا أن ينهبوا حارة زويلة . وقيل جرت العادة عندهم اذا مات السلطان ينهب العسكر حارة اليهود ، فقصد طائفة الانكشارية أن يفعلوا ذلك فمنعهم حير الدين نائب القلعة ، وقرا موسى وفرحات من ذلك ، فمصبوا منهم وبوجهوا الى بركة الحبش على أنهم يدخلون على حميه ، وينهبون القاهرة عن أحرها ، فترددت الرسل بينهم وبين ملك الأمراء على أنه ينفق على طائفة الانكشارية لكل واحد منهم مائة دينار ، فتراضوا على ذلك ، وعلى أنه لا ينفق على طائفة الاصباهية ولا الكمليّة شيئا ، فتقرر الحال على ذلك .

ثم في يوم السبت المقدم ذكره أرسل ملك الأمراء الى الأمير فايتباى الدوادار فقطان حرير صارى وشاش خمسينى ، ثم ان ملك الأمراء صار بنراضى حواطر المماليك الجراكسة ، فأنفق عليهم جامكية شهرين دفعة واحدة ، وصار القاضى شرف الدين الصغير يأخذ بخواطر المماليك الجراكسة

أيضا ، ويخاطبهم يا أغاوات ، بعد ما كان يقول
يا كلاب يا زرايين . وقد أقامت الممالك الجراكسة
صدورها من حين سمعوا بموت سليم شاه ابن
عثمان .

وفي يوم الاثنين رابع عشره أشيع أن طائفة
الاصباهية وقفوا الى ملك الأمراء ، وقالوا مثل
ما أنفقت على الانكشارية أنفق علينا أيضا ، فقال
لهم الانكشارية ممالك الخنكار وأتم خدامه ،
وما عندي ما أنفقه عليكم ، فنزلوا من عنده على
غير رضا ، وأشيع أنهم يقصدون نهب الزينة ، فبادر
الناس بفك الزينة ، ووقع الاضطراب في ذلك
اليوم .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره ، أنفق ملك
الأمراء على الانكشارية فقط ، فأعطى لكل واحد
منهم أربعين أشرفيا ذهبا تصرف بثمانين أشرفيا
فضة ، وأعطى الصوباشية أغوات الانكشارية لكل
واحد منهم مائة دينار ، فشق ذلك على الاصباهية
والكلمية ، وأشيع اقامة فتنه

وفي يوم الأربعاء سادس عشره ، حضر قاصد
من عند نائب الشام الأمير جان بردي الغزالي ،
يقال له خشقدم اليحياوى ، وهو أحد الأمراء
العشراوات بدمشق ، وكان أمير جكار عند
قانسوه اليحياوى ، فلما حضر بين يدي
ملك الأمراء دفع اليه مطالعة نائب الشام جان بردي
الغزالي ، ومطالعة الى الأمراء ، فلما قرئت اضطربت
أحواله ، ولم يعلم ما في تلك المطالعات ، فأنزلوا
القاصد في بيت الأمير جانم الحمزاوى ، فأقام عنده
في الترسيم وهو محتفظ به .

ثم أشيع أن ملك الأمراء من حين حضر قاصد
نائب الشام الغزالي وهو منكذ ، وشرع في تحصين
قلعة الجبل ، وركب على أبراجها المكاحل ، ووزعت
أعيان الناس أمتعتهم في حواصل ، وتزايد القيل

والقال بين الناس في أمر جان بردي الغزالي نائب
الشام ، وأشيع عصيانه بالشام ، وقد جمع من
العساكر ما لا يحصى .

ثم في يوم الخميس سابع عشره رسم ملك
الأمراء أن طائفة الانكشارية يقيمون في القلعة في
الطباق ولا ينزلون الى المدينة ، وأن طائفة الاصباهية
يسكنون حول القلعة بالقرب من بيت قرا موسى
ففعّلوا ذلك .

وفي يوم الجمعة ثامن عشره خرج قاصد من
عند ملك الأمراء يقال له أمير شيخ ، فأرسل على
يديه مطالعات الى السلطان سليمان بن عثمان
يعزيه في والده السلطان سليم شاه ، ويهنيه
بإستقراره في الملك عوضا عن أبيه .

ثم أشيع أن ملك الأمراء أرسل قاصد نائب
الشام وهو خشقدم اليحياوى الذى حضر وعلى
يديه المطالعات ، فأرسله الى السلطان سليمان
وصحبته تلك المطالعات الواردة من عند نائب
الشام ، فقبل أرسله في الحديد ، وتوجه أمير
شيخ الى البحر الى ثغر الاسكندرية ، ومن هناك
توجه من البحر المالح الى اسطنبول .

ثم أشيع بعد ذلك أن القاصد قد أغرقوه تحت
الليل ، وكان آخر العهد به والله أعلم بحقيقة الحال .

ومما استفاض بين الناس من أمر واقعة نائب
الشام جان بردي الغزالي ، أنه تسلطن بالشام .

وقبل له العسكر الأرض وخطب باسمه على منابر
دمشق ، وضربت السكة باسمه على الذهب والفضة

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك ، أرسل يعلم

السلطان سليمان ابن عثمان بما وقع من نائب
الشام من سلطنته بالشام ، وأرسل اليه المطالعات

التي وردت عليه بما جرى منه ، وصار الأمر

موقوفا على الجواب عن ذلك ، وقد تحقق عصيان

نائب الشام وخروجه عن الطاعة .

وفي شهر ذي الحجة و كان سجنه يوم الاثنين
طلع الصحابة الأربعة إلى المدينة وبعثوا ملك الأمراء
بالشهر ، فلما تكامل المجلس ، اعتبر ملك الأمراء
مصحفا شريفا ووضعه على كرسي ، وحضرت
الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية ، تتقدم الأمير
أرويات الناس في وسط ، أنه يدور تحت طاعة
السلطان سليمان لما كان تحت طاعة والده سليم
شاه ، وأنه لا يحزن ولا يهزول ولا يخامر عليه .

فحلف على ذلك بحضرة الأربعة الأربعة ، ثم تقدم
الأمير قايتباي الدوادار معاه ، بمعنى ما حلف به
الأمير أرومك النكاش ، في سطور الأمراء
الجراكسة يحضر منهم اتقان اتقان ويحلفون على
المصحف بمعنى ذلك . ثم قام شخص ينال له
قراجا الطويل ، وقال : يا ملك الأمراء مثلما حلفنا
للأمراء العثمانية بحلفون لنا بكم أيضا . فقال ملك
الأمراء : واجب علينا ذلك . فتقدم ملك الأمراء
وحلف على المصحف ، وأوسع في الفصائل الحلف
وأكاد في ذلك . ثم تقدم هرا موسى وحلف على
المصحف ، وكذلك فرحات وحير الدين نائب القلعة
والكيخية الكبير آغات الإنكشارية فلما تكامل
الحلف رسم ملك الأمراء أن ننادي في القاهرة
بالعربي والتركي بالأمان والأطمئنان والبيع
والشراء ، وأن التجار يفتح دكاكينها وأن لا أحد
بكثر كلاما ولا يدخل بيما لا يحبه ، ولا ينزل له
قماش إلى داره ، والدعاء بالنصر للسلطان سليمان
ابن عثمان ، فلما نودي بذلك سكن الاضطراب
الذي كان بين الناس قليلا .

وفي ذلك اليوم عرض على ملك الأمراء شخص
من النصاري قيل عنه أنه وقع في حق النبي صلى
الله عليه وسلم بكلام فاحش ، وشهد عليه بذلك ،
فحكم القاضي الحنفى بقتله ، فضرب عنقه تحت

شباك المدرسة الصالحية ، ثم ان العوام أحرقوه
بالناو حتى صارت جثته رمادا

ومن الحوادث الغريبة والنوادر العجيبة أنه
أشيع أن بحر النيل زاد في هذه الأيام بعد ما قد
مضى من هاتور نصفه نحو ثلاثة أذرع ، حتى قيل
بشي على علام الوفا ست عشرة أصبعا ، نجد ذلك
من النوادر الغريبة التي لم يقع مثلها فيما مضى من
الزمان ، ولم يحصل بهذه الزيادة نفع للناس . بل
أنقرت الزروع التي زرعت على التسطوط ،
والأمتعة ، وهذا من جملة عجائب صنع الله تعالى
فيكماني كما يقال في المعنى :

النيل أفرط فيضا بفيضه المتتابع
ومار مسا دهانا حديثا بالأصابع

ثم أشيع من بعد ذلك أن النيل قد دخل إلى
خليج الزربية من عند قصر ابن العيني ، فتطير
الناس من ذلك ، ثم أشيع أن الماء دخل إلى الخليج
الناصري وفاض حتى دخل إلى بركة الرطلي ،
وغرق الزرع الذي كان بها ، فعاد ذلك من النوادر
الغريبة .

وأشيع أن جهات المنوفية غرق ما كان زرع بها ،
وهي عدة أقدنه كثيرة ، وكذلك غرق غالب البراسيم
التي بالجيزة وما حصل بهذه الزيادة للناس خير .

وفيه أفرج ملك الأمراء عن نجم شيخ العايد ،
وخلع عليه وأعادته في مشيخة العايد ، كما كان
أولا . وخلع على أربعة أنصار من عربان السوانم ،
وقرر معهم أن يجمعوا من العريان ما يقدرون
عليه ، بسبب ملاقة نائب الشام جان بردي الغزالي ،
فانه تزادت الأخبار بسلطنته بالشام ، وقد تلقب
بالمك الأسرف صاحب الفتوحات ، وزينت له
دمشق ثلاثة أيام ، وأوقدت له الشموع على

الدكاكين ، وقبل له الأمراء الأرض . وقد جمع
العسكر الكثير وهو حاصد نجر الدمار المصرية .
وفي يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الثاني
الامام العاصم الكامل شيخ الاسلام والمسلمين ،
مفتي الأنام في العالمين ، بهية السلف ، وعمدة
الخلف ، عالم الوجود على الاطلاق ، ومن ذكره
قد شاع في الآفاق . فهو آخر علماء الشافعية
بالديار المصرية ، وانتقلت اليه رئاسة الشافعية ،
فهو شيخ الاسلام زين الدين زكريا بن محمد
ابن محمد الأنصاري السنيكي الشافعي رحمة الله
عليه .

كان مولده في سنة أربع وعشرين وثمانمائة ،
ومات وله من العمر مائة سنة وستين بعدها . وكان
رئيسا حثما في سعة من المال ، وولي قضاء الشافعية
في دولة الأشرف قايتباي ، وأقام بها نحو عشرين
سنة ، ومات وهو معزول من القضاء ، وقد كف
بصره قبل وفاته بمدة طويلة .

وحضر مبايعة خمسة من السلاطين ، وهم الناصر
محمد بن قايتباي ، وخاله الظاهر قابصوه ،
والأشرف جان بلاط ، والعاذل طومان باي ،
والأشرف الغوري .

وولي تدريس قبة الامام الشافعي رحمة الله عليه ،
وولي في أواخر عمره مشيحه مدرسه الجمالية ،
وكان يده غدة تداريس ، وألف الكتب الجليله في
العلوم المفيدة ، وأفتى ودرس بالقاهرة نحو ثمانين
سنة ، وانتفع منه غالب الناس وخلف ولدا ذكرا
من جارية سوداء .

فلما بلغ ملك الأمراء وفاته أرسل اليه ثوبا
بعلبكيا وخمسين ديناراً على يد الأمير جام
الحمزاوي ، وحضر غسله وتكفينه والصلاة عليه ،
وأخرجت جنازته من عند المدرسه السابقة ، ومشى

في جنازته قضاة القضاة وأعيان الناس ، وصلوا
عليه في سبيل المؤمنين ، ونزل ملك الأمراء وصلى
عليه ، وحمل نعشه من سبيل المؤمنين أول ما طلوعوا
وكانت جنازته حافلة ، فلما صلوا عليه توجهوا به
إلى مقام الامام الشافعي رحمة الله عليه ، ودفن
عند الشيخ محمد الخبشاني تجاه قبر الامام
الشافعي رضي الله عنه ، فكان أحق بقول القائل
حيث قال :

لقد عظمت رزيتنا فنبهه
لها عمرا وهم جنح الليالي
فلا زالت ذوو الأقدار تلقى
من الأيام أنواع النكال
وكم جنت المنون على رجال
وجندلت الكماة بلا قتال
ودائي ليس بشفيه دواء
وجرحي لا شول إلى اندمال
به الأيام قد كانت قصارا
فويلي من لياليها الطوال
وكان ذخيري فيها وكنزي
وكان هدايتي عند الضلال

لقد درست دروس العلم حزنا
وقد صل الجواب عن السؤال
ودق الناس أبواب الفتاوى
وقد وصلوا إلى باب الصيال
بكالك العلم حتى النحو أضحي
مع التصريف بعدك في جدال
بكت أوراقه بيض المواصي
دما ويراعه سمر العوالي
وعين دواته عمشت وآلت
يمينا لا تداوي باكتحال

تنكرت المعارف في عياني

وتميزى غدا في سوء حال

وما عوضت من بدل وعطف

سوى توكيد سقمى واعتلالى

فيا قبرا ثوى فيه تهى

فقد حزت الجميل مع الجمال

سقاها الله عينا سلسبيلا

وأسبغ ما عليه من الظلال

وبوأه من الفردوس فضلا

ورقاه الى الغرف الغوالى

وفي يوم الأربعاء المقدم ذكره ، توفي الشيخ
شمس الدين محمد البساطى ، الشاهد الذى قطع
ملك الأمراء يده ، فراح ظلما بلا ذنب أوجب ذلك
وأشيع أن ملك الأمراء أرسل اليه مائة دينار على
أنه يحال له على ما وقع منه ، فأبى من أخذ المائة
دينار ، وقال حتى أقف أنا وإياه بين يدي الله
تعالى . وقيل أن يده التى قطعت استمرت عنده
الى أن مات فدفنت معه فمات شهيدا

وفي يوم الثلاثاء تاسع ذى الحجة ، قدمت على
ملك الأمراء أخبار رديئة بأن العربان نزلوا على
قطيا ونهبوا ما فيها ، واستمر النهب عمالا من قطيا
الى الخطارة ، وطفشت العربان فى الشرقية ،
واضطربت أحوالها ، وأشيع أن شيخ العرب أحمد
ابن بقر أرسل حريمه وأدخلهم الى القاهرة ، ووزع
أمواله وقماشه ومواشيه خوفا من النهب فى البلاد .

وقد وردت عليه أخبار غير صالحة ، وصار
القييل والقال فى كل يوم عمالا بين الناس ، والأخبار
الكذب أكثر من الصدق .

وفي يوم الأربعاء عاشره كان عيد النحر ، فوقع
فى هذا العيد أمور غريبة بسبب الأضحية ، فبلغ

سعر كل بقرة فوق الثلاثين دينارا ، وشيء منها
بيع بأربعين دينارا ، ولم يسمع بمتل ذلك فيما يعدم
من الزمان ، وبيع الخروف الكبير بعشر أشرفيات ،
وشيء باثنتى عشرة أشرفية ، وشيء باثنتى عشر ، فعد
ذلك من النوادر الغريبة ، وسبب هذا أن الأشراف
الذهب العثمانى صار يصرف بخمسين نصفا من
الفضة ، وأما المعاملة من الفضة فإن غالبها نحاس ،
وأكثرها غش ، فوقف حال الناس بسبب ذلك ،
وصار الشيء يباع بمثلين ، وصار كل من البضائع
وغيرها يباع بأعلى الأثمان ، وموجب ذلك قلة البهر
والأغنام فى هذه الأيام ، وصارت الأبقار تجلب الى
دمشق وتباع هناك بأعلى الأثمان ، فإن الأبقار التى
بدمشق دخل فيها الفناء وقل نسلها هناك جدا .

وفي يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمير ناصر
الدين محمد الجلبى المهندار ، وتوجه الى نحو
نهر الاسكندرية بسبب تفقد الأبراج التى هناك
خوفا من الفرنج أن يطرقوا الشجر على حين غفلة .
وقد تزايد عبث الفرنج فى البحر المالح ، وقد
طمعوا فى أخذ البلاد من حين مات السلطان سليم
شاه ابن عثمان .

وفيه أشيع أنه حضر ساع من البلاد الشاميه
وعلى يده مطالعة الى ملك الأمراء ، فقال له ائ
كان معك مطالعات الأمراء فأظهرها علينا ، فأنكر
الساعى ذلك ، فحنق منه ملك الأمراء وضربه ضربا
مبرحا وسجنه وهو لم يقر بشيء من المطالعات .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن أمير شيخ —
الذى أرسله ملك الأمراء الى السلطان سليمان
ابن عثمان يهنئه بالملك ويعزيه فى أيه السلطان
سليم شاه — قد رجع الى نهر الاسكندرية وأنه
وجد البحر المالح قد امتلأ بمراكب الفرنج ، فلم

يستدفع التوجه منه الى اسطنبول ، ورجع الى ثغر الاسكندرية ، وأرسل يعلم ملك الأمراء بما وقع له .

وفي يوم الأحد حادى عشره نزل ملك الأمراء الى الميدان الذى تحت القلعة ، وعرض سنيحه وعرض العربات وهى العجلات التى صنعها ، وفرق على المساليك سلاحا ورماحا وغير ذلك ، ورسم لهم بأن يعملوا برقتهم بسبب ملاقة نائب الشام الأمير جان بردى الغزالي ، ورسم للعسكر العثماني أن يعملوا برقتهم أيضا .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره رسم ملك الأمراء للمساليك الجراكسة بأن يعملوا برقتهم أيضا ، ويجهزوا أمورهم بسبب السفر ، فتوجهوا الى سوق القبو وجامع قوصون ، واشتروا ما يحتاجون اليه بسبب السفر .

وأشيع أن ملك الأمراء أمر طائفة الاصباهية والكملية بأن يخرجوا الى الصالحية ، وقيموا بها الى أن يخرج العسكر ، فامتنعوا من ذلك وقالوا نحن لا نخرج الا في ركاب ملك الأمراء اذا خرج وان لم يخرج ما نخرج . فوقع الخلف بينهما في هذا الأمر ، وكثر القال والقليل بين الناس ، وأن ملك الأمراء أنفق على الانكشارية وأعوانهم ، ولم ينفق على الاصباهية ولا على الكملية شيئا فحنقوا منه .

وفيه أشيع أن اليهود حولوا جميع قماشهم من حارة زويلة وبنوا على أزقتها خوفا قصارا ، وقد أخذوا حذرهم من النهب ، وكذلك اعيان المباشرين ، وأن شحصا من الأمراء العشراوات يقال له جان قلعج — وهو الذى كان نائب قطيا — حضر في مجلس لهو ، فلما سكر نقل عن ملك الأمراء كلاما لم يقله ، فلما بلغ ملك الأمراء ما قاله جان قلعج ،

رسم للأمير قايتباي الدوادار بأن يدعو جان قلعج عنده في الترسيم حتى يعرضه عليه ، ويحقق ما قاله عنه فاستمر في الترسيم عند الأمير قايتباي .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء ملأ الصهاريج الكبار التى بباب السلسلة ، وملأ عدة صهاريج بقلعة الجبل ، وأخذ في تحصين القلعة بكل ما سكن ، وطلع الى القلعة بأعمال بقسماط وأرز وقمح وشعير ودقيق وغير ذلك ، وأرسل طاب من ابن قريسيط المتحدث على شبرى خمسين ثورا من الثيران الكبار بسبب سحج المكاحل التى على العجل والعربات .

وأشيع أن ملك الأمراء طلب شيخ المغاربة وقال له أحضر لى ألفى مغربي من شجعان المغاربة ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة السلطان جان بلات لما تسلطن العادل طومان باي بالشام . ودخل هو وقصروه نائب الشام الى القاهرة — وقد تقدم ذلك — وكان الأشرف جان بلات حصن القلعة أعظم من هذا التحصين ، ولم يمهده منه شيء وانكسر ، وأخذت منه قلعة الجبل في خمسة أيام ، ثم قبض عليه ونفى الى ثغر الاسكندرية .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره ، نودى في القاهرة بأن أولاد الناس ومن بمصر من الأروام يطلعون الى القلعة للعرض بين يدي ملك الأمراء ، فصار جماعة من خان الخليلي من الطباخين ، ومن يعمل السراميج ، ومن يعمل السنبوسك ، يطلعون الى القلعة ويكتبون أسماءهم في الديوان ، ويسون أنفسهم الكملية ويتزيون بزيهم ، وصار العسكر ملفقا من سائر الطوائف والأجناس ففى سبيل الله خيار السبيل .

ثم ان طائفة الاصباهية والكملية تغلبوا على ملك الأمراء ، وقالوا : نحن ما نخرج الى قتال نائب

الشام الا بمرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، ونحن ما علينا الا حفظ. درك القاعة والمدينة ، فان دخل الينا نائب الشام -حاربناه فوق الخلف بين العسكر العثماني وبين ملك الأمراء بسبب ذلك .

وكان من حين تولى السلطان سليمان مملكة الروم لم يرسل الى ملك الأمراء خلعة الاستمرار ، فطمع فيه كل أحد بسبب ذلك ، وصارت الأخبار في كل يوم ترد على ملك الأمراء بأن جان بردى الغزالي نائب الشام قد زحف وخرج من الشام في عسكر كثيف ، وقصد نحو الديار المصرية ، ومعه طائفة كثيرة من الأكراد ومن عربان جبل نابلس ، ومن عربان بنى عطاء ، وبنى عطية ، وغير ذلك من طوائف العربان ، وغيرهم من عساكر دمشق .

وفيه قدمت الأخبار بأن عربان بنى عطاء وبنى عطية اتفقوا مع عربان طائفة السواهم وكسروا طراباي بن قراجا شيخ عربان جبل نابلس ، وكان ملك الأمراء خلع عليه وعلى جماعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، وأنهم عليهم بمال له صورة على أنهم بلاقون جان بردى الغزالي ، ويحاربونه قبل أن يدخل الى القاهرة .

وفيه قدمت الأخبار بأن جماعة من عربان الغربية ثاروا على كاشف الغربية ، فجهت منهم وأرسل يعلم ملك الأمراء بذلك ، ليعين لهم نجريدة .

وفيه حصر شيخ العرب يبرس بن بفر وقال ملك الأمراء ، فخلع عليه ، وكان أشيع عصيانه . وفيه عرض ملك الأمراء من بالسجون فأطلق منهم عشرين انسانا ، وقيل صالح جماعة منهم ممن عليهم الديون وقام بذلك من ماله .

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من الغلمان كان عند جان بردى نائب فطيا الذي تسحب منها ، فلما قبض عليه ومثل بين يديه قال له : أخبرني عن أحوال الغزالي ، كيف تسلم ، فقال ما عندي منه علم . وكان أشيع عن ذلك الغلام أنه أتى من عند الغزالي بمطالعات الى الأمراء الذين بالقاهرة ، فلما أكر العلام ذلك ، حنق منه ملك الأمراء ، ورسم بتوسيطه فوسطه عند باب السلسلة قريب المغرب ، ومضى أمره .

وفي يوم الخميس خامس عشره ، حضر مبشر الحاج ، وأخبر أنه حصل للحجاج مشقة عظيمة بسبب الغلاء في سائر الأصناف والبضائع ، ومات من الحجاج جماعة كثيرة ، وأشيع الشاء الجميل على أمير الحاج جانم الكاشف .

وفيه قدم الخبر بأن نائب الشام جان بردى الغزالي توجه الى حلب بمن معه من العساكر ، وحاصر المدينة أشد المحاصرة ، وقد حاربه أهل حلب ونصبوا عليه ، ولم يمكنوه من أخذ المدينة .

وقد انفصلت هذه السنة عن الناس وهم في أمر مريب ، من استمرار الغلاء مع فلة الأمن ، والفتن القائمة في البلاد الشامية والحنية ، وكثر القتل والقتل بين الناس بسبب جاذ بردى الغزالي ، فانه أشيع عنه أنه تسلم بالشام وتلقب بالملك الأشرف .

ومن أعظم حوادث هذه السنة ، موت الخنكار سليم شاه ابن عثمان ، فان موته كان من العجائب والغرائب ... ولا سيما ما جرى منه في حق أهل مصر من الفعائل الشبعة مما تقدم ذكره .

ومن لطائف صنائع الله تعالى أنه لم يقع في هذه السنة طاعون ولا غيره في البلاد الشامية ، ولا أعمال الديار المصرية .

سنة سبع وعشرين وتسعمائة (١٥٢١ م) :

استهل المحرم يوم الأربعاء ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة : وهنئوا ملك الأمراء بالشهر والعام الجديد ، ثم عادوا الى دورهم .

وفي ذلك اليوم حضر قاصد من عند السلطان سليمان نصره الله تعالى ، وعلى يده مراسيم شريفة : فكان من مضموها أن ملك الأمراء خير لك على عادته في النيابة بالديار المصرية . ثم انه أشيع أن السلطان سليمان أرسل بقول لملك الأمراء : انه عين تجريدة عظيمة الى نائب الشام جان بردى الغزالي ، وأرسل يقول : لا تخرج تجريدة نحن نكتبك أمره .

وفيه قدمت الأخبار بأن چاليش عسكر نائب الشام لما توجه الى حلب ، وحاصر المدنة ، انكسر ذلك الجاليش

ثم أشيع أن عربان الكرك قد استولوا على مدينة الكرك ، ورفعوا بد جماعة نائب الشام ، وقد اتدب الى محاربة جان بردى الغزالي شخص من عربان جبل نابلس يقال له جعيما شيخ عربان الكرك .

وفي رابع الشهر وقعت كائنة عظيمة لشخص من الأتراك يقال له اياس ، قيل انه من ممالك الأمير يشبك الدوادار : رسم ملك الأمراء بتوسيطه فوسط في الرميلة وكان سبب ذلك أنه كان في مجلس لهو ، وحضر في ذلك المجلس جماعة من الاصباهية ، فخلط اياس في الكلام مع الاصباهية في ذلك المجلس ، فقال بلغنى عن ملك الأمراء أنه يقصد أن يتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالي بالشام . فلما حضر جماعة من الأمراء العثمانية عند

ملك الأمراء ، قالوا له : بلغنا أنك تقصد أن تتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالي بالشام . فقال لهم ومن نقل عنى ذلك ، قالوا شخص من الأتراك يقال له اياس ، فأمر بإحضاره ، فلما حضر قال له : من قال لك عنى انى أقصد أن أتسلطن ؟ فقال له اياس : أنا سمعت ذلك من العوام ، فقال له ملك الأمراء : أحضر لى من نقل عنى ذلك ، فانهقد لسان اياس وتوهم من ذلك ، واضطربت أحواله ، وصار لا يدري ما يقول ، فأخذ الأمير قايتباى الدوادار يرقع له خلله ، فطفش فيه ملك الأمراء وكاد أن يفتك به .

ثم ان ملك الأمراء رسم للوالى بأن يقبض على اياس المذكور ، فقبض عليه ونزل به من القلعة الى الرميلة ، فوسطه بسوق الخيل ، وراح ظلما من غير دنب يوجب عليه ذلك ، فان أكثر الناس كانوا يحلطون في ذلك من حين أشيع سلطنة جان بردى الغزالي بالشام ، واسنمر اياس مرميا في الرميلة والكلاب تنهش جثته في الليل ، ورسم أن لا أحد يدفنه . وكان اياس شيخا مسنا ، وله أولاد وعيال ، ولكن اشتد غضب ملك الأمراء عليه في ذلك اليوم ، فعد ذلك من مساوى ملك الأمراء .

وفي يوم الثلاثاء سابعه وقع من ملك الأمراء ما هو أشنع من ذلك ، وهو أنه رسم بتوسيط محمد ابن شمس الدين محمد الفرنوى . وسبب ذلك أن ابن الفرنوى قبض على فلاح وسجنه ، فانه كان مباشر وقف السلطان حسن ، فلما سجن ذلك الفلاح حمل بعض أقارب الفلاح على الفرنوى شخصا من العثمانية ، فكلم الفرنوى في خلاص ذلك الفلاح ، فلم يوافق ابن الفرنوى على اطلاقه فأغلظ عليه العثماني في القول وسبه ، فقال ابن

الفرنوى : عن قريب يحضر جان بردى الغزالي نائب الشام وتخرجون على ايشمه . فطلع العثماني وشكا الى ملك الأمراء ما قاله ، فأحضر ابن الفرنوى وقال له : كيف تقول عن قريب يحضر الغزالي ويتسلطن بمصر ؟ فأنكر ابن الفرنوى ذلك ، فأحضر العثماني جماعة ممن كانوا حاضرين فشهدوا على ابن الفرنوى بأنه قال ذلك ، فحقق منه ملك الأمراء ورسم بتوسيطه فوسط في الرملة ، وراح ظلما كما وقع لانس . وكان ابن الفرنوى هدا من أعيان الناس ، أمام الأمير أفيردى الدوادار والأمير يشبك الدوادار .

وفيه صار ملك الأمراء يتصدق على الأطفال بالمكاتب قاطبه لكل طفل أربعة أنصاف ، ففرق مالا له صورة وصارت الأطفال يقرءون له الفاتحة ويهدونها في صحيفة ملك الأمراء . وصار يتصدق على الزوايا والمزارات التي بالقرافة ، ويتصدق على المجاورين بالجامع الأزهر ، فقليل انه صرف من ماله في هذه السنة نحو خمسمائة دينار .

وفيه عزل كاشف الشرفية انس واستقر عوضه شخص من الأتراك يقال له جاني بك ، وفد تقدم أنه ولي كشف الشرقية قبل ذلك

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، طرق ملك الأمراء أخبار رديئة بأن العربان قد زحفوا على فطيا ، وقد وصلوا الى الصالحية ، فتأكد ملك الأمراء لذلك ، وعين لهم تجريدة ، فخرج اليهم طائفة من الاصباهية وطائفة من الكملية ، فتوجهوا اليهم على الفور من يومهم وكثر القال والقليل بسبب العربان ، وغيرهم .

وفي يوم الأحد سادس عشرى المحرم ، دخل الحجاج الى القاهرة مع الأمن والسلامة صحبة

الأمير جانم أمير ركب المحمل ، ودخل قاضي المحمل النسيح أبو الفتح فتح الدين الوناني المالكي ، ودخل مسجبه النسيح شرف الدين يحيى ابن البردينى شيخ الحرم النبوى ، وكان السلطان سليم شاه درره في متبيحة الحرم النبوى ، فسعوا عليه فعزل واستقر بها الأمير بكباي ، كما تقدم ذكر ذلك . فلما عزل الشرفى يحيى بن البردينى عن مشيخة الحرم ، حضر صحبة الحاج .

وأشيع أن الحاج قاسى في الرجعة غاية المشقة من الفلاء وموت الجمال ، وتعرضت لهم جماعة من العربان ، فتقاتلوا مع الأمير جانم أمير الحاج ، فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة ، فرجع الحاج وهم راضون عن أمير الحاج جانم ، وأننوا عليه بكل جميل ، وشالوا له الراية البيضاء في بركة الحاج .

وفي شهر صفر ، وكان مستهله يوم الجمعة ، صعد القضاة الأربعة الى القلعة وهنثوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم ... وفيه جاءت الأخبار بأن الاصباهية والكملية الذين توجهوا الى الصالحية بسبب محاربة العربان ، ظهر منهم غاية الفساد ، وصاروا ينهبون الضياع التي حول بليس والصالحية ، وبأخذون ما فيها من الاجاج والأوز والشعير والتبن ، فضج أهل الضياع من ذلك ، فأتى الفلاحون وشكوا الى ملك الأمراء ، أن التركمان نهبوا معلمهم ، وفسفوا بنسائهم وبناتهم ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل خلف الاصباهية والكملية فحاصروا الى القاهرة ولم يحصل بهم نفع .

وفيه رسم ملك الامراء بشنق شخص يقال له الحاج ياقوت ، وكان من جملة تجار الوراقين ، وله

شهرة ، وهو في سعة من المال ، فقتل من غير ذنب
بوجب ذلك

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى
بولاق ، وكشف على المراكب التي عمرها هناك ،
فأنزلوها الى البحر قدامه ، ثم رجع وشق من
القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان
يوما مشهودا .

وفيه خرج الأمير جان بك أخو الأمير قايتباي
الدوادار ، فتوجه من البحر وسافر نحو البلاد
الشامية ليكشف أخبار نائب الشام جان بردى
الغزالي ، وغير ذلك من الأشغال السلطانية .

وفيه انقطعت الأخبار من البلاد الشامية ،
وامتنعت القوافل والمسافرون من الدرب
السلطاني ، وانكثمت أخبار نائب الشام جان بردى
الغزالي ، واستمر على ذلك ثلاثة أشهر ، وحصل
للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، ومنع القوافل
وجلب البضائع من البلاد الشامية .

واستهل شهر ربيع الأول يوم السبت فطلع
القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء
بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم

وفي يوم الثلاثاء رابعه ، نزل ملك الأمراء من
القلعة وتوجه الى بركة الحبش والبريم ، فأقام
هناك الى ما بعد الظهر ، فأرسل القاضي بركات بن
موسى المحتسب خمسة جمال ، ما بين خرفان
شوى ، وحلوى وفاكهة ، وغير ذلك من مجامع ،
ضمنها مأمونية ، وسنبوسك بسكر ، وغير ذلك
أشياء فاخرة .

ثم ان ملك الأمراء نزل من هناك في الحراقة ،
وتوجه الى الروضة ، وكشف على المراكب التي
عمرها هناك ، ثم شق من البحر وطلع من عند

قصر ابن العيني ، وتوجه من هناك الى القلعة
فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطبقان ، وانشر
في ذلك اليوم الى الغاية

ومن الوقائع اللطيفة ما وقع في يوم الأحد تاسع
الشهر ، وذلك انه وقع بين شخص من أرباب الفن
يقال له محمد الأوجاقي ، ويعرف أيضا بالشرابي ،
وشخص يقال له محمد بن سرية ، فوقع بينهما
رهان في فن الموسيقى ، فقال محمد بن سرية : أنا
أعرف قطعة من الفن ما سمعها أحد من أهل مصر
قط . فقال محمد الأوجاقي : ان كان حقا ما تدعيه ،
فنجتمع مشايخ أرباب الفن ، ونجتمع مغاني البلد
قاطبة ، ويكون ذلك يوم الأحد في وسط بركة
الرطلى ، وكان ذلك في زمن الربيع فلما كان
يوم الأحد يوم الميعاد ، حضر جماعة من أرباب
الفن ، وحضر مغاني البلد قاطبة ، وآتوا الى بركة
الرطلى ، فجلسوا في وسطها ، واجتمع هناك الجهم
الكثير من المتفرجين ، وكان ذلك اليوم مشهودا ،
فغنى كل واحد من المغنين في ذلك اليوم نوبة من
أحسن ما عنده من الغناء ، وابتهج الناس في ذلك
اليوم غاية البهجة . وأما محمد بن سرية فانه
احتج بأنه ضعيف ، ولم يحضر ، وقال الرهان باق
الى يوم الأحد الثاني فظهر عليه العجز ، ولم يف
بما ادعاه مما تقدم ، فكان كما قيل :

كل من بدعى بما ليس فيه

كذبت شواهد الامتحان

فانقض ذلك الجمع ، وعد ذلك اليوم من
النوادر في الفرجة والقصف .

وفي يوم الاثنين عاشره ، أشيع أن قاصدا حضر
من عند السلطان سليمان ، وعلى يده خلة
الاستمرار الى ملك الأمراء ، فحضر القاصد
وصحبته الأمير شيخ والأمير على المحضر ،

وبرسبای استادار الصحبة مملوك ملك الأمراء الذي كان أرسله الى السلطان سليمان بن عثمان يهنيه بالملك ويعزيه في موت أبيه السلطان سليم شاه ، فلما حضر طلوعوا الى القلعة ، ومعهم مرسوم مختوم من عند السلطان سليمان بن عثمان ، فاجتمع بالقلعة الأمراء العثمانية والأمراء الجراكسة وقرىء عليهم مرسوم السلطان سليمان وهو مكتوب باللغة التركية ، فكان من مضمونه أن السلطان أرسل يقول لملك الأمراء انه فوض اليه نيابة مصر وما معها من الثغور والأعمال ، يعزل من يعزل ، ويولي من يولي ، ولم يرسل اليه خلعة الاستمرار ، فعز ذلك على ملك الأمراء ، وكثر بسبب ذلك القيل والقال بين الناس .

وفي يوم الثلاثاء حادي عشره كان المولد الشريف النبوي بالقلعة على حكم ما ذكرناه في السنة الماضية .

وفي يوم الخميس ثالث عشره بودي في القاهرة عن لسان ملك الأمراء خاير بك بأن من كان له حاجة الى الشام أو غزة يتوجه الى هناك ، فان الدرب السلطاني قد انفتح ، وكان الدرب السلطاني له نحو أربعة أشهر لم يسلك ، ولم تجيء منه القوافل ، حتى عزت البضائع التي كانت تجلب من هناك ، وذلك بسبب عصيان نائب الشام جان بردى الغزالي .

وأشيع أن جماعة من العربان أوقعوا مع جان بردى الغزالي ، وانكسر منهم وهرب ، فقصد ملك الأمراء أن يعلم الناس بأن الدرب قد انفتح وسلك .

وفيه خلع ملك الأمراء على قرا موسى أحد أمراء ابن عثمان وقرره في نيابة غزة ، فخرج اليها في يوم الخميس وسافر .

وفيه قدمت الأخبار من الشام ، بأن السلطان سليمان بن عثمان ، أرسل الى نائب الشام جان بردى الغزالي عساكر عظيمة ، وصحبتهم ابن سوار ، فأوقعوا مع الغزالي في ثاني عشرى صفر ، وكان بين الفريقين واقعة متولة عنى حلب ، فانكسر منهم وهرب الى حماة ، فتبعوه واقتتلوا معه ، ففر منهم وهرب ، وقتل التوجه الى الشام ، وقطع قناطر الرستني ، فتبعوه فكان بين الفريقين واقعة عظيمة خارج مدينة دمشق ، فقتل في تلك المعركة نحو عشرة آلاف انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، ما بين عربان ومساليك ، وجماعة من عوام الشام ، وفيهم أطفال وصغار من أهل ضياع الشام ، وغير ذلك ممن حضر تلك الواقعة ، فكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلنك لما ملك الشام ، وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبي وحرق ضياع ، وما أبقوا في ذلك ممكنا ، وليس الخبر كالعيان . والذي قتل تحت أرجل الخيل لا ينحصر ، وآخر الأمر انكسر نائب الشام والغزالي كسرة مهولة ، وقبض عليه وقتل ، وحزت رأسه ، وأرسلت الى اسطنبول مع رأس جماعة من أصحاب الغزالي ممن كان من عصيته ، ونهب وطاقه وبركه عن آخره ، وكانت من الوقائع العظيمة التي لم يسمع بمثلها .

وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وأربعة أشهر الا أياما ، وزال كأنه لم يكن .

وكان الغزالي عنده رهج وخفة زائدة ، أهوج الطبع ، ليس له رأى سديد ، رهاج في الأمور ليس له تأمل ، وكان ولي نيابة الشام وهو في غاية العظمة والحرمة الوافرة ، والكلمة النافذة ، وقد أصلح الجهات الشامية في أيامه حتى مشى الذئب والشاة سواء ، كما يقال في المعنى :

يا أيها الملك الذي سطواته

في اليد بعشي دنمها من شاتها

وما كان باسم النفس عليه العجم الكثير من
العساكر ما بين سربان جبل نابلس والكرك وغير
ذلك ، والنفس عليه جماعة كثيرة من المماليك
الچراكسة ، وداروا يخرجون من مصر في الحفية
ويتوجهون إليه . والنفس عليه طائفة من الأكراد
والتركمان ، حتى اجتمع عليه انا عشر ألف مقاتل ،
وفيهم رماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام ،
وفيل أكثر من ذلك ، فعند ذلك حدثته نفسه
بالسلطنة ، وثورته الجبهة فتسلطن وتلقب بالملك
الأشرف ، وقبلوا له الأرض هناك ، وخطب باسمه
على المنابر في جسعتين بدمشق ، وكل ذلك عين
الغلط منه ، وكم من عجلة أعنبت ندامة ، فكان
كما قيل في المعنى :

والنفس لا تنتهي عن نيل مرتبة

حتى تروم التي من دونها العطب

ولما تحقق ملك الأمراء أن الغزالي قد تسلطن
بالشام ، وقبلوا له الأرض هناك ، اضطربت
أحواله ، وسرت المماليك الجراكسة بذلك ،
واستبشروا بالفرج ، وبأفرحه ما تمت .

وكان أصل جان بردي الغزالي من ممالك
الأشرف قايتباي ، اشتراه وأعتقه ، وأخرج له
خيلا وفماشا ، وصار من جملة المماليك السلطانية .
ثم ان الأمير تعري بردي الأستاذار ، فرره شادا
في ضيعة بالشرقية فقال لها منية غزال فنسب اليها ،
وقيل له الغزالي مضافا لاسم تلك الضيعة . ثم ان
الأشرف قايتباي جعله جندارا وفرره في كشف
الشرقية ، ثم بقي أمير عشرة في أواخر دولة الناصر
محمد بن قايتباي ، ثم بقي محتسب القاهرة في دولة
السلطان الغوري ، ثم قرره في حجوية الحجاب

بحلب ، فخرج اليها من يومه ، وذلك بعد واقعة
مصر باي لما انكسر . ثم ان الغوري نقله من
حجوييه الحجاب بحلب الى نيابة صمد ، وذلك
في سنة سبع عشرة وتسعمائة . ثم نقله من نيابة
صمد الى نيابة حساء ، الى أن توجه السلطان
الغوري الى حلب ، وانكسر وجرى له ما جرى ،
فرجع الغزالي صحبة العسكر الى مصر ، فوجد
الأشرف طومان باي قد تسلطن عوصا عن
الغوري ، فاستقر بالغزالي نائب الشام وقد تقدم
القول على ذلك .

فلما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان مصر
أقره على عادته في نيابة الشام ، وجعل له التحدث
على الشام وحماه وحمص وصيدا وبغروت وبيت
المقدس والرملة والكرك وغير ذلك من الأعمال
الشامية والطرابلسيه ، فلو فنع بذلك لكان خيرا
له ، فكان كما يقال في الامثال السائرة : « من
شرب بكأس الطمع شرف به » .

وفي يوم الأحد ثالث عشره قدمت الأخبار بأنه
وصل فاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان ،
فلما تحقق ملك الأمراء ذلك ، نزل من القلعه
وتوجه الى تربه العادلي ، وبأت بها لأجل ملاقة
القاصد الذي حضر . وكان ملك الأمراء أرسل
القاضي بركات بن موسى المحتسب الى الحانكاه ،
ليمد له مدة هناك .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشره ، نادى ملك
الأمراء في القاهرة بالزينة بسبب دخول القاصد ،
فزينت زينة حافلة ، فلما دخل القاصد لاقاه ملك
الأمراء من هناك ، ودخل هو واهله من باب النصر ،
وشق من القاهرة في موكب حافل ، وقدامه
العسكر قاطبة من الجراكسة والعثمانيه ، وقدامه
جماعة كثيرة من الانكشارية وهم يرمون بالنفوط
ودخل قدامه عشرة رعوس على رماح ، زعموا انها

رءوس مشايخ عربان ممن كان من عصابة نائب الشام جان بردى الغزالي ، فشق من القاهرة هو والقاصد ، وكان يوما مشهودا

وفي يوم السبت سلخ الشهر قدم قاصد آخر من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، وأشيع أنه أتى الى ملك الأمراء بخلعة الاستمرار ، فلما وصل الى تربة العادلي نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك ، فجلس على المصطبة التي هناك ، فألبسه القاصد الخلعة وهي قفطان مخمل أحمر بتماسيح مذهب ، ثم قام من هناك هو والقاصد ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة في موكب حافل أعظم من الموكب المقدم ذكره ، وركب قدامه قضاة القضاة الأربعة ، وهم : كمال الدين الطويل الشافعي ، وعلاء الدين على الطرابلسي الحنفي ، ومحيي الدين يحيى الدميري المالكي ، والشهابي أحمد الفتوح الحنبلي . وركب قدامه الأمراء الجراكسة قاطبة ، والأمراء العثمانية ، ومشيت قدامه الانكشارية والكمالية وهم يرمون بالنفوط ، ومشيت قدامه طائفة النصارى بالشموع الموقدة ، واصطف الناس له على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكانت القاهرة مزينة في قوة الزينة ، وعلقوا له أحمالا وثريات معمرة بالقناديل الموقدة بطول المدينة ، وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، ولا سيما ما فعله تجار الوراقين من الشموع الموكيات الكبار ، وأطلقوا له المجامر بالعود القماري ، ومرشات الماورد المسك .

ثم ان جماعة من التجار ثروا على رأسه الفضة في عدة أماكن من المدينة ، وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من كل جانب من البيوت والدكاكين ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حافر فرسه من عند خان

مسرور ، واستمر في هذا الموكب الحفل ، حتى طلع الى القلعة وعليه خلعة الاستمرار من عند السلطان سليمان بن عثمان ، وهي بتماسيح مذهب على مخمل أحمر ، وكان ذلك اليوم مشهودا في الفرجة والقصف .

فلما طلع الى القلعة ، خلع على الأمير قايتباي الدوادار قفطانا مخملا ، ونزل الى منزله ، ثم نادى للناس بفك الزينة .

وقد أقامت الناس مزينة نحو عشرة أيام ، وتكلف الناس بسبب ذلك كلفة عظيمة ، من وقيد وقناديل ، ومشترى زيت ، وحصل في هذه الزينة من التركان غاية الفساد من خطف النساء والصبيان المرد ، والتجاهر بالمعاصي ليلا ونهارا ، حتى خرجوا في ذلك عن الحد ، ولا سيما ما كان يفعل في خان الخليلى من الفسق .

وقد ابتهج الناس بهذه الزينة غاية البهجة ، وفي هذه الواقعة يقول صاحبنا الناصري محمد بن قانصوه بن صادق يمدح السلطان سليمان بن سليم شاء بن عثمان عز نصره وأجاد حيث قال :

الحمد لله أضحي الملك مبتسما

من بعد ما كان أبدى وجهه كظما

وكيف لا يك يبدى وجهه كظما

على سليم وقد أضحي يرى ربما

وصار بعد سليم لابنه ، وغدا

من السرور به بالبشر مبتسما

وافتر عن شنب الفتح المبين فم الـ

نصر العزيز له بالسعد فيه لما

قد قطعت أرؤس الأعداء مخزية

وسيفه ملئت منه البطاح دما

وكيف لا وسليمان مدبره
بخاتم الملك منه مذ به اختتما

وصار من كعبه فينا الغلاء رخا
والخوف أمنا بنا والنور زال عمى

والنيل قد زاد في هاتور من فرح
به وروى أراضى مصر بعد ظما

وكان أبطا لتوت بالوفا حزنا

على سليم وما روى البلاد بما

ومصر من فرح في زينة رققت

لما رأت لرخاها كعبه علما

وأصبحت جنة من سعد خير بك

بعد الجحيم ونادى العدل من ظلما

وكيف لا وهو خير قد أحل بها

لو لم يكن هو خير قط ما حكما

يا أيها الملك الممدوح دم فرحا

وانظر لقصد عييد يشتكى ألما

فأنت بالطب أدري من سواك به

ومن سواك يرى في حكمه حكما

لازلت من ابن قانصوه الوفى ترى

مشنفا بمديح مبدع حكما

والجود كالجود يهوى منك من خلغ

نيابة عن سليمان له حكما

وموكب الملك يديه وأنت بها

كما رأينا بمصر والسرور سما

وأنت في فرج تبدو وفي فرح

والملك مبتسم منه ترى نعمما

وكوكب السعد يسرى في سما شرف

عليك في سائر الأوقات محتكما

وقائلا حامدا مذ صار مبتسما

الحمد لله أضحي الملك مبتسما

وقد مضى هذا الشهر عن الناس على خير ، وكان
كثير الحوادث ، ووقع فيه أمور غريبة ، وأحوال
عجيبة ، ولا سيما ما وقع بالبلاد الشامية من الفتن
العظيمة ، من القتل والنهب وحرق الضياع ، وذهاب
الغلال ، وسبب ذلك عصيان نائب الشام جان بردى
الغزالي ، واطهاره للسلطنة . ووقع مثل ذلك بحماه
وحمص وغير ذلك من البلاد الشامية .

واستهل شهر ربيع الآخر يوم الأحد ، ففى ذلك
اليوم بلغ ملك الأمراء قدوم قاصد ، وهو الثانى
من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، قد وصل
وعلى يده خلعة ثانية لملك الأمراء ، وهذا القاصد
يقال له الأمير على ، فلما تحقق ملك الأمراء
وصوله ، نزل اليه من القلعة ولاقاه من عند تربة
العادلى ، ولبس الخلعة هناك ، ودخل من باب
النصر ، وشق من القاهرة في موكب حافل ،
وصحبه الأمير على الذى حضر ، ولم يكن
صحبه من القضاة سوى قاضى القضاة المالكى
محى الدين يحيى بن الدميرى . وكان هذا الموكب
على حكم الموكب الذى تقدم ذكره .

ومن العجائب أن ملك الأمراء أوكب ثلاثة
مواكب حافلة ، وشق من القاهرة ثلاث مرات ، في
مدة سبعة أيام ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفي يوم الاثنين ثنى هذا الشهر ، خرج الأمير
قرا موسى العثمانى الذى قرر في نيابة غزة ، فخرج
من بين الترب ، ولم يشق من القاهرة ، وخرج
صحبه الجهم الكثير من الاصباكية ، ومن التجار
فان الدرب السلطانى كان له مدة طويلة وهو
منقطع من السالك ، من حين جرى من الغزالي
ما جرى ، الى أن أشيع قتله .

وفي يوم الاثنين تاسعه ، كانت وفاة صاحبنا
القاضى محب الدين بن أسيل ، وكان رئيسا حشما

من ذوى البيوت ، وكان قد كف بصره قبل وفاته بمدة طويلة ، وحصل له شدايد ومحن ، ومات وهو فى غاية القهر بسبب خروج مشيخة المدرسة الجمالية عنه الى الشيخ زكريا ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره ، توجه ملك الأمراء الى قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية على سبيل التنزه ، فصنع له المقر الشهابى أحمد بن الجيعان هناك مدة حافلة ، وكذلك الخواجا هاشم ناظر المارستان ، وما أبقي فى ذلك ممكنا .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء فى يوم السبت رابع عشره ، رسم بقطع ثلاث رؤوس من أعيان المماليك الجراكسة ، فقطع رؤوسهم فى ذلك اليوم تحت شباك الدهيشة ، وأشهر تلك الرؤوس على الرماح ، ثم علقها على باب زويلة ، فمنهم شخص يسمى مامى الساقى ، وشخص يسمى قان بك الأشقر ، وهم من مماليك السلطان العورى .

وكان سبب ذلك أن هؤلاء المماليك كانوا بالقاهرة ، وكان ملك الأمراء يحسن اليهم غاية الاحسان ، فلما أشيع عن جان بردى الغزالى نائب الشام أنه تسلطن هناك ، وتلقب بالملك الأشرف ، تسحب هؤلاء المماليك من مصر ، وتوجهوا الى الشام ، ودخلوا تحت طاعة الغزالى ، فلما انكسر الغزالى وقتل وجرى له ما جرى ، حصر هؤلاء المماليك واختفوا فى القاهرة ، فغمر عليهم .

فلما بلغ ملك الأمراء بذلك أرسل الوالى فقبض عليهم ، وأخضرهم بين يديه ، فلما مثلوا بين يديه ، وبخهم بالكلام ، فأغلظ عليه فى القول مامى الساقى ، فحنق منه فرسم بقطع رقابهم بين يديه ، ورسم للوالى بأن كل من كان عند الغزالى من المماليك وحضر الى مصر ، يوسطه من غير اذن ، ولم كان من الأمراء . واشتد غضب ملك الأمراء فى

ذلك اليوم بحيث انه حم جسده فى ذلك اليوم ولزم الفراش ، وانقطع عن المحاكمات ثلاثة أيام ، وأشيع أنه قد طلع له تساليك فى مشعره ، واشتد الألم عليه ، وانقطع عن الخروج ، وصار يتصدق على الزوايا والمزارات بمال له صورة ، وصار يذبح الذبائح من الأبقار على أبواب الجوامع الكبار ، ويتصدق بلحومها على المجاورين بالجوامع والزوايا .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره ، نهى بالقاهرة عن لسان ملك الأمراء : « معاشر كافة الناس ، ان كل من كان عنده مملوك من المماليك الجراكسة ، ممن كان عند الغزالى نائب الشام ، وأخناه ولم يقر به ، يشنق على باب داره من غير معاودة » . وصارت هذه المنادة تتكرر فى كل يوم ثلاث مرات ، نحو ثلاثة أيام على لسان أربعة مشاعلية ، اثنان بالتركي واثنان بالعربى .

وقد اضطربت الأحوال فى هذه الأيام الى الغاية بسبب جان بردى الغزالى نائب الشام . فمن الناس من يقول انه باق فى قيد الحياة ، وأن الرأس التى قطعت غير رأسه ، ومن الناس من يقول انه قتل فى الواقعة التى كانت على القابون ، وحزت رأسه وأرسلت الى اسطنبول ، والأصح أنه قتل على القابون ، وهى ضيعة من الشام . وهذه الواقعة تقرب من واقعة قانصوه خمسمائة لما شك الناس فى قتله .

وفى يوم الخميس تاسع عشر ربيع الآخر ، كانت وفاة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، ابن أمير المؤمنين عبد العزيز المتوكل على الله ، وكان مولده سنة احدى وخمسين وثمانمائة ، وأمه تسمى آمنة ، وهى ابنة أمير المؤمنين أبى الربيع سليمان بن محمد المتوكل على الله فهو هاشمى الأيوين . وكان رئيسا حشما دينا خيرا صالحا لين الجانب متواضعا ، ولى الخلافة فى دولة الملك الناصر محمد بن قايىباى

الأشرف ، وأقام فيها إحدى عشرة سنة ونصفا ،
وبايخ أربعة من السلاطين ثم صرف عن الخلافة في
دولة الأشرف الغورى ، وعهد الى ولده محمد
المتوكل على الله ، وقاسى شدايد ومحن ، وقد تقدم
ذكر ذلك . وحصل له ضعف فى بصره ، وكان لا
يقرا ولا يكتب ، وكان رجلا مباركا لم تعهد له
صبرة قط ، ومات وله من العمر نحو ثمانين سنة
أو دون ذلك ، وكان ولده غائبا باسطنبول من حين
نفاه السلطان سليم شاه ابن عثمان ، ولما مات رثاه
الأديب البارع ناصر الدين محمد بن قانصوه بن
صادق بهذه المراثية فقال :

رشق الموت فى مرامى القلوب
من قسى التجوى سهام الكروب
يا لها من سهام كرب عظيم
فى مرامى الحشا برمى مصيب
صيرت دورنا خرابا وضرنا
بعد عز أذلة للخطوب
يا لها من مدله بعد عز
صيرتنا من عظمتها فى لغوب
أين خير الأنام والآل والصح
ب وأين الملوك أهل الحروب
قد قضى الله بالممات عليهم
مثل ما قد قضى على يعقوب
الذى كف عن فسراق مناه
وتلقى البلاء عن أيوب
غاب عنه ابنه فمات بحزن
كمدا.. من يطيق فقد الحبيب ؟
ابن عبد العزيز أعنى أمير ال
مؤمنين النجيب وابن النجيب
صاحب العهد والخلافة والعق
مع النحل واللوا والقضيب

قلت صبرا على الذى حل لما
قد أشان فى ذا الزمان العجيب
هاشمى أبا وأما وهذا
غاية المجد للحبيب النسيب
الذى كان للأرامل والأيتام
تام كفؤا وكان مأوى الغريب
يا يتامى ويا أرامل ضجوا
واهطلوا عينكم بدمع سكوب
واسألوا الله أن يسكنه الفرد
دوس فضلا فالله خير مجيب
والى مصر أن يجىء قريبا
ابنه فى هنا وعيش خصب
صير الله روح والده فى
خير روح بنشر بشر وطيب
وكذا روح من رثاه بهذا
ان يمت مثله بأوفى نصيب
وكذا قانصوه أبوه امتنا
منه ما صاح ذو بكا ونحيب
قائلا والعيون تجرى عيونا
رشق الموت فى مرامى القلوب

ولما توفى الخليفة يعقوب لم يستطع ملك الأمراء
أن ينزل من القلعة ويصلى عليه ، فانه كان فى غاية
الضرر من تلك التساليك التى طلعت له فى مشعره ،
فحضر مشهد الخليفة يعقوب قضاة القضاة ، وبعض
الأمراء فصلوا عليه ودفن عند أقاربه بالمشهد
النفيسى رحمة الله عليه ، ودفن يوم الجمعة عشريه .
وتوفى بزدداره الحاج على فى ذلك اليوم ، ودفن
عقيب دفن أستاذه يعقوب .
وفى يوم السبت حادى عشريه خرج الأمير قاسم
العثمانى كرك بك الذى حضر صحبة الاصباهيه ،

فرجع الى اسطنبول وصحبته جماعة من العساكر العثمانية الذين كانوا بمصر ، فاختاروا عودهم الى بلادهم باسطنبول هم وهؤلاء الذين حضروا صحبة الخلعة التي جاءت الى ملك الأمراء من عند السلطان سليمان بن عثمان .

وفيه حضر الى الديار المصرية القاضي بدر الدين محمد المسعودي ابن الوقاد ، وكان بوجه الى اسطنبول مع جملة من توجه من الأسارى ، فأقام في اسطنبول مدة طويلة الى أن مات السلطان سليم شاه وولى ابنه سليمان ، فاستأذن الوزراء في الحضور الى مصر لتفقد احواله ، ثم يعود الى اسطنبول ، فأذنوا له في ذلك ، فحضر الى مصر وهو في الترسيم بشاويش مرسوم عليه ، وحضر صحبته كمال الدين بزددار الأمير طراباي ، وكمال الدين العائق ، وكريم الدين المجولى ، ويوسف مناخير ، وبدر العادلى وهو معتوق الناصرى ، ومحمد بن فارس ، فلما حضروا الى مصر أقاموا بها مدة .

فلما انقضى الميعاد الذى قرره معهم الشاويش ، استحثهم على الخروج والسفر الى اسطنبول . فلما كانت ليلة الرحيل ، اختفى القاضي بدر الدين بن الوقاد ولم يظهر ، فشق ذلك على الشاويش الذى كان مرسما عليهم .

وكان ابن الوقاد اختفى باذن ملك الأمراء ، حتى قيل ان ابن الوقاد قدم لملك الأمراء في هذه الحركة ألف دينار في الخفية ، وصار ملك الأمراء يظهر الغيظ على ابن الوقاد ويشدد في طلبه ، ورسم على أصحابه وجيرانه ، وأظهر للشاويش الذى حضر صحبته أنه محث في طلبه والأمر بخلاف ذلك ، ثم ان ذلك الشاويش قبض على كمال الدين بزددار طراباي ، وعلى كمال الدين العائق ، ويوسف مناخير ، وبدر العادلى ، ووضعهم في الحديد

وأخرجهم من مصر على أقبح وجه ، وسافروا من البحر الى اسطنبول ، وقاسوا شداًئد ومحننا وفيه توفى المعلم عبد الرحمن بن طيبله المعامل في الدجاج والأوز ، وكان علامة عصره في هذا الفن ، وكان في سعة من المال لا بأس به ، وله بر ومعروف .

وفي يوم الاثنين ثالث عشره ، كان عيد النصارى وهو أول يوم من الحماسين ، وكان ذلك اليوم رطباً وفي السماء عيم ، وهذا قال للنيل بأن يكون في تلك السنة عالياً جداً في الزيادة .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره ، حضر أولاًقى من عند السلطان سليمان بن عثمان ، وعلى يده مراسيم تتضمن ان كرك بك قاسم الذى حصر وعلى يده خلعه الاستمرار لملك الأمراء ، يستقر في نيابة حلب ، عوضاً عن كان بها . وقيل ان كرك بك هذا رضع مع السلطان سليم شاه .

وقد صارت النيابات كلها بيد جماعة ابن عثمان ، فكرك هذا قرر في نيابة حلب ، وشخص آخر يقال له اياس في نيابة الشام عوضاً عن الغزالى ، وقرر فرحات بك في نيابة طرابلس ، وفرر قرا موسى في نيابة غزة . وقد افترس العثمانية النيابات التى كانت بيد أعيان المماليك المصرية .

وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن ثابتة الحنفى ، وكان لا بأس به . ولم يظهر القاضي بدر الدين بن الوقاد ، ولا كريم الدين المجولى ، فلما طال الأمر على الشاويش الذى كان توكل بهما ، تقلق وخرج وسافر من البحر وصحبته كمال الدين بزددار الأمير طراباي ، وكمال الدين العائق مباشر أمير اخور ، والخواججا عمر بن سعزوز المعربى ، وزين العابدين حامل المزرة ، وبدر العادلى ، وحسين ويوسف مناخير ، فخرجوا من القاهرة

على أقبح وجه من الشاويش الذى رسم عليهم فوضعهم فى الحديد ، وكتف بعضهم بالجبال ، وساقهم مشاة قدماه حتى وصلوا الى بولاق فأنزلهم فى المراكب ، وسافروا نحو اسطنبول ، وحصل لهم الضرر الشامل من الشاويش . وقد حنق من ابن الوقاد والمجولى ، وحظ غبنه فى هؤلاء ، ولم يتأخر بمصر ممن حضر صحبته سوى بدر الدين بن الوقاد والمجولى وزين الدين العجسى شفع فيه ملك الأمراء من التوجه الى اسطنبول .

وفيه أرسل الأمير على بن عمر شيخ جهات الصعيد ، مقدمة حافلة للسلطان سليمان بن عثمان قيل انها قومت بستين ألف دينار ، وكان السلطان سليمان بن عثمان أرسل الى الأمير على بن عمر خلعة الاستمرار على حاله بمشيخة الصعيد ، وقد رأى الأمير على بن عمر فى دولة ابن عثمان ما لم يره أحد من أجداده ولا من أقاربه ، من العز والعظمة والمال والجاه .

* * *

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الثلاثاء ، فطلع القضاة الأربعة وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم . ولما طلعا الى ملك الأمراء وجدوه بالأشرفية التى بجوار الدهيشة ، فقام اليهم وكان له مدة وهو متوعك فى جسده بسبب طلوع التساليك التى فى مشعره ، وقد أشرف على الشفاء وبرىء من ذلك العارض ، وفى ذلك يقول ابن قانصوه :

الحمد لله تغور الهنا

سرورنا منها أرتنا شفاه

لما الى نائبنا شاهدت

فابتسمت من فرح عن شفاه

وفى يوم الثلاثاء ثامنه ، ركب ملك الأمراء ، ونزل من القلعة ، وقد شفى من ذلك العارض

الذى كان قد اعتراه . فلما نزل من القلعة توجه الى بيت الأمير فرحات بك الذى قرر فى نيابة طرابلس ، فنزل اليه وودعه ، وأقام عنده الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة وثق من الصليبة وقدماه جماعة من الانفشارية مشاة يرمون بالنفوط ، وقد هنأه بالشفاء الأديب البارع محمد بن قانصوه بقوله :

الحمد لله زال الهم والألم

عنا لبرئك والأعدا لها سقم

وقلعة الملك أضحى وجهها طلقا

من بعد ما كان فيه قد بدا الكظم

وأصبحت مصر بعد الحزن فى فرح

بكم وأمست يثغر البشر تبتسم

وقد غدت بلسان الحال قائلة

الحمد لله زال الهم والألم

وفى يوم الجمعة حادى عشره ، قدم الأمير جانى بك وهو أخو الأمير قايتباى الدوادار ، وقد تقدم القول بأنه توجه الى كشف البلاد الشاميه ، وأرسل ملك الأمراء على يده مقدمة حافلة الى الأمير اياس العثمانى ، الذى استقر فى نيابة الشام عوضا عن جان بردى الغزالى ، فلما قابل ملك الأمراء خلع عليه ، ونزل الى منزله ، وهو فى غاية التعظيم .

وفى يوم الجمعة المقدم ذكره ، خرج ملك الأمراء وصلى صلاة الجمعة ، وكان له مدة وهو منقطع لم يتسل الجمعة فى جامع القلعة . فلما خرج من الصلاة خلع على المزينين والحكماء ، وقيل دخل على المزينين والحكماء ألف وخمسة دینار ، من نساء ملك الأمراء ، ومن سراريه ، ومن الأمير جانم الحمزاوى ، ومن الأمير برسباى الخازندار والمهمندار ، والمباشرين وأرباب الدولة قاطبة ، ومن الأمراء العثمانية وغير ذلك من أعيان الناس .

وفي يوم انضمت ثانی عشره ، خلع ملك الأمراء على الأمير بجانب الحمزاوى ، وخلع على الأمير بجانب كاتبة القيرم ، ودره في اسمه التاج على حادته . وخلع على الأمير ناصر بن الأشدر ، فخرج جناب الضيعة . وحرره على خانة في شيعته

وفيه قدمه الأعيان بأمر الأمير بركات الذي بين في بيته طرابلس ، لما وصل إلى السلحية ، وجده العريان هناك مفتتحة ، فأرسل يطلب من ملك الأمراء فبذلة ، فان العريان قد قاربوا عليه في الطريق ، وكادوا يسلوه ، فأرسل إليه بمساعدة من الكملية والاصباكية بمرقة على الدور ، حتى أدركوه واستمروا معه إلى طرابلس ، وكانت العريان في هذه الأيام في غاية السعادة في البلاد الشامية ، من عريان بنى عداء زين عطية .

وفي يوم الأحد عشرية توفي القاضي بدر الدين محمد المعروف بابن العيسى فأنزل ديوان الأسباس ، وكان رئيسا حثما حسن السيرة ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس رابع عشرية ، وقع أن ملك الأمراء تخبّر خاطره على شخص من العمداء فقال له متقال ، فقطع أنفه وأذنيه . ورسم بنفيه إلى مكة ، فنزل من القاعة والدم يخطر من أنفه وأذنيه ، ولم يكن له ذنب كبير يوجب ذلك .

وفيه حضر جماعة كثيرة من اسطنبول من كان السلطان سليم شاه أسرههم وأمرهم من مصر ، فلما مات السلطان سليم شاه بن عثمان ، واستقر سليمان ولده بعده ، ورسم بعود الأسرى قاطبة إلى بلادهم ، ورأف بهم ، وأظهر العدل فيهم . فحضر منهم جماعة في هذا الشهر ، منهم شهاب الدين أحمد بن قريسيط ، ومجيب الدين وزين الدين بن بهاء الدين أحمد كتاب المسالك ، والخواججا أبو الطيب بن الرئيس يحيى المزين ، وعبد الحفيظ

ابن أنار تاجر بالهرامزة ، وأبو الفضل بن بركات الدمار في الطليكني ، وقايج الدين بن إبراهيم ابن القاضي ، والم ، وبنو الدين محمد مباشر الأمير أذن باتي ، والشيخ ، والشيخ ، وأنشروا لهم قسطنطين أساقوسم الآن .

وفي يوم الاثنين ثانی عشرية ، ظهر كريم الدين المبرلي ، وبنو الدين السعدي بن الرقاد ، وقده تقدم القبول في سبب اعتناهما من الشاويش الذي كان مترسما عليهما ، وحثيما على الخروج إلى الاسطنبول .



وفي شهر جمادى الآخرة ، وكان مستهله يوم الأربعاء ، طلع القضاة الأربعة إلى القاعة ، وحدثوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا إلى دورهم .

وفي يوم الخميس ثانی الشهر خرج الأمير جانم الحمزاوى ومحمد التوجه إلى اسطنبول ، وكان ملك الأمراء عينه إلى السفر إلى السلطان سليمان بتقدمة ، كما كان يرسله إلى والده سليم شاه ، وقيل أن هذه التقدمة التي أرسلت على يد الأمير جانم الحمزاوى ، قومت بمائتي ألف دينار أو فوق ذلك ، فخرج الأمير جانم الحمزاوى في موكب حافل ، ولم يشق من القاهرة ، بل خرج من التريب . وكان الأمير جانم الحمزاوى يومئذ من أبواب الحبل والتد بالدبار المصرية ، واجتمعت فيه الكلبة ، ورأى من السز والعظمة في دولة ملك الأمراء خاير بك ما لم يره غيره من الأمراء .

وأشيع أن ملك الأمراء وسم لكريم الدين المجولي بأن يسافر إلى اسطنبول صحبة الأمير جانم الحمزاوى ، وأما القاضي بدر الدين السعدي بن الوقاد فأشيع أنه قدم لملك الأمراء ألف دينار حتى

أقام بيسر . و كاتب عنه ملك الأمراء بأنه لا يستطيع

سفر إلى اسطنبول

وفيه قدم الشيخ شمس الدين محمد السديسي الحمصي ، الذي كان ولي قضاء الحنفية في دولة العوري بحلب . وكان السلطان سليم شاه بن عثمان لما انكسر العوري ومات بحلب ، وملك سليم شاه حلب ، فبصر على السديسي وأرسله من هناك إلى اسطنبول ، فأقام بها حتى رسم السلطان سليمان بعود الأسرى إلى بلادهم ، فحضر السديسي مع جملة من حضر إلى مصر ، وحضر صحبتته محب الدين الحنبلي الذي كان مقيما بالحانقاه الشيخوية ، وحضر أبو الفوز بن الحمصاني ، وأفضل الدين موفع السلطان طومان باي ، وحضر شمس الدين محمد المسمى أحد نواب الشافعية ، فحضر هؤلاء كلهم من البحر المالح من دمياط .

وفيه دخل الأمير جانم الحمزاوي من الخانكاه وسافر .

وفيه حضر من اسطنبول المهتار محمد الخولي مهتار السلطان العوري ، وحضر من التجار ابن أبي عوانة البرلسي ، وآخرون

وفيه استقر في نيابة جدة شخص من تجار الأروام يقال له عيسى قرا قرر في نيابة جدة عوضا عن حسين الذي كان بها .

وفي هذا الشهر ظهر شمس الدين محمد بن ابراهيم الشرايشي الذي كان متحدثا في أوقاف الزمامية ، وكان له مدة من حين حضر من اسطنبول في الخفية ، فظهر لما أفرج السلطان سليمان بن عثمان عن الأسرى الذين كانوا باسطنبول .

وفي يوم الأربعاء خامس عشره ، توفي القاضي محيي الدين النيراوي أحد نواب الحنابلة ، وكان

عالما فاضلا ، علامة في مذهبه ، مات وله من العمر مائة سنة وستين بعدها ، وهو آخر نواب الحنابلة ممن ولي عن قاضي القضاة عز الدين العسقلاني ، وكان لا بأس به .

وفيه توفي الشيخ بدر الدين محمد المنوفي ، صاحب ملك الأمراء ، وكان لا بأس به ، وكان له فيه اعتقاد عظيم بالصلاح .

وفيه توفي الشيخ عبد الصمد حطيب المدرسة الجيعانية وكان لا بأس به

ومن الحوادث أنه في يوم الجمعة سابع عشره ثارت فتنة عظيمة بين الاصباهية والانكشارية ، وغلقوا باب القلعة ، ومسحوا القاضي الشافعي أن يطلع القلعة ويصلي بملك الأمراء صلاة الجمعة

واستمرت هذه الفتنة عمالة بين الفريقين يومين ، وصارت الانكشارية ينزلون من القلعة مشاة ويقتتلون مع الاصباهية في الرميطة ، ويطردونهم إلى الصليبة ، فقتل من الاصباهية شخص من أعيانهم ، فلما تزايد الأمر دخل بينهم أغواتهم والكيخة الكبير ، فأصلحوا بينهما ، فاصطلحا على فساد ، وخمدت هذه الفتنة والله الحمد .

وفيه فدمت الأخبار بأن عربان الشرقية قد خرجوا عن الطاعة ، وأظهروا العصيان ، ونهبوا الضياع ، فعند ذلك عين ملك الأمراء قايتباي الدوادار وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة ، بأن يخرجوا إلى العربان ويحاربوهم ، فخرج الأمير قايتباي من بومه على جرائد الخيل ، وتوجه إلى بليس ، وأقام بها .

ثم أشيع أن الأمير قايتباي قد وقع بينه وبين شيخ العرب بيسر بن بقر واقعة ، وكبس عليه نحت الليل ، فهرب منه وأظهر العصيان ، فتوجه إلى

نحو الطور وأقام به ، فلما أظهر العصيان ببيرس ابن بمر اضطربت أحوال الشرقية الى الغاية ، حتى أشيع أن ملك الأمراء قصد أن يخرج الى العربان بنفسه ، فان سبع طوائف من العربان كلهم تحالفوا على العصيان ، والخروج عن الطاعة ، منهم بنو عطية ، وبنو عطاء ، وبنو حرام ، وغير ذلك من طوائف العربان المفسدين .

ثم ان ملك الأمراء خلع على الأمير أحمد بن بقر واستقر به في مشيخة الشرقية عوضا عن آية ببيرس .

* * *

وفي شهر رجب — وكان مستهله يوم الخميس — اتفق أن ذلك اليوم كان عيد ميكائيل ، ونزلت النقطة بالليل مستهل الشهر ، ففتاء الناس بأن النيل سيكون في تلك السنة عاليا مباركا ، ففي أوله طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنتوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم ، وفي يوم الأحد رابعه قبض ملك الأمراء على شخص من الاصباكية قتل شخصا من المماليك السلطانية في محل سكر ، فغضب على قتله خير الدين بك نائب القلعة ، فربطوه في ذنب اكديش وهو على ظهره ، ثم سحبوه وطلعوا به الى القلعة ، وشنقوه ومضى أمره .

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى قصر ابن العيني الذي بالمنشية ، وأقام هناك الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة ، وكان له مدة لم يتنزه في الروضة ، ولا غيرها من المتنزهات ، وسبب ذلك العارض الذي طلع له ولم يختم الى الآن .

وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كانوا هناك من أهل مصر ، وأشيع أن السلطان سليمان نادى

في اسطنبول بأن الجماعة الأسرى الذين من أهل مصر يرجعون الى بلادهم ولا يتأخر منهم أحد ، وكل من تأخر منهم شنق ، فلم يتأخر باسطنبول سوى سيدى على بن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، وابن السلطان الغورى ، والناصرى محمد بن خاص بك ، ومن المباشرين محمد بن صلاح الدين بن الجيعان ، وعبد القادر بن الملكى ، وعبد الكريم أخى الشهابى أحمد بن الجيعان ، وآخرين من أعيان الديار المصرية .

فحضر من جملة من حضر من اسطنبول ، القاضي شمس الدين محمد الجلبى أحد نواب الشافعية ، وحضر القاضي شمس الدين محمد الدمياطى أحد نواب الشافعية بالديار المصرية ، وولى أمانة الحكم أيضا .

ومن العجائب أنه لما حضر الى القاهرة ، حصل له توعك في جسده في مدة اقامته في البحر المالح ، فلما وصل الى منزله أقام به ليلة واحدة ومات رحمة الله عليه ، فكان ترابه بمصر . وحضر زين الدين المنوفى الموقع ، وابن عمه أفضل الدين . وحضر نور الدين على بن عبد الغنى مباشر الدشيثة . وحضر عبد العزيز السمسار في البهار . وحضر عبد العظيم بن أبى غالب المباشر . وحضر القاضي شهاب الدين أحمد بن الهيثمى أحد نواب الحنابلة . وحضر شمس الدين محمد بن عبد العظيم أحد كتاب المماليك . وحضر يحيى بن يحيى مقدم الخاص . وحضر الخواجى أبو بكر الهاشمى . وحضر عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخانة . وولده زين الدين . وحضر ابن الطنساوى يحيى مباشر الديوان المفرد . وحضر ابن السيرجى وغير ذلك .

حافلة ، وأقام عنده الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة

وفيه قدم الأخبار من دمشق بأن جماعه من عربان دمشق ثاروا على نائب الشام الأمير اياس بك ، فلما خرج اليهم ووقع معهم ، انكسر وجرح ورد الى الشام وهو مكسور من العرب ، وقتل من عساكر الشام ما لا يحصى ، ومن عربان جبل نابلس أيضا ، وكانت فتنة مهولة بدمشق .

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلى ، ثم دخل من باب النصر وشق من القاهرة في موكب حافل ، والأمير بصوح صحته ، فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء

وفي شهر شعبان — وكان مستهله يوم الجمعة — طلع القصاصة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى منازلهم . وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول ، بأن طائفة من طوائف الفرنج يفسال لها انكرس ، قد تحالفوا على قتال السلطان سليمان بن عثمان ، فلما تحقق ذلك جمع العساكر من كبير وصغير ، وخرج من اسطنبول وتوجه الى قتالهم في الجبل الكثير من العساكر والفرسان .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على شخص من الأتراك يفسال له جان قلعج ، فسجنه بالعرقانة وأوعده بالتوسيط ، وكان سبب ذلك أنه كان ساكنا في بيت شخص من أبناء الناس — وهو ابن الأمير شاهين الجمالى الذى كان ناظر الحرم النبوى — فانكسرت عليه أجرة المكان ، فطالبه ابن شاهين ، فلم يعطه شيئا وسبه سبا فاحشا ، فطلع ابن شاهين وشكاه الى ملك الأمراء ، فأرسل خلف

وفيه قدم شخص من الأمراء العثمانية يقال له نسرين بك . فلما بلغ ملك الأمراء قدومه نزل اليه ولأفاده من عند تربة العادلى ، ودخل صحبته وشق من المساهرة وهو راكب عن يسينه ، فأنزاه ببيت الأمير أزدمر الدوادار ، ورب له في كل يوم ما يكفيه من دجاج وغنم وأوز وسكر ودقيق وغير ذلك ، وأشيع أنه يفهم بمصر عوضا عن محراب الذى فرر في يابسة حماه .

وفي يوم الثلاثاء نالت عنده نزل اليه ملك الأمراء وأنعم عليه بحمسة آلاف دينار برسم النفقة على جماعته

وفي يوم الخميس حامس عشره ، طلع ابن أبى الرداد ببشارة السيل المبارك ، فجاءت القاعدة ستة أدرع وثمانية أصابع

وفي يوم الجمعة سادس عشره حضر الأمير قاينباى الدوادار من الشرقية ، وقد تقدم القول على أنه توجه الى الشرقية بسبب العربان وفسادهم وعصيان بييرس بن بقر ، فلما رحلوا الى الطور رجع الأمير قايتباى الدوادار الى القاهرة ، وحضر القاضى بركات بن موسى المحتسب صحبته ، فانه كان توجه الى الشقة أيضا .

وفيه توجه ملك الأمراء الى الجزيرة الوسطى ، وسبب ذلك أن الأمير تنم الناظر على وقف الدشيشة كان قد صنع هناك مركبا عظيمة بسبب حمل مغل الدشيشة ، وكان طولها مائة وعشرين ذراعا ، وبها فرن وطاحون وصهريج للماء الحلو ، ومقعد ومبيت واسطبل للحيل ، فعرضها على ملك الأمراء ، ثم فك أخشابها وأرسلها على ظهور الجمال الى الطور ، ومن هناك يرسلها الى البحر المالح . فلما نزل اليه ملك الأمراء مد له مدة

جان قلع فلم يطلع في ذلك اليوم ، وأساء على قاصد ملك الأمراء ، فبلغ ملأ الأمراء ذلك ، ثم ان جان قلع طلع بعد ذلك الى ملك الأمراء وقابله ، فقبض عليه وسجنه بالعرقانة ، وكان تقدم له مع ملك الأمراء واقعه مهولة ، فاستمر في نفس ملك الأمراء منه أشياء كمينية ، وكان جان قلع عنده بادرة وكلامه يابس ، كثير الفجور

ومن الحوادث المهولة أيضا واقعه سيدي عمر بن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق ، وذلك أن سيدي عمر كان مزوجا بابنة الأمير جانم الأشرقي الذي كان نائب الشام — وكانت زوجة تمتاز التمشي — فكان له رزقة وقمها عليها وبها فلاحون ، فلما تزوج بها سيدي عمر تكلم على جهاتها ، فقبل انه جار على فلاحى تلك الرزقة ولم يشس لهم أمر الشراقي في الحصنة ، فتضرر الفلاحون لذلك ، فوققوا الى ملك الأمراء وشكوا له من سيدي عمر بأنه قد جار عليهم ، وأخذ منهم أزيد من الخراج عن المقطعين بالناحية . فأرسل اليه ملك الأمراء يقول له انظر في حالهم ولا تجر عليهم ، فقال سيدي عمر : « وايش كان ملك الأمراء حتى يدخل بيني وبين فلاحيني في شيء ليس له فيه شغل ؟ » فبلغ ملك الأمراء ذلك فتغير خاطره على سيدي عمر ، فأرسل اليه قاصدا فأغلظ عليه في القول ولم يطلع ، فحنق منه ملك الأمراء وأرسل اليه جماعة من الانكشارية فقبضوا عليه غصبا وبهدلوه ، وطلعوا به الى القلعة ، فلما دخلوا الى الحوش قبضوا عليه وأدخلوه العرقانة ، فسجن بها وبات تلك الليلة وأقام بها الى ظهر اليوم الثاني حتى شفيع فيه بعض الأمراء ، فمضى الى داره بعد أن قاسى غاية البهدة من الانكشارية ، فما شكر أحد من الناس ملك الأمراء على هذه الفعلة الفاحشة لأنه لا يستحق ذلك كله .

وفي هذا الشهر كانت وفاة الشيخ زين الدين المغربي ، وكان صالحا معتقدا بها حبرا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان ممددا أمام السامعي رضى الله عنه ، وكان لا يابس به .

وفي يوم الخميس ثامن عشرى هذا الشهر ، قدم شخص من عند السلطان سليمان بن عثمان بنال له محمد بن ادريس ، ويعرف بتلفسز الدفتردار ، وصحبته شخص يقال له الأمير كمال ، فلما وصل الى ربة العادلى نزل اليه ملك الأمراء والافاء من هناك ، ثم دخل نحو واباء من باب النهر . وهناك من القاهرة في موكب حافل . وقدامه الانكشارية والكلية متساء يرمون بالندوط . فاستمر في ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة ، وأنزل الدفتردار في بيت الأمير يسبك الدوادار الذي في حامية البئر ، ومد له هناك مادة حافلة ، وأنزل الأمير كمال في مكان آخر ، وأتبع أن الأمير كمال حضر يروم الحج الى بيت الله الحرام ، والدفتردار حضر بسبب ضبط مال الثغور من الجهات المصرية .

وفي شهر رمضان ، وكان مستهله يوم السبت ، وكان الهلال عسر الرؤية على خمس درج ، وقيل على أربع درج ، فراه بعض الناس وثبت عند القاضي زكرياء أحد نواب الشافعية ، وركب القاضي بركات بن موسى من المدرسة المنصورية بعد المغرب ، وقدامه المشاعل والقوانين وشق من القاهرة في موكب حافل على العادة .

وفي يوم السبت مستهل الشهر كان وفاة النيل المبارك ، أوفى الله تعالى الستة عشر ذراعا وست أصابع من الذراع السابع عشر ، ثم فتح السد يوم الأحد ثانی شهر رمضان — الموافق الحادي عشر مسرى — ووقع في دولة الأشرف قايتباي أن السد

فتح في أول يوم من رمضان ، فلما أوفى النيل نزل ملك الأمراء الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل في الحراقة ، وتوجه الى السد ففتحه على جارى العادة ، وكان ذلك اليوم مشهودا في الفرجة والقصف ، كما يقال في المعنى :

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا
كالروض تطفو على نهر أزاهره
وللوفاء عمود من أصابعهم
مخلق تملأ الدنيا بشائره

وفي يوم الثلاثاء رابع شهر رمضان ، صعد الدفتردار محمد بن ادريس الى القلعة ، واجتمع الأمراء العثمانية بالقلعة ، وقرئ عليهم مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان ، فكان من مضمونه التوصية بالرعية غاية الوصية ، وان ملك الأمراء ينظر في اصلاح المعاملة من الذهب والفضة . فوقع في المجلس بعض تشاجر بين الدفتردار وبين ملك الأمراء بسبب ذلك ، فقال ملك الأمراء : « أنا ما أغير معاملة السلطان سليم شاه ، ولا أخرج عما وقع في أيامه من أن الأشرفي الذهب يصرف في المعاملة بخمسين نصفا على العادة » .

ثم ان ملك الأمراء رسم باحضار التجار ، فلما طلعوا الى القلعة تكلموا معهم في أمر صرف الأشرفي الذهب الواسع بخمسين نصف فضة ، فتضرروا من ذلك ، وقالوا ما يوافقنا أحد من الناس على ذلك ، وانفض المجلس مانعا من ذلك .

ثم ان القاضي بركات بن موسى المحتسب ، تكلم مع ملك الأمراء بأن يصرف الأشرفي الذهب بخمسة وأربعين نصفا ، وقيل بخمسة وأربعين عثمانيا ، وفي البيع والشراء بخمسة وأربعين نصفا ، فوقع الاتفاق على ذلك ، ونودى في القاهرة بذلك ، فسكن الاضطراب قليلا . ثم ان القاضي بركات جعل

القاضي حمزه العثماني متكلماً على دار الضرب . ثم بعد ذلك لم يتم أمر صرف الأشرفي الذهب الواسع بخمسة وأربعين نصفا ، وصار يصرف بأربعين نصفا ، وعز وجود الفضة جدا ، وصار الأشرفي الذهب يصرف بشقة زائدة من السوق ، ويعطون فيه النصف فضة والنصف فلوسا جددا ، وحصل للناس الضرر الشامل .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأنه وقع بها طاعون عظيم ، وصار يموت بها كل يوم ما لا يحصى .

وفيه توجه الدفتردار الذي حضر الى ثغر دمياط والبرلس وثر الاسكندرية أيضا بسبب جبي الأموال التي أضيفت الى خزائن الخنكار بالروم ، فخرج الدفتردار وصحبته القاضي حمزة .

وفي أثناء هذا الشهر ، حضر جماعة من اسطنبول مع جملة من حضر منها ، فحضر القاضي علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص وأخوه . وحضر القاضي أبو البقاء ناظر الاسطبل وأخوه يحيى . وحضر من نواب القضاة القاضي شمس الدين محمد العبادي أحد نواب الشافعية . وحضر القاضي شمس الدين بن وحيش أحد نواب الشافعية . وحضر القاضي شمس الدين محمد الابشادي أحد نواب المالكية . وحضر بدر الدين بن الرومي . وحضر القاضي ابن عرفات أحد نواب الشافعية . وحضر

تقى الدين العزيزي الشافعي . وحضر بدر الدين محمد بن حازوقة مباشر الأمير علان الدوادار . وحضر أحمد السكندري الشطرنجي رفيق ابن الورد . وحضر أبو البقاء بن السيرجي . وحضر بدر الدين بن الهيصم وآخرون من المباشرين والقضاة والأعيان لم تحضرني أسماؤهم الآن .

وأشيع أن السلطان سليمان — نصره الله تعالى — أعتق جميع الأسرى الذين كانوا باسطنبول من أهل مصر ، ولم يبق فيها سوى أولاد السلاطين وجماعة من المباشرين ، ومن أولاد الجيخان ممن تقدم ذكرهم ، وجماعة من أعيان الديار المصرية ، وأما الأمراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين كان السلطان سليم شاه نفاهم إلى اسطنبول ، فلما ولي ابنه سليمان لم يأمر لهم بالعود إلى مصر ، ولم يقبل فيهم شفاعاة ، واستمروا في بلاد الروم إلى الآن .

وأشيع أن السلطان سليم شاه بن عثمان كان أرسلهم إلى مكان يحاصرون فيه الفرنج ، وقد خمدت أخبارهم ، فلما حضر هؤلاء الجماعة من اسطنبول ، أشاعوا أن السلطان سليمان شاه بن عثمان قد خرج إلى القتال بسبب الفرنج ، ولم يرد من عنده خبر من حين توجه إليهم

وأخبر الجماعة الذين قدموا من اسطنبول أن القاضي شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص يوسف ، حصل له في عقله ذهول ، وحصل له ضيق معيشة ، وصار يشتري عشاءه وغدائه من الطباخ في زبديّة ، ويحملها بنفسه على يده ، وهو لا بس كنبك لباد أبيض ، وقاسى شدائد ومحنا .

وأخبروا عن زين العابدين ابن فاضل القضاة الشافعي كمال الدين الطويل أنه تسحب من اسطنبول ولم يعلم له خبر من حين خرج ، وكانت جماعة من الشاويشبة ينصبون على من هناك من الأسرى من أهل مصر ، ويفولون نحن نساقر بكم من اسطنبول في الخفيه وتتوجه بكم إلى مصر ، فيخرجون بهم من اسطنبول وشتلونهم في الطريق ، ويأخذون ما معهم من مال وفماش ، وقد فعلوا مثل ذلك بكثير من أهل مصر ممن كان باسطنبول ، ولم يعلم لهم خبر إلى الآن .

وفي يوم السبت خامس عشر شهر رمضان ، قدمت الملكة خاتون — عمه السلطان سليمان بن عثمان — وولدها مصطفى صحبتها ، وأشيع أنها قدمت إلى مصر تروم حج بيت الله الحرام ، فأكرمها ملك الأمراء غاية الأكرام ، وأنزلها في مكان منزل على بركة الفيل ، ورتب لها في كل يوم أسطة حافلة لها ولجماعتها الذين قدموا معها من بلاد الروم .

وفي يوم الخميس عشريه ، وقع فيه كائنه يتيى فلام ، وكان يتجر في السكر وله مطبخ يعمل فيه السكر ، فاستمر على ذلك مدة طويلة . ثم انه بعد ذلك انكسر وتجمد عليه جملة ديون كثيرة ، بحيث أشيع عنه أنه تجمد عليه نحو أربعين ألف دينار ، فلما انكسر طالبه أصحاب الديون ، وكان المال لأقوام من تجار خان الخليلي وغيرهم ، فلما طال الأمر عليهم شكوه إلى ملك الأمراء ، فرسم عليه ملك الأمراء مدة طويلة بجماعة من الانكشارية حتى يرضى أصحاب الديون ، فاستمر في الترسيم مدة طويلة ، وكان ملك الأمراء قرر عليه وألزمه بأن يرد لأصحاب الديون في كل شهر خمسة آلاف دينار ، فما قدر على ذلك وعجز عن إيراد ذلك القدر . وكان ملك الأمراء حلف يميناً برأس السلطان سليمان ابن عثمان ان لم يرض أصحاب الديون في حقوقها والا يوسطه ، فلما ضاق عليه الأمر خنق نفسه تحت الليل ، وأصبح ميتاً . ثم أشيع أن الانكشاري الذي كان مرصماً عليه خنقه تحت الليل ، وأخذ ما كان معه من المال الذي كان يورده لأصحاب الديون على أول الشهر ، وأشاع عنه أنه قد خنق نفسه وأصبح ميتاً . ومضى أمره إلى حال سييله .

وفي يوم الخميس سابع عشري شهر رمضان ، كان يوم النوروز ، وهو أول يوم من السنة

النبيلة ، وهى سنة سبع وثمانين وتسعمائة فبذلية
خراجية ، ففى ذاك اليوم بلغ النيل فى الزيادة
سبع عشرة أصبعا من تسعة عشر ذواجا واستمر
عدالا فى الزيادة .

وفى يوم السبت تاسع شوال شهر رمضان ،
وقع فيه من الدوايد كائنة بسيدي عمر بن
الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق —
وذلك أن القول تقدم بما وقع لسيدى عمر مع ملك
الأمراء بسبب أمر الفلاحين ، فاستمر سيدي عمر
يتابع عائلته مع الفلاحين كما تقدم ، فوقعوا وشكوه
الى ملك الأمراء ثانيا ، فتغير خاطره على سيدي عمر
واحتد منه ، فأرسل اليه قتيب الجيش ، فقال له
رسم ماك الأمراء بأن تقوم فى هذه الساعة وتتوجه
الى دمياط ، فاستمر عنده حتى كتب وصيته ، وقام
وركب من وقته وتوجه الى بولاق ، ونزل فى مركب
وسارت به الى نعتو دمياط ، فهذا كله بسبب
الفلاحين من صلابة سيدي عمر وقوة رأسه ، وفلة
درايته ، حتى اتسعت هذه الحادثة بينه وبين ملك
الأمراء على هذا الأمر الفشوى الذى لم يستحق
هذا كله ، ووقعت له هاتان الكائنتان فى شهر واحد ،
فشق ذلك على ملك الأمراء وعلى الناس قاطبة
فوقع له الببدلة من ملك الأمراء مرتين ، الأولى
بسجنه فى العرقانة ، والثانية بنفيه الى دمياط ،
وركوبه على بغلة وهو متوجه الى بولاق ، فلما
جرى ذلك توجه عيال سيدي عمر الى بيت الملكة
خاتون عمة السلطان سليمان بن عثمان ، وتراموا
عليها فى أن تشفع عند ملك الأمراء فى عود سيدي
عمر من النفى ، فأرسلت الى ملك الأمراء ولدها
مصطفى بك ، فشفع عنده فى سيدي عمر بأن يعود
الى داره ، فقبل شفاعته الملكة خاتون ، ورسم
بعود سيدي عمر الى منزله ، فعاد بعد ما سار فى
البحر يوما وليلة ، فلما عاد تخلقت عياله بالزعفران

ودقت له على بابه الدبلحانات والزمور ، وهنوه
بالملاحة

وفى سلخ شهر رمضان حضر الدفتردار محمد
ابن ادريس الذى كان توجه الى دمياط والبرلس
وبقية الثغور ، بسبب حبس الأموال التى أضيفت
الى خزائن مولانا السلطان سليمان ، فلما وصل
الى بولاق نزل اليه ماك الأمراء ولاقاه من هنالك ،
واستمر معه حتى أرسله الى منزله .



وفى شهر شوال كان نبيد النظر يوم الاثنين ،
وقد ثبتت رؤية الهلال بعسر ، فان هلال رمضان
ثبت على يد القاضى زكريا أحد نواب الشافعية ،
وشك الناس فى ذلك ، وقالوا ان ذلك اليوم الذى
صاموه كان آخر يوم من شعبان ، فوقع الشك
بسبب ذلك ، ومالاقى القاضى زكريا خيرا من
الناس بسبب ان هلال رمضان ثبت عنده وكانت
الميقاتية حكموا بأنه لا يرى فى تلك الليلة أبدا .

فلما كان هلال شوال أرسل ملك الأمراء يقول
للقاضى الشافعى ، أقم أنبتم هلال رمضان على
أربع درج وقد شك الناس فى ذلك ، فما تفعلون
فى هلال شوال ؟ فأرسل يقول له قاضى القضاة
الشافعى ، هلال رمضان قد ثبت حقا ، وقامت به
البينة وزكيت ، وغدا من شوال محقق .

ثم ان قاضى القضاة الشافعى نادى فى القاهرة
أن غدا من شوال ، وهذا ما اتفق قط ان ينادى قبل
رؤية الهلال أن غدا من شوال ، فعند ذلك من
النواذر ، وكان موكب العيد حافلا بالقلعة .

وفيه كان دخول المقر الشهابى أحمد بن الجيعان
على ابنة الأمير خاير بك كاشف الغريبة ، أحد
الأمراء المقدمى الألوف ، وهى التى كانت زوجة

الأمير تاني بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ،
وكانت غير محمودة السيرة في أفعالها

وفبل ذلك بمدة يسيرة تزوج القاضي أبو بكر
ابن الملكى بابنة الأمير قانصوه المعروف بأبى سنة
أحد الأمراء المتدسين ، ولا ينكر ذلك عليهم في
هذا الزمان .

وفيه قدمت الأخبار بأن السلطان سليمان
ابن عثمان لما توجه الى قتال الفرنج اوقع معهم ،
وكان بينهم واقعة مهولة ، وقتل من عسكره
مالا يحصى عدده ، وقتل في معركته الأمير قانصوه
العادلى ، الذى كان توجه الى اسطنبول ، وقد
انتصر السلطان سليمان على الفرنج نصرة
عظيمة ، ثم خمدت هذه الاشاعة من بعد ذلك ،
وكرر القال والقليل بين الناس بسبب ذلك .

وفي يوم الخميس ثامن عشره ، خرج المحمل
من القاهرة في تجميل زائد ، وكان أمير ركب المحمل
الأمير جانم كاشف الفيوم على العادة ، وخرجت
صحبتة الملكة خاتون عمة السلطان سليمان وولدها
مستظفى بك ، فطلب الأمير جانم طلبا حافلا ، وكان
به ست عجالات تسحبها الأكاديش ، وعليها عدة
مكاحل نحاس ومدافع حجر ، بسبب قتال العربان
الذين في طريق الحجاز ، فانه كان في السنة الماضية
في غاية الاضطراب بسبب فساد العربان .

وفي يوم الأربعاء رابع عشره ، نودى في القاهرة
عن لسان ملك الأمراء ، بأنه لا مملوك ولا عثمانى
يلبس زنطا أحمر . ولا أولاد الناس أيضا ، ومن
ليس زنطا بعد المنادة شتى من غير معاودة في ذلك .
ثم أشيع أن ملك الأمراء رأى عبيدا وغلمانا

بجقدارية ، وهم بزئوط حمر ، قتال امضوا بهم
الى بيت الوالى يسكنهم ، فشنع فيهم بعض
الأمراء .

ثم أشيع أن ملك الأمراء رسم للأمرء الجراكسة
بأنهم لا يلبسون سرموجة تركية ، ولا يظلمون بها
الى القاعة ، وهذا كله عين المثل للجراكسة وبعض
فهم قاطبة .

وفي يوم السبت سابع عشره ، الموافق لأول يوم
من بابه من الشهور القبطية ، ثبت النبل المبارك
على ثلاث وعشرين أصبعا من شترين ذراعا ، فكان
منتهى الزيادة عشرين ذراعا الا أصبعا واحدة ،
وكان نيلا عظيما الى الغاية ، والناس مدة طويلة
ما رأوا نيلا مثل هذا ، ففتكت الناس في الفرجة
والقصف ، وسكن غالب بيوت الجسر ، بعد ما كان
آل الى الخراب وتهدمت بيوته ، وكاد أن يمسى
مثل الجزيرة الوسطى في خرابها .

وفي شهر ذى القعدة ، وكان مستهله يوم
الأربعاء ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنثوا
ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفي يوم الجمعة ثالثه ، نودى في القاهرة عن
لسان ملك الأمراء بأن لا أمير من الجراكسة ، ولا
خاصكيا ، يركب وخلفه بغل وعليه غلام راكب ،
بل يمشى على طريقة العثمانية في أفعالهم ، يأخذ
الغلام الغاشية على كتفه ويمشى قدامه .

وفي يوم الأربعاء ثامن الشهر ، أنفق ملك الأمراء
الجامكية على المماليك الجراكسة بعد ما عوق
جوامكهم وعليقهم ستة أشهر ، حتى عاينوا الموت
من ضيق الحال ، فصرف لهم ثلاثة أشهر ، وآخر

لهم ثلاثة أشهر ، ولم يصرف لهم العليق . فقبض ذلك اليوم كل مملوك من الجراكسة أحد عشر أشرا ، ذهباً وثمانية أنصاف من الذهب العثماني ، فأدبروا عليهم كل أشرفي ذهب بأشرفيين فضة ، فحسروا في صرف كل أشرفي عشرة أنصاف فضة ، فكانت خسارتهم في العشرين أشرفياً خمسة أشرفيات ويسمى فضة ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك ، بعد صبرهم ستة أشهر ، وآخر العليق عنهم . وأنشع ان الديوان مشحوت غاية الانشحات ، وان ملك الأمراء عليه ستون ألف دينار ، والمباشرون استخرجوا من البلاد القسط الأول ، أربعة أشهر معجزاً من مغل سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبطية خراجية قبل أن يفي النيل ويزرع الفلاحون وتروى الاراضي ، فحصل للفلاحين عابة الضرر من ذلك ، ورحل بعض فلاحين بسبب ذلك الظلم والجور وقد انحط سعر الغلال عما كان أولاً من الارتفاع . وكان سبب انشحات الديوان أن المال الذي يجيء صار ينقسم على سبع طوائف من العسكر ، وهم المماليك الجراكسة وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ، ثم الاصباهية وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ، ثم الصوباشية ، والانكشارية ، والكملية ، ثم ممالك ملك الأمراء ، وذلك خارج عن كلفة من يرد من المملكة الرومية من القصاد والمترددين من اسطنبول وغيرها ، فكان ملك الأمراء ينعم عليهم بالعطايا الجزيلة .

وقد بلغني ممن أثق به أنه كان متحصل خراج مصر في دولة ابن عثمان لما ملكوها ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ، ومن المغل ستمائة ألف أردب منها ثلثمائة ألف أردب قمح وثلثمائة ألف أردب شعير وفول وغير ذلك ، وأين هذا القدر مما كان عليه خراج مصر في الزمن القديم .
 نقل الشيخ تقي الدين المقرئ في الخطط : قد

بلغ خراج مصر في زمن القبط عند تلاشي أحوال مصر مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار وكان جملة خراجها في زمن الفراعنة ، ألف ألف دينار بالدينار الفرعوني ، وهو ثلاثة مثاقيل من مثاقيلنا الآن ، وكان مساحة أراضي مصر في زمن الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمانين ألف ألف فدان تزرع غير البور

وجبى خراج مصر في زمن عمرو بن العاص ، على عبد الله بن أبي سرح ، في صدر الاسلام ، اثني عشر ألف ألف دينار ، غير الدنانير المتعامل بها الآن .

وجبى خراج مصر في أيام الأمير أحمد بن طولون ، مع وجود الرخاء ، أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ، غير ما يتحصل من المكوس والغلال .

وجبى خراج مصر في أيام الأخشيديّة ، فكان ألفي ألف ألف دينار غير دنانير الآن

وجبى خراج مصر في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، فكان اثني عشر ألف ألف دينار ، مع تلاشي أحوال مصر وانحطاط خراجها الى ذلك . وكان موجب انشحات الديوان في أيام ملك الأمراء خاير بك أن الاصباهية والانكشارية والكملية لما استقروا بمصر ، رتب ملك الأمراء جوامك في كل شهر ، فكان يعطى جماعة من الاصباهية في كل شهر ستين ديناراً ، وجماعة منهم خمسين ديناراً . وجماعة منهم ثلاثين ديناراً ، وباقيهم عشرين . وأما الانكشارية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيتهم كل شهر خمسة عشر ديناراً ، وباقيهم اثني عشر ديناراً ، وأما الصوباشية فلهم في كل شهر ثلاثون ديناراً لكل واحد . وأما الكملية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيتهم في كل شهر اثني عشر ديناراً ،

وجماعة عشرة دنانير ، وجماعة منهم ثمانية دنانير ، وهذا كله خارج عن جوامك ممالك ملك الأمراء . وأما الممالك الجراكسة فان ملك الأمراء رتب لكل واحد منهم في كل شهر سبعة دنانير في نظير الجامكية واللحم ، وذلك خارج عما رتب للأمراء الجراكسة القاطنين بمصر . وذلك خارج عن انعام ملك الأمراء للمتريدين من المملكة الرومية وغيرها ، حتى قيل : كان يصرف ملك الأمراء على مذكراته في كل سنة نحو ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار . فبواسطة ذلك كله ضاق الحال عن صرف الجوامك في كل شهر .

وأما المال الذي كان يرد من ثغر الاسكندرية ودمياط والبرلس وجدة وغير ذلك من الثغور ، فانه كان يحمل الى خزائن السلطان سليم شاه وولده السلطان سليمان نصره الله ، فلا يتعرض ملك الأمراء لشيء من ذلك . وما كان يستخرج غير خراج الشرقية والغربية والبحيرة وجهات الصعيد فقط لا غير .

فان قال قائل ان السلطان الغوري كان يسد أمر الجوامك في كل شهر ، وكان العسكر أكثر من ذلك ، والأمراء أربعة وعشرون مقدم ألف ، غير الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية فوق الألف خاصكى ، أقول ان السلطان الغوري ، كان يستعين على ذلك بكثرة المصادرات للمباشرين وأعيان التجار . وغير ذلك من مساتير الناس ، وكان يرد عليه أموال الثغور ، وأموال البلاد الشامية والحلبية والطرابلسية وغير ذلك من الجهات ، والآل البلاد الشامية والحلبية في غاية الاضطراب ، ولم يرد منها شيء من الأموال ، فموجب ذلك ضاق الأمر من المال على ملك الأمراء ، ونرجو من الله اصلاح الحال وفي يوم الاثنين ثالث عشره ، خرج الدفتردار

محمد بن ادريس ، وتوجه صحبته ملك الأمراء الى تربة العادلى ، وكذلك الأمراء قاطبة ، وخرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباهية والانكشارية ، فتوجه طائفة منهم في البحر ، وأشيع أنهم توجهوا الى اسطنبول بطلب من السلطان سليمان نصره الله ، وقد بلغه أنهم يشوشون على أهل مصر غاية التشويش ، فأرسل أخذ منهم خمسمائة انسان من الاصباهية والانكشارية ، وأراح الله المسلمين منهم ، فانهم كانوا من كبار المفسدين ، فخرج الدفتردار في ذلك اليوم في موكب حافل كما تقدم .

وفيه كانت وفاة الناصرى محمد ابن الأمير جاني بك كوهية ، وكان رئيسا حشما دينا خيرا من أولاد الناس ، حسن السيرة لا بأس به .

وفيه قدم من اسطنبول سيدي محمد بن الكويز ، وكان توجه الى نحو اسطنبول مع جملة من أسر من أهل مصر ، فلما أفرج السلطان سليمان عنهم ، حضر الى مصر ، وكان حسن السيرة في التحدث في أمر المواريث .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره ، حضر أولاق من عند السلطان سليمان وعلى يديه مراسيم تتضمن أنه قد انتصر على الفرنج نصره عظيمة ، وفتح عدة مدائن من مدائن الفرنج ، وملك عدة قلاع من قلاعهم ، وصار كلما يملك مدينة من مدائنهم يجعل كنائسهم جوامع بمحاريب ومناير ، وخطب باسمه فيها ، وكانت هذه النصره على غير القياس .

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك رسم بدق البشائر في القلعة ، ونادى في القاهرة بالزينة ، فزينت سبعة أيام متوالية ، وفتك الناس في هذه الزينة فتكا ذريعا ، حتى خرجوا في ذلك عن الحد ، وتجاهروا بالمعاصي ليلا ونهارا .

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، توجه ملك
الأمراء الى بحور الجزيرة التي بجاه الديزة بالقرب
من المقياس ، وأقام بها ذلك اليوم على سبيل
التنزه ، فأرسل اليه القاضي بركات بن موسى
المحتسب هناك مدة حافله ، فتعدى ملك الأمراء
هناك ، ورسم بأن الذي فضل من المدة يحمل الى
التلعة ، وقد فضل منها أشياء كثيرة

ثم ان ملك الأمراء خلع على القاضي بركات بن
موسى المحتسب قفطانا مذهبا ، وشكر له ما صنعه
من أمر تلك المدة .

وفي يوم الأحد سادس عشره ، وقعت كائنة
عظيمة للشيخ عبد المجيد بن الطريني ، وذلك أن
ملك الأمراء تغير خاطره عليه بسبب أنه كان تسلط
عليه الدين الذي تقدم ذكره ، فلم يعط أصحاب
الديون شيئا مما قسطه عليه ، فشكوه الى ملك
الأمراء ثانيا ، فأرسل خلفه ، فلما حضر بين يديه
قال له : « ألم أقسط عليك ذلك الدين في كل
شهر ، وقررت معي أنك ترضى أصحاب الديون
بما قسطته عليك ، فلم تفعل من ذلك شيئا » . فلم
ينطق في ذلك بحجة ، فحنق منه ملك الأمراء ،
ورسم بضربه فبطح على الأرض ، وضرب ضربا
مبرحا ، حتى قيل ضرب ست نوب تدلت عليه
حتى كاد أن يموت . ثم وضعه في الحديد ، وأرسله
الى بيت الوالى ليصره في أكعابه بحضرة أصحاب
الديون ، فرق له الوالى وأرسله لسجن الديلم ،
فسجن به والحديد في عنقه ، فاستمر في السجن
بالحديد حتى كاد أن يموت ، وقد عجز عن وفاء
ما عليه من الديون ، حتى فيل تجمد عليه من

الديون نحو سبعين ألف دينار للتجار الأروام
وغيرهم

وقد تزايد غضب ملك الأمراء على الشيخ
عبد المجيد بن الطريني حتى كاد أن يوسطه من شدة
غضبه عليه ، وكان الشيخ عبد المجيد من أعيان
الناس وله بر ومعروف ، حتى قيل كان يصنع في
كل يوم ستة أرادب دقيق يرسم الوارد عليه في
المحلة ، ويعلق في كل يوم اثني عشر أردبا من
الشعير ، والدسوت عمالة بالطعام ليلا ونهارا
للوارد عليه من سائر البلاد ، فتجمدت عليه هذه
الديون العظيمة ، وسبق كما سبق غيره من
الأكابر ، ولكن يلفظ الله به ، والكريم لا يضام
أبدا . فكان الشيخ عبد المجيد أحق بقول القائل
حيث قال :

لنا غنم تعرف وجوه ضيوفنا
تجى من مراعيها تروم الذبائح
لنا خدم ماينبت الشعر روسها
لحمل القرى من آخذات ورايح

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق شخص من
المماليك الجراكسة قيل هو من ممالك أمير أخور
كبير ، وقيل هو خازن داره ، وكان شابا حسنا
فشق شنقه على الأتراك قاطبة ، وشنق في ذلك
اليوم معه أربعة من الجراكسة ، وقد تزايد شره
في هذه الأيام .

وفيه أشيع بين الناس أن الانكشارية الذين
كانوا بالقاهرة وتوجهوا الى اسطنبول ، لما دخلوا
الى ثغر الاسكندرية وقع بينهم هناك فتنة عظيمة ،
وقتل منهم جماعة ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك

تسكد لهذا الخبر ، وعين لهم الكيخية الكبير
أغاثهم ، فسافر الى الاسكندرية في ساعته ، حتى
يصلح بينهم ويكشف عن سبب هذه الفتنة ومن
أثارها من الانكشارية أو من الكمالية الذين سافروا
من القاهرة ، فتوجه الكيخية الى ثغر الاسكندرية
بسبب ذلك .

واستهل شهر دى الحجة بيوم الجمعة ، فطلع
القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء
بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفي يوم السبت المبارك ثانيه حضر قاصد من
مكة ، وصحبته رأسان في علبة مقفولة ، زعموا
أن الأولى رأس شخص يقال له اسكندر ، وكان
أصله من ممالك السلطان الغوري ، أرسله صحبة
التجريدة التي أرسلها الى بلاد الهند بسبب محاربة
الشيخ عامر متملك زييد وعدن وكرمان ، فلما
توجه العساكر الذين أرسلهم السلطان الغوري ،
تحاربوا معه فانكسر منهم ، وقتل في المعركة ،
فملكوا منه البلاد وأمواله ،

ثم ان اسكندر المذكور ملك بلاد الشيخ عامر
وتسلطن بها وعصى على السلطان الغوري ، وجعل
له هناك أمراء وعسكرا ، وخطب باسمه على منابر
بلاد الشيخ عامر ، واستمر على ذلك ولم يدخل
تحت طاعة الخنكار سليم شاه بن عثمان لما ملك
الديار المصرية ، ولم يخطب باسمه ، ولم يضرب
السكة باسمه هناك ، فلم يزل نائب جدة يتحيل
عليه حتى قنله وحز رأسه وأرسلها الى القاهرة ،
فعرضت على ملك الأمراء وهو بالميدان .

ثم ان ملك الأمراء أشهر تلك الرأس في القاهرة
ومعها رأس أخرى قيل انها رأس دواداره
أو خازنذاره أو وزيره ، ثم علقنا على باب النصر .
وكان اسكندر هذا شجاعا ، بطلا ، مقداما في
الحرب قوى القلب ، ملك البلاد واحتوى على
أموالها ، وفرقها على عسكره ، وجعل له أمراء
وحجبا ودوادارية ، ولولا أنهم احتالوا عليه حتى
قتلوه ، لما كانوا يقدرون عليه من شجاعته وحيله .

وفيه وقعت نادرة عريضة ، وشي أنه حضر قاصد
من اسطنبول الى الشام ، ثم حضر الى القاهرة ،
فلما استقر بها أنذر مراسيم من عند السلطان
سليمان ، وأحضر معه ذراعا من الحديد يزيد على
الذراع الهاشمي الذي تتعامل به أهل مصر بخمسة
قرايط ، وأحضر معه سنج نحاس وأرطالا على
طريقة اسطنبول . وأشيع أن السلطان سليمان بن
عثمان رسم بإبطال الذراع والسنج التي تتعامل
بها أهل مصر ، وأن التجار وأرباب البضائع
لا يتعاملون الا بهذا الذراع وهذه السنج ، فامتلأ
ملك الأمراء ذلك ، وأجاب بالسمع والطاعة ، ورسم
للقاضي بركات بن موسى المحتسب بأن ينادى في
القاهرة حسبما رسم الخنكار بإبطال الذراع
الهاشمي من مصر ، واستعمال الذراع الاسطنبولي
فنزل المحتسب مع الوالى ونادى في القاهرة بذلك .

ثم ان القاضي بركات بن موسى المحتسب كتب
قسائم على التجار أنهم لا يبيعون ولا يشترون
الا بهذا الذراع الاسطنبولي ، فشقق ذلك على
التجار وأرباب البضائع . فلما أشهر المحتسب
المناداة بذلك ، وأن كل من خالف مرسوم الخنكار
شقق على ذكائه من غير معاودة ، صارت
رسل المحتسب تطلع الى دكاكين التجار الذين في
الأسواق وتأخذ الاذرع الحديد وترميها في
الطرق ، فاضطربت القاهرة في ذلك اليوم أشد

ذهبا ، فانه قد أشيع عنهم أن جماعة منهم يصنعون
الزغل في الذهب والفضة ، ويطيرونها على الناس
في الصرف ، فسنعوا من ذلك

وفيه قدم قاصد من عند السلطان سليمان ابن
عثمان يقال له قاسم بك ، وعلى يده مرسوم
شريف ، فكان من مضمونه أنه اتصر على الفرنج
نصرة ثانية ، وملك منهم عدة قلاع ، وقد ظفر
بجماعة منهم وقتلهم .

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك نادى في القاهرة
بالزينة ، فزيت ووافق ذلك يوم عيد النحر .
فحصل للناس المتسمة الزائدة بهذه الزينة ،
واشتغلوا بذلك عن الأضحية والعيد ، ووقع في
ذلك اليوم مطر غزير ، فأعدم قماش الناس الذي
في الزينة ، وصار الوالى يطح الناس على الأرض
ويضرب الذي مازين دكانه ، فما حصل لأحد
من الناس خير ، واستمرت الزينة معلقة الى أن
نزل ملك الأمراء وتوجه الى بولاق بسبب ملاقاته
القاصد الذى حضر من البحر ، فطلع من سوق
مرجوش وشق القاهرة وهى مزينة ، والقاصد
منجسته ، ومشى القاضى بركات بن موسى المحتسب
قدامة بعصاه الى أن طلع الى القلعة ، فأوقدوا له
الشموع بالنهار على الدكاكين ، فاستمر في ذلك
الموكب الى أن طلع الى القلعة ، ثم فكت الزينة
في ذلك اليوم ، وانقضى أمرها .

وفي يوم السبت سادس عشره ، جلس ملك
الأمراء بالمتعد الذى بالحوش السلطاني ، وطلب
قضاة القضاة الأربعة ، فلما حضروا حضر القاضى
حمزة قاضى ابن عثمان ، فلما تكامل المجلس تكلم
ملك الأمراء مع القضاة في أمر نوابهم وما يفعلون ،
وفي أمر الوكلاء ، فوقع في ذلك المجلس غاية
ما يكون من اللغط ، وكان القاضى حمزة في
ذلك المجلس أشد ما يكون على القضاة ، وصار

الاضطراب . ثم صاروا يكررون المناداة بذلك في
أمر المعاملة بذلك الذراع الاسطنبولى ، واستمر
ذلك في البيع والشراء الى الآن .

وفيه وقعت كائنة عظيمة للوكلاء الذين بالمدرسة
الصالحية وكان سبب ذلك أن شخصا من الوكلاء
يقال له على الأزهرى ، توكل عن شخص يهودى
في شغل ، فأخذ منه في ذلك الشغل أربعين دينارا
وقيل خمسين دينارا ، فلما بلغ المحضر الذى في
المدرسة الصالحية ذلك ، طلب على الأزهرى
وسأله عن ذلك فأنكر ، وقال ما أخذت منه هذا
القدر أبدا ، وحلف وأقسم ، فحقق منه المحضر
وأمر بضربه بين يديه .

ثم ان المحضر طلع الى ملك الأمراء وأخبره بأمر
الوكلاء وما يصنعون ، فرسم بإحضار سائر الوكلاء
فاختفى منهم جماعة ، وقبضوا على أربعة منهم ، وهم :
على الأزهرى ، وسالم ، ومسعود ، والحكرى .
فطلعوا بهم الى القلعة وعرضوهم على ملك الأمراء
فأوعدهم بكل سوء ، ثم أرسلهم الى بيت الوالى
فأرسلهم الوالى الى سجن الديلم ، فسجنوا به الى
أن تظهر البقية . وكان الذى رافع في الوكلاء
وأشلى فيهم بدر الدين بن الرومى ، وتعصب معه
خير الدين نائب القلعة ، وقال لملك الأمراء هذه
الأفعال التى يفعلها الوكلاء في المدرسة الصالحية
لا تحل ولا تجوز ، فاضطربت أحوال القضاة الى
الغاية .

ثم ان الوكلاء الذين سجنوا بسجن الديلم شفع
فيهم القاضى حمزة ، وقيل الأمير على أحد الأمراء
الخشكارية ، ثم أقام الوكلاء في السجن أياما ، ثم
أخرجوا منه .

وفيه نودى بالقاهرة عن لسان ملك الأمراء بمنع
السيارف الحجازيين قاطية ألا يصرفوا دينارا

يقول لهم : نوابكم يفعلون ما هو كيت وكيت .
فجاء ملك الأمراء على القضاة بكل ما فيه بسبب
نوابهم ، وقد كثر فسادهم .

فتكلم معهم ملك الأمراء في ذلك ، فوقع
الاتفاق في المجلس بأن كل قاض من القضاة الأربعة
يقتصر على سبعة من النواب لا غير ، على عدد أيام
الجمعة ، والقاضي من النواب يجلس في بيت قاضي
القضاة في نوبته ، ويسمع الدعوى هناك بمفرده ،
وأن القاضي اذا عقد عقد نكاح ، يأخذ على من
تزوج البكر ستين نصفاً ، وعلى من تزوج الشيب
ثلاثين نصفاً ، يأخذ العاقد شيئاً ، والشهود شيئاً ،
والباقي يحصل الى بيت الوالى ، ولا يتزوج أحد
من الناس ولا يطلق الا في بيت قاض من القضاة
الأربعة ، وأن الوكلاء تبطل قاطبة من المدرسة
الصالحية ، فانقض المجلس على ذلك ، وقام القضاة
فقيل لهم امشوا على اليسق العثماني ، فاضطربت
أحوال القضاة والشهود قاطبة ، وبطلت أسبابهم
ومشوا على هذا الحكم .

وصار مقدم الوالى والجالية يأتون في كل يوم
من أيام الجمعة ، ويجلسون في بيت كل قاض من
القضاة الأربعة الى ما بعد العصر ، ويأخذون
ما يتحصل من عقود الأنكحة ، ويمضون به الى
بيت الوالى ، كما تقرر الحال على ذلك اليسق
العثماني . فصار الذى يتزوج أو يطلق تقع غرامته
نحو أربعة أشرفية ، فامتنع الزواج والطلاق في تلك
الأيام ، وبطلت سنة النكاح والأمر لله تعالى .

وفيه نزل من القلعة القاضي بركات بن موسى
المحتسب ، وأشهر المناداة في القاهرة وصحبه
الوالى بأن لا قاض ولا شاهد يحكم في المدرسة
الصالحية ، وأن لكل قاض من القضاة سبعة من
النواب لا غير ، يحكم كل نائب يوماً في بيت قاض

من القضاة الأربعة ، ويسمع الدعوى في بيت
مستنيه ، وأن لكل نائب من النواب شاهدان
لا غير ، وأن القاضي يأخذ على نكاح البنت البكر
ستين نصفاً ، ويأخذ على الشيب ثلاثين نصفاً ، وأن
سائر النواب والشهود بطالة من الأحكام الشرعية ،
وهذا حسبما رسم به ملك الأمراء ، والمشى على
اليسق العثماني .

فلما سمع ذلك الناس اضطربت أحوالهم غاية
الاضطراب ، ولا سيما النواب والشهود حصل لهم
الضرر الشامل ، وصارت المدرسة الصالحية ليس
يلوح بها قاض ولا شاهد ، بعد ما كانت قداسة
العلماء .

ومن الحوادث ما وقع في أواخر الشهر وهو يوم
الأحد خلع ملك الأمراء على شحش يسمى
جمال الدين يوسف بن أبى الفرج ، ويعرف بابن
الجاكية — وهو ابن محمد الذى كان نقيب
الجيش من أولاد ابن أبى الفرج — واستقر به في
وظيفة التفتيش عن الرزق ، فلما قرر في هذه
الوظيفة أخذ حذره منه سائر الأعيان ودخلت
رأسهم منه الجراب .

فلما استقر أمر ملك الأمراء بأن ينادى له عن
لسانه حسبما رسم ملك الأمراء لا أحد من الناس
يحتذى على الأمير جمال الدين يوسف بن أبى
الفرج ولا يعارضه ، وأنه مسموع الكلمة وافر
الحرمة .

فلما جرى ذلك طغى الأمير يوسف بن أبى الفرج
وتجبر ، وصار معه الجهم الكثير من الرسل
والبزددارية ، وصار يطلب أعيان الناس من رجال
ونساء بالرسل الغلاظ الشداد ، فاذا حضروا الى
بابه ومعهم مكاتيبهم ومربعاتهم ، يقرؤها ثم ينجش

لهم فيها انجاشا ، ويقول لهم أروني أصول هذا وأصول الأصول ، فاذا عجزوا عن ذلك يرسلهم الى بيت القاضي الحنفى ، ويشهد عليه أن لا حق لهم في هذه المكاتب ولا استحقاق ، ويأخذ منهم ما معهم من المكاتب والمربعات ، ويمضوا خائبين . فيطلع بالمكاتب والمربعات الى ملك الأمراء ، ففعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من أعيان الناس . فأخذ من الجمالى يوسف ثقيب الجيش ابن الشرفى يونس ثقيب الجيش سبع عشرة رزقة بمكاتب شرعية ، وحذف عليه ملك الأمراء ما عنده من المكاتب جميعها ، فطلع له بها ، وفعل بجماعة كبيرة من أعيان الناس والستات مثل ذلك ، والأمر لله تعالى .

وفيه حضرت مركب من الأغربة التى كان عمرها ملك الأمراء وأرسلها صحبة الأروام والمغاربة البحارة ، فلما دخلوا الى البحر المالح وجدوا جماعة من الفرنج يعبتون في سواحل البحر المالح فأوقعوا معهم وقتلوهم فانكسر الفرنج ، وقبصوا عليهم وأسروهم ، واحتنوا على مراكبهم ، فوجدوا فيها بضائع وجوخا وأصنافا فاخرة ، فأخذوا جميع ما كان فيها ، وفبضوا على من كان فيها من الفرنج ووضعوه في الحديد ، وأرسلوهم الى ملك الأمراء ، فلما عرضوا عليه رسم بتوسيطهم فوسطوا منهم تسعة عشر رجلا ، وسجنوا الباقين وأخذ ملك الأمراء جميع أموالهم ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء كانوا تجارا أتوا من بلاد الفرنج فلما رأوهم قاتلوهم فانكسروا وأسروا وأخذت جميع أموالهم . وأشيع أنهم كانوا يعيشون في سواحل البحر المالح .

وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كان أسر من أهل مصر في أيام السلطان سليم شاه بن عثمان

فحضر علم الدين چلبى السلطان العورى ، وحضر عقيب ذلك المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش كان ، وهو ابن المقر الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وحضر كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وحضر الرئيس عبد الرحمن بن الشريف الكحال ، وحضر الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك ، وحضر القاضى شمس الدين محمد الحجازى أحد نواب الشافعية ، وحضر آخرون من الأسرى ما تحضرنى أسماؤهم الآن .

وفى يوم الخميس ثامن عشره ، قدم مبشر الحاج من مكة وأخبر بالأمن والسلامة عن الحجاج ، وأخبر أن الغلاء معهم عمال في سائر الغلال والمأكول قاطبة ، وأخبر بموت الجمال مع الحجاج ، فخلع عليه ملك الأمراء ، ونزل الى منزله .

وقد خرجت هذه السنة على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة ، وقع فيها الرخاء في سائر الغلال قاطبة بعد ما كان تنهى سعر القمح الى أربع أنصاف دهب كل أردب وكان النيل فيها عاليا عم سائر أراضى مصر قاطبة وثبت ثباتا جيدا الى أواخر بابه . ومن محاسن هذه السنة أنها خرجت عن الناس ولم يكن فيها الطاعون في الديار المصرية ولا في شىء من أعمالها قاطبة .

ولكن وقع في أواخر السنة حوادث مهولة . منها عصيان الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام وقتله ، وما وقع بالشام من الاضطراب ، فكان من ملخص واقعة الأمير جان بردى أنه لما استقر به السلطان سليم شاه نائبا بالشام ، أقام بها مدة وهو تحت طاعة السلطان سليم شاه في الظاهر ، ولما ولى

بعده ابنه سليمان على مملكة الروم ، أظهر جان بردي الغزالي العصيان جملة واحدة ، ولم يدخل تحت طاعة السلطان سليمان بن عثمان ، فقام معه أهل الشام من الأمراء والعسكر والعربان والعشير ، وقالوا له قم وتسلطن فما بقي قدماك أحد تخشى منه ، ونحن نقاتل معك حتى نقتل ، فاستمال لقولهم ، وطاش وخف ، وكم عجلة أعقبت ندامة ، فتسلطن بالشام وتلقب بالملك الأشرف أبي الفتوحات ، وقبلوا له الأرض ، وخطب باسمه في جامع بني أمية ، وعلى بقية منابر دمشق . فلما تسلطن قالوا له : امض الى مصر وحارب خير بك ، واملك منه مصر ، فقال لهم : مصر في قبضة يدي ، ولكن أتوجه الى حلب وأخلصها من أيدي العثمانية ، فما يبقى خلفي التفاتة ، ثم أتوجه الى مصر . ولو أتى الى مصر لكان خيرا له ، وكان العسكر من الجراكسة وأهل مصر والعربان قاطبة يقبلوا على ملك الأمراء خاير بك ، ويمضوا اليه ، فانه كان محببا للرعية .

فلما توجه الغزالي الى حلب ليملكها ، حاصر أهلها ، وأحرق غالب الضياع التي حوالها ، وحصل منه الضرر الشامل لأهل حلب ، فلما حاصر مدينة حلب لم يقدر عليها وعجز عن ذلك . وكان الأمير جان بردي الغزالي أول ما توفي السلطان سليم شاه وتولى بعده ابنه سليمان ، أرسل يقول لملك الأمراء خاير بك تسلطن أنت بمصر ، وأستمر أنا بالشام وأحكم من الفرات الى غزة ، ونطرد هذه العثمانية عن مملكة مصر . فلما وقف خاير بك على مطالعة الغزالي أفشى سره . وكان الغزالي أرسل يقول لخاير بك ان لم تتسلطن فعندي من يتسلطن ، فأراد خاير بك أن يتنصح للسلطان سليمان ، فأرسل له مطالعة الغزالي التي أرسلها له في السر . فلما

وقف السلطان على مطالعة الغزالي ، أرسل يقول لخاير بك : لا تخرج أنت من مصر للغزالي ، فنحن نكفيك شره .

ثم ان السلطان سليمان أرسل تجريدة الى الغزالي نائب الشام ، فجهز له من العساكر العثمانية نحو أربعة عشر ألف مقاتل ، فخرجوا من اسطنبول على حمية ، وتوجهوا من اسطنبول الى حلب ، فأوقعوا مع الغزالي على حلب ، فانكسر منهم ، فتوجه الى دمشق ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة على القابون خارج مدينة دمشق ، فقتل من عسكر الغزالي هناك ما لا يحصى من عربان الكرك وأكراد وتركان ومماليك جراكسة ، ومن أهل دمشق ، حتى قيل : قتل في المعركة من أهل دمشق شيوخ وشبان وأطفال ، ومن سوقة دمشق ما لا يحصى .

وكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلنك لما دخل الى دمشق ، وقد خرب في هذه الواقعة ثلث دمشق من ضياع وحارات وأسواق وبيوت ، وثمت الكسرة على الغزالي واختفى ، وقيل : بل قتل على المعركة وحزت رأسه وأرسلت الى اسطنبول ، ومضى أمره . والى الآن تشك جماعة من الناس في قتله ، ويقولون ما قتل وهو باق في قيد الحياة ، وأنه هرب عند الصفوى بعد وقوع المعركة ، والأصح أنه قتل في الواقعة التي كانت على القابون ووقع الشك للناس في ذلك ، كما وقع لهم في قتل قانصوه خمسمائة من الشك .

ومما وقع في هذه السنة من الحوادث ، حرق النصاري على باب المدرسة الصالحية ، ومنع الشهود من الجلوس في الحوائيت . ومن الحوادث ما وقع للشيخ عبد المجيد الطرني وقصته مشهورة .

ومن الحوادث منع الوكلاء من باب المدرسة
العسكرية وعزل نواب القضاة الأربعة واقتصارهم
على سبعة نواب لكل قاض من غير زيادة على ذلك .

ومنها واقعة العقود وما تقرر على تزويج البكر
ستين نصفاً والثيب ثلاثين نصفاً ، وقد تقدم ذلك
فكان ذلك من أشد الكرب على المسلمين .

ومنها جلوس مقدم الوالى والجالية على أبواب
القضاة من باكر النهار الى آخره ، ليأخذوا
ما يتحصل من عقود الأنكحة ، ويمضوا به الى
بيت الوالى ، ويسمون ذلك اليسق العشائى .
ولا يتزوج أحد من الناس ولا يطلق الا فى بيت
قاض من القضاة ، فضيقوا على المسلمين غاية
الضيق .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء خلع
على شخص يقال له جمال الدين يوسف ابن أبى
الفرج ، ويعرف بابن الجاكية ، وقرره فى وظيفة
وسماه مفتش الرزق الجيشية ، فلما استقر فى هذه
الوظيفة أطلق فى الناس النار ، ورافع الشهابى
أحمد بن الجيعان بأنه أخذ من ديوان الجيش
أقاطيع سلطانية ورزقا جيشية ، وصنع لها مكاتيب
شرعية بمشترى من بيت المال ، وباعها على الناس .

ورافع أيضا الزينى أبا بكر بن أبى بكر بن
الملكى بمثل ذلك ، حتى تكلم فى حق الشهابى
أحمد بن الجيعان بأنه ابتاع من ديوان الجيش
رزقا وأقطعا ، وصنع لها مكاتيب شرعية ، وباعها
على الناس بنحو عشرين ألف دينار . وأظن هذا
الكلام ليس له صحة ، وهذا باطل لا محالة ،
فتغير خاطر ملك الأمراء على المقر الشهابى أحمد
ابن الجيعان ، وصار اذا طلع الى القلعة لا يخاطبه
أصلا ، ورسم للزينى أبى الوفاء الحلبى موقع ملك
الأمراء من حين كان بحلب أن يقرأ عليه القصص ،
بدلا عن الشهابى أحمد بن الجيعان ، فعظم أمر

الزينى أبى الوفا فى هذه الأيام جدا ، حتى صار فى
مقام من تقدم من كتاب السر ، وصار من أعيان
الرؤساء بالديار المصرية .

ثم ان الجمالى يوسف بن أبى الفرج أخذ من
الناصرى محمد بن خاص بك رزقتين بمكاتيب
شرعية ، فطعن فى هذه الرزق وقال له أصل هذه
الرزق أقاطيع سلطانية ، فأخذ منه المكاتيب وأشهد
عليه بأن لا حق له فيها ، وطلع بها الى ملك
الأمراء ، وصار يفعل من هذا النمط بجماعة كثيرة
من رجال ونساء ، ويأخذ مكاتيبهم من أيديهم
ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ويطلع بالمكاتيب
الى ملك الأمراء ، فأطلق فى الناس جمرة نار ،
وضج منه الناس قاطبة ، حتى قيل أخذ من أيدي
الناس فوق الثمانين رزقة بمكاتيب شرعية ، وطلع
بها الى ملك الأمراء ، وحصل للناس منه الضرر
الشامل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم

وما اكتفى ملك الأمراء يوسف بن أبى الفرج
حيث جعله مفتش الرزق الجيشية ، فجعل الأمير
على العثماني مفتش الأوقاف أيضا من بلاد وبيوت
وغير ذلك ، فاجتمع على باب الرسل الغلاظ
الشداد ، والبزددارية ، وصاروا يطلبون الناس
أصحاب الأوقاف ، فاذا حضروا معهم مكاتيبهم
ينجشون عليهم ويقولون لهم ايش على هذا الوقف
مصاريف ، وايش متحصله فى كل شهر ، فيدعون
أصحاب الأوقاف فى الترسيم ، ويقررون عليهم
مبلغا ثقيلا للأمير على هو ودواذره والبزددارية
والرسل ومن عنده من المباشرين ، ويكتبون له
على مكاتيبه عرض ، ثم يطلقونه بعد أن يلتهب من
الغرامة فوق ما لا يطيق ، فصار الأمير على يتكلم

على فرع من أبواب المظالم المهولة ، فأطلق في الناس النار الموقدة .

وأقول ان أولاد ابن أبي الفرج طول عمرهم بيت ظلم وعسف ، وطبعهم الأذى هم وأجدادهم من أيام الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق ، وقد تقدم القول على ذلك .

ومن الحوادث في أواخر هذه السنة أن ملك الأمراء جهز مراكب أغربة وفيها جماعة من المقاتلين ، فتوجهوا الى البحر المالح ، وقد بلغه أن جماعة من الفرنج يعشون في السواحل على المسافرين ، فلما توجهوا الى البحر المالح ، وجدوا مراكب فيها تجار من الفرنج ، ومعهم بضائع بنحو خمسين ألف دينار ، فتقاتلوا معهم فكسروا الفرنج ، وقبضوا عليهم واحتاطوا على مامعهم من البضائع ، فلما حضروا الى مصر ، وعرضوا على ملك الأمراء ، رسم بتوسيط نحو تسعة عشر نفرا من الفرنج ، فراحوا ظلما ، وأخذت أموالهم ، وربما يثور من هذه الحركة فتنة كبيرة بين الفرنج وبين أهل مصر بسبب ذلك ، ويمنعون التجار من المرور في البحر ، ويقتلونهم كما فعلوا بالفرنج المقدم ذكرهم .

وفي هذه السنة قتل ملك الأمراء من الناس مالا يحصى بتوسيط وشنق وخوزقة وأكثرهم راح ظلما ، والأمر لله تعالى .

سنة ثمان وعشرين وتسعمائة (١٥٢٢ م) :

فيها في المحرم ، وكان مستهله يوم الأحد المبارك ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالعام الجديد ثم عادوا الى منازلهم .

وفي هذا الشهر تزايد ظلم الجمالي يوسف بن أبي الفرج وقتك في الناس فتكا ذريعا ، وكثر على بابه الرسل والبزددارية ، وصار يطلب أعيان الناس من كبير وصغير ، فيحضرون ومعهم مكاتيبهم ، ويأخذها من أيدي أصحابها غصبا ، ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ولا استحقاق ، ويطلع بها الى ملك الأمراء ، واستمر على ذلك يتزايد ظلمه الشنيع كل يوم حتى ضج منه الناس والأمر لله تعالى .

وفيه توفي الشهابي أحمد بن التماري ، وكان من مشاهير أولاد الناس ، وكان أمير جكار ، وقد ترحل حاله في أواخر عمره ومات فقيرا .

وفي يوم الخميس خامسه حضر جماعة من اسطنبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأرسلهم الى اسطنبول ، فحضر بهاء الدين بن البارزي ، وجلال الدين ابن الخواجا بدر الدين حسين الشبراوي ، وحضر الخواجا يحيى بن عبد الدائم اللبدي المغربي من تجار جامع طولون ، وحضر آخرون ممن كان باسطنبول .

وفي يوم السبت سابعه ، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلي التي بالريدانية ، وجلس هناك على المصطبة القديمة ، وكان القاصد الذي حضر بالأمس صحبته ، فمد له هناك مدة حافلة ، وأحضر صقورا وكلابا سلوقية ، ورمى قدام القاصد رماية هناك ، وانشرح في ذلك اليوم الى الغاية .

فبينما هو على ذلك ، وإذا بجماعة من الأعيان حضروا بين يديه ، منهم الشيخ شمس الدين محمد اللقاني المالكي ، والشيخ شمس الدين محمد

المعروف بالديروملى الشافعى ، والشيخ شمس الدين أحمد بن الجلبى وآخرون من العلماء ، فلما اجتمعوا قالوا : « يا ملك الأمراء قد أبطلتم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصرتهم تأخذون على زواج البنت البكر ستين نصفا ، وعلى زواج المرأة ثلاثين نصفا ، ويتبع ذلك أجرة الشهود ، ومقدمى الوالى ، وغير ذلك ، وهذا يخالف الشرع الشريف ، وقد عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خاتم فضة ، وعلى ستة أنصاف فضة ، وعقد على آية من كتاب الله ، وقد ضعف الاسلام فى هذه الأيام ، وتجاهر الناس بالمعاصى والمنكرات ، وتزايد الأمر فى ذلك » . ثم ذكروا له آيات من كتاب الله تعالى ، وأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلتفت ملك الأمراء الى شىء من ذلك ، وقال للشيخ شمس الدين محمد اللقانى المالكى : « اسمع يا سيدى الشيخ ، ايش كنت أنا ؟ الخنكار رسم بيده ، وقال امشوا فى مصر على اليسق » . فقال له شخص من طلبة العلم يقال له عيسى المغربى : هذا يسق الكفر ، فحنق منه ملك الأمراء ، فرسم بتسليمه الى الرالى ليعاقبه ، فتوجهوا به الى بيت الوالى ، ثم شفع فيه بعض الأمراء .

فلما كان عقيب ذلك توجه الى ملك الأمراء جماعة من التجارين والقلاطنة ، وعلى رؤوسهم مصاحف ، وهم يستغيثون (الله ينصر السلطان سليمان) . فظن ملك الأمراء أنهم من الجامع الأزهر ، ثم تبين أنهم بجارون وقلاطنة ، أتوا يشتكون من الشاد على المراكب التى عمرها ملك الأمراء فى الروضة ، بأنه قد ظلمهم وجار عليهم . فلما كثر منهم الضجيج ، رسم ملك الأمراء لمن حوله من الانكشارية بضربهم ، فشتتوا أجمعين . ثم طال المجلس بين ملك الأمراء وبين مشايخ العلم الذين حضروا ، فكان من جوابه للشيخ

شمس الدين اللقانى المالكى : « ياسيدى الشيخ أنا أخاف على رقبتي أكثر من رقابكم ، امضوا باسم الله » . فقاموا من عنده وهم فى غاية القهر ، يتعشرون فى أذيالهم ، ولم يلتفت الى أقوالهم ، فقال له بعض الفقهاء الذين حضروا : « نحن نسافر الى السلطان سليمان نصره الله تعالى ، ونخبره بما يفعل فى مصر » . فتأكد ملك الأمراء فى ذلك اليوم بعد ما كان منشرحا ، ثم قام من هناك وطلع الى القلعة ، وخرج القاصد من هناك وتوجه من يومه وسافر الى اسطنبول .

فلما رجع الفقهاء من عند ملك الأمراء ، قامت الأشلة والنائرة على ملك الأمراء ، وكثر الدعاء عليه بسبب عقود الأنكحة ، وقصدوا يغلقون أبواب الجوامع والمساجد ، فلما جرى ذلك أرسل ملك الأمراء الزينى أبا الوفا الموقع ، يأخذ بخاطر الشيخ شمس الدين محمد اللقانى ، وقال له : لا تؤاخذ ملك الأمراء ، فانه لم يكن يعرفك . وأرسل على يد الزينى أبى الوفاء الموقع مائتى دينار وأربع بقرات ، ففرقت على مجاورى الجامع الأزهر ، وأرسل مثل ذلك الى مقام الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، وأرسل مثل ذلك الى الزوايا التى بالقرافة ، والى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وغير ذلك من الزوايا والمزارات والمساجد ، وقصد أن يستجلب خواطر العلماء والفقهاء مما فعله من الأفعال الشنيعة ، ليمحو ذلك بذلك ، وهذا من المحاللات ، كما يقال فى المعنى :

جفاء جرى جهرا لدى الناس وانبسط
وعذر أتى سرا فأكد ما فرط
ومن ظن أن يمحو جلى جفائه
خفى اعتذار فهو فى غاية الفرط

وفي يوم الاثنين سادس عشره ، أنفق ملك
الأمراء على المماليك الجراكسة ، وكان لهم حسنة
أشهر جامكة منكسرة ، وفد ضاع عليهم عليق
أربعة أشهر ، فأنفق ملك الأمراء عليهم في ذلك
اليوم شهرين ، وآخر لهم ثلاثة أشهر ، فأضر ذلك
بحالهم

وفيه اجتمع العسكر ليبصو الجامكية في
الميدان ، فنزل لهم المقر الشهابي احمد بن الجيعان ،
والقاضي بركات بن موسى المحنوب ، وابن أبي
أصبح ، فقالوا للمماليك الجراكسة : ملك الأمراء
يقول لكم انه مسافر بعد الربيع ، فالذى له قدرة
يعمل برقه ، والذي ما له قدرة على السفر لا يأخذ
جامكية ويقعد يستريح . فلما سمع العسكر ذلك
اضطربت أحوالهم .

ثم ان ملك الأمراء جلس في شباك الدهيشة
وأرسل خلف المماليك الجراكسة ، فلما طلعا
ووقفوا بين يديه ، استدعاهم واحدا بعد واحد ،
وصار يختار من كل عشرة مماليك مملوكا واحدا ،
الذى يجده شابا وله قدرة على السفر ، فيبقيه على
جامكيته ، والذي يجده من الشيوخ العواجز
يقف جامكيته ، فأبطل في ذلك اليوم ألف مملوك
من المماليك الجراكسة والناس وغير ذلك ، وفيهم
من هو من الأغوات من مماليك الأشرف قايتباي ،
فتزايدت قسوته في ذلك اليوم عليهم .

ومما وقع في ذلك اليوم من النوادر الغريبة ،
أن ملك الأمراء لما عرض المماليك صار كل من رآه
من المماليك ولحيته طويلة يقص منها نصفها ،
ويعطيها له في يده ، ويقول له امش على القانون
العثماني في قص اللحى ، وتضييق الأكمام ، وكل
ما تفعله العثمانية ، فنزل المماليك الجراكسة من
القلعة في ذلك اليوم وهم في غاية النكد مما جرى
عليهم .

وكان سبب قتل جوامك جماعة من المماليك
الجراكسة ، ان الديوان كان يومئذ في عا
الانشجات ، وقد كثر العسكر وسار المال يضم على
سبع طوائف من العسكر ما بين أمراء عثمانية ،
وطائفة من الاصباهية ، وطائفة من الانكشارية .
وطائفة من الكلية ، وطائفة من الأمراء الجراكسة ،
وطائفة من المماليك الجراكسة ، ومماليك ملك
الأمراء طائفة سابعة ، فكان يصرف في كل شهر
لطائفة الاصباهية أحد عشر ألف دينار ، ويصرف
لطائفة الانكشارية في كل شهر ثلاثة عشر ألف
دينار ، ويصرف لطائفة الكلية في كل شهر أحد
عشر ألف دينار ، ويصرف لطائفة المماليك الجراكسة
وأولاد الناس أحد عشر ألف دينار . ويصرف
لمماليكه وخدامه وحاشيته وغير ذلك من الرواقب
في كل شهر ثلاثة عشر ألف دينار ، وذلك خارج
عن جامكية الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية
والمرتدين من القصاد العثمانية ، فموجب ذلك
وقع الانشجات في تأخير الجوامك وكسرها الأشهر .

وكان السلطان الغوري لا يستعين على سد
الجوامك في كل شهر الا بكثرة المصادرات للتجار
وغيرهم من مساتير الناس وأعيانهم وكان يسد
من مظالم العباد ، ويصير انهم ذلك عليه .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء قد تغير خاطره على
خوند مصرباي الجركسية ، وانزلها من القلعة ،
ورسم لها بأن تسكن بمدرسته التي بناها بباب
الوزير ، ورتب لها في كل شهر ما يكفيها من النفقة .
وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الأمراء قدوم زوجته
أم أولاده من اسطنبول ، وقد آتت صحبة الأمير
جانم الحمزاوي من اسطنبول ، فاختار بأن تكون
صاحبة القاعة عوضا عن خوند مصرباي ، فشق
ذلك عليها .

وفي يوم الخميس تاسع عشره ، أكمل ملك
الأمراء تفرقة الجامية على العسكر ، وأوقف
جوامك كثير من الممالك الجراكسة ، ومن أولاد
الناس ، ومن العواجز والشيوخ ، وقال للذين
صرف لهم الجوامك : كونوا على يقظة واعملوا
برفقكم ، فربما الخنكار يرسل يطلبكم على حين
غفلة ، فقالوا كلهم : السمع والطاعة ، ونزلوا على
ذلك .

وفيه أشيع أن الأمير فرحات العثماني نائب
طرابلس ، استقر في نيابة الشام عوضا عن اياس ،
الذي كان بها ، وتوجه اياس الى اسطنبول ، فصار
الأمير فرحات بيده نيابة طرابلس والشام .

وفي يوم الأربعاء خامس عشره دخل الحاج الى
القاهرة ، ودخل الأمير جانم أمير ركب الحمل
وصحبته المحمل الشريف .

ثم أشيع أن الحاج قد قاسى في هذه السنة
مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال . ولما طلع
الى العقبة اشتد عليه البرد هناك والرياح العاصفة ،
فمات من الحجاج ما لا ينحصر ، حتى قيل مات
منهم من العقبة حتى دخلوا القاهرة نحو ثمانين
انسانا ، ودخل الباقون مرضى من شدة البرد
العاصف المضر بالأجساد .

ولما دخل الحاج أشيع موت الأمير باباي ، الذي
كان ولي مشيخة الحرم النبوي ، وأشيع موت
شخص من الأمراء العثمانية ، كان أغات
الانكشارية ، توفي لما دخل المدينة الشريفة على
صاحبها أفضل الصلاة والسلام ودفن بالبقيع ،
وكان من خيار العثمانية .

وتوفي الأمير مقرر أمير عربان بنى جبر ، متملك
جزيرة بين النهرين الى بلاد هرمز الأعلى ، وكان أميرا
عظيما جليل القدر مبعلا في سعة من المال ، وكان

مالكي المذهب سيد عربان الشرق على الاطلاق ،
وكان أتى الى مكة وحج في العام الماضي ، وكان
يجلب الى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة ، والمسك
والزعفران ، والعنبر الخام والعود والقمارى ،
والحرير الملون ، وغير ذلك من الأشياء المتحفة .
قيل انه لما دخل الى مكة والمدينة تصدق على
أهلها بخمسين ألف دينار ، فلما حج ورجع الى
بلاده لاقتنه الفرنج في الطريق وتحاربت معه ،
فانكسر الأمير مقرر منهم ، وقبضوا عليه باليد
وأسروه ، فسألهم أن يشتري نفسه منهم بألف
ألف دينار فأبى الفرنج من ذلك ، وقتلوه بين
أيديهم ، ولم يغن عنه ماله شيئا ، وملكوا منه
جزيرة بين النهرين ، وملكوا قلعتها التي هناك ،
واستولوا على أموال الأمير مقرر وبلاده ، وكان
ذلك أشد الحوادث في الاسلام وأعظمها . وقد
تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندي ،
والأمر لله تعالى .

ولما رجع الحجاج أثنوا على الأمير جانم أمير
الحاج بكل جميل ، في حفظه للحجاج ، ومنع
الضرر عنهم ، وغير ذلك من أنواع البر والمعروف .

وفي شهر صفر ، وكان مستهله يوم الاثنين ، طلع
القضاة الأربعة الى القلعة وهنثوا ملك الأمراء
بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفي يوم الأربعاء ثلثه ، خرج الأمير قايتباي
الدوا دار وجماعة من الأمراء الجراكسة الى ملاقة
الأمير جانم الحمزاوى الذى كان توجه الى
اسطنبول ، وصحبته مقدمة حافلة الى السلطان
سليمان بن عثمان ، أرسلها ملك الأمراء خاير بك
اليه على يد الأمير جانم كما تقدم ، فأكرمه وأحسن

اليه ، وقبل منه تلك التقدمة ، فأقام باسطنبول مدة ثم رسم له بالعود الى مصر

فلما بلغ الأمراء قدومه الى مصر ، خرجوا اليه قاطبة ، وخرجت اليه أعيان المباشرين قاطبة ، وجميع مشايخ العربان والكشاف المدركين قاطبة .

فلما كان يوم الجمعة ثانی عشر صفر ، وصل الأمير جانم الحمزاوى الى خاتناه سرياقوس ، فمد له القاضى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، هذا بعد أن لاقاه من الصالحية .

وأشيع أنه حضر صحبه الأمير جانم الحمزاوى حريم ملك الأمراء الذى كان باسطنبول من حين ملك السلطان سليم شاه الديار المصرية ، فلما تولى السلطنة ولده سليمان ، رسم بعود حريم ملك الأمراء وأولاده اليه .

وفيه طلعت زوجة ملك الأمراء الى القلعة تحت الليل على المشاعل والفوانيس وهى فى محفة ، فلما طلع النهار طلع لها جميع المغاني يهتئونها بالسلامة .

ثم ان الأمير جانم الحمزاوى رحل من الخاتناه ، وتوجه الى تربة العادلى وبات بها

فلما كان يوم السبت ثالث عشره ، صلى ملك الأمراء صلاة الفجر ، ونزل من القلعة وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية ، فجلس على المصطبة التى هناك ، وسلم على الأمير جانم الحمزاوى ، ثم أحضر الخلعة التى أرسلها له السلطان سليمان ابن عثمان باستمراره على نيابة مصر ، فقام ولبسها ، وقبل الأرض نحو القبلة ، وكانت الخلعة بتماسيح مذهب على أحمر . ثم قصد الدخول من باب النصر ، وشق من القاهرة ، فاصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وأوقدت له الشموع

على الدكاكين ، وعلقت له القناديل والثريات ، ولم تزين له القاهرة فى ذلك اليوم . وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الأمراء أن السلطان سليمان قد مات له ولد ذكر مراهق ، فمنع الزينة بسبب ذلك .

فلما وصل الى قبة الأمير بشبك الدوادار ، لاقته الأمراء الجراكسة والعسكر من الممالك الجراكسة قاطبة ، ولاقته القضاة الأربعة ، وهم : كمال الدين الطويل الشافعى ، ونور الدين على الطرابلسى الحنفى ، ومجيبى الدين الدميرى المالكى ، وشهاب الدين أحمد الفتوحى الحنبلى . ولاقته الأمراء العثمانية . وهم : الأمير عنى ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير نصوح ، وغير ذلك من الأمراء العثمانية . وخرج اليه طائفة الاصباهية وأمرأؤها ، والكواخى من أغوات الانكشارية ، ومشى قدامه الانكشارية قاطبة والكملية قاطبة وهم يرمون بالنفوط ، ولاقاه أعيان الشرقية وهم : الأمير أحمد بن بقر أمير طائفة جذام وأمير الرايتين ، ومشايخ عربان الغربية وهم : حسام الدين بن بغداد ، وشيخ العرب واصل بن الأحذب أمير هواره ، وشيخ العرب اسماعيل بن أخى الجويلى ، وشيخ العرب جريش ، وآخرون من عربان الشرقية والغربية . ومشى قدامه النصارى بالشموع الموقدة .

ودخل الأمير جانم الحمزاوى وعليه خلعة السلطان سليمان بن عثمان ، وهى مخمل مذهب . فلما دخل من باب النصر نزل القاضى بركات بن موسى عن فرسه ، ومشى بالعصا قدام ملك الأمراء من باب النصر الى أن طلع الى القلعة . وكذلك الجمالى يوسف نقيب الجيش ، ولاقته الشعراء بالدف والشبابة السلطانية ، فلما وصل الى مدرسة الناصر ثر عليه الحلوانى الذى هناك

واستمر ملك الأمراء في ذلك الموكب الحافل حتى دخل إلى الميدان الذي تحت القلعة ، وقد طلع من جهة التبانة إلى مدرسة السلطان حسن . وقد شاهدت هذا الموكب بالعائنة ، وكان من الموكب المشهودة البجلة .

ذلما انتقري ملك الأمراء بالقلعة مخرج علي الأمير علي الشمازي ، والأمير قسوح ، والأمير خير الدين نائب القادة ، والأمير شيخ . ومخرج علي القاسمي زين الدين بركات بن موسى المحتسب ققطانا مخملا لكونه مشي بالعصا قدامه من باب النصر إلى القلعة ، وإنكونه مدد للأمير جانم الحمزاوي عند ملاقاته مدة حافلة في بليس ، ثم في الخانقاه ، وغير ذلك من الأماكن . وفي هذه الواقعة يقول الأديب اليازغ الفاضل ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال :

أهلا بمن عنه التواضع راوي
شرفا ومنه الجود وجدا راوي
شرفا فخرا به الرؤوس لتكوه
شرفا عار الفرقدين يساوي
يامرجبا من قادم أعنى به
مولي المقر هو جانم الحمزاوي
من جاء مصر بخلعة غرا حوت
والعز من ذي الملك فخرا حاوي
شرف من اسطنبول معه بها آتى
منه لخير بك وخيرا ناوي
لله ذاك اليوم وهو بها يرى
وسلامه داء القلوب يداوي
في موكب الملك العظيم وحوله
أسد سطاها الراسيات يقاوي
والناس في فرج وفي فرح به
والجو مثل النحل منهم داوي

شيئا من الفضة ، فقال له ملك الأمراء : كثر الله خيرك ، فلما وصل إلى باب سوق الوراقين أبلغوا له محاسن البخور بالعود القماري وركزوا له الطبول والزمر والمناقي من النساء والرجال في عدة أماكن من القاهرة ، وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت ، وأهفدت له النسوة على الشكاكين ، ولا سيما تجار الوراقين فانهم أوقفوا له موكبات شمع كبار مذهب ، ودار ملك الأمراء يسلم على الناس كلما مر عليهم يسينا وشالا ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة .

وكان الأمير جانم الحمزاوي قدامه وعليه خلعة السلطان سليمان ، وعن يمينه الأمير قايتباي الدوادار ، وعن يساره الأمير أوزمك الناشف ، وأعيان المياشرين قدامه .

ودخل صحبة الأمير جانم الحمزاوي جماعة من أعيان مصر ممن كان أسر مع السلطان سليم شاه ، فلما مات وتولى ولده سليمان السلطنة رسم لهم بالعود إلى مصر ، فعند ذلك من جملة محاسنه وعدله وفعله الحسن .

فحضر صحبة الأمير جانم الحمزاوي ... الشرفي يونس بن الأتابكي سودون العجبي ، والشسي محمد بن القاضي صلاح الدين بن الجيعان ، والزيني عبد القادر بن القاضي بركات بن قريبط أحد كتاب الماليك ، والقاضي كريم الدين عبد الكريم بن إسرائيل ، والقاضي كريم الدين المجولي وسعد الدين بن جلال الدين أحد كتاب الماليك وأولاد المستوفي سعد الدين وأخوه بركات ، وكمال الدين العائق مباشر أمير خور كبير ، وشهاب الدين أحمد بن أخي الاستادار يونس النابلسي ، والحاج بدر العادلي المهتار ، وآخرون ممن كان باسطنبول وأسر من أهل مصر .

وصياحهم بالنصر من عظم الدعا
وعدوه كالكلب خزيا عاوى

ولبعضهم بعضا أصابعهم غدت
تبدى الإشارة والرءوس تلاوى

جانم مفدى نائب فى مصرنا
والعز فى ذى الخلعتين مساوى

لازال فى مثليهما مرقاهما
فيه على زحل بغير تهاوى

يبقاء ذى الملك الذى أضحى له
شرف على كسرى وقيصر حاوى

أعنى سليمان المقيم بعدله
أما إليه من تروع ياوى

والمدح ممن قانصوه له أب
يبدى على كبد العدو مكاوى

ولسانه عن حال مصر قائل
ومقاله داء الغلاء مداوى

ان فاخرت بالنيل مصر غيرها
فنواله لبلاد مصر تقاوى

ثم أشيع ان السلطان سليمان - نصره الله تعالى - أرسل سبعة قفاطين حرير الى مشايخ العربان الذين بالصعيد ، والذين بالغربية ، والذين بالشرقية ، والذين بالبحيرة ، وأرسل لكل واحد منهم مرسوما شريفا على انفراد مع القفطان وأرسل على يد الأمير جانم الحمزاوى ، قفطانا مخملا مذهبا للسيد الشريف بركات أمير مكة المشرفة وأرسل قفطانا مخملا للأمير على بن عمر شيخ عربان الصعيد . وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب واصل بن الأحذب أمير هواره . وأرسل قفطانا مخملا الى الأمير أحمد بن بقر أمير جذام وأمير الرايتين . وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب حسام الدين بن بغداد شيخ عربان الغربية

وأرسل قفطانا - خيالا لشيخ العرب اسماعيل بن أننى الجويلى شيخ هريانة البحرية ، ورساوا ذلك مع المراسيم ، ومن كان منهم حصرا فى القاهرة ليس قفطانا بحضرة ملك الأمراء

وفى يوم الأحد رابع شهر ، حضر بين يدي ملك الأمراء : الأمير داي العشمانى ، وحسين الدين نائب النعمة ، والأمير نصوص ، والأمير شيخ ، والقاضى حنزة ، وغير هؤلاء من الكواخى . ثم أحضر الأمير جانم الحمزاوى مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان - نصره الله تعالى - نظام إليه الأمراء العشمانية قاطبة ، وملك الأمراء ، ولهم بحضور ذلك المجلس أحد من الأمراء الجراكسة . ثم قرئ عليهم ذلك المرسوم ، فكانت انفاظه باللغة التركية ، فأحضروا من حلها بالعربية .

فكان من مضمونه أن السلطان سليمان نعت ملك الأمراء نعتا عظيما ، وفوض له التكلم على مصر وأعمالها ، يعزل بها من يختار ، ويولى من يختار ، من الثغور والبلاد الشرقية والغربية وبلاد الصعيد .

ومن مضمونه أنه اذا قدم عليه قاصد من بلاد الروم ، لا ينعم عليه بأكثر من ألف دينار . فانه بلغ السلطان سليمان أنه ينعم على قصاده الواردة عليه من بلاد الروم بسال جزيل ، فمنعه من ذلك .

ومن مضمونه أن ملك الأمراء ينظر فى أحوال الرعية ، ويصرف للجند جوامكهم فى كل شهر على العادة ، وأن ينظر فى أمر المعاملة فى الذهب والفضة .

ومن مضمونه أنه أرسل يطلب جماعة من الأصباكية يمضون الى اسطنبول ، ويحجى الى مصر غيرهم .

وأرسل يقول للملك الأمراء أن ينظر في أمر تسعير
البضائع بالتسريح وغيره ، وأظهر غاية العدل في
مرسوم ملك الأمراء ، وأكد فيه النظر في أحوال
الرعية قاطبة . وفيه يقول الناصري محمد بن
قانسوه بن صادق :

كعب سليمان كعب خير

أعنى ابن عثمان دام ملكه

من كعبه مصر في رخاء

ومن سطاء الملوك ملكه

وفيه أشيع أن السلطان رسم للأمير جانم
الحمزاوي أنه اذا دخل الى حلب يطلع القلعة
ويأخذ المال الذي كان السلطان الفوري أودعه بها
لما خرج الى ملاقاته السلطان سليم شاه بن عثمان ،
وكان نحو ستمائة ألف دينار وكسور ، فرسم
السلطان سليمان بحمل ذلك الى ملك الأمراء خاير
بك ، وأنه يسبك الفضة ويضربها باسم السلطان
سليمان بمصر ، وتمشى في المعاملة للناس ، والله
أعلم بحقيقة ذلك هل له صحة أو لا .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره ، نزل ملك الأمراء
من القلعة ، وعدى الى بر الجيزة ، ونزل بشبرمنت
على سبيل التنزه ، وكان صحبته الأمير قانسوه ،
وآخرون من الأمراء الجراكسة ، والأمراء العثمانية
والقاضي شرف الدين الصغير ، والشهابي أحمد بن
الجيغان ، والقاضي بركات بن موسى المحتسب ،
وآخرون من المباشرين . وأقام بشبرمنت الى يوم
الأربعاء رابع عشرى صفر وأرسل يطلب عليقا
ودقيقا ، وغير ذلك من دجاج وأوز . وأشيع أنه
توجه من هناك الى نحو النجيلة يتصيد فتوجه
اليه الأمير جانم الحمزاوي ، وتقيب الجيش
الجمالى يوسف ، والقاضي شرف الدين بن عوض
ويوسف بن أبى الفرج المفتش ، وابن أبى اصبع

وغير هؤلاء من الأعيان وأرباب الوظائف .
وفيه توفى القاضي بدر الدين محمد بن حجاج
الموقع ، وكان من الأعيان وخدم عدة أمراء
مقدمى ألوف .

واستهل شهر ربيع الأول يوم الأربعاء ، وكان
ملك الأمراء عائبا ، فلم تطلع القضاة الى القلعة
ولم يهتئوا بالشهر .

فلما كان يوم الثلاثاء سابعه ، حضر ملك الأمراء
من تلك السرحة ، فكانت مدة غيبته في هذه
السرحة خمسة عشر يوما ، فتنزه هناك وانشرح
الى الغاية ، وتصيد عدة من الكراكي والغزلان ،
ودخل عليه جملة تقادم حافلة من مشايخ العربان
الذين بالعربية والشرقية ، والكشاف المدركين ،
ما بين ذهب وفضة وخيول وجمال وبقر وجاموس
وغنم وأوز ودجاج وقدور عسل نحل وسمن ،
وغير ذلك أشياء فاخرة تهدي للملوك .

فلما رحل من النجيلة لم يتوجه الى الاسكندرية
ولم يدخلها في هذه المرة ، بل قصد العود الى
القاهرة . فلما وصل الى قرية قليوب ، تسامع به
الناس فخرجوا اليه ، فأضافه هناك تسيخ العرب
ابن أبى الشوارب ، وبات بقلوب . فلما أصبح
رحل من هناك ، وتوجه الى تربة العادلى التى
بالريدانية ، فمدت له هناك مدة حافلة ، فتعدى
هناك ورحل ، فخرجت اليه قضاة القضاة لتلقيه
فلم يجتمعوا به ، ولم يكن معه غير قاضى القضاة
محيى الدين بن الدميرى فقط . ثم اصطف له
الناس على الدكاكين لأجل الفرجة ، فلم يشق من
القاهرة في ذلك اليوم ، وطلع الى القلعة من بين
الترب ، فلم يشعر به أحد .

وفي يوم السبت حادى عشره عمل ملك الأمراء
المولد النبوى ، فاجتمعت القراء والوعاظ بالدهيشة

وأرسل يقول لقضاة القضاة : لا تكلفوا خواطركم ولا تطلعوا القلعة ، فان ملك الأمراء حصل له توعك في جسده ، فلم يحضر المولد . ثم أرسل خلف قاضي القضاة المالكي على انفراده ، وقال له : اطلع واحضر المولد . وكان قاضي القضاة المالكي من أخصاء ملك الأمراء ، وكان عنده من المقرئين .

ثم ان ملك الأمراء أرسل يقول للأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية : لا تكلفوا خواطركم ولا تطلعوا الى القلعة بسبب المولد ، فان ملك الأمراء احتجب في ذلك اليوم بالأشرفية التي بجوار الدهيشة . ولم يجلس عند المقرئين ، ولا حضر السباط في ذلك اليوم ، بل قعد على رأس السباط قاضي القضاة المالكي ، والأمير برسباي ، والخازندار ، وآخرون من الأمراء العثمانية ، وانقضى ذلك .

وفيه خلع ملك الأمراء على القاضي أبي السعود ابن الشحنة ، واستقر أمير جكار عوضا عن الناصري محمد بن أحمد بن اسنبغا بحكم صرفه عنها .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على الطواشي مسك فرسم بتوسيطه ، ثم شفع فيه الأمراء العثمانية فرسم بنفيه الى المدينة الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . فخرج من يومه وسافر في البحر المالح ، وكان سبب ذلك أن مسك هذا لما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان الديار المصرية ، لم يقابله واختفى حتى رحل ابن عثمان عن مصر ، واستقر الأمير جان بردى الغزالي في نيابة الشام وسافر اليها ، فخرج مسك صجبتة في الخفية ، وأقام عنده بالشام ، فلما جرى للغزالي ما جرى وقتل ، حضر مسك الى القاهرة ، وقابل ملك الأمراء وصار عنده من المقرئين .

وكان مسك هذا لطيف الذات ، يشتمل على

جملة من المحاسن ، منها الخط الجيد ، والقراءة الحسنة ، وغير ذلك من المحاسن ، فاتفق أن الطواشي الذي يحضر من استنبول رأى مسك هذا الذي كان يكره السلطان سليم شاه ، ولما دخل الى مصر هرب وتوجه الى جان بردى الغزالي فتغير خاطره عليه ، فرسم ملك الأمراء بتوسيطه ، ثم شفع فيه من التوسيط فرسم بنفيه ، وكان مسك هذا من أعيان خدام الأشرف قايتباي

وفي يوم الجمعة سابع عشره خرجت الملكة خاتون عمه السلطان سليمان — وقد تقدم القول أنها أتت الى مصر لتصح — فلما خرجت قصدت العودة الى بلادها ، وعين معها ملك الأمراء جماعة من الكمالية ومن الأصباكية يحفظونها في الطريق اذا سافرت . فأشيع بعد سفرها بأيام أن العربان خرجت عليها في العريش ، ونهبت أطراف بركها من جمال وقماش وغير ذلك .

ومن النوادر الغريبة ما وقع يوم الخميس ثالث عشره ، وذلك أنه قد أشيع في القاهرة بين الناس ، أن الشهابي أحمد بن الجيعان قد شق نفسه ، فاضطربت القاهرة في ذلك اليوم أشد الاضطراب ، ولم يشك أحد من الناس في ذلك ، لأن المقر الشهابي أحمد بن الجيعان حصل له في تلك الأيام غاية الشدائد والمحن ، وصار ممقوتا عند ملك الأمراء ، وقد تقدم القول على سبب ذلك ، فلم قويت الاشاعات بذلك ، كان الشهابي أحمد بالقلعة ، فقال له الأمير جانم الخزاوي قم وانزل وشق من القاهرة حتى تخمد هذه الاشاعة ، فقام ونزل من القلعة ، وشق القاهرة . فلما رآه الناس فرحوا به وهنئوه بالسلامة ، وخمدت تلك الاشاعة الباطلة التي ليس لها صحة ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفي شهر ربيع الآخر ، وكان مستهله يوم الجمعة ، دلى القضاة الأربعة ومنثوا ملك الأمراء بالشهر فلما تكامل المجلس حصل في ذلك اليوم تشاجر بين قاضي القضاة الحنفي على الطرابلسي ، وبين مستنبيه محب الدين سبط الشيخ بدر الدين محمد بن الدهانة ، وقد ناقضه قاضي القضاة الحنفي في القول ، وقال له حكمتك لا يجوز ، قد وليت بالرشوة . وأسعه من هذه الألفاظ المنكرة أشياء كثيرة بحضرة ملك الأمراء ، وبحضرة قضاة القضاة ومشايخ العلم ، فقال قاضي القضاة الشافعي لمحب الدين : حكمتك الذي حكمته باطل . فقال له محب الدين : ما هو صحيح منك . واستمر المجلس يتزايد في اللفظ بين الفقهاء بحضرة ملك الأمراء . وكان قاضي القضاة الحنفي أهوج رهاجا ، وعنده صعصعة وبادرة حدة مع قلة دربة .

فلما رأى ملك الأمراء المجلس قد انفض على غير طائل ، أصلح بين قاضي القضاة الحنفي وبين مستنبيه محب الدين سبط ابن الدهانة ، فاصطلحا صلحا على فساد ، وانفض ذلك المجلس .

ثم ان ملك الأمراء قال لقاضي القضاة الحنفي : لا تبقى تعارض محب الدين في أحكامه . فنزل محب الدين وهو منتصف على قاضي القضاة ، وقد بهدله في ذلك اليوم غاية البهدة .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأنه قد وقع بها زلزلة عظيمة ، فهدمت عدة بيوت سقطت على أهلها ، ورمت الأعمدة التي تحت الأماكن والقبب ، وكانت من الأمور المهولة . وذكروا أنه وقع مثل هذه الزلزلة في أيام الخنكار أبي يزيد جد السلطان سليمان ، فجرى عقيب ذلك ما جرى مع السلطان قايتباي ، وكسر مرتين ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده .

وفي يوم الخميس سابعه أشيع أن شخصا منجما قال انه في يوم الجمعة تنور على الناس رياح عاصفة ، وتقع زلزلة عظيمة حتى تسقط منها البيوت ، وتقضى الناس وهم في صلاة الجمعة . فانتشرت هذه الاشاعة في القاهرة ، وانطلقت السنة الناس بذلك قاطبة . فاضطربت القاهرة لهذه الاشاعة ، وصار الناس يودع بعضهم بعضا ، وباتوا تلك الليلة على وجل .

فلما أصبحوا وجاء وقت صلاة الجمعة دخلوا الى الجوامع فصلوا وعلى رؤوسهم طيرة . فلما قضيت الصلاة ، وخرجوا من الجوامع ، صار لهم ضجيج وهم يهتفون بعضهم بعضا بالسلامة ، ويصافحون بعضهم بعضا ، وخمدت هذه الاشاعة التي لا أصل لها .

وقد اتفق وقوع مثل هذه الواقعة في أوائل سلطنة الأشرف قايتباي . وأشيع مثل ذلك أن الناس اذا صلوا الصلاة يقبضون وهم في صلاة الجمعة ، فلما دخل الناس الى الجوامع صار على رؤوسهم طيرة ، فاتفق أن خطيبا كان في الجامع الذي عند ميدان القمح ، وكان يعتريه خلط مصرع ، فلما صعد المنبر عرض له ذلك الخلط المصرع ، وهو على المنبر ، فاضطرب وسقط عن المنبر ، فلما عاين الناس ذلك اضطربوا وهربوا من الجامع ، ولم يصلوا وظنوا أن الذي أشيع حق ، فعد ذلك من اسوار راسل مصر يس بهم عسول ...

يصدقون بالمحالات الباطلة التي ليس لها صحة !

وفي يوم الاثنين حادى عشر ، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى بولاق ، وكشف على المراكب الأغربة التي عمرها هناك ، فسيرت قدامه في البحر ذهابا وايابا ، وهو ينظر اليها والنفوط عمالة ، ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم السبت سادس عشره ، سقطت القبة العظيمة التي كانت على الايوان باكر النهار ، وهذه القبة من انشاء الناصر محمد بن قلاوون . فلما سقطت تفاعل الناس بزوال ملك ملك الأمراء عن قريب ، وهذه القبة لها نحو مائتي سنة من حين عمرت ، وكانت من خشب وفوقها رصاص ، وكانت مغلفة بقيشاني أخضر . ولم يعمر في مصر أكبر منها ، وكانت من نواذر الزمان .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره توجه الأمير شيخ العثماني الى اسطنبول ، وأرسل صحبته تقدمه حافلة الى السلطان سليمان بن عثمان ، وأرسل يشاور السلطان في أمور كثيرة من أحوال المملكة ، وينتظر الجواب عن ذلك .

وأشيع أن السلطان سليمان أرسل يطلب من ملك الأمراء نحيل بلح ليزرعها في اسطنبول ، فشرع ملك الأمراء في تجهيز ذلك ، فقبل انه أرسل اليه خمسمائة نخلة من البلح الحياتي ، وهي نحيل صغار تطرح بلحا حيانيا أحمر في غاية الحلاوة ، فأرسل تلك النخيل في صناديق خشب وهي في طينها ، وأرسلها في مراكب الى البحر المالح ، وتتوجه من هناك الى اسطنبول ، وأرسل صحبتها خولة تزرعها هناك .

وفيه جهز ملك الأمراء الأغربة وبها مقاتلون من المغاربة وغيرهم . وقد بلغه أن جماعه من الفرنج تعبت في السواحل وتشوش على المسافرين في البحر . ولما سافر بعض التجار من الأروام في البحر ، وقصد يطلع من الاسكندرية ويتوجه من هناك الى اسطنبول ، أوسق معه عدة مراكب بضائع وأصنافا كثيرة من قماش وغير ذلك بنحو مائة ألف دينار .

وكان في ذلك المركب رجال ونساء وصغار وتجار من الأروام وعبيد وجوار ، فلما سافروا من ساحل بولاق وأقلعوا ذلك اليوم ثارت

عليهم رياح عاصفة ، فلما وصلت المراكب الى شبرا دارب في البحر وغرقت هناك بكل ما فيها من الخلائق والبضائع والأصناف . وكان فيها تجار معاربة وبحارة ، وكابوا قبل سفرهم ساروا يشوشون على الناس ويسكفونهم من الدارقات غسبا بسبب المراكب ، ففكر الدعاء عليهم من الناس بظلمهم ، وحصل لأهل مصر في ذلك اليوم عايد الضرر . فلما سافرت المراكب غرق أكبرها في يومه لما حلت من بولاق ، وذلك بدعاء الناس عليهم .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهي : أن المعلم ابراهيم اليهودي ، معلم دار الضرب ، كان له جاريتان احدهما حبشية والأخرى سوداء ، فوطيء التجارية الحبشية فحبلت منه ، فوضعت بنتا ، فعاشت تلك البنت سبعة أشهر ، ثم ان التجارية الحبشية أظهرت أنها تريد أن تدخل الحمام ، فلما وصلت الى الحمام هربت وتوجهت الى بيت قاضي القضاة محيي الدين بن الدميري ، وقالت له : يا سيدي القاضي أنا مسلمة ، وأبدت الشهادة بين يديه ، ثم قالت له أنا سيدي المعلم ابراهيم اليهودي معلم دار الضرب ، وقد وطئني وحملت منه بهذه البنت ، وأنا صرت مسلمة مابقيت أقعد عنده ، فحكم قاضي القضاة بإسلامها في الحال ، وأرسل خلف اليهودي معلم دار الضرب بسبب ابنته ، فانها صارت مسلمة تابعة لأمها ، فحكم قاضي القضاة بإسلام البنت أيضا وأمها . فقيل ان المعلم ابراهيم دفع لقاضي القضاة خمسمائة دينار على أن يجعل البنت تبعا لأبيها فأبى من ذلك واستمر مصمما على حكمه ، فطلع ابراهيم اليهودي الى ملك الأمراء وكتب قصة بشرح الحال ، ووقف الى ملك الأمراء ، فقال له : « قاضي القضاة حكم بإسلام البنت وأمها وصارت مسلمة ، أعيدها أنا الى دين اليهود ؟ » . فلم يطلع من يد ابراهيم

اليهودى فى هذه الواقعة شىء ، ونزل من القلعة وهو مخزى ، وعتقت الجارية وابنتها على رغم أنفه .

وفيه قدمت الأخبار من الغربية أن عربان عزالة قد نزلوا على البساط بالقرب من تروجة وصاروا ينهبون الجرون ، ويرعون الزروع ، فحاربهم شيخ العرب اسماعيل ابن أخى الجويلى وكسرهم ، واحتوى على جمالهم وأغنامهم وخيولهم وغير ذلك ، ولم يترك لهم شيئا ، وهربوا ومضوا حيث شاءوا . ثم إن اسماعيل أرسل تلك الغنيمة الى ملك الأمراء ، فشكره على ذلك .

وفى شهر جمادى الأولى ، وكان مستهله يوم السبت ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى منازلهم . وفى ذلك اليوم خلع ملك الأمراء على الأمير جانم السيفى دولات باى الأتابكى كاشف الفيوم ، وقرره أمير ركب المحمل على عادته . وهذه ثالث مرة يسافر أمير الحاج فى دولة ملك الأمراء خاير بك .

وفى ذلك اليوم نادى ملك الأمراء فى القاهرة بأن الدينار السليم شاهى يصرف بأربعين نصفا من الفضة العتيقة ، والدينار السليمانى يصرف بخمسة وستين نصفا حسابا عن كل نصف فضة من الفضة الجديدة يقع بنصفين وربيع ، عبارة عن أن الدينار السليمانى يقف فى البيع والشراء بخمسة وعشرين نصفا .

فلما نودى فى القاهرة بذلك اضطربت أحوال الناس فى تلك المعاملة ، وصارت البضائع تباع بسعرين ، سعر بالفضة الجديدة ، وسعر بالفضة العتيقة ، فضج الناس من ذلك ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، وبطل البيع والشراء ، ووقف حال

التجار والمسيبين ، وصار النصف العتيق يصرف بستة دراهم فلوس جدد ، والفضة الجديدة تصرف بنصفين وربيع ، وقد لعب ابراهيم اليهودى فى أموال المسلمين من ذهب وفضة وفلوس جدد ، وتحكم فى أخذ ما بيد الناس من أموالهم بغير حق ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء خامس الشهر ، اجتمع الجهم الكثير من السوق والمسيبين وجماعة من القزازين من منية أبى عبد الله ، وجماعة من المكاسة وغير ذلك ، وحملوا على رؤوسهم مصاحف وربعات وأعلاما وطلعوا الى القلعة ، وزعموا أن محبى الدين بن أبى أصبح قد ظلمهم بسبب مكس الأطرون ، وأخذ منهم على حكم المعاملة الجديدة كل نصف بنصفين وربيع ، وقد ظلمهم وصار يقيم لهم النصف من الفضة العتيقة بستة فقرة . فلما طلّعوا الى القلعة لم يجتمعوا بملك الأمراء ، واحتجب عنهم ، وأرسل اليهم الأمير جانم الحمزاوى والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك . فقال لهم ملك الأمراء : يقول لكم هذا أمر السلطان فى أمر المعاملة . فكابروا ووقفوا وشكوا وتحسبوا ، فخرج اليهم جماعة من الانكشارية فضربوهم بالعصى على وجوههم ، فتشتتوا ونزلوا على أسوأ حال وهم فى غاية الذل . وفيه نزل ملك الأمراء وتوجه الى بركة الحبش على سبيل التنزه ، فجهز اليه القاضى المحتسب هناك مدة حافلة ، وأقام الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة فى يومه .

وفيه نودى فى القاهرة بأن السنج والأرطال القديمة التى كانت تتعامل بها الناس من قديم الزمان تبطل جميعها من القاهرة ، وأخرجوا لهم سنج نحاس وأرطالا تسمى العثمانية ، وهى عبارة عن تسعة دراهم ، فتنقص كل مائة درهم أربعة

دراهم في سائر الأوزان قاطبة في البضائع ، حتى في المسك والعود والعنبر وغير ذلك ، فتصير كل مائة درهم ستة وتسعين درهما ، وعملوا مثل ذلك في القبان أيضا ، وخرجوا على الناس في استعمال تلك السنج والأرطال ، وأوعدوا السوق أن كل من خالف في ذلك شق من غير معاودة في ذلك . وفد تقدم القول أنهم أبطلوا الذراع الهاشمي ، وأخرجوا الذراع العثماني الذي يزيد على الهاشمي خمسة قراريط ونصف قيراط . وكتبوا على التجار قسائم ألا يستعملوا الا الذراع العثماني فقط فشق ذلك على الناس قاطبة ،

وفي يوم السبت ثامن الشهر ، رسم ملك الأمراء بشنق أنفار منهم يهودي ونصراني ، وقد ظهر عليهم شيء من الزغل في الذهب والفضة ، وقد نم النصراني على اليهودي ، فكبسوا على اليهودي في بيته ، فوجدوا عنده آلة الزغل ، وشخص آخر مقدم درك الأزبكية ، أشيع أنه قتل في دركه شخصا من الانكشارية ، وشخص آخر قيل هو ابن أنس التي كانت في الأزبكية وغرقوها قبل تاريخه ، فحوزقوا الأربعة في يوم واحد فأما اليهودي فحوزقوه عند باب الصاغة ، والنصراني خوزقوه بالقرب من المارستان ، وأشيع عنه أنه لما حوزقوه أسلم وتلفظ بالشهادتين فلم يلتفتوا الى اسلامه ، فحوزقوه وأقام يوما وليلة وهو في قيد الحياة يتكلم حتى مات بعد ذلك ، وأما مقدم درك الأزبكية فحوزقوه في الأزبكية عند الدكة بالقرب من بركة قرموط ، عند المكان الذي قتل فيه الانكشاري ، وأما ابن أنس القوادة التي غرفوها ، فحوزقوه في الأزبكية ، قيل انه كان له جرة في الانكشاري الذي قتل .

ومن الحوادث الشنيعة في ذلك اليوم ، أن جماعة من الانكشارية مروا بذلك النصراني الذي خوزقوه

عند باب المارستان ، فوجدوه يتلفظ بالشهادتين ، فطلب شربة ماء من الانكشارية الذين حوله ، وكان أربعة مماليك من مماليك الأمير قايتباي الدوادار واقفين مع الانكشارية ، فرفقوا بذلك النصراني وأنزلوه الى الأرض وقلعوا الحازوق من بطنه ، وسقوه شربة ماء وأرقدوه على الأرض ، فحصل بين الانكشارية وبين مماليك الأمير قايتباي الدوادار تشاجر بسبب ذلك النصراني ، فأتسع الشر بينهم ، فسحب بعض مماليك الأمير قايتباي خنجرا وهماش به على الانكشارية ، فجرح منهم شخص وسال دمه ، وانقطعت جوخته ، فتكاثر الانكشارية على المماليك فهربوا منهم ، وتوجهوا الى بيت الدوادار الذي بين القصرين ، فتبعهم الانكشارية وهجموا عليهم في بيت الدوادار ، فأغلقوا الباب في وجوههم ، فحنقوا منهم وقصدوا أن يحرقوا الباب ، وثار فتنة عظيمة كما يقال . « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

فلما بلغ الوالي ذلك أرسل دواداره فأعاد النصراني الى الخازوق ثانيا وفيه الروح ، فلما طلع النهار بلغ ملك الأمراء أحبار هذه الواقعة فتعير خاطره على الأمير قايتباي الدوادار بسبب مماليكه ، فأرسل يطلب منه مماليكه الذين فعلوا هذه الفعلة ، فطلع اليه الأمير جانى بك أخو الدوادار ، فلما رآه ملك الأمراء طفش فيه بالكلام ، وقال له ان لم تحضر هذه المماليك الذين أثاروا هذه الفتنة ما يحصل لك خير ، فنزل من عنده وهو في غاية النكد .

ثم ان ملك الأمراء فادى في القاهرة : كل من أخفى عنده مملوكا من مماليك الدوادار شنق على باب داره من غير معاودة ، والذي يحضر مملوكا منهم له مائة دينار وقفطان مخمل .

فلما كان يوم الاثنين عاشر الشهر تزل ملك
الأمراء الى الميدان وأحضر بين يديه مملوكين من
ممالك الأمير قايتباي الدوادار ممن فعل هذه
الفعلة ، وقد قبض عليهما الوالى ورسم بتوسطيهما
فوسطوهما على باب الميدان ، ووسط معهما بواب
الدوادار أيضا لكونه أغلق في وجه الانكشارية
الباب ، فراح البواب ظلما . وكان عند ملك الأمراء
الأمير قايتباي فسقته ملك الأمراء غاية المقت .

فلما رسم ملك الأمراء بتوسط البواب ، قام
الأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير نصوح
العشاني ، وشفعا في بواب الدوادار فان له أولادا
وأبا شيخا كبيرا ، فلم يلتفت الى شفاعتهما ، فقاما
وقبلا يدي ملك الأمراء ثانى مرة ، وهو لا يزداد
الا قسوة ، وحصل للأمير قايتباي في هذه الحركة
غاية البهدة ، وانحطت كلمته عند الناس قاطبة .

وقيل ان الأمير قايتباي الدوادار دفع
للانكشارى الذى قالوا انه جرح مائة دينار وأعطاه
جوخة كانت عليه وجبتى حرير بفرو سنجاب في
نظير جوخته التى شرطت ، وأعطاه خنجرا عوضا
عن خنجره الذى زعم أنه سقط منه ، وأرضاه بكل
ما يمكن ، وهذه من أبشع الحوادث وأشنعها .

ومن هنا نرجع الى أخبار ذلك النصرانى الذى
أسلم لما خوزقوه ، فاستمر يتلفظ بالشهادتين حتى
مات ، فشاوروا عليه قاضى القضاة كمال الدين
الطويل الشافعى ، فرسم بأن يغسلوه ويكفنوه
ويصلوا عليه ويدفنوه في مقابر المسلمين ، ففعلوا
به ذلك ، وسار جماعة من العوام قدام نعشه حتى
دفنوه بعد الصلاة عليه في جامع الحاكم .

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، سافر القاصد
الذى كان حضر وبشر بأن الأمير مصطفى قد تزوج
بإبنة السلطان سليم شاه ، وهى أخت السلطان

سليمان ، فأنعم عليه ملك الأمراء بمال له صورة ،
وكذلك سائر الأمراء العثمانية وأرباب الدولة ،
فدخل عليه فوق العشرة آلاف دينار ، ودخل عليه
مثل ذلك بالشام وحلب وسائر النواب .

وفي يوم الجمعة رابع عشره ، أشيع فدوم شيخ
العرب الأمير أحمد بن قاسم بن بقر ، ويعرف بأبى
الشوارب ، وكان توجه الى الأمير جان بردى
الغزالى ، وطلب له من ملك الأمراء الأمان على
نفسه ، فحضر الى القاهرة وقابل ملك الأمراء فخلع
عليه ، وصار عنده من المفربين فأقام مدة على ذلك .
ثم بدا لملك الأمراء قتله ، فأرسل الى جاني بك
كاشف الشرقية بأن يقطع رأسه ، فتوجه اليه جاني
بك وهو في منية أبى الحارث بالدقهلية ، وهجم
عليه وقطع رأسه ، وقتل معه شخصا آخر من
مشايخ عربان العايد ، فلما قتل الأمير أحمد بن
قاسم بن بقر نهبت داره ، وسبيت نساؤه وأولاده
ولم يعلم أحد ما سبب ذلك .

ثم ان الأمير جاني بك الكاشف أرسل رأس
الأمير أحمد بن قاسم ، ورأس شيخ العايد ، فرسم
ملك الأمراء بدفن الرؤوس ، وقد أخذ ملك الأمراء
بثأره من أحمد بن قاسم وكان في قلبه منه شيء من
حين توجه الى الغزالى نائب الشام فكان كما
يقال في المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها

عينا عليك اذا ما نمت لم تتم

وفيه توفى الأمير تراز الشمسى السيفى
الأتابكى الذى كان كاشف البحرية ، وكان
لا بأس به .

وفي يوم الاثنين سابع عشره ، قبض ملك الأمراء
على المقر الشهابى أحمد بن الجيعان ، وسجنه
بالقاهرة بالعرقانة ، وكان ملك الأمراء متحملا منه

في الباطن غاية التحمل ، وكانت هذه أول كائنة وقعت له مع ملك الأمراء ، وأمره الى الله تعالى ، فأقام أياما وهو في الترسيم .

ثم أن ملك الأمراء خلع عليه بعد ما أورد مالا له صورة من التقسيط الذي كان عليه ، وقد نفذ منه جميع ما معه من المال ولم يبق على ملكه لا رزقة ولا اقطاع ولا بيوت ولا دكاكين ، وباع سائر قاعاته التي على بركة الرطلي فاشتراها الأمير قاسم الشرواني الذي كان نائب جدة بأبخس الأثمان ، وجرى عليه شدائد ومحن دون أقاربه السذين مضوا ، وما لاقى خيرا في هذه الدولة وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه .

وفي يوم الاثنين كان عيد الفصح عند النصارى — وهو أول يوم من الخمسين — وهو أكبر أعياد النصارى ، فحكى عن يونس النصراني مباشر ملك الأمراء أنه صنع في ذلك اليوم خمسين بطة من الدقيق برسم الكعك والخشتان ، واثنى عشر قنطار شيرج ، وعشرة قناطير سكر ، وعشرين ألف بيضة برسم صباغ البيض الذي يفرق على الناس ، ودخل عليه تقادم من الأعيان وأشياء كثيرة من أغنام وأوز ودجاج وغير ذلك .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهي : أن شخصا يقال له ابن الشاطر حسن المصارع ، خرج من بيته بعد العصر ، وركب على حماره ، ثم جلس على مصطبة تحت بيت في الجسر ليتفرج ، فاضطرب ساعة يسيرة ثم طلعت روحه في الحال ، وصار ملقى على الطريق ، فمضى الناس الى ولده وزوجته وأخبروهما بموته ، فأحضروا له نعشا وحملوه عليه بعد المغرب ، ومضوا به الى بيته ، وكان ذلك الرجل يبيع الورق ، فنعوذ بالله من موت الفجأة على حين غفلة .

وفي يوم السبت ثاني عشره ، قدم أمير من أمراء السلطان سليمان ، وقد طلع من البحر من ثغر الاسكندرية ، فلما بلغ ملك الأمراء قدومه رسم للأميرجانم الحمزاوي والأمير قايتباي الدوادار أن يخرجوا الى ملاقاته ، فخرجوا الى وردان ولاقوه من هناك ، ومدوا له هناك مدة حافلة ، وصارت الكشف ومشايخ العربان تمد له المدات بطول الطريق ، فلما وصل الى بولاق نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك .

فلما كان يوم الأربعاء سادس عشره ، دخل الأمير سنان بك الذي أرسله السلطان سليمان الى مصر ليقيم بها عوضا عن الأمير نصوح ، ويسافر الأمير نصوح الى اسطنبول . قيل ان الأمير سنان هذا كان عند السلطان سليم شاه بن عثمان من المقربين ، وكان عنده بوابا لما دخل الى مصر ، وكان موكلا بحفظه ليلا ونهارا ، فلما رجع السلطان سليم الى اسطنبول جعله نائبا على بلد يقال لها انطاكية ، فلما تسلمن ولده سليمان أرسله الى مصر ليكون أمينا على ملك الأمراء . فلما توجه اليه ملك الأمراء أركبه فرسا بسرج ذهب ، وعرقه زركش ، وألبسه قفطانا مذهباً ، فركب من بولاق ، وملك الأمراء صحبته ، فتوجهوا من باب البحر ، وعلى رأسه صنجق حرير أحمر ، وخلفه طبلان وزمران ، وكان معه نحو مائة مملوك مشترواته ، فلما دخل من باب البحر استمر في ذلك الموكب حتى شق من القاهرة وكان ذلك اليوم مشهودا ، فانزلوه في بيت الأتابكي قرقماس الذي عند حوض العظام ، ومدوا له هناك مدة حافلة .

ثم أشيع أنه لما دخل الأمير سنان ، أخبر أن السلطان سليمان بن عثمان جهز خمسمائة مركب ، وشحنها بالسلاح والمقاتلين ، وخرج بنفسه الى قتال أهل رودس من الفرنج ، وقد جمع من

العساكر ما لا يحصى عددهم ، وهو قاصد التوجه اليهم

قيل ان الأمير سنان لما مر على ضياع الشرقية التي على شاطئ البحر ، وقف اليه الجهم الكثير من الفلاحين واستغاثوا به ، ودعوا بالنصر للسلطان سليمان ابن عثمان ، وقالوا قد خربنا من الظلم يأخذوا منا النصف من الفضه الجديده بصفين وربيع وعند الحساب يقيمونه علينا بنصف فضه ، ما يحل من الله سبحانه وتعالى ، فوعدهم بالنظر في أحوالهم ولم يظهر لقوله نتيجة فيما بعد ، واستمر كل شيء على حاله .

وفي يوم الخميس سابع عشره طلعت مقدمة الأمير سنان بك الى ملك الأمراء ، فكان من جلستها أربعة ممالك صغار مرد چراكسه ، وحملان ما بين شربات وطاسات وغير ذلك وحملان شقق برصاوى مذهب ، وأثواب محمل ملون وعليها فرو سمور ووشق وسنجاب ، وحملان أقواس وغير ذلك .

وفي يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع الأمير سنان بك الى القلعة ، وحصر الأمراء العثمانية ، ثم ان الأمير سنان أحضر مرسوم السلطان سليمان الذي حضر على يده ، فلما قرئ عليهم ، كان من مضمونه الوصية بالرعيه ، والنظر في أحوال الناس في أمر المعاملة ، وأرسل يمول لملك الأمراء انه لا يمكن أحدا من الانكشارية من النزول الى المدينة حتى لا يشتكى أحد من الناس منهم ، وان ملك الأمراء لا يصرف لهم في كل يوم أكثر من درهمين فضة ، كما كانوا في اسطنبول ، وأرسل يقول له أشياء كثيرة من تعلقات المملكة ..

وفي شهر جمادى الآخرة - وكان مستهله يوم الأحد - طلع القضاة الأربعة وهنأوا ملك الأمراء

بالشهر ثم عادوا الى منازلهم . وقيل لما طلع القضاة الى القلعة للتهنئة نزل ملك الأمراء لزيارة الامام الشافعى والامام الليث فأبطأ عليهم حتى اضحى النهار وهم جلوس بجامع القلعة ، فلما عاد جلس بالدهيشة وأرسل خلفهم فهنئوه بالشهر ونزلوا

وفي ذلك اليوم حضر الشريف البردينى من اسطنبول ، وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان متوج بعلامته ، بأنه استقر به ناظر المدرسة الشيعوية وشيخها ، وكذلك مشيحه مدرسة الأمير فانى باى الجركسى التى فى الرملة ، والنظر على جهات السادة الأشراف فاطمة ، فلم يلتفت الى ما فى مراسيمه ، وعز ذلك عليه ، فانه أخذ عدة أنظار ، ونزع آبدى المتحدثين عليها

ومما وقع فى ذلك اليوم أن شحصا وقف الى ملك الأمراء نفسه واشتكى فيها المقر الشهابى أحمد بن الجيعان شكوى بالعة ، وكان ملك الأمراء متغيظا عليه ، فلما شكاه ذلك الرجل قبض عليه ملك الأمراء وسجنه فى محزون عند بواب الحوش ، ورسم أن لا يدخل عليه أحد من جماعته ، ولا نفرش تحته شيء ولا حصير ثم قبض على دواذره محمد وضريه بين يديه وسجنه بالعرقانة داخل الحوش ، وقرر عليه ألف دينار بوردها على الحامكة

وفي يوم السبت سابعه ، دخل العسكر الذين أرسلهم السلطان سليمان الى مصر بقيمون بها ، والدين كانوا بها سوجهون الى اسطنبول ، فلما وصل العسكر الى الريدانيه ، نزل ملك الأمراء الى قرية العادلى ، ولاقى العسكر الذين حضروا من اسطنبول ، وكان باشهم سسمى الأمير خضر ، وكان ذلك العسكر كله من الاصباغة ، فيل انهم فوق ألف انسان ، فدخل ملك الأمراء من باب النصر

رعاة الشاة تحب الذئب عنها

فكيف اذا الرعاة هي الذئاب ؟

وفي يوم الأحد خامس عشره ، خرج الأمير على العثماني باش العسكر الاصباهية ، وتوجه الى خيامه بالريدانية .

ثم في يوم الخميس تاسع عشره ، خرج الأمير نصوح العثماني وصحبته من كان تأخر من الاصباهية ، فلما سافروا سكن الأمير سنان في بيت الأمير أزدمر الدوادر عوضا عن الأمير نصوح ، وسكن الأمير خضر في بيت الأمير طراباي ، عوضا عن الأمير على الذي توجه الى اسطنبول .

وفي يوم الجمعة عشريه ، حضر القاضي بركات ابن موسى المحتسب ، وكان مسافرا نحو المنزل ، فأقام بها مدة ثم رجع ، فلما طلع الى القلعة ، وقابل ملك الأمراء خلع عليه ، فنزل من القلعة وهو في موكب حافل . ففي ذلك اليوم أشهر المناداة في القاهرة بأن الفلوس الجدد كل فلسين بدرهم ، فحصل للسوق غاية الضرر بسبب ذلك .

ثم ان القاضي بركات بن موسى المحتسب ضمن الشهابي أحمد بن الجيعان ، وأفرج عنه من الترسيم ، وكان له مدة في الترسيم كما تقدم ، ونزل الى منزله .

وفيه عزم الأمير سنان على ملك الأمراء فنزل اليه ملك الأمراء فمد له مدة حافلة ، وحضر أيضا الأمير خضر فأقام ملك الأمراء عنده الى قريب الظهر ، وركب من عنده وطلع الى القلعة .

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق ثلاث أنفس ، وكان ذنبهم أنهم سرقوا شيئا بسيرا من الخييار الشنبر ، فشنعوا بسبب ذلك وراحوا ظلما .

وفي يوم الاثنين ثالث عشريه ، أنفق ملك الأمراء على العسكر جامكية ثلاثة أشهر ، وآخر لهم ثلاثة لأنهم كان لهم ستة أشهر مكسورة لم تصرف .

وشق من القاهرة في موكب حافل ، فلما دخلت الاصباهية الى مصر طفقوا في المدينة بسبب البيوت التي ينزلون بها ، فصاروا يشوشون على الناس ويخرجونهم من بيوتهم غصبا بالضرب ويسكنون بها .

ثم أشيع أنه حضر صجبة العسكر شخص من العثمانية يزعم أنه قاض من قضاة ابن عثمان وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر في وظيفة يقال لها القسام ، وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثا على جميع الترك قاطبة ، الأهلية وغير الأهلية ، ولا يعارضه أحد من الناس في ذلك ، ويأخذ مما يتحصل من كل تركة العشر لبيت المال الأهلية وغير الأهلية ، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل .

ومن مضمون مراسيمه أن لا أحد من المماليك الجراكسة وأولاد الأتراك قاطبة وأرباب الدولة والاصباهية والانكشارية يعقد عقدا على بكر أو ثيب الا عند ذلك القسام ، ويأخذ على عقد البنت ستين نصفا ، والثيب ثلاثين نصفا ، فأخذ قسائم على قضاة القضاة بذلك فاضطربت أحوال الناس لذلك ، ولم يتعصب أحد من قضاة القضاة لمنع ذلك عن المسلمين ، وقد خافوا على مناصبهم من العزل ، وتغافلوا حتى ضعفت شوكة الاسلام في أيامهم ، واستطالت قضاة الروم عليهم .

وقد ترادفت الحوادث المنكرة ، والبدع الشنيعة المخالفة للشريعة في هذه الأيام ، وسيأتى الكلام على ذلك في موضعه . فصار يوسف بن أبي الفرج مفتش الرزق والاقطاعات ، وفخر الدين بن عوض مفتش الرزق الأحباسية التي بالصعيد ، والأمير على العثماني مفتش الأوقاف قاطبة ، والقسام الذي حضر قسام الترك ، وملك الأمراء يعينهم على ذلك ، فأين المهرب ؟ كما يقال في المعنى :

وفي ذلك اليوم قطع ملك الأمراء جوامك كثير من الجراكسة وأولاد الناس ، وصرف لهم بحكم النصف ، فجعل لكل واحد ألف درهم ، ويصير طرخانا ، فشق ذلك على المماليك الجراكسة ، وكان فيهم من هو كفء للأسفار والتجاريد ، وفيهم من هو شاب بطل ، وكذلك أولاد الناس .

وفي أواخر هذا الشهر حضر أولاق من اسطنبول في البحر المالح الى الاسكندرية ، ثم قدم الى مصر وطلع الى ملك الأمراء ، وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، فكان من مضمونه أن الواصل الى الديار المصرية الذي يسمى سيدى چلبى هو أعظم قضاة السلطان سليمان وأكبرهم ، وأن السلطان سليمان رسم بإبطال القضاة الأربعة الذين بمصر ، ويصير قاضى العسكر الذى هو قادم يتصرف فى الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة ، وأن سائر النواب والشهود تبطل قاطبة ، ويقتصر الأمر على أربعة نواب من كل مذهب نائب لا غير ، وكل نائب يقتصر على اثنين من الشهود لا غير ، وأن النواب الأربعة يكونون فى الصالحية لا غير ، وأن لا أحد يعقد عقدا ، ولا يوقف وقفا ولا يكتب وصية ولا عتقا ولا اجارة ولا حجة ولا غير ذلك من الأمور الشرعية حتى تعرض على قاضى العسكر بالمدرسة الصالحية دائما .

فلما وقف ملك الأمراء على مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان ، أرسل يهول للقضاة الأربعة اصرفوا الرسل عن أبوابكم ، والنواب قاطبة والعسكر ، حسبما رسم به السلطان سليمان ابن عثمان . فامتلوا ذلك وصرفوا من كان على أبوابهم من الرسل والوكلاء ، فاضطربت أحوال

النواب والشهود والقضاة قاطبة ، وضيق الأمر على الناس أجمعين .

وفي يوم الجمعة سابع عشره ، وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء أرسل حلف الشهابى أحمد بن الجيعان شاويشا ، فلما حصر بين يديه ، بطحه على الأرض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون بوبة يضربونه بالعصى . ثم انه طلب القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك — وكان مريضا ملازم الفراش وعينه موجوعة — ولما أرسل خلفه اعتذر بأنه قد شرب دواء وهو مريض . فحنق منه ملك الأمراء فأرسل اليه أربعة شاويشية ، فحملوه من فراشه وأركبوه غصبا ، فلما طلع الى القلعة ووقف بين يدي ملك الأمراء بطحه الى الأرض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون بوبة ، وهو يقول للمماليك الذين يضربونه : « اضربوه قوى هذا عدوكم الأكبر » فضربوه حتى كاد أن يموت ويهلك .

ثم طلب القاضى شرف الدين بن عوض ، فلما حضر بطحه على الأرض وضربه ضربا مبرحا دون ضرب الشهابى أحمد بن الجيعان .

ثم طلب محيى الدين بن أبى أصبغ وهم بضربه ، فشهد له الأمير برسباى الحساندار أنه غلق ما عليه من التقسيط ، فأقامه ولم يضربه فى ذلك اليوم .

ثم رسم ملك الأمراء بسجن الجميع فى العرقانة فسجنوا فيها ، وقد خرب بيت أولاد الجيعان عن آخره . وقد اشتد غضب ملك الأمراء على المباشرين فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا بالنكد عليهم قاطبة ، وقيل لم يسجن بالعرقانة سوى القاضى شرف الدين الصغير ، وسجن الشهابى أحمد بن

الجيعان وابن عوض عند باب الحوش الى أن يكون من أمرهما ما يكون .

أقول ان أولاد الجيعان قد خدموا سبعة عشر سلطانا وباشروا ديوان الجيش وكتابة الخزانة في أوائل دولة الأشرف برسباي ، وكان أول اشتهارهم وظهورهم في دولة الملك المؤيد شيخ ، وذلك نحو مائة وعشرين سنة ، فما أهينوا فيها قط ولا ضربوا ولا صودروا ولا جرى عليهم قط تشويش ، وهم في كل دولة معظمون مكرمون ، وما تبهدلوا قط ، وما جرى عليهم مثل ما جرى على الشهابي أحمد هذا ، وكانت السلاطين تعظمهم غاية التعظيم الى غاية دولة الأشرف الغوري .

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهي أن شخصا من تجار الروم بخان الخليلي يقال له الخواجاجا محمود العجمي التبريزي ، وهو في سعة من المال ، وكان يقرض أعيان المباشرين المال بالفوائد الجزيلة ، ويأخذ الربا من الناس على القرض ، ولا سيما المحتاج لذلك . فاتفق أنه سكر يوما وأتى الى منزله ، فوجد جواريه واقعات في بعضهن ، وتقاتلن قتالا مهولا ، فحنق منهن ، فضرب جارية حبشية منهن على ضلعها ، فجاءت الضربة صائبة فماتت الجارية من وقتها ، وكان معه منها أولاد ، وكادت الأشلة تقوم عليه من الناس من أهل الحارة لأجل ذلك ، فطلع الى ملك الأمراء وفص عليه القصة بأمر تلك الجارية واعترف بقتلها ، فغضب عليه ملك الأمراء ورسم بمسكه ، ثم أرسله عند الوالي ، فركب الوالي وتوجه الى بيت الخواجاجا محمود ليكشف عن أمر تلك الجارية كيف قتلت ، فوجد الخواجاجا محمودا كان ظالما عليها ، وقد قتلها بغير ذنب ، وقد شهد أهل الحارة أنه سكر كل ليلة

ويعربد في الجوارى ، فطلع الوالي الى ملك الأمراء وأخبره بسيرته القبيحة ، وأنه عاش على غير الطريق ، وأثنى جراحاته عند ملك الأمراء ، فرسم بسجن الخواجاجا محمود في العرفانة ، وقيل انه سأل ملك الأمراء أن يدفع اليه ألف دينار فأبى من ذلك ، ولو أن الخواجاجا محمودا أرضى الوالي بمائة دينار ، وستر عليه هذه الكائنة ، ما وصل الأمر الى ذلك ، ولكن اتسعت هذه الواقعة الى الغاية .

وأشيع أن ملك الأمراء طلب منه عشرة آلاف دينار ، وهذا كله آفة الربا الذي كان يأخذه من الناس ، فانه كان يقرض الألف دينار بألف وخمسمائة دينار ، والذي خبث لا يخرج الا نكدا ، فختم ملك الأمراء على حواصله . ثم شفع فيه بعض الأمراء العثمانية ، فأخذ ثلاثة آلاف دينار . ثم ان ملك الأمراء تتبع أصحابه الذين كان يسكر معهم ، فأخذ من كل واحد منهم ألف دينار ، وكانت هذه السكر سكرة الشوم على الخواجاجا محمود وأصحابه .

وفي يوم الأحد تاسع عشره ، عرض ملك الأمراء القاضي شرف الدين الصغير والشهابي أحمد بن الجيعان وشرف الدين بن عوض ، وقصد ضربهم ثانيا ثم وضعهم في الحديد ، ورسم للوالي أن يشنق الثلاثة على أبواب بيوتهم ، واحتاط بهم مقدمو الوالي ، فضمنهم القاضي بركات بن موسى المحتسب الى باكر النهار ، حتى يسعوا في سداد ما كان تأخر عليهم من التقاسيط التي تأخرت في البلاد ، فأخذ الشهابي أحمد بن الجيعان في أسباب بيع بيوته ورزقه وأملاكه التي كانت على بركة الرطلى ، فاشتراها الأمير قاسم الشرواني بأبخس الأثمان ، ولم يبق بيد الشهابي أحمد لا

ملك ولا رزقة ولا بيت ولا ربع ولا دكان ولا شيء
قل ولا جل .

ثم ان آخته باعت جميع ما تملكه من مصوغ
وحلى ، حتى باعت البسط من تحتها والطراريح
واللحف والمخدرات وأثاث البيت ، وفعلوا مثل
ذلك بسراريه وجواريه الموثقات ، وغير ذلك من
حاشيته ، وعبيده وغلماؤه .

ثم ان القاضي عبد الجواد أخا القاضي شرف
الدين الصغير ، أخذ في أسباب ما يؤخذ على أخيه
من التقسيط ، فاقترض وتداين وقد أشرف على
التخليق وكذلك القاضي شرف الدين بن عوض .
وفي يوم الاثنين سلخ هذا الشهر ، أشيع أن
ملك الأمراء يقصد أن يعرض العسكر ، فطلع
العسكر الى القلعة قاطبة ، فلم يخرج ملك الأمراء
في ذلك اليوم ، وأرسل يقول للعسكر : العرض
يوم السبت ، فانفضوا ونزلوا من القلعة ، ولم
يعرضوا في ذلك اليوم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الشريف على بن
هजार أمير الينبع ، توفي هو ووزيره أحمد بن زحام
في جمعة واحدة ، وكان من خيار من ولى امرية
الينبع .

وفي ذلك اليوم نودى في القاهرة بأن الغريب
يسافر لأهله وألا يقيم بمصر غريب . وكان
سبب ذلك أنه أشيع أنهم قبضوا على شخصين من
الأعجام زعموا أنهم جواسيس من عند اسمعيل
شاه الصفوى .

وفي شهر رجب ، وكان مستهله يوم الثلاثاء
أهل هذا الشهر والناس في أمر مريب ، بسبب
ما وقع من الحوادث من عزل القضاة الأربعة وسائر
نوابهم ، والشهود قاطبة ، وما وقع للمباشرين من
هذه الكائنة العظمى .

ومنها أمر المعاملة التي حصل للناس منها غاية
الضرر ، ولا سيما الفلاحين يقبضون الخراج منهم
على حكم الفضة الجديدة بنصفين وربع ، وقيمونه
عند الحساب بنصف واحد ، وفاء تزايد الاضطراب
في هذه الأيام جدا من وجوه كثيرة .

وفي يوم الأربعاء ثانيه أشيع هروب شيخ العرب
يبرس بن بقر ، وأنه توجه الى نحو الطور
وأخوه عبد الدايم بالبرج في القلعة ، وهو مقيد ،
وله نحو ثلاث سنين في البرج لم يفرج عنه ، وصار
أبوهم الأمير أحمد بن بقر هو المتكلم في الشرقية قاطبة .
وفي هذا الشهر قدم الزينى عبد القادر بن الملكى
الذى كان توجه الى اسطنبول مع من توجه من
الأسرى ، فأفرج عنه السلطان سليمان ابن عثمان
مع من أفرج عنه .

وفيه نزل ملك الأمراء الى قصر ابن العينى
الذى بالمنشية على سبيل التنزه ، فأقام هناك الى
ما بعد العصر ، فأرسل اليه القاضي بركات بن
موسى المختسب هناك مدة حافلة على حكم
ما تقدم له قبل ذلك .

وفي يوم الخميس ثالثه ، طلب ملك الأمراء
الشهابى أحمد بن الجيعان وشرف الدين بن
عوض ، فلما مثلا بين يديه رسم بضربهما ضربا
مبرحا فضربا حتى أشرفا على الموت ، وكانا في
غاية الألم مما نالهما من شدة الضرب الأول ، وجاء
هذا الضرب الثانى زيادة على ذلك ، وأمرهما
الى الله تعالى .

وفي يوم السبت خامسه ، نزل ملك الأمراء الى
الميدان ، وجلس به وعرض العسكر قاطبة ، وعين
منهم جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة نحو ألف
 وخمسمائة مملوك ، وقال لهم : كونوا على برق ان
طلبكم السلطان من البحر توجهوا اليه ، وان
طلبكم من البر توجهوا اليه .

وفي ذلك اليوم طلع ملك الأمراء وقطع جوامك
كثيره من العسكر ، وصرف لهم بحكم النصف من
الجامكية

وفي يوم الأحد سادسه بودى في القاهرة بأن
كراء بيوت الأوقاف التى تحت نظر القضاة وغيرهم
لا يقبضونه الا على حكم المعاملة الجديدة كل
نصف بصفين وربيع ، وأن الأشراف الذهب بصرف
بسبعة عشر نصفاً من الفضة الجديدة ، فشق ذلك
على الناس قاطبة ، وحصل لهم غارة الضرر .

وفي يوم الاثنين سابعه ، عرض ملك الأمراء
جماعة من أمراء الجراكسة ، ما بين أمراء طبلخانات
وعشراوات ، فقطع رواتبهم التى كانت تصرف
لهم ، ثم رسم بأن يصرف لهم بحكم النصف من
ذلك ، كما فعل بالماليك الجراكسة ، فحصل لهم
في ذلك اليوم كسر خاطر عظيم ، وكان فيهم
شيوخ من القرائص الأعوات

وفي يوم الخميس عاشر الشهر ، قدم قاضى
العسكر الموعود به المسمى بسيدى جلبى ، واستمر
ملك الأمراء بصحبته الى أن أنزله في بيت الأمير
جائى مصبغة ، الذى خلف المدرسة الغورية ،
وأرسل اليه مدة حافله ، فلما استقر هناك ، أتى
اليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ،
وقاضى القصاة المالكى محيى الدين الدميرى ،
وقاضى القضاة شهاب الدين الفسوحى الحنبلى ،
وكان قاضى القضاة الحنفى مريضاً فلم يحضر اليه ،
فقبل لما دخلوا عليه لم يفهم لهم ولم يعظمهم ، وكانت
صفتة أنه شيخ هرم ، أبيض اللحية ، طويل القامة ،
وعلى عينه اليمنى فص ، فلم ينظر الا بعين واحدة ،
وهو فصيح اللسان باللغة العربية ، حسن المحاضرة
ولكن قال القائل في المعنى :

لا تشكرن امراً حتى تحربه
ولا تدمنه من غير بجريب
فشكرك المرء ما لم تبلة خطا
وذمه بعد شلر محض تكذيب

وفي يوم السبت ثانى عشره ، بودى في القاهرة
بإبطال الفضة العتيقة قاطبة ، وأنها تدخل الى دار
الضرب .

وفي ذلك اليوم نزل ملك الأمراء الى الميدان ،
وجلس به وأحضر الأمراء العثمانية ، والأمير
قايتبى الدوادار ، ثم حضر قاضى العسكر
وأخرج مرسوم السلطان سليمان الواصل على
يده ، فكانت ألفاظه باللغة التركية ، فأحضرها من
قرأ ذلك فكان من مصموه الوصيه بالرعية
قاطبة ، وانصاف المظلوم من ظالمه ، واصلاح المعاملة
في الذهب والفضة بين الناس . وقد تعاضم عليهم
فاضى العسكر ، فلم يجلس بينهم ، ولا حضر قراءة
مرسوم السلطان . ومن جملة ألفاظه نعت قاضى
العسكر ، فكان من نعتة أوصاف جميله تحتص
به ، وأن يكون له التكلم في الأحكام الشرعية على
المذاهب الأربعة ، ويحكم في المدرسة الصالحية بين
الناس .

ثم ان قاضى العسكر جعل شحصا من العثمانية
يقال له القاضى صالح أفندى نائبا عنه ، يحكم في
المدرسة الصالحية بين الناس ، وكان حنفيا ، ثم ان
قاضى العسكر استناب شحصا آخر يقال انه فتح
الله ، وكان من العثمانية ، وكان شافعى المذهب ،
ثم ان قاضى القضاة جعل تحت يده كل قاض من
الأروام ، قاضيا من أولاد مصر ، فجعل القاضى
شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائبا عن القاضى
صالح أفندى العثمانى ، وجعل القاضى شمس
الدين محمد الحلبى الشافعى نائبا عن القاضى فتح

الله العثماني ، وجعل القاضي أبا الفتح الوفائي أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه ، وجعل نظام الدين الحنبلي يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه ، والمرجع في الأحكام الشرعية الى قاضي العسكر . ثم رسم لكل نائب من النواب الأربعة أن يقتصر على شاهدين لا غير ، وسائر النواب والشهود تبطل قاطبة ، ثم رسم قاضي العسكر للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية اذا وقفوا قدامه يأخذون في أيديهم العصي . فاجتمع بالصالحية من الرسل فوق الستين رسولا ، وصاروا على هذه الهيئة ، ثم ان قاضي العسكر أقام من الأروام شخصا وسماه قسام الترك ، فجعل على كل تركة الخمس لبيت المال مع وجود الورثة من الأولاد الذكور والاناث ، فحصل للناس بذلك الضرر الشامل .

وفي يوم الأحد ثالث عشره ، نودي في القاهرة عن لسان قاضي العسكر ، بأن الشهود قاطبة لا يعقد أحد منهم عقدا ، ولا يكتب وصية ولا اجارة ولا مبايعة ولا شيئا من الأمور الا في المدرسة الصالحية عند القاضي صالح نائب قاضي العسكر ، فحصل للناس بسبب التزويج في هذه الأيام غاية المشقة ، واختار كل منهم العزوية على التزويج .

وفيه نزل ملك الأمراء الى قاضي العسكر وسلم عليه ، وقد بلغه أنه توعك في جسده ، فنزل اليه وعاده ، ثم طلع الى القلعة .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره ، أنفق ملك الأمراء على الممالك الجراكسة جوامكهم ، وكان لهم سبعة أشهر منكسرة ، فأنفق عليهم في ذلك اليوم أربعة أشهر ، حتى على الغلمان والمباشرين والفقهاء والمقرئين ومن له عادة .

وفيه منع قاضي العسكر شمس الدين الحلبي من التكلم في المدرسة الصالحية ، وقرر عوضه القاضي شجاع العثماني ، وجعله قاضي العسكر متحدثا على أوقاف الجوامع والمدارس ومعالم الأنظار ، فطلب الجباة وقال لهم : ارفعوا لي حساب الأوقاف ، وقدر معاليهم الأنظار ، وما قدرها في كل شهر ، فشرعوا في أسباب ذلك ، وفي عمل الحساب .

ثم ان قاضي العسكر رسم يأخذ الخلاوى التي في المدرسة البرقوقية والأشرفية والغورية وغير ذلك من المدارس ، وأنزل فيها جماعة من الأروام الآفاقية .

ثم ان القاضي صالح نائب قاضي العسكر ، عرض الرسل الذين في المدرسة الصالحية ، ورسم لهم ألا يأخذ الرسول منهم في الشغل الذي يتوجه اليه أكثر من نصف قضية من القضية الجديدة بنصفين وربع ، وجعل على من يتزوج بكرا ثلاثة وأربعين نصفا ، ويتكلف للشهود والعائد مثل هذا . هذا ما تقرر على العوام ، وأما الرؤساء فشيء غير ذلك . وقرر على كل شهادة تقع في المدرسة الصالحية قدرا معلوما بحسب كل شغل ثقيل كان أو خفيفا .

ثم أشيع عن قاضي العسكر أنه قال : قصدي أمشي نساء مصر على قاعدة نساء اسطنبول مع أزواجهن ، فان عادتنا اذا دخل الرجل على زوجته تعطيه نصف المهر الذي أعطاه لها ، وأن الرجل لا يقرر لزوجته لا كسوة ولا نفقة بل يكسيها في كل سنة جوخة وقميصا ويطعمها في كل يوم على ما يختار من قليل وكثير ، وتغزل وتكسى زوجها في كل سنة . فلما سمع العوام بذلك فرحوا ودعوا لقاضي العسكر بسبب هذه الواقعة ، واغتم النساء

بذلك ، وظنوا أن ذلك الشيء واقع ، وأن قاضى
العسكر أبطل كسوتهن ونفقتهن ، فشق ذلك
عليهن ، فعد من النوادر الغريبة .

ومن الحوادث أن شخصا يهوديا وقف الى
القاضى صالح نائب قاضى العسكر وكتب قصة
واشتكى فيها الأمير تنم أحد الأمراء الطبليخانات
فاظر الدشيشة ، فأرسل خلفه القاضى صالح رسولا
وانكشاريا ، فلما حضر الى المدرسة الصالحية ادعى
اليهودى على الأمير تنم ، فأنصف القاضى صالح
اليهودى من الأمير تنم ، واستمر الأمير تنم فى
الترسيم حتى أراضى اليهودى .

ثم فى عقيب ذلك اشتكت الأمير جانى بك آخا
الأمير قايتباى الدوادار زوجته عند القاضى صالح ،
فطلبه فى المدرسة الصالحية ، ووضعه فى الترسيم
حتى أراضى زوجته فيما ادعته ، ولم يلتفت الى
أخيه الأمير قايتباى الدوادار .

وفى يوم الخميس سابع عشره ، نودى فى القاهرة
عن لسان ملك الأمراء وقاضى العسكر ، بأن
لا امرأة تخرج الى الأسواق الا العجائز ، وكل من
خالف بعد ذلك من النساء تضرب ، وتربط من
شعرها بذهب اكديش ، ويطاف بها فى القاهرة ،
فحصل للنساء بسبب ذلك غاية الضرر .

ثم بعد ذلك بأيام ، اتفق أن قاضى العسكر طلع
الى القلعة ، فوجد نسوة يتحدثن مع جماعة من
الاصباهية فى وسط السوق ، فعز ذلك عليه ، فلما
طلع الى القلعة قال لملك الأمراء ان نساء مصر
أفسدت عسكر الخنكار ، ولا بقوا ينفعون لقتال
قط . وقص عليه قصة النسوة مع الاصباهية ،
فتغير خاطر ملك الأمراء على النساء قاطبة ، ورسم
للوالى بأن لا امرأة تخرج من بيتها مطلقا ،
ولا تتركب على حمار مكارى مطلقا ، وكل مكارى

أركب امرأة شتى من يومه من غير معاودة فى
ذلك .

ثم فى عقيب ذلك اليوم رأوا امرأة راكبة مع
مكارى فى طريق الصحراء ، فأنزلوها عن الحمار ،
وهرب الحمار ، فضربوها وقطعوا أزارها ، فما
خلصت الا بعد جهد كبير ، وغرمت نحو أشرفين .

فلما استمر ذلك الأمر باعت المكارية حميرها
قاطبة ، واشتروا عوضها أكاديش ، وشدوها
بنصف رحل ، وصارت النساء يركبن عليها
بسجادة ، والمكارى قائد لجام الاكديش . واستمروا
على ذلك ، وبطل أمر الحمير المكارية من القاهرة .

وركبت الخوندات والنسات على الأكاديش على
طريقة أهل اسطنبول ، وفيهم من ركب على بغل .
ويقرب من هذه الواقعة ما وقع فى أيام الأشرف
برسباى ، أنه منع النساء من الخروج الى الأسواق
مطلقا . وكان الطعن بمصر عمالا ، وكانت الغاسلة
إذا خرجت الى ميتة لتغسلها ، تأخذ من المحتسب
ورقة وتغرزها فى أزارها حتى يعلم أنها غاسلة ،
فاستمروا على ذلك مدة يسيرة . ثم فى عقيب ذلك
مرض الأشرف برسباى ، ومات بعد ذلك ، وأعيد
كل شيء على ما كان عليه .

وفيه نزل القاضى بركات بن موسى المحتسب
من القلعة بعد العصر ، وناذى بأن الأشرفى الذهب
السليمانى يصرف من الفضة الجديدة بخمسة
وعشرين نصفا ، والأشرفى الذهب السليم شاهى
والغورى يصرف من الفضة الجديدة بخمسة عشر
نصفا ، وإن الفلوس الجدد كل أربع جدد بدرهم .

ثم ان المحتسب سعر سائر البضائع على ما كانت
عليه فى أيام يشبك الجمالى المحتسب . فلما نودى
بذلك ارتجت القاهرة بسبب أمر المعاملة فى الذهب

والفضة ، وحصل للناس غاية الضرر ، وخسروا أموالهم ، ولا سيما التجار ، فغلقت أسواق البلد والدكاكين قاطبة ، وتعطل الناس من البيع والشراء لأجل ابطال المعاملة ، وصرف النصف الفضة بنصفين وربيع .

وفي يوم الأحد عشريه ، نودى في القاهرة : « كل شيء على حكمه كما كان أولا في صرف الذهب والفضة والفلوس الجدد كل اثنين بدرهم على ما كانت عليه أولا » فسكن الاضطراب قليلا .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشريه ، نزل ملك الأمراء وتوجه نحو قصر ابن العيني الذي في المنشية ، وكشف على المراكب التي أنشأها هناك ، واسنجل الصناع في سرعة العمل .

وفي يوم الجمعة خامس عشريه ، طلع ابن أبي الرداد ببشارة النيل ، وأخذ القاعدة ، فجاءت سبعة أذرع وعشر أصابع ، وذلك أرجح من العام الماضي .

وفي أواخر هذا الشهر ، قدم قاصد من البحر من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، وعلى يده مرسوم شريف ، فكان من مضمونه أنه أرسل الى ملك الأمراء خاير بك يطلب منه عسكرا من الأمراء الجراكسة ، فعين الأمير قايتباي الرضائي الدوادار الكبير بأن يكون باش العسكر ، ثم رسم له بأن يطلب الأمراء الجراكسة الى بيته ، ويعين منهم من يختاره ، فعرضهم عنده ، وكتب منهم جماعة نحو ثلاثة وأربعين أميرا ، منهم أمراء طبلخانات ، وأمراء عشراوات ، بسبب غزاة رودس ، وأن السلطان سليمان قد جهز الى أهل رودس ستمائة مركب ، وشحنها بالسلاح والمقاتلين ، وخرج الى الغزاة الرومية في البحر المالح .

وفي يوم السبت سادس عشريه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وجلس فيه ، وعرض جماعة من الكمالية وكتب منهم أربعمئة انسان ، وعرض طائفة الانكشارية وكتب منهم نحو مائة انسان .

وفي يوم الأحد سابع عشريه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان وجلس به ، وعرض المماليك الجراكسة وكتب منهم نحو خمسمائة مملوك ، وقيل ثمانمئة وكان الأمير قايتباي الدوادار باش العسكر هو الذي يعين ويكتب منهم من يختاره . فلما تكامل عرض المماليك الجراكسة والاصباهية والانكشارية والكمالية كان مجموع ذلك ألفا وخمسمائة انسان .

ثم في يوم الاثنين ثامن عشريه ، أنفق ملك الأمراء على الجراكسة جامكية أربعة أشهر ، كانت لهم منكسرة في الديوان ، ولم يعطهم زيادة على ذلك .

ثم ان ملك الأمراء عين الأمير قايتباي الدوادار باشا على الأمراء والمماليك الجراكسة فقط .

ثم ان ملك الأمراء جهز صحبة الأمير جانم الحمزاوى بقسماطا وجبن حالوم وبصلا وعسلا أسود . فجهز ذلك في المراكب برسم العسكر يفرق عليهم بطول الطريق ، وقيل أرسل صحبته أربعين ألف دينار بسبب جوامك العسكر .

ومن الحوادث الشنيعة ، ما وقع في أواخر هذا الشهر ، وذلك أن ملك الأمراء رسم للوالى بأن يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة لأجل المراكب حتى يقدفوا فيها بالعساكر ، فنزل الوالى وأطلق في الناس النار وشرع يقبض على كل من رآه في الرمييلة وفي الطريق من الغلمان والفلاحين ، وكل من قبض عليه وضعه في الحديد وأرسله الى السجن ، الى أن يخرج العسكر ، فصار يقبض على جماعة من السوفة والعييد السود

ثم تدرج جماعة الوالى حتى صاروا يقبضون على جماعة من التجار والفقهاء وغير ذلك ، فصاروا يشترون أنفسهم من جماعة الوالى بمبلغ له صورة ، حتى تحصل مع الجالية مال له صورة من الناس . ثم صار الوالى يركب ويكبس على ساحل بولاق ومصر العتيقة ، ويقبض على النواتية والفلاحين ، فهرب الناس قاطبة من السواحل .

ثم رسم ملك الأمراء لكاشف الجيزة وغيره ، أن يقبضوا على جماعة من الفلاحين من قلقشندة وقلوب وسبك الثلاث ، ومن شبرى والمنيه وغير ذلك من الضياع ، فصار الفلاحون يحتفون فى المطامير ، وكادت مصر أن تحرب فى هذه الحركة عن آخرها . فقليل مجموع الدين قبضوا عليهم نحو ألفى انسان ، وفيل أكثر من ذلك ، وحصل للناس غاية الضرر . وقيل مات فى سجن الديلم جماعة كثيرة ممن قبض عليه ، ماتوا من الجوع ، وشدة الحر ، والوخم ، ونزل على أهل مصر نازلة عظيمة بسبب ذلك لم يسمع بمثلها قط ، انتهى ما أوردناه من حوادث شهر رجب . وكان كثير الحوادث . فوقع فيه أمور غريبة ، ونوادير عجيبة ، والأمر لله .

واستهل شهر شعبان يوم الأربعاء ، فلم يطلع أحد من القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فانهم استمروا فى العزل المقدم ذكره ، وصار قاضى العسكر هو المتكلم على المذاهب الأربعة .

ووقع فى هذا الشهر من الحوادث أن الأخبار قد قدمت من الصعيد بأن القاضى فخر الدين ابن عوض لما توجه ليمسح جهات الصعيد دخل سائر الرزق الأحباسية قاطبة فى المساحة التى بالمكاتب الشرعية والمربعات والمناشير ، وقال لأصحابها من

أراد الافراج عن رزقته يقف الى ملك الأمراء ويحضر مرسومه بالافراج عن رزقته .

ثم انه منع الملاحين من اعطاء حراج الرزق حتى يحضروا بالافراجات من عند ملك الأمراء . فاضطربت أحوال الناس ، وتكدوا غايه النكد ، وصار كل من وقف الى ملك الأمراء بسبب رزقته ، وأحضر مكتوبه أو مربعتة يأخذ منه المكتوب أو المربعة ، ويقول له : امض الى حال سبيلك ، فان الرزق قاطبة دخلت الذخيرة ، فيرجع وهو فى عاية القهر .

(أقول) ان الرزق الأحباسية ما تعرض لها أحد من سلاطين مصر ، ولا أخرج منها شيئا عن أصحابها ولا ضيقوا عليهم بسبب ذلك .

وقيل ان الامام الليث بن سعد رضى الله عنه ، هو الذى دون ديوان الأحباس فى أيامه ، وأفرد للرزق الأحباسية ديوانا يختص بها دون ديوان الجيش ، واستمر ذلك باقيا من بعد الامام الليث الى الآن ، حتى جاء فخر الدين بن عوض ، فنقض ذلك الأمر الذى كان على جهات البر والصدقات ، وأبطل أمر الرزق الأحباسية وأدخلها الذخيرة ، وأبطل ما كان صنعه الامام الليث بن سعد رضى الله عنه .

وفى يوم الاثنين سادس الشهر ، خرج الأمير قايتباى الرمضانى الدوادار وتوجه الى السفر بسبب غزاة رودس ، فخرج صحبته الأمراء والعسكر قاطبة ، وخرج صحبته الأمير جانم الحنزاوى مشير المملكة ، وخرج الرئيس حامد القبطان رئيس المراكب ، وصحبته العسكر العثمانى الذى تعين من الأصباهية والانكشارية والكميلية ، وخرج العسكر من الممالك الجراكسة ، فكان معه من الأمراء الجراكسة نحو ثلاثة وأربعين أميرا ما بين أمراء طبلخانات وعشراوات . فلما طلع الى القلعة

خلع عليه ملك الأمراء قفطان حرير مذهب ، وخلع على الرئيس حامد القبطان قفطانا أيضا ، فخرج الأمير قايتباي من الميدان وعلى رأسه صنجق حرير أحمر ، وخرج ملك الأمراء من الميدان صحبته ليودعه ، وخرج صحبته قاضي العسكر ، والأمراء العثمانية قاطبة ، فشق من القاهرة في موكب حافل وليس قدومه جنائب ، وخلعه طبلا ورمرا عثمانيه ونزل وشق من القاهرة الى بولاق ، وكان يوما مشهودا .

ثم عاد ملك الأمراء الى القلعة ، وحصل لأهل مصر بسبب خروج التجريده عاية الضرر .

وفي يوم الثلاثاء سابع الشهر ، أرسل ملك الأمراء يستعجل الأمير قايتباي الدوادار في سرعة التوجه الى رودس ، والنزول في المراكب ، ثم بودي في القاهرة بأن العسكر المعين للسفر يخرج في بقية ذلك اليوم ، وكل من تأخر عن الخروج في بقية هذا اليوم شق من غير معاودة ، فخرج المماليك المعينون للسفر قاطبة .

ومن الحوادث أن شخصا من نواب الحنفية يقال له شمس الدين محمد المناوي الحنفى ، شهد شهادة حقا بين شخصين في تمارى بينهما بسبب دين ، فلما بلغ قاضى العسكر ذلك أرسل خلف القاضى شمس الدين محمد المناوي انكشاريين ، فلما حضر بهدله وهم يضربه ، وقال له : أنا ما منعكم أن تشهدوا على أحد من الناس الا في المدرسة الصالحية . ثم أرسله الى السجن ، فشق ذلك على القضاة والنواب ، فاضطربت القاهرة بسببه ، ثم شفع فيه عند قاضى العسكر القاضى شهاب الدين ابن شيرين الحنفى ، فأطلقه من السجن في يومه هو والعجاوي ، وقد حصل لأهل مصر من قاضى العسكر غاية الضرر للرجال والنساء .

ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهال ولا من المجانين ، وتزايد حكمه بالجور بين الناس ، وقد ضيق عليهم غاية الضيق ثم تكلم الناس مع قاضى العسكر في أمر النساء ألا يمنعوا من طلوع الترب ، ودخول الحمام ، وزيارة الأقارب ، فأذن لهن في ذلك ، وأن المرأة لا تخرج الى الطريق الا مع زوجها ، وألا يدخل الأسواق غير العجائز فقط ، فسمح لهن قاضى العسكر ، وأن النساء لا يركبن الا الخيول والبغال دائما . فاستمروا على ذلك .

وقد فتك قاضى العسكر بالناس في هذه الأيام فتكا ذريعا ، وقد جمع بين فبح الشكل والفعل ، فانه كان أعور بفرد عين بلحية بيضاء ، وقد طعن في السن ، وكان قليل الرسمال في العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى شيئا في الأحكام الشرعية ، وقدمت اليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشيء ، وقد هجأه الناس هجوا فاحشا في مدة اقامته بمصر ، وقالوا فيه عدة مقاطيع . فمن جملة ذلك بعض كلام الشهود فيه وهو قوله :

رأينا شيخا أعورا قبل موتنا
أتى من بلاد الروم يقطع رزقنا
يقدم قانونا على شرع أحمد
فنسأل رب العرش يكشف كربنا
وقلت أنا :

رأيتك لا ترى الا بعين
وعينك لا ترى الا قليلا
فان تك قد أصبت بفرد عين
فخذ من عينك الأخرى كفيلا
وقد أيقنت أنك عن قريب
اذن بالكف تلتمس السبيلا

وفي يوم الجمعة عاشر الشهر قدم الأمير شيخ الذي كان توجه الى اسطنبول في بعض أشغال ملك الأمراء ، فلما حضر أخبر بأن السلطان سليمان جهز عدة مراكب مشحونة بالسلاح والمقاتلين ، وجهز عساكر كبيرة بسبب غزاة رودس ، وخرج بنفسه ، وذلك في خامس عشر رجب على ما أشيع بين الناس ، وأرسل على يده مراسيم شريفة ، تتضمن أن السلطان سليمان قد فوض أمر مملكة مصر الى ملك الأمراء خاير بك ، يعزل من يختار ، ويولى من يختار ، والمرجع في ذلك اليه ، فيما يراه من المصلحة .

وفي يوم السبت حادى عشره ، نودى في القاهرة بأن الأمير والى الجلبى العثمانى الذى حضر من اسطنبول ، قد استقر ناظرا على سائر الأوقاف قاطبة ، فلا يعصى عليه أحد من الناس . فتجددت مظلمة أخرى .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره كانت ليلة النصف من شعبان ، فنزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى المقياس ، وأقرأ هناك ختمة ، ومد هناك مدة حافلة ، ورسم بقراءة عدة ختمات في تلك الليلة : في الجامع الأزهر ، ومقام الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، وغير ذلك في أماكن متفرقة .

وفي يوم الخميس سادس عشره ، خلع ملك الأمراء على القاضى بركات بن موسى المحتسب ققطانا محملا مذهباً ، وفززه في التحدث على جهات الشرقية قاطبة ، من المطرية الى دمياط ، وقد التزم في كل سنة بأربعمائة ألف دينار يقوم بذلك على ثلاثة أقساط ، فنزل من القلعة في موكب حافل ، ومشاعلية قدامه ، تنادى أن القاضى بركات ابن موسى ناظر الذخيرة الشريفة ، متحدث على

الشرقية قاطبة ، فلا يحتسب عليه أحد من الناس ، ولا يشتكى أحد من الشرقية الا من بابه ، فتزايدت عظمة القاضى بركات بن موسى الى الغاية .

وفي يوم الأحد سادس عشره ، خرج قاضى العسكر بقصد التوجه الى مكة المشرفة من البحر المالح ، فلما خرج نزل ملك الأمراء وركب سحبه ، وكذلك خير الدين نائب القلعة ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، فودعوه من عند تربة العادلى ورجعوا ، فلما خرج قاضى العسكر من مصر أراح الله تعالى المسلمين منه ، فما حصل منه لأهل مصر خير . فعزلت القضاة الأربعة بسببه ، وأخرج عنهم الأنظار ، ومنع الشهود من الجلوس في المجالس قاطبة ، واستمرت دكاكينهم مغلقة ، ومنع نواب القضاة الأربعة من الأحكام الشرعية ، ولم يبق منهم غير من تقدم ذكرهم ، وضيق على الناس في أمر عقود الأنكحة ، وقرر عليهم ما تقدم ذكره من المبلغ ، وصار لا يعقد عقد الا في المدرسة الصالحية ، وضيق على النساء بما تقدم ذكره من الخروج الى الأسواق ، ومن ركوب الحمير ، فلما خرج من مصر صفقت النساء ، ورقصت . وضيق على أهل مصر في أمور كثيرة بطول شرحها .

ولما خرج قاضى العسكر توجه الى نحو الطور ، ف قيل ان ملك الأمراء أنعم عليه بعشرة آلاف دينار غير المغل الذى أرسله اليه لما قدم من اسطنبول .

ولما توجه قاضى العسكر الى الحجاز ، أشيع أن السلطان سليمان أرسل أربعين ألف دينار على يد شخص من العثمانية بسبب عمارة العين التى بمكة المشرفة ، لما تعطلت ، وهى التى بالحرم ، وعمارة المنارة التى بالحرم النبوى .

ولما خرج قاضي العسكر خرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباكية ومن أهل مصر ، وخرجت صحبته زوجة الأمير سنان في محفة . فلما سافر قاضي العسكر جعل القاضي صالح العثماني الحنفى نائبا عنه بحكم في المدرسة الصالحية الى أن يحضر من السفر من الحجاز .

وكان قاضي العسكر قبل أن يسافر ولى ستة وعشرين نائبا من نواب القضاة الأربعة ، وجعل مهم من هو في بولاق ، وفي مصر العتيقة ، وفي نجاع طولون ، وفي الحسينية ، وغير ذلك من الأماكن . وجعل في كل مجلس أربعة نواب يقضون بغير الناس بالحق . وجعل على كل مجلس شيئا معلوما ، وعليهم شوايش من العثمانية يضبط من يحصل في كل يوم من أجرة أشغال الناس ، فقسم للقاضي من ذلك المتحصل شيئا وللشهود شيئا وله شيء ، ثم يأخذ الباقي ويضعه في صندوق يرسم السلطان سليمان يودع بيت المال .

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع لقاضي القضاة الحنفى على بن ياسين الطرابلسي بسبب وقف الحواجا شهاب الدين أحمد بن صالح السكندري ، وذلك أنه طلع قاضي القضاة الحنفى الى ملك الأمراء ، فلما رآه مقبلا من بعد قال ابش طلع هذا الثقيل بعمل ؟ فلما جلس وأخرج مکتوب الوقف الذي زوروه ، وثبت عليه ، انتبذ له جماعة من القضاة ، وحضر أبو الفتح الوفائي المالكي الذي بحكم لابن الحواجا شهاب الدين السكندري ، وحضر ذلك المجلس القاضي صالح العثماني نائب قاضي العسكر . ولما أخرج قاضي القضاة الحنفى المکتوب الذي صنعوه ، دفعه ملك الأمراء الى القاضي صالح العثماني ، وقال له : انظر في هذا المکتوب ، فلما قرأه قال هذا الحكم الذي حكم

به قاضي القضاة الحنفى باطل لا تجوز قراءته ، فحصل لقاضي القضاة في ذلك المجلس غاية البهدة ، وأسمعتهم الفقهاء الكلام المنكى ، وانتصف عليه أبو الفتح في ذلك الحكم الذي حكمه ، فقام قاضي القضاة من ذلك المجلس وهو يتعثر في أذياله مما قاسى من البهدة من ملك الأمراء ومن القضاة صالح وغيره . وكان قاضي القضاة الحنفى غير محب للناس ، وكان عنده صعصعة وجنون ، وسوء تدبير ويس طباع ، مع وهج وخفة زائدة ، مع عبوسة وجهه وشناعة زائدة ، وقد قلت فيه :

رب قاض قد اعتراه جنون
شأنه الوهيج ما لديه سكون
لم يقده علمه اذا ضل شيئا
فهو فينا معلم مجنون
وقولى أيضا :

كم ضاع للنعمان من مذهب
في عصرنا لما تولى فلان
تبا له من حاكم أهوج
أحكامه مشهورة بالجنان

وفي يوم الأربعاء سلخ شهر شعبان ، كانت ليلة رؤية هلال رمضان ، فلم يخضر من قضاة القضاة أحد الى المدرسة الصالحية على جارى العادة ، فانهم كانوا منفصلين عن القضاة ، فحضر بعض نواب القضاة ، منهم شمس الدين المجولى ، وشهاب الدين أحمد بن شيرين الحنفى ، وفتح الدين الوفائي المالكي ، ونظام الدين الحلبي الحلبي ، وحضر القاضي بركات بن موسى المحتسب .

فلما رأى الهلال ركب من هناك القاضي بركات المحتسب ، وشق من بين القصرين في موكب حافل ،

وقد امة عدة فوائس ومشاعل على جارى العادة
فى كل سنة .

فلما كانت ليلة الخميس أهل شهر رمضان ، فلم
يطلع من قضاة القضاة أحد للتهنئة بالشهر ، وكان
الناس فى غاية الاضطراب بسبب المعاملة ، فان
الدينار السلیمانى يصرف بخمسة وأربعين نصفاً
من الفضة القديمة حساباً عن كل نصف بنصفين
وربع من الفضة الجديدة ، فوقف الحال بسبب
ذلك ، ولا سيما حال الفلاحين فى البلاد ، فان
العمال يحاسبونهم فى الدينار عند القبض بنصفين
وربع من الفضة الجديدة ، ويفيمونه عليهم وقت
الحساب بنصف واحد ، فخرّب غالب البلاد بسبب
هذه المعاملة وغير ذلك . وكانت أحوال الناس
فى غاية الاضطراب بسبب الرزق الأعباسية التى
أدخلها فخر الدين بن عوض فى ديوان السلطان ،
وصار ملك الأمراء كل من طلع له بمكتوبه أو
مربعته ، يأخذ ذلك منه ، ويقول له هذا دخل
ديوان السلطان . فحصل للناس غاية الضرر من
كل وجه .

ومن الحوادث أن ملك الأمراء طلب التجار
قاطبة ، وكتب عليهم قسائم ألا يتعاملوا إلا
بالذراع العثمانى فى البيع والشراء ، وأبطل الذراع
القديم الهاشمى ، وكتب القسائم على التجار
بذلك ، وهو يزيد عن الذراع القديم نحو ربع
ذراع .

واستهل رمضان وقضاة القضاة الأربعة منفصلون
عن القضاء ، والمباشرون فى الترسيم بالقلعة من
حين جرى عليهم ما جرى .

وفى يوم الخميس ثامنه مع ليلة الجمعة ، رأى
الناس كوكبا عظيما جاء من نحو الغرب ، وخلفه

شرار كمثل عمود النار ، فاستمر ماشيا فى السماء
الى نحو الشرق فاختفى ، وهذا شاع خبره بين
الناس لما طلع النهار .

وفى يوم الأربعاء رابع عشر شهر رمضان كان
وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك ثالث عشر مسرى .
وفتح السد فى يوم الخميس خامس عشر
رمضان ، الموافق لرباع عشر مسرى ، فأوفى الله
السته عشر ذراعا وزاد ثلاث أصابع من الذراع
السابع عشر . فلما أوفى نزل ملك الأمراء من
القلعة وتوجه الى المقياس ، وخاق العمود ، ونزل
فى الحراقة وصحبته الأمراء العثمانية ، ففتح السد
الذى عند رأس المنشية ، ثم ركب من هناك وتوجه
الى ففتح السد الثانى الذى عند قنطرة السد ،
وكان ذلك اليوم مشهودا . وكان ذلك آخر فتح
ملك الأمراء للسد ، ومات بعد ذلك بشهرين ، وفى
ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه :

خليج السد يوم الكسر جبر

بماء للعيون يرى بهيجا

وهذا اليوم يوم الجبر فاسرع

بنا قطعاً نرى هذا الخليج

وفيه قدم أولاق من البحر المالح وأخبر عن
السلطان سليمان أنه فى المحاصرة مع الفرنج ،
وكثر القال والقيال بين الناس بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن سوار قد قتل ،
وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان سليمان بن عثمان
أن ابن سوار قد التف على شاه اسماعيل الصفوى
وصار يكاتبه فى الدس ، فندب اليه الأمير فرحات
الذى كان توجه الى جان بردى الغزالى نائب
الشام ، فتوجه الى ابن سوار وأظهر أنه يقصده

ازدحم عليه الناس ليروا المهدي ، وكان ذلك اليوم مشهودا بسبب الفرجة عليه لما شق من القاهرة . فاستمر على اكتاف الشيخ حسن حتى توجه به الى المدرسة المؤيدة ، ثم بدا لملك الأمراء أن يرسل المهدي الى بيت الوالي ، فقبضوا عليه وتوجهوا به الى بيت الوالي ، فاستمر به مدة ثم شفع فيه .

وفي يوم الأربعاء حادي عشره ، قبض ملك الأمراء على يوسف بن أبي الفرج بن الجاكية ، وسلمه الى القاضي بركات بن موسى ليقيم حسابه مما دخل عليه من المال بسبب الرزق ، ولما نزل الى بيت المحتسب هم أن يعريه ويضربه بالمقارع ، وقال له أقم حسابك من حين قررت في هذه الوظيفة ، فقل انه أورد سبعمائة دينار ، فقال له القاضي المحتسب : جلبت الدعاء على ملك الأمراء لأجل هذا القدر الهين ... لا جزاك الله خيرا !

وفي يوم الجمعة ثالث عشره ، نزل ملك الأمراء وتوجه الى نحو الجامع الأزهر ليصلي هناك صلاة الجمعة ، وكان صحبته الأمراء العثمانية الذين بمصر ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، منهم الأمير أرزمك الناشف . فلما انقضى أمر صلاة الجمعة ، وفصد أن يركب ، وقف اليه رضى الدين بن الدهانة وجماعة من الفقهاء وقالوا له : يا ملك الأمراء انظر في أحوال الرعية . فقال : نعم ، وركب بسرعة ، وخرج من باب الجامع ، وتوجه الى القلعة .

وقيل ان ملك الأمراء تصدق في ذلك اليوم على مجاوري الجامع الأزهر بخمسمائة دينار ، وكان الذى تولى أمر الصدقة في ذلك اليوم شهاب الدين المحلى امام أمير آخور كبير ، فما لاقى في ذلك

التوجه الى ديار بكر بسبب عسكر الصفوى ، فأضافه ابن سوار وركن اليه ، فلما جلس معه على مجلس الشراب فى نفر قليل من أصحابه ، وثب على ابن سوار جماعة من العثمانية من حاشية الأمير فرحات ، فقتلوا ابن سوار وهو على سفرة الشراب على حين غفلة ، ولم يشعر به أحد من عسكره . ولما أشيع قتله اضطربت أحوال السوارية بقتله . وقيل ان فرحات قتل بعد ذلك ثلاثة من أولاد ابن سوار ، وقتل جماعة من أمرائه ، ثم مضى عنهم ، وقد تمت حيلته على ابن سوار حتى قتله

ومن الحوادث أنه حضر الى القاهرة شخص قيل ان أصله من الشرق ، وقيل كان بمكة ، وأقام بها مدة ، فلما حضر ادعى أنه المهدي ، فلما طلع الى ملك الأمراء وقال له أنا المهدي ، وكان حاضرا فى ذلك المجلس القاضى شهاب الدين أحمد بن شيرين ، فسأله عن مسائل فى العلم فلم يجبه بشيء . وكانت صفته أنه شيخ طاعن فى السن ، قصير القامة جدا ، ولم يكن فيه من علامات المهدي شيء ، فلما أغلظ على ملك الأمراء فى الكلام ، رسم بالقبض عليه ، وأن يتوجهوا به الى المارستان ، ويضعوه فى الحديد ، ويسجنوه عند المجانين ، فقبضوا عليه وتوجهوا به الى نحو المارستان ، فكشفوا عن رأسه ، ووضعوه فى الحديد ، فلما بلغ الشيخ ابراهيم الذى فى الجامع المؤيدى ، والشيخ حسن العثمانى ، طلعا الى ملك الأمراء وشفعا فيه ، فرسم ملك الأمراء باطلاقه من المارستان . فأتى اليه الشيخ حسن العثمانى وحمله على اكتافه وأخرجه من المارستان ، وكان هذا الرجل معظما عند العثمانية ، وفى خدمته جماعة كثيرة من الأعجام نحو خمسين انسانا ، فلما خرج من المارستان

اليوم خيرا بسبب تفرقة الصدقة ، وحصل له غاية البهدة من الناس .

وفي يوم السبت رابع عشره ، نودى في القاهرة عن لسان ملك الأمراء ، بأن جميع القضاة والشهود يحضرون بدفاترهم الى المدرسة الصالحية ، ويسلمون ذلك الى القاضى صالح نائب قاضى العسكر ، فلم يوافق أحد من الناس على ذلك وأبطلوا هذا الأمر .

وفيه أشيع أن العربان قطعوا جسر الحلفاية ، فنقص البحر في تلك الليلة ثمانى أصابع ، وكان في قوة الزيادة ، فاضطربت أحوال الناس .

ثم في يوم الخميس زاد الله في النيل المبارك اصبعين من النقص ، فسكن ذلك الاضطراب ، واستمرت الزيادة عمالة الى بابه .

وفي شهر شوال ، وكان مستهله يوم السبت ، وهو عيد الفطر ، فكان أكثر العساكر مسافرا في غزوة رودس ، وكذلك الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من الأمراء ، فلما صلى ملك الأمراء صلاة العيد مدة حافلة ، وكانت الاصباهية والانكشارية تتخاطفها ، وكان هذا العيد خامدا .

وفي يوم الأحد ثانيه حضر أولاق من البحر وعلى يده كتاب من عند الأمير جانم الحمزاوى الى ملك الأمراء ، فقرأ بحضرة القاضى شهاب الدين بن شيرين ، فكان من مضمونه أن الأمير قايتباى الدوادار ، ومن معه من العساكر والأمراء والمماليك الجراكسة قد وصلوا الى رودس في ثالث عشر رمضان ، فوجدوا السلطان سليمان في جزيرة تجاه رودس ، فأقاموا ثلاثة أيام لم يجتمعوا بالسلطان . ثم في اليوم الثالث أوكب السلطان

سليمان وجلس للعسكر جلوساعاما في ذلك اليوم . فلما نظر الأمير قايتباى الدوادار عظمه وأكرمه ، وكذلك الأمراء الذين صحبته ، ووقف المماليك الجراكسة قدامه نشكرهم ، وأننى عليهم . وقيل ان السلطان سليمان استقل عتق والمده سليم شاه الذى قتل المماليك الجراكسة وقال : مثل هذه المماليك كانت تقتل ؟ ؟

وقيل انه أنزل العسكر المصرى وطاقه عنده الوزير الأعظم . وأخبر الأمير جانم في كتابه أنه الى الآن لم يقع بين السلطان وبين أهل رودس قتال ، وأنه مقيم بجزيرة تجاه رودس ، والميعاد بعد العيد .

وفي يوم الاثنين ثالث الشهر ، قدم الخواج ابن عبد الله من اسطنبول ، فنزل اليه ملك الأمراء ولما لقيه من عند تربة العادلى ، وخلع عليه قفطان حرير . فلما حضر ابن عبد الله أشيع أن السلطان قرره ناظرا على الأوقاف قاطبة ، وأنه يكشف على سائر الأوقاف والجوامع والمدارس قاطبة ، فيعزل من يشاء ، ويبقى من يشاء . وأشيع عنه أنه يخرج الوظائف عن الفقهاء ، ولا يبقى بيد فقيه وظيفتين في التصرف ، وأن يقرر الوظائف لجماعة آفاقية من الأروام . فلما أشيع ذلك اضطربت أحوال فقهاء مصر .

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن الأمير فرحات نائب الشام قبض على جماعة من التجار أتوا من بلاد الشام اسماعيل الصفوى ، وزعم أنهم جواسيس من عند الصفوى ، فلما قبض عليهم ، أخذ جميع ما معهم من الأموال والبضائع والأصناف التى أتوا بها ، ثم ضرب أعناقهم أجمعين ، وربما يشور من هذه الواقعة فتنة عظيمة بين العثمانية والصفوى .

ومن الحوادث الشنيعة أن جماعة من النصارى كانوا يسكرون في بيت عند جامع المقسى على الخليج ، فلما فوى عليهم السكر ، تزايد منهم الضجيج والتجاهر بالسكر ، وكان في جامع المقسى ابن الشيخ محمد بن عنان مقيما به ، فشغل عليه أمرهم ، فأرسل اليهم من ينهاتهم عن ذلك ، فأغلظ عليهم في القول ، وقال لهم : أما تستحون من الشيخ ابن عنان ؟ فسبوا الشيخ ابن عنان سبا فييحا ، فطلع الشيخ الى ملك الأمراء وشكا من النصارى ، فأرسل ملك الأمراء بالقبض على النصارى ، فهربوا وقبضوا على واحد منهم ، فرسم ملك الأمراء بحرقه ، فلما رأى النصارى عين الجدد ، سلم خوفا من الحرق ، فألبسوه عمامة بيضاء . فلما جرى ذلك خاف بقية النصارى على أنفسهم ، واختفوا عند يوس النصارى حتى تخمد هذه الواقعة عنهم

وفي يوم الجمعة قدم قاصد من عند الأمير جانم الحمزاوى ، وأخبر أن العسكر يبرر للقتال مع عسكر الفرنج الدين برودس ، وأشيع انهم أشرفوا على أخذ السور الأول من مدينة رودس ، ولكن قتل في هذه المعركة من العساكر ما لا يحصى .

وفي يوم الجمعة المقدم ذكره ، كان يوم النوروز — وهو أول توت من الشهور القبطية ، وأول سنة ثمان وعشرين وتسعمائة خراجية — وكان النيل يومئذ في عشرين اصبعاً من ثمانية عشر ذراعاً ، وكان سائر المغل في غاية الرخص بعد ما كان السعر قد انشط لما توقف النيل عن الزيادة كما تقدم .

ومن الحوادث الشنيعة أن والى القاهرة شنق في يوم واحد أربعة عشر انساناً ، وخوزق منهم جماعة ، وعلقهم في أماكن متفرقة ، وكان أكثرهم حرامية وزغلية ومن عليه دم ، فأخرجهم الوالى في

السجن الى آخر شهر رمضان ، وأتلفهم في يوم واحد .

وفي ليلة السبت خامس عشره خسف جرم القمر خسوفا كاملاً حتى أظلم الجو وصار القمر كالفحمة السوداء ، فأقام في ذلك الحسوف نحو خمسين درجة ، وكان ذلك نصف الليل .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، خرج المحمل من القاهرة في تجميل عظيم ، وكان يوماً مشهوداً ، وكان أمير ركب المحمل الشريف الأمير جانم السيفى دولات باى الأتابكى ، وهذه ثالث سفرة الى الحجاز سافر بها الأمير جانم كاشف القبوم ، فشق من القاهرة في موكب حافل ، وطلب طلباً كأطلاب الأمراء المقدمى الألوفا ، وكان في موكبه ست عجلات ، وفي كل عجلة مكحلة بحاس برسم المدافع ، فان درب الحجاز كان في غابة الاضطراب بسبب فساد العربان ، ولم يركب قدام المحمل أحد من القضاة الأربعة غير قاضى المحمل شمس الدين محمد بن النقيب .

وأشيع أن كسوة الكعبة الشريفة أرسلها ملك الأمراء من البحر المالح ، وسبب ذلك فساد العربان . وكذلك المال أرسله السلطان سليمان ابن عثمان الى مكة والمدينة النبوية لأجل الصدقة على مجاورى الحرمين الشريفين صحبة قاضى العسكر لما توجه من البحر المالح خوفاً من العربان واضطراب درب الحجاز في هذه الأيام المشطة

وفي يوم الاثنين رابع عشره ، حضر قاصد من البحر ، وأخبر أن السلطان سليمان ابن عثمان في المحاصرة مع الفرنج الروادسة ، وأحضر كتاباً من عند الأمير جانم الحمزاوى ، يذكر فيه أن العسكر في انشحات زائد من الغلاء بسبب القمح والدقيق ، وقد عزت الأقوات هناك ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك ، نزل الى الشون التى بمصر العتيقة ، وأخرج

ثلاثين ألف أردب وخمسمائة حمل دقيق ، فاستمر ينزل الى الشون بسبب ذلك أربعة ايام متوالية ، حتى جهز في المراكب ثلاثين ألف أردب قمح ، وخمسمائة حمل دقيق ، وخمسمائة أردب أرز ، وقيل مثلها حمص وبسلة ، وقيل أرسل مع ذلك أشياء كثيرة من البصل وغير ذلك مما استحسنه ، فجهز ذلك بسرعة ، وأرسله من البحر الى السلطان والعسكر الذين هناك .

* * *

وفي شهر ذي القعدة ، وكان مستهله يوم الاثنين ، وكانت القضاة الأربعة منفصلين عن القضاء كما تقدم ، فلم يطلع منهم أحد للتهنئة بالشهر في ذلك اليوم .

وفي يوم الثلاثاء ثانيه عزل الأمير جان بك من كشف الشرقية ، واستقر بالأمير اينال السيفي طراباي .

وفي يوم الاثنين ثامنه توفت أصيل القلعية ، وكانت من أعيان مغاني البلد ، وكان لها انشاد لطيف ، وكانت بارعة في غناء الخفائف التي هي من فرح الزمان ، ورأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية الحظ والاحسان لها .

وفيه نودي في القاهرة بإبطال الفضة العتيقة من المعاملة قاطبة ، وأن الفضة الجديدة تصرف كل نصف بنصفين وربيع ، فازداد وقوف الحال على الناس ثانيا بإبطال الفضة العتيقة من المعاملة ، والفلوس الجدد كانت كل اثنين بدرهم ، فنادوا عليها كل واحد بدرهم ، فازداد الحال وقوفا ثالثا .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد مرض ولزم الفراش وتزايد به المرض من يومه وانقطع

عن المحاكمات . فلما قوى عليه المرض صار يتصدق على الأطفال الذين بمكاتب القاهرة قاطبة لكل صغير نصف فضة كبير ، بنصفين وربيع ، وصار أحد الخازنارية وابن الظريف المقري يدفع لكل صغير النصف في يده ، ويعطي الفقيه خمسة أنصافه كبار ، والعريف ثلاثة أنصاف كبار ، ويقولون لهم اقرءوا الفاتحة وادعوا بالشفاء والعافية لملك الأمراء .

وقد تكاثرت الأقوال بأن به ثلاثة أمراض ، منها فرخة جمرة طلعت له في مشعره ، ومنها حدار انصب له في جميع أعضائه ، وهو من أنواع الفالج ، ومنها كتم البول فصارت الحكماء تبيت عنده في كل ليلة وقد أعياهم أمره في هذا العارض الذي به ، وقيل انه مشغول من حين نزل الى الشون .

وفي هذا الشهر ثبت النيل المبارك على إحدى وعشرين اصبعاً من تسعة عشر ذراعاً ، وكان بيلا متوسطاً ، وكان في العام الماضي عشرين ذراعاً الا اصبعاً واحدة .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه ، أفرج ماك الأمراء عن القاضي شرف الدين الصغير كاتب الممالك ، وأفرج عن القاضي شرف الدين بن عوض ، وألبسهما ققطانين حرير مذهب ، وأركبهما فرسين من الاسطبل السلطاني ، ونزلا من القلعة في موكب حافل ، وشقاً من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهوداً ، فتخلقت عيالهما بالزعران ، فانهما خلصا من فم الموت ، وقد قاسيا شداً ومحناً وضرباً وبهدلة ، وسجناً في العرقانة ، وقد أقاما في هذه السدة نحو أربعة أشهر ، وقسا قلب ملك الأمراء عليهما . وقد قال في ذلك الناصري محمد بن قانصوه :

بالشرفى المقر أضحى

ديوان ذا الملك فى انضباط

لا زال فيه الى المعالى

بالسعد يرقى بلا انهباط

الحمد لله بكم عيننا

قوت بفرحة لنا فى السرور

لما خلصتم ونزلتم الى

منازل العز وزال الشرور

فلما نزل القاضى شرف الدين الصغير الى بيته
لم يقيم به الا ساعة يسيرة ثم ركب وتوجه الى تربة
الامام الشافعى رضى الله عنه ، فزاره ثم طلع الى
القلعة ثانيا هو والقاضى بركات بن موسى المحتسب ،
فاجتمعا على ملك الأمراء وتكلما معه على المقر
الشهابى أحمد بن الجيعان ، فان ملك الأمراء
توقف فى الافراج عنه ، وقد عول على شنقه على
باب زويلة ، فنجاه الله تعالى من كيده ، ولولا
اشتغال ملك الأمراء بنفسه لكان شق الشهابى
أحمد بن الجيعان لا محالة .

وفى يوم الخميس حادى عشره ، أشيع بين الناس
أن ملك الأمراء بطلت شقته ، وعجز عن القيام ،
وتزايد به ألم الفرخة الجمر ، واشتد عليه مخرج
البول والغائط من الورم من تلك الجمرة ، وهذا
العارض بعينه قد وقع للخنكار سليم شاه ابن
عثمان ومات به .

ثم ان قضاة القضاة الأربعة ركبوا وطلعوا الى
ملك الأمراء وعادوا وسلموا عليه ، فلم يع لهم ،
ولم يلتفت اليهم ، فقرءوا له الفاتحة ونزلوا الى
منازلهم .

فلما تكلم القاضى شرف الدين الصغير ، والقاضى
بركات المحتسب ، وقيل ساعدهما خير الدين نائب
القلعة ، فى أمر الشهابى أحمد بن الجيعان ، رسم
ملك الأمراء بالافراج عنه بعد جهد كبير ، وكان
ملك الأمراء على خطر ، وبانت عليه لوائح
الموت .

فلما تزايد الأمر بملك الأمراء أعتق جميع
جواريه وعبيده ومماليكه ، ثم انه دفع للقاضى
بركات بن موسى المحتسب ألف دينار فضة ، ورسم
ب عشرة آلاف اردب قمح من الشونة ، ورسم
للمحتسب بأن يفرق ذلك كله على مجاورى الجامع
الأزهر ، والمزارات والزوايا التى بالقراطين قاطبة ،
ومجاورى مقام الامام الشافعى والامام الليث
رضى الله عنهما ، ويفرق باقى ذلك على الفقراء
والمساكين ومن عليه دين ، ففرق ذلك كما رسم
له ملك الأمراء .

فلما أفرج عنه ألبسه قفطان حرير ، وأركبه على
فرس من الاصطبل السلطانى ، ونزل من القلعة ،
وشق من القاهرة فرجت له ، وانطلقت له النساء
من الطيقان بالزغاريت ، وارتفعت له الأصوات
من الناس بالدعاء . فان الشهابى أحمد كان محببا
للناس فشق من القاهرة بعد العصر ، فكان له
موكب حافل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فتوجه
الى منزله بعد ما قاسى شدايد ومحن ، وأوعد
بالشنق من ملك الأمراء ، فكفاه الله تعالى شره .
وفيه يقول الأديب ناصر الدين محمد بن قانصوه :

ثم انه رسم باخراج مراسيم للقاضى شرف الدين
ابن عوض بأن يفرج عن أصحاب الرزق الأجاسية
التي كان أدخلها الى الديوان السلطانى ، وكان
قدرها نحو ألف وثمانمائة رزقة ، فأفرج عنها
لأصحابها ، وأعاد مكاتيب الرزق الجيشية التي
كان أخرجها المفتش يوسف بن الجاكية الى

أصحابها ، ثم صار يقول للمباشرين الذين شوش عليهم : حاللونى وأبرئوا ذمتى . فحاللوه غصبا .

وفى يوم الجمعة ثانى عشره رسم باطلاف المحاييس رجالا ونساء ، فتوحه القاضى شرف الدين الصغير والقاضى المحتسب الى بيت الوالى ، وعرضوا من فى سجن الديلم والرحبة ، فطلعوا بالمحاييس فى زناجير مشاة وتوجهوا بهم الى بيت الوالى ، فلما عرضهم هناك ، صار القاضى شرف الدين الصغير والقاضى المحتسب يصالحون أصحاب الديون الذين عليهم من أربعين أشرفيا ونازل ، فيقولون لأصحاب الديون اتركوا لأجل ملك الأمراء الباقي . فصالحوا أرباب الديون بقدر يسير ، وفعلوا ذلك بجماعة كثيرة من أرباب الديون ، وفيهم جماعة من أعيان الناس .

وأطلقوا جماعة كثيرة من الضمان ، وجماعة من الفلاحين ، فقليل أطلقوا من سجن الرحبة أربعين انسانا ، وأطلقوا من سجن الديلم دون ذلك ، ولم يتركوا بالسجنين غير الحرامية ، ومن عليه دم .

ولم ير الناس فى أيام ملك الأمراء خاير بك أحسن من هذه الأيام ، فانه جاد مع الناس وبر الفقراء والمساكين ، ولم يعرف الله الا وهو تحت الحمل ، فلم يفده من ذلك شئ ، ويأبى الله الا ما أراد :

ويقرب من هذه الواقعة ما وقع للأشرف الغورى لما حصل له عارض فى عينيه ، فجاد على الناس الى الغاية ، وأفرج عن السجناء ، وعن جماعة من المباشرين ممن كان فى الترسيم بمال له صورة ، وكانت تلك الأيام خيار دولته على الاطلاق .

ويقرب من ذلك ما وقع للأشرف قايتباى لما وقع عن الفرس وانكسر فخذه ، وأقام منقطعا فى القاعة التى بجوار الدهيشة ، وجلس على سرير

مقور ، وصارت الناس تدخل عليه وتسلم عليه ، فجاد على الناس ، وأفرج عن جماعة كثيرة من المباشرين كانوا فى السجن ، وتصديق بمال له صورة على الفقراء والمساكين ، وفعل أشياء كثيرة من أنواع البر والصدقات ، وكانت تلك الأيام خيار دولته .

وغالب هؤلاء الملوك ما يعرفون الله الا وهم تحت الحمل ، اذا جرت عليهم مصيبة يجودون فى حق الناس ، ويفعلون الخير . .

وفى يوم السبت ثالث عشره ، أشيع أن ملك الأمراء قد نزل به النزاع ، وأنه أرسل خلف الأمير سنان بك العثمانى ، فلما طلع اليه وجده فى حال التلف ، فدفع اليه خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه له .

ثم انه قال له على قدر الأموال التى فى الخزان ، وقال الأموال ستمائة ألف دينار ذهب عين ، هذا خارج عما كان فى بيت المال من المال ، وخلف من الخيول والجمال والبغال والحمير ما لا ينحصر ، ومن الغلال والأغنام والأبقار أشياء كثيرة ومع وجود هذه الأموال التى تركها كان يكسر جوامك المماليك الجراكسة ستة أشهر لم يعطهم شيئا ، ويشتكى أن بيت المال مشحوت من المال .

وكان أصل ملك الأمراء من ممالك الأشرف قايتباى ، وهو جركسى الجنس أباضا ، وكان أبوه اسمه بلباى الجركسى ، ولهذا كان يدعى خاير بك بلباى ، وينسب الى الأشرف قايتباى .

ومات أيضا أخوه خضر بك ، وأما أخوه جان بلاط فانه بقى مقدم ألف ومات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى ، مات بالطاعون . وأما أخوه قانصوه فانه كان يعرف بقانصوه المسمى ، فارتقى حتى تولى نيابة الشام ، ومات فى دولة الأشرف الغورى .

وأما خاير بك فانه أقام بالطبقة وصار من جملة المماليك السلطانية ، فأخرج له السلطان خيلا وقماشاً وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بهى خاصكيا دودار سكين ، ثم بقى أمير عشرة في سنة احدى وتسعمائة في دولة الملك الناصر محمد ابن الأشرف قايتباي ، ثم بقى أمير طبلخانات في دولته أيضا ، وأرسله قاصدا الى الخنكار أبى يزيد ابن عثمان ملك الروم في سنة ثلاث وتسعمائة ، ثم بقى مقدم ألف في دولة الأشرف جان بلاط ، وخرج صحبة العسكر الى الشام . فلما حضر العادل الى مصر أرسل بالافراج عنه ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمه ألف كما كان . فلما تسلطن الأشرف الغورى ، جعله حاجب الحجاب ، واستمر على ذلك حتى توفى أخوه قانصوه المحمدي نائب الشام ، فنقل السلطان الأمير برسباي من نيابة حلب الى الشام عوضا عن قانصوه برج ، وخلع على الأمير خاير بك وقرره في نيابة حلب عوضا عن برسباي ، وذلك في سنة عشر وتسعمائة ، واستمر على ذلك حتى تحرك الخنكار سليم شاه ابن عثمان على السلطان الغورى . وانكسر ، وكان خاير بك سببا لكسرة الغورى .

فلما ملك سليم شاه الديار المصرية وجرى منه ما جرى ، وأراد التوجه الى بلاده ، خلع على يونس باشا وقرره نائبا على مصر ، ثم بدا له أن يقرر خاير بك نائب حلب على نيابة مصر عوضا عن يونس باشا ، فخلع عليه في يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ودفع اليه خاتم الملك ، فاستمر على نيابته بمصر الى أن مات في يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، فكانت مدة نيابته بمصر خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما ، بما فيها من مدة اقتطاعه عن المحاكمات ، وتوعك جسده .

وأما ماعد من مساويه ، فانه كان جبارا عنيدا سفاكا للدماء . قتل في مدة ولايته ما لا يحصى من الخلائق ، وشنق رجلا على عود خيار شنبر أخذه من جنينته ، وشنق من الناس ووسط وخوزق جماعة كثيرة ، واقترح لهم أشياء في عذابهم ، فكان يخوزقهم من أضلاعهم ، ويسميه شك الباذنجان ، فقتل بمصر وحلب فوق العشرة آلاف رجل ، وغالبهم راح ظلما .

ومنها أنه آتلف معاملة الديار المصرية من الذهب والفضة والفلوس الجدد ، وسلط ابراهيم اليهودي معلم دار الضرب على أخذ أموال المسلمين .

ومنها أنه قرب شخصا من النصارى يقال له يونس ، وجعله متحدثا على الدواوين ، وصار المسلمون يقفون في خدمته ويخضعون له .

ومنها أنه كان يكره النفهاء وطلبة العلم والعلماء وعزل القضاة الأربعة ونوابهم قاطبة ، ومنع الشهود أن يجلسوا في الحوانيت ويتقاضوا أشغال الناس .

ومنها أنه كان يكره المماليك الجراكسة ويعوق جوامكهم ستة أشهر ، ثم يصرف لهم شهرين بألف جهد .

ومنها أنه شوش على جماعة من أعيان المباشرين وضربهم وبهدلهم وعوفهم في الترسيم نحو خمسة أشهر ، ولا سيما ما جرى على الشهابى أحمد بن الجيعان ، فانه سلب نعمته ، وأخذ منه فوق السبعين ألف دينار ، حتى باع جميع أملاكه وقماشه ورزقه ، وبقى على الأرض

ومنها أنه ندب يوسف بن أبى الفرج وقرره في وظيفة يقال لها مفتش الرزق الجيشية ، فحصل للناس منه غاية الضرر الشامل .

ومنها أنه أرسل فخر الدين بن عوض الى بلاد الصعيد ، ومسح الرزق الأعباسية ، وأدخلها في

الديوان ولم يفرج عنها ، وحصل للناس بسبب ذلك غاية الضرر ، فقليل انه أخرج ألفا وثمانمائة رزقة ، منها ما كان على الزوايا والمساجد والترب وغير ذلك .

ومنها أنه كان سببا لخراب الديار المصرية ودخول سليم شاه الى مصر ، وحسن له عبارة أخذ مصر ، وضمن له أخذها من غير مانع ، وعرفه كيف يصنع حتى ملكها ، وجرى منه ما جرى ، وقتل الأمراء والمماليك الجراكسة ، وشنق السلطان طومان باي على باب زويلة ، وكل ذلك بترتيبه ودوليته .

وكان كثير الحيل والخداع والمكر ، وكان من دهاة العالم لا يعلم له حال . ولو ذكرت مساويه كلها لطال الشرح في ذلك ، وقد قلت فيه هذه الأبيات عن لسانه :

أصبحت بقاع حفرة مرتهنا
لا أملك من دنياي الا كفنا
يا من وسعت عباده رحمته
من بعض عبيدك المسيئين أنا

فلما تحقق الناس موت ملك الأمراء ارتجت القاهرة ، وأشيع أن التركمان ينهبون الأسواق ، فانتقل مكان الجسر من بركة الرطلى على لمح البصر ووزع الناس أمتعتهم في الحواصل .

ثم طلع الأمير سنان بك الى القلعة ، وحضر الأمير خير الدين بك نائب القلعة ، والأمير خضر بك ، والكواخى أغوات الانكشارية ، فلما اجتمعوا ضربوا مشورة في أمر المملكة ، وما يكون من أمر العثمانية ، فالتزم الأمير خير الدين نائب القلعة والكواخى بأمر الانكشارية ، والتزم الأمير سنان بك والأمير خضر بك بأمر الاصباكية وغير ذلك من

الكلمية ، ثم حضر الأمير أرزمك الناشف ، فآزموه بأمر المماليك الجراكسة وما يحصل منهم .
ثم ختم نائب القلعة والأمير سنان بك على الحواصل التي بالقلعة .

ثم ان الوالى والقاضى بركات المحتسب نزلا من القلعة وناديا في القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يغلق له بابا ولا دكانا ، والدعاء للسلطان سليمان بالنصر ، فارتفعت هذه الأصوات من الناس بالدعاء قاطبة ، فكرروا هذه المناداة يوم الأحد ويوم الاثنين .

وكان عند العثمانية عادة اذا مات صاحب المدينة ينهبون المدينة عن آخرها ، فمنعهم الأمراء التركمان من ذلك ، وقالوا لهم متى نهبتم المدينة تقتلكم عوام مصر ، ويحصل بينهم وبينكم فتنة عظيمة ، وتخرب مصر عن آخرها ، فسكن الاضطراب قليلا .

ثم في يوم الاثنين ، لما دفن خاير بك ، تحول الأمير سنان ، وطلع الى القلعة من يومه ، وسكن بها ، فوقع بين الأمير سنان والأمير خضر تشاجر بسبب النيابة ، فأظهر الأمير سنان مرسوما وعليه علامة السلطان سليمان ، بأنه اذا تولى ملك الأمراء خاير بك يكون عوضا عنه في نيابة مصر ، فوقع الاتفاق بينهما بأن يستقر بالقلعة ، ويكتب السلطان بموت خاير بك ، وينتظر الجواب بما تقتضيه الآراء الشريفة في ذلك .

ثم ان الأمير سنان عرض ما في بيت المال من المال ، فوجد خاير بك خلف من المال على ما قيل ستمائة ألف دينار ، خارجا عما كان في بيت المال .

ثم ان الأمير سنان بك خلع على القاضى شرف الدين الصغير واستقر به متحدثا على جهات الغريبة وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان ، وشرف

الدين بن عوض ، وجعلهما متحدتين على جهات الشرقية ، فامتنع الشهابي أحمد كل الامتناع من لبس القفطان وقال : أنا أصبحت رجلا فقيرا لا أملك من الدنيا شيئا ، وأنا ما بقيت أباشر شيئا فأرسلوني الى اسطنبول أو الى مكة المشرفة . ورد على الأمير سنان ذلك القفطان .

وخلع على القاضي بركات المحتسب ، وجعله متحدثا على جميع جهات الشرقية من دمياط الى المطرية على عادته . وخلع على محيي الدين بن أبي أصبع ، وجعله متحدثا على ديوان الوزارة وديوان الخاص على عادته كما كان .

وفي ذلك اليوم نزل حريم خاير بك من القلعة على وجوههم وهن في غاية الذل .

وفي يوم الأربعاء سابع عشره رسم الأمير سنان بتوسيط شخص من الاصباهية فوسطه في الرميلة . ونسب ذلك أنه خطف خرقة جوخ ثمنها مائة وعشرون دينارا ، فطلع صاحب الجوخة الى الأمير سنان وشكا له ذلك الشخص الاصباهي ، فقال له الأمير سنان : ألك عليه بينة بأنه خطف منك الخرقة الجوخ ؟ فقال له : نعم ، وأحضر له من شهد عليه بذلك ، فأرسل خلف الاصباهي وسأله عن ذلك فاعترف ، وأحضر الخرقة الجوخ ، وأعادها الى صاحبها ، ومضى بها . ثم انه رسم بتوسيط الاصباهي فوسطوه في الرميلة عند باب الميدان ، وهذا أول حكم الأمير سنان في القتل .

ثم ان الأمير سنان رسم بأن يعين جماعة من الانكشارية في بيت المحتسب يضبطون ما يتحصل من أموال الحسبة في كل يوم ، وجعل مثل ذلك في بيت الوالي ، وبيت محيي الدين بن أبي أصبع لكونه متحدثا في ديوان الوزارة والخاص ، وجعل مثل ذلك في ديوان الوزراء ، يضبطون ما يتحصل في كل يوم ، وجعل مثل ذلك على المكاساة الذين في بولات ومصر العتيقة ، وغير ذلك من القباض

وفي يوم الخميس ثامن عشره ، سافر الأمير اينال السيفي طراباي الذي ولى كشف الشرقية الى محل ولايته بها .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره ، حضر شخص من مماليك الأمير قايتباي الدوادار في بعض أشغال استاذة وعلى يده كتب ، فكان من مضمونها أن السلطان سليمان نازل على رودس ، وأنه يباب رودس يحاصرها أشد المحاصرة ، وقد قتل من العسكر العثماني ما لا يحصى من البندق الرصاص ومن المدافع التي عمالة نازلة في كل يوم من قلعة رودس ، وكلما هدم من سورها شيئا تبنيه الفرنج تحت الليل بالحجر الفص ، وقد أعياهم أمر الفرنج وقوة بأسهم ، وقد كتم موت من مات من الأمراء الجراكسة والمماليك .

وفي يوم السبت عشريه ، رسم الأمير سنان لمماليك ملاك الأمراء خاير بك أن ينزلوا من الطباق التي بالقلعة ، فشق ذلك عليهم ، فلما نزلوا من الطباق طلع اليها جماعة من الاصباهية ممن هم من جماعة الأمير سنان ، والانكشارية من عصابة خير الدين نائب القلعة .

ثم أشيع أنه وقع بين الأمير سنان والأمير خضر العثماني تشاجر بسبب النيابة ، فوقع الاتفاق على ما يرد من جواب السلطان على ذلك .

وفيه أشيع أن الأمير اينال السيفي ، الذي استقر كاشف الشرقية ، تحول عنها الى كشف الغربية ، وأعيد الأمير جان بك الى كشف الشرقية كما كان أولا .

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الثلاثاء ، فكان المتحدث على الديار المصرية يومئذ الأمير سنان بك العثماني ، نائبا على مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته ، وكان قضاة القضاة منفصلين عن القضاء كما تقدم ، فإم يطلع الى التهنئة بالشهر أحد .

وفي يوم السبت خامسه ، توفي الشيخ أمين الدين بن النجار خطيب جامع الغمري ، وكان ديناً خيراً من أهل العلم والدين ، من أعيان الشافعية .

وفي غريب موته توفي القاضي جلال الدين بن محمد بن بدر الدين بن محمد بن كسيل أحد نواب الشافعية ، وكان عالماً فاضلاً ، وله نظم جيد ، وكان من أعيان الشافعية .

وفي يوم الخميس عاشره ، كان عيد النحر ، فصنع الأمير سنان مدة حافلة بالقلعة لأجل الاصباهية والانكشارية والكميلية ، فتناهبوا تلك المدة على ملح البصر ، وقد ذاق الأمير سنان طعم المملكة ، ودخلت حالاتها في أسنانه .

وفي يوم الخميس سابع عشره ، نادى الأمير سنان بعد العصر في القاهرة بأن السلطان سليمان استقر بالوزير الأعظم مصطفى باشا نائباً على مصر عوضاً عن خير بك بحكم وفاته . وقد وصل ذلك النائب الى الاسكندرية ، ثم نادى في ذلك اليوم للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء وأن لا أحد يكسر كلاماً فيما لا يعنيه .

فلما تحقق الناس ذلك ، خرج المبشرون وأعيان الناس الى ملاقاته ذلك النائب ، وأشيع أن الأمير جانم الحمزاوى قادم صحبة النائب ، وأنه قد وصل الى قليوب ، فخرج غالب العسكر العثماني الى ملاقاته .

فلما كان يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل الوزير الأعظم مصطفى باشا الى ساحل بولاق . فلما أشيع ذلك نزل الأمير سنان من القلعة ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، وآتى اليهم الأمير خضر العثماني ، وآتى اليهم الكواخى أغوات الانكشارية ، وآتى الأمير أرزمك الناشف

أغات المماليك الجراكسة ، وسائر الاصباهية والانكشارية والكميلية قاطبة ، ووجهوا الى بولاق لأجل ملاقاته النائب مصطفى باشا .

فلما وصلوا الى بولاق ، احصروا للنائب فرساً من الخيول الخاص ، ولبس خلعة السلطان ، وهى بتناسيح على أحمر ، واحصروا لجماعته نحو أربعمائى فرس ، فركب النائب من هناك هو وجماعته ، ومشت الانكشارية قدامه والكميلية قاطبة يرمون بالنفوط ، وركب جميع الاصباهية وأمراؤهم ، وجميع الأمراء الجراكسة وأتباعهم ، وأعيان الناس قاطبة .

فدخل من باب البحر واستمر الى باب القنطرة ، فشق من سوق مرجوش ، ثم شق من القاهرة في موكب حافل مثل موكب ملك الأمراء خير بك ، وكان الأمير سنان عن يمينه ، والأمير جانم الحمزاوى عن يساره وعليه خلعة بتناسيح ذهب ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير خضر قدامه ، وعلى رأسه صنجق بقمع فضة ، ومن ورائه طبلان وزمران عثمانية ، وخلفه جماعة بطراير حمر بعصائب ذهب .

فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان ذلك اليوم مشهوداً .

وكانت صفتة أنه أبيض اللون ، عربى الوجه حليق اللحية ، ليس له غير شاربين أصفرين ، معتدل القامة ، وعليه حشمة وخضر ، وقيل هذا أعظم وزراء ابن عثمان ، حتى أطلق عليه أنه وزير الوزراء . واستمر في موكب حافل حتى شق من الرملة ، ودخل الى الميدان ، ثم صعد الى القلعة . وفيه يقول الناصري محمد بن قانصوه بن صادق :

لاتحزننى مصر على
موت الأمير خير بك

بل افرحى بمصطفى

ستتظريه خير بك

فلما قدم النائب مصطفى باشا الى مصر ، أشيع أن الأخبار وردت على السلطان سليمان بوفاة ملك الأمراء خاير بك وهو على رودس في يوم الخميس ثالث ذى الحجة . فلما تيقن موته خلع على وزيره الأعظم مصطفى باشا وقرره في نيابة مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته ، فاستقر في النيابة يوم السبت خامس ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وتسمعاة ، وكانت ولايته في الخامس وهو يوم نحس مستمر .

وكان السلطان على رودس ، فكانت مدة ولايته من حين ولى برودس ، الى أن دخل الى ثغر الاسكندرية ، تسعة عشر يوما ، وكانت مدة سفره في البحر أربعة أيام ، ودخل الى شاطيء بولاق يوم الأربعاء ثالث عشر ذى الحجة ، فتكون مدة ولايته من حين ولى برودس الى أن دخل الى الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما .

فلما طلع النائب مصطفى باشا الى القلعة يوم الأربعاء مد له الأمير سنان هناك مدة حافلة بالقلعة ، ثم مد له بساط الأنس وسلمه مفاتيح بيت المال ، ودفع له خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه لملك الأمراء .

ثم تحول الأمير سنان ، ونزل الى منزله بدر بن البابا ، فكانت مدة نيابته بالقاهرة الى أن حضر مصطفى باشا ثمانية وثلاثين يوما ، كأنها أضغاث أحلام .

وفي يوم الخميس رابع عشره ، نزل النائب مصطفى باشا الى الميدان ، وحضر الأمير سنان ، والأمير خضر ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، وحضرت الأغوات المتعلقة بالانكشارية ، وقرىء عليهم مرسوم السلطان الذى حضر على يد مصطفى

باشا ، فكانت براءة استهلال ذلك المرسوم : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما » . ثم نعت النائب مصطفى باشا بنعوت عظيمة ، بأنه وزير الوزراء ، وأمير الأمراء ، وما أشبه ذلك من النعوت الحسنة .

ثم رسم له بأن يعطى في كل سنة من خراج أراضى مصر مائة ألف دينار له وللماليكه وحاشيته . ومن مضمون ذلك المرسوم أنه لا يصرف لطائفة الانكشارية والاصباهية أكثر من أربعة أنصاف في كل يوم ، فشق عليهم ذلك . وكان ملك الأمراء خاير بك رتب لجماعة من الاصباهية أشرفيين في كل يوم جماعة ، وأشرفى كل يوم ، وكان في طائفة الانكشارية من كان له في كل يوم عشرون تصفا ، وشيء عشرة أنصاف ، وشيء ثمانية ، فبطل ذلك جميعه ، واستقرت على أربعة أنصاف كل يوم .

ومن مضمون المرسوم ، الوصية بالرعية قاطبة ، والماليك الجراكسة ، واصلاح المعاملة ، والنظر في أحوال الرعية والمسلمين بما فيه اصلاحهم . وكان من مضمونه أشياء كثيرة يطول شرحها . وفي ذلك اليوم طلع القضاة الأربعة يسلمون عليه ، فوجدوه بالأشرفية التى بالقلعة ، فلم يمكنوهم من الدخول اليه حتى شاوروه ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه فوجدوه ملقى على ظهره ، فلم يلتفت اليهم ، ولا قام لهم ، ولم يعدهم من البشر . ثم قال لهم على لسان الترجمان النائب : « يقول لكم لولا أنه ضعيف لقام لكم » . فقرءوا الفاتحة وانصرفوا .

وفي يوم الجمعة خامس عشره ، نزل النائب مصطفى باشا الى الميدان وجلس به ، وعرض موجود ملك الأمراء خاير بك من الجمال والخيول والبغال ، فوجد له من ذلك أشياء كثيرة لا تنحصر ، ثم طلع الى الحوش السلطاني وعرض ممالك

خاير بك ، ثم عرض الحواصل التى فيها الموجودات من قماش ونحاس وصينى وغير ذلك ، فوجد له أشياء كثيرة أعظم من موجود الأشرف قايتباى ، ووجد له من الذهب العين على ما قيل ستمائة ألف دينار . وقد حاز هذا الموجود العظيم فى هذه المدة اليسيرة .

وفى يوم السبت سادس عشره ، نزل مصطفى باشا الى الميدان وجلس به ، وحوله الأمير سنان والأمير خضر والأمير خير الدين نائب القلعة والأمير أرزمك الناشف وجماعة آخرون من الأمراء ، فأظهر التعاضد فى ذلك اليوم ، ومشى على طريقة الخنكار سليم شاه ، وصار كواحد منهم .

وكان النائب مصطفى هذا متزوجا بابنة الخنكار سليم شاه ، وهى أخت السلطان سليمان ، فوقف الوالى قدامه بالعصا ، وكذلك نقيب الجيش أيضا ، واصطفت قدامه الانكشارية والاصباهية والكملية وبأيديهم العصى . ثم ترادفت عليه القصص بحوائج الناس ، فلم يفهم منها شيئا ، وصار الترجمان يقول له معنى ما فى القصص بالتركى ، وهو كالخشبة . ثم رسم بالمناداة فى القاهرة بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن كل من ظلم من بعد ملك الأمراء خاير بك فعليه بالأبواب العالية .

ثم أشيع أنه نادى أن العمال يقبضون الخراج من الفلاحين ، النصف الفضة بنصفين ، ويقام لهم عند الحساب بنصفين وربيع ، ففرح الفلاحون بذلك . ثم من بعد ذلك تبين أن هذه الاشاعة ليس لها صحة ، وكل شئ على حكمه فى المعاملة .

ثم ان النائب قام وطلع الى القلعة ، وهذا أول ديوان فى أيامه ، وأول محاكماته بين الناس ، وأول جلوسه للناس عامة .

وفى يوم الأحد سابع عشره ، أشيع فى القاهرة أن القاضى بركات بن موسى قد انفصل عن الحسبة ،

واستقر بها شخص من العثمانية من أقارب النائب مصطفى يقال له قاسم باشا ، فاضطربت القاهرة بسبب ذلك ، وشق على الناس عزله

وفى ذلك اليوم أشيع أن النائب قد أخذ مهايح الحواصل كلها جسيعا التى فى القلعة من البوابين ، وسلمها لجماعة من الأروام من حاشيته ، وطرد البوابين والعلمان والركابة والبايسة ، وأبطل الشواش والركبدارية والفراشين وغللمان السلطان قاطبة ، حتى بطل الطباخين من المطبخ ، وأقام جماعة من الأروام عوضهم ، وأبطل المقرئين الذين كانوا يقرءون بالقلعة قاطبة ، حتى أبطل من كان بالقلعة من المؤذنين ، وجعل لجامع الجوش مؤذنا واحدا ، وأبطل جميع نظام القلعة الذى كانت عليه قديما ، ومشى على القانون العثمانى ، وهو أشأم قانون .

ثم انه شرع فى بيع موجودات ملك الأمراء خاير بك ، فطلب التجار قاطبة فطلعوا الى القلعة بسبب المبيع .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره ، طلع أعيان المباشرين الى القلعة ، وتوجهوا الى بيت الدفتردار ، فاجتمعوا هناك وشرعوا فى أمر تقسيط البلاد ، وأشيع أنهم قد أفردوا للنائب مصطفى باشا فى كل شهر ثمانية آلاف دينار ، ولما ليكه خاصة ، ولجماعته وحاشيته ومطبخه وانعاماته ، وغير ذلك مما حكم به الزمان الخبيث على الناس .

ثم ان المعلم الحلوانى العجمى الذى كان دكانه تجاه المدرسة الناصرية ، التى بين القصرين ، صار من خواص النائب مصطفى باشا ، وصار من المقرئين عنده ، ويتقاضى حوائجه وحوائج الناس عنده ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار المرجع اليه فى الأمور فى تلك الأيام ، حتى بقى كمنزلة الدوادار الكبير . فكان كما يقال فى المعنى :

ما كنت أحسب أن يمتد بي زمني
حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره ، قدم مبشر
الحجاج ، وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الضلاء
وموت الجمال موجود مع الحجاج ، ولم يكن لما
قالوه من أمر الفتن التي وقعت بمكة صحة ، والله
الحمد والشكر على ذلك .

وفي ذلك اليوم ، خلع مصطفى باشا على القاضي
شرف الدين الصغير ، وأقره على ما كان عليه من
التحدث على جهات الغربية ، وخلع على القاضي
فخر الدين بن عوض ، وأقره على ما كان عليه من
التحدث على جهات الصعيد ، وخلع على القاضي
بركات بن موسى ، والقاضي شرف الدين بن
عوض ، واستقر بهما في التحدث على جهات
الشرقية قاطبة كما كانا في الأول ، فنزلوا من
القلعة ، وشقوا من القاهرة في موكب حافل .

ثم أشيع أن القاضي بركات بن موسى لم يعد إلى
الحسبة ، فتشوش الناس لذلك .

وفي يوم الأربعاء سلخ الشهر ، ترشح امر
القاضي بركات بن موسى المحتسب لعوده إلى
الحسبة ، وقيل أنه رتب لذلك الشخص العثماني
أشرفيين كل يوم ، فنادى في القاهرة بعد العصر

حسبما رسم الزيني بركات بن موسى كل شيء على
حاله ، وأن السوق والمتسبين يحضرون باكر النهار
إلى بيت القاضي بركات بن موسى ناظر الحسبة
الشريفة ، وناظر الذخيرة الشريفة ، فهو على حاله
في الحسبة ، ففرح غالب الناس بذلك .

انتهى ما أوردناه في هذا التاريخ من الأخبار
العجيبة ، والوقائع الغريبة ، وقد اشتمل على أخبار
سبع دول كانت بالديار المصرية وقد تقدم ذكرها
من الأول إلى هنا . وقد وقع لي من المحاسن في
هذا التاريخ ما لم يقع لغيري من المؤرخين فيما
أوردوه من تواريخهم القديمة ، وقد أعان الله تعالى
على انتهائه على خير ، والله الحمد والمنة على ذلك
وفيه أقول :

اغفر لمنشيه واصفح عما جنى بالتهامي
أحسن لي في ابتداء يارب أحسن ختامي
وقولي أيضا :

تاريخنا بهجة المجالس يطرب من لفظه المجالس
سماعه المورى سرور يشرح صدور الكل عابس
وغيره أيضا :

ألفقه نعم الجلبس يس اذا تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفا أبدا ويقنع بالنظر





ՀԱՅԱՍՏԱՆԻ ՀԱՆՐԱՊԵՏՈՒԹՅԱՆ
ՆԱԽԱՐԱՐԱՆԻ ԳԻՏԱԿԱՆ
ԲԻԲԼԻՈԹԵԿԱ



0320343